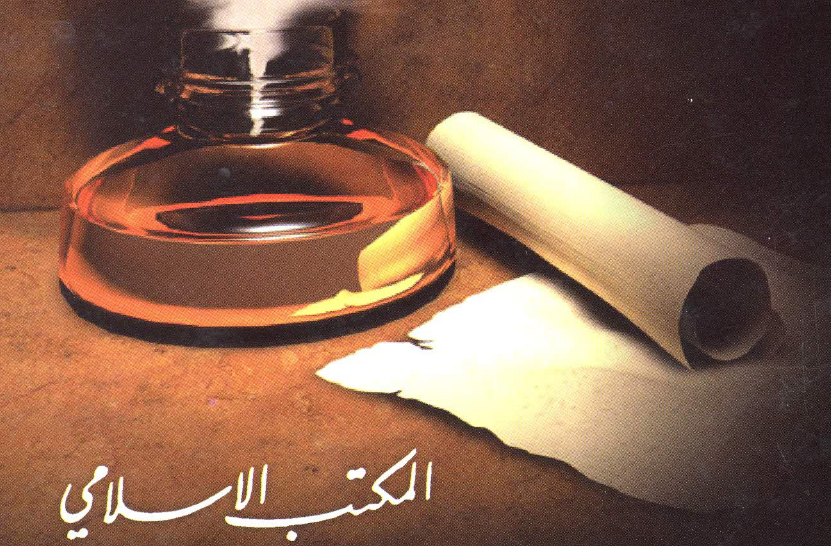
الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الأول



المكتب الإسلامي

الأعمال الفكرية الكاملة

عمر عبيد حسنه

المجلد الأول

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

يَقُولُ تَعَالَىٰ:

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(يوسف، ١٠٨)

فهرس المحتويات

□□□□□□

تقديم

بقلم: زهير الشاويش

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له؛ وأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، بعثه الله بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله.

وبعد:

فإنه ليسعدنا، في «المكتب الإسلامي»، أن نقوم بطباعة ونشر هٰذا العمل الفكري الكبير ليُضاف إلىٰ ما اضطلع به «المكتب» ـ منذ أكثر من نصف قرن ـ من إنجازات متميزة في خدمة العلوم الشرعية، من: حديث وتفسير وفقه وأصول، وما تفرد به تقريباً من خدمة للسنة النبوية، ونفي نوابت السوء عنها، وتنقية عقيدة التوحيد من البدع والخرافات والزيغ والضلال؛ هٰذا إضافة إلىٰ إصدارات عديدة في مجال السيرة والتاريخ والأدب والأنساب والثقافة الإسلامية، بما يحقق للمسلم استصحاب الماضي والتحقق بالمرجعية الشرعية، ويضمن له الاتصال بالعصر، واستشراف المستقبل، وتبصيره بكيفية التعامل معه علىٰ هدي من قيم الكتاب والسنة.

ولما اطلعت علىٰ بعض ما جاء في هٰذا العمل الثقافي

المتميز، رأيت أفكاراً مهمة ومتجددة، وآراء نضيجة ومؤصلة شرعياً، ومراجعات منصفة، وإشارات دقيقة لمواطن الخلل، الذي يعتري الحياة الإسلامية، وإحياء حسبة المناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ لا نقع في علل من كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، حيث كان منطلق هٰذه المراجعات قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ولا غرابة، فإن الأخ الكبير قدراً ومكانة (وهو أصغر سناً مني) قد يسّر الله له العناية الكبرىٰ في «مجلة حضارة الإسلام»، التي أنشأها أستاذنا الدكتور الشيخ مصطفىٰ السباعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ورأس تحريرها أخي الدكتور الشيخ محمد أديب الصالح، وكان مدير تحريرها أخي الأستاذ عمر عبيد حسنه؛ ثم انفرد بإصدار «مجلة الأمة» القطرية الغراء، كتب الله لها العودة.

وتولىٰ العناية بمكتبة العالم الجليل الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، حاكم قطر الأسبق، الذي تشرفت بالعمل معه عشر سنوات بالمكتبة والطباعة والمشورة، تغمده الله برحمته.

كما اضطلع أخي عمر بالإشراف علىٰ جائزة «الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني» واختيار موضوعاتها وتصميم محاورها، إضافة إلىٰ رئاسة تحرير سلسلة «كتاب الأمة».

وما لا أعلم من نشاطات أخرىٰ له، لا أجدها، ولا أطلع عليها، إلا بعد صدورها، يحضرها لي ابني بلال ـ وفقه الله ـ (مطبوعة ومنفذة) وخالية مما اعتاده الناس في المطبوعات من إهمال وأغلاط، ولٰكن فيها زوائد وحواشي تحوي كل فائدة وعلم نافع (زاده الله تواضعاً).

وإنني وجدتُ في هٰذه «**الأعمال الفكرية الكاملة**» ما يكفي

العالِم المطلع، والطالب المستفيد، والمؤمن المتقد قلبُه بالإيمان؛ فقد فتحتْ ملف الكثير من القضايا الملتبسة، وحاولتْ تقديم إضاءات نافعة ومفيدة حولها.

وقد رافقتْ هٰذه «الأعمال» مسيرة حركة اليقظة الإسلامية المعاصرة، وساهمتْ إلىٰ حدٍّ بعيد بتسديد خطواتها وجبْر عثراتها وتبصيرها بأبعاد رسالتها.

أطال الله عمر أخي العلامة الأستاذ عمر عبيد حسنه، ويسر له الخير حيث كان.

وبارك في أهله وأولاده الذين وجدتُ فيهم، بحمد الله، ما وجدته في والدهم من دأب علىٰ العلم ونشره وتقديم النافع للناس، والله سبحانه قدَّرهم علىٰ ذلك.

أسأل الله أن يكتب لهٰذا العمل القبول، وأن ينفع به.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

غرة شوال ١٤٣٢هجرية



مقدمة

الأعمال الفكرية الكاملة

رؤى وملامح في المنهج[1]

- كانت الولادة (عام ١٩٣٥م - سوريا) ضمن ظروف سياسية واجتماعية مضطربة وملفتة، حيث كانت سوريا تعاني من الاستعمار الفرنسي ومن بعده الإنكليزي، وما أحدثه ذٰلك من إصاباتٍ وشروخ في النسيج الاجتماعي للبلد وتأثيرٍ في الممارسة السياسية، الأمر الذي أدىٰ إلىٰ صراع فكري وثقافي وسياسي أعقبه تبلور الاتجاهات الفكرية والسياسية. وكان من أبرز الأحداث التي رافقت بلوغ سن التمييز، وبدء تحصيل المعرفة بشكل نظامي، قيام إسرائيل، وآثار ذٰلك علىٰ مختلف الأصعدة، التعليمية والإعلامية والاقتصادية والسياسية، حيث كان لسوريا دور مميز في استقبال الفدائيين من كل مكان، وجيش الإنقاذ، وإقامة المعسكرات لهم. وكانت أخبار فلسطين المتلاحقة، وتدفق اللاجئين، هي الشغل الشاغل للمساحات الفكرية والسياسية والاجتماعية المتعددة.

- كانت الأسرة ذات كفاية مالية، متوسطة الدخل، أفرادها درسوا في مجالات وتخصصات مختلفة.

- أما مراحل الدراسة فكانت مثلها مثل سائر المراحل التي يعيشها كافة

---

(١) يعود أصل هٰذه الملامح إلىٰ مساهمة كتبت سنة ١٩٩٦م بطلب من: الموسوعة الصحفية العربية (أعلام الصحافة في الوطن العربي)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو).

الناس، ولعل الصراعات الفكرية والحزبية خلال المرحلة الثانوية والجامعية كان لها أثر كبير في صناعة التوجه الإسلامي، الذي غلب عليه الخيار أكثر من العامل الوراثي، علىٰ الرغم من وجوده وتوفره.

وكان للاشتغال بالتدريس أثره الكبير في التعرف علىٰ القابليات البشرية، ومواصفات خطابها، بتوجهاتها المتعددة، علىٰ اعتبار أن الطلبة يمثلون محصلة الاتجاهات الاجتماعية المختلفة.. وإمكانية التعامل معهم تمكّن من معرفة تكوين المجتمع وآليات التعامل معه.

- يضاف إلىٰ ذٰلك المشاركة بتقويم الكتب التعليمية المدرسية وتطويرها والنظر في مدىٰ كفاياتها التعليمية والمعرفية، وملائمتها لسوية الدارسين ومستواهم الحضاري والثقافي، حيث لم يقتصر الأمر علىٰ الكتب الدراسية بسورية، وإنما امتد للمشاركة في الإعداد والمراجعة لكتب المراحل التعليمية الثلاث بوزارة التربية والتعليم في قطر، بعد الهجرة إليها، إضافة إلىٰ المشاركة بوضع استراتيجية لرعاية الشباب في دولة قطر، من خلال الهيئة العامة للشباب والرياضة.

- كما أن مجموعة الحوارات التي أجريت لمجلة «الأمة» مع معظم المفكرين ورموز العمل الإسلامي والتوجهات الفكرية الإسلامية ساهمت بتوفير الرؤية الشاملة والمبكرة لواقع العمل الإسلامي، ومكّنت من اكتشاف جوانب الخلل، التي يعاني منها، وتحققت إلىٰ حدٍ بعيد بالعبرة التي تمكّن من العبور السليم للمستقبل.

لقد بدأت المسيرة في عام ١٩٦٧م تقريباً، بعد الأبعاد السلبية التي تركتها هزيمة ١٩٦٧م في المجتمع، وما شاع من فلسفات ومسوغات الهزيمة التي حاول الكثير إشاعته، علىٰ ما فيه من المغالطات والزيف، إضافة إلىٰ مجموعة الكتب، التي قُذِف بها إلىٰ الساحة في قراءة النكبة، من خلال أبجديات متنوعة ومرجعيات مختلفة، والتخويف من الوعي الإسلامي ومحاولة استرداد فكرة الجهاد، التي يمكن أن تعقب الهزيمة كبديل عن الأوضاع التي فقدت مشروعيتها.

من هنا بدأ التفكير بأهمية ودور المنابر الفكرية والإعلامية في التشكيل الثقافي، وبناء الرأي العام، وحمايته من السقوط والانكسار، فكانت فكرة التوجه إلىٰ المنابر الإعلامية، وفي مقدمتها الكلمة المكتوبة في الصحف والدوريات، نظراً لمساحة انتشارها وقوة تأثيرها علىٰ شرائح متعددة في المجتمع، ولأنها الأبقىٰ. فكان التوجه ابتداءً إلىٰ مجلة (حضارة الإسلام) التي كانت تصدر شهرياً في دمشق (سوريا)، للمساهمة والمشاركة بالكتابة في تقويم ما ينشر فيها، من خلال رؤية ثقافية للأمور، التي تعتلج في داخل المجتمع في ضوء مرجعية القيم الإسلامية، والتعامل معها بأوعية صحفية.

ويمكن تحديد خمس مراحل بارزة في (المشروع الفكري):

أولاً: مرحلة مجلة «حضارة الإسلام».

ثانياً: مرحلة مجلة «الأمة».

ثالثاً: مرحلة سلسلة «كتاب الأمة».

رابعاً: مرحلة «جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية».

خامساً: مرحلة سلسلة «المشروعات الثقافية الجماعية».

إضافة إلىٰ بعض المساهمات المنتظمة في الصحافة اليومية.

ـ المرحلة الأولىٰ: مجلة «حضارة الإسلام»:

بدأت بدمشق، بفضل الدكتور مصطفىٰ السباعي رحمه الله، مؤسس مجلة حضارة الإسلام، الذي كان يشعر من خلال تجربته في جريدة المنار الدمشقية واشتغاله بالشأن السياسي، إلىٰ جانب العطاء العلمي الأكاديمي، بأهمية هٰذه المنابر ودورها في التأثير وتشكيل الرأي العام، وكيف أن العلماء سيبقون بعيدين عن المجتمع والتأثير فيه إذا لم يرتادوا هٰذه المنابر، وكان يشجع كل من يعرفه علىٰ ضرورة الانخراط في المجتمع، ويعمل علىٰ إزالة الحواجز النفسية التي يمكن أن تعتبر من المعوقات، ويدفع إلىٰ الممارسة التي تحقق الخبرة الميدانية.

لقد كان التعرف علىٰ الأستاذ السباعي من خلال محاضراته بجامعة دمشق، في كلية الحقوق والشريعة، وافتتاحياته اليومية بجريدة المنار، وافتتاحية مجلة حضارة الإسلام، التي كان يرأس تحريرها. إضافة إلىٰ الصلة الشخصية، من خلال أستاذيته في كلية الشريعة، والزيارات الشخصية المنتظمة أثناء مرضه ومساعدته في إعادة مراجعة كتاب «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وتحضيره للطباعة.

هٰذا جانب من جوانب التأثير، أما الجانب الآخر، فكان من خلال أستاذنا الدكتور محمد أديب الصالح، أمد الله بعمره، رفيق الدرب الطويل، الذي كان العمل معه لسنوات، في مجلة حضارة الإسلام التي تولىٰ رئاسة تحريرها بعد الدكتور مصطفىٰ السباعي.

- المرحلة الثانية «مجلة الأمة»:

دامت المرحلة الأولىٰ من عام ١٩٦٧م وحتىٰ عام ١٩٨٠م، حيث بدأت المرحلة الثانية بتأسيس وإدارة تحرير مجلة «الأمة» القطرية، التي كانت تصدر شهرياً عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر؛ استمرت ست سنوات، من المحرم ١٤٠١هـ (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨١م) وحتىٰ ذي الحجة ١٤٠٦هـ (آب/أغسطس ١٩٨٦م).

ولهٰذه المرحلة الثانية خصائصها المتميزة، التي يمكن أن توضح الرؤية الصحفية التي انتهت إليها، حيث يمكن القول: إن التجربة نضجت إلىٰ حد كبير، وتحددت معالمها، لذٰلك قد يكون مفيداً التوقف أكثر عندها، ذٰلك أن (مجلة الأمة)، تعتبر مدرسة رائدة في مجال الصحافة الثقافية والفكرية، حيث إنها عملت من خلال أعدادها الإثنين والسبعين، علىٰ رسم وبلورة معالم منهج متميز في الطرح والتناول والإخراج الفني، ينسجم مع حاجة الأمة لقراءة الواقع، وكيفية التعامل معه، وإيجاد الحلول المناسبة لمشكلاته.

كما تعتبر محاولة جريئة وجادة لاقتحام أوعية صحفية، برؤية إسلامية جديدة، لم تألفها الصحافة الإسلامية والصفحات الدينية، التي كانت في

معظمها إما صحافة مقال، أو عبارة عن كتاب تحت عنوان مجلة.

وقد حرصت «الأمة» منذ بدء صدورها في غرة المحرم من عام ١٤٠١هـ علىٰ تحديد المعالم البارزة لمنهجها، ووسائل تحقيقه، حيث أوضحت في افتتاحية العدد الأول (من المحرر) أن:

«الأمة هي مجلة جميع المسلمين، في جميع بلاد العالم، لأننا نرىٰ أن الأمة بعقيدتها ومقوماتها الفكرية، وليس بعروقها وألوانها وحدودها الجغرافية.. فالأمة بأفكارها ودينها، وليست بأشيائها وطينها.

من هٰذا يتحدد واجب مجلة «الأمة» بالعمل علىٰ جمع كلمة المسلمين، وتوحيد صفوفهم، ذٰلك أن التفرقة والتنازع والتنابز واختلاف الكلمة من أخطر الأمراض التي تعصف بكيان المسلمين، وتنهك قواهم، وتساهم بفشلهم.

ووسيلتنا إلىٰ هٰذه الوحدة، البعد كل البعد عن إثارة الأمور الخلافية، والولع بتتبع الخلافيات، والاشتغال بالفروع دون الأصول، والنظرة الجزئية الذرية عن النظرة الكلية الشاملة.

والبعد أيضاً عن طرح المشكلات التاريخية، التي أُشبعت درساً وبحثاً، وأُنضجت حتىٰ احترقت، فقد انتهت هٰذه المشكلات، وانتهىٰ زمانها وأشخاصها، ولا زالت تستنزف كثيراً من الطاقات، وتنهك القوىٰ، وتضيع الفرص، وانتهت ولم يبق لها سوىٰ القيمة التاريخية، إن صح التعبير.

والحرص كل الحرص علىٰ أن تكون الْمُعَالِج لمشكلات المسلمين، وتحدياتهم الحاضرة والمستقبلة، التي لم تسبق معالجتها، أو التي ما زالت تحتاج إلىٰ أضواء إضافية تسلط علىٰ بعض جوانبها الغامضة.

وأن تكون المعالجة لمشكلات المسلمين، وتحدياتهم الثقافية والحضارية، علىٰ ضوء الإسلام العظيم، أن تأخذ بيد القارئ المسلم إلىٰ التفسير الإسلامي للحياة بجوانبها المختلفة، والقدرة علىٰ تصنيف هٰذه المشكلات والتحديات، وتقديم الأهم علىٰ المهم. «**فالأمة** نريد لها أن تكون

مجلة دعوة لا منبر دعاية»[1].

وتوافق صدور العدد الأول في مطلع القرن الخامس عشر الهجري، وذكرىٰ هجرة الرسول ﷺ، مع رغبة أكيدة في أن تستطيع «الأمة» المساهمة بأن تجدد للمسلمين أمر دينهم، وتعيدهم إلىٰ الحياة الإسلامية، وهجر ما نهىٰ الله عنه، مدركة أن بلوغ المدىٰ المطلوب في ذٰلك، لا يكون إلا «بالتعاون بين الكتّاب والمفكرين الرواد، والقراء رصيد المجلة الحقيقي، وهم الأقدر علىٰ تحديد مشكلاتهم، ومن ثم احتياجاتهم، وذٰلك بإدامة الصلة والمراسلة لتسديد الطريق»[2].

لقد كان النهج الذي اختارته «الأمة» لتحقيق أهدافها: «الحكمة بكل أبعادها، والكلمة الطيبة بكل عطائها، والقول اللين، والموعظة الحسنة»، ملتزمة بما عاهدت الله عليه في العدد الأول من تحري الحق، وقوله، «فإن لم نستطع أن نقول الحق، نقول بعضه، فإن لم نستطع فلا نقول الباطل»[3].

ـ منطلقات:

انطلقت «الأمة» لأداء رسالتها، من بعض المعاني التي يأتي في مقدمتها:

١ ـ الإيمان بأن الكلمة والثقافة، هي السبيل الأجدىٰ للتغيير علىٰ المدىٰ البعيد، وأن التحصين الثقافي والوعي الحضاري، هو الأولىٰ بالاهتمام.

٢ ـ الإدراك الواعي لدور الصحافة في إعادة التشكيل الثقافي، والبناء الفكري، وأهمية الإفادة من التقنيات الإعلامية الحديثة، ومحاولة ضبط الجوانب الفنية (الإخراج الصحفي) بالضوابط الشرعية.

---

(١) الأمة، افتتاحية العدد الأول، المحرم ١٤٠١هـ، نوفمبر ١٩٨٠م، ص١.

(٢) العدد الأول، ص١.

(٣) افتتاحية العدد الأول.

- **الأهداف**:

عملت «الأمة» انطلاقاً من هٰذه المعاني، علىٰ تحقيق جملة أهداف، لعل من أبرزها:

١ - رؤية قضايا الأمة المختلفة، بمنهج شامل مستمد من القيم الإسلامية، مستصحب المعرفة والتجربة الإنسانية وعدم الاقتصار علىٰ الرؤية الدينية التقليدية.

٢ - النظر للمشكلات المعاصرة، من خلال القيم الشرعية، في الكتاب والسنة والسيرة، والتعامل مع القيم الشرعية واستلهامها من خلال المشكلات المعاصرة.

٣ - محاولة قراءة المسيرة الإسلامية، وتحديد مواطن الخلل، وبيان أسباب القصور.

٤ - التعامل مع الواقع من خلال الإمكانات المتوفرة والاستطاعات الممكنة، وعدم الإغراق في الأمنيات.

٥ - التشجيع علىٰ الاجتهاد الفكري، وإعمال العقل، في ضوء هدايات وضوابط الوحي.

٦ - محاولة تكريس مبدأ الحوار، والتدريب عليه، والمثاقفة، والمفاكرة، بطرح قضايا للمناقشة.

٧ - التأكيد علىٰ توسيع دائرة التفاهم، وإزالة الحواجز، وتحويل الاختلاف والتفرق إلىٰ تعدد وتكامل.

٨ - الاعتراف «بالآخر»، ووضع دليل لكيفية التعامل معه.

٩ - محاولة إبصار المستقبل، من خلال السنن، واستشراف الماضي (التاريخ)، وقراءة الحاضر.

١٠ - العمل علىٰ إحياء فكرة الفروض الكفائية كسبيل للنهوض، وتوفير الاختصاصات الغائبة عن الحياة الإسلامية.

١١ ـ التأسيس والتأصيل لمنهج التقويم والمراجعة وبناء الوعي بالمقاصد الشرعية وبناء العقل الناقد.

ـ مميزات عامة:

ومن خلال هٰذه الأهداف، وهٰذا المنهج، الذي اختارته لنفسها، يمكن القول: إن «الأمة» تميزت بما يلي:

١ ـ لم تكن حكراً علىٰ مدرسة معينة من مدارس الفكر والعمل الإسلامي، أو تعبيراً عن وجهة نظر معينة، وإنما كانت مجلة الجميع.. وقد برز ذٰلك بوضوح من خلال الحوارات واللقاءات التي أجرتها مع رموز العمل الإسلامي، علىٰ اختلاف مدارسه وتصوراته.

٢ ـ لم تقتصر علىٰ استكتاب الأقلام التي يمكن القول: إنها أصبحت مستهلكة في مجال الإعلام المنتسب للقضية الإسلامية، وإنما وُفِّقت لاستنبات وطرح الكثير من الأقلام الجديدة والشابة، التي تميزت بالعمق في الطرح والتناول والإدراك الجيد للواقع ومشكلاته.. وقد برزت هٰذه الأقلام في أبواب المجلة المختلفة، فضلاً عن باب «أقلام شابة».

٣ ـ تجاوزت النمط التقليدي (في الشكل والمضمون) الذي درجت عليه المجلات الأخرىٰ، التي تصدر عن جهات رسمية، وذٰلك علىٰ الرغم من صدورها عن إدارة حكومية.

٤ ـ اهتمت كثيراً بالمرأة، ككاتبة ومفكرة، أسهمت بقلمها في مختلف أبواب المجلة، وكقضية أفردت لها مساحة ثابتة في كل عدد تحت عنوان «الأسرة المسلمة».

٥ ـ نأت بنفسها عن أوحال السياسة، بالمعنىٰ الشائع والمستخدم في الإعلام اليوم لمفهوم (سياسة)، واختارت العمل من خلال المسألة الثقافية، باعتبارها الأبقىٰ والأبعد مدىٰ.

٦ ـ ومثلما أنها لم تكن مجلة مدرسة معينة من مدارس الفكر والعمل

الإسلامي، لم تكن كذلك حكراً على إسهامات بلد بعينه، فكان كُتَّابها من مختلف بلدان المشرق العربي، والمغرب العربي كذلك، ومن بلدان أوربا، وأمريكا، وآسيا وغيرها.

٧ ـ أولت قضايا الأقليات المسلمة، ومشكلات المسلمين في مجتمع الاغتراب، أهمية خاصة، ولم تكتف في ذلك بتقارير المراسلين، وإنما وصلت بنفسها من خلال محرريها إلى حيث توجد هذه الأقليات.

٨ ـ ساهمت كثيراً في مجال التعريف بمؤسسات العمل الإسلامي على مستوى العالم، من خلال الاستطلاعات والحوارات وغيرها.

٩ ـ ابتعدت عن أساليب الإثارة، وصور الحماس غير المتعقل.

١٠ ـ خلت تقريباً من الأخطاء الطباعية واللغوية.

١١ ـ كانت تبدو كلها، من حيث المضمون والأسلوب، كنسيج واحد، ونتاج عقل واحد، على الرغم من تعدد كتابها ومحرريها.

١٢ ـ حرصت على تلمس ردود فعل القراء على ما ينشر، ومعرفة آرائهم، باعتبارهم رصيد المجلة الحقيقي، والأقدر على تحديد مشكلاتهم، ومن ثم احتياجاتهم، وذلك عبر باب (بريد القراء)، الذي يعتبر استطلاع رأي مستمر، كما قامت بإجراء استبيانين للغرض نفسه.

ـ المرحلة الثالثة: سلسلة «كتاب الأمة»:

أما المرحلة الثالثة والتي ما تزال مستمرة، فهي الإشراف على إصدار سلسلة «كتاب الأمة»، وهي سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن إدارة البحوث والدراسات (مركز البحوث والدراسات سابقاً) بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، تُعْنىٰ بالمساهمة في استرداد شخصية المسلم المعاصر المتوازن، الذي يعيش التوحيد الحقيقي والانسجام العملي، بين معارف وهدايات الوحي المعصوم في الكتاب والسنة، ومدارك ومكتسبات العقل، أو بين صحيح المنقول، وصريح المعقول، كما يقول

الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ويتخلص من الثنائية وألوان الشرك، الذي يؤدي إلىٰ الانشطار الثقافي والمعرفي، الذي كان ولا يزال وراء التمزق والضلال الثقافي، للوصول إلىٰ إعادة إخراج الأمة المسلمة.. ومن ثم المساهمة في العودة بالأمة إلىٰ ينابيع التلقي الأولىٰ، في الكتاب والسنة، ولتأصيل الرؤية الشرعية، والتحقق بالمرجعية من خلال إدراك أبعاد فقه القرن المشهود له بالخيرية، في محاولة لإعادة الإحياء والبناء، وتحقيق الوقاية الحضارية، التي تحمي القيم الإسلامية من الاستلاب الحضاري، والارتهان الثقافي، وتنفي البدع الفكرية والسلوكية، ونوابت السوء، وتغلق منافذ الشيطان، ومعابر الغزو الفكري، والتحصن بمعرفة الوحي، حتىٰ يثبت أصلها في الحاضر، ويمتد فرعها في المستقبل، بمأمن من انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، وبناء النخبة، التي تمثل الطائفة القائمة علىٰ الحق، الذي لا يضرها من خالفها، حتىٰ يأتي أمر الله وهي علىٰ ذٰلك، لتكون دليل السائرين، وملاذ الحائرين، وبصيرة القادمين، وخميرة الناهضين، ووعاء النقل الثقافي، ومنارة التدين السليم.

إضافة إلىٰ الإشراف علىٰ السلسلة، المساهمة في إطارها بإصدار كتابين: «نظرات في مسيرة العمل الإسلامي» (كتاب الأمة رقم ٨)، «فقه الدعوة.. ملامح وآفاق» (جزءان، كتاب الأمة رقم ١٨، ١٩)؛ ولعل الإصدار المبكر لهٰذين الكتابين يمثل الرؤية المنهجية للسلسلة.

ومن أبرز ملامح هٰذه المرحلة، التقديم لكتب السلسلة جميعها، بمقدمات نوعية تناسب موضوع الكتاب، وتعمق بعض المفاهيم الثقافية، وتحاول قراءة المشكلات المعاصرة من خلال القيم الإسلامية في الكتاب والسنة.. حيث كان الكثير من الصحف العربية، تعيد نشر فقرات كثيرة من هٰذه التقديمات في صفحاتها الفكرية والثقافية والدينية.

ـ المرحلة الرابعة: «جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية»:

وأما المرحلة الرابعة والمستمرة أيضاً، فهي التأسيس لجائزة «الشيخ

علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية» والإشراف عليها، والمساهمة في اختيار موضوعاتها وتصميم محاورها، من خلال موقع رئاسة لجنتها.

وهي جائزة بحثية محكّمة في مجال «العلوم الشرعية والفكر الإسلامي»، تطرح كل سنتين (طرح موضوعها الأول في عام ١٩٩٧م) وتصدر عن إدارة البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، إسهامًا في تشجيع البحث العلمي، والعمل علىٰ تنميتها، والسعي إلىٰ تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة، قادر علىٰ البحث العلمي والموضوعي وإعداد البحوث المعمقة، كمكون لا بد منه للعقل المسلم، وإخضاع ذٰلك للتحكيم الأكاديمي.

وتتميز الجائزة بأنها تشترط في البحوث المقدمة، أن تكون قد أُعدّت خصيصًا لها، وألا تكون جزءًا من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه علىٰ درجة علمية جامعية؛ وأن تتوفر في البحوث المقدمة خصائص البحث العلمي، من حيث الإطار النظري للبحث، والمنهج العلمي، والإحاطة والشمولية، والجدة والابتكار؛ حيث يحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشفت أن البحث الفائز قد نشر سابقًا، أو قدم إلىٰ جهة أخرىٰ، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوىٰ المطلوب، كما حدث في موضوعها لسنتها الخامسة: «الحوار الحضاري: شروطه، وآدابه وثمراته».

وتهدف الجائزة إلىٰ:

١ ـ تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة.

٢ ـ العمل علىٰ استيعاب التراث والإفادة منه لبناء الحاضر ورؤية المستقبل.

٣ ـ معالجة قضايا الحياة المعاصرة في ضوء القيم الإسلامية.

٤ ـ المساهمة في بناء النخبة (الطائفة القائمة علىٰ الحق)، التي تتحقق بالمرجعية الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة، لتشكل الأنموذج التطبيقي

العملي لفهم الدين، والدليل الممتد على خلود الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل زمان ومكان.

٥ ـ تشجيع البحث العلمي ودراسة حركات التغيير والنهوض الإسلامي، وتقويم نتائجها، وبيان أسباب القصور ومواطن التقصير.

٦ ـ تأصيل الرؤية الشرعية للقضايا والمشكلات المعاصرة، والعودة بالأمة إلىٰ ينابيع التلقي الأولىٰ في الكتاب والسنة، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية.

٧ ـ المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، وتنقية واقع التدين مما شابه من بدع وانحرافات.

٨ ـ معالجة أسباب الغلو والتشدد والانتحال الباطل، والعودة بالأمة إلىٰ منهج الوسطية والاعتدال.

٩ ـ إعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر في ضوء القيم الإسلامية، وتبصيره بالرسالة المنوطة به، وتأهيله لتحقيق متطلبات الاستخلاف، وشحذ فاعليته ليكون قادراً علىٰ استثمار طاقاته الروحية والفكرية والمادية في ضوء هدايات الوحي واجتهادات العقل، وفي ظل الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة.

١٠ ـ العمل علىٰ إخراج الأمة من جديد، وإنقاذها من حالة الفرقة والتخلف والوهن، وتأهيلها لاسترداد دورها المنوط بها، في الشهادة والقيادة وإلحاق الرحمة بالعالمين.

وتحرص الجائزة علىٰ أن تتناول موضوعاتها جميع المجالات الثقافية والفكرية والإنسانية، وأن لا تتمحور حول موضوعات شرعية تقليدية، بالمعنىٰ المتداول لذٰلك، يعاد ويزاد فيها، وإنما هي ملفات جديدة متجددة مفتوحة، يتم استدعاؤها إلىٰ ساحة الاهتمام، كما يتجلىٰ ذٰلك في موضوعاتها التي طرحتها، ومن أبرزها، حتىٰ تاريخ إعداد هٰذه (الأعمال الفكرية) للنشر:

الوقف ودوره في التنمية؛ البيئة من منظور إسلامي؛ الأسرة المسلمة في العالم المعاصر؛ إشكالية التعليم في العالم الإسلامي؛ الحوار الحضاري: شروطه، وآدابه وثمراته... دور التراث في بناء الحاضر وإبصار المستقبل؛ الشورىٰ ومعاودة إخراج الأمة؛ الحوار منهجاً وثقافة؛ حقوق الإنسان مقاصد الشريعة؛ فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري؛ فقه التغيير وبناء الأمة الوسط.

ـ المرحلة الخامسة: سلسلة «المشروعات الثقافية الجماعية»:

وأما المرحلة الخامسة وهي ما تزال مستمرة أيضاً، فهي التأسيس والإشراف علىٰ سلسلة «المشروعات الثقافية الجماعية»، وهي «سلسلة دورية»، تصدر عن إدارة البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر، يساهم فيها نخبة من الكتاب والباحثين والمفكرين، لبحث إشكالية فكرية أو قضية ثقافية معاصرة، كل من زاويته، يُختارون من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية متنوعة، إضافة إلىٰ نخبة من غير المسلمين، ومن المسلمين الذين يعيشون ضمن منظومة الثقافات المعاصرة الغربية ومؤسساتها؛ في محاولة لبناء العقل الجمعي، أو الجماعي، من خلال إقامة ندوات وتنظيم حوارات علىٰ الورق، وإزالة الحواجز النفسية والفكرية بين الباحثين.

وتتمحور السلسلة حول عدد من الموضوعات المهمة، التي لا يحيط بها كتاب ولا كاتب، وإنما تعتبر من الملفات المفتوحة والقضايا الدينامية الحية المتحركة والمتغيرة والمتطورة، والمفاصل الاجتماعية والسياسية الرئيسة، التي تتطلب الكثير من النظر والتأمل، والبصيرة النافذة، والانطلاق من مرجعية واضحة، وامتلاك الأدوات البحثية المناسبة، ومحاولة الإحاطة بالموضوع من جوانبه المتعددة، وأحياناً المتباينة، من قبل متخصصين وخبراء، وعدم الخلط بين الأمنيات والإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، وحسن التقدير، والحذر ـ ما أمكن ـ من الوقوع في فخاخ الفكر الدفاعي؛ لأنه يمثل لوناً من رد الفعل والاستلاب الثقافي الخفي، والتوقِّي من

الإثارات والانفعالات الخطابية الحماسية والأصوات العالية، التي ما تزال تغشىٰ الكثير من أنشطة المسلمين وندواتهم وأعمالهم الفكرية.

صدر العدد الأول منها في جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢١هـ/ أيلول (سبتمبر)٢٠٠٠م.

وتحرص السلسلة علىٰ ما يأتي:

١ - طرح عدد من الموضوعات، التي تعتبر من الإشكاليات المركبة والملفات المفتوحة والقضايا (الدينامية) الحية المتغيرة والمتطورة.

٢ - محاولة الإحاطة بالموضوع المطروح من جوانبه المتعددة، وأحياناً المتباينة، من قبل تخصصات وخبرات متنوعة.

٣ - الحرص علىٰ المعالجة الموضوعية المنهجية بعيداً عن الانفعالات الحماسية والأصوات العالية، التي ما تزال تغشىٰ الكثير من أعمالنا الفكرية.

٤ - التدريب علىٰ تبادل الرأي والمثاقفة وبناء العقل الجمعي.

٥ - التأصيل والتأسيس للأعمال الجماعية وبناء القاعدة الثقافية المشتركة.

٦ - المساهمة في التدريب علىٰ التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية.

٧ - التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، وتحقيق الوعي الحضاري والحصانة الثقافية.

٨ - إحياء المنهج السنني، وإشعار الأمة بأهمية التوغل في التاريخ، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات، وإدراك السنن والقوانين الاجتماعية التي تحكم الحياة والأحياء.

٩ - التعريف بأولويات مشروع النهوض علىٰ مستوىٰ الأمة، وفتح آفاق الاجتهاد الفكري والتفكير المنهجي لمستقبل العمل الإسلامي، وبيان أبعاد التكليف الشرعي في ضوء فقه الاستطاعة.

١٠ ـ بيان رسالة المسلم في كيفية التعامل مع تحديات العولمة والإفادة من فرصها.

١١ ـ الإسهام في معالجة أزمة الحضارة المعاصرة، والتأكيد علىٰ حاجتها إلىٰ الهدي الإلٰهي.

١٢ ـ إحياء مفهوم فروض الكفاية، وبيان أهمية التخصص في شعب المعرفة المتنوعة.

وصدر منها حتىٰ الآن ثمانية كتب: الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد؛ البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية؛ رسالة المسلم في حقبة العولمة؛ مسلمو الغرب بعد أحداث سبتمبر؛ الخطاب الإسلامي المعاصر.. دعوة للمراجعة وإعادة التقويم؛ ظاهرة التطرف والعنف: من مواجهة الآثار.. إلىٰ دراسة الأسباب؛ إشكالية التنمية ووسائل النهوض.. رؤية في الإصلاح؛ رسالة القرآن.



عقبات علىٰ طريق المسيرة

لا تخلو أي مرحلة من عراقيل ومعوقات.. أما بالنسبة للمرحلة الأولىٰ، فيمكن أن تعتبر من المعوقات الأساس، غياب الكوادر الصحفية الإسلامية المؤهلة فكرياً وصحفياً، للمساهمة في إنجاح العمل الصحفي، ضمن مواصفات معينة، حيث كان يستدرك العمل في معظمه من متطوعين، لا يمتلك معظمهم التخصص المهني والعلمي والخبرة العملية المطلوبة لهٰذه المهمة؛ لأن الإسلاميين بشكل عام لم يقدروا دور الصحافة والإعلام حق قدره في ذٰلك الوقت، الأمر الذي كان يعرِّض العمل للمخاطر في كل لحظة.

إضافة إلىٰ المعوق المادي، فمجلة «الحضارة» التي كانت محل التجربة الأولىٰ، لم تكن تعتمد علىٰ الإعلانات، التي تشكل المورد الأساس للصحافة، فهي تكاد تكون معدومة فيها، وذٰلك أمر لا يُستهان بحجمه.

وهناك معوق آخر ومهم، وهو وجود الرقابة الحكومية التي تعتبر من أكبر العوائق، التي تضطر المفكر والكاتب والصحفي إلىٰ الكثير من التلميح والرمزية، الأمر الذي يشكل حواجز بين الكاتب والكثير من القراء.. إضافة إلىٰ المعاناة التي يعيشها الكاتب في محاولته لتوصيل وجهة نظره إلىٰ القارئ.

وهناك أيضاً -كمعوق- عدم وجود إمكانية لتأسيس أرشيف للمعلومات من خلال الموارد الصحفية المتعددة، من صحف ومجلات ونحوها.

أما بالنسبة للمرحلة الثانية «مجلة الأمة»، فلعل من أكبر المعوقات، عدم وجود الفنيين المتخصصين في مجال الإخراج، الذين يمتلكون إلىٰ جانب الحرفة والتخصص، الرؤية والمرجعية الإسلامية، الأمر الذي جعل الجانب الفني الذي حاولت مجلة «الأمة» ارتياده والإفادة منه يستهلك الكثير من الوقت والجهد والتشاور، ليخرج العمل الفني بعيداً عن أي إصابة شرعية.

إضافة إلىٰ ذٰلك، قلة عدد العاملين، الأمر الذي استدعىٰ جهوداً مضاعفة.

وعلىٰ وجه الإجمال، يمكن القول: إن معظم الإنتاج الفكري، من خلال ما صدر من الكتب والرسائل وما نشر في المجلات والصحف اليومية، اتجه بعمومه تقريباً إلىٰ الإشعار بأهمية المسألة الثقافية، وضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم المعاصر، انطلاقاً من كون الثقافة تعني وسيلة التغيير وحاضنته، فأي جهود تغييرية لا تعتمد إعادة بناء «الشاكلة الثقافية» سوف تبوء بالفشل، حتىٰ لو امتلكت السلطة والنفوذ السياسي، شريطة أن تكون الثقافة منطلقة من مرجعية الأمة، معتبرة بتاريخها، منسجمة مع معادلتها الاجتماعية، مؤكدة أن أي مشروع للنهوض بهٰذه الأمة لا بد أن يمتلك فقه الوحي وفهم الواقع، الأمر الذي يمكِّن من النظر إلىٰ مشكلات الأمة وسبل حلها من خلال قيم الوحي، كما يمكِّن من النظر إلىٰ قيم الوحي، وكيفية التعامل معها، ومدىٰ تنزيلها علىٰ واقع الأمة ومعاناتها واستطاعاتها.

وتكاد تكون الكتابات تقريباً انطلقت من مسلمة أن لكل عصر مشكلاته وحلوله، وأن صوابية الحل لمشكلات عصر معين، لا تعني بالضرورة صوابيتها لمعالجة مشكلات كل عصر، لذٰلك دعت الكتابات إلىٰ فتح المجال أمام الاجتهاد الفكري بكل أدواته وآلياته، والدعوة إلىٰ فتح باب الاجتهاد الفقهي؛ لأن تعطيل الاجتهاد تحت شتىٰ الذرائع، أخرج الأمة من الواقع، وفسح المجال لتمدد «الآخر».

لذلك لم يكن إغلاق باب الاجتهاد الفقهي من أخطر الإصابات العقلية فحسب، إنما من أخطر الإصابات الدينية أيضاً؛ لأنه أدى إلى الجمود وتوقف العقل ومحاصرة الخلود وشيوع التقليد؛ ولأنه لا قيمة لعقل بلا دين، ولا لدين بلا عقل، وهو الانشطار الذي انتهى إليه حال الأمة المسلمة في معظمها، بعد إغلاق باب الاجتهاد، وانعكس ذلك على مؤسساتها التربوية والإعلامية والتعليمية والصحفية... إلخ.

ولعل مما ميَّز الكتابات أيضاً، تأكيدها على أهمية إعادة قراءة السيرة والتاريخ والتراث بأبجدية جديدة، في محاولة لأن تكون هذه القراءة في مستوى العصر والتعامل مع مشكلاته، والالتزام بالضوابط الشرعية، والتمييز بين نصوص الوحي في الكتاب والسنة المعصومة، واجتهادات البشر التي يجري عليها الخطأ والصواب، والقابلية للنقد والنقض والإلغاء.

كما اهتمت الكتابات بالتأكيد على أهمية التفريق بين السيرة النبوية كفترة معصومة، مسددة بالوحي، مؤيدة به والتي تعتبر مصدراً للتشريع العملي التطبيقي، وبين التاريخ كفعل بشري، لا يُعتمد مصدراً للتشريع، وإنما هو مصدر للعبرة والدرس.

ولا شك أن من يرصد آثار هذه الكتابات على الساحة الإسلامية، يجدها أشبه ما تكون بمحركات وروافع واضحة في إطار عقلية العاملين للإسلام في مختلف مواقعهم، إلى درجة يمكن أن يقال معها: إن الكتابات بشكل عام، أو «مجلة الأمة» بشكل خاص، أوجدت ما يمكن أن يسمى بمدرسة مميزة في التفكير والتناول، ما زالت تُلتمس في كثير من المواقع؛ لأنها اتجهت في معظمها إلى بناء منهجية أكثر من حشد معلومات وإثارات صحفية وإعلامية.. بمعنى آخر، علَّمت ودرَّبت على التفكير، وأوجدت نماذج لكيفية التعامل مع القضايا والمشكلات المعاصرة، في ضوء رؤية واقعية للبعد الفكري والثقافي والسياسي الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

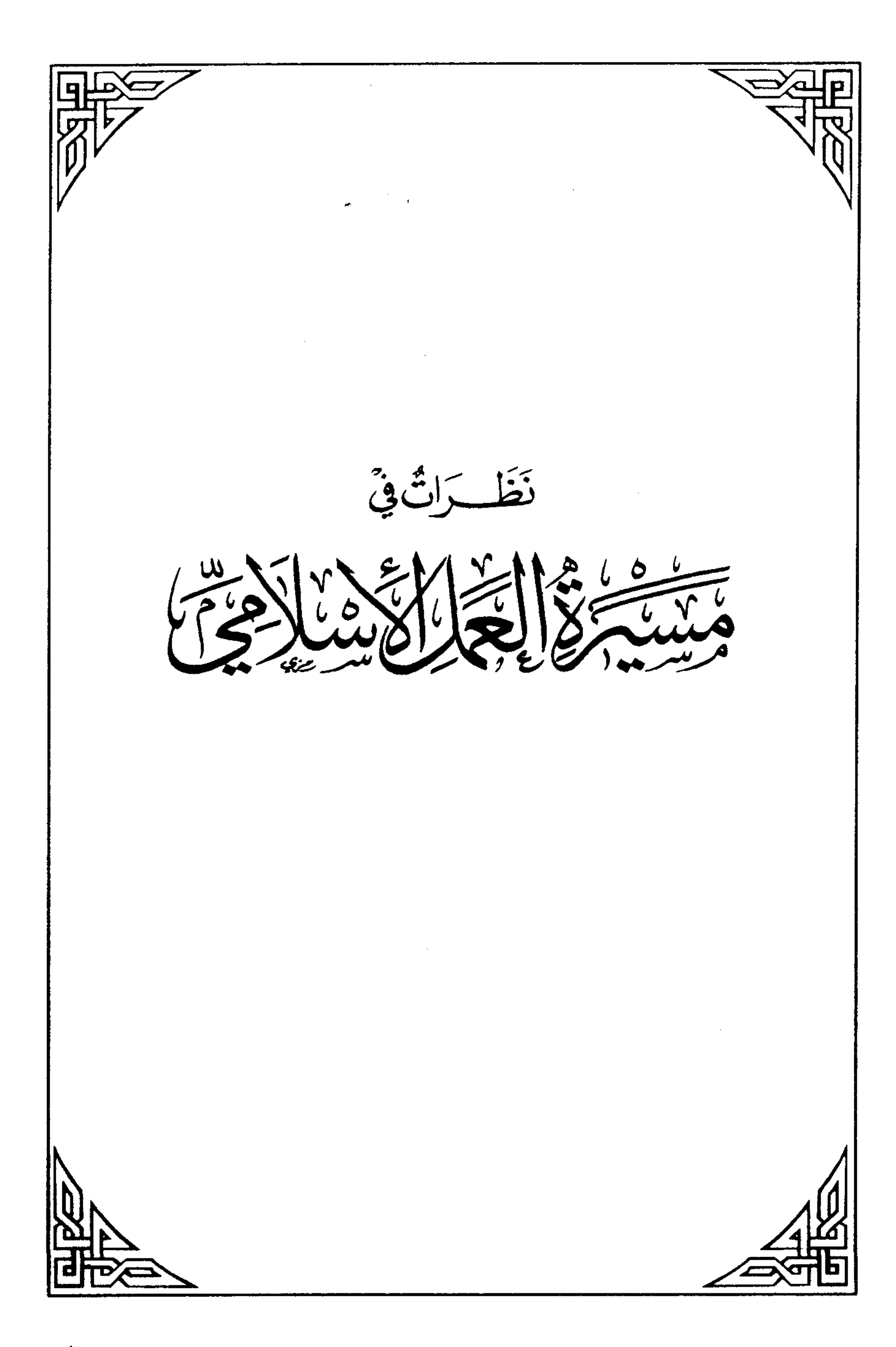
وقد يتجلى ذلك بوضوح في النسق الثقافي الذي تمحورت حوله سلسلة «كتاب الأمة»، الممتد من خلال مجموعة إصداراتها، واختيار الكثير

من عناوين موضوعاتها بحيث أصبحت تبدو علىٰ تنوع موضوعاتها، كأنها نسيج واحد؛ فضلاً عن المشاركة في اختيار عناوين وتصميم محاور موضوعات «جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية» وسلسلة «المشروعات الثقافية الجماعية»، مما يضفي علىٰ (المشروع الفكري) ملمحاً منسجماً ذا دلالة مهمة.

إن هٰذه المراحل والمساهمات وهٰذا التأطير والاختيار، تشكل أبرز ملامح مشروع (الأعمال الفكرية) بأبعاده المتعددة، وتفتح ملف الكثير من القضايا، وتستدعيها لتشكل محور الهمَّ الذي يبعث الهمّة،كما تشكل محرضاً وقلقاً حضارياً ومهمازاً محركاً لمعاودة النهوض.

ويمكن القول: إن هٰذه «الأعمال الفكرية» هي خير دليل وشاهد علىٰ أبعاد المنهج وخصائصه وآفاقه في المجالات الثقافية المتنوعة.



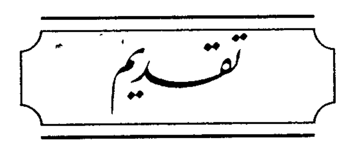


نظرات في مسيرة العمل الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾

[الأنعام]



تقديم

بقلم فضيلة الشيخ محمّد الغزالي

■ ارتقت وسائل الإعلام في العصر الحاضر وقطعت آماداً فسيحة في اجتذاب النفوس وصياغة الأفكار، وتوسلت بها مذاهب مفلسة أتقنت فن الدعاية حتىٰ بدت وكأنها علىٰ جانب كبير من اليسار..!

والغريب أنك تبحث عن الإعلام الإسلامي وسط هٰذا السباق المحموم فلا تجد إلا نفراً قلائل يتحركون بدأب، ويتحملون بجلد، ويستميتون في عرض الحق وسط ميدان كثرت فيه ألاعيب السحرة، وغابت عنه عصا موسىٰ..

ولذٰلك تسمع طنيناً للباطل لا ينتهي، وأنيناً للحق لا ينقطع..

وكان المفروض أن يكون الإعلام الإسلامي أندىٰ صوتاً وأرحب ساحة لأنه يقوم بدءاً علىٰ كتاب معجز البيان، ورسول أوتي جوامع الكلم واختُصرت له المعاني اختصاراً...

والواقع أن المدّ الإسلامي الأول كان وحياً يصنع الرجال، وتعليماً يفتق الألباب، وريادة نفسية واجتماعية تفرش أشعتها علىٰ مساحات رحبة ومسافات بعيدة بين أيدي المسلمين، كما تكشف الطريق مصابيح السيارة المنطلقة، فهي تمضي إلىٰ غايتها علىٰ بصيرة..

وقد بلغ من نجاح الإعلام الإسلامي قديماً أن الأعداء كانوا ينهزمون أمامه علىٰ مسيرة شهر! وأن جلال الإيمان قسّمهم علىٰ أنفسهم فما يلقونه إلا وأمرهم فرط وأفئدتهم هواء..

إن سيطرة الإسلام علىٰ الأفكار والمشاعر سبقت قدرته الحربية علىٰ مقارعة الضلال، ومن ثم أحسَّ معارضوه أن مقاومته تشبه مقاومة النهار الطالع، أو إمساك الليل المدبر! ألا ما كان أعظم هٰذا النجاح. . .

إنه نجاح أسهمت في إحرازه أجهزة الدولة وقوىٰ الأمة معاً، وقد كانا في صدر تاريخنا كياناً واحداً، وبقي هٰذا النجاح متفاوت الألق قرابة ألف عام، وإن كان نصيب الشعوب الإسلامية في استبقائه أكثر وأرجح من السلطات الرسمية. .

حتىٰ جاءت القرون الأخيرة فإذا نحن مع الناس كما قال الطغرائي:

تقدمتني أناس كان شأوهم وراء خطوي لو أمشي علىٰ مهل!

ولا مكان لمفاخرة أو منافرة! فإن الدعايات الناجحة لا تنطلق من فراغ، وإنما تساندها جماهير تكدح، وصفوة ترسم وتقود، وذاك ما أعوز أمتنا في عصرها الحاضر.

أما خصومنا، فقد استقامت أمورهم علىٰ نحو مثير، وليس يرجح تفوقهم العسكري إلا تفوقهم المدني، وليس يشبه حماسهم لأسباب القوة إلا حماسنا نحن لأسباب الضعف!

ولقد برعوا في خدمة مواريثهم ونحن لا ندري ما الكتاب ولا الإيمان؟ فكيف نحسن الجهاد لهما وما أحسنا معرفتهما؟!

كانت الصحف التي تخدم التنصير والاستشراق قوية الأداء، وكانت المقالات التي تنشر في صحف أخرىٰ شديدة المكر مكينة الحقد، أما الكتابات الدينية عندنا فكان ينقصها الموضوع والأداء جميعاً! ولا أذكر أنه في شبابي الباكر كانت هناك صحافة دينية ذات وزن. .

نعم، ولدت مجلات أدبية رفيعة المستوىٰ كمجلة «الرسالة» بيد أن تيارات الغزو الثقافي كانت أقوىٰ منها فعصفت بها وبمثيلاتها، وخلت الأسواق للصحف «العلمانية».

ولنعترف بأنها صحف غنية بفنون القول والتوجيه، فيها المقال، والخبر، والتعليق، وفيها القصة والعبرة والصورة، وتستطيع أن تقرأ السطور وما بين السطور! بل تستطيع أن ترىٰ العالم أمامك بجده وهزله وخيره وشره..

ومن خلال هٰذه الصحافة الذكية استطاعت الجماعات المشرفة عليها أن تلف كتل الجماهير حول ما تريد، وأن تمحو وتثبت كيف تشاء، وأن تنجح قضايا وتحبط أخرىٰ، وأن تصنع الحماس حيناً والبرود حيناً آخر حتىٰ انتهت أمتنا الكبرىٰ إلىٰ ما انتهت إليه!

ربما وجدت في الميدان الديني صحف تنشر بحوثاً علمية متخصصة، وربما وجدت صحف تكترث بالنقد وتهتم بما ظهر واستتر من مآسي المسلمين، إلا أن هٰذه وتلك لم تكن تُشبع القارئ أو تُغنيه...

وأكره المواربة في وصف عللنا، إن عدداً من المحررين المسؤولين كان حسن الإيمان ولم يكن حسن الفقه، لعله كان مخلصاً للإسلام، لٰكن جراثيم التخلف الفكري السارحة في دمه كانت تجعله يهزم الإسلام، ويصدّ عنه..

ومع ذٰلك، فإن الصحافة الدينية ارتقت خلال ربع القرن الأخير، وبلغت مكاناً لا بأس به..

والصحافي القدير غير الكاتب القدير، فإن فنّ الإبراز والعرض وتلوين الأداء وتنويع المادة المقروءة، ومواكبة الأحداث الجارية موهبة لا يقدر عليها كل كاتب..

وقد كان «**العقاد**» راسخ القدم مهيب القلم إلا أنه لم يكن صحافياً، أما «**سيد قطب**» فقد كان مؤلفاً ضخماً، وكان كذٰلك صحافياً عظيماً، وقد عاصرته، أو اقتربت منه وهو يُخرج مجلة «الفكر الجديد»، فأحسست بأنه مكّين أمين.

والأستاذ «**عمر عبيد حسنه**» من أولٰئك الذين جمعوا بين الكتابة والصحافة، وأحسنوا صياغة العقل الإسلامي في كلا الميدانين..

والعراك الآن محتدم بين شتىٰ الملل والمذاهب، كلٌّ يريد اجتذاب الجماهير إليه واستهواءها إلىٰ مبادئه! وقد افتنَّتِ الصحف المتنافسة في بلوغ غاياتها وتنوع وسائلها، وربما كانت الصورة الساخرة أنكىٰ من كلمة صريحة، والتعليق اللاذع أسرع من طعنة نافذة، والمقال الذي يستغرق ربع عمود أجدىٰ من كتاب مسهب، ووضع الخبر في مكان أخطر من وضعه في مكان آخر، وإبراز بعض الإحصاءات الميدانية أهم من حَبْك الأدلة النظرية، وقد يكون التفاهم مع بعض الخصائص النفسية والمصالح الاجتماعية أخصر طريق إلىٰ المقصود!!

إن الصحافة سلاح أفتك من أسلحة البر والبحر والجو في أحيان كثيرة، ويسرُّنا أن الإسلاميين عرفوا هٰذه الحقيقة أخيراً، وبدأت صحافتهم تشق طريقها إلىٰ الأمام..

ولا ريب أن مجلة «**الأمة**» قد أحرزت نجاحاً مبيناً في خدمة الإسلام، وكانت نجدة حقيقية للمتعلقين به والداعين إليه، ولا ريب أن ممن كانوا وراء هٰذا النجاح الأستاذ «عمر عبيد» واقتداره في التأليف والتنسيق، والعطاء المشبع والرؤية البعيدة..

ومجلة «الأمة» تصدرها دولة قطر، وكان المفروض أن يرىٰ القراء فيها ملامح العمل الرسمي وتحفظه! بيد أن المجلة برزت في طابع شعبي صادق شجاع إلىٰ حد بعيد، وأقبل عليها عشرات الألوف، وكان يمكن أن يقبل عليها مئات الألوف، وليس من دافع لهٰذا الإقبال؛ إلا أنهم يرون فيها ما يريدون ويقرؤون ما يحبون..

وما أهمتهم قضية إلا وجدوا لها صدًى بين صحائف المجلة التي أضحت وجهاً إسلامياً جميلاً لا لقطر وحدها؛ بل لدول الخليج كلها، ولولا التقشف الذي فرض نفسه علىٰ هٰذه الدول لبلغ توزيع المجلة ألف ألف أو يزيد..

والسؤال الذي نجيب عنه هنا: كيف تم هٰذا النجاح؟

إن أسرة التحرير تعاونت تعاوناً مثمراً علىٰ تحقيقه، والكتاب المنتقوْن بعناية لهم دور مقدور كذٰلك..

وفي حديث الشهر الذي يحرره الأستاذ «عمر» أمور نحب إلقاء الضوء عليها، فما أكثر الغموض الذي يكتنف العمل الديني عندنا، وما أحوج الإسلام إلىٰ إزالة هٰذا الغموض..!

إن أعداداً من الدعاة لا يدرون «جغرافية» الميدان الذي يقاتلون فيه، ولا آماد الانحراف الذي يقاومونه، ويحسب كثير منهم القوىٰ الإسلامية - أعني المحسوبة علىٰ الإسلام - قوىٰ خالصة مجدية! وأن القوىٰ الأخرىٰ هم خصم مناوئ يجب القضاء عليه! وقد يقولون: مَن ليس منا فهو علينا!

ومنهم مَن يحسب إقامة الإسلام تتم بانقلاب عسكري! وأن دور الإعداد التربوي والبناء العقائدي يجيء في المرحلة التالية!!

وأغلب العاملين في الحقل الإسلامي لا يريد الاعتراف بالأولويات التي يتوزع عليها الاهتمام وتتضافر حولها الجهود..

وقد تشغله نافلة عن فريضة، بل قد تشغله سنة عادية، أو تقليد متوارث عن معاقد الإيمان..

وشيء آخر يثير الحسرة: رفض دراسة الأخطاء التي تورط فيها بعضنا، ولحقتنا منها خسائر جسيمة!

إنني أسارع إلىٰ القول بأن الأخطاء لا تخدش التقوىٰ، وأن القيادات العظيمة ليست معصومة، ولا يهزّ مكانتها أن تجيء النتائج عكس تقديرها.. إنما الذي يطيح بالمكانة تجاهل الغلط، ونقله من الأمس إلىٰ اليوم وإلىٰ الغد، وادعاء العصمة، والتعمية علىٰ الجماهير المسترسلة..

إن هٰذه الكبرياء لا تقل دمامة عن العوج الذي نحاربه في صفوف خصومنا، ونزدريهم من أجله!!

وقد لاحظت أن الأستاذ «عمر عبيد» في توجيهه الشهري يبرأ من الآفات التي أومأت إليها، وأنه يلمح بذور الخير في أي ميدان فيبرزها وينميها ويوجهها لخدمة الإسلام.

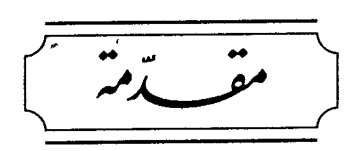
ويلمح الأخطاء فيحاصرها في صمت ويمنع تكاثرها ويأخذها في نقصها من أطرافها..

وهو يبحث عن الخير بين مَن هو معه ومن هو ضده، ويستعين به علىٰ بلوغ هدفه، ولا يتجاهل الشر وإن وقع بين الأقربين منه، وإنما يعمل بأدب ورفق علىٰ حسمه وحماية المسلمين من غوائله..

والرجل يتحاشىٰ الحدّة في خصامه وفي سلامه، وقد أعانه هٰذا الهدوء الفكري علىٰ المضيّ في طريقه يبني ولا يهدم ويصل ولا يقطع، ويستفيد من إمكانات يعجز عنها أصحاب المشاعر المهتاجة أو الأبصار الكليلة..

وقد سرَّني أن تخرج رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بقطر توجيهاته الشهرية في سلسلة «كتاب الأمة»، وأملي أن يكون هٰذا الكتاب تصويراً حسناً لحاجات الصحوة الإسلامية في مرحلتها الحاضرة، وهي مرحلة لها ما بعدها في مستقبل الإسلام وجهاده ضد المتربصين به، وما أكثرهم..





مقدمة

الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يهدِ الله فلا مُضِل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، الذي ابتعثه الله رحمة للعالمين. قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] والذي جعله ـ وحده ـ محل الأسوة والقدوة، لأنه مسدد بالوحي ومؤيد به، وليس هٰذا لأحد سواه فرداً كان أو جماعة أو دولة، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد؛ إلَّا صاحب هٰذا القبر كما يقول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وبعد..

فهٰذا الكتاب الثامن في سلسلة «**كتاب الأمة**» التي تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ـ بدولة قطر ـ «**نظرات في مسيرة العمل الإسلامي**» يأتي استجابة لرغبات كثير من الإخوة الذين كتبوا إلينا يطالبون بضرورة إصدار «كلمة الأمة» ضمن سلسلة «كتاب الأمة» سواء ما جاء منها برسائل مستقلة، أو ما تضمنته استمارات استطلاع الرأي..

ونسارع إلىٰ القول: بأنها نظرات أو وجهات نظر، تأتي في إطار المحاولة الإسلامية للإصلاح وتسديد الخطا وتصويب المسيرة والتأكيد علىٰ أن العمل الإسلامي اليوم قد لا ينقصه الإخلاص ـ في كثير من الأحيان ـ وإنما الذي ينقصه ولا يزال يفتقد إليه هو الصواب كشرط فني لازم، وأحد طرفَي المعادلة التي لا تتحصل النتيجة إلا بتحققه، ولا يتأتىٰ هٰذا إلا بالتعرف علىٰ السنن التي شرعها الله لحكم الحياة والأحياء، وحسن التعامل

معها، والتحول من عقلية التبرير والتسويغ إلىٰ منهج دراسة الخلل، وبيان أسباب ومواطن التقصير، وإغناء ساحة العمل الإسلامي بالدراسات النقدية التقويمية.

وحسبها أنها نظرات أو تأملات اجتهادية تقع في إطار المحاولة الإسلامية ـ كما أسلفنا ـ وليست هي الإسلام المعصوم، فإن أصابت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فبسبب من ضعف البشر وقصورهم، ولا يجوز أن يحمل الخطأ علىٰ الإسلام بحال من الأحوال.

ونقصد بالعمل الإسلامي كل أصحاب الفاعلية الموجودين علىٰ الساحة الإسلامية، الذين يرون في الإسلام طريق الخلاص ويؤدون دورهم ويستشعرون مسؤوليتهم تجاه ذٰلك بمختلف الوسائل المشروعة بمواقعهم المختلفة سواء انتظمتهم جماعات أو جمعيات أو مؤسسات ذات نظم معينة، أو لا... بل قد نرىٰ الإنسان المسلم مهما اختلف موقعه ـ إن كان يتمتع بفاعلية ـ أحق بصفة العمل الإسلامي من الآخر الذي انطفأت فاعليته مهما كانت صفته لأن القضية اليوم قضية فاعلية مبصرة علىٰ الساحة الإسلامية وليست قضية رسوم وأشكال، ذٰلك أن التنظيمات والجماعات والمؤسسات إنما هي وسائل ترجو أن تكون أكثر كسباً للقضية الإسلامية وإثارة للاقتداء وليست غاية بحد ذاتها أو مراكز احتكار للإسلام أو ساحة أقضية لإصدار الأحكام علىٰ الناس.. إن مهمتها الهداية وليست الجباية.. وهنا لا بد من الإشارة إلىٰ بعض الملاحظات التي نراها ضرورية بين يدَي الكتاب.

○ تركت الافتتاحيات (كلمة الأمة) التي تمّ اختيارها كما هي دون أية مداخلة من زيادة أو نقصان حفاظاً علىٰ قيمتها التاريخية والظروف التي أوحت بها والاعتبارات التي حكمتها.

○ لم يلتزم في ذٰلك الترتيب الزمني لكتابتها وإنما آثرنا الاختيار لما يمكن أن يقع ضمن إطار معين ويعالج قضايا متقاربة وأكثر إلحاحاً.

○ لا شك أن لكل (كلمة) شخصيتها المتميزة المستقلة، لكن يشفع لها أنها جميعها ينتظمها سلك واحد وتعالج قضايا ضمن إطار المحاولة

الإسلامية وفي ساحتها من هنا، فإنها بطبيعتها تختلف عن الكتب المؤلفة ابتداء من بعض الوجوه.

○ قد يلمح القارئ فيها عودة لإلقاء أضواء إضافية، أو لتعميق بعض الأبعاد بالنسبة لكثير من المفهومات، ولا نعتبر ذٰلك من قبيل التكرار بقدر ما هو من طبيعة الكلام في القضايا المنهجية.

○ ونرىٰ أنه من الأمور الضرورية للعاملين في الحقل الإسلامي ـ بعد أكثر من نصف قرن ـ أن تكون لهم وقفات للمراجعة واختبار المنهج ووسائل العمل وإخضاع العمل لنوع من التخطيط والدراسة وحساب الاحتمالات..

ونعتبر أن ما قدمناه في هٰذا السبيل لا يشكل أكثر من نافذة أو خطوة علىٰ الطريق، وليس لنا أن ندّعي أننا بهٰذا نغطي قضايا العمل الإسلامي وجوانبه المتعددة ومشكلاته الكثيرة والمتشعبة كما قد يوحي بذٰلك العنوان، وإنما هي بداية نرجو أن تكتمل بجهود إخوة ممن تهمهم القضية الإسلامية ويستشعرون مسؤوليتهم في المناصحة.

ولعل من نافلة القول أن نُذَكِّر بحقنا في المناصحة وإغناء الموضوع بالملاحظات التي يمكن أن تستدرك في الطبعات القادمة.. ولسوف نتابع إصدار «كلمات الأمة» ضمن السلسلة مستقبلاً إن شاء الله. والله نسأل أن يلهمنا رشدنا..

ذو الحجة ١٤٠٤هـ ـ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٤م



الدوحة



هٰذه مجموعة ملاحظات أو تأملات في مسيرة العمل الإسلامي ووسائل الدعوة إلىٰ الله، لا ندّعي لها العصمة من الخطأ كما لا ندّعي لها الكمال، وإنما هي وجهة نظر نعتقد لها الصواب كما أنها تحتمل الخطأ، حسبنا في ذٰلك النية الحسنة التي نعتصم بها ومسؤولية المناصحة التي نستشعرها، ونرجو إن فاتنا الحصول علىٰ أجري المصيب فلا أقل من الحصول علىٰ أجر المخطئ، وذٰلك مساهمة منا في إغناء الرؤية لتصويب مسار العمل الإسلامي وتحري الحكمة في الدعوة إلىٰ سبيل الله ومحاولة الانتقال بمواقع العاملين والدعاة من عقلية التبرير إلىٰ منهج دراسة أسباب التقصير، ذٰلك أننا نعتقد أننا المسؤولون عن هزائمنا وتخلفنا وعجزنا مهما حاول بعضنا الإلقاء بالتبعة علىٰ الآخرين، استجابة لخطاب التكليف وتحديد المسؤولية في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥].

فليس العيب الوقوع في الخطأ فكل ابن آدم خطَّاء، وإنما العيب في الإصرار عليه وعدم الاعتبار به وتكراره ومجانبة الخيرية والوصول إلىٰ توبة الفكر والسلوك ـ وخير الخطائين التوابون ـ والذي نرجوه أن لا تعتبر أية جهة أنها المقصودة فيحول ذٰلك دون الاستفادة والإفادة. ذٰلك أن هٰذه الملاحظات لا تنتمي إلىٰ أية جماعة أو جهة، وإنما تنتمي إلىٰ الإسلام بكل شموله ورحابته، وتجيء من موقع الشعور بمسؤولية النصح لله ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. ولسوف نتابع في هٰذه الملاحظات ما أمكننا ذٰلك، والله نسأل أن يلهمنا الإخلاص في العمل والسداد في الرأي وهو حسبنا.

جمادىٰ الأولىٰ ١٤٠٤هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٤م

الالتزام بالمنهج
ضرورة لسلامة الطريق

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام]

من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، أن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، وأنه يمثل الكمال والاكتمال للرسالات السماوية جميعاً، قال تعالىٰ:

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] ذٰلك أن الإسلام يمثل مرحلة الرشد الإنساني بعد هٰذه الرحلة الطويلة من ميراث النبوة من لدن آدم عليه السلام وحتىٰ الرسول الكريم ﷺ، وتحضير الجنس البشري لاستقبال المنهج الأخير..

فرسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخاتمة، قال تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾ [الأحزاب:٤٠]. ومن طبيعة الرسالة الخاتمة ومن لوازمها أيضاً أن تستمر سليمة بعيدة عن التحريف والتأويل والنقص أو الضياع، ومن حق الأجيال المتعاقبة أن تتلقىٰ رسالة السماء كما أُنزلت علىٰ محمد ﷺ، وأن يكون خطاب التكليف سليماً صحيحاً في كل حين، حتىٰ يمكن أن تترتب علىٰ ذٰلك شرعياً ومنطقياً قضية الثواب والعقاب، أي حتىٰ يتم التكليف وتترتب المسؤولية، والله تعالىٰ يقول:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

فما ذنب المكلفين من المخلوقين وما مدىٰ مسؤوليتهم إذا لم يصلهم خطاب التكليف سليماً؟ وبالتالي فسوف لا تكون الاستجابة لهٰذا التكليف صحيحة، إذ السلوك الصحيح لا يعدو أن يكون ثمرة للتصور السليم الذي يتحصل من التلقي السليم للرسالة الصحيحة، التي لم يلحق بها ما لحق بالرسالات السماوية السابقة علىٰ يد أصحابها من المغالين وخصومها المعادين، ولئن كان ذٰلك حصل بالنسبة لرسالات الأنبياء السابقين ـ ورسالاتهم مرهونة بأزمان محدودة وأقوام معينين ثم يكون تتابع الرسل ومتابعة التصويب ـ فإن ذٰلك يستحيل بالنسبة للرسالة الخاتمة.

ومن هنا كانت كفالة الله للرسالة الخاتمة بالحفظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]. بينما أوكل حفظ الرسالات السماوية السابقة لأهلها ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ...﴾ [المائدة: ٤٤].

* * *

القرآن الكريم الوثيقة الدينية الوحيدة التي نقلت بالتواتر

■ ولقد حذَّرنا الله سبحانه وقصَّ علينا علَلَ التدين التي أصابت الأمم السابقة حتىٰ لا نسقط فيها، ولتستمر الرسالة سليمة طرية ندية كما أُنزلت، يتلقَّاها كل جيل من أجيال الإنسانية دون حواجز أو التباس.

قال تعالى:

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [التوبة: ٣٤] ﴿ٱشْتَرَوْا۟

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة].

وكان أن أناط الله بالمسلمين الذين هم أوعية الحفظ في نهاية المطاف هٰذه المهمة يقومون بأوامر الله، وكان من المستحيل شرعاً اجتماعهم علىٰ الخطأ وتواطؤهم علىٰ الكذب. قال رسول الله ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمين علىٰ الحق لا يضرهم مَن خالفهم حتىٰ يأتي أمر الله**»، وقال: «**لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة**» وفي رواية «**علىٰ خطأ**».

من هنا نستطيع القول: بأن القرآن الكريم من هٰذه الوجهة يعتبر الوثيقة الدينية التاريخية الوحيدة التي وردت بالتواتر والتي تفيد علم اليقين بينما اختلطت نصوص الأديان السابقة بكلام البشر، ولم ترقَ إلىٰ سوية الأمور الظنية..

* * *

التحذير من علل التديُّن..

■ والأمر المفزع حقاً هو تسلل علل التدين السابقة إلىٰ بعض قطاعات في عالم المسلمين.. أقول بعض قطاعات وليست الأمة بمجموعها لأن هٰذا يتناقض مع طبيعة الرسالة الخاتمة كما قدّمنا.

إن ظهور هٰذه العلل علىٰ شكل تَشَوُّهٍ تارة، وانحراف أخرىٰ في بعض قطاعات الأمة المسلمة أمر طبيعي في حدوثه ووجوده، مفزع وخطير في تطوره واستمراره، طبيعي لأنه يتسلل من خلال طبائع البشر وما جبلت عليه نفوسهم، وهو من العلل المزمنة التي حذّر الله منها، والتحذير دليل إمكانية الوقوع «**وخير الخطّائين التوابون**» والشر من لوازم الخير علىٰ كل حال.

لقد حذَّر الله من تحريف الكلم، وحذَّر من الأكل بكتاب الله، كما حذَّر من أكل أموال النَّاس بالباطل، ولا شك أن لكل ظاهرة من ظواهر الشذوذ والانحراف أسبابها وجذورها العميقة، وإن **رصد هٰذه الظواهر**

واستقراءها إنما يكون وسيلة للتعرف عليها واكتشاف أسبابها، وبالتالي معالجة الأسباب التي أدَت إليها، وعدم الاكتفاء بمعالجة الأعراض، وعدم الاكتفاء بالحكم علىٰ الصورة ورجمها بالحجارة عن إدراك الحقيقة وحسن تناولها.

والأمر الذي يلفت النظر بالنسبة لعالم المسلمين اليوم، الاكتفاء بالإحساس والعجز عن الإدراك، ورؤية الصورة، وغياب الحقيقة، ومعالجة الأعراض، وإهمال الأمراض بعدم القضاء علىٰ أسبابها.

إن الصورة الكثيرة التي يلمسها الإنسان اليوم للتدين والتي بدأت تتسلل إلىٰ أكثر من مستوًى في حياة الأمة تشكل بمجموعها نذر خطر وأمارة سقوط في علل التدين التي أدركت الأمم السابقة، وكانت سبب انقراضها، **وهنا لا بد من العزمة الأكيدة علىٰ إخضاع هٰذه العلل للدراسة والتحليل ومعرفة الأسباب، ومن ثم معالجتها من خلال المنهج الإسلامي نفسه، إنها صورة سلبية خطيرة في حياة المسلمين وعلىٰ أكثر من مستوًى، فإلىٰ أي مدًى تستطيع الأمة المسلمة بما تملك من مناهج وضوابط ومقاييس أن تقف فتنتفع بهٰذه الظواهر السلبية في عمليات التحصين؟**

■ قال رسول الله ﷺ:

«**يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»، وكأني برسول الله ﷺ يجمل في هٰذا الحديث الجامع العلل والتحديات التي لا تخرج في نهاية الأمر عن هٰذه الأمور الثلاثة:

تحريف الغلاة ـ انتحال أهل الباطل ـ تأويل أهل الجهل.

تحريف الغلاة، هٰؤلاء الذين يتشكلون في الأمة علىٰ وضع بعيد عن التوازن والاعتدال. بسبب من ردود الفعل أو ضغوط المجتمع غير المسلم من حولهم فيقرأون الإسلام من خلال أوضاعهم النفسية وظروفهم الحياتية، فينحرفون به عن وجهته الصحيحة ويحملون عليه ما ليس منه، ولكل عصر غلاته وخوارجه.

وليست خطورة نحل أهل الباطل ومحاولة تطويع الإسلام لتصوراتهم المسبقة بأقل خطورة من تحريف الغلاة باسم الدين، بل هما علىٰ قدم المساواة من حيث الخطورة، أما تأويل الجاهلين والجرأة علىٰ الفتوىٰ وإصدار الأحكام بدون امتلاك الأداة المطلوبة فلنا معه وقفة أخرىٰ إن شاء الله. .

❊ ❊ ❊

حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من هنا كانت حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي صانت الرسالة المحمدية والأمة المسلمة في تاريخها الطويل من الانحراف، وحملتها علىٰ الولاء للمنهج، وعدم التحريف للدين والشذوذ الجماعي، والعثرات المردية علىٰ طريقها الطويل، ورحلتها الشاقة في ميادين الاجتهاد والاستنباط، وإنارة السبيل للسالكين، وحفظ القادة والزعماء والمفكرين والعلماء من الافتتان بالرأي والإعجاب بالنفس، من ادعائهم أو ادعاء أتباعهم العصمة لهم، وحفظت الأمة من أن تقع فريسة لغلو أو تطرف أو شذوذ أو تعثر، لذٰلك شددت الشريعة الإسلامية علىٰ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بهما في كل زمان ومكان، وحذَّرت من التواني فيهما والمحاباة لأهل الوجاهة والسلطان، وجعلت كلمة حق عند سلطان جائر أفضل الجهاد، وكانت هٰذه الحسبة، وكان اللعن لبني إسرائيل علىٰ لسان الأنبياء السابقين، لأنهم عطلوا هٰذه الحسبة في حياتهم، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

هٰذا، وقد تختلط حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في بعض الأذهان، فتتوهم أنها تتعارض مع مصلحة الإسلام والمسلمين في عصر من

العصور، ويكون هٰذا التوهم من تلبيسات الشيطان ليضمن استمرار الانحراف ومتابعة الانزلاق..

ولو أخذ المسلمون في اعتبارهم في الماضي أن **حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** تؤدي إلىٰ إحداث تشويش واضطراب في صفوف المسلمين، وكفوا عن التنبيه عن الزلل والخطأ، والانحراف والمغالاة، والتطرف والرفض والخروج، لانقطع هٰذا المؤشر الحيوي، وهٰذا الضابط اللازم عن واقع الأمة الاجتماعي ومسلكها الخلقي، وكان ما يعقب ذٰلك من التباس الأمور علىٰ أهل العلم والرأي وانجراف عامة النَّاس للتيارات البعيدة عن هٰذا الدين باسم الدين واختفاء كثير من الحقائق عن ساحة التصور الإسلامي السليم.

إن التستر علىٰ الأخطاء باسم المصلحة العامة، وحفظ الكيان، والتوهم بأن الحسبة في الدين تؤدي إلىٰ البلبلة والتمزق أمر خطير، ومفسدة فظيعة تدفع الأمة ثمنها الدماء الغزيرة، وليس هٰذا فقط، بل قد يؤدي هٰذا إلىٰ ذهاب الريح وافتقاد الكيان أصلاً، فالأمة بدون هٰذه الحسبة وهٰذا التناصح تعيش لوناً من التوحد يشبه إلىٰ حدٍّ بعيد الورم الممرض.

من هنا كانت صورة المسلم الحق هي عدم التحجر والتزمت علىٰ صورة مهما كانت طبيعتها، بل هو علىٰ استعداد دائم للانتقال من النافع إلىٰ الأنفع، ومن الصالح إلىٰ الأصلح، وقبول الحق إذا اتضح، والدليل إذا وضح، وعدم السقوط في الحزبية القاتلة، والعصبية المدمرة.

❋ ❋ ❋

الرسول ﷺ.. وحده الأسوة الحسنة

وعلىٰ طريق حمل هٰذا الدين والقيام بأمره.. هناك حقيقة علىٰ غاية من الأهمية، كانت ولا زالت معلماً من معالم التفكير الإسلامي والثقافة الإسلامية، وكانت دائماً ملازمة للحياة الإسلامية ليصح التصور وينضبط السلوك، وهي: **أنه لا يجوز أن يعتمد أحدٌ كائناً مَن كان معياراً للحق، أو أن يُظن أنه أعلىٰ من أن يناله أحد بالنقد أو يجد فيه مأخذاً،** كما أنه لا

يجوز لأحد أن يخضع لآخر عقلياً أو فكرياً إلّا لرسول الله ﷺ الذي قال الله في حقه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن المقياس الإلٰهي المجرد الذي تجسّم في حياة الرسول وسيرته هو المقياس الذي يوزن به الأشخاص ويأخذ كل إنسان حقه ومكانه من هٰذا المقياس الذي يستحقه.

ومن هنا فالالتزام إنما يكون دائماً وأبداً بالمنهج الإسلامي، بالفكرة، بما شرعه الله لنا، وليس الالتزام بالأشخاص، أو التنظيمات، أو الجماعات، أو الحكومات التي هي دائماً محلٌ للخطأ والصواب.

والكارثة والخلل والأمراض والعلل تتسلل إلىٰ الحياة الإسلامية من خلال العدول عن هٰذا المقياس، أو محاولة استلابه من يد الإنسان المسلم، ومن ثم تكون العصمة الكاذبة التي تخلع علىٰ بعض الأشخاص، والمبررات المضحكة التي توضع لتصرفاتهم وأخطائهم، **وهٰذا بدء مرحلة السقوط حيث تبدأ عملية تخديم الأهداف والقيم لا خدمتها**، وقد يكون هٰذا من طبيعة البشر عندما تسيطر عليهم فترات الضعف، أو تستبد بهم حالات اليأس، أو تمارس عمليات الإرهاب الفكري أو الفساد السياسي، فتفصل الأحكام علىٰ الأشخاص، وتؤصل الحيل الشرعية حتىٰ يصبح لها مؤلفات، وتنمو طبقة فقهاء السلطان، سواء أكان سلطان المال أم الحكم أم الجاه، وتؤول الأحاديث والآيات علىٰ مقتضىٰ الأهواء.

ولا يجوز أن يظن أحد أن الدعوة إلىٰ التزام المنهج مقياساً وميزاناً للحق والباطل، وعدم الالتزام بالأشخاص الذين يخطئون ويصيبون ارتداد إلىٰ الفردية، وبعثرة للجهود، وابتعاد عن جماعة المسلمين كافة، **فهٰذا ليس من الأمور الاختيارية بالنسبة للمسلم. وإنما هو في حقيقته تصويب لمسيرة حياة المسلمين الجماعية وإلغاء للإقطاعات البشرية من حياة الناس والتزام بالإسلام الذي بيّنه رسول الله ﷺ بقوله:**

«... **ورجلان تحابّا في الله اجتمعا علىٰ ذٰلك وافترقا عليه**» فالاجتماع علىٰ المنهج وليس علىٰ الأشخاص، والافتراق أيضاً علىٰ المنهج وليس علىٰ

الأشخاص. إلّا في حالة العمىٰ العقلي وعدم الإبصار الصحيح بسبب التعصب لفئة أو شخص أو عرق أو قوم أو في حالة عدم وجود العزمة الأكيدة علىٰ الالتزام بهٰذا الدين.

❋ ❋ ❋

الطاعة المبصرة..

من هنا أيضاً، ومن لوازم هٰذا الدين أن تكون **الطاعة مبصرةً** وأن يكون **المقياس منضبطاً**. وليس هٰذا من البدع والأمور المحدثة، بل هو طريق مسلمي خير القرون.

فهٰذا أبو بكر الصديق ﷺ الخليفة الراشد وثاني اثنين إذ هما في الغار، والذي أمرنا الرسول ﷺ باتباع سنته يقول للمسلمين في أول كلمة من فوق منبر المسؤولية:

«أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت فلا طاعة لي عليكم».

وفي هٰذا تربية للفرد المسؤول في مركز القيادة والحكم والسلطان، فلا يضمن الطاعة له إلَّا بطاعة أوامر الله والتزام المنهج. وتربية للفرد العادي أيضاً لتستيقظ حواسه جميعاً ويمتلك البصيرة الكاملة للمنهج، فلا يحق له الطاعة إلَّا بالمعروف.

ومن هنا أيضاً كان **الإسلام لكل المسلمين**، وكان مجتمع المسلمين مجتمعاً مفتوحاً يتألق بالحقيقة والاستقامة واستنشاق الهواء النظيف بعيداً عن سياط الإرهاب الفكري دينياً كان أو سياسياً، **لا عصمة فيه لطبقة من حكام أو رجال دين يحتكرون المعرفة أو يتحدثون باسم الله فيصبح قولهم هو القانون وهو الدين وتصبح أشخاصهم هي المقياس**، فيتسلل الإكليروس من جانب والحكم الثيوقراطي (الديني) الذي مارسته الكنيسة في القرون الوسطىٰ من جانب آخر إلىٰ حياة المسلمين، وبذٰلك يكون الفساد والإفساد.

جمادىٰ الأولىٰ ١٤٠٢هـ ـ آذار (مارس) ١٩٨٢م



دعوة للمراجعة وتجديد الانتماء

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة]

لا نستطيع أن نتهم عالم العرب والمسلمين بعدم المعرفة للنوايا اليهودية والمخططات الصهيونية، وقد أخذ الكلام عن بني إسرائيل وبيان نواياهم وما تنطوي عليه نفوسهم المساحة الأكبر في القرآن الكريم، وما قدمته الدراسات والبحوث ومراكز المعلومات والمؤلفات في هٰذا الموضوع عن ممارساتهم وأهدافهم لم يعد خافياً علىٰ أحد، لٰكن الذي نستطيع قوله: **إننا نعاني من حالة العجز عن توظيف هٰذه المعرفة وامتلاك الإرادة المستقلة للاستفادة منها والقدرة علىٰ الالتزام بأخلاق المعرفة، وكأننا بمراكز الدراسات والمعلومات والمؤلفات التي ننشئها إنما نمارس عملية التقليد للشكل والصورة التي نراها عند الآخرين في الدول المتقدمة دون القدرة علىٰ توظيفها، نقف عند حدودها فقط لا نتعداها**... ولو أننا أحصينا ورصدنا ما تخرجه المطابع العربية في يوم واحد من أيام نصف القرن الماضي لكان وحده كافياً لتعريفنا بعدونا ونواياه ووسائله في الوصول إلىٰ هٰذه النوايا وتحقيقها، وقدرته المستمرة علىٰ نقل المعركة من موقع إلىٰ آخر بشكل مدروس ومحسوب ينسي العرب والمسلمين الموقع السابق، ويصرف جهودهم إلىٰ المشكلات الجديدة التي صنعتها لهم إسرائيل لينشغلوا بحلها، وتنفرد هي بتحقيق أهدافها كاملة في المواقع السابقة التي احتلتها، وهٰذا يلحظ بوضوح ابتداءً من قيام الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م، وانتهاءً بغزو لبنان لإنهاء المقاومة الفلسطينية، وإشعال الألغام الطائفية، واحتلال الجنوب اللبناني والبدء بتهويده...

ولقد استطاعت إسرائيل بشكل أو بآخر أن تحضر الظروف الملائمة لقيام الفتن الداخلية، وإشعال الحروب الحدودية بين العرب والمسلمين في أكثر من موقع، حتىٰ بات الإنسان يسمع أصوات النشاز تقول: إن الطريق إلىٰ تحرير فلسطين لا بد أن يمر بالعاصمة العربية الفلانية أو الفلانية؟!.. ولو صمدنا أمام إسرائيل كصمودنا في واحدة من معارك اقتتالنا لكانت كافية لمواجهة إسرائيل واسترداد الحق وتحقيق العدل، ولا نكون مبالغين إذا قلنا: إن الدماء التي تسيل في معركة واحدة يمكن أن تكون كافية لتحرير فلسطين...

* * *

خلل في البنية الفكرية..

ولا شك بأن الذي يراقب اقتتالنا وضحايانا وإصرارنا علىٰ إراقة دمائنا، وشدتنا وصمودنا في هٰذه المعارك سوف لا يصدق أننا الذين هزمهم يهود ولا يزالون يعانون من هزيمتهم..

ولا شك عندنا أيضاً، أن هٰذا الواقع الذي صرنا إليه دليل علىٰ وجود خلل في البنية الفكرية والطروحات العقيدية التي أثمرته مهما كانت دعاوانا عريضة، وأصواتنا مرتفعة بالادعاء أننا علىٰ النهج السليم، والدفاع عنه والقتال في سبيله؛ إنها صورة عقيدية مدفوعة بالواقع الحزين، وإن استمرار قبولنا بها يعني قبولنا بهٰذا الواقع الذي نشكو منه جميعاً، وعلىٰ المستويات كلها، ومن أبسط الأمور في عالم العقلاء القيام بعمليات المراجعة بعد كل مرحلة نجاح أو إخفاق لتحديد أسباب النجاح للاحتفاظ بها وتنميتها والدفاع عنها، واستبيان أسباب الإخفاق ومواقع الخلل لاجتنابها... إنه الاعتبار الذي أنعم الله به علىٰ الإنسان العاقل، وحرمه الحيوان الأعجم، إنه الاعتبار الذي لا بد من حضوره علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات والأمم والحكومات، ونحن أمة لم تنشأ من فراغ، ولم تتحرك طيلة تاريخها في فراغ أيضاً، لكن ممارسات سلخها عن تاريخها وإقصائها عن عقيدتها من

الاستعمار وجيل الاستعمار تركها في حالة العجز عن الاستفادة من هٰذا التاريخ والاعتبار بحوادثه، وعن الالتزام بالعقيدة والاستجابة لمتطلباتها، والحكم علىٰ الأمور من خلال مقاييسها...

لقد قرئ تاريخنا لنا بأبجديات غريبة عنه، خاطئة في تفسيره، حتىٰ كاد يصبح التاريخ الذي هو أحد عوامل تكوين الأمة بعد هٰذه القراءات المغلوطة عامل تمزيق وتفريق وتفتيت، حيث إننا لم نرَ من تاريخنا إلا النقاط السود، ولم نبعث منه إلا الفتن لتكون غذاء يقتات به أعداء هٰذه الأمة التي سقطت فريسة لتعدد الانتماءات وتعدد الولاءات، وأصبح بأسها بينها شديداً...

❋ ❋ ❋

الانتماء والالتزام..

ولقد أُصبنا في تاريخنا الطويل بنكسات ونكبات وأيام سود وسنين عجاف، وضعف التزامنا بهٰذا الدين، وبالرغم من هٰذا كله بقيت لنا **وحدة الانتماء**، وبقي لنا **الإيمان بهٰذا الانتماء** الذي كان مرتكز القادة والمفكرين والمصلحين وحاملي لواء التجديد والتغيير الاجتماعي...

هُزِم المسلمون سياسياً وعسكرياً وبقي الإسلام علماً وحضارة وتاريخاً فكان درع صمود وعامل مواجهة، أما حالنا اليوم، فإننا لا نعاني من فقدان الالتزام وبقاء الانتماء، وإنما نعاني من التذويب والذوبان الذي يقذف بنا إلىٰ الضياع والمغالطات الفكرية والعقيدية والقراءة التاريخية الشاذة التي تفقدنا الالتزام والانتماء معاً، فكيف نواجه الحالة الصعبة التي نحن عليها؟ حيث تختلف مرحلة سقوطنا الحضاري وانكسارنا العسكري، وتعدد انتماءاتنا عن مراحل الهزائم التاريخية جميعاً، ولعل الطريق إلىٰ الخلاص، الذي لا طريق سواه، إنما يكون بتصويب المسار، وتجديد عملية الانتماء لهٰذا الدين بشكل عام، والاعتزاز بقيمه، والالتزام بأحكامه، والانضباط بشرعه، والاستفادة من تاريخه...

إن الإسلام **الموحّد الفاعل**، الإسلام الذي صنع خير أمة أُخرجت للناس، الذي فهمه السلف الصالح، فكان ما كان، هو بالتأكيد غير الفهم الذي نحن عليه بواقعنا الراهن؛ فلا بد إذن من عودة الجماهير المسلمة إلىٰ فهم وإدراك إسلامها بعد أن مارست عملية الانسلاخ عنه، وبعد أن طال البعد وكثرت الدروس وقلَّ الاعتبار... وإلا فسوف نستمر في الطريق المسدود، ولسوف تستمر إسرائيل في قضم أطراف الجسم الإسلامي طرفاً بعد آخر، وتنقلنا من معركة إلىٰ أخرىٰ، وتنسينا جراحاتنا السابقة، وتشغلنا بجراحات جديدة...

ولا نريد هنا أن نتكلم عمّا أسمته إسرائيل بعملية أمن الجليل واجتياح لبنان تحت سمع العالم وبصره، وتعقب المقاومة الفلسطينية لإنهائها أو لإلغاء مقدرتها وتمزيقها، وإخراجها من لبنان، ومن ثم إشعال الألغام الطائفية ليبدأ تفجيرها هنا وهناك، وتسيل الدماء أنهاراً، ويكون من بعض وقودها المقاومة الفلسطينية للقضاء علىٰ البقية الباقية منها... لأن الكلام عن ذٰلك كثر كثيراً، ومحاولات التدخل لإيقاف القتال أو إشعاله كثرت أيضاً علىٰ المستوىٰ العربي والدولي، ونفرح وفَرِحْنَا للوصول إلىٰ وقف إطلاق النار التي أشعلناها بأيدينا، وفي أثناء ذٰلك كله - بين الإشعال والإطفاء - يخلو الجو لإسرائيل لتمارس عمليات التهويد، ولتمكن احتلالها للجنوب اللبناني ليشكل الضفة الشمالية بالنسبة ليهود، وتصبح القضية الجديدة: خروج يهود من لبنان أو من جنوبي لبنان بعد أن كانت القضية وجود يهود بفلسطين، وقبول العرب بالتقسيم، وانسحاب إسرائيل من سيناء عام ١٩٥٦م. والمطالبة بعودة إسرائيل إلىٰ حدود ما قبل عام ١٩٦٧م. ومواجهة الاستيطان بغزة والضفة الغربية، أما الحديث عن التهويد الرسمي للجولان، والتهويد الثقافي للتعليم الذي يعد الأخطر في مجال التهويد والاحتلال والاستيطان فحديثه يطول...

سوف لا نتكلم عن الاقتتال الطائفي في لبنان، وهو الصورة التي صنعتها إسرائيل، وهي الأكثر سخونة الآن، وإنما نعرض للوجه الآخر

للموضوع الذي غيبته عن الساحة أحداث لبنان واقتتاله الطائفي، نعرض لبعض أطماع يهود في جنوبي لبنان...

❋ ❋ ❋

الأطماع اليهودية في الجنوب اللبناني

لقد بدأ يهود في التطلع إلىٰ مصادر المياه في جنوبي لبنان في وقت مبكر، وبدأوا بشراء الأراضي بأثمان مغرية، وسقط في شركهم بعض كبار الملاك، وقد كتب «هرتزل» في مذكراته حول هٰذا الأمر فقال:

«هٰؤلاء الذين يتعلقون عادة بالأرض هم صغار الملاك، إن كبار الملاك يغترون بالأسعار» ومارست بعض البنوك الأمريكية والسوفييتية ـ واليهود من ورائها ـ شراء بعض الأراضي، ولقد استطاعت المنظمة الصهيونية أن تعدل من الحدود بين لبنان وفلسطين لأول مرة سنة ١٩٢٣م. باتفاق بين الدولتين المنتدبتين: فرنسا وإنكلترا...

وبعد قيام الكيان الصهيوني أصبحت الأطماع الصهيونية في المياه اللبنانية تأخذ طابعاً أكثر وضوحاً، ففي عام ١٩٥١م صرّح وزير خارجية إسرائيل لصحيفة «جيروزاليم بوست»:

«إننا لسنا من المهتمين بالنيل والفرات ـ الآن ـ ولٰكننا نولي الأردن ومنابعه كل اهتمام» وهٰذا يعني النية في احتلال حاصبيا وراشيا ومرجعيون وجزء من البقاع الغربي...

ومن أبلغ التصريحات التي تكشف عن نوايا إسرائيل في الاستيلاء علىٰ مياه الليطاني ما قاله «ليفي أشكول» لصحيفة «لوموند» الفرنسية في السابع من تموز (يوليه) ١٩٦٧م:

«... إن إسرائيل العطشىٰ لا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترىٰ مياه الليطاني تذهب هدراً إلىٰ البحر، إن القنوات باتت جاهزة في إسرائيل لاستقبال مياه الليطاني».

وفي رسالة «بن جوريون» إلىٰ الرئيس الفرنسي «ديجول» يقول:

«... إن أمنيتي في المستقبل جعل الليطاني حدود إسرائيل الشمالية» وبعد حرب ١٩٦٧م صرّح «موشيه دايان» قائلاً: «... إن حدود إسرائيل أصبحت طبيعية علىٰ جميع الجبهات باستثناء لبنان».

وتواصل إسرائيل قضم الأراضي اللبنانية تحت شعار عملية السلام للجليل وتحقيق الأمن لحدودها الشمالية، والحقيقة أنها تهدف إلىٰ تحقيق مطامع دينية توراتية واقتصادية حيوية في الأرض والمياه، وهٰذه العملية هي استكمال لما بدأته عام ١٩٤٨م إذ اقتطعت أرضاً من العديسة ودير الميماس وكفركلا وحولا وميس الجبل...

وفي جنوبي لبنان تقيم إسرائيل تحصينات تذكِّر بخط «ماجينو» فضلاً عن الرادارات ومحطات الإنذار المبكر التي تمتد من أعالي جبل الباروك حتىٰ مصب نهر الأوَّلي، إلىٰ جانب المطارات العسكرية والتحصينات الأخرىٰ، كما تحاول الآن شق طريق يصل قرية بسهي بجبل الشيخ وصولاً إلىٰ قرية عين شمس في مرتفعات الجولان المحتلة، ويمر هٰذا الطريق بمشغرة وحاصبيا في البقاع الغربي، ويلاحظ أن أكثرية السكان في المناطق التي يمر بها الطريق هم من الدروز، وبذٰلك يتحقق ما تعمل له إسرائيل من وجود الأحزمة الطائفية حولها...

والأخطر من ذٰلك كله: عملية التهويد العملي التي تمارسها إسرائيل في الجنوب، فهي تقوم بإعادة كتابة أسماء القرىٰ هناك باللغة العبرية، وتطمس الأسماء العربية لها، كما تقوم وحدة تابعة للجيش الإسرائيلي تدعىٰ «وحدة المساعدات المدنية» بفتح المدارس لتعليم اللغة العبرية، وفي بعض المدارس الرسمية يفرض الإسرائيليون تدريس اللغة العبرية من قبل معلمين يكلفونهم بذٰلك...

لقد تحول اسم الجنوب اللبناني في لغة الأحزاب الدينية الإسرائيلية إلىٰ «إسرائيل العليا» وفي لغة السياسيين إلىٰ «الضفة الشمالية» والقليل من المراقبين يصدقون أن إسرائيل يمكن أن تنسحب من جنوبي لبنان بعد الآن...

الشعور بالتحدي..

ونحن لا نريد بما عرضنا له أن نساهم بصور اليأس والتشاؤم التي بلغت مداها في عالمنا العربي، لٰكن الأمر الذي نقصد إليه هو بيان صور التحدي والكشف عن حقيقة هٰذا التحدي الذي يواجه الأمة، لأن الشعور بالتحدي يوقظ الحس، ويلهب المشاعر، ويذكي الروح، ويجمّع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد، ولندعو الأمة لمراجعة الحساب وإعادة النظر بالوسائل والأهداف علىٰ المستويات كلها، ذٰلك أن الأمة الإسلامية قد أصيبت في تاريخها بالكثير الكثير من المآسي والنكبات، لٰكنها كانت دائماً قادرة علىٰ تجاوز المحن حال عودتها إلىٰ أصولها تستمد منها مصادر القوة بعد أن تُسقِط جميع الصور المشوهة والزائفة التي سبّبت هٰذه المآسي...

ونعتقد أن وجود إسرائيل سيبقىٰ وجوداً عارضاً مهما طال به الزمن، ولنا من بعض المواقف والشعارات المؤمنة في معاركنا الحديثة مع يهود نافذة كافية للدلالة علىٰ ما نقول، وأن أعمار الأمم لا تقاس بجيل أو جيلين، وقوة الأمة لا يحكم عليها من خلال فترات المرض التي تعاني منها، وأن قضية فلسطين ليست ملكاً لجيل بعينه يساوم عليها أو يتهاون في المواجهة والدفاع عنها، وإنما هي ملك الأمة بكل أجيالها وتاريخها وعقيدتها...

إن قيام إسرائيل علىٰ الرؤية الدينية التوراتية يجب أن يكون باعثاً لنا علىٰ العودة إلىٰ عقيدتنا، درع صمودنا وعدة جهادنا، لٰكن للأسف ابتلعنا الطعم الذي أُلقي لنا وسقطنا في الشرك، وكانت فرية التفريق بين اليهودية والصهيونية، الأمر الذي ساهم إلىٰ حد بعيد بتكريس انسلاخنا عن إسلامنا، واستمرار المغالطة، ولم نجنِ من قيام إسرائيل انبعاث الروح الإسلامية كما استيقظت في الحقبة الصليبية والهجمة المغولية، وإنما الذي جنيناه ظهور النزعات الطائفية واستيقاظ أحقادها التي تزيد من إنهاكنا وتمكن ليهود في أرضنا...

يقول «بن جوريون»:

«. . . علينا أن نتذكر أنه من أجل قدرة الدولة اليهودية علىٰ البقاء لا بد أن نكون جيراناً للبنان النصراني من جهة، وأن تكون أراضي النقب القاحلة من جهة أخرىٰ، وكذٰلك مياه الأردن والليطاني وثلوج جبل الشيخ داخل حدودنا. . .».

لقد استطاعت إسرائيل أن تزرع - وهٰذا من لوازم وجودها - **ألغاماً طائفية** وتستمسك بفتيلها لتفجرها في الوقت الذي تريد، ولقد استطاعت أن تنجح في إقامة كيانات طائفية، ظاهرة ومقنعة، تلك الطائفيات التي كانت ولا تزال جسراً يعبر من خلاله أعداء هٰذه الأمة في تاريخها الطويل..

ولسنا الآن بسبيل التذكير بالحملات الصليبية ومَن كانوا أدلَّاءها وأعوانها في العالم الإسلامي، ولا الهجمات التترية المغولية ومَن كانوا عملاءها وعيونها، ولا الاستعمار الحديث ومَن كان معتمده ومرتكزه. . .

وَبَعْد: فإن فهمنا الصحيح ووحدة انتمائنا للإسلام الذي وسع الجميع بعدله، وضمن لهم حرية المعتقد، هو الطريق الوحيد، تاريخياً وحضارياً وواقعياً، لحل المشكلات التي نعاني منها علىٰ مختلف الأصعدة.

صفر ١٤٠٤هـ - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤م

□ □ □ □ □ □

تأملات في
مسيرة العمل الإسلامي (١)

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

من الحقائق الثابتة التي لا يختلف عليها اثنان من الناحية الشرعية، أن غاية الإنسان المسلم في هٰذه الحياة هي تحقيق معنىٰ العبودية للّه سبحانه وتعالىٰ في ذاته ومجتمعه بالمعنىٰ الشامل الذي يعني أول ما يعني القيام بأعباء الاستخلاف في الأرض بأبعاده المتعددة ونشاطاته المتنوعة، وتعمير الكون وفقاً لمنهج الله، الذي أوقفنا عليه الرسل، وكان مسلكهم وسيرتهم أنموذجاً عملياً للسائرين علىٰ الطريق، وتعاملهم مع السنن التي تحكم الحياة والأحياء هو المنهج المنوط بالمؤمن سلوكه في عمليات الهداية والتغيير للوصول بالبشرية التائهة إلىٰ تحقيق معنىٰ العبودية في حياتها التي خلق الإنسان من أجله.. أداءً لأمانة المسؤولية التي حملها الإنسان بعد أن أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها.

قال تعالىٰ:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، وقال:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ..﴾ [الأحزاب: ٧٢].

إذاً الإنسان هو أساس التغيير في التصور الإسلامي، والتزام طريق النبوة في الحركة هو منهجه، والوصول إلىٰ تحقيق العبودية والفوز برضا الله تعالىٰ هو هدفه.

وهٰذا لا بد له من نية وهي اقتناع العقل وعزم القلب وانبعاث الهمة، والعمل الذي هو الاستجابة السلوكية والتعبير الإيجابي عن القناعة العقيدية والنفسية والفكرية ودليل صدقها. قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت]، وقال رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيَّات وإنما لكل امرئٍ ما نوى».

لذٰلك اختلفت النبوة عن الفلسفة وجاء عطاء الأنبياء مختلفاً تماماً عن نظرات الفلاسفة ومعارفهم الباردة العاجزة. وقافلة النبوة في الهداية والعطاء مستمرة تكتسب كل يوم مواقع جديدة. حيث لم يبقَ لنظرات الفلاسفة إلَّا بعض القيمة التاريخية التي لم تتجاوز الكتب والمكتبات، ولم يكن لها نصيب يذكر من التغيير الاجتماعي. من هنا نقول:

❋ ❋ ❋

وسائل لا غايات

إن الحكومات والجماعات والجمعيات والتنظيمات وصور التكتلات جميعاً التي يسعىٰ إليها الناس إنما هي وسائل لتحقيق الأهداف وليست غايات بحد ذاتها، إنما تشرف هٰذه الوسائل بشرف غاياتها وتقصد للحصول علىٰ قدر أكبر من تحقيق تلك الغايات التي يقصر عنها الجهد الفردي فتكون الجماعة ويكون التجمع وتكون القيادة.

وبالتالي فلا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب هٰذه الوسائل إلىٰ غايات بحد ذاتها وإنما يجب أن تبقىٰ وسائل محكوماً عليها بمقدار ما تحقق

من الغايات التي سبقت الإلماحة إليها وهي تحقيق العبودية للّه تعالىٰ والفوز برضاه.

فليست غاية الدعوة إلى الله والعمل الإسلامي بصوره المختلفة الأساسية، الوصول إلىٰ الحكم والسلطة بأشخاصه وبمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية وينتهي الأمر، وإنما الحكم بحد ذاته لا يعدو في نظر المسلم أن يكون من وسائل تحقيق معنىٰ العبودية ونشر الدعوة وحمايتها في مدًى أوسع ومساحة أشمل؛ ذلك أن المهم في نظر المسلم أن تتحقق المعاني التي يريدها الإسلام، وليس المهم أن يحكم أشخاص أو جماعات بأعيانهم.

ومن هنا يفترق منهج العمل الإسلامي عن المناهج الأرضية كافة التي تنحصر أهدافها وتتحقق عند الوصول إلىٰ السلطة وتكون أقصىٰ غاياتها الاحتفاظ بها وتقسيم الغنائم علىٰ الأنصار لضمان ولائهم ودعمهم وعبوديتهم. لأنهم أصحاب المصلحة الحقيقية في الحكم والثورة كما يسمونهم، ومطاردة الخصوم لأنهم مكمن الخطر الدائب علىٰ ما حصلوا عليه من مكاسب شخصية، أما العمل الإسلامي فيتابع سيره وتلقىٰ علىٰ عاتقه مسؤوليات جديدة ويتسع معنىٰ تحقيق العبودية ويعظم التكليف. قال تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج].

إنها الأمانة والمسؤولية التي تبدأ بعد الحكم وليس الاسترخاء والقعود عن أداء تلك الأمانة.

والمسلم كفرد والمسلمون كجماعة مطلوب إليهم دائماً أن يكونوا في مستوىٰ إسلامهم بناءً؛ استجابة لخطاب التكليف، وفي مستوىٰ عصرهم فهماً وحركة وإدراكاً لطبيعة المتغيرات التي لا تتوقف عند حد لتكون وسائلهم في العمل الإسلامي في مستوىٰ العصر.

وإن الهاجس الدائم للمسلم الحق الذي يورث الفاعلية التي لا تنطفئ

محاولة ارتياد آفاق أفضل، والحصول علىٰ نتائج أشمل، وامتلاك وسائل أكثر تطوراً وجدوىٰ في مجال الدعوة إلىٰ الله.

إن القعود عن التفكير بالتغيير والاستسلام لواقع الحال بسبب من الفهم القاصر للقضية الإسلامية والجمود علىٰ الوسائل المعروفة والوقوف عندها والاكتفاء بها وإعطائها صفة القداسة قضية أقل ما يقال عنها إنها تنافي الخلود لهٰذا الدين ومخاطبة الناس علىٰ قدر عقولهم ومطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال. إنه القبول بالواقع الإسلامي الذي لا نحسد عليه والذي بات لا يرضي إلا المنتفعين به بشكل أو بآخر، إن قبولنا بالصورة التي يقوم عليها الواقع الإسلامي الآن يعني التوقف حيث تتبدل مواقع الأفراد والجماعات في المجتمع الحاضر بين يوم وآخر، تبعاً لتبدل الوسائل وطرق المواجهة.

إن وسائل العمل الإسلامي وطرائقه وأساليبه وهياكله وعناوينه التي أصبحت عند بعضهم ديناً لا يمكن تجاوزه إنما هي أمور اجتهادية تخضع لقانون التغيير والاستبدال وليست لها صفة القداسة والثبات، ذٰلك أن الأهداف الإسلامية من الثوابت، والوسائل لتحقيق هٰذه الأهداف من المتغيرات؛ بشرط واحد أن تكون أوعية هٰذه الوسائل شرعية ومحكومة بضوابط الشريعة أيضاً. فالغاية لا تبرر الوسيلة الأمر الذي بدأ يتسلل إلىٰ بعض النفوس بسبب من الاجتهاد المريض والرؤية القاصرة.

ويمكن أن تكون لبعض الوسائل جدوىٰ في عصر معين، وقد تكون إنما جاءت استجابة لمواجهة مشكلات معينة في مجتمع له ظروفه واهتماماته.

أما وقد تبدل الزمان وتغيرت المشكلات وصورة المجتمع؛ فإن الجمود علىٰ وسائل بعينها في العمل وعدم القدرة علىٰ تجاوزها إنما هو حرب في غير معركة، وانتصار بغير عدو، ويخشىٰ أن يكون مضيعة للعمر والأجر معاً.

لا بد أن تكون عمليات المراجعة وإعادة النظر دائمة علىٰ ضوء المستجدات، ولا بد من الاستمرار باتهام أنفسنا بالتقصير عن إدراك الصور

المثلىٰ، ويبقىٰ شعارنا أن عدم تحقيق النتائج هو بسبب منا: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ومَن يظن أنه علم فقد جهل، فالعملَ الإسلامي مدعوٌ دائماً لتغيير مواقعه التي تصبح عاجزة عن مواكبة الحياة إلىٰ مواقع جديدة أكثر فاعلية علىٰ ضوء الإمكانات المتوفرة والفرص المتاحة، وتجديد وسائله واستبدالها لتكون القدرة علىٰ العطاء في كل الظروف والأحوال.

❋ ❋ ❋

فتح باب الحوار والمناصحة

وفي تقديرنا حتىٰ نصل إلىٰ الصورة الأفضل لوسائل العمل الإسلامي لا بد من فتح الباب علىٰ مصراعيه؛ بل وفتح النوافذ أيضاً في العمل الإسلامي لعمليات الحوار والنقد والمناصحة، وليس فقط فتح الباب أمام ذٰلك، وإنما التدريب عليه في أجواء العمل الإسلامي لتصب كل الخبرات في مجرىٰ الحياة الإسلامية، ويستفاد من كل الطاقات، وتسدد كل الثغرات ويستشعر الأفراد جميعهم مسؤولية الرقابة علىٰ العمل التي تحققها ممارسة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن العاملين للإسلام نواة المجتمع الإسلامي المنشود أحق بذٰلك من المجتمع بشكل عام بشرط أن تلتزم القاعدة التي تقول: مَن كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف.. ونستطيع القول:

إنه من فساد النظر: الاعتقاد بأن عملية النقد والمناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تُحدث تشويشاً في الصف الإسلامي واضطراباً في العمل.. ذٰلك أن الصف أو الجماعة التي تخشىٰ من الحوار وتخاف من المناصحة، ويلبس الشيطان علىٰ بعض أفرادها بأن الأمر بالمعروف ومحاربة المنكر يهدد كيانها، جماعة لا يوثق بها ولا تستحق البقاء، ولا تستأهل حمل رسالة الإسلام التي من أولىٰ متطلباتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففاقد الشيء لا يعطيه.

إن مطاردة عمليات المناصحة ومحاصرتها والقضاء عليها تنطوي علىٰ خطورة كبيرة تودي بأصل القضية في سبيل استبقاء الصورة الشكلية للعمل والدعوة، حيث تنقلب الوسيلة ـ التعاون في إطار الجماعة للوصول إلىٰ قدر أكبر من الخير ـ غاية بحد ذاتها.

إن التسلُّط الفردي والإرهاب الفكري الذي يقع فيه أحياناً بعض العاملين للإسلام ـ عندما يغيب عن ساحة العمل البُعد الإيماني الغيبي وما يقتضيه من خفض الجناح ولين الجانب والخلق الكريم ـ يؤدي إلىٰ لون من التشرذم وضرب من الطائفيات الجديدة، تتمزق معها رقعة التفكير وتنمو الجزئيات وتغيب الكليات ويضطرب سلم الأولويات ويضيع تصنيف المشكلات ويتوقف العمل المنتج وتنقلب الوسائل إلىٰ غايات ـ كما أسلفنا ـ وتتمحور الصورة الإسلامية حول أشخاص لا تُرىٰ القضية الإسلامية إلَّا من خلالهم وينقلب جهد العمل إلىٰ صناعة المبررات وتتغلب عملية صناعة التبرير علىٰ عقلية دراسة أسباب التقصير، ولا تعالج هٰذه القضية إلا من خلال ممارسة الحرية الفكرية والحوار الشامل والتزام أدب الخلاف الإسلامي، وجعل المشروعية للمبادئ والأفكار وليس للوسائل والأشخاص.

إن العقيدة مقرها القلب ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الدليل، والقناعة بالشيء هي الدافع لممارسته، والله تعالىٰ خاطب النبي ﷺ بأن الغاية من ابتعاثه إلحاق الرحمة بالعالمين.

قال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية]، وقال مخاطباً نبيه أيضاً: ﴿. . . أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وهٰذه من الأبجديات الأولىٰ في الدعوة إلىٰ الله وإلحاق الرحمة بالعالمين.

* * *

التربية بالقدوة

إن الخلق الحسن والسلوك الخيِّر هو الذي يُغري الناس بالإسلام وليس السوط والأثرة وحظوظ النفس.. فهل نعيد قراءة سلوكنا في العمل الإسلامي وطرائقنا في الدعوة إلىٰ الله فيكون شعارنا ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٨٨] فقد نقع علىٰ الطريق في علل الجوارح كما وقع أبونا آدم ونتوب ولا ضير فهٰذا من طبيعة البشر، لٰكن الخطورة كل الخطورة أن نقع في علل النفوس من الكِبْر والعجب بالنفس كما سقط إبليس عندما قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

العمل الإسلامي تفاعل لا ينقطعُ وتدافع بين الحق والباطل لا يتوقف. قال تعالىٰ:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠].

ومنهج الدين الحكيم أن يكون ذٰلك جدالاً لا قتالاً وتسلطاً، وحواراً لا حرباً واقتتالاً، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت:٤٦] فإذا كان هٰذا أدب الجدال مع أهل الكتاب فكيف يجب أن يكون مع المسلمين المخالفين بوجهة النظر.

وطريقة هٰذا الدين الدفع بالتي هي أحسن والصبر الجميل والصفح والمسامحة حتىٰ علىٰ الكيد والأذىٰ. ومجتمعه وتجمعه هو مجتمع البلاغ المبين، ونجاة العاملين لا تتحقق بالانسحاب من المجتمع والاستعلاء عليه، والنكوص عن عملية البلاغ المبين والنزول إلىٰ المخابئ وتغييب سياسة الدعوة وممارسة العاملين وسلوكهم عن الأنظار الأمر الذي يعطل عملية البلاغ المبين ويؤدي إلىٰ النمو غير الطبيعي، ويوقف الحوار ويعطل عملية الرقابة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باسم أمن الدعوة.

إن قضية الدعوة السرية كوسيلة لحماية الدعوة من أعدائها والتي توضع

لها عادة بعض المسوغات والفلسفات المرضية نظرياً لا تلبث أن تزحف لتمارس علىٰ الدعوة نفسها وتحول دون أداء وظيفة التصويب الأساسية والرقابة العامة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبذٰلك يتكرر خرق السفينة من المستهمين فيها لعدم رؤيتهم والأخذ علىٰ أيديهم، ثم تنتهي إلىٰ الغرق.

إن الدعوة إلىٰ السرية لم تقتصر علىٰ مواجهة أعداء الدعوة ولم تتوقف عند عتبة الدعوة الإسلامية وإنما تسللت تحت اسم المصلحة إلىٰ أجوائها فأصبحت ممراً لتقديم الولاءات وإبعاد الكفاءات عن مواطن الحل والعقد.

وكان أول ضحايا الدعوة إلىٰ السرية مقومات العمل الإسلامي وليس أعداؤه.

إن سياسة الخفاء كوسيلة من وسائل الدعوة ونشر هٰذا الدين إلىٰ جانب أنها تتعارض مع عملية البلاغ المبين مسؤولية المسلم التي بها نجاته - كما أسلفنا - فهي تتعارض مع الهدي النبوي حيث كان النبي ﷺ يخرج لتجمعات الناس ويعرض دعوته علىٰ الوفود في موسم الحج وغيره ويحتمل في سبيل ذٰلك الأذىٰ وهو الأحوج إلىٰ الأمن، ذٰلك أن إيذاء المشركين والمبطلين لدعاة الإسلام من لوازم الحق، وهو الثمن الذي لا بد منه للعقيدة، وفرق كبير بين مَن يدفع ثمن ثباته علىٰ العقيدة وبين مَن يقبض ثمن العقيدة، ولا نزال نذكر من سيرته ﷺ عندما جمع المشركين عند الصفا ليقول لهم: **«إني رسول الله إليكم بين يدَيْ عذابٌ أليم..»** فقال أبو لهب: تبًا لك.. ألهٰذا جمعتنا؟

وهديه في بيان أعظم الجهاد الذي هو إظهار الحق وقولته أمام الإمام الظالم هكذا جهاراً نهاراً لا خفاء فيه.

قال رسول الله ﷺ:

«إن من أعظم الجهاد قولة حق عند سلطان جائر».

إن مسؤولية المسلم تتحدد بإظهار الحق والثبات عليه ولو كان ثمن ذٰلك حياته وليس شيئاً آخر.

ويجب أن لا يغرب عن بالنا ما ألحقت الدعوات السرية والباطنية بالإسلام من كيد، وما لحق فكرها من انحراف وعقيدتها من زيغ، لأنها مشت في الأنفاق المظلمة ولم يكن هناك سبيل للتصويب والحوار ورصد نتائجه باسم الحفاظ على الكيان والسرية والأمن.

❋ ❋ ❋

الاحتساب وعدم الاحتراف بالإسلام..

ولعل من أهم الشروط لنجاح عملية البلاغ المبين والوصول بالدعوة إلى نفوس الناس امتلاك الدعاة خصائص وصفات متفوقة حتى يستطيعوا أداء المهمة المنوطة بهم، وقد يكون من أهمها الاحتساب والزهد بما في أيدي الناس والابتعاد عن مزاحمتهم على ما هم فيه وعدم الاحتراف بالإسلام. قال تعالى محذراً أتباع الرسالة الخاتمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ...﴾ [التوبة:٣٤] لقد كان فساد ـ القلب ـ الأحبار والرهبان سبباً في فساد الجسد وسقوط الأمم السابقة وجعلها وسائل إيضاح للأمة الإسلامية التي تحمل الرسالة الخاتمة فلا تنتقل إليها العلل التي أصابت الأديان السابقة على يد أتباعها ودعاتها.

وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة وكان شعار الأنبياء جميعاً: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء].

ذلك أن الاحتراف بالإسلام وتوظيف الإسلام لمآرب شخصية يشوه وجه العاملين لهذا الدين، ويقيم جداراً نفسياً يحول دون وصول دعوة الله واستنقاذ البشر مما هم فيه لدرجة قد تساهم مساهمة سلبية في إيذاء الدعوة وتحنيط الدعاة.

لذلك كان لا بد من التدليل عملياً على أن مجتمع الدعوة الإسلامية مجتمع عطاء وليس مجتمع أخذ.. مجتمع واجبات قبل أن يكون مجتمع

حقوق.. مجتمع هداية وليس مجتمع جباية.. مجتمع الإيثار وليس مجتمع الأثرة، وأن هٰذه القضية لا تتحقق بشعار يُرفع أو بزمن بسيط بل لا بد من ممارسة من العاملين ليصبح ذٰلك خلقاً، ومن اختبارات من الناس ليقفوا علىٰ الحقيقة ويتجاوزوا صور التضليل والتشويه التي تمارَس علىٰ العاملين للإسلام حتىٰ يكون ذٰلك منهج دعوة وليس وسيلة دعاية.

وبمجرد أن يخرج العمل الإسلامي عن هدف الاحتساب فإن أعداءه أقدر علىٰ دفع الثمن واحتواء العمل الإسلامي، ولا يعدم عمل من الأعمال منتفعين به ومستغلين له.

* * *

جماعة المسلمين..

من الخطأ العقيدي والتاريخي والحضاري الاعتقاد بأن الإسلام حكراً علىٰ جماعة بعينها إلىٰ درجة تعلن معها أنها جماعة المسلمين أو أنها تمتلك الحق المحض وغيرها يعيش علىٰ الباطل المحض. ومن هنا يبدأ الانحراف وتتسع زاويته ويبدأ التعسف في إصدار الأحكام علىٰ الناس إلىٰ درجة قد تصل إلىٰ تكفير مَن لا ينسلك في طريقها ولا يرىٰ رأيها، كما أن الإسلام ليس حكراً علىٰ طائفة أو حزب أو جنس بشري، وإنما هو دين الله الخاتم ورسالته الخالدة للبشرية جميعاً، وأن الرسول الكريم ﷺ هو وحده محل القدوة والأسوة ومصدر التلقي.

قال تعالىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾ [الأحزاب: ٢١] وأن أي إنسان أو جماعة أو طائفة أو جنس بشري لا يمتلك ذٰلك، مهما علا شأنه، فإنه يبقىٰ متبعاً وليس بمبتدع، ويبقىٰ الإسلام هو الحاكم علىٰ سلوكه ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون سلوكه هو المنهج والمقياس، وأن نصيب المسلمين أفراداً وجماعات من نصرة الإسلام متفاوت بمقدار ما يقدم كل

منهم للدعوة وبمقدار ما يقترب بسلوكه من المثل الأعلىٰ محمد ﷺ.

والإسلام دين جماهير الأمة وأمل هٰذه الجماهير وهدفها والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] والرسول ﷺ يقول: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله**» من هنا يمكن القول:

إن الجماعات والجمعيات التي تدعو للإسلام ليست مراكز احتكارات له بعيدة عن جماهير الأمة ومنفصلة عن جسمها وهدفها، وإنما هي مجموعات ترجو أن تكون أكثر كسباً للقضية الإسلامية وأشد اهتماماً بها، يجب أن تكون مراكز متقدمة تتمثل الإسلام وتعطي أنموذجاً عملياً للحياة الإسلامية، وتدرب على المعاني الإسلامية، وتمثل الإسلام بصورة عملية لتغري بسلوكها الجاهلين بحقيقة هٰذا الدين وتكون لهم دليلاً ومرشداً ولا تحتكر الخير وتنتهي إلىٰ تشكل غريب في جسم الأمة بعيد عن حمل أهداف الجماهير المسلمة والدفاع عنها، والتحمُّل في سبيلها متمثلة قوله تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران].

جمادىٰ الأولىٰ: ١٤٠٤هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٤م

□ □ □ □ □ □

تأملات في
مسيرة العمل الإسلامي (٢)

«لا خير فيهم إن لم يقولوها.. ولا خير فينا إن لم نسمعها»

(عمر بن الخطاب ﷺ)

نرىٰ أنه لا بد أن نقرر ابتداءً أن **عمليات النقد والمناصحة والتقويم والمراجعة** وإلقاء المزيد من الأضواء علىٰ جوانب التقصير في العمل الإسلامي، ووسائل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ـ بهدف التصويب ـ ليست بالأمر الجديد أو المبتدع في المجتمع الإسلامي.

* * *

المنهج القرآني.. في التصويب والتسديد

إن المنهج القرآني والتدريب النبوي بلغ في ذٰلك المدىٰ الذي لم يدع مجالاً لشك أو التباس أو غموض، حتىٰ إن عمليات التصويب والتسديد تناولت الرسول القدوة ﷺ في بعض ما اجتهد فيه، فقال تعالىٰ:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال]، وقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

وعندما رأىٰ ﷺ عدم استقبال عبد الله ابن أم مكتوم، وتولّى عنه ليستقبل كبراء قريش، اجتهاداً منه بأن في ذٰلك مصلحة الإسلام والمسلمين، نزل قوله تعالىٰ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾﴾ [عبس].

كما أن القرآن الكريم عرض لكثير من الغزوات والأعمال عندما كان يربي الجيل الأول علىٰ الإسلام؛ ليكون **«الجيل القدوة»**، وعرض كثيراً من جوانب الخطأ والتقصير علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي؛ حتىٰ وصل في أعقاب بعض المواقف إلىٰ القول:

﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ففي غزوة بدر الكبرىٰ جاء قوله تعالىٰ:

﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال].

وفي غزوة أُحد جاء قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ۞ إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ [آل عمران].

وفي غزوة تبوك جاء قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا...﴾ [التوبة].

وفي غزوة حنين جاء قوله تعالىٰ:

﴿... وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة].

ولسنا الآن بسبيل استقصاء هٰذا، وتكفي نظرة اطلاعية وليست استقصائية لكثير من أسباب النزول، وكثير من أخبار السير والمغازي لتؤكد أن حراسة القضية الإسلامية، وبناء قاعدة المجتمع الإسلامي الصلبة، وتربيتها علىٰ الإسلام الصحيح إنما كانت بالتسديد الدائم والتبصير بالأخطاء ليتم استدراكها فتصوب المسيرة...

إنه المنهج القرآني والآيات القرآنية الخالدة تتلى علىٰ الأجيال، جهاراً نهاراً، لتبصر منهج حركتها، وتتجنب الخطأ في مسيرتها، وتلتزم المناصحة لا تحيد ولا تنصرف عنها لأي سبب أو توهم، وقد مارسها جيل القدوة علىٰ أعلىٰ المستويات وأدناها، فالدين النصيحة في الإسلام وهي للّه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم...



توقف عمليات النصح والتقويم..

ولا بد لنا أن نعترف أيضاً أن كثيراً من العاملين للإسلام اليوم ليسوا بمنأىٰ عن الإصابة بالأمراض والعلل التي أصابت مجتمعاتهم المتخلفة، فهم قد يتميزون عن غيرهم بفكرهم وعقيدتهم لٰكنهم يشاركون مجتمعاتهم بممارساتهم وأعمالهم إلىٰ حد بعيد... لذٰلك ونتيجة للسقوط تحت وطأة وضغط هٰذه المجتمعات أقفلت مجالات الحوار التي شرعها الإسلام،

وتوقفت عمليات المناصحة والنقد والدراسة والتقويم بالحجم والقدر المطلوب، وسادت عمليات التبرير والإطراء والمديح، فتكرست الأخطاء، وافتقدنا الصواب والتصويب - مسؤولية كل مسلم - وقد أشرنا سابقاً إلىٰ أن توقف عملية الرقابة العامة - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - باسم الخوف علىٰ الصف الإسلامي من التخلخل وحدوث التشويش نوع من التوهم... فالخوف إنما يكون من استمرار المعاصي والأخطاء وليس في معالجتها ليصبح العمل سليماً معافىٰ، خاصة وأن تجربة الرقابة العامة في المجتمع الإسلامي القدوة غنية أيما غنىٰ...

ولا شك عندنا أن كثيراً من الإخوة، من الذين تحفزهم الغيرة علىٰ المصلحة الإسلامية، والإخلاص للعمل الإسلامي لا يرون أن تتم عمليات النقد والمناصحة للعمل الجماعي بشكل ظاهر واضح بحجة أن ذٰلك يمكن أن يمكِّن العدو من معرفة عيوب العمل الإسلامي وأخطائه وتقصيره، وبالتالي يحاول التسلل إليه من هٰذه الفتوق، ويشتد في إنهاكه والغارة عليه، في الوقت الذي نرىٰ من شراسته وعدوانه ما لم يدع استزادة لمستزيد، فيخشىٰ والحالة هٰذه أن تنقلب عمليات النقد والمناصحة إلىٰ مساهمة سلبية في إنهاك العمل... وتختلط في ذهنهم طرائق مناصحة الفرد لتصويب بعض أخطائه والتي يجب أن تتم في إطاره وإلا خرجت إلىٰ لون من التشهير، وطرائق مناصحة الجماعات ذات التوجه العام والقاعدة العريضة المتباعدة، حيث يجب أن تتم مناصحة الجماعات علىٰ شكل معلن لتأتي عامة فيراها الجميع وتكون ملكاً لهم...

ونحب أن نوضح لهٰؤلاء الإخوة أن الأعداء الذين نالوا منا ما نالوا أعرف بأخطائنا منا، لأنهم كانوا ولا يزالون يتسللون من خلالها، ويحققون إصاباتهم من قبلها، ويستميتون في تكريسها واستمرارها وعدم قدرتنا علىٰ إبصارها، وتخويفنا من معالجتها، والواقع الذي لا نُحسد عليه دليل علىٰ ما نحن بصدده، فأعداء الإسلام يعرفون أخطاءنا وتقصيرنا، والذي لا يعرفها أو لا يحب أن يعترف بها هو فقط نحن، لأننا مصرُّون عليها، عاجزون عن

معالجتها وتجاوزها، وقد تكون كتابات الأعداء ووثائقهم التي يفرج عنها مصدراً لمعرفتنا بها في كثير من الأحيان لكن بعد فوات الأوان. . .

❋ ❋ ❋

خطورة الإبقاء علىٰ الأخطاء وتعطيل الحوار والمناصحة

إن الإبقاء علىٰ الأخطاء لسبب أو لآخر، وعدم كشفها وتبصير الجيل بها، ومن ثم معالجتها، هو أشبه ما يكون بوجود الألغام الموقوتة التي تُزرع في الجسم الإسلامي، وقد يكون فتيلها في يد العدو يفجرها بين حين وآخر لتودي بالعمل الإسلامي كلما حاول النهوض وكاد أن يستوي علىٰ سوقه. . . لذٰلك فإن فلسفة التبرير وتوقف المناصحة وتعطيل الحوار وعدم دراسة جوانب التقصير لا يقتصر علىٰ تكريس هٰذه الأخطاء ونموها، وإنما يؤدي إلىٰ تكرارها. . . ولا بد أن يدرك دعاة الإسلام علىٰ مختلف مواقعهم أن الخطورة، كل الخطورة في التستر علىٰ الخطأ والقبول بالإبقاء عليه، فتنمو العلل في جسمنا، وليست الخطورة في بيانه ومعالجته.

إننا لا نشك في إخلاص كثير من الذين يحذرون من عميات النقد، وغيرتهم علىٰ العمل الإسلامي، ولٰكننا نشك في إدراكهم وصوابهم، حيث لا يكفي الإخلاص لبلوغ العمل غايته بل لا بد من الإدراك؛ وعمليات التصويب ـ كأمر مطلوب ـ لا تقل أهمية عن الإخلاص إن لم تكن هي الإخلاص أيضاً، بل لا بد منها ليأتي الإخلاص بالثمرة المرجوة بإذن الله تعالىٰ. . .

لقد كان هٰذا هو منهج علماء الحديث الذين أخذوا علىٰ عاتقهم القيام بالمحافظة علىٰ سنّة رسول الله ﷺ، هٰذا العمل الضخم، وضع أصول الجرح والتعديل ونقد السند والمتن، الأمور التي لو التزمها المسلمون في حياتهم وممارساتهم اليومية لكانوا أقرب إلىٰ الصواب وأبعد عن الخطأ، فبعض الرواة، علىٰ الرغم من أنهم علىٰ مرتبة من العبادة والإخلاص

لا يتطرق إليها شك، ومع ذلك لم تقبل روايتهم لعدم قدرتهم على الضبط، ولسيطرة الغفلة عليهم...

ولقد وصل الإخلاص ببعضهم، عن حسن نية في مجال الترغيب والترهيب إلى وضع زيادات لم ترد عن رسول الله ﷺ، وعندما سئلوا عن ذلك، والرسول ﷺ يقول:

«مَن كذب عليَّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

قالوا:

«إننا كذبنا له ولم نكذب عليه»... فكان هذا محل رفض من علماء الحديث، فإن الكذب له بمرتبة الكذب عليه، ولو كان دافع الكذب عليه: الزندقة وكراهية الإسلام؛ ودافع الكذب له: الترغيب في الخير والترهيب من الشر...

إننا نعتقد أن هؤلاء المخلصين كالأم التي تصل غيرتها ومحبتها لوليدها الوحيد إلى عدم تقويم سلوكه وتربيته على تحمُّل المسؤولية، حفاظاً على شعوره فتصنع منه إنساناً هشاً عاجزاً عن مواجهة مشكلاته، وقد تؤدي محبتها له وحرصها عليه إلى موته، لأنها تحول دون تسليمه للطبيب خشية أن يخاف من مقابلته أو يتألم من بعض علاجه دون أن تدري أنها آلام موقوتة تضمن له الصحة والعافية والحصانة ضد الأمراض...

لكن تبرز هنا قضية على غاية من الأهمية لا بد من التنبُّه لها: إنها قضية الالتزام بأدب الإسلام في الحوار والخلاف في وجهات النظر، والجدال بالتي هي أحسن، والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ومخاطبة الناس على قدر عقولهم حتى لا يكذب الحق؛ وإعطاء الآخرين الحق نفسه في إبداء الرأي، والتزام منهج النبوة في أن ينصرف التقويم والتصويب والنقاش للأعمال والأفكار والبُعد عن تناول الأشخاص والهيئات والجماعات، فالرسول ﷺ الذي يعتبر سكوته تشريعاً وإقراراً لم يكن يسكت عن أي تقصير أو انحراف، لكنه كان يعمم النفع على مجتمع المسلمين

ويشيعه فلا يقعون بما وقع به صاحب الخطأ، فيقول: «**ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.. يقولون كذا وكذا...**» ذلك أنه مَن كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف، فإذا لم يُلتزم الأدب والخُلُق الإسلامي تنقلب المناصحة والنقد إلىٰ لون من التشهير والجلد يوقع في ردود الفعل حيث يتصلب المخطئون ويزيد استمساكهم بخطئهم، لكن الخطأ في المعالجة وغياب الحكمة في عمليات النقد والمناصحة لا يجوز بحال من الأحوال أن يودي بأصل القضية ويقود إلىٰ إلغاء المناصحة بحجة فقدان الحكمة وجهل وفظاظة الذين يمارسونها، وإنما يتطلب إلغاء الوسيلة غير المجدية أو تهذيبها أو استبدالها، والاحتفاظ بضرورة استمرار القضية للمجتمع الإسلامي والعمل الإسلامي.

***

حتىٰ لا نكرر الأخطاء

ولعل من أبرز الظواهر لغياب عمليات المراجعة والنقد والدراسة والتقويم التي يلمحها الإنسان في مسيرة العمل الإسلامي ومجال العاملين: العجز المزمن أو عدم القدرة علىٰ الاستفادة من تجربة العمل الإسلامي الواحد، أو من تجارب العمل الإسلامي علىٰ الساحة الإسلامية بشكل عام، لذلك فإن تكرار الأخطاء أصبح وكأنه ضربة لازب وضريبة مستمرة مطلوب إلينا أن نقدمها في كل بلد إسلامي، أو حتىٰ في البلد الواحد نفسه؛ وهذا الأمر ليس سرًا بل نرىٰ تأكيده من الجميع، ونسمع الشكوىٰ منه من الجميع أيضاً؛ وتُرفع شعارات هنا وهناك بضرورة أن يستفيد العمل الإسلامي من تجاربه الخاصة ومن تجارب العاملين للإسلام بشكل عام علىٰ طول العالم وعرضه حتىٰ لا تتكرر الإصابات.

ولعل عدم القدرة علىٰ معالجة ذلك من أشد حالات العجز التي يمكن أن تصيب الدعاة وتحاصر منطلقاتهم، وتحول بينهم وبين تحقيق أهدافهم، وتدعهم هكذا يراوحون في مكانهم، ذلك أن المفروض بالمسلم أن يكون

قادراً علىٰ الاستبصار والاعتبار بالتاريخ العام وبعبر الحوادث من حوله، فكيف إذا كان عاجزاً عن الاعتبار بتاريخه الخاص وتجنب العثرات التي سبق له السقوط فيها؟!

إن هٰذه العثرات والأخطاء تتكرر دائماً، والكل يشكو، والكل ينتهي عند عتبة هٰذه الشكوىٰ وكأنها العلاج!! ولو طُلب إلىٰ أحدنا أن يأتي علىٰ ذكر الآيات القرآنية التي تدعو إلىٰ النظر والاعتبار وتعرض لتطبيقات ميدانية من تاريخ الأمم السابقة لأتىٰ عليها بسهولة، ولأمكنه ذٰلك بمجرد اطلاعه علىٰ مادتها اللغوية في «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» لٰكننا جميعاً، إلا مَن رحم الله، نبقىٰ عاجزين عن إعمالها في حياتنا ومشكلاتنا، فنقع بعملية الهجر والعقوق لقرآننا التي حذَّر الرسول ﷺ من الوقوع فيها، قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ۝٣٠﴾ [الفرقان]
والهجر هنا لا يعني: عدم التلاوة والقراءة فقط، وإنما يعني أيضاً العجز عن وضع خطاب التكليف في مكانه المطلوب من حياتنا، وحكمنا علىٰ الأشياء من خلال قيم الكتاب والسنّة... فإلىٰ متىٰ يتكرر اللدغ من الجحر نفسه أو من الجحور المماثلة، ويركبنا الصلف، ونقرر أن الهزائم انتصارات، أو نصر علىٰ السير في الطريق المسدود، ونحول دون أية عملية مراجعة أو تقويم؟!

وفي تقديرنا أن لذٰلك أسباباً عديدة، ونحن هنا لسنا بسبيل استقصائها ووضع دراسة في هٰذا الموضوع علىٰ ضرورتها وأهميتها، وإنما لا نرىٰ من مهمتنا في هٰذا المجال أكثر من إثارة للموضوع ووضع ملامح رئيسة وتأملات يمكن أن تفيد علىٰ الطريق إلىٰ العمل الإسلامي السديد، ويمكن أن يكون أحد أبرز هٰذه الأسباب:

عدم وضع دراسة تقويمية نقدية لكل تجربة ومرحلة في مسيرة العمل والدعوة، وبيان السلبيات والإيجابيات، كما يقولون، وتحديد جوانب الإخفاق وأسبابه، وجوانب النجاح وعوامله لتكون دليلاً للجيل المسلم الذي يقف علىٰ الأرض نفسها، أو يتعامل مع الظروف ذاتها، أو للجيل القادم

الذي يمكن أن تعرض له مشكلات مماثلة فيحسن اختيار الموقع الفاعل إسلامياً كما يحسن قراءة الظروف وحسن التعامل معها ويختصر التجربة.

ونستطيع أن نقول: إن المكتبة الإسلامية الحديثة تكاد تكون خالية أو شبه خالية من الدراسات النقدية التقويمية للمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية والتجارب التي عانتها رغم كثرتها، التي تبصر الجيل بتاريخه، وتعرفه بالأخطاء، وتدربه علىٰ حسن المواجهة مع أعداء الإسلام والمسلمين... إن المكتبة الإسلامية الحديثة غنية بالكثير من الدراسات التي تحمل طابع الكلام عن الإيجابيات ووضع المبررات، وكيل المديح بلا حساب، أما الدراسات الناقدة والأصوات الناقدة، فتكاد تكون غائبة تماماً، فكيف لا يتكرر الخطأ والحالة هٰذه؟!

لقد مرّت علىٰ العالم الإسلامي أحداث جسام شكلت منعطفات كبرىٰ في تاريخه الفكري والسياسي، وكان للدعوة الإسلامية في ذٰلك مواقف، فإلىٰ أي مدًى كانت هٰذه المواقف صائبة أو خاطئة؟ ما هي جوانب الخطأ والصواب في ذٰلك؟ وهل تحققت الأهداف المرسومة إسلامياً؟ لتكون الدراسات صوىٰ علىٰ طريق الجيل المسلم تمكنه من قراءة تاريخه الحديث، وتبصره وتفتح أبصاره صوب مستقبله؛ تقول للجيل المسلم: استفد من التجربة، واحذر الوقوع في الخطأ...

إن معرفة الخطأ والصواب من حق كل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية الذين يقفون علىٰ أرض المواجهة نفسها ليكونوا علىٰ بيِّنة من أمرهم، فلا يكررون المشكلة نفسها... وحصر ذٰلك في طبقة أو مجموعة علىٰ افتراض وجوده يحمل الكثير من الخطورة علىٰ العمل الإسلامي ومستقبله...

ويمكن أن لا يكون السبب في ذٰلك - فقدان الدراسات الناقدة - عدم وجود المؤهلات والقدرات المدربة فقط، وإنما قد تكون المشكلة أن العمل الإسلامي ما يزال يضيق ذرعاً بالدراسات النقدية التقويمية تحت شتىٰ العناوين وبشتىٰ المعاذير، وقد تكون هٰذه المواقف عند كثير من العاملين عن حسن نية والتي لا تخلو من كثير من الغفلة، كما أسلفنا، إلىٰ درجة قد

تستخدم معها هٰذه الغفلة لمطاردة ومحاصرة الأصوات الناصحة الداعية إلىٰ المراجعة وإعادة النظر... ويمكن أن نفسر ظاهرة الانفصال والنزف المستمرة عن بعض صور العمل الإسلامي بسبب من ضيقه بالحوار وضيقه من تعدد وجهات النظر...

❋ ❋ ❋

التعسف في التفسير الإسلامي.. والتعصب الحزبي

وقد يكون السبب: الخطأ في الأصل: التسليم بعصمة الأشخاص أو في مشكلة الولاء للأشخاص، التي لا بد لها من فلسفة ومبررات ملازمة لاعتقاد عصمتهم عن الخطأ، فيصبح غاية الجهد، إيجاد المبررات ونفي الأخطاء، أمراً لازماً للصورة، فلا بد من الحفاظ عليهم، أحسنوا أم أساؤوا، الأمر الذي يكرس الخطأ، ويوقف المناصحة، ويستبدل بالناصحين غيرهم ممن لا يزالون في مرحلة التمييز ودون سن الرشد.

وقد يكون السبب هو التعسف في التفسير الإسلامي، ذٰلك أن بعض الجماعات والأشخاص قد تعرض لهم ظروف خاصة في أزمان خاصة فيحاولون تفسير الإسلام وإسقاط مدلول آياته وأحاديثه علىٰ ظروفهم، والقطع بما ذهبوا إليه، وعدم الاكتفاء بذٰلك وإنما تعميم هٰذا التفسير علىٰ عالم المسلمين وعالم العاملين للإسلام بشكل عام، والذي لا يرىٰ تفسيرهم هٰذا يمكن أن يكون خارجاً عن الطاعة ومفارقاً للجماعة التي نهىٰ الرسول ﷺ عنه، إلىٰ درجة قد تستبيح دمه...

وبالمناسبة يجب أن لا يغيب عن بالنا أنه من العلل الكبيرة التي أصابت أصحاب الأديان السابقة، لتكون لنا وسائل إيضاح وتجربة، فلا نقع بما وقعوا فيه، إنما كانت بممارسة الإرهاب الديني والتحكم بمصائر الناس، ومطاردة الأفكار المخالفة وتحريق كتبها، وإن أمكن قتل أصحابها، إلىٰ درجة غيبت الحقيقة وأظهرت الخرافة...

وقد يكون من أسباب تكريس الخطأ: وقوع بعض النماذج في العمل الإسلامي في حمأة التعصب الحزبي نتيجة لضغط المجتمعات وردود الأفعال؛ وتحويل الآراء الاجتهادية إلىٰ مذاهب سياسية، والتجمعات الإسلامية إلىٰ طوائف حزبية... أو بمعنًى آخر الارتكاس في مدلول المناصرة والعودة إلىٰ المفهوم الجاهلي بسبب من غفلةٍ وغياب للبُعد الديني الإيماني، وبذٰلك يكرس الظلم ويكرس الخطأ، وينتصر بعضنا ويتحزب لِمَن يواليه مظلوماً أو ظالماً بدل أن يأخذ علىٰ يديه.

وقد أشرنا سابقاً أنه من الخطأ العقيدي والتاريخي والثقافي والحضاري، والدعوي، إن صحّ التعبير، ربط الإسلام بجنس أو لون أو عرق أو جماعة أو جيل أو زمان معين، وإنما لا بد من التأكيد أن الرسول ﷺ وحده هو محل الأسوة والقدوة الذي تربّى علىٰ عين الله ﷻ وتسديد وحيه؛ وأن القيم هي المقياس وليس الأشخاص، والسبيل إلىٰ الصواب والتصويب أن نعرف الحق لنعرف رجاله، وأن يبقىٰ ميزاننا الحق وليس الرجال...

جمادىٰ الآخرة ١٤٠٤هـ - آذار (مارس) ١٩٨٤م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

حتىٰ نكون
علىٰ مستوىٰ المسؤولية

﴿بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾ [القيامة]

نستطيع أن نقول: إن الدعوة الإسلامية الحديثة استطاعت وإلىٰ حد بعيد الانتصار في المعركة الأساسية، وهي تحقيق الذات الإسلامية، وتحديد معالم الشخصية الإسلامية وبيان مقوماتها وطرحها علىٰ الساحة من جديد، والتحقق بالتميز الإسلامي علىٰ مستوىٰ التصور، وإن كان هٰذا التميز لا يزال بأشد الحاجة إلىٰ **الرشد**.. ولعل صور الصراع المحتدم بين الإسلام وخصومه، وشراسة المواجهة، مؤشر واضح علىٰ تحقق الوجود الإسلامي علىٰ الساحة، سواء نُظر لذٰلك من خلال المؤمنين به المضحِّين في سبيله، أو من خلال الخصوم واشتدادهم بالمواجهة.

كما أن الدعوة الإسلامية الحديثة استطاعت الانتصار أيضاً في معركة التحدي الحضاري، والصراع الفكري، وتخليص الجماهير المسلمة من مركب النقص أمام الحضارة الأوروبية الغازية المتفوقة مادياً، وتجاوز المشكلات التي قُذف بها العمل الإسلامي ليكون ذٰلك وسيلة ومدخلاً لاسترداد الحلول الاستعمارية لعالم المسلمين وادعاء عجز الإسلام عن المواجهة وتنظيم أمور الحياة...

* * *

وحدة العالم الإسلامي

وهٰذا لا يعني بالطبع التخلص النهائي من بعض الشراذم والأعشاب الضارة التي ما تزال تعيش في الحقل الإسلامي، وتمارس عملية النفاق الاجتماعي لإخفاء حقيقتها وتعمل لمصلحة غير المسلمين، لأن الشر من لوازم الخير، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان] كما استطاعت الدولة الإسلامية الحديثة الاحتفاظ بشعور المسلمين بوحدة العالم العربي والإسلامي وإقناعهم بأن ذٰلك دين لا يجوز التفريط فيه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء] فالأمم أقوىٰ من الحكومات، والمبادئ أبقىٰ من السياسات رغم واقع التجزئة الذي جاء به الاستعمار الحديث ليثأر لهزيمة الحروب الصليبية بعد أن أجمع علىٰ تقطيع أوصال دولة الخلافة، وأمعن في تفتيت وتذويب العالم العربي ـ قلب الأمة الإسلامية ودماغها ـ وفرض واقع التجزئة وأقام الكيانات الإقليمية والدويلات مستخدماً كل النزعات القبلية والعشائرية والعائلية والجنسية والقومية، وبعث كل الفوارق من مرقدها لتكون حواجز في وجه الأمة الواحدة علىٰ شكل لم يحدث له مثيل في العالم حتىٰ بعد الاقتسام الاستعماري لتركة الرجل المريض!! ذٰلك أن التمزيق لم يأتِ بحسب جنسية الاستعمار، وإنما مزقت البلاد العربية والإسلامية شر ممزق، وقُطِّعت إرباً إرباً رغم أن العلم الاستعماري كان واحداً، فالبلاد العربية التي كانت تابعة للاستعمار البريطاني وواقعة تحت انتدابه، كالعراق وفلسطين والأردن، جعل لكل منها كيانها الخاص، وفي مناطق أخرىٰ من العالم العربي كانت واقعة تحت الحماية البريطانية حيث بلغت التجزئة وعدد الدويلات صورة لا يقبلها العقل. . . كما قسم الاستعمار الفرنسي سورية ولبنان، وجعل المغرب العربي مغارب، ورسم الحدود وضمن حراستها، وأقام السدود والحواجز حتىٰ بات العربي المسلم اليوم قادراً علىٰ التحرك في معظم أنحاء العالم إلا في وطنه العربي. . . وكذٰلك حاول الاستعمار إيجاد البدائل الفكرية والسياسية والتربوية علىٰ الأرض الإسلامية

علىٰ شكل لم يحدث ما يشبهه في مختلف مناطق الاستعمار في العالم، ونبش القبور وقرأ الحجارة والصخور في محاولة يائسة لتثبيت الكيانات ودعم الدويلات باسم: الفن الشعبي والفلكلور، وغير ذٰلك كثير من المصطلحات. . .

* * *

المواجهة المكلفة

لذٰلك نقول: إن الدعوة الإسلامية الحديثة خاضت معارك متعددة الجوانب، وكانت المواجهة مكلفة خلال نصف قرن من الزمان.

إنه قدر هٰذه الأمة في هٰذه المرحلة من الحياة، كما أنها قدمت تضحيات وخاضت معارك ضد الظلم والاضطهاد والاستعمار والاستعباد أعادت للذاكرة صور الجهاد الأولىٰ، ودقت ناقوس الخطر اليهودي والتبعية الثقافية بشكل مبكر، ومبكر جداً، فلعلنا ندفع اليوم ثمن الانسلاخ عن الإسلام، وضريبته من التفرقة والتخلف.

نعود إلىٰ القول: إن الدعوة الإسلامية الحديثة، رغم كل محاولات التفتيت، استطاعت الاحتفاظ بشعور المسلمين بوحدة العالم الإسلامي، وعملت علىٰ تنمية هٰذا الشعور، وبدأت بإقامة بعض المؤسسات الجامعة علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي، وعقد المؤتمرات الشعبية التي تعاظم أمرها إلىٰ درجة اضطر معها الرسميون في عالم المسلمين إلىٰ رفع شعارات الوحدة العربية، والوحدة الإسلامية، بعد أن كاد بعث الكيانات الإقليمية يعصف بها، ويهدد تاريخ الأمة، ويمزق رقعة تفكيرها، ويقضي علىٰ وحدتها الشعورية الجامعة. . .

كما أنها استطاعت أن تعيد الجماهير المسلمة إلىٰ الاعتزاز بالإسلام، والاستعلاء بالإيمان، وتجديد الأمل بقدرة هٰذا الدين علىٰ مواجهة المشكلات المعاصرة بما له من تاريخ وتجربة حضارية، ولقد ساعد علىٰ

ذلك عوامل كثيرة لا يتسع المجال لذكرها، لعل من أهمها: سقوط الحضارة الغربية الأوروبية وعجزها عن الإجابة عن مشكلات الإنسان وإخفاق خريجي المدارس الاستعمارية وتلامذتها، الذين مكّن لهم الاستعمار، من تحقيق أي أمل أو تقديم أي عمل للجماهير المسلمة، وأن ما طرح من شعارات وبدائل فكرية لم تخرج في الحقيقة عن أن تكون أقنعة اختبأت خلفها الطائفيات والإقليميات التي تحمل الكيد التاريخي للإسلام، أو وسائل للابتزاز السياسي وممارسة سلخ الجماهير عن إسلامها، أو الأمرين معاً؛ رغم المحاولات المستميتة لجعل الهزائم انتصارات، وتقديم فلسفة المبررات، فقد تكرس الانفصال وبوركت التجزئة، وقامت المعارك بين العرب والمسلمين بعضهم بعضاً.

* * *

حل المعادلة الصعبة بين العلم والدين

ولعل من الإنجازات الكبيرة علىٰ المستوىٰ الفكري: استطاعة الدعوة الإسلامية حل المعادلة الصعبة التي توهمتها الجماهير المسلمة بين العلم والدين حتىٰ كادت تسقط في فرية أن العلم من لوازم الإلحاد، ذٰلك أن البعثات التي تمت تحت رقابة الاستعمار، أو ضمن مناخه اختيرت غالباً من المارقين والمترفين، ومن البيوتات المفتونة بالحضارة الغربية المادية إلا مَن رحم الله، ليعودوا إلىٰ قيادة المجتمع ويبرهنوا عملياً أنهم إنما وصلوا إلىٰ ما وصلوا إليه من الحصول علىٰ الشهادات والمراتب العلمية بسبب انفصالهم عن الدين... فقدّمت الدعوة الإسلامية نماذج إسلامية رفيعة علىٰ أرقىٰ ما يكون الانتماء والالتزام، وجاءت في الوقت نفسه علىٰ أرقىٰ المستويات في التخصص العلمي.

ولسنا الآن بسبيل أن نعرض لحصاد الدعوة الإسلامية خلال نصف قرن من تفويت لأغراض الاستعمار وإفساد لمخططاته، وحسبنا في ذٰلك الهجوم الشرس ومحاولات التصفية الجسدية التي توقع علىٰ المسلمين من

أعداء الإسلام بعد أن سقطوا فكرياً وحضارياً ووطنياً، ولم يبقَ أمامهم إلا اللجوء إلىٰ القوة والعضلات، شأنهم في ذٰلك شأن أسلافهم في مواجهة النبوة الذي قصَّه علينا الله تعالىٰ في عديد من آياته:

﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء:٦٨] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم:١٣].

إن الدعوة الإسلامية استطاعت أن تقدم هٰذا الرصيد، رغم عمليات المطاردة والمحاصرة وعدم إعطائها الفرصة والحرية لإثبات وجودها والبرهنة علىٰ قدرة الإسلام علىٰ حل مشكلات الأمة... وقد أشرنا بأنه لا يعنينا هنا أن نعرض لحصاد الدعوة الإسلامية خلال نصف قرن إنما الذي يعنينا ما يمكن أن نهتدي إليه من عيوب - رحم الله امرءاً أهدىٰ إليّ عيوبي - يأتي التنبُّه إليها مسدداً للعمل وآخذاً بيده إلىٰ سبيل الرشاد، وتكاد تكون المشكلة المطروحة الآن علىٰ العاملين للإسلام، وعلىٰ القيادات الإسلامية بشكل خاص، أو القضية المطلوبة الآن بعد أن آمنت الجماهير بالإسلام وتوجهت صوب مبادئه من جديد، بعد أن آمنت به مبادئ عامة ومُثُلاً رفيعة وقيماً ثابتة، وبدأت رحلة العودة وتجديد الانتماء، **فهل يعني هٰذا أن العمل الإسلامي أدّىٰ مهمته؟**

***

من مرحلة المبادئ إلىٰ مرحلة البرامج

إن الخطورة كل الخطورة تكمن في عملية التوقف عند حدود هٰذه الخطوة، خطوة الاكتفاء بالإيمان بالإسلام مبادئ ومثلاً، ومن ثم الاسترخاء وخداع النفس بالأماني والاستسلام لنوم عميق، وعدم القدرة علىٰ تجاوز هٰذه الخطوة إلىٰ مرحلة ترجمة المبادئ إلىٰ برامج، أو بعبارة أخرىٰ: الانتقال بالدعوة الإسلامية من مرحلة المبادئ إلىٰ مرحلة البرامج، الانتقال من مرحلة الخطب وزعامة المنابر إلىٰ مرحلة الخطط ودراسة الاحتمالات ووضع الحسابات الدقيقة لكل حركة، أي: وضع الخطط المرحلية علىٰ

ضوء رؤية شاملة للظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، وإعطاء الزمن الكافي لإنضاج كل مرحلة وعدم استعجال الثمرة، ولا يتحقق هٰذا إلا بالإدراك الكامل لمفهوم الوسع في التكليف القرآني ﴿... لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...﴾ [البقرة:٢٨٦] حيث لا يجوز أن نكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به، فنقع في إحباطات وارتكاسات تعيق نمو العمل وتقوده إلىٰ المهالك وتقتل الأمل في نفوس الجماهير المسلمة.

لا بد من الالتزام بمصلحة وحركة هٰذه الجماهير التي آمنت بمبادئ الإسلام، والاعتراف بأنها مرحلة الاختبار الصعب، ذٰلك أن المبادئ أثبتت مصداقيتها تاريخياً، وكان دورنا تجديد ذاكرة المسلمين تجاهها، لٰكن يبقىٰ اختبارنا الصعب هو ترجمة هٰذه المبادئ إلىٰ برامج، والآراء إلىٰ مواقف وهو الوجه الآخر للقضية.

* * *

وجود الرأي وفقدان الموقف

وفي اعتقادنا أن من المشكلات المهمة التي يعاني منها العمل الإسلامي اليوم: مشكلة وجود الرأي وفقدان الموقف، فالكثير الكثير من دعاة الإسلام اليوم يتمتعون بآراء علىٰ غاية الأهمية والسداد، لٰكنها الآراء التي تفتقد إلىٰ المواقف الضرورية لمسيرة العمل الإسلامي، فهل نوبخ آراءنا بمواقفنا؟! ذٰلك أن العجز عن الالتزام بمصلحة الجماهير المسلمة وحسن قيادة حركتها وفق المبادئ الإسلامية يخشىٰ أن يذهب بحصيلتنا كلها...

إن التوقف عند مرحلة الآراء والمبادئ وتركها معلقة علىٰ المنابر، أو حبيسة الكتب دون تنزيلها إلىٰ واقع المسلمين يحمل من الخطورة الكثير إلىٰ درجة قد نساهم معها بإجهاض هٰذه المبادئ وحرقها علىٰ أيدينا إذا عجزنا عن تمثلها، وبذٰلك لا نختلف عن غيرنا في نظام حياتنا ووسائل كسبنا وطرق إنفاقنا...

إن العجز عن ترجمة المبادئ والآراء إلىٰ برامج ومواقف، وعدم القدرة علىٰ ربط الأسباب بالنتائج، وعدم القدرة أيضاً علىٰ دراسة الاحتمالات، وغياب الحسابات الدقيقة والأمينة هو أزمة العمل الإسلامي اليوم أو أزمة القيادات الإسلامية بشكل عام، ذٰلك أن عدم القدرة علىٰ ترجمة المبادئ والآراء إلىٰ برامج ومواقف وربط الأسباب بالنتائج ودراسة الاحتمالات والحسابات الدقيقة يعني من وجه آخر الحكم علىٰ هٰذه المبادئ أنها أقرب في طبيعتها إلىٰ المثالية البعيدة عن متناول البشر، والخيالية الفلسفية التي قد ترضي العقل وتذكي العاطفة لٰكنها لا ترشد السلوك وتنظم الحياة، وبذٰلك يدخل علينا أعداء الإسلام من النافذة من جديد بعد أن طردناهم من الباب بحجة أن الإسلام مثالي لا يمكن تطبيقه في مجتمعات اليوم، وأنه كان يصلح لفترة معينة ولجيل بذاته، أما الآن فأين هٰذا من واقع الأمة الذي يقتضي مبادئ من نوع آخر تمتلك القابلية للتطبيق... ومن هنا ندرك أهمية تربية الجيل الأول وكيف أن الصحابي كان لا يتعلم الآية ما لم يعمل بالتي سبقتها...

قد يكون صحيحاً إلىٰ حد بعيد أن الهجمة الشرسة واستمرارية المدافعة وتعدد آفاقها فَوَّتَ الكثير من الفرص التي كان بالإمكان الإفادة منها في مجال ترجمة المبادئ إلىٰ برامج، لٰكن يبقىٰ الإلقاء بالتبعة كلها علىٰ غيرنا يعني في جملة ما يعني أننا دون سويَّة المعركة، ودون سويَّة التعامل معها، وذٰلك بعدم القدرة علىٰ امتلاك زمام المبادهة فيها واستنفاد الجهد كله بالمواقع الدفاعية والتحرك في إطار الفكر الدفاعي...

ومع اعترافنا بأنه لا بد من الاستمرار في الدفاع عن المواقع الإسلامية المهددة، والاستمرار في تحرير الأفكار الإسلامية المستهدفة لاستمرار الهجوم، يقول تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟...﴾ [البقرة: ٢١٧].

لٰكن هل المفروض علىٰ عالم المسلمين أن تبقىٰ المعركة دائرة علىٰ أرضهم، ويستمر الإسلام في معركة الدفاع عن النفس إلىٰ ما لا نهاية،

وكلما رددنا تهمة ودحرنا شبهة ألقىٰ إلينا أعداء الإسلام بأخرىٰ لنتوجه صوبها دون إمهال، أم أن «استراتيجية» المعركة بين الإسلام وخصومه تقضي بنقلها إلىٰ أرض العدو، فيكون خير وسيلة للدفاع والهجوم، ونقل الإسلام من موضع الاتهام إلىٰ موقع التحدي للمبادئ والأفكار التي عجزت عن حل قضية الإنسان؟!

❋ ❋ ❋

من المواقع الدفاعية إلىٰ المواقف الفاعلة

إن الدفاع عن النفس المسلمة وصيانتها إنما هو في حقيقته وسيلة لتكون قادرة علىٰ عطاء معين من نوع آخر. . . إلىٰ جانب أهمية التحديد الدقيق لمعركة الدفاع ومساحتها ووسائلها، الأمر الذي لا يجوز له أن يستغرق جهودنا ويستنفد طاقاتنا، فإن المواقف الدفاعية والاستمرار في مواقع الفكر الدفاعي لا تعني تقدماً ولا بصارة بالأمور، ولا شمولية في الرؤية، وإنما تعني مراوحة في المكان الواحد ولو بذل كل الجهد، وتعني عجزاً في تقدير الأمور ودراسة نتائجها، إنها تعني انفعالاً ولا تعني فعلاً، تعني إثارة ولا تعني ثورة تغييرية للواقع غير الإسلامي، قد تعني شدة بالصُّرعة لكنها لا تعني أبداً ضبط النفس عند الغضب، ومن ثم حسن التصرف واختيار الموقع الفاعل، وعدم استنزاف الطاقة والقدرة علىٰ التحكم. . .

إن الاستمرار في حالة الدفاع يجعل الزمام في يد أعداء الإسلام والمسلمين، ويبقي التحكم بالمعركة في صالحهم زماناً ومكاناً ومضموناً، فيكون الاستنزاف، ويكون الإنهاك، ويتحقق الاستهلاك، وقد يتقن العدو اللعبة فيحسن إثارة المشكلات في الوقت المناسب ويتحكم بمسار المسلمين الفكري والكتابي. . . وقد يلجئهم إلىٰ مواقع يضطرون معها إلىٰ بعض الممارسات التي هي محل نظر ابتداء من الناحية الشرعية تحت شعار: الضرورات تبيح المحظورات، وبذلك نقع في أزمة الفكر المنكوس؛ ألا

وهو: الاحتكام إلىٰ النتائج والالتزام بها دون القدرة علىٰ مناقشة المقدمات التي أدت إليها، أو نبصر المقدمات الخاطئة بعد أن نسقط في النتائج حيث لا يفيد الندم والبكاء علىٰ الأطلال...

فإلىٰ متىٰ نفتقد زمام المبادرة في الطرح، ونستمر في معالجة رد ومواجهة ما يطرح علىٰ ساحتنا، ونعجز عن الطرح؟! وإلىٰ أي مدًى يجب أن تبلغ المعركة الدفاعية التي كثيراً ما تكون خطة ذكية تصرفنا عن معالجة قضايانا الأصلية فنبقىٰ نراوح في مكاننا، خاصة عندما ينحصر جهدنا في استرداد المعارك القديمة والدخول فيها بعد أن استنفدت جهدنا ولا تزال، وقد يكون ما قدم إليها فيه الكفاية، كقضية العامية والمرأة وتحديد النسل والحجاب والسفور... وقد أشبعها أسلافنا بحثاً ودرساً، ورُدَّت علىٰ أعقابها؟!

إن المعركة التي دارت بين طه حسين والرافعي ما تزال مستمرة إلىٰ اليوم، وما يزال كثيرون منا يعانون من عقدة طه حسين!!، والمفروض أن تكون قد انتهت ولم يبقَ منها إلا القيمة التاريخية... وبذٰلك نكون قد ساهمنا شئنا أم أبينا، ومن حيث ندري أو لا ندري بصقل خصومنا، وعملقة أعدائنا وتكبيرهم لكثرة ما عاودنا مناقشة أفكارهم وتجديدها، الأمر الذي بناها وصلَّبها، وكأننا ما زلنا نحس بالغلبة في داخلنا، وكثيراً ما تواطأ أعداء الإسلام في الخفاء علىٰ اصطناع وإثارة قضايا ومشكلات، وطرح مؤلفات انتهىٰ الرأي فيها تاريخياً، وهم لا يزالون يبعثونها من مرقدها ليصرفوا جهد العاملين للإسلام إليها، وتكون فرصة لهم لتوظيف هٰذا الجهد لإنهاك عدوهم الذي يعارضون؛ وكثيراً ما اصطنعت المعارضات السياسية غير الإسلامية قضايا في المعاهد والمدارس والجامعات في العالم الإسلامي لإثارة دعاة الإسلام، ومن ثم توظيف رفضهم وإدانتهم لأغراض سياسية ينهكون بها عدوهم، أو يثيرونهم باتجاه قضية جزئية ليمرروا ما يشاؤون من أمور كبرىٰ تتعلق بأمن البلاد وحياة العباد، وقد تتطور الأمور أكثر فأكثر لتصبح الدماء الإسلامية محلاً لتصفية الحسابات الدولية... إن الكثير من القضايا غير الإسلامية تصفىٰ اليوم في عالم المسلمين علىٰ حساب الدماء

المسلمة، فهل نعيد النظر في حساباتنا ودراسة معاركنا وجدواها، ونضع استراتيجية صحيحة لمعركتنا، وننتقل من معركة تحقيق الذات إلىٰ مرحلة تفتيش الذات وتقويم الذات، قال تعالىٰ:

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

شعبان ١٤٠٤هـ - أيار (مايو) ١٩٨٤م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

التراجع إلى مواقع الفكر الدفاعي

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»

[حديث شريف]

الفكر الدفاعي أو الأدب الدفاعي، كما يحب أن يسمِّيه بعضهم، هو مرحلة طبيعية تمر بها الأمة في معركة تحقيق الذات حضارياً، وانتزاع الاعتراف بها، وتحديد وجودها، والدلالة على أن ما تمتلكه من المقومات لا يقل عما تمتلكه الأمم المتقدمة في المجال الإنساني، كما أنه ينسجم مع واقع الحياة المتطورة ولا يتخلف عنها، وهو سلاح الأمة الوحيد بعد مرحلة السقوط الحضاري، تشهره في وجه أعدائها لتدافع عن وجودها الثقافي، وتثبت به هويتها، وتبرز ذاتيتها، وتعلن استقلاليتها، وتخلص أبناءها مما يمكن أن يترسب في نفوسهم من عقد النقص نتيجة للهزائم الداخلية في مرحلة القابلية للاستعمار، والمناخ الذي يخلفه افتتان المغلوب المتخلف بالغالب المتقدم، خاصة عندما تكون مهمة الغالب وبغيته تذويب الأمة واغتيال وجودها التاريخي، والقضاء على معالم أفكارها، حيث يبدأ الغالب ـ وهذا أمر طبيعي ـ باستلام زمام المبادهة، فيقذف الأمة بمجموعة من المشكلات والقضايا، قد لا تعاني منها أصلاً، يحتجز نشاطها، ويستوعب فاعليتها، ويستهلك جهدها، ويتحكم بمساراتها العقلية ونشاطاتها الثقافية، أي أنه يسيطر على ساحة الفاعلية، ويتحكم بعطائها مسبقاً.

والأمر الذي لا شك فيه أن سلاح الأدب الدفاعي، أو الفكر الدفاعي، بحجمه الطبيعي وكونه واقعاً ضمن إرادة الأمة ومتروكاً لاختيارها

واختبارها، أمر طبيعي.. وواقع مستمر ولازم لبقاء الأمة واستمرارها..

ذلك أن ديدن الأعداء إنما هو باستمرار الهجوم الدائب، ومحاولة التفتيش عن المواقع الضعيفة للتسلل منها، ونحن بحاجة دائمة إلىٰ حراسات متيقظة ترابط في المواقع الحضارية للأمة، لضمان سلامتها، وحفظ ثقافتها، ورد كيد المبطلين عنها..

لٰكن المشكلة، كل المشكلة، تكمن في هٰذه الحرب الحضارية القائمة علىٰ الاستنزاف المستمر للطاقات الفكرية، والاستهلاك الدائم للنشاطات الذهنية لمجموع الأمة بحيث لا يترك لها من الوقت ما هو كافٍ للنظر في مشكلاتها الحقيقية والقدرة علىٰ تصنيفها، ومن ثم صرف الجهود إلىٰ معالجتها والتفرغ لها، بحيث إنها كلما حاولت الانتصار علىٰ مشكلة أو كادت، قذف إليها بغيرها لتبدأ من جديد في مواجهة الخروق الجديدة التي قد تكون موهومة في كثير من الأحيان، كما أسلفنا، تطرحها مراكز متخصصة لصناعة الاهتمامات علىٰ العالم المتخلف لإبقائه علىٰ الساحة الفكرية نفسها، يراوح فيها ولا يستطيع تجاوزها..

إن الأدب الدفاعي في نهاية المطاف يمكن أن يحقق للأمة مرحلة التمييز نوعاً ما، لٰكنه علىٰ كل حال يبقىٰ عاجزاً عن البلوغ بها إلىٰ مرحلة الرشد، إنه قد يحفظ الطاقات، أو يحافظ عليها، لٰكنه يبقىٰ دون مرحلة التحكم بها وترشيدها وتحقيقها للغايات المنوطة بها..

نعود إلىٰ القول بأن المواجهة الدفاعية يمكن أن تشكل مرحلة من حياة الأمة، وهٰذا أمر طبيعي وسليم، وأن يكون سلاح المواجهة مستمراً كأحد أسلحة المعركة الحضارية، فهٰذا أمر سليم أيضاً، لٰكن أن تكون مرحلة الأدب الدفاعي هي البداية والنهاية، ويكون السلاح الدفاعي هو كل ما تستخدم الأمة من أسلحة، فهنا تكمن المشكلة وتحصل الخطورة التي نحذر منها، والتي أقل ما يقال فيها: إنها عمليات لإلهاء الأمة عن مشكلاتها الحقيقية، واستمرارية التحكم بنشاطها الثقافي وإنتاجها الفكري، وصرف فاعليتها إلىٰ الساحات التي يرسمها العدو ابتداءً بحيث تنتهي الأمة التي تُشْعَرُ

بالخطر، ولا تستطيع أن تقدره حق قدره، إلىٰ التصرف بضرب من ردود الفعل لا تملك معها من أمرها شيئاً، وكلما حاولت الانتصار في موقع، فتح العدو عليها المعركة في موقع آخر ليصرفها إليه، ويحنط جهدها في المكان الذي يحدده مسبقاً..

ومن هنا يأتي القول بخطورة هٰذه المعركة، واتساع مساحتها التي تستغرق جهد الأمة وكل طاقتها، ويكون الحصاد هشيماً..

* * *

التحكم الثقافي..

لقد غدت القضية الآن من الخطورة بمكان، ذٰلك أنها في الماضي كانت مجرد ثمرة لافتتان المغلوب بالغالب، ومحاولة التقليد والمحاكاة فيما يمكن أن يسمىٰ «مرحلة الانضباع الحضاري» أما اليوم، وبعد أن أصبحت الدراسات الإنسانية تخضع لمختبرات نفسية واجتماعية، وبدأت بعض المراكز المتقدمة عالمياً بدراسة تاريخ الشعوب وعقائدها وعاداتها وتقاليدها، ومن ثم رسم المداخل الحقيقية لشخصيتها، وتحديد الدليل الثقافي للتعامل معها، فقد أصبحت القضية سياسة مرسومة لإبقاء الأمة في مرحلة التخلف والعجز الحضاري..

لقد أصبح في العالم المتفوق الآن مراكز متخصصة لصناعة الاهتمامات عند الشعوب، يخضع لمعطياتها: السياسيون والإعلاميون والخبراء في جميع المجالات، ولم تعد الأمور عفوية، كما يتصور كثير من الناس.. إن عملية التحكم الثقافي لها مؤسساتها ومختبراتها ودراساتها ووسائلها التي لا تقل أهمية عن عمليات التحكم العسكري، والتفوق الاستراتيجي، والتخطيط لمعارك هنا وهناك يحسبها البسطاء طبيعية، ويقرأونها ببدائية عجيبة.

لقد وصلت مرحلة الأدب الدفاعي قمتها بعد سقوط الخلافة أو إسقاطها، إن صح التعبير، ومحاولة الدول الاستعمارية تصفية الحساب مع

البقية الباقية من الوجود الإسلامي، وطرح بعض الشعارات والمفاهيم التي باتت تشكل الأوثان الجديدة للمجتمعات المعاصرة، كمفاهيم: الحرية والديمقراطية، والعدالة، والعقد الاجتماعي، وحقوق المرأة، والعلمانية، وفصل الدولة عن الدين.. التي كانت سبباً في النهضة الأوروبية وتخليصها من سلطان الكنيسة، والتي اعتبرت من المسلمات التي يجب أن تقاس بها كل نهضة، وتسلكها كل أمة لتتخلص من واقعها المتخلف وقُذف بها إلىٰ عالم المسلمين حيث زعم أنه يعيش في فراغ، فكان أن نهض بمهمة الدفاع عن الأمة وعقيدتها، ومحاولة رد التهم عنها ـ بعد أن أدخل الإسلام قفص الاتهام، وحُمّل أوزار الكنيسة التي مارستها خلال القرون الوسطىٰ، كما حُملت إليه وسيطرت علىٰ مناخ العالم الإسلامي آثار المعركة بين الدين والعلم ـ علماء ومفكرون.

ويمكن لنا أن نعتبر أن مدرسة الشيخ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده كانت تمثل هٰذه المرحلة، لقد انطلقوا في كتاباتهم وأعمالهم الإسلامية من نقطة رد التهم الموجهة، وإبراز محاسن الإسلام وبيان أن عقيدته ومبادئه لا تقل عن ما طرح علىٰ السَّاحة من شعارات، فالشورىٰ التي جاء بها الإسلام كقيمة سياسية تشريعية هي الديمقراطية عينها التي تنادي بها أوروبا، ونظرية العقد الاجتماعي ـ لروسو ـ هي ما أعلنه الخليفة الراشد أبو بكر الصديق ﷺ في خطبته الأولىٰ «أطيعوني ما أطعت الله».. إلخ.

وكان لهٰذه المدرسة من الإيجابيات الأمور الكثيرة، ذٰلك أنها دافعت عن الوجود الإسلامي، وبذلت جهدها لإثبات عظمة الإسلام بشريعته وعقيدته ومحاسنه للغرب الأوروبي ليحوز الرضا، ويلاقي القبول، ولم يتوان أصحاب هٰذه المدرسة من الاستشهاد بأقوال الغربيين من فلاسفة ومستشرقين، الذين كانوا في غالب الأحيان لا يرون مندوحة من بعض المديح للإسلام وتاريخه ليشكل ذٰلك غطاء ومظلة لتسللهم وسمومهم، لكن هٰذه المرحلة ـ مرحلة الأدب الدفاعي ـ لم تخلُ من كثير من السلبيات، وهٰذا قد يكون طبيعياً إلىٰ حد بعيد، ذٰلك أن الذي يواجه من مواقع الدفاع

قد لا تتاح له الفرصة الكاملة لاختبار وسائل دفاعه، ومعرفة أرض المعركة ليحسن التعامل معها..

من هٰذه السلبيات: الانطباع الذي ساد الساحة الثقافية من اعتبار أن ما جاءت به الحضارة الأوروبية هو الحق المطلق، والمقياس الثابت الذي لا يتسرب إليه الخلل، الصالح لكل الأمم في كل الأمكنة، فبدأت قولبة الإسلام وصبّه في القوالب الحضارية الأوروبية، حتىٰ أدىٰ الأمر إلىٰ التعسف في تفسير بعض آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ، وإخضاعها لمعانٍ مسبقة: فالطير الأبابيل مثلاً: جراثيم الحمىٰ. والشيطان: جرثومة تنمو في الإناء المثلوم. والشورىٰ هي الديمقراطية التي جاء بها الغرب. والنبوة: عبقرية..

وأدىٰ الأمر كذٰلك إلىٰ تمييع الإسلام بحجة صلاحيته لكل زمان ومكان، واستبدال تشريعات بشرية به تحت عنوان: فأينما وجدت المصلحة فثم شرع الله...

وأخذت المؤلفات لوناً من التدجين لمبادئ الإسلام، وقياس واقع العالم الإسلامي ليس علىٰ الأصول الإسلامية، بل علىٰ أصول حضارة غريبة عنه، هي الحضارة الإغريقية والرومانية التي تشكل الأصول الحقيقية للحضارة الأوروبية، فالحضارة الأوروبية كانت منطقية في هٰذا مع نفسها لأنها نمت علىٰ أصولها، أما هٰذه المدرسة، أو بعض أفرادها فقد حاول قياس الواقع الإسلامي علىٰ غير أصوله، كما قدمنا، ومن ثم كان لا بد أن تبدأ مرحلة التمييز الإسلامي نوعاً ما، فجاءت هٰذه المرحلة بكثير من المؤلفات تحاول تنقية المناخ الثقافي بالكتابة عن شمول الإسلام لجميع جوانب الحياة، وخلوده وعدم اقتصاره علىٰ تنظيم العلاقة بين الفرد وربه، كما أُريد له، وأنه دين ودولة، وأن المعركة بين الدين والعلم هي في حقيقتها معركة بين الكنيسة والعلم، وأن الإسلام دين العلم، وأن العلم يدعو للإيمان، وأن علماء الدين في الإسلام ليسوا طبقة معينة تشكل إكليروساً له رسومه وأشكاله، يحرّم ويحلّل علىٰ هواه، ويحتكر العلم

الديني. وإنما هم العلماء المتخصصون، ومَن عرف حجة علىٰ من لم يعرف. وهم بشر يخطئون ويصيبون، ويؤخذ من كلامهم ويرد، ومعيار القبول والرد موافقة الكتاب والسنة... وأن المشكلات التي يقذف بها إلىٰ العالم الإسلامي مشكلات وهمية لا وجود لها حقيقة وإنما هي مشكلات مصنوعة لا بد من إثارتها للتمهيد لاستيراد الحلول (في مرحلة استيراد المشكلة واستيراد الحل لها).

❋ ❋ ❋

القابلية للتراجع

ثم أعقب ذٰلك مرحلة الاعتزاز بالإسلام، والاستعلاء بالإيمان، وتبدلت المواقع، وانتقل المسلمون من مرحلة الدفاع هٰذه إلىٰ مرحلة التحدي، وخرج الإسلام منتصراً لتدخل الحضارة الأوروبية المادية قفص الاتهام، حيث بدا سقوطها، وظهر زيفها، وباتت عاجزة عن تحقيق إنسانية الإنسان.. فالإسلام دين الإنسان، والإسلام دين الفطرة، والإسلام هو الحضارة، والمستقبل لهٰذا الدين، وهو الطريق لخلاص البشرية من الطواغيت، وتحررها من العبوديات وتسلط الإنسان علىٰ الإنسان، والذي مُورِسَ تحت شتىٰ العناوين والشعارات الزائفة، ليس علىٰ المستوىٰ الإسلامي فقط، وإنما علىٰ المستوىٰ الإنساني أيضاً..

وفي تقديرنا أن المشكلة، كل المشكلة، تكمن الآن في محاولة إرجاع المسلمين إلىٰ مواقع الفكر الدفاعي من قبل خصوم الإسلام مجتمعين علىٰ ما بينهم من تناقض، لأنهم أحسُّوا بأن الجسم الإسلامي بدأ يتحرك من جديد بعد هٰذا السبات الطويل، وبدأ يخرج عن وصايتهم ويهدد مصالحهم، والمشكلة الأكثر خطورة الآن هي: القابلية النفسية عند بعض المسلمين للتراجع إلىٰ مواقع الفكر الدفاعي، ذٰلك أن مراكز صناعة الاهتمامات في العالم مستمرة في عملها، والتحذير من الصورة الإسلامية والصحوة الإسلامية أصبح ظاهرة ملفتة للنظر، وأن طرح المشكلات ووضع بعض

التصرفات الشاذة تحت المجهر أصبح واضحاً لكل ذي عينين، وذٰلك لإعادة المسلمين إلىٰ مواقع الفكر الدفاعي..

ولسنا الآن بسبيل الاستقصاء للنماذج والأمثلة الكثيرة المطروحة علىٰ الساحة الإسلامية، من العودة إلىٰ قضايا المرأة وحقوقها وعملها، والطلاق والتعدد، والهجوم علىٰ اللغة العربية بأكثر من أسلوب وفي أكثر من بلد إسلامي، لأن ذٰلك لا مجال به في هٰذه العجالة التي تفترض الإشارة إلىٰ القضايا والمشكلات، وإثارة الأذهان باتجاهها فقط، من هنا كان لا بد من الوقوف عند بعض النماذج.

خصصت مجلة «تايم» في عددها الصادر يوم ٦ نيسان (أبريل) ١٩٧٩م موضوع الغلاف لصورة مؤذن يدعو المؤمنين إلىٰ الصلاة، وجاء الموضوع تحت عنوان «عودة المجاهد» وبعد الحديث عن ظاهرة انتشار الإسلام، والتحذير من هٰذه الظاهرة في أكثر من منطقة، وأنها تمثل روح التعصب والعودة إلىٰ همجية القرون الوسطىٰ، قالت المجلة: إن الشعب المصري قد عاد من جديد إلىٰ التلفظ بكلمات إسلامية مثل: إن شاء الله. وبسم الله، والحمد لله، عندما يركب السيارة أو يأكل... إلخ.. ويقول الكاتب: إن الظاهرة لا يقودها إلّا الشباب!!

وفي الجزائر: الصبي البالغ من العمر ١٤ سنة علىٰ اتصال دائم خمس مرات يومياً بجماعة تشرف عليه في المسجد..

وفي تونس: الطلاب يشنون حرباً علىٰ الشر والرذيلة، وذٰلك بطلاء الصور العارية علىٰ الجدران، وكتابة آيات قرآنية..

وفي مصر: مئات من الطالبات الجامعيات يتحجبن ويطالبن بعدم الاختلاط..

حتىٰ في «إسرائيل» هناك إقبال علىٰ الإسلام من قبل الشباب.

يقول «رافي إسرائيلي» وهو محاضر للدراسات الإسلامية في الجامعة العبرية في القدس:

إن هناك اتجاهاً جديداً عند الشباب المسلم نحو الإسلام، مليء بالبهجة والسرور، إذ أصبح الإسلام قصة هٰذا القرن.

وتقول «مارفن زونيس» الخبيرة اليهودية في جامعة شيكاغو:

الإسلام يستعمل كوسيلة مدرعة لرد الضربة الثانية علىٰ الغرب، فقد بدأ المسلمون يحسون أن الغرب كان متحكماً فيهم خلال المائة والخمسين سنة الماضية..

وفي عدد آخر يقول مراسل المجلة نفسها في القدس «داڤيد أيكمان»:

يلاحظ الزائر لجامعة «بير زيت» في الضفة الغربية المحتلة العديد من اللوحات واللاصقات والبيانات التي تبدأ بعبارة:

بسم الله، من هنا نبدأ.. وتختتم المجلة تحقيقها قائلة:

يبدو أن السلطات الإسرائيلية في الوقت الحاضر تدرك مدىٰ معارضة الجماعات الإسلامية للاحتلال الإسرائيلي، وأنها ستجعل من هٰذا الاحتلال علىٰ المدىٰ البعيد عملية صعبة.

ويقول مسؤول إسرائيلي في الضفة الغربية:

إذا نمت وتطورت هٰذه الجماعات فإنها ستكون ناراً علينا..

وجذور هٰذه القضايا، والتخويف منها، والهجوم عليها لتشويه الصورة الإسلامية ليس غائباً عن كثير منا، فلا يزال أكثرنا يذكر أو يتذكر الضجة الرهيبة الرعيبة التي أثارتها الصحافة في الغرب في أعقاب نكبة حزيران ١٩٦٧م من التحذير من عودة روح الجهاد إلىٰ المنطقة، أو عودة ما يسمىٰ بالتطرف أو التعصب الديني...

فالعدوان الإسرائيلي ليس قضية، واحتلاله الأرض ليس مشكلة، وترويع الآمنين لا يحرك ضميراً، وإقامة «إسرائيل» علىٰ الحقد والتعصب والعنصرية ليس أمراً ذا بال، إنما المشكلة، كل المشكلة، تكمن في عودة

التعصب الديني للمسلمين؟! وانبعاث روح الجهاد من جديد في الجسم الإسلامي!!.. وفي هٰذا ما فيه من الخطورة علىٰ المصالح الأجنبية.

* * *

صناعة التطرف..

وما يزالون وراء هٰذه القضية يجندون لها الكتّاب والصحفيين، والدبلوماسيين والسياسيين، ويستنفرون لها أتباعهم من كتّاب وصحف ومجلات، ويضعون المظاهر الشاذة منها تحت المجاهر يوجهون إليها الأنظار ويغرون بها، وقد تكون إلىٰ حد بعيد من صنعهم، حتىٰ أصبحت مشكلة مطروحة ذات أبعاد ودلالات لا بد من مواجهتها، تفرد لها الملفات ويستدعىٰ لها الكتّاب والمفكرون، وتحدد لهم مسبقاً الجوانب التي يعالجونها والمساحات المطلوب إليهم التحرك فيها، وهنا نرىٰ أيضاً أن بعض الكتّاب والمفكرين أخضعوا لمحاضر تحقيق، لٰكن من نوع آخر، هي سلطة بعض رجال الصحافة بأسئلتهم المحددة، وليست سلطات الأمن، لوضعهم في موضع آخر من مواقع الفكر الدفاعي... وكم كانت الدهشة كبيرة عندما سألت أحدهم، وهو عالم فاضل ثقة ذو فقه ودراية: لماذا لم تعرض لأسباب المشكلة وأنت من أدرىٰ الناس بذٰلك؟ فقال: هٰذا الجانب الذي طُلب مني معالجته، واعتُذِر إليَّ عن الوجه الآخر بحجة أنه أُنيط بغيري!!

وأصبح التطرف الديني مصطلحاً شائع الاستخدام في وسائل الإعلام، وعلىٰ ألسنة الناس، وكثيراً ما يستخدم بهدف إيجاد حالة من الرعب والإرهاب الفكري لشل حركة الدعوة إلىٰ الله التي تخضع لمعايير منضبطة مشروعة من الله ﷻ لا يد للإنسان فيها.. والأمر المستغرب حقاً أن هٰذا الاصطلاح استعمل أول ما استعمل في «إسرائيل» عندما بدأ الشباب المسلم في الأرض المحتلة يعي ذاته بعد أن أخفقت التجمعات الشيوعية ومَن يدور في فلكها من أن تقدم شيئاً للقضية، والتي لم تخرج في حقيقتها عن وسيلة من وسائل يهود لامتصاص النقمة وتنفيس الطاقات للحيلولة دون انفجارها،

والتسلل من خلالها إلىٰ العالم العربي، من هنا بدأت توجهات الشباب من جديد لتلمس الشخصية الحضارية للأمة والعودة إلىٰ المسجد. . .

فالإسلام دين التوسط والاعتدال، ولا شك عندنا أن الغلو والتطرف أمر مرفوض شرعاً، ومهما كانت المبررات والأسباب، وليس من الإسلام، وهو ظاهرة أصيب بها أتباع الأديان السابقة وكانت سبب دمارهم، وهي من علل المتدينين التي قصَّها الله علينا ليحذرنا منها فلا نقع بما وقع فيه غيرنا من الغلو والتطرف والتحريف والتأويل الفاسد وما إلىٰ ذٰلك. . .

ونحن لا ننكر أيضاً أن الغلو والتطرف يمكن أن يتسرب إلىٰ بعض جوانب الحياة الإسلامية، ومن السهل علىٰ الناظر في التاريخ الإسلامي أن يتعرف أن فترات الرفض والتطرف والخروج هي رؤوس الفتن ذات النقاط السود في تاريخنا التي أنهكت الأمة، وشلَّت قواها، وشغلتها عن عدوها، وعن متابعة رسالتها الإنسانية، لٰكن المشروعية العليا في حياة المسلم كانت دائماً للكتاب والسنة، وهما المعيار الدقيق والمقياس المنضبط الذي يجب أن يحكم الأمور. . كل الأمور، قال رسول الله ﷺ:

«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد» فالذي يحكم علىٰ السلوك هو الإسلام وليست الأمزجة الشخصية.

والمشكلة الخطيرة الآن، والتي قد تزيد الأمور سوءاً: أننا نحاول معالجة آثار الظاهرة ولا ننظر في أسبابها، إلَّا لمسات خفيفة قد لا تُسمن ولا تغني من جوع، ولا شك أن تنقية الواقع الثقافي للجيل المسلم وترشيده، والأخذ بيده لالتزام المقياس الإسلامي في الحكم علىٰ الأشياء ضرورة وعهدة شرعية من العلماء العدول الذين أخبر عنهم الرسول ﷺ بقوله:

«يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين. . .».

وكلمة «العدول» هنا ذات دلالة واضحة، فالذي يتصدىٰ لعملية مواجهة التطرف والغلو هم العلماء العدول والذين هم موضع ثقة من حيث العلم،

ومن حيث الغيرة الإسلامية، والذين لهم من سلوكهم وجهادهم ما يؤهلهم لحمل العلم ونفي الانحراف، وليس الكتّاب الذين يعوزهم الحد الأدنىٰ من الفكر والسلوك الإسلامي، والذين يقيمون من أنفسهم أوصياء علىٰ الحياة الإسلامية، ولا «بعض علماء الدين الرسميين» لأنهم يتكلمون ويصدرون الأحكام، ويطبقون في هٰذه القضايا قانون السير ذي الاتجاه الواحد، ولا يرون إلّا بعين واحدة، فالانحراف والظلم والقمع ومصادرة الحريات لا يقولون فيه كلمة، ولا يأمرون بمعروف أو ينهون عن منكر، ولا يسمعون إلّا من طرف واحد، وينطلقون غالباً في معالجاتهم، ويشكلون قناعاتهم من محاضر تحقيق سلطات الأمن، فكيف يستطيعون تقويم اعوجاج أو معالجة قضية تعتبر من أخطر القضايا، ومن أوائل الشروط لمعالجتها نزع أزمة الثقة.. وتقوىٰ الله في التناول.

والأمر الخطير حقاً الآن هو أن عقدة التطرف الديني هٰذه تسللت إلىٰ أجواء الدعوة الإسلامية، تشل حركتها، وتشكك بوسائلها، وتحيطها بجو من الإرهاب لتحنطها وتعطل مسارها والأمر الأخطر أيضاً هو التراجع إلىٰ مواقع الدفاع الذي أصاب كثيراً منا، وأصبح ما يطرحه الأعداء مسلمات غير قابلة للنقاش لشل الذهن وإنهاك القوىٰ، والتحكم بالمسارات العقلية والنشاطات الثقافية، والتخويف من الدعوة الإسلامية، فإلىٰ متىٰ نتوقف عند مرحلة «درء المفاسد» فقط ولا تأخذ مرحلة «جلب المصالح» المساحة المطلوبة في حياتنا الإسلامية؟ ولله الأمر من قبل ومن بعد.

جمادىٰ الآخرة ١٤٠٢هـ ـ نيسان (ابريل) ١٩٨٢م.

□□□□□□

مواقف في غزوة الأحزاب

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

[آل عمران: ١٥٩]

هٰذه مواقف مختارة من غزوة الأحزاب. ليس المطلوب لها الاستقصاء التاريخي، ذٰلك أن سير الحوادث التاريخية متوفر في مظانه من كتب التاريخ والسير والمغازي، وإنما هي محاولة لقراءة معاصرة لبعض قضايا هٰذه الغزوة من خلال المعاناة التي يعيشها الجيل المسلم اليوم، مساهمة منا في تصويب المسار، والسعي وراء تأصيل بعض المفهومات التي كادت تغيب عن حياة المسلمين، أو تستغلق علىٰ شكل معين يمكن أن يُكتشف بعض خطئه بإعادة المقايسة والمقارنة، والمسلم مطالَب دائماً بعملية المراجعة، وعملية المقايسة خشية أن يكون من الأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فيضيع الأجر ويتبدد العمر، ويتخلف النصر في الدنيا، ونصاب بالعجز والانكسار، وقد لا نجد مهرباً من ذٰلك إلا بإلقاء التبعة علىٰ الخارج، علىٰ الآخرين: الاستعمار وأعوان الاستعمار، لنعفي أنفسنا من المسؤولية، ونحول دون ممارسة التصويب أو القدرة عليه، وقد ينسحب بعضنا من المجتمع لعدم القدرة علىٰ التعامل معه، ينسحب إلىٰ الماضي، يفاخر فيه، ويطرب لإنجازاته، ولا يستطيع الاغتراف منه وإخصاب تصوره والعودة إلىٰ مجتمعه بما يصلحه ويسدد خطاه، بل يكتفي بترديد شعارات لا تفسر ظاهرة اجتماعية وتدرس أسبابها، ولا تبدل موقعاً إسلامياً إلىٰ موقع آخر

أكثر جدوىٰ وفائدة للإسلام والمسلمين، ولا تستبدل وسيلة فاعلة بأخرىٰ متخلفة. . .

والذي لا بد لنا من الاعتراف به ابتداءً أن السيرة النبوية في حياة الناس - إلا مَن رحم الله - لا تعدو أن تكون فترة زمنية أو حلقة تاريخية انتهت بأشخاصها وأحداثها، غير قادرة علىٰ تقديم الأطر والقواعد لمشكلات الإنسان المعاصر، سواءً في ذٰلك مَن يتنكر لها بقوله وعمله أم مَن يسلك مسلكاً آخر ممن ينتصر لها عاطفياً ويبقىٰ عاجزاً عن تحقيق النقلة، وتعدية الرؤية، وحسن البصارة لمواطن الخطأ والصواب؛ تبقىٰ النتيجة واحدة، ولا يختلف الفريقان إلا بالعناوين، وقد يكون أحد الفريقين سقط في مخادعة نفسه ومخادعة الناس، وكان موقفه العاجز دليل فشل مقولته، وجاء واقعه مخالفاً لشعاراته، لذٰلك فهو يساهم مساهمة سلبية في إجهاض الرؤية الإسلامية، ويكون حاجزاً سميكاً بين الناس وبين هٰذا الإسلام العظيم، وقد لا يكون المطلوب من مسلم اليوم أن يكون قادراً من خلال رصيده التاريخي وتراثه الثقافي وقيمه الأصيلة في الكتاب والسنّة، قد لا يكون المطلوب منه فقط القدرة علىٰ «التفسير» للحوادث المعاصرة، وإنما تجاوز ذٰلك إلىٰ «التغيير» ودقة تحديد موقعه الفاعل، لأن «التفسير» هنا هو مقدمة لـ«التغيير» وكفاية لمسلمي اليوم الوقوف عند عتبة المقدمات وعدم تجاوزها إلىٰ النتائج. . . فهل نستطيع في هٰذه العجالة إثارة الذهن المسلم تجاه بعض المواقع والمرتكزات التي لا نزال نشهد آثارها، ولا تزال تتكرر في عالم المسلمين من خلال بعض المواقف التي نعرض لها في غزوة الأحزاب؟

❋ ❋ ❋

يهود وراء تحزيب الأحزاب

المعلوم من أخبار هٰذه الغزوة أنها علىٰ بعض الروايات كانت في ذي القعدة، ولٰكن معظم الروايات تعتمد زمن حدوثها شهر شوال، وقد امتد الحصار فيها شهراً تقريباً، فقد تكون ابتدأت في شهر شوال ولما تنتهي

إلَّا في ذي القعدة. . من السنة الخامسة للهجرة، وذٰلك أن يهود بني النضير خرجوا حتىٰ قدموا قريشاً في مكة فدعوهم إلىٰ حرب رسول الله ﷺ وقالوا: إنا سنكون معكم حتىٰ نستأصله.

فقالت لهم قريش ـ التي جربت الحرب مع رسول الله ﷺ في بدر وأُحد واكتوت بنارها ـ: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟! قالوا: بل دينكم خير من دينه وأنتم أولىٰ بالحق منه. . وشهدوا لقريش أن أصنامها أولىٰ بالاتباع من إلٰه محمد ﷺ، فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء].

فسَرَّ ذٰلك قريشاً، ونشطوا لما دعوهم إليه، واجتمعوا لذٰلك واتعدوا له، ثم خرج يهود حتىٰ جاءوا غطفان، وهٰكذا طافوا علىٰ بقية القبائل عارضين عليها مشروع غزو المدينة المنورة وموافقة قريش علىٰ ذٰلك.

وهٰذه ليست حادثة تاريخية عابرة، خاصة في هٰذا العصر بعد أن أصبحت الشعوب تحاكم إلىٰ تاريخها، ولم يعد سرًا أن يهود كانوا ولا يزالون وراء تحزيب الأحزاب في معظم المراحل، ابتداءً من الحملات الصليبية علىٰ عالم المسلمين ذٰلك أن اليهود ركبوا الحصان الأوروبي بشكل مبكر حيث استقرت هجراتهم في أوروبا تاريخياً، ووجهوه الوجهة التي يريدون. . فكانت الحروب الصليبية وكان الاستعمار، ويركبون وليده الأمريكي الآن والنتائج ماثلة للعيان. . .

كما أنه لم يعد سرًا أنهم كانوا وراء تقويض الخلافة الإسلامية، وصناعة الأحزاب ذات الدعوات الإقليمية وتقديم البدائل الفكرية عن الإسلام بعد مرحلة سقوط الخلافة. . والشهادة لهٰذه البدائل أنها أهدىٰ من الإسلام سبيلاً؛ كما أنهم وراء تحزيب بعض الكتّاب الذين انتهوا إلىٰ مناخ الثقافة اليهودية التلمودية، ولا همَّ لهم إلا الانتقاص من الإسلام والمسلمين، وَتَسَقُّطَ العورات وتتبعها والتخصص فيها، والقدرة العجيبة علىٰ البجاحة في

الكلام عن الحرية والديمقراطية، وهم من سدنة الظلم والظالمين، في الوقت الذي يدفع المسلمون دماءهم في أكثر من موقع دفاعاً عن الإنسان وانتقاص حقوق الإنسان، لكنه العوار العقلي!!..

لقد تمّ التحالف الوثني اليهودي القبلي ضد المسلمين، كانت يهود وقريش وغطفان من أهم أعضائه، واتفقوا علىٰ شروط، من أهمها: أن تشارك غطفان بستة آلاف مقاتل، وأن يدفع اليهود لها كل ثمار خيبر لسنة واحدة؛ وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل فكانوا عشرة آلاف... إن هٰذا التحالف لم يتوقف لحظة واحدة في تاريخ المسلمين الطويل وإن تغيرت أسماؤه وتبدلت وسائله... والمال اليهودي يمده علىٰ أكثر من مستوىٰ...

إن المال اليهودي الذي اشترىٰ غطفان وحركها صوب المدينة هو الذي امتد إلىٰ السلطان عبد الحميد، فلما أبىٰ ذٰلك تقدم المال اليهودي لشراء رجال جمعية الاتحاد والترقي، الذين كانوا الجسر الحقيقي لوصول يهود إلىٰ فلسطين، وإن التحالف الوثني الصليبي اليهودي الجديد هو الذي تقاسم مناطق النفوذ، واقتسم تركة الرجل المريض، وفرَّق عالم المسلمين، وأسكن يهود في فلسطين، لقد أسقط الحلفاء في الحرب العالمية كل وعودهم للعرب، والتزموا بكل وعودهم ليهود، ولا يزال العالم الإسلامي يعاني من مسألة «الشرق الأوسط» أو «المسألة الشرقية».. ولا يزال يعاني من لعبة الوفاق الدولي في فلسطين وأريتريا وأوغادين وكشمير وأفغانستان ولبنان وغيرها... ويراد للمسلمين أن يكونوا في ذٰلك أدوات، توظف دماؤهم في عملية الوفاق الدولي، ولا يسمح لحركاتهم الجهادية أن تتجاوز المدىٰ المرسوم لها مسبقاً والحجم المقرر لها سلفاً.

* * *

تاصيل الشورىٰ

لما سمع رسول الله ﷺ بزحف الأحزاب إلىٰ المدينة، وعزمها علىٰ استئصال شأفة المسلمين، استشار المسلمين، **وقرروا بعد الشورىٰ: التحصن**

في المدينة والدفاع عنها، وأشار سلمان الفارسي ﷺ بحفر الخندق، وقال: يا رسول الله، إنَّا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا... فأمر بحفر الخندق، واستمر الحصار نحو شهر تقريباً، كما قدمنا، وعظم البلاء وانخلعت القلوب وشاع النفاق، وظن بالله كل ظن، وبلغت القلوب الحناجر، ونكتفي هنا بمثال واحد: قال بعض المنافقين «معتب بن قشير»: كان محمد يعدنا بكنوز كسرىٰ وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن علىٰ نفسه أن يذهب إلىٰ الغائط.

وقال «أوس بن قيظي» علىٰ ملأ من رجال قومه: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فأْذن لنا فلنرجع إلىٰ دورنا...

فلما اشتد البلاء علىٰ الناس، وحقناً لدماء المسلمين، بعث رسول الله ﷺ إلىٰ عيينة بن حصن، وإلىٰ الحارث بن عوف المري ـ قائدَي غطفان ـ يعطيهما ثلث ثمار المدينة علىٰ أن يرجعا بمَن معهما عنه وعن أصحابه، وأحضرت الصحيفة والدواة ليكتب عثمان بن عفان ﷺ الصلح، وهمُّوا بكتابته، ولم تقع الشهادة ولا عزيمته إلا المراوضة في ذٰلك، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل بعث إلىٰ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذٰلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمر تحبه فنصنعه؟ أم شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به؟ أم شيء تصنعه لنا؟ قال: «**بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذٰلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلىٰ أمر ما**».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنَّا نحن وهٰؤلاء القوم علىٰ الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزَّنا بك وبه نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهٰذا من حاجة.. والله لا نعطيهم إلا السيف حتىٰ يحكم الله بيننا وبينهم.. فقال رسول الله ﷺ: «**فأنت وذٰلك**» فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا.

إن ما يلمحه الإنسان في هٰذه الغزوة وفي غيرها من حوادث السيرة أن الرسول ﷺ **أنزل الشورىٰ** منزلتها وأصّلها في حياة الأمة، إذ لا بد من توسيع قاعدة الرأي، والحاجة إليها إنما تكون خاصة في الشدائد والقرارات المصيرية والملمات علىٰ غاية من الأهمية، حيث يكون الخطأ قاتلاً، فالشورىٰ استفادة من كل الخبرات والتجارب، واجتماع للعقول في عقل، وقضاء علىٰ الاستبداد والفردية في الرأي، وبناء يساهم الجميع في إقامته، ومن ثم تكون أعلىٰ أنواع التضحية والبذل في الدفاع عنه.

والرسول ﷺ مستغنٍ عن الشورىٰ بالوحي، فهو المؤيَّد بالوحي، وهو المسدد به، ولا حاجة به إلىٰ الشورىٰ، لٰكن لا بد من تأصيلها لتكون أصلاً من أصول الحكم لا يملك المجتمع المسلم أن يحيد عنها، كما لا يملك الحاكم المسلم أن يتجاهلها أو يعتدي عليها، ويقظة المسلم دائمة في العمل لها وعدم التنازل عنها، لأن ذٰلك إلىٰ جانب كل مضاره في الدنيا مدعاة لسخط الله الذي جعلها من سمات مجتمع المسلمين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ:٣٨]، ومع ذٰلك لا يزال في عالم المسلمين اليوم مَن يستهويه الاستبداد، ويتصيد الوقائع التاريخية، ويجهد نفسه في تفسير النصوص ليخرج علىٰ المسلمين بأن الشورىٰ ليست ملزمة للحاكم، وإنما هي معلمة له فقط، وأن الحاكم بالخيار إن شاء عمل بها وإن شاء تركها، وأُعطيَ الحاكم في الدولة وأُعطيَ المسؤول عن أية جماعة مسلمة من العصمة ما لم يعطه النبي المرسل ﷺ عندما سأله سعد بن معاذ وسعد بن عبادة: شيء أمرك الله به لا بد لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟

وإذا كانت إلزامية الشورىٰ أو إعلاميتها اجتهاداً يمكن أن يخطئ ويصيب، كما هو الحال في سائر الاجتهادات، فما هو المسوغ للاستمساك بعدم إلزامية الشورىٰ والدفاع عن ذٰلك بعد هٰذه الانهيارات الرعيبة وألوان الاستبداد في عالم المسلمين، وهٰذا التردي والتصرف الفردي في بعض الجماعات التي تعمل للإسلام؟!

* * *

البيعة العامة

وهناك قضية أخرىٰ تشكل الوجه الآخر لاجتهاد واعتقاد أن الشورىٰ معلمة وليست ملزمة، وهي قضية هامة مطلوب إعادة النظر فيها بإلحاح، وهي قضية البيعة العامة، وما يترتب عليها من أحكام شرعية وقضايا سلوكية، وكيف أن البيعة العامة في الشريعة الإسلامية لا يمكن أن تكون إلا لأمير المؤمنين الذي يمتلك من الصلاحية والمسؤولية ما يجعله قادراً علىٰ إقامة الدين وإنفاذ الأحكام، وتنفيذ العقوبات الشرعية، وإعلان الحرب، والجنوح إلىٰ السلم، وما إلىٰ ذٰلك مما هو مختص بأمير المؤمنين في التصور الإسلامي، وأن كل الزواجر التي وردت في شق عصا الطاعة ومفارقة الجماعة وما إلىٰ ذٰلك إنما هي في هٰذا المجال.

أما البيعة الخاصة فهي عهد علىٰ تنفيذ مهمة معينة من خلال الظروف المتاحة والإمكانات المتوفرة، كقول الرسول ﷺ: «**إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم**»، لتنظيم الحياة الاجتماعية، ولضبط السلوك في البنية الاجتماعية كائنة ما كانت، وبالتالي فلا يمكن لنا أن نجير أحكام البيعة العامة الفقهية لبعض مسؤولي الجمعيات والجماعات، لأن المقومات الأصلية مفقودة، فهو ليس أمير المؤمنين، ولا يمتلك من ذٰلك شيئاً، فكيف والأحكام ثمرة لذٰلك، فنفتقد الأصل ونستمسك بالفرع؟! لذٰلك لا بد من التحري في ذٰلك لأنه محل نظر من الناحية الشرعية، وقد سبَّب الكثير من الارتكاسات من ناحية السلوك العملي.

فالشورىٰ ليست ملزمة! والبيعة عامة! والمقومات مفقودة، والنتائج كما نرىٰ، فكيف يجوز أن يستعملا سيفاً مسلطاً علىٰ رقبة الفرد يحولان دون مناقشة الخطأ تحت عنوان «في عنقه بيعة، والشورىٰ غير ملزمة»!!

* * *

تحديد الموقع الفاعل

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما كان من الشدة والبلاء من الخارج، وشكوك المنافقين وإشاعتهم الرعب في النفوس من داخل الصف:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف].

وقد بلغت المحنة غايتها، جاء نعيم بن مسعود الأشجعي الغطفاني، فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت. فقال رسول الله ﷺ: **«إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة»**، فأتىٰ بني قريظة فقال: قد عرفتم ودّي إياكم، لا تقاتلوا محمداً مع قريش وغطفان حتىٰ تأخذوا منهم رُهُناً، فإنهم إن لم يصيبوا نهزة لحقوا ببلادهم وخلُّوا بينكم وبينه ببلدكم، ولا طاقة لكم به... قالوا: صدقت.

فأتىٰ قريشاً فأظهر لهم إخلاصه ونصحه، وأخبرهم بأن يهود قد ندموا علىٰ ما فعلوا، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأميناً للعهد، وسيسلمونهم إلىٰ النبي ﷺ فيضرب أعناقهم.. وقال لغطفان مثل ما قال لقريش، فكان كلا الطرفين علىٰ حذر، وطلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين، فتكاسل اليهود وطلبوا منهم رهائن من رجالهم، فتحقق لقريش وغطفان صدق حديث نعيم وامتنعوا عن تحقيق مطلب يهود، وبذٰلك تحقق اليهود من صدق نعيم كذٰلك... وتوغرت صدورهم علىٰ يهود، ودبّت الفرقة بين الأحزاب.

وهٰكذا تمزق الشمل، وتفرقت الكلمة، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، وهنا لا بد من وقفة وإن كانت هٰذه الوقفة، مهما كانت طويلة سوف لا تعطي قضية نعيم حقها: **«إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»** لقد وضعه الرسول ﷺ علىٰ الجادة، وأحسن نعيم السير... أسلمت ولم يعلم قومي بإسلامي، فمرني بما ترىٰ... أية

قدرة هٰذه في تحديد الموقع الفاعل للعمل الإسلامي من القائد! وأية قدرة هٰذه علىٰ التصرف وحسن التحرك من خلال الظروف والإمكانات من المسلم؟! لم يعلم أحد بإسلامي - الحرب خدعة...

إن القدرة علىٰ التصرف من خلال الظروف المتاحة والإمكانات المتوفرة، وتحديد موقع العمل الفاعل بدقة واختيار وسيلته المجدية هي مشكلة العمل الإسلامي اليوم...

إن السلوك النبوي في مرحلة الدعوة والإنجاز النبوي في مرحلة الدولة يمدنا برؤية زاخرة تبتدئ عتبتها من قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ...﴾ [النحل:١٠٦] في مرحلة الدعوة، واشتداد الظلم، وفضل الصبر، وتنتهي إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]. إنها القدرة كل القدرة علىٰ تحديد مواقع العمل من خلال هٰذه السلسلة الطويلة من الآفاق المتعددة... ولعل العجز عن الرؤية هنا يأتي قاتلاً، فقد نحنط أنفسنا أو يحنطنا أعداء الإسلام في موقع لا نستطيع أن نبصر غيره - وقد نتجاوز المواقع الممكنة والمجدية، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، إلىٰ المواقع المستحيلة فنكلف أنفسنا بما لم يكلفنا الله به - ونرتاد مواقع لا نمتلك إمكاناتها، الأمر الذي يوقعنا في الإحباط والانكسار، وقد يلجئنا إلىٰ محاضن مرفوضة شرعاً تحت شعار «الضرورات تبيح المحظورات»..

إنها الضرورات التي صنعناها بأيدينا لتأتي النتائج المترتبة عليها أشبه بمسلمات تحكم العمل الإسلامي لا تجوز مناقشتها..

ذو القعدة ١٤٠٣هـ - آب (أغسطس) ١٩٨٣م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المسلم ومسؤولية البلاغ المبين

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ [الجن]

لا شك أن قضية الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وتخليص الناس من كل ألوان العبوديات، وإخراجهم من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة، واستنقاذهم من حياة الضنك نتيجة إعراضهم عن منهج الله تعالىٰ، وإلحاق الرحمة بهم، ووضع إصرهم والأغلال التي عليهم هي من أخص خصائص المسلم وأبرز مسؤولياته، وهي الأمانة التي قبل حملها عندما رضي بالله ربًا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً الذي كانت الغاية من إرساله، ومن رسالته: إلحاق الرحمة بالعالمين، قال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، فكانت مهمته الأولىٰ البلاغ المبين:

﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ...﴾ [المائدة: ٩٩].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور].

* * *

العكوف علىٰ تربية الذات

لذلك يبقىٰ الأمر المطروح دائماً علىٰ المسلم الذي يسير علىٰ قدم

النبوة أن يبدأ بتنمية نفسه وتزكيتها بالإسلام ليكون علىٰ مستوىٰ خطاب التكليف، قال تعالىٰ:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس].

وأن يطور وسائله في الدعوة إلىٰ الله ليكون في مستوىٰ المهمة التي يتطلبها إسلامه وعصره علىٰ حد سواء، قال تعالىٰ:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل]، وقال:

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]. .

فالمسلم مطالب دائماً أن يمارس عملية العكوف علىٰ الذات لتربيتها علىٰ أمر الله، وأخذها بشرع الله، ولا نعني بذٰلك ضرباً من السلبية والهروب من الحياة، وفقدان التوازن الاجتماعي وذٰلك بالانسحاب من المجتمع، والانقطاع إلىٰ الرياضات الروحية في الكهوف والجبال، وممارسة الزهد الأعجمي بترك التعامل مع الحياة، وإنما نرىٰ أن ميدان تربية الذات وتزكيتها أكبر من ذٰلك بكثير، إنه الحياة بكل ما فيها من جوانب الخير والشر؛ إنها التربية الميدانية التي لا تتم إلا من خلال الممارسة والمعايشة الاجتماعية، والمعاناة اليومية والتحديات المحيطة، واستشعار هٰذه التحديات، وعدم الذوبان والسقوط أمامها، وإنما الصلابة والاستيعاب وحسن المواجهة، وإن اختلفت فيها مساحة الكر والفر حسب الظروف ومقتضىٰ الحال، ذٰلك أن التربية الذاتية، أو العكوف علىٰ تربية الذات بهٰذا المعنىٰ هو الذي تفرد به الإسلام عن سائر الأديان، بزهدها ورهبانيتها، وسلبياتها. . .

* * *

البلاغ المبين..
من أبرز خصائص التربية الميدانية

وقد يكون من أبرز خصائص التربية الميدانية التي أشرنا إليها، ومن أولىٰ ثمراتها: عملية البلاغ المبين، تلك المهمة التي ابتعث من أجلها الرسول ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: ٢٠]، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [الرعد: ٤٠]، ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨] إلىٰ آخر هٰذه الآيات الكثيرة، والكثيرة جداً، التي تحصر مهمة الرسول ﷺ، بل رسل الله جميعاً عليهم الصلاة والسلام بإبلاغ الناس شريعة الله، وحمل البشارة إليهم إن هم استقاموا علىٰ الطريقة...

ولما كان الرسول ﷺ محل الأسوة والقدوة بالنسبة للمسلم، فإن مهمة المسلم في هٰذا العصر، وفي كل عصر، تتحدد بقدرته علىٰ تحمل الإسلام وتربية نفسه عليه وأخذها به، وعلىٰ الأداء وذٰلك بالقيام بعملية البلاغ المبين، فهي حياته في الدنيا ونجاته في الآخرة:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [الجن].

إن فهم عملية البلاغ وإدراك أبعادها، والصبر عليها، والحكمة في أدائها، والقدرة علىٰ إبصار وإنضاج وسائلها وما يمكن أن يترتب عليها من مسؤوليات وتكاليف قضية علىٰ غاية من الأهمية، إنه الإدراك للقضية الإسلامية عامة، والقدرة علىٰ القيام بالمسؤولية وأداء الأمانة للخروج من عهدة التكليف... وقد يسارع بعضهم هنا، وبفهم مبتسر، إلىٰ الظن بأننا بدعوتنا إلىٰ إدراك أبعاد عملية البلاغ، وامتلاك وسائلها، وتحصيل الحكمة في ممارستها إنما ندعو إلىٰ إيثار الراحة وركوب المركب الهين السهل، والهروب من تكاليف الدعوة إلىٰ الله ومسؤولياتها وما يمكن أن يترتب عليها من تضحيات، أو يعتبر ذٰلك رد فعل لواقع معين أو لاجتهاد معين، ولا يستطيع أن يتجاوز فهمه هو للإسلام الذي اختاره وانتهىٰ إليه حتىٰ أصبح المقياس الذي تقاس به فهوم الناس جميعاً.

والحقيقة التي يجب أن تكون واضحة ابتداء: أن عملية البلاغ هي مهمة الأنبياء، من لدن آدم إلىٰ محمد عليه الصلاة والسلام، وأن التضحيات والمسؤوليات التي تحملها الأنبياء ومَن يسيرون علىٰ طريقهم نتيجة لذٰلك دليل علىٰ أنه الطريق الصحيح والمركب المأمون إلىٰ الآخرة... وأن الهروب منها أو العدول عنها وعدم القدرة علىٰ الصبر عليها بدعوىٰ اختصار الطريق، أو تسريع السير، أو الحصول علىٰ وفرة في النتائج هو في حقيقته: العدول عن الطريق الصحيح والقفز من فوق سنن الله، وعدم القدرة علىٰ التعامل معها، وعدم الطاقة علىٰ الالتزام بها، والهروب منها والانخداع بالفجر الكاذب...

إن قضية الإيمان بالله ونبذ العبوديات، ومن ثم القيام بعملية البلاغ المبين قد تكلف صاحبها حياته، بسبب من شراسة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأضلّ أعمالهم فينقمون من المؤمن الداعي إلىٰ الله لا لشيء وإنما لإيمانه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج]، ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

قال ﷺ: «**إن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**» وقال: «**سيد الشهداء حمزة، ثم رجل قام إلىٰ إمام ظالم فأمره ونهاه؛ فقتله**» أمره ونهاه: بلَّغه الحق ونهاه عن الباطل، قام بعملية البلاغ التي كلفه الله بها ولم يتجاوزها فكان مصيره القتل...

***

الإعلام من أقوىٰ الأسلحة المعاصرة

إن عملية البلاغ والقيام بمهمة الأنبياء ليست من السهولة بالقدر الذي يتراءىٰ لبعض الناس، خاصة في الوقت الذي أصبح فيه الإعلام أقوىٰ الأسلحة التي تمتلكها الدول وتحرص عليها وتتسابق في ميدانها، والتي يمكن أن تكون أشد فتكاً من أسلحة الدمار والتدمير كافة، ذٰلك أن الإعلام

لم يكتفِ بعمليات التضليل وقلب الحقائق إلىٰ أباطيل وإنما تجاوز ذٰلك إلىٰ مرحلة زرع الاهتمامات وإعادة صياغة الإنسان.

لقد أصبح فنًا خطيراً، وظَّف الكثير من العلوم لخدمته، سواء في ذٰلك العلوم والدراسات الإنسانية، كعلم النفس وعلم الاجتماع.. أو العلوم والدراسات التجريبية، حيث أصبحت التكنولوجيا كلها في خدمته تقريباً... ونحن لا نزال نرىٰ عملية البلاغ المبين بوسائلها البسيطة والساذجة، وأنها من الأمور السهلة التي لا يميل إليها إلا مَن يؤثرون الراحة ويفرون من المسؤولية والتضحية.. وقد يفهمها بعض المسلمين فهماً ساذجاً بسيطاً لا تزيد أبعاده عن ارتداء لباس معين، والخروج والنوم في العراء، في هٰذا العصر الإعلامي المعقد!!

فإذا عرفنا أن علم النفس وعلم الاجتماع وغيرهما من العلوم جاءت تاريخياً ثمرة لعمليات التنصير، حيث كان لا بد للمنصِّرين من المعرفة المسبقة بعادات ونفسيات الأمم التي يمارسون عليها عملية التنصير، وعرفنا الخلفية الحقيقية لعمليات الاستشراق التي كانت تدرس مكونات الشعوب وثقافتها وعقائدها وتراثها ومسارها الحضاري، ذٰلك أن المستشرقين ينتجون المواد والمنصِّرون يُسَوِّقونها ويمارسون عملهم علىٰ أساسها، وحسبنا أن نقول: إن كثيراً من دراساتهم لا تزال إلىٰ الآن مرجعاً لكثير من باحثينا لفقر المكتبة الإسلامية إلىٰ أبحاث ناضجة في هٰذا المجال، ومع ذٰلك لا نزال نعتقد أن عملية البلاغ التي ابتعث من أجلها الرسل عليهم الصلاة والسلام عملية بسيطة.. وكثير منا لا يقدر عليها ويحاول القفز من فوق السنن، ويظن أن عملية التغلب علىٰ الخصم إنما تتم بشدخ رأسه والقضاء عليه، بينما منهج النبوة والدنيا من حولنا تمارس تغييره من الداخل...

أين يمكننا أن نصنف صورة وواقع عملية البلاغ اليوم التي ابتعث من أجلها الرسل، وأنيطت بمن يسيرون علىٰ دربهم من المسلمين، من صورة الإعلام العالمي بكل طاغوته وطغيانه والمراحل التي قطعها صوب الإنسان حتىٰ أوقعه في أسره، والوسائل المتخلفة التي نمارسها نحن المسلمين،

ويحلو لبعضنا أن يطلق عليها تسمية «الإعلام الإسلامي» وكأن هٰذه الصور الهزيلة والبدائية المتخلفة هي الإعلام الإسلامي والبلاغ المبين التي أرادها الله للسائرين علىٰ طريقه!! وقد تكون الخطورة كبيرة والآثار خطيرة أن نأتي لصور من تخلُّفنا ونفصِّل عليها أثواباً ونرفع فوقها عناوين وشعارات لتصبح هي الإسلام!!..

والحقيقة أننا لا نزال دون سوية خطاب التكليف في قضية البلاغ المبين التي مضىٰ علىٰ التكليف بها أربعة عشر قرناً، وتخلفنا فيها لا يغتفر، وأن الكثير منا عدل عنها، أو هوَّن من شأنها ظناً منه أن بإمكانه القفز من فوقها...

❋ ❋ ❋

حسن اختيار الوسيلة

ما هي وسيلة الدعوة ﴿الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والتي تعبدنا الله تعالىٰ بالاستمساك بها لتؤدي عملية البلاغ المبين آثارها التغييرية، قال تعالىٰ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، إنه بحسن اختيارنا للوسيلة المناسبة، وحسن استعمالنا لها نغيره من الداخل، فبعد أن كان عدوًا لدوداً فإذا به صديق مناصر ودود.. إنه التغيير من الداخل الذي يمارسه الإعلام علينا صباح مساء، فيرسم في أذهاننا الصور التي يختارها، ويصنع لنا الاهتمامات التي يريدها، ويأخذنا إلىٰ المواقع التي يحددها، ونسلب كل قدرة علىٰ المواجهة بالمثل إلا قدرة التبعية والتلقي...

لقد شوّه الإعلام صورة المسلم اليوم، وشكّك بدعوة المسلم اليوم، واستطاع أن يلتقط من واقع المسلمين صوراً مشوهة قدّمها علىٰ أنها هي الإسلام، وأن هٰؤلاء هم دعاة الإسلام ليخدم أغراضه ويدلل عليها... أليس من العجيب، بعد أربعة عشر قرناً، أن تكون وكالات الأنباء العالمية التي أصبحت تمتلك الاختصاص في صناعة الخبر وأدائه، وتأخذ برقاب

العباد وتتصرف بمقدراتهم، جميعها صهيونية أو صليبية أو شيوعية، وليس للإسلام والمسلمين فيها نصيب؟!

ونحن إزاء ذٰلك مصابون بالعجز، ليس عن إبلاغ دعوتنا ونشرها وإيصالها للناس، وقد تجاوز العجز ذٰلك إلىٰ عدم القدرة علىٰ تقديم الحماية لصورتنا الإسلامية الصحيحة... ولا يعوزنا المال في العالم الإسلامي ولٰكننا بحاجة إلىٰ الإنسان المستشعر للمسؤولية.

أين هي الحكمة التي افتقدناها في عملية البلاغ والدعوة التي أمرنا الله بها بقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]؟

أين هي الحكمة ضالة المؤمن وهاجسه الدائم ليكون في مستوىٰ إسلامه وعصره، والتي قرنها الله تعالىٰ بالكتاب ـ القرآن ـ لضرورتها وأهميتها؟! فإذا افتقدناها فقد أقمنا الجدران النفسية بين الناس وبين الكتاب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، حتىٰ إن بعض المفسرين يرىٰ أن الحكمة تعني السنة، وقد يكون الحق في هٰذا ولا ضير، فمَن أقدر من الرسول القدوة ﷺ علىٰ وضع الأمور بمواضعها، ووزنها بموازينها، وهو المسدد من ربه ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

والحكمة أهلية رفيعة المستوىٰ، ومنحة من الله لأهل التقوىٰ من خاصة خلقه، يمكن أن تتحقق بالاكتساب من النظر والتدبر في كتاب الله تعالىٰ والالتزام بسنّة رسوله وطريقته في البيان، إنه الرسول الذي أُمر أن يخاطب الناس علىٰ قدر عقولهم، وأخذ الناس بأحكام التشريع شيئاً فشيئاً، حتىٰ إن القرآن الكريم استمر نزوله ثلاثة وعشرين عاماً، ولا يخفىٰ ما في هٰذا التدرج من الجوانب التربوية، ومكث الرسول ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلىٰ الله ويبلّغ الناس أمر ربه، ويسلك لذٰلك كل مسلك حتىٰ تستبين صورة الإسلام والدعوة الجديدة، وكان في مكة يومها (٣٦٠) صنماً تقريباً تعبد من دون الله، وتملأ علىٰ الناس حياتهم ودروبهم، وما كان شيء

أبغض للرسول ﷺ من اللات والعزىٰ، ومع ذٰلك لم يتعرض لهٰذه الأصنام طيلة فترة الدعوة في مكة، إلا أنه بعد مرحلة الدولة ـ بعد فتح مكة ـ لم يقبل بها لحظة واحدة، بل كان أول عمل قام به: كنس الأصنام من البيت الحرام...

إنها الحكمة في عملية إبلاغ دعوة الله تعالىٰ والأخذ بيد الناس إلىٰ الخير، فهو الرحمة المهداة، انظر الحكمة في قوله لعائشة رضي الله عنها: «**لولا أن قومك حديثو عهدٍ بالإسلام لهدمت الكعبة وأقمتها علىٰ قواعد إبراهيم عليه السلام**»!!

❋ ❋ ❋

الإرهاب الفكري والتغيير

إن عمليات التغيير لا يمكن أن تتم بجو يسوده الإرهاب الفكري والتعصب الديني، وتسرب علل الأديان السابقة إلىٰ الإسلام والمسلمين، وقد بيّن الله ذٰلك لرسوله المعصوم ليكون تحذيراً للمسلمين بقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، وقوله: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [قَ:٤٥]، وقوله تعالىٰ للمؤمنين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥] طبعاً بعد القيام بعملية البلاغ كما يفيد سبب النزول، وكما بيَّن أبو بكر الصديق رضي الله تعالىٰ عنه..

من هنا كان الصحابة رضوان الله عليهم ثمرات لهٰذه الحكمة، يقول علي رضي الله عنه: «خاطبوا الناس علىٰ قدر عقولهم، أتحبون أن يُكَذَّب الله ورسوله؟!» ويقول الرسول ﷺ لمعاذ رضي الله عنه بعد أن أطال الصلاة: «**أفتَّان أنت يا معاذ؟!**».

فالإسلام دين الفطرة، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ولذٰلك شرعت

الرخصة في السفر والمرض.. إن العقيدة مقرها القلب، ولا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الحق والدليل، والإحسان الذي كتبه الله في كل شيء، وحسن التعامل معه... فلا مجال في الإسلام لصور الإرهاب الديني والفكري التي مارسها أصحاب الأديان السابقة، والتي يمارسها بعض الناس باسم الإسلام.

وقد يكون من صور الفشل في عملية البلاغ المبين بدؤها ببيان صورة الإسلام العقابي، والذي نريد له أن يكون واضحاً أن العقوبات في الإسلام لا تقيم مجتمعاً إسلامياً وإنما تحمي المجتمع الإسلامي من الشذوذ والانحراف، والحروب في الإسلام لا تقيم دولة إسلامية، وإنما تحمي الحدود من الاعتداء، وتزيح الطواغيت من طريق عملية البلاغ المبين، وتهيئ المناخ السليم لانتشار الدعوة وإبلاغها إلىٰ الناس..

❋ ❋ ❋

تحديد الموقع الفاعل

إن لجوء المعلم في العملية التربوية لسلم العقوبات ـ مع تناسي أن العملية التعليمية والتربوية قائمة علىٰ الحوافز والمكافآت، وأن مشروعية العقوبات إنما تكون لحماية العملية التربوية التعليمية ـ عجز وفشل تربوي وعدم إدراك لأصل المهمة... لذٰلك لا بد من تغيير صورة المسلم الداعية التي رسمها أعداء الإسلام في أذهان الناس علىٰ شكل معين، ذٰلك أن التضليل الإعلامي ترك الناس ضحايا القلق مما يعرفون عن الإسلام والمسلمين، وما يقدم لهم من صور ساهمنا بتقديمها لخصومنا ـ كما أسلفنا ـ وقد يكون ذٰلك عن إخلاص وحسن نية، بعيداً عن الإدراك والصواب.

والحقيقة التي لا مفر من الاعتراف بها أن الخطأ القاتل الذي ابتلينا به في هٰذا العصر هو العجز عن التحديد بدقة لموقع العمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله الذي يمكننا معه أن نمتلك الفاعلية والتأثير، والخلط المحزن بين الأمنيات والإمكانات من خلال صورة المجتمع، وذٰلك لانعدام الرؤية الدقيقة

لسلم المشكلات والاستسلام لأحلام اليقظة. . . إن إعادة النظر من حين لآخر بسلم المشكلات وإعادة تصنيف هٰذه المشكلات وترتيب الأولويات حماية للجهد، واغتنام لفرصة العمر وتوفر الطاقات، والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات، وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم والعاملون للإسلام، وإعادة النظر أيضاً بوسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر، ومن خلال مشكلاته، وعدم القفز من فوق السنن والنكوص في عملية البلاغ، وإهمال شرائط النهوض بها ووسائل الإبانة عنها التي هي وظيفة المسلم الرئيسة، وقضيته المحورية، والتقدم في قضية الدعوة (البلاغ المبين) واكتشاف المنابر المؤثرة والمواقع الجديدة التي أخذت مكاناً في المجتمع الحديث، واعتلاء هٰذه المنابر العلمية والثقافية عن جدارة واختصاص، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة، والقدرة علىٰ الإبصار ودراسة شبكة العلاقات الاجتماعية، والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم هو المطلوب لهٰذه الأمة لحل معضلة انفصال العلم عن الدين التي عانىٰ منها الجيل الماضي. . . أصبح قضية الحياة بالنسبة لمسلم اليوم، فلا مجال للسذج والبسطاء في عالم الأذكياء. . .

والأمر الذي لا بد للتنبيه عليه هنا أننا بدعوتنا إلىٰ تحديد موقع العمل الإسلامي من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة لا يعني بحال من الأحوال عملية تقطيع للإسلام ووقوع في النظرة الجزئية التي تؤدي إلىٰ النمو غير الطبيعي في بعض أطراف الجسم الإسلامي، وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً هو أننا ونحن نعيش الإسلام في الموقع المتاح لنؤدي مسؤوليتنا كاملة لا نعدم القدرة علىٰ إبصار الساحة الكاملة التي يجب أن يملأها الإسلام، وأن يرتادها العاملون والدعاة إلىٰ الله، وتبقىٰ العملية المطلوبة أنه عند عدم القدرة علىٰ الحمل الثقيل نقوم بعملية التجزيء والتقسيم علىٰ مراحل وبالتدريج، والمهم أن تكون الخطوة التي نملكها في طريق الصواب، ولا يكلف الله نفساً إلَّا وسعها. . .

نعود إلىٰ التذكير بأن المهمة الأصلية بالنسبة للدعاة هي البلاغ المبين،

فهو حياتهم في الدنيا، وهاجسهم الدائم، وهو نجاتهم في الآخرة، ولا نجاة بدونه، وأن ديدن المسلم هداية الخلق وعدم الحقد عليهم، وشعاره قول الرسول ﷺ: **«عسىٰ أن يُخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً»**.

لا بد من إعادة النظر بوسائلنا في الدعوة إلىٰ الله.. وإعادة المسلم إلىٰ صورته الحقيقية التي جاء بها الإسلام، وتقديم الدليل علىٰ أن الإسلام دين الرحمة والحب للإنسان، وليس هو الإسلام الذي صنعت صورته المخيفة وسائل الإعلام المعادية..

شوال ١٤٠٣هـ - تموز (يوليه) ١٩٨٣م



والفتنة أكبر من القتل

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾

[النساء: ٨٣]

إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الفرد، وهٰذه الشهور من حدود الله وشعائره، التي لها حُرمتها ولها أحكامها المعروفة في مظانها من كتب الفقه والحديث، والتي لا سبيل إلىٰ الحديث عنها في هٰذا المقام، فلذٰلك حديث آخر.. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ . . .﴾ [المائدة: ٢].

ولقد عرف العرب قبل الإسلام هٰذه الشهور، وشيئاً من حرمتها، وهم علىٰ إرث بقية من دين إبراهيم أبي الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ. لٰكنهم لم يرعوا لها حرمة، إلا بالقدر الذي يظنون معه أنه يحقق مصالحهم فكان النسيء، وكانوا يحلونها عاماً ويحرِّمونها عاماً. فجاء الإسلام وأقرّ لهٰذه الشهور حرمتها، وحرَّم انتهاكها، واعتبرها من حدود الله كما أسلفنا. . .

* * *

قراءة في سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه

والأمر الذي نريد أن نعرض له هنا بهٰذه المناسبة ونقرأ من أخباره هو سرية عبد الله بن جحش رضي الله عنه، التي كانت مهمتها استطلاع أخبار العدو؛

إلا أنه حدث اجتهاد خاطئ أخرجها عن مهمتها الأصلية، فبالغ الكفار بالتشهير في هٰذا الخطأ واستغلوه، وأرادوا أن يجعلوا منه سهماً يرمون به الإسلام، ويلحقون المعرة بأهله، ليغطوا جرائمهم الكبيرة ويتخذوا منه وسيلة إعلامية، يمارسون من خلالها التضليل، فماذا كان موقف المسلمين؟

هل أنكروا الخطأ وتستروا عليه؟ وكابروا فيه وكذبوه؟ كيف عالج الوحي هٰذه القضية؟! هٰذا ما نريد قراءته في خبر تلك السرية.. ذٰلك أن هٰذه الحادثة كانت في رجب الشهر الحرام، وأن العالم الإسلامي والدعاة إلىٰ الله اليوم يعانون من أحوال مماثلة إلىٰ حدٍّ بعيد، ويعيشون مشكلات قد تبدو في ظاهرها معقدة، ولا يهتدون فيها إلىٰ حل، وفي تقديرنا أن المعادلة الصعبة التي نعاني منها علىٰ أكثر من مستوىٰ والتي ذهب الناس في حلها بين الإفراط والتفريط، يمكن لنا من خلال القراءة المبصرة في الكتاب والسنّة، والسيرة العملية، أن نلقي عليها بعض الإضاءات، التي تجعلنا أكثر إدراكاً لأبعاد المعركة بين الإسلام وخصومه، وأكثر قدرة علىٰ المواجهة، وأغنىٰ حكمة في المعالجة، ولنبدأ بقراءة الحادثة كما وردت في السيرة الصحيحة:

قال ابن إسحاق: وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب مقفله من بدر الأولىٰ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد.. وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه، حتىٰ يسير يومين، ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلما سار بهم يومين فتح الكتاب فإذا فيه: «**إذا نظرت في كتابي؛ فامضِ حتىٰ تنزل نخلة، بين مكة والطائف، فتَرْصُد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم..**» فلما نظر في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه بما في الكتاب وقال: قد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمَن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومَن كره ذٰلك فليرجع، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ.

فمضىٰ ومضىٰ معه أصحابه، لم يتخلف منهم أحد... حتىٰ نزل نخلة

فمرت عير لقريش فيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة المخزومي، وأخوه نوفل والحكم بن كيسان مولىٰ هشام بن المغيرة. فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أَمِنوا وقال عمَّار: لا بأس عليكم منهم، وتشاور الصحابة فيهم وذٰلك في آخر يوم من رجب، فقالوا: والله لئن تركتموهم هٰذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعنَّ به منكم، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم.

ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا علىٰ قتل مَن قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمىٰ واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القومَ نوفل بن عبد الله فأعجزهم.

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين، حتىٰ قدموا علىٰ رسول الله ﷺ فلما قدموا علىٰ رسول الله ﷺ قال: **«ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام»** فوقف العير والأسيرين، وأبىٰ أن يأخذ من ذٰلك شيئاً..

فلما قال ذٰلك رسول الله ﷺ أسقط في أيدي القوم فظنوا أنهم قد هلكوا، وعنّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلّ محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.. وقالت يهود، تُفائِل بذٰلك علىٰ رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبدالله: عمرو: عمرت الحربُ، والحضرمي: حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله: وقدت الحربُ. فجعل الله ذٰلك عليهم لا لهم.

فلما أكثر الناس في ذٰلك أنزل الله تعالىٰ علىٰ رسوله ﷺ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ...﴾ [البقرة:٢١٧].

أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل مَن قتلتم منهم والفتنة أكبر من القتل، أي قد كانوا يفتنون المسلم عن دينه حتىٰ يردوه إلىٰ الكفر بعد إيمانه، فذٰلك أكبر عند الله من القتل، ثم هم مقيمون علىٰ أخبث ذٰلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين ولهٰذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ . . .﴾.

قال ابن إسحاق: فلما تجلّى عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه حين نزل القرآن، طمعوا في الأجر، فقالوا: يا رسول الله، أنطمع أن تكون لنا غزاة نُعطى فيها أجر المجاهدين، فأنزل الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة]، فوضعهم الله من ذٰلك علىٰ أعظم الرجاء[1].

هٰذا خبر سرية عبد الله بن جحش والملابسات التي رافقت الأمر، كما رواها الحافظ ابن كثير في كتابه، وما ورد في كتب السيرة الأخرىٰ وأسباب النزول لا يخرج بمجموعه عما ذكره ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ . . .

* * *

مجموعة حقائق..

ونرىٰ أن مجموعة من الحقائق لا بد من تسجيلها ابتداءً وقبل الانتهاء إلىٰ تلك الإضاءات التي كنا وعدنا بها، والتي من أجلها كانت القراءة لهٰذه السرية، والتي نأمل من خلالها أن نكشف كثيراً من جوانب المأساة التي يعاني منها مسلم اليوم، ونأخذ بيده قدر المستطاع لسلوك طريق الرشاد.

● **أولىٰ هٰذه الحقائق**: أن القرآن خالد، مجرد عن حدود الزمان والمكان، وأنه منهج النبوة الأخير للبشرية، وهٰذه مدلولاتها تعني: أن القرآن

(١) ابن كثير، الجزء الثاني، ص٣٦٦ ـ ٣٦٩.

قادر على العطاء دائماً وأن معينه لا ينفد، ونظن أن ذلك ليس محل شك أو مماراة عقيدة على الأقل بالنسبة لأي مسلم يدرك أبعاد إسلامه وحدود إيمانه، لكن يبقى الأمر المطروح إلى أي مدى استطاع مسلم اليوم أن يترجم هذه العقيدة إلى واقع، ويحقق الرؤية القرآنية في حياته وفي نظرته للأمور وحكمه عليها وتعامله معها بكل شمولها وخصبها وعطائها وتفسيرها للحياة وتحديدها لمسارها وبيانها للقوانين والسنن التي تنتظمها أو يصطبغ فعلاً بها سلوكه: لتحقق لديه ملكة الفرقان، التي أخبرنا الله بها كثمرة للتقوى ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

والذي نراه عند أكثر المسلمين اليوم، أن قضية الاعتقاد بخلود القرآن والانتصار لها لا يخرج بمجموعه عن الاقتصار على الموقف العاطفي الذي لا يُحدث الأثر المطلوب في سلوكنا، والتغيير المشروع في حياتنا، والرؤية القرآنية الشاملة لقضايانا، ولئن كان بعض المسلمين اليوم مصاباً بالعجز عن تمثل خلود القرآن، وأن خلوده لا يعني عند كثير منهم أكثر من استمرار تلاوته، والتبرك به. فهذا لا يغير شيئاً من حقيقة الأمر، إذا اقتصرنا عليه.

● **الحقيقة الثانية**: أنه لا بد لنا حتى ندرك الرؤية القرآنية بشكل واضح وسليم من بيان الموحى إليه من ربه، الذي أنيطت به مهمة البيان.. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ..﴾ [النحل: ٤٤] والالتزام بحدود هذا البيان، الذي يشكل بمجموعه السنّة الصحيحة والسيرة العملية.. ومن هنا يمكننا القول بخلود السنة الصحيحة والسيرة العملية. وأن هذا البيان وهذه التطبيقات لا بد منها لمعرفة الأبعاد العملية للرؤية القرآنية.

● **الحقيقة الثالثة**: أن السنة الصحيحة والسيرة العملية إلى جانب الكتاب هي الحاكم وهي المقياس والمعيار الذي به تقوم الأمور، وأعمال العباد وتصرفاتهم محكوم عليها. وبالتالي فعلى الرغم من الإسقاطات التي يمكن أن تتم للحاضر، من خلال الحادثة التاريخية وعلى الرغم من تعدية

الرؤية القرآنية وتحقيق شمولها لأحداث الحاضر، وعملية المقايسة التي يمكن أن تصيب كما يمكن أن تخطئ. يبقىٰ للسيرة تفردها وللصحابة تميزهم وخصائصهم، كجيل فريد كانت حياتهم هي الأوعية الشرعية التطبيقية لمدلولات الخطاب القرآني.. وعملية المقايسة والإسقاط التاريخي إنما تكون لإضاءة الطريق وإغناء التصور ليستقيم التطبيق، وبالتالي فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن تأخذ الحادثة الحاضرة مهما بلغت عملية المقايسة من الدقة مكانة ومنزلة أحداث السيرة وحياة الصحابة، فالرسول ﷺ عندما قال قبيل معركة بدر حين رأىٰ قريشاً بخيلائها ومعاداتها للّه ورسوله: «**اللهم إن تهلك هـٰذه العصابة فلن تعبد في الأرض**» أمر خاص بالبدريين مهما اشتدت الأحوال واحلولكت الظروف بالنسبة لأية جماعة من الجماعات أو مجتمع من المجتمعات الإسلامية بعد قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ..﴾ وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ ..﴾ لذٰلك فإعطاء بُعْد السيرة ومنزلتها لأية جماعة من الجماعات في تصرفاتها خطأ عقيدي وتاريخي وحضاري لا بد من التنبيه عليه، فالمقاس لا يقاس عليه هنا.

● **الحقيقة الرابعة**: أن محل القدوة والأسوة، والمثل الأعلىٰ هو الرسول ﷺ، وليس ذٰلك لأحد من بعده مهما علا شأنه وعظمت مكانته، لوجود العصمة للنبي ﷺ، ولأن البشر خطّاؤون، وإنما يقتربون من المثل الأعلىٰ ويبتعدون عنه، بمقدار ما يؤتىٰ كل منهم من خير وحكمة وبصيرة نافذة... وعلىٰ ذٰلك يبقىٰ للمثل الأعلىٰ عصمته ومكانته ويكون لنا خطؤنا وصوابنا وقربنا من ذٰلك المثل وبُعدنا عنه بمقدار ما يحالفنا التوفيق من الله ويتوفر لنا الإدراك والفقه..

● **الحقيقة الخامسة**: أن أسباب النزول هي عبارة عن وسائل معينة، وأضواء كاشفة، لكيفية تنزل النص القرآني، علىٰ الواقعة التاريخية، وإدراك أبعاد الصور التطبيقية لمدلولات الخطاب، حتىٰ يمكن لنا بعد ذٰلك المقايسة والتعدية ومد الرؤية القرآنية وإعطاء الحكم الشرعي للأحداث المتجددة، ولا يمكن أن نتصور أن النص القرآني مقتصر عليها ولا يتعداها إلىٰ غيرها من الوقائع المماثلة لأن ذٰلك يقضي علىٰ حقيقة الخلود، والقدرة علىٰ العطاء

المستمر، لذٰلك لا يمكن اعتبار أسباب النزول من السدود والقيود للنص، خاصة وأن القرآن أكد علىٰ ضرورة الاعتبار لأولي الأبصار، وأن العبرة عند علماء الأصول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب...

* * *

بصائر لمأساة المسلمين

بعد هٰذه الحقائق والبدهيات التي أتينا علىٰ ذكرها نعود إلىٰ القراءة في خبر سرية عبد الله بن جحش ﷺ التي تشكل سبب النزول لقوله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ..﴾ [البقرة:٢١٧] إلىٰ آخر الآيات لنساهم من خلال حادث السيرة الذي نحن بصدده ببعض البصائر لأبعاد مأساة المسلمين التي يعيشونها أو للواقع الذي يعانون منه علىٰ أكثر من صعيد.

وأول ما يطالع الإنسان فيها ما كان من استنكار الكفار لسلوك المسلمين من القتال في الشهر الحرام واستغلال ذٰلك وإلحاق المعرة بهم والتضخيم من هٰذا الخطأ حتىٰ كاد يغطي علىٰ سلسلة أخطاء الكفار وجرائمهم التي لا نهاية لها، وما كان من جواب رسول الله ﷺ وهو المثل والقدوة ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ من اعتراف بالخطأ وبأنه خطأ كبير لا شك في ذٰلك. وهنا لا بد لنا من وقفة بسيطة وهي أن الرسول ﷺ لم يقتصر علىٰ معرفة الخطأ وترميمه وذلك بإيقاف الغنيمة والتفكير بدفع دية القتيل، بل تجاوز المعرفة إلىٰ الاعتراف الصريح المعلن بالخطأ وبحجم الخطأ أيضاً ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ..﴾.

وفي اعتقادنا أن التنبه لهٰذه القضية علىٰ غاية من الأهمية والخطورة.. ذٰلك أن اجتهاد بعض من مسلمي اليوم: أن أمر التستر علىٰ الخطأ والسكوت عنه في العمل الإسلامي ضرورة تنظيمية وخطة استراتيجية ومصلحة إسلامية، ذٰلك أن الخطأ إذا كُشف استطاع العدو أن يوظفه لمصلحته ضد مصلحة الإسلام والمسلمين، وكان بمثابة النوافذ التي يتسلل منها العدو وذٰلك بمعرفته المقاتل إلىٰ جانب خلخلة الصف المسلم الذي يكون في نهاية المطاف لمصلحة أعداء الإسلام..

أما بعضهم الآخر فيرىٰ أن التستر علىٰ الخطأ أمر مهلك للأفراد والجماعات وسبب انقراض المجتمعات البشرية وسقوط الحضارات، ومورث للّعن الذي لحق بني إسرائيل، بسبب عدمِ تناهيهم عن المنكر، وأن مخاطر وسلبيات الاعتراف بالخطأ ومطاردته وما يحدثه، ومن ثم تصويبه لا يمكن أن تقاس بما يترتب علىٰ التستر عليه من هلاك وإهلاك.

إن الاعتراف بالخطأ وتصويبه وتقويمه هو سلامة في البناء وصلابة في القاعدة وإقامة للمجتمع علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان.. وإن التستر عليه والسكوت عنه بحجة عدم التشويش في الوسط وعدم الخلخلة في الصف المسلم من أوهام الإنسان وتلبيس الشيطان... فالحق أحق أن يتبع، والتناصح والاعتراف وسيلة لاستقامة البناء المتين، والتستر لون من الخداع والمخادعة والورم الكاذب قال تعالىٰ: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ..﴾.

وفي تقديرنا: أن في خبر سرية عبد الله بن جحش ﷺ حل للمعادلة التي قد تبدو في ظاهرها صعبة نوعاً ما، وإغناء للتصور الذي يمكن من الحكم الصحيح وإضاءة هامة علىٰ طريق الحل.. ذٰلك أن المشكلة التي نعاني منها أن المجتمعات الإسلامية بدأت علىٰ أكثر من مستوًى رحلة الانسلاخ من الإسلام كثمرة للغزو الفكري والتضلل الثقافي والتغريب الحضاري إلىٰ درجة أصبح معها الإسلام غريباً أي مستغرباً مستنكراً علىٰ ما ألفه الناس، من صور الإسلام التي صنعت لهم، وأن الدعاة إلىٰ الله أصبحوا غرباء في مجتمعهم وغرباء في سلوكهم الذي بات يستهجن ويستغرب ويوصم بشتىٰ الصفات كالجمود والتشدد والتعصب والتطرف إلىٰ آخر هٰذه المصطلحات، والأمر ليس جديداً فلكل عصر مصطلحاته، ولقد اتهم الرسول ﷺ من المجتمع الجاهلي بتهم شتّىٰ وكان كل مَن يخرج عن عقائد وعادات هٰذا المجتمع إلىٰ الإسلام يسمىٰ صابئاً، ولا يكون هٰذا من أعداء الإسلام فحسب وإن كانوا هم وراء القضية، بل من بعض المسلمين البسطاء الذين لم يألفوا هٰذا الفهم للإسلام.

***

خطأ الداعية أمر طبيعي

والدعاة إلىٰ الله قد يخطئون في الوسائل وأساليب العمل، ويفتقدون الحكمة في نشر الدعوة بسبب من شراسة الأعداء التي تُحرجهم في بعض الأحيان فتُخرجهم عن الطريق الإسلامي السوي، أو بسبب من ضغط الواقع علىٰ أعصابهم وردود الفعل التي يمكن أن تلحق بهم كبشر في حالات ضعفهم البشري أو الفهم الخاطئ للإسلام والتعسف في تطبيق أحكامه. وهنا تكمن الصعوبة في المعالجة فبعض الناس يظن أن تخطئتهم إنما توظف لحساب أعداء الإسلام والمسلمين كما أسلفنا وتكون مساهمة سلبية في إنهاكهم وشل حركتهم وتمكين العدو منهم كرد فعل علىٰ الذين يقتصر دورهم في المعالجة علىٰ تطبيق قانون السير ذي الاتجاه الواحد في الموضوع: وهو تتبع خطأ العاملين للإسلام ووضعه تحت المجهر وتكبيره إلىٰ درجة تشل حركة العمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله، وتخوف منه لأنهم يظهرونه ككتلة أخطاء دون القدرة علىٰ تحديد موقع هٰذا الخطأ، إن وجد، من صور الخطأ العميم والجرائم الكبيرة التي يمارسها أعداؤهم، وكيف أن أخطاءهم إذا ما قورنت بخطأ خصومهم لا قيمة لها.

من هنا نستطيع أن نقول: إن في خبر سرية عبد الله بن جحش الضوء الكاشف والجواب الشافي للمعادلة التي تبدو صعبة في ظاهرها. لقد أخطأ المسلمون في انتهاك حرمة الشهر الحرام، وقتل وأسر مَن قتلوا وأسروا وعاب عليهم الكفار ذٰلك، وبدأت رحلة الإعلام المضلل للنيل منهم. وتضخيم خطئهم فكانت هٰذه فرصة المسلمين أولاً للاعتراف بالخطأ ومطاردته في صفوفهم، وهٰذا يقوي الصف ويقيمه علىٰ أساس متين لا شك كما أسلفنا، لٰكن في الوقت نفسه امتلكوا القدرة علىٰ التصنيف التي ربّاهم عليها المنهج القرآني.. ما هي قيمة هٰذا الخطأ وحجمه وأثره إذا ما قيس بأخطاء أعداء الإسلام الذين يدمرون المجتمع، ويمارسون الفتنة ويمنعون الخير ويشهرون الشر؟!!! إن ما وقع فيه المسلمون من خطأ كان فرصة المسلمين بعد أن طرحت قضية الخطأ علىٰ الساحة.. أن يكشفوا أخطاء

العدو ويطرحوا الموازنة والمقارنة التي تنهك العدو.. ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ...﴾. إن الاعتراف بالخطأ والقدرة علىٰ القيام بالموازنة كان دماً جديداً في جسم الدعوة الإسلامية وكشفاً وإنهاكاً وفضحاً لمواقع العدو تحت شعار: الفتنة أكبر من القتل.

فما قيمة رد الاعتداء في الشهر الحرام أمام الصد عن الحق ومنع الناس من الوصول إلىٰ المسجد الحرام وإخراج المسلمين من مكة واضطرارهم للهجرة، وممارسة الاضطهاد الفكري للحيلولة بين الناس وبين اختيارهم العقيدة الصحيحة!! إن سلسلة الجرائم التي يمارسها أعداء الإسلام ويُسْكَتُ عليها هي أكبر عند الله ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ..﴾ [القلم:٣٦]!!!

❋ ❋ ❋

الاعتراف بالخطأ وتصويبه

من هنا نستطيع أن نقول: لا بد من الاعتراف بالخطأ وتصويبه وتقويم العوج ومطاردته في الصف الإسلامي، وإن هٰذا ليس معرة وليس مساهمة سلبية في قوة الأعداء إذا امتلكنا الرؤية الصحيحة للمعالجة، لكن بشرط أن لا يطبق قانون السير ذو الاتجاه الواحد، فنرىٰ القشة في عيون الآخرين ولا نرىٰ العود في أعيننا، نسكت عن الجرائم الكبيرة، التي تدمر الأمة وثقافتها وعقيدتها، ونطارد الأخطاء والهفوات في المجال الإسلامي، ونتحدث عنها.. وفي تقديري أن هٰذا الأسلوب يؤدي إلىٰ تصلب الخطأ ويحول دون معالجته، بل يسقط هٰذه المعالجة حتىٰ لو جاءت من داخل الصف المسلم.

ويمكننا أن نعتبر إلىٰ حد بعيد أن خطأ الذين تصدوا لمعالجة الموضوع وحاولوا «تجيير» بعض الأحكام الفقهية والمصطلحات الشرعية لصورة الواقع التي قد لا تمت للإسلام بصلة، وتحدثوا عن خطأ المسلمين دون القدرة علىٰ تحديد موقعه وقيمته من سلسلة جرائم أعداء الإسلام كانوا

يرون بعين واحدة ولم يكتب لمعالجتهم أن تؤدي الدور المطلوب ونخشىٰ أن تكون حملت الإساءة للموضوع أكثر من أن تقدم الحل.

ولعلنا نلمح أمراً آخر في خبر السرية.. ذٰلك أن رجال السرية بقيادة عبد الله بن جحش ﷺ علىٰ الرغم من انتصاراتهم ونيلهم من عدوهم، أصابهم الغم وخافوا أن يحبط عملهم لأنهم أخطأوا فهم أمر رسول الله ﷺ. وعنَّفهم مجتمعهم الإسلامي عندما تبين الخطأ. فالغاية لا تبرر الوسيلة في الإسلام...

وَبَعْـد، فهل يحق لنا بعد هٰذا أن نطلب إلىٰ الأخ القارئ العودة إلىٰ قراءة الآيات التي تتحدث عن خبر السرية بتأمل وتدبر..

رجب ١٤٠٣هـ - نيسان (أبريل) ١٩٨٣م



العربية.. وثقافة المترجمات

«العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنّة فرض ولا يفهم إلا بفهم العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» [ابن تيمية]

من الأمور التي أصبحت من قبيل المسلمات في هٰذا العصر أن معرفة أكثر من لغة إنما يعتبر ـ وإلىٰ حد بعيد ـ بمثابة الحواس الإضافية، أو هي وظيفة أساسية من وظائف الحواس الأصلية، وأن الذي يحرم من ذٰلك فقد حرم الكثير من المعارف والأفكار والثقافات والعقائد البشرية، التي أصبح لا مفر للإنسان من الاطلاع عليها والتعامل معها بشكل أو بآخر، وتحديد موقعه منها بشكل دقيق، وقد لا يكون هٰذا الموضوع من الأهمية بالنسبة للجيل الماضي، كما هو عليه الآن. ذٰلك أن العالم بثقافاته وأفكاره ومعارفه وعقائده، أصبح وكأنه دولة واحدة، وساحة صراع فكري، وحوار عقائدي بعد أن اختصر الزمان وانتقص المكان، وأصبح الإنسان يرىٰ العالم ويستمع إليه من مكانه أو من وراء مكتبه، من خلال ما قدمته المدنية الحديثة من وسائل إعلام مرئية أو مسموعة أو مقروءة، أو من خلال وسائل النقل المتقدمة وأدوات الاتصال العجيبة...

ويمكننا القول: إن الذي يرضىٰ لنفسه أن يعيش بعيداً عن إدراك الصورة العالمية للحياة ومعرفة التعامل معها ـ وقد أمكنه ذٰلك ـ فقد أخرج نفسه من صورة الحياة، وقبِل أن يعيش علىٰ هوامشها في عالمه الصغير

الذي قد يراه كل شيء، وعطل ملكة التعلم التي وهبه الله إيَّاها وأمره بتسخيرها واستخدامها.. وقبل لنفسه أيضاً أن يكون أحد أفراد جماعة الصم البكم.. والله تعالىٰ يقول:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء].

❋ ❋ ❋

أهمية اللغة في البلاغ المبين..

فإذا كان الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره، كما يقول علماء المنطق، وقد نُهي الإنسان عن اتباع أمر ليس عنده به سابق علم وتصور، فكيف للإنسان المسلم أن يعمل لدعوته ويتعامل مع مجتمعه والناس عامة، الذين هم أمة الدعوة ومحل الخطاب كما يصطلح لهم بعض علمائنا، دون علم دقيق مسبق لواقعهم وعاداتهم وعقائدهم؟!

كيف يستطيع الإنسان المسلم أن يحقق هدفه، ويؤدي وظيفته، ويقوم بدوره علىٰ هٰذه الأرض دون أن يمتلك الوسائل الموصلة إلىٰ الهدف؟! ولعل من أهم هٰذه الوسائل: المعرفة بأحوال الأمم وعاداتها وعقائدها، ولا يتأتىٰ هٰذا إلَّا بمعرفة اللغات التي تشكل الأوعية الطبيعية لثقافتها، والنوافذ الحقيقية التي لا بد منها لتحقيق التصور الصحيح عنها، ومن ثم يكون التعامل السليم معها.

والقرآن الكريم قدّم للمسلمين صورة واضحة عن واقع العادات والعبادات والعقائد التي كانت سائدة في إطار اليهود والنصارى والوثنيين في عصر التنزيل، ليتمكن المسلم من معرفتها، ومن ثم تحديد وسائله للتعامل معها، وهٰذا يشكل منهجاً لا بد من التزامه في العمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله، ورؤية قرآنية لا بد من تعديتها وحسن التعامل معها، وإلَّا كيف يمكن للإنسان المسلم أن يوصل خطاب التكليف إلىٰ البشرية جمعاء، وهو

علىٰ جهل بلسانهم يعقبه جهل بعاداتهم وعباداتهم وعقائدهم، والله تعالىٰ يقول:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ...﴾ [إبراهيم: ٤].

فإذا كان الدعاة ورثة الأنبياء، وإذا كانوا الخلف لمتابعة الطريق وحمل رسالة النبوة، فلا بد لكي تتحقق عملية البيان من معرفة اللسان، فهل يمكننا أن نعتبر أن من رسالة المسلم في هٰذا العصر معرفة اللسان؟ وأن خطاب الآخرين وإيضاح الإسلام لهم لا يمكن أن يتم إلَّا بلسانهم، وهٰذا قانون إلٰهي... ﴿بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

لذا كان لا بد من النظر إلىٰ هٰذه القضية بالجدية الكاملة، وإعادة النظر بصلاحية المواقع القديمة والأحكام القديمة التي قد يشفع لها أنها كانت ثمرة لظروف وأحوال تبدلت، وأهميات اهتزت، وأولويات تغيرت...

إن معرفة لسان الأقوام الآخرين، كنافذة علىٰ حياتهم، وكوسيلة للتعامل معهم، أصبح ضرورة تقتضيها ظروف الحال، حاصة وأن علوم ووسائل المدنية الحديثة تكاد أن تكون حكراً علىٰ هٰذه اللغات الآن، والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها... فتعلم اللغات يشكل ضرورة لخطاب القوم، ويشكل حاجة للتعرف علىٰ وسائل المدنية الحديثة التي غمرت حياتنا بخيرها وشرها، ولا بد من فهمها وحسن التعامل معها.

* * *

المنزلق الخطير..

ولسنا الآن ونحن في هٰذه العجالة بسبيل أن نستوفي الكلام عن أهمية اللغات الأخرىٰ، ومدىٰ فائدتها وضرورتها، لٰكن الذي يعنينا هو الكلام عن المنزلق الخطير، الذي تزداد خطورته يوماً بعد يوم، والذي أصبحت ملامحه واضحة في حياتنا، وصوره مكرسة ومألوفة في عالم المسلمين اليوم،

وخطورة هٰذا الأمر أنه لا يقتصر علىٰ العوام من المسلمين والبسطاء والسذج والأميين، وإنما يتجاوزهم إلىٰ بعض المؤسسات الإسلامية، أو مؤسسات التعليم الإسلامي، وبعض القيادات الإسلامية، وكثير ممن نذروا أنفسهم ليكونوا دعاة إسلاميين يسيرون علىٰ ميراث النبوة، ويحملون دعوة الإسلام إلىٰ البشرية.

هٰذا المنزلق الخطير والشر المستطير الذي ينذر بسوء العواقب، ويبتعد بنا شيئاً فشيئاً عن الأصول، هو: اكتفاء بعض دعاة الإسلام، وبعض القائمين علىٰ المؤسسات الإسلامية، من العربية بحفظ سورة الفاتحة وسورة أو سورتين من قصار السور يؤدون بها صلاتهم، وفيما وراء ذٰلك إنما يتعرفون علىٰ الإسلام والعقيدة الإسلامية من بعض الكتب المترجمة إلىٰ اللغات الأخرىٰ، كالفرنسية والإنكليزية وغيرهما من اللغات...

ونحن لا نريد هنا أن نحط من قدر هٰذه المؤلفات المترجمة عن الإسلام إلىٰ اللغات العالمية، ولا نقلل من أهميتها وقيمتها وفائدتها وآثارها الكبيرة والكثيرة جداً في التعريف بالإسلام والمسلمين، فمَن ذا الذي يستطيع أن ينكر الآثار الكبيرة والفوائد العظيمة التي تركتها كتب الأستاذ المودودي وغيره ـ رحمهم الله ـ؟! ولكن الذي نريد إيضاحه عدة أمور:

إن هٰذه المترجمات يمكن قبولها ابتداء للتعريف بالإسلام والمسلمين، لأنها تمنح الصورة الإسلامية، وتغري بالبحث والمتابعة، وتقود المسلم إلىٰ التعرف علىٰ الإسلام من منابعه الأولىٰ، وفهمه من خلال لسانه ومعهود العرب في الخطاب ودلالات الألفاظ كما هي بالعربية.. نقول: إن هٰذه المترجمات يمكن أن تقبل ابتداء لتقود إلىٰ ما بعدها، وإن رضينا باستمرارها فيمكن أن يكون ذٰلك في مجال بسطاء المسلمين من غير العرب الذين لم تسمح لهم ظروفهم بالتحصيل والمتابعة، أما أن يقبل دعاة الإسلام والقائمون علىٰ شأن بعض المؤسسات الإسلامية بهٰذه الحال، وأن تكون معرفتهم الإسلامية وثقافتهم الإسلامية عن طريق هٰذه المترجمات عن الإسلام، فهنا تكمن الخطورة... ذٰلك أن الترجمة مهما كانت دقيقة ومعبرة لا يمكن أن

تعطي الصورة الصحيحة الدقيقة لمدلولات الألفاظ في لغة أخرىٰ، لها اصطلاحاتها، ولها استعمالاتها، ولها أوعيتها المرنة ومترادفاتها الغنية، ولها مجازاتها واستعاراتها وكناياتها. . . حيث لا يتسع لذلك لغة أخرىٰ مهما كانت المحاولة جادة وأمينة وصادقة، ناهيك عن ثقافة المترجم وفهمه لمدلولات الخطاب الإلٰهي ومدىٰ تأثره والمداخلة التي يمكن أن تتم خلال كل العوامل النفسية والثقافية المكونة لشخصيته الفكرية. . . والله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] ويقول: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء] فطريق معرفته لا يمكن أن تتأتىٰ إلَّا من خلال معهود العرب في الخطاب ولغة العرب أيضاً. . . فإذا كان العلماء المحققون والباحثون الجادون اليوم، علىٰ مستوىٰ اللغة نفسها، يحاولون تجاوز فهوم أبناء اللغة نفسها، ويعودون للبحث عن الأصول والمخطوطات، يعودون للمعاجم لدراسة مدلولات الألفاظ، ويدرسون أيضاً رسم الخطوط ليتمكنوا من القراءة وليصلوا إلىٰ الصورة الحقيقية والمدلولات الدقيقة للوحي الإلٰهي، ولنص الكتب والمعاهدات والمقررات والعقائد والأديان، فما بالنا نحن المسلمين، وعلىٰ مستوىٰ القيادات، نرىٰ أنه بالإمكان أن نكون مسلمين، وأن يكون فهمنا للإسلام من خلال التصور الذي رسمته لنا الكتب المترجمة. . .

❊ ❊ ❊

الوسيلة الوحيدة.. لفهم الإسلام

ونعود للتأكيد مرة أخرىٰ أن الدعوة لتعلم لغة العقيدة، والتعرف علىٰ العقيدة من خلال لسانها لا يعني إلغاء الترجمة وبيان الإسلام باللغات الأخرىٰ، ولا التقليل من قيمة هٰذه الجهود المشكورة التي أضاءت الطريق لكثيرين ووصلتهم بالإسلام ولا تزال، ولا أن نتخذ موقفاً معادياً لها، وإنما نقول: إن العربية هي الوسيلة الوحيدة في نهاية المطاف لفهم الإسلام. . .

يمكن أن نلمح ذٰلك من أن الإسلام لم يقم وزناً لقضية الأجناس والألوان والأموال، حَسْبُها أنها فوارق قسرية، ليس من المقبول عقلاً أن

تكون ميزان تميز وتفاضل، ولو كان ذٰلك كذٰلك لكان الظلم عينه، وكانت وسيلة للصراع والاقتتال، ومن هنا أيضاً نلمح البدائية العجيبة عند الذين كانت القوميات والعصبيات والعنصريات والألوان والنزعات العرقية مناط دعوتهم، وهدف حركتهم... وعلىٰ الرغم من أن الإسلام لم يقم وزناً لهٰذه الفوارق القسرية كلها إلَّا أنه لم يتنازل عن قضية العربية، لأن اللغات مكتسبة وتعليمية، ولا بد منها لصياغة الأمة الواحدة وتشكيل أوعية متجانسة للعقيدة الواحدة التي تحفظ روح الأمة وتعبر عن إرادتها.. ولذٰلك نرىٰ التطبيق العملي لهٰذا في حياة المسلمين من غير العرب، حيث لم يعتبر أحدهم أن بإمكانه الاستغناء عن العربية والاقتصار علىٰ ما يفهم من الإسلام بلغته، أو من أبناء جنسه الذين أسلموا وتعلموا العربية، بل كانت العربية غاية مناه ووسيلة فهمه لإسلامه وعقيدته، فكان منهم مؤلفون وعلماء ومفسرون ومؤرخون وأصوليون أدركوا من مدلولات الخطاب ما أدركه العرب أنفسهم، بل وصلوا إلىٰ مرتبة الإمامة في اللغة والفقه والتفسير والحديث وما إلىٰ ذٰلك من العلوم التي لا تتوفر إلَّا لـمَن أتقن العربية وعلومها...

إنهم كانوا يدركون تماماً أن العربية من الدين، وأن لا سبيل إلىٰ فهم العقيدة والتزام الشريعة بغير العربية، وبذٰلك يقول أبو إسحاق الشاطبي رحمه الله في «الموافقات»:

«إن هٰذه الشريعة المباركة عربية، فمَن أراد تفهمها فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلىٰ تطلب فهمها من غير هٰذه الجهة...».

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «تعلّموا العربية فإنها من دينكم...».

لذٰلك رأينا علماء الأصول يفردون في كتبهم مباحث نفيسة للغة العربية ودلالاتها باعتبارها وسيلة لفهم الشريعة... ومن هنا يقول الإمام الشافعي رحمه الله، وهو أول مَن أصَّل الأصول: «فعلىٰ كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتىٰ يشهد به أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ومن التسبيح والتشهد وغير ذٰلك...».

والرسول ﷺ يقول: «**مَن يُحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالعجمية فإنه يورث النفاق**» وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب...».

***

الهجوم علىٰ العربية استهدف به الدين..

والعربية: اللسان، والدعوة إليها من أمر العقيدة، يستوي فيه موقع المسلم العربي والمسلم غير العربي، علىٰ الرغم من ردود الفعل والإساءات التي حملها دعاة النزعات الإقليمية والعرقية، والقوميات، وأرادوا حبس لغة العلم والحضارة والعقيدة ضمن أسوار النزعات الإقليمية، وكان بعضهم من البساطة لدرجة ظن معها أنه يحسن بذٰلك صنعاً، ولم يدرِ أنه كان يمثل مطية لمرحلة كان لا بد منها، هي: مرحلة العبور من الإسلام إلىٰ اللادينية التي تحارب الإسلام، وتحارب العرب مادة الإسلام، وتحارب العربية لسان الإسلام... ومع الأسف فإن البسطاء من المسلمين غير العرب وصل عندهم رد الفعل إلىٰ المدىٰ الذي رُسم لهم ابتداء، فأصبحوا ينظرون بارتياب إلىٰ كل دعوة إلىٰ تعريب اللسان، وما دروا أنهم بذٰلك أساءوا لأنفسهم وإسلامهم، ووقفوا عن غير قصد منهم في صف أعداء الإسلام، فأصبحوا يعتبرون أن كل دعوة للعربية هي دعوة للإقليمية، وفاتهم أن موقعهم من لغة العقيدة لا يختلف عن موقع العرب منها أو موقعها منهم، وأن دعاة الإقليمية من العرب كانوا تاريخياً أعجز الناس عن تقديم أية خدمة للعربية، بل معظمهم لا يحسن النطق بها، ولا يقيم لسانه بالقليل منها...

ولقد كنا نتوهم أن الهجوم علىٰ العربية بأشكاله المتعددة، ووسائله المختلفة، الذي تولىٰ كِبْره كمال أتاتورك علىٰ المستوىٰ السياسي، أصبح تاريخاً بعد أن سقطت الأقنعة عن الوجوه، وارتدّت الأسلحة إلىٰ نحور

أصحابها، لكن الحقيقة أن أعداء الإسلام الذين يقول الله عنهم: ﴿... وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ...﴾ [البقرة:٢١٧] لم يكلّوا، ولم يملّوا، وكلما سقطت راية رفعوا غيرها، وكلما انكشفت وسيلة استبدلوها بسواها، وكلما خسروا معركة تحرفوا لموقع آخر يقاتلون فيه، ويمكن أن يكون خرق اللغة، بالنسبة إليهم، هو من أعظم الخروق التي ينفذون منها دون ضجيج وبشكل هادئ.

لقد أدركوا أن الهجوم المباشر علىٰ العربية، والدعوة المباشرة إلىٰ استبدال العامية بها، ترك ردود فعل قوية علىٰ مختلف المستويات، فكان لا بد من تغيير الوسيلة والتسلل لتحقيق أهدافهم بهدوء وصمت... فمن دعوىٰ إلىٰ تطوير الحرف العربي والخط العربي، وتقديم المسوغات التكنولوجية لذٰلك - وصناعة التكنولوجيا بأيديهم كما هو معلوم - إلىٰ الدعوىٰ التي تقول بضرورة التفريق بين لغة العلم ولغة الدين، وأن العربية لا تصلح كلغة علمية، لأنها لغة دينية مكانها المعابد والمساجد والكتب المقدسة، كالسريانية واللاتينية والهيروغليفية وبعض اللغات الميتة التي تقتصر معرفتها علىٰ بعض رجال الدين بعيداً عن واقع الحياة، ولعل هٰذه القضية هي مظهر واضح من القضية الأساسية، فصل الحياة عن الدين.

❊ ❊ ❊

عجمة اللسان تؤدي إلىٰ عجمة القلب والفكر

ولقد حقق أصحاب هٰذا الاتجاه معظم أهدافهم، ذٰلك أن دراسة العربية وعلومها بالشكل المطلوب أصبح معزولاً عن مدارسنا وجامعاتنا، ومقتصراً علىٰ بعض المدارس الشرعية التقليدية، وفي حلقات المساجد، والكثير من العلوم والدراسات تقرر في عالمنا العربي والإسلامي باللغات الأجنبية، ولعل الجامعة الوحيدة التي تدرس العلوم بالعربية هي جامعة دمشق، ولا زالت عملية ترجمة العلوم وتعريبها والجهود في هٰذا المجال

تعيش في الخطوط الخلفية للمجتمع العربي الإسلامي، وقليل مَن يستفيد منها، وإلىٰ الآن لم تؤخذ بقوة...

ولقد تسللت المؤامرة علىٰ العربية إلىٰ بعض الأجواء الإسلامية، وسقط في مناخها بعض الإسلاميين، وإنما أوتُوا بسبب عدم معرفتهم العربية، فخرجوا علىٰ الناس بمسوغ أن لا مانع من إسلامية التفكير وأعجمية التعبير، لذٰلك نرىٰ بعض دعاة الإسلام في هٰذا العصر من ضحايا هٰذه النظرة يحاولون الفصل العضوي، ويعيشون علىٰ ثقافة المترجمات ويعجزون عن الاتصال بالمنابع الأولىٰ، وفاتهم أن التعبير يطبع التفكير، والتفكير يطبع التعبير، وأن التفاعلات النفسية والاجتماعية التي تترافق مع ألفاظ اللغة ومصطلحاتها أصبحت من القضايا الواضحة في هٰذا العصر...

ولا شك عندنا أن اللغة كائن حي يقوىٰ بقوة الأمة، ويضعف بضعفها، وأنها الوعاء الذي حفظ للأمة عقيدتها وتراثها، والحصن الذي حمىٰ قيمها من الاضمحلال والذوبان أمام الموجات الاستعمارية، وأن تراجع العربية هو ثمرة لضعف الإسلام في نفوسنا، وأن العلوم الحديثة ـ التي تهتم بوسائل الإنسان ـ جاء معظمها باللغات الأجنبية، وأن تخلفنا الحالي لا يسمح لنا بأن نكون من روادها، وعجزنا اللغوي يقصر بنا عن ترجمتها إلىٰ العربية... لذٰلك فإننا نتعلم من جانب ونتعجم من جانب آخر، وأن اللغة هي وسيلة النقل الحضاري بين الأجيال، والخطورة بأن تقود عجمة اللسان إلىٰ عجمة القلب والفكر، ويبقىٰ تعلم اللغات الأخرىٰ حاسة إضافية وضرورة للفرد المسلم، لٰكنه لا يجوز بحال من الأحوال أن يلغي حواسَّه الأصلية، أو أن يكون البديل عنها... ذٰلك أن اللغة العربية هي مستودع شعوري هائل يحمل خصائص الأمة وتصوراتها وعقيدتها وتاريخها، وهٰذه الخصائص هي التي تمثل روح الأمة المسلمة.

صفر ١٤٠٣هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

هوامش حول
تطبيق الشريعة الإسلامية

﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

[الأعراف]

العدالة والمساواة من أهم الخصائص والمرتكزات التي تميز بها نظام الحكم في الإسلام، وهما الأمر الذي يمثل إلىٰ حد بعيد روح الحضارة الإسلامية الذي ضمن لها الاستمرارية والتواصل الحضاري رغم عوامل الإنهاك ومحاولات الإنهاء، وهو سر البقاء والخلود الذي افتقدته الحضارات الأخرىٰ جميعاً، وخضعت لمقياس النمو والارتقاء ومن ثم السقوط والفناء، ولم ينطبق هٰذا المقياس علىٰ الحضارة الإسلامية حيث لم يعدم أي عصر من عصور التاريخ الكثير من النماذج والصور العملية علىٰ المستوىٰ الفردي والجماعي التي تشكل النوافذ الحقيقية الأمينة، والتي يمكن أن يطل منها كل مَن يريد إلىٰ الحق الذي يتمثل في العدالة والمساواة التي جاء بها الإسلام، والرسول ﷺ يقول: **«لا تزال طائفة من أمتي قائمين علىٰ الحق لا يضرهم مَن خالفهم حتىٰ يأتيهم أمر الله»**.

إنها الطائفة التي تمثل هٰذا التواصل الحضاري الذي أشرنا إليه، والروح الإسلامية المستمرة التي تنتقل من جيل إلىٰ جيل حتىٰ يرث الله الأرض ومَن عليها.. إنه الوجود والحضور الإسلامي القائم الدائم الذي قد تختلف مساحته من جيل إلىٰ جيل، ومن عصر إلىٰ عصر، لٰكنها لا تختفي علىٰ كل حال... وعملية التواصل الحضاري في الإسلام، تلك الميزة

الفريدة، لا يتسع المجال للوقوف عندها أكثر الآن، ولا بد من العودة إليها ـ إن شاء الله ـ فهي سر الخلود للرسالة الخاتمة..

* * *

حق السيادة والألوهية

إن قضية تحقق العدالة والمساواة علىٰ مستوىٰ السلوك في الحياة يأتي ثمرة لقناعة عقيدية علىٰ مستوىٰ التصور بأن السيادة للّه، وأن التشريع بيده، وأن القيم التي يتحاكم إليها الناس وتحكم سلوكهم هي من وضع الخالق العليم الحكيم، والتسليم بأن خالق الإنسان هو أعلم بالمنهج والقيم التي تحقق له السعادة، وتضمن له العدالة والمساواة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك].

ذٰلك أن معظم الشر والشقوة في الحياة، وفقدان العدالة والمساواة كامن في نزوع الإنسان إلىٰ التألُّه والسيادة، وفي تسلُّط الإنسان علىٰ الإنسان، وأن هٰذا التسلُّط أخذ علىٰ مر التاريخ صوراً شتىٰ وممارسات متعددة، وكانت حقيقته واحدة، فتارة كان يأخذ صورة التمييز العنصري أو اللوني، أو القومي، أو الطائفي، أو الحزبي، أو العشائري القبلي، أو الطبقي.. وأخرىٰ قد يلبس أثواباً دينية ويمارس إرهاباً فكرياً باسم الدين ورجاله، والتسلط هو التسلط... وبالتالي فلا يمكن إيقاف هٰذا التسلط وتحقيق العدالة والمساواة إلا بأن تكون السيادة للّه والتشريع بيده، وبذٰلك فقط يخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة ربّ العباد، إذ لا يمكن أن يتصور عقلاً بأن يعطي الإنسان المخلوق نفسه حق السيادة والألوهية، فيتصرف بالآخرين من أمثاله وفق رغائبه ورؤاه، ويشرع لهم قيمهم التي تنتظم سلوكهم وتحكم تصرفاتهم وتتحكم بمصائرهم بعلمه المحدود، وعمره المحدود، ووقوعه تحت تأثيرات كثيرة ومتعددة، فيأتي تشريعه قاصراً من جانب ومحققاً لمصلحة طبقته وفئته وحزبه أو طائفته مستغلاً للآخرين ومستبداً بهم... من جانب آخر.

لذلك كان الاعتقاد بأن السيادة لله، والتشريع بيده، والقيم من وضعه من أولىٰ الحقائق والبدهيات في التصور الإسلامي التي لا يمكن أن تتحقق العدالة والمساواة بدونها أيضاً.. ومن هنا نستطيع أن نقول:

إنه لا يكتمل إيمان المؤمن ما لم يعتقد ذٰلك، ويسعىٰ جهده لإبلاغه للناس وإقناعهم به واستفراغ الوسع في العمل علىٰ تطبيقه في حياة الناس، لأن تحكيم الشريعة والاحتكام إليها ثمرة طبيعية، وقضية لازمة لعملية الإيمان الأولىٰ كما أسلفنا؛ ذٰلك أن ادعاء الإيمان والنكوص عن الالتزام بالشريعة والانضباط بمقياسها يبقىٰ دعوىٰ بلا دليل، ومَن يخالف فعله قوله كان كالذي يوبخ نفسه، وكثيرون في عالمنا الإسلامي من أولئك الذين تسموا بأسماء المسلمين ممن أصبحت حرفتهم اللعب بالمبادئ والتلاعب عليها، وإماتة المطالبات بتطبيق الشريعة الإسلامية في أدراج اللجان، وتغييبها عن المواقف الجادة؛ والعبث بعواطف المسلمين من تسويف المبطلين، والاعتذار بالغيرة علىٰ الأمة وذٰلك بتقديم القضايا الهامة والخطيرة في أولويات البحث والمناقشة، وكأن البحث في تطبيق الشريعة ليس من القضايا الهامة، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

ولا نجد أنفسنا بحاجة إلىٰ الوقوف عند مدلولات الآية لأنها من الآيات المحكمة التي لا لبس فيها ولا تشابه، ولا مجال لتأويل أو تمحل؛ والذي يزعم أنه مؤمن بالله ثم يتحاكم ـ فيما يستطيع ـ إلىٰ غير شرعه فقد وقع في الضلال والخزي، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء].

وقد يكون من الأمور الضرورية هنا إلقاء بعض الأضواء، وتحديد أبعاد خطاب التكليف بدقة، وعلاقة ذٰلك بالوسع والطاقة، ونصيب كل فرد من أفراد المجتمع من خلال موقعه من هٰذا الخطاب، ذٰلك أن الفهم المعوج أو الإخلاص الذي يفتقر إلىٰ الإدراك قد يؤدي في بعض الأحيان إلىٰ استجابات مغلوطة تحمل بعض المساوئ للقضية الإسلامية نفسها، حيث يكلف الإنسان

نفسه بما لم يكلفه الله به، و﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ...﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالخطاب كما هو معلوم، لكل مسلم حاكماً أو محكوماً، فرداً أو جماعة، لكن نصيب كل فرد ومسؤوليته في الاستجابة، ومساحة تلك الاستجابة، تختلف من إنسان لآخر، ومن موقع لآخر.

أيضاً، فالإيمان بسيادة الله، وأن ثمرة ذلك تحكيم شريعته بين الناس دين يتساوى فيه الجميع، لكن القدرة على إبراز ذلك وإنفاذه تختلف من مسلم إلى آخر بحسب موقعه وإمكاناته، كما أسلفنا، ومن هنا نقول: إن القيام على تطبيق شريعة الله وتنفيذ حدودها لا بد له من سلطان إسلامي، وإن تطبيق بعض الأحكام من قبل بعض الأفراد على أنفسهم أو على الآخرين فيما يخص السلطان المسلم، من إنفاذ العقوبات وما إلى ذلك، إنما يمكن أن يصنَّف في إطار الفهم غير السليم وغير السوي للاستجابة الإسلامية للأحكام الشرعية... ونعتقد هنا أن نصيب الفرد من خطاب التكليف ليس في أن يقيم من نفسه حاكماً يمارس ما ليس له شرعاً، وإنما العمل على وجود السلطة المسلمة التي تلتزم ذلك وتقوم به.

***

معنى تطبيق الشريعة

ولقد كان طبيعياً أن تتزامن المطالبة بتطبيق شريعة الله في عالم المسلمين بكل جوانبها، السياسية والاجتماعية والثقافية والقضائية والأخلاقية، مع حركة المد الإسلامي بعد هذه السنوات الطويلة من التجارب المريرة، والغربة الموحشة، والرحلة الشاقة من القهر والظلم والاستعمار والتسلط، وبعد أن بددت طاقات المسلمين وأهدرت كرامتهم، ومزقت أشخاصهم، وأكلت مواردهم، وسقطوا فريسة لأعدائهم، وبعد أن حكم على إسلامهم - الذي كان سبب حضارتهم ووجودهم التاريخي عملياً - بعدم الصلاحية، وطرح جانباً وأقصي عن مجالات الحياة وتنظيمها حتى بدأت تسوغ ذلك فلسفات، وفرضت عليهم شرائع وقوانين لا تمت إليهم بنسب، والذي ضمن

لها البقاء والاستمرار إنما هو حراب الاستعمار، والأيدي التي انتقلت إليها هٰذه الحراب في عصر ما بعد الاستعمار...

والأمر الذي نحب أن يكون واضحاً ابتداءً، وخاصة لأولٰئك الذين لا يرون من حكم الإسلام إلا الجانب العقابي، ولا يفهمون من تطبيق الشريعة إلا قطع يد السارق ورجم الزاني وقتل القاتل، وينظرون إلىٰ ذٰلك من خلال سلوكهم وممارساتهم.. ومن خلال المجتمعات القائمة بكل ما فيها من سرقة أموال وانتهاك أعراض واستباحة دماء، فيخرجون بنتيجة أن المجتمع الإسلامي المنشود تملؤه مجموعة من المشوهين والمطاردين بسوط الإرهاب الديني... نريد أن نوضح لهٰؤلاء أن تطبيق الشريعة أو المطالبة بتطبيقها لا يعني أبداً إقامة الحدود فقط، ذٰلك أن الحدود لم تُشرع لإقامة المجتمع المسلم، وأن الاقتصار عليها لا يقيم المجتمع الإسلامي، ولا يعني قيام المجتمع الإسلامي، كما يتراءىٰ لبعض البسطاء من المسلمين حيث يُخَادَعون بذٰلك، وإنما شرعت لحماية المجتمع الإسلامي ووقايته؛ ذٰلك أن المطالبة بتطبيق الشريعة تعني أول ما تعني: التربية الإسلامية للفرد، والشورىٰ في الحكم، والطاعة في غير معصية للحاكم، ورفض الاستبداد السياسي مهما كان، والعدل والمساواة في القضاء، وإباحة التملك بالوسائل المشروعة، وتحريم الربا والميسر والاحتكار، والتربية العسكرية الجهادية وسريان روح الجهاد والاستشهاد والإعداد والاستعداد قدر الطاقة في الدفاع عن الأمة وحماية الفضيلة من أن يعبث بها أو يعتدىٰ عليها...

أما الفهم المبتور من بعض البسطاء، أو تصوير المجتمع الإسلامي بأنه مجتمع السيوف المشرعة والسكاكين القاطعة، مجتمع الاقتصار علىٰ إيقاع العقوبات، ومن ثم، لا يحكم الإسلام بعد ذٰلك أمور الحياة ولا ينظمها، فهٰذه قضية علىٰ غاية من الخطورة والإساءة للإسلام نفسه... ذٰلك أن اليد التي تحارب الإسلام فكرياً في مكان قد تكون هي اليد نفسها التي تحاول تطبيقه بشكل مشوه وفهم معوج في مكان آخر لتقتل أي أمل في التطلع إلىٰ حكم الإسلام بعد رؤية هٰذه النماذج المشوهة من تطبيقات الشريعة.

***

بين السلطان والقرآن..

ولا يخفىٰ هنا، أنه قد يكون من وسائل أعداء الإسلام - في حربه - رفع شعارات إسلامية وإبراز صور إسلامية غاليّة ومتطرفة، فاقدة للمقومات والمرتكزات الصحيحة، ثم ممارسة إجهاضها من الداخل للبرهنة علىٰ أن الإسلام أصبح أمراً ذا قيمة تاريخية، عاجزاً عن الحياة في المجتمع المعاصر، وهٰذا أمر وارد وله أكثر من دليل في أكثر من موقع علىٰ خريطة العالم الإسلامي، غير أن الحقيقة أصبحت أمراً آخر، ونحن علىٰ اطمئنان أن الجماهير المسلمة في كل مكان قد تجاوزت هٰذه المرحلة، وأعطت ثقتها الكاملة للإسلام، وولاءها التام لشرعه بعد هٰذه الرحلة الشاقة من الممارسات غير الإسلامية التي خدعتها ولم تحمل لها إلا الهزائم والفرقة والتمزق والوهن وسيطرة الأعداء، وهي قادرة دائماً علىٰ التفريق بين الصور المشوهة للإسلام وبين صحة وصدق العقيدة والشريعة، وأن الفشل إنما هو في الممارسة والتطبيق وأن الثقة في المنهج باقية لا تهتز، وتكون العلة في التطبيق.

فقد ينهزم السلطان لسبب أو لآخر، وقد يتنكر السلطان للإسلام، وقد ينفصل السلطان عن القرآن لسبب أو لآخر أيضاً، لٰكن علىٰ كل حال يبقىٰ القرآن وتبقىٰ الثقة في القرآن المعصوم القادر علىٰ بناء أمة من خلال سطوره ومبادئه في كل زمان ومكان، قال تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف].

روىٰ أبو نعيم في «دلائل النبوة» أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا إن رحىٰ الإسلام دائرة، فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن كتاب الله والسلطان سيختلفان؛ فلا تفارقوا الكتاب. . .»**.

وقضية أخرىٰ، أو وسيلة أخرىٰ من وسائل أعداء الإسلام في محاربته، وهي التشكيك في كل دعوة أو مطالبة، والتخويف من أي صورة لتطبيق شريعة الله، وتفسير المطالبة بتطبيق الشريعة أو الإقدام علىٰ بعض

التشريعات التي من شأنها تطبيق الشريعة بأنها نوع من الابتزاز السياسي والنشاط الانتخابي أو اللجوء إلىٰ التأييد الشعبي لبعض الأنظمة المتداعية بعد أن تصل إلىٰ مرحلة ما قبل السقوط، ونحن لا نريد مناقشة صدق هٰذه المقولة أو دفع الاستدلال لها هنا، ولٰكن الذي نريد قوله: إنه لو كان ذٰلك حقيقة - كما يزعمون - فإن لهٰذه الحقيقة وجهاً آخر، مهما أغفلوه أو حاولوا تغييبه، وهو أن الإسلام هو المحرك الوحيد في حياة المسلمين وأن الجماهير المسلمة سرعان ما تتعاطف مع مَن يرفع شعار الإسلام، لأنه يمثل وجودها وإرادتها، وكيانها وأملها، ولا ترضىٰ بغير حكم الله بديلاً، ولا تؤيد غيره، ولا أدل علىٰ ذٰلك في عالمنا الإسلامي من المبادرات العفوية التي ما نزال نلحظها عندما يرفع شعار إسلامي، أو يشرع قانون إسلامي، وما نلحظ بالمقابل من حراسات وحراب سلطات الأمن وتنوعها في فرض وحماية القوانين الوضعية، غير الإسلامية، لدرجة أصبح معها أعداء هٰذه الأمة يقولون صراحة: إن العالم العربي لا تنفع معه إلا سياسة العصا الغليظة، ويستدلون لذٰلك بالكثير من القوانين والأنظمة التي تحكم عالم المسلمين ولا تعيش إلا في ظل الحراب...

لقد كان الأوْلىٰ بالذين يخافون ويخوفون من تطبيق أحكام الشريعة - تحت عنوان الغيرة علىٰ الإسلام، أو مصالح الناس أو حماية الأقليات التي ما طبقت الشريعة إلا وضمنت لهم العدل والمساواة - كان الأحرىٰ بهم أن ينكروا ويستنكروا الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي، والأنظمة الجبرية والأحكام الاستثنائية وقوانين الطوارئ التي تطبق في كثير من بلدان العالم الإسلامي حيث تلغىٰ إنسانية الإنسان وتطارد الحرية وتصادر باسم مواجهة المحتل واسترداد الأرض، الأمر الذي أضاع الحرية والأرض معاً، وكأن المفروض بالذين يدافعون العدو، ويستردون الأرض أن يكونوا طبقة من الأرقاء والمشوهين إنسانياً... ونحن علىٰ يقين بأن كثيرين من المتنفذين في عالمنا الإسلامي يعرفون إرادة الجماهير المسلمة، يعرفون هٰذه الحقيقة ثم ينكرونها، لٰكنهم يحاولون ابتزاز هٰذه الجماهير في المواسم والمناسبات...

***

لذٰلك فقد يكون المطلوب الآن، أكثر من أي وقت مضىٰ، من دعاة الإسلام والعاملين في الحقل الإسلامي ـ إلى جانب الحيطة والحذر واليقظة الدائمة، للحيلولة دون ممارسة عمليات الاحتواء عليهم وخوض المعارك بدمائهم، وتصفية الحسابات بين الخصوم بسواعدهم ـ أن يبرهنوا للناس أنهم دعاة أفكار ومبادئ، وحملة مقاييس منضبطة، يعرفون ما يأخذون وما يدعون، وليسوا إقطاعات بشرية لأشخاص كائنين من كانوا حتىٰ ولو خرجوا من الصف الإسلامي نفسه، وأن المطالبة بتطبيق الشريعة ليست حكراً علىٰ أحد أو عنواناً لجماعة أو طائفة أو حزب، وإنما هي مطلب جماهيري من ورائه جميع المسلمين للتخلص من المناهج والقوانين غير الإسلامية التي كانت أداة تمزيق فرضت علىٰ العالم الإسلامي بقوة المستعمر وحراب رجاله، فأوقعت العالم الإسلامي بعد أن فرقته بوهدة التخلف، ذٰلك أن تطبيق القوانين والمناهج غير الإسلامية في بلاد المسلمين يورث مزيداً من التخلف، ويقتل الإبداع، ويصيب المسلم بمركب النقص، ويوقع في عقدة التفوق للأجنبي، ويورث مزيداً من العطالة، ويُشعر المسلم بالإثم الدائم من تعطيل شريعة الله، ولا يجد من نفسه أي احترام لقانون لا يمت إليها بصلة . .

نقول: قد يكون المطلوب من العاملين للإسلام، أكثر من أي وقت مضىٰ، التفريق بين الأفكار وبين الأشخاص، أو بعبارة أدق: الانتقال من مرحلة الأشخاص إلىٰ مرحلة الأفكار عملياً، نعرف الحق فنلتقي عليه ونستمسك به، وندور معه حيث يدور، ونلتقي مع الأشخاص عليه ونفترق عليه، ونؤيد كل عمل وتشريع بمقياس الإسلام، ونرفض ما نرفض بمقياس الإسلام، وبذٰلك نبرهن علىٰ أننا أصحاب مبادئ ولسنا رجال مصالح.

وقد يكون المطلوب من العاملين للإسلام الآن أيضاً امتلاك القدرة علىٰ فقه التعامل مع المجتمعات والانفتاح أكثر وفتح منافذ جديدة للدعوة الإسلامية وامتلاك قدر أكبر من المرونة مع الإبصار الكامل والدقيق والأمين

للأهداف والتقدير للإمكانات، والخروج من العزلة التي كادت تحيط بهم لتجعل منهم جسماً غريباً منفصلاً عن جسم الأمة، وتجعل لهم أهدافاً منفصلة أيضاً عن أهداف الأمة، الأمر الذي يسهِّل علىٰ أعداء الإسلام ضربهم، ومن ثم القضاء عليهم تحت شتىٰ العناوين والشعارات.

إن الوقوف عند حدود الرفض والإدانة لواقع الأمة.. والاكتفاء بالخطب الطنانة الرنانة لم ولن يغير شيئاً من هٰذا الواقع، وإنما ينقلب إلىٰ حالة سلبية لا يحسن صاحبها غيرها، وقد يكون إلىٰ حد بعيد ستاراً لإحساس بالعجز عن المدافعة في معترك الحياة وحماية لشخصية هشة عاجزة عن المواجهة وحسن التدبير والتصرف.

إن فقه التعامل مع المجتمعات الذي نرمي إليه لا يعني أبداً التعاون معها علىٰ ما هي فيه من قيم وتشريعات بعيدة عن الإسلام، كما لا يعني أبداً أن يكون دعاة الإسلام دماً جديداً في قوة الباطل، أو أن يُوظف الإسلاميون لغير الأهداف الإسلامية، وإنما يعني النزول إلىٰ الساحة وفهم واقع الناس حتىٰ يجيء الأخذ بيدهم ثمرة لهٰذا الفهم، ذٰلك أن الناس هم محل دعوة الله، وأنهم خليقون بالشفقة والإنقاذ.

إن استعلاء الإيمان الذي أراده لنا الإسلام بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران] لا يخرج عن كونه ضرباً من الاعتزاز بهٰذا الدين، وحصانة نفسية تحول بين المسلم وبين الهزيمة والذوبان في المجتمع غير الإسلامي رغم قوته وانتصاره الظاهري، وفقدان عملية التوازن الاجتماعي حيث لا يرىٰ المسلم إلا أحد طريقين:

إما الذهاب إلىٰ المجتمع والذوبان فيه وعدم العودة إلىٰ الإسلام وانطفاء الفاعلية، وإما عمليات الرفض والإدانة والجلد للمجتمع.. الأمر الذي يحول بين المسلم ووظيفته في عملية البلاغ المبين.

إن استعلاء الإيمان هو حصانة ضمن المعركة الاجتماعية لا يعني بحال من الأحوال الكبر والاستكبار والترفع عن الناس والهروب من الساحة، وإنما يعني التواضع ولين الجانب والمرونة والابتعاد عن الفظاظة والغلو الذي يعين

الشيطان علىٰ إبعاد الناس عن الإسلام ويؤدي إلىٰ المساهمة السلبية في التنكر لهٰذا الدين وأتباعه.

المطلوب: فقه التعامل مع المجتمع لإنقاذه، وليس التعاون معه علىٰ الباطل، أو النكوص عن الدعوة والهروب من الساحة، والحكم علىٰ الناس غيابياً.

لقد آن الأوان لنعرف كيف نتعامل مع الصورة القائمة في حياة المسلمين، إننا مع كل مَن يلتزم بهٰذه المبادئ كائناً مَن كان، ولسنا مع مَن يتنكر لها أو يتحايل عليها كائناً مَن كان، ولو كان أقرب الناس إلينا، وإن كل إنسان يخطئ ويصيب إلا المعصوم؛ وإننا سنؤيد كل خطوة صوب الإسلام مع الوعي الكامل لدوافعها ووسائلها، ونرفض كل ما لا يمت للإسلام بصلة بمختلف الوسائل المتاحة. . .

ربيع الأول ١٤٠٤هـ - كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٣م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

مفهومات بحاجة إلىٰ مراجعة

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ [النساء: ٦٦]

إن نهوض المسلمين وتقدمهم، وردم فجوة السقوط الحضاري التي يعانون منها، واختصار فترة التخلف التي ما تزال تتسع بشكل رعيب، مرهون إلىٰ حد بعيد بإعادة فهمهم للإسلام، وإدانة الكثير من المفهومات التي استغلقت في أذهانهم، وأظلُّوها بمظلة الإسلام، فأورثت الكثير من التواكل، والعجز، والقعود، وانطفاء الفاعلية، والنكوص عن إدراك شروط النهضة، وفهم سنن الله في الآفاق والأنفس، وحسن تسخيرها وكيفية التعامل معها، وتسييرها دافعة عجلة الحضارة، مؤدية وظيفة عمارة الأرض علىٰ الصورة التي أرادها الله: كما أورثت تمزيق الرؤية الإسلامية الشاملة، وتقطيعها إلىٰ أبعاض وتفاريق، يعيشها مسلم اليوم عاجزاً عن النظرة الكلية الشاملة، الأمر الذي أفقده التوازن النفسي، الذي يمكِّنه من وضع الأمور في نصابها وإعطائها ما تستحق من الحيِّز والمكانة في سلم الحياة الاجتماعية، ذٰلك أن فقدان التوازن النفسي يقود بالتالي إلىٰ ما هو أخطر، يقود إلىٰ عملية الانكسار أمام المجتمعات والمبادئ غير الإسلامية، وعدم القدرة علىٰ التعامل معها، ومن ثم هدايتها، فيكون الانسحاب من المجتمع وتكون السلبية وبعض الممارسات الخاطئة، والانخداع بأن هٰذا هو الفهم السوي، الذي لا فهم سواه ولا يعدم صاحب هٰذه النظرة الجزئية القاصرة عن الرؤية الشاملة العاجزة عن الإدراك الكامل، أن يجد بعض الآيات التي يقطعها عن سياقها، ويجردها عن أسباب نزولها، يبرر بها موقفه، ويسوغ سلوكه، وقد

يحدث الوجه الآخر لفقدان حالة التوازن النفسي والاجتماعي، بسبب من النظرة الجزئية هٰذه، يحدث الذوبان في المجتمع، وإعلان العجز، وافتقاد القدرة علىٰ التغيير، وانطفاء الفاعلية، والاستسلام للواقع، باسم الواقعية ورفع شعار: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون».. ويذهب في تفسير القدر إلىٰ صور ما أنزل الله بها من سلطان، صور تغتال العمل، وتقتل الأمل، وتعطل موازين الثواب والعقاب، وتسوي بين المجاهد والقاعد، فالواقع علىٰ عوجه وفجوره لا يخرج في نظره عن أن يكون قدراً من الله، لا تجوز مواجهته وتغييره، وأن أية محاولة في هٰذا السبيل تعتبر محاربة لقدر الله، ولو أراد الله غير هٰذا لبدَّل الواقع!!

يرىٰ أنه لا يخرج عن كونه ريشة في مهب الريح، هٰكذا بهٰذه البساطة وهٰذا التصور المحزن، وهٰذا الفهم العليل يضرب بفهم الرسول القدوة ﷺ للقرآن، وبسنّته العملية في البيان، وبكل الإنجازات الحضارية التي قدّمها المسلمون، علىٰ مختلف الأصعدة والمستويات، عرض الحائط، ليصبح فهمه هو للإسلام الذي تشكل من خلال مكوناته النفسية، وإمكاناته العقلية، وثقافته الجزئية، وظروفه الاجتماعية، هو الحجة، وهو البينة ولو أدىٰ ذٰلك إلىٰ التعسف في تفسير الآيات وفهم الأحاديث وتطويعها لتوافق هواه...

* * *

ذهاب العلم...

ونستطيع أن نؤكد مطمئنين أن فهمنا للإسلام الذي نحن عليه، والذي نرىٰ صوره وآثاره السلوكية هنا وهناك - إلا مَن رحم الله - يغاير فهم الصحابة... والإسلام هو الإسلام، ولعل في حديث رسول الله ﷺ الذي يرويه زياد بن لبيد ما يدل دلالة واضحة علىٰ ما نحن عليه:

أخرج الإمام أحمد في «مسنده»، وابن ماجه بإسناد صحيح، من حديث زياد بن لبيد قال: ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: **«وذاك عند ذهاب**

العلم» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم، إلىٰ يوم القيامة؟ فقال:

«ثكلتك أمك يا لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أوَليس هٰذه اليهود والنصارىٰ يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء».. وفي رواية: **«أوَليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارىٰ فما أغنىٰ عنهم حين تركوا أمر الله»**.

فهل انتقلت إلينا عدوىٰ علل أهل الكتاب التي حذرنا الله من السقوط فيها والانتهاء إليها؟!!

من هنا فإننا لا نغالي، ولا نجافي الحقيقة، عندما نقول: إن مشكلة المسلمين اليوم لا تخرج عن كونها مشكلة ثقافية بالمفهوم الشامل لمصطلح الثقافة، وإن كل مظاهر الأمراض التي نراها، وصور التخلف التي نعيشها، لا تخرج عن كونها أعراضاً لمشكلتنا الثقافية، وهنا يتحدد الطريق ويتوحد الحل، وذٰلك بمعالجة المشكلة الثقافية وتصويب المسار الثقافي، وتنقية عالم أفكارنا من كل دخيل وعارض، والتخلص من المناخ الثقافي غير الإسلامي الذي يقطع رؤيتنا الإسلامية ويمزقها، ويمارس ضغوطه المختلفة علينا فيشوه نظرتنا، ويخرب مقياسها الذي يمكِّننا من التحكم بالمعطيات الحضارية، ويمنحنا القدرة علىٰ الأخذ والترك، ويُعجزنا أن نكون في سوية القدرة علىٰ الرؤية القرآنية والاستجابة لها...

إن المناخ الثقافي غير الإسلامي، الذي تشكل بسبب من الغزو الفكري، والذي كان من أخطر آثاره: تدمير الرؤية الإسلامية الشاملة، والانتهاء بنا إلىٰ صور من الممارسات الفاقدة للبصر والبصيرة، وحسن الدراية والفقه، ورسم المداخل الصحيحة للواقع الذي نعيشه، وتحديد موقعنا منه وامتلاك الوسائل المناسبة لحسن التعامل معه، وإيصال دعوة الله إليه... هو الذي يتحكم في رؤيتنا الإسلامية وممارستنا العملية.

* * *

استحضار البُعد الإيماني الغيبي

ونريد هنا أن ننبه إلىٰ أمر، نعتبر الانتباه إليه علىٰ غاية من الأهمية، ذٰلك أننا لا نعني بقولنا: إن مشكلة المسلمين اليوم هي مشكلة ثقافية، وما نعاني منه لا يخرج عن كونه مظهراً لها، أن مشكلة المسلمين مفتقرة إلىٰ وجود فلسفة، أو الحصول علىٰ معرفة بقراءة كتاب معين، أو الاطلاع علىٰ كتاب في الأحكام الفقهية، أو حفظ بعض المصطلحات والقدرة علىٰ استعمالها بعيداً عن التربية الميدانية والتدريب علىٰ المعاني الإسلامية والمجاهدة والجهاد، وإنما الذي نعني بالقضية الثقافية التي تشكل بمجموعها مشكلة المسلمين: استقامة النظرة، وانضباط المنهج، وسلامة الممارسة، وحسن الفقه والدراية لواقع المجتمع، والمساهمة بصياغته صياغة إسلامية، وتقويم الأفكار المعوجة، وتحصيل الإرادة العامة، واستعادة الفاعلية التي ولدها الإيمان وسددتها التقوىٰ ليصبح ذٰلك روح الأمة وضميرها، وهاجسها الدائم، وقوتها اليومي، وعدم اقتصار ذٰلك علىٰ فرد أو أفراد أو جماعة في عالم المسلمين...

المقصود بالثقافة هنا: الممارسة الإسلامية واستحضار البُعد الإيماني الغيبي في العقيدة والحركة، والضابط الأخلاقي الموجه الصحيح لسلوك الإنسان في الممارسة، وليس العلم بالشيء فقط والقعود عن السلوك والممارسة، ذٰلك أن العلم علىٰ أهميته وضرورته لا يخرج عن أن يكون بعض جوانب القضية...

إن مشكلة الثقافة لا تضم في مفهومها قضية الأفكار فحسب، وبذٰلك ينقل العمل للإسلام إلىٰ نادٍ فكري أو تجمع سياسي «أيديولوجي» أو قطاع فلسفي، وإنما هي تشمل قضايا أعم من ذٰلك بكثير، إنها تعني فيما تعني: أسلوب الحياة في مجتمع معين، والسلوك الاجتماعي الذي يطبع تصرفات الأفراد في ذٰلك المجتمع، والتدريب العملي اليومي علىٰ ذٰلك، وتوازن

الأبعاد في الإنسان المسلم وتوازي الخطوط للشخصية الإسلامية وعدم تقاطعها، إنها مجموعة العناصر الجوهرية في بناء الفرد والمجتمع. . .

الثقافة هي الجو والمناخ الذي يمتص فيه الفرد تلقائياً عناصر معينة فينطبع بها سلوكه وتوجهه الفكري، فيندفع إلىٰ إتقان العمل وحسن الأداء، وديمومة البحث والتعرف علىٰ سنن الله في الآفاق لتسخيرها وحسن التعامل معها. وسننه في الأنفس لتربيتها وتوجيهها وتغييرها صوب الهدف الإسلامي الواحد، وقد يخطر ببال بعضهم أننا بذٰلك نريد مزيداً من الكتب نضيفها إلىٰ المكتبة الإسلامية المترعة بالمفيد وغير المفيد، أو مزيداً من القراءة والمدارسة النظرية فقط بعيداً عن الممارسة والتربية الميدانية، أو يشتم من وراء الكلام توجهاً تربوياً أو خطأً تربوياً مقابلاً لغيره، يأتي كرد فعل لواقع معين، أو نريد للعمل الإسلامي أن ينقلب إلىٰ مدرسة فكرية، والذي يدفع إلىٰ هٰذا التصور هو عدم القدرة علىٰ الرؤية الكلية والعيش علىٰ صورة جزئية يعتبرها البداية والنهاية، ويعجز عن إدراك ما سواها مما قد يكون من مكملاتها.

والذي نريد أن يكون واضحاً ابتداءً: أننا نحاول أن نتلمس الطريق من خلال الحقائق الإسلامية والتربية الإسلامية والرؤية الإسلامية الشاملة والتربية العملية في سنَّة رسول الله ﷺ وحياة الصحابة. . إلىٰ جانب استحضار العبرة من التجارب الإسلامية الكثيرة.

إن هٰذا التمزيق وهٰذا التجزيء والتقطيع في الرؤية الإسلامية مرفوض، وهو الذي يقبع وراء الكثير من معاناتنا، إننا لا نريد أن ينقلب العمل الإسلامي إلىٰ مجموعة سواعد فقط يمكن أن تستخدم كوقود في معارك لا يكون للإسلام فيها نصيب، ويسهل خداعها بالبرق الخلبي أو بالفجر الكاذب، ووضعها في موقف حرج يسهل توظيفها واحتواءها، ولا نريد أيضاً أن ينقلب العمل الإسلامي إلىٰ ساحة استرخاء فلسفي، واجترار نظري، ومعارف باردة، وفقه أوراق، وإيثار للراحة.

* * *

إعادة تشكيل الرؤية الإسلامية

إن المقياس والميزان الذي يحكم أعمالنا وأقوالنا هو ميزان الإسلام، وليس سلوك فرد أو جماعة أو مؤسسة مهما كان عنوانها كبيراً، ولا يمكن لأحد اليوم من القادرين على النظر والتبصر، الناظرين إلى مواقع العمل والجهاد في العالم الإسلامي، وبعض صور التضحية الرائعة التي تقدم النفس والمال، وتستسهل في سبيل الله كل شيء، وتستهين بالدنيا والتي يمكن أن تنتسب في إخلاصها وتضحيتها إلى عصر الصحابة والتابعين، لا يمكن لأحد أن يتهمها بعدم الإخلاص بعد هذا الذي قدمته، وإنما تبقى المشكلة كل المشكلة بالقدرة على الصواب والتصويب وتحقيق الشروط الفنية، وحسن الاستفادة من هذه الطاقات ووضعها في مكانها الذي هو مسؤولية القائمين على العمل الإسلامي، للأخذ بيد المخلصين في الطريق الصحيحة، وترجمة هذا الإخلاص إلى مردود إسلامي يكون في مصلحة الإسلام والمسلمين.

وهنا نرى أنفسنا مضطرين إلى العودة أكثر من مرة إلى إيضاح مظهر من مظاهر القضية الثقافية نعاني منه على أكثر من مستوى، ونظن أنه يأتي في مقدمة المشكلات التي تجب معالجتها ومطاردتها، ونحن في الطريق إلى صياغة الفرد المسلم، وإعادة تشكيل الرؤية الإسلامية الشاملة.

إن الهروب من بحث المشكلة والتستر عليها، أو عدم إعطائها ما تستحق من المدارسة والدرس، والإيضاح والتدريب والأضواء الإضافية، يعني أول ما يعني: القبول بواقع المسلمين، ومواقع نشر الدعوة والعمل الإسلامي؛ وهذه تتلخص في السؤال التالي:

هل الانتماء للإسلام أم للجماعات والمؤسسات؟ وهل الالتزام بالأفكار أم بالأشخاص؟...

إن هذه القضية لا تعتبر مشكلة من الناحية النظرية، ولو كان ذلك كذلك لكان بالإمكان الحصول على الجواب الصحيح بسهولة، لكنها تبقى مشكلة على مستوى الممارسة والتطبيق، وكثيراً ما استهلك المسلمون من

أوقاتهم وجهودهم تاريخياً، ولم تكن المشكلة التي يعانون منها مشكلة أفكار وإنما كانت مشكلة الاختلاف علىٰ أشخاص وظفت لها الأفكار وفصلت عليها الأحكام، وامتلأت الساحة الإسلامية بكثير من الإقطاعات البشرية والولاءات الشخصية كانت السبب الكبير في التدمير والقيل والقال وضياع العمر وذهاب الأجر.

❊ ❊ ❊

الرشد الإنساني

ولا شك عندنا أن الانتماء للإسلام، والالتزام بالمنهج، والطاعة المبصرة، ضرورة لسلامة الطريق، ودليل الرشد الإنساني والحصانة الأكيدة ضد صور الإحباط والانكسار التي يمكن أن تلحق بالجيل نتيجة الانتماء للأشخاص، والعدول عن الانتماء للإسلام، وأن المطلوب إسلامياً الالتقاء مع الأشخاص علىٰ المنهج الصحيح والافتراق عليه «. . .**ورجلان تحابا في الله، اجتمعا علىٰ ذٰلك وافترقا عليه**»؛ فالقيم الإسلامية ثابتة معصومة، والأشخاص أعراض زائلون، والأحياء لا تؤمَن عليهم الفتنة، وإن ميزان الكرامة: التقوىٰ والعمل الصالح، وإن الذي يهمنا ويشكل المخرج الصحيح من مأساتنا هو: الحكم علىٰ العمل ومدىٰ انطباقه علىٰ المنهج الإسلامي والقدرة علىٰ تمييز الخطأ والصواب، وإعطاء العلامة للأعمال وليس للأشخاص، والالتزام بالأدب الإسلامي عند وجود الخلاف. .

فالأشخاص يقاسون بالمنهج الإسلامي والقيم الإسلامية، ولا يقاس الإسلام بهم مهما علا شأنهم، والذي يمثل محل الأسوة والقدوة بالنسبة للمسلم هو المعصوم عليه الصلاة والسلام. . .

وكل البشر يخطئ ويصيب، ويؤخذ من كلامه ويرد إلَّا المعصوم ﷺ، وهٰذا في نظرنا يشكل الضمانة الأكيدة لسلامة العمل واستمراره وسداده. . . ذٰلك أن المشكلة في التصور الإسلامي الآن، كما يبدو، أننا قد نصل في تقديس الأشخاص إلىٰ مرحلة العصمة عن الخطأ ـ إلىٰ مرحلة الملائكة ـ

فإذا تكشف لنا شيء من الخطأ ـ وهٰذا أمر طبيعي وكل ابن آدم خطّاء ـ أنزلناهم فوراً إلىٰ مرحلة الشياطين.. لذٰلك يقتصر التعامل في نظرنا إما مع ملائكة لا تخطئ أو مع شياطين جُبلت علىٰ الخطأ والخطيئة!! أما التعامل مع البشر الذي يخطئ ويصيب، والقدرة علىٰ إبصار الصواب والخطأ وإعطاء كل أمر علامته، وعدم بخس الناس أشياءهم، فهٰذا لا يزال غائباً عن حياة بعض مسلمي اليوم.. والله تعالىٰ يقول: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ وبعضنا يظن أن التطفيف إنما يكون في الميزان والكيل فقط...

إن القيم معصومة وثابتة، كما قدّمنا، والأشخاص أعراض زائلون وبشر خطاؤون، وقد تسقطهم أخطاؤهم، وقد يسقطهم أعداء الإسلام بوسائلهم الماكرة التي تتوجه أول ما تتوجه للدعاة لتحطيمهم، وذٰلك بإساءة سمعتهم، وقد تستطيع احتواء بعضهم وتوظيفه لسبب أو لآخر من رغبة أو رهبة، وقد يسقطون من تلقاء أنفسهم لأن القلوب بيد الرحمٰن يقلبها كيف يشاء، ولا سبيل إلىٰ الحصانة ضد صور الانكسار والإحباط والتمزق إلا الالتزام بالقيم، والاعتصام بالكتاب والسنّة، فهو الطريق الذي يبعث الأمل، ويدفع إلىٰ العمل، ويقضي علىٰ اليأس والقنوط.

إن الالتقاء مع الأفراد والجماعات والمؤسسات والحكومات وسيلة وليس غاية بحد ذاته، الغاية تبقىٰ دائماً: إرضاء الله، ولا يجوز بحال من الأحوال أن تنقلب الوسائل غايات أو تتلبس الوسائل بالغايات.. فيصبح شعارنا: خطأ الشيخ خير من صواب المريد!! كما قدمنا، وتسود مناخنا الثقافي الإسلامي مفهومات مغلوطة.. وتتوقف عملية المناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي صانت الرسالة الإسلامية والأمة الإسلامية في تاريخها الطويل من الانحراف، وحملتها علىٰ الولاء للمنهج وعدم التحريف والشذوذ الجماعي والعثرات المردية علىٰ طريقها الطويل، وحفظت القادة والزعماء والدعاة والمفكرين والعلماء من الافتتان بالرأي، والإعجاب بالنفس، والانزلاق بالخطأ، كما حفظت الأمة أن تقع فريسة لشذوذ أو تطرف أو غلو أو تعثر أو تمزق.

* * *

أهمية الرقابة العامة

هٰذا وقد تختلط قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمناصحة في بعض الأذهان اختلاطاً يكون من تلبيسات الشيطان، فتوهم أنها تتعارض مع مصلحة الإسلام أو جماعات المسلمين في عصر من العصور.. فيسود الإرهاب الفكري ويضمن الشيطان استمرار الانحراف ومتابعة الانزلاق.

ولو أخذ المسلمون في اعتبارهم في الماضي أن حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تؤدي إلىٰ إحداث تشويش أو اضطراب في الصفوف، وكفوا عن التنبيه عن الزلل والخطأ باسم وحدة الصف أو وحدة الأمة، لانقطع المؤشر الحيوي، وهٰذا الضابط اللازم لكشف التيارات البعيدة عن هٰذا الدين باسم الدين، واختفاء كثير من الحقائق الإسلامية عن ساحة التصور الإسلامي السليم والثقافة الإسلامية الرشيدة...

إن التستر علىٰ الأخطاء باسم المصلحة العامة وحفظ الكيان، والتوهم بأن النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تؤدي إلىٰ البلبلة والتمزق أمر خطير، ومفسدة فظيعة تدفع الأمة ثمنها الدماء، وتكون محلاً لِلَّعْنِ الذي قصَّهُ الله علىٰ لسان الأنبياء لبني إسرائيل.. قال تعالىٰ:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة].

لذٰلك يبقىٰ تصويب الخطوة وصوابها هو الأصل في نظرنا، وذٰلك مهما كانت مساحتها محدودة، وسيرها بطيئاً، المهم أن نكون علىٰ المحجة البيضاء النقية، ونستفرغ جهدنا في الإعداد والاستعداد، والبذل والعطاء، مستشعرين الأبعاد الإيمانية والأخلاقية لحركتنا وسيرنا وسلوكنا، أمناء علىٰ انتقال القيم الإسلامية صافية سليمة للجيل القادم، فقد يستبطئ بعضنا ثمرات الصواب ويقتضيه الاستعجال السير بخطوات عريضة، وقد يتجاوز بعض الحواجز الإسلامية، ويتساهل ببعض الضوابط الأخلاقية الإيمانية متعللاً بوفرة

النتائج وتحقيق المصلحة ودرء المفسدة وارتكاب أخف الضررين، ويظن في بعض المراحل أنه قادر علىٰ ذٰلك فيدع المركب السهل المشروع إلىٰ المركب الصعب غير المأمون...

وَبَعْدُ: فهل نصغي من جديد إلىٰ قول الرسول ﷺ:

«الدين النصيحة» قلنا: لمَن يا رسول الله؟ قال: **«للّه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»**..

وقد يكون المطلوب الآن وأكثر من أي وقت مضىٰ: العودة إلىٰ تجديد الفهم للإسلام، واستبدال الممارسة للحياة الإسلامية..

ربيع الآخر ١٤٠٣هـ - كانون الثاني (يناير) ١٩٨٣م



الهجرة..
وحركة الانسحاب من المجتمع

«... ومَن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها
أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه» [حديث شريف]

يمكن أن تكون قضية الهجرة التي تعني بأبسط مدلولاتها الانتقال من مكان إلىٰ مكان، أو هجر مكان إلىٰ آخر لأكثر من سبب، قديمة قِدَم الإنسان علىٰ الأرض، وملازمة لحركة الحياة والأحياء علىٰ الرغم من قساوة الظروف ووعورة المسالك وعدم توفر الوسائل، وما يمكن أن يعاني المهاجر من ترك مألوفه ومعروفه، لأن الإنسان مدفوع بتحقيق هدفه والبحث عن وسائل سعادته وتأمين مصيره، ودوافع الهجرة كثيرة وكثيرة جداً، لٰكن تشرف التحركات بشرف الغايات وشرعية الوسائل، لذٰلك تأتي الهجرة إلىٰ الله، من عزائم الأمور، سواءً أكانت هجرة نفسية، وذٰلك بالانخلاع من كل العادات والعبادات والتصورات غير الإسلامية، أم كانت هجرة عملية حركية بالانتقال من موقع تبين أنه عقيم في مجال العطاء الإسلامي، إلىٰ موقع أكثر خصباً ونماءً، أو كانت ابتداءً في الخروج لنشر الدعوة واستنقاذ البشرية من شقوتها بإبلاغها دعوة الله والتمكين لدينه في مواقع أخرىٰ؛ تحقيقاً لمسؤولية المسلم في عملية البلاغ المبين، وثمرة لعالمية الدعوة: قال تعالىٰ:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنعام].

* * *

الرؤية الإسلامية لقضية الهجرة

والقضية التي نريد لها أن تكون واضحة ابتداءً: أن الهجرة تعني أول ما تعني معرفة الحق، ومن ثم الارتحال إليه، والالتزام به والثبات عليه، وهي طريق الرسل والذين يسيرون علىٰ دربهم، وثمرة الإيمان الطبيعية، التي تقتضي التحرك به، وموقع من مواقع الصراع الدائب بين المؤمنين بقيادة الرسل والكافرين بمناهجهم التي يقف علىٰ رأس كل منها شيطان، ونسارع هنا إلىٰ التأكيد: بأن الهجرة في الإسلام حركة إيجابية جهادية تمثل قمة الفاعلية والحركة علىٰ أرض المعركة الدائرة بين الإسلام الذي موطنه الدنيا كلها والكفر، ولا تندّ عن ذٰلك الهجرة للقيام بتكاليف البلاغ المبين كمسؤولية منوطة بالمسلم كما قدّمنا، وليست الهجرة بالمفهوم الإسلامي حركة سلبية انسحابية من المعركة هروبية من الموقع، يؤثِر صاحبها السلامة ويختار طريق الدنيا، فإن حصل ذٰلك لفترة ضعف، أو سقوط همّة أو عجز رؤية، أو غلبة دنيا، فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه وليست الهجرة الإسلامية، فالمهاجر في نظر الإسلام لا يزال في ساحة المعركة، وليس خارجاً منها، ذٰلك أن المعركة قد تبلغ مرحلة معينة تقل معها الفاعلية علىٰ هٰذا الثغر أو تكاد تنعدم، فلا بد والحالة هٰذه من اختيار موقع آخر فاعل أو أكثر فاعلية، لا بد من وجود الرؤية والقدرة علىٰ التحرُّف لقتال، أو التحيُّز إلىٰ فئة، إنه تغيير الموقع وليس الانسحاب من المعركة علىٰ كل حال، وليست تولية الدبر، والتولي عن المواجهة المُوقِع في غضب الله. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال].

وليس هٰذا وحسب، وإنما قد تنتهي المعركة إلىٰ مصلحة الإسلام والمسلمين؛ فلا يعني ذٰلك الانكفاء والأنانية والاسترخاء، وعدم التطلع إلىٰ مواقع أخرىٰ لَمَّا تحرر بعد، ولـمَّا تصل إليها دعوة الله بعد، والمسلم مسؤول عنها ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]

فلا بد من الانتقال والهجرة إليها وحمل دين الله إلىٰ الإنسانية الحائرة، ولعلنا نلمح ذٰلك في سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة] ذٰلك أن الله اعتبر القعود عن نشر الدعوة والهجرة إلىٰ ذٰلك رغم الانتصار في الموقع الحالي مُوقِع في التهلكة. أخرج أبو داود والترمذي وصححه وابن حبان والحاكم وغيرهم عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: نزلت هٰذه الآية فينا معشر الأنصار. لما أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًّا: إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعزَّ الإسلام فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها... فأنزل الله يرد علينا ما قلنا... فكانت التهلكة: الإقامة علىٰ الأموال وترك الجهاد.

وفي رواية أخرىٰ: قال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب، عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية علىٰ صف العدو حتىٰ خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس: ألقىٰ بيده إلىٰ التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهٰذه الآية. إنما نزلت فينا: صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره؛ حتىٰ فشا الإسلام وكثر أهله، وكنا قد آثرناه علىٰ الأهلين والأموال، والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلىٰ أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما؛ فنزل فينا: ﴿... وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾ فكانت التهلكة في الإقامة وترك الجهاد[1].

والهجرة في المفهوم الإسلامي جهاد، وقد تكون من أعلىٰ أنواع الجهاد. قال تعالىٰ بشأن الذين تقاعسوا عن الهجرة إلىٰ المدينة: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم.

وهٰذه الآية إنما نزلت فيمن آثر القعود وانشدَّ إليه عن الهجرة والجهاد.

ويمكننا أن نقول باطمئنان: بأنه لولا الهجرات الإسلامية في القديم والحديث لما استقر الإسلام في كثير من بلدان العالم ووصل إليها، ولسنا بحاجة إلىٰ التذكير بأن بعض بلاد أفريقيا فتحت أكثر من مرة، ولم يستقر الإسلام فيها إلَّا بالهجرة إليها والاستيطان هناك.

❊ ❊ ❊

المسلم وعقدة الاغتراب

الأصل أن المسلم لا يعاني من عقدة الاغتراب، ولا يصاب بأمراض وعلل الاغتراب، من الضياع والذوبان والسقوط الحضاري والكثير من الآثار السلبية الأخرىٰ التي تسببها الهجرات، ذٰلك أنه يعتقد أن الأرض للّه يورثها مَن يشاء من عباده، وأن الدنيا كلها وطن له ومحل لدعوته، وأن وجود الناس أيًا كانوا مجاله، وأن هاجسه الدائم استنقاذهم مما هم فيه وتحقيق سعادتهم في معاشهم ومعادهم، فهو كالقمر الذي لا ينطفئ ضوؤه، فإذا غرب من مكان ظهر في مكان آخر فيكون النور، وكالماء إذا حبس في مكان تفجَّر في مكان آخر فيكون الزرع ويكون العطاء. وهٰذا لا يتعارض مع قضية حب الوطن والعمل علىٰ حمايته وتنميته، ولا شك بأن مكة كانت أحب بلاد الله إلىٰ الرسول ﷺ ولولا أن قومها أخرجوه منها ما خرج. قال تعالىٰ: ﴿... وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال]، والجهاد إذا احتل الوطن أو هدد بالاحتلال يصبح فرض عين علىٰ الجميع. قال تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ...﴾ [التوبة:٤١] لٰكن مع ذٰلك فالوطن هو القاعدة الأرضية للعقيدة، وقد يصبح بلا معنىٰ إذا حرم المسلم فيه من عقيدته التي هي من أولىٰ حاجاته وأهم حقوقه في المواطنة، فنصل إلىٰ الحالة الصعبة التي تعاني منها بعض مجتمعات اليوم: وطن بلا مواطنين ومواطنون بلا وطن..

ولا بد هنا من التفريق - بين أمرين - بين عقدة الاغتراب كحالة غير سوية، لأنها تؤدي إلىٰ السقوط والذوبان وضياع الهوية، وبين الحس بالاغتراب، ذٰلك أن الحس بالغربة حافز للتغيير، وهاجس لصنع الحضارة، وقلق سوي لا يؤدي إلىٰ الانسحاب والهروب والرفض، وإنما يدفع إلىٰ الفاعلية وتلمس وسائل التغيير المشروعة والمجدية؛ لأنه لو لم يشعر الإنسان بهٰذا التناقض بين القيم التي يؤمن بها والواقع الذي يعيشه، إذا لم يشعر بالتحدي فأنّىٰ له اكتشاف الأسباب واستكناه السنن ومحاولة التغيير التي تبدأ بنفسه وتنتهي بمجتمعه.

* * *

الهجرة من دار الإسلام

دار الإسلام ودار الحرب أو دار الكفر قضية اصطلحها الفقهاء المسلمين لتقرير بعض الأحكام وللتمييز بين موطنين: موطن تسود فيه شريعة الإسلام، وتنفذ أحكامه وتحد حدوده وترفع شعائره وتعتمد تربيته، تسود فيه قيم العدل في القضاء، والشورىٰ في الحكم، والحرية في المعتقد، والإحسان في التعامل.. مجتمع خلص الناس فيه من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، ومن جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعة الدنيا والآخرة. أما دار الحرب فهي كل وطن لا تسوده شريعة الله ولا تنفذ فيه أحكامه أو هو بكلمة مختصرة نقيض دار الإسلام.

وقد حذَّر الفقهاء - من باب سد الذرائع - ولأسباب رأوها في زمانهم من الهجرة إلىٰ دار الحرب أو دار الكفر؛ لما يمكن أن يقع فيه المسلم من الفتنة في دينه والظلم في دنياه، وأفردوا لذٰلك أحكاماً معروفة في مكانها من الكتب، وقد يكون المطلوب الآن أكثر من أي وقت مضىٰ إعادة النظر في جميع هٰذه الأحكام، المبنية علىٰ النظر والاجتهاد، والأحوال والمشاهدات القائمة وقتها، وذٰلك لعدة أسباب لسنا الآن بسبيل استقصائها وإنما الذي يهمنا لفت النظر إليها.

إن دار الحرب أو دار الكفر إنما تتحدد خارطتها على ضوء وجود دار الإسلام ووضوح حدودها، ونحن الآن لا نجرؤ على نفي الإسلام عن بلاد العالم الإسلامي كما يحلو لبعضهم، ولكننا لا نستطيع أيضاً أن نقول بأنها دار الإسلام المستكملة للشروط التي وضعها الفقهاء، إنها ليست دار الإسلام بكل معنى الكلمة.. لكنها ليست دار كفر وحرب وجاهلية كما يحب بعض مَن يدعو للإسلام أن يتعامل معها أو يصورها.. إنها ليست دار الإسلام بشروطها وإنما هي ديار المسلمين على كل حال التي أصابها ما أصابها تاريخياً.

إن هذه الأحكام التي قررها الفقهاء قد تكون إلى حد بعيد مرتبطة بجو الحرية الذي من المفروض أن يتوفر في دار الإسلام وينعدم في دار الحرب والكفر، وقدرة المسلم على ممارسة الشعائر الإسلامية ونشر الدعوة والتحصن ضد الفتنة، وفي اعتقادنا أن الأمر قد تغير الآن كما أسلفنا، إن كثيراً من البلاد التي لا يمكن أن توصف بأنها إسلامية يجد فيها الإنسان نوعاً من الحرية والأمن قد يفتقده في موطنه، ويستطيع أن يمارس فيه إسلامه على شكل قد لا يتوفر له في بلده، لقد تغيرت الصورة وتغير الواقع، وانتشرت المراكز والجمعيات الإسلامية في العالم كله والتي نرجو الله لها أن تؤدي رسالتها على الوجه المطلوب، فلا بد والحالة هذه من إعادة النظر في هذه الأحكام الفقهية المبنية على الاجتهاد. والرسول ﷺ قال لأصحابه:

«اخرجوا إلى الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يُظلَم الناس عنده».

لقد سمح بالهجرة وأمر بالخروج من مكة إلى الحبشة لما اشتد الظلم، وليست الحبشة دار الإسلام وإنما العدل وعدم الظلم متحقق فيها.

***

مفهومات مغلوطة

وقضية أخرى: فإذا كان ذلك كما أسلفنا فإن المصطلح أصلاً يصبح محل نظر، ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا استبدلنا أمة الإسلام بدار الإسلام..

وأمة الدعوة بدار الحرب أو الكفر، فقد يكون ذٰلك أكثر دقة وأقرب إلىٰ الصواب.

فالناس قسمان: قسم أسلم، وقسم آخر لا يزال محلاً لدعوة الإسلام.. وقد تنبه لهٰذا الرازي رحمه الله في وقت مبكر فسمّىٰ المؤمنين أمّة الاتِّباع، وغير المؤمنين بأمة الدعوة.

وهنا لا بد من إثارة جانب آخر في موضوع دار الإسلام ودار الحرب غير قضية جواز الهجرة وعدم جوازها، وهو لا يقل عنه أهمية: وهو أن بعض مسلمي اليوم يخلو لنفسه وتصوراته الخاصة الناشئة من النظر في بعض الجزئيات بعيداً عن الواقع ويرسم الخارطة العقيدية لدار الكفر ودار الإسلام، ويعتمد مقدمات خاطئة أو يضع معادلات يخرج بنتيجتها إلىٰ أن بلاد المسلمين الآن لا تعتبر دار إسلام بشروطها المعروفة، وهٰذا يعني عنده أن له الحق أن يمارس فيها أنماطاً من السلوك وأنواعاً من المعاملات هي محل نظر من الناحية الشرعية، وقد تتطور الأمور عنده أكثر فأكثر فيحقد علىٰ المجتمع ويعلن الحرب عليه - لأنه غير إسلامي - وبذٰلك يلغي نفسه ويعطل رسالته وينهك أمته ويسقط عاجزاً عن التعامل مع مجتمعه وحمل الهداية له والخير، ويفوته أن الرسول القدوة ﷺ كان يطلق عليه في المجتمع غير الإسلامي قبل البعثة (الأمين) وأنه بعد البعثة عندما اضطر للهجرة إلىٰ المدينة المنورة وقد ائتمر به المشركون استخلف عليًا يؤدي الأمانات إلىٰ أهلها علىٰ الرغم من أن ذٰلك كان خطراً علىٰ حياته فأين نحن اليوم من المنهج الإسلامي السليم؟

***

حضارة الهداية والأمن

لقد كانت قولة الأنبياء جميعاً علىٰ طريق الدعوة إلىٰ الله: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [سبأ:٤٧] وما من الأنبياء نبي إلا كانت له حرفة يعيش منها، لذٰلك فمن المعالم الأساسية علىٰ طريق النبوة أن

الحضارة الإسلامية حضارة هداية وليست وسيلة جباية. . ومن هنا فإن عملية الاحتراف بالإسلام والأكل به وقبض ثمن الدعوة الإسلامية والعمل الإسلامي من أخطر التحديات التي تهدد الكيان الإسلامي وتواجه عالم المسلمين اليوم، والفرق بعيد بعيد بين الذين يدفعون ثمن عقيدتهم، وتكون حركتهم محكومة بقولة الأنبياء ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء:١٠٩] وعمل الأنبياء، ويكون نشاطهم كله في سبيل الله، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام] وبين الذين يحاولون قبض ثمن الدعوة سواءً أكان ذٰلك من داخل العمل أم من خارجه، فالهجرة الإسلامية إنما هي هجرة هداية وليست هجرة جباية فمَن كانت هجرته للّه ورسوله فهجرته للّه ورسوله، ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه؛ لقد انسلك مع المهاجرين وسار معهم وفي طريقهم. . لٰكن هجرته كانت للجباية. . لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها.

إن حضارة الأمن والهداية للناس لا يمكن أن تأتي بالأماني والأحلام والادعاء، وإنما هي جهد ومعاناة وتضحية ابتغاء وجه الله وعدم استعجال وارتجال.

قال خبَّاب بن الأرت ﷺ: شكونا إلىٰ رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال:

«قد كان من قبلكم، يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع علىٰ رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذٰلك عن دينه، والله ليتمنَّ الله هٰذا الأمر، حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب علىٰ غنمه، ولٰكنكم تستعجلون».

إنها حضارة الأمن والهداية، وليست جاهلية الإرهاب الفكري، والجباية والحقد، إن إتمام الأمر إنما يكون بتحصيل الأمن للناس وهو أول شروط الحضارة والعطاء، وهٰذا يذكرنا أيضاً بقولة الرسول ﷺ بعد عودته من الهجرة إلىٰ الطائف وبعد أن كان الذي كان من العذاب وبعد أن عرض

عليه ملك الجبال إيقاع العقوبة بالناس: «**عسىٰ أن يخرج الله من أصلابهم مَن يعبد الله ولا يشرك به شيئاً**».

❋ ❋ ❋

هجرة العقول والسواعد

العقول النابغة والسواعد القوية هي أشبه ما تكون بالمناجم والمواد الخام المركوزة بالدول المتخلفة التي تعيش عصر ما بعد الاستعمار، والتي تتطلع إليها كثير من دول العالم لاحتيازها وتحويلها إلىٰ دم جديد يدفق في جسم الحضارة الاستعمارية التي تسيطر عليها عقدة التفوق والتعالي؛ وبذٰلك يبقىٰ الانهدام كبيراً ودائماً بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة، ويستمر امتصاص العقول والخبرات كما تستمر عملية التحكم والاحتواء. ذٰلك أن الدول المتخلفة يُراد لها أن تبقىٰ عاجزة عن الاستفادة من هٰذه العقول، تماماً كعجزها عن الاستفادة من الخامات الموجودة في أرضها أو أشد عجزاً، ويأتي التحكم في العالم الإسلامي وامتصاص عقوله وخبراته وخاماته في الطليعة، فالقضية جزء من عملية الصراع الحضاري والخوف التاريخي من يقظة العالم الإسلامي.

والسبب الذي يؤدي إلىٰ الهجرة واضح، فالدول الكبرىٰ الاستعمارية هي القادرة علىٰ الاستفادة من هٰذه العقول وإغرائها بالهجرة إليها بتقديم المال من جانب، وتدعيم أجواء القمع والإرهاب التي لا تسمح بطبيعة الحال باستيطان هٰذه العقول من جانب آخر، وإذا تغلبت هٰذه العقول علىٰ الإغراءات والظروف وحيل بينها وبين الهجرة لسبب أو لآخر فإنها تمارس نوعاً آخر من الهجرة وهي هنا ليست الهجرة إلىٰ خارج الوطن، وإنما هي الهجرة في الوطن نفسه، ذٰلك أن أجواء القمع والقلق والإرهاب الفكري تصيب ملكات الإنسان بالعطالة الكاملة، فتجعل من العالم والباحث والمفكر إنساناً عادياً يمارس طعامه وشرابه وشهواته كأي مخلوق آخر، وقد يستنفد طاقته ليحصل علىٰ ذٰلك.

فكيف لنا والحالة هٰذه أن نطلب الإبداع والنبوغ والتقدم للمجتمعات المهاجرة؟!

وفي الحقيقة أن معظم الذين عرضوا لقضية هجرة العقول والخبرات إلىٰ الدول المتقدمة تناولوا بمعالجاتهم الأعراض والمظاهر، ولم يتناولوا الأسباب الحقيقية للظاهرة؛ لأن تناول الأسباب بجرأة وصدق قد يجعل منهم مهاجرين.

والأمر القديم الجديد الذي يلفت النظر أن الأجواء الرعيبة التي دفعت هٰذه العقول إلىٰ الهجرة تحاول الامتداد والمطاردة والملاحقة حتىٰ في بلدان المهجر؛ لأن وجود المهاجر مهما كانت الظروف يبقىٰ شاهد إدانة دائم علىٰ الأسباب التي اضطرته للخروج؛ فلقد أرسلت قريش في إثر المسلمين المستضعفين إلىٰ الحبشة تغري بهم ملكها ليسلمهم إليها لأنهم آبقون، ونسيت أن الذي دفعهم إلىٰ الهجرة الظلم، وأن الرسول ﷺ قال لهم: **«إن في الحبشة ملكاً لا يُظلَم الناس عنده»**..

والمسلم اليوم أمام هٰذا المفترق من الطرق وأولىٰ به أن يختار المركب الصعب فيبقىٰ في بلده طالما أمكنه البقاء إذا تبين له أن إمكاناته وطاقاته ستوظف بهجرته إلىٰ أعداء دينه وعقيدته، وإن كان لا مناص من الهجرة لسبب خارج عن إرادته فليبصر أين يضع قدمه؟ وكيف يفيد من ثغره الجديد؟

المحرم ١٤٠٤هـ - تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٣م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

مواقف في مواجهة الهزيمة

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

[آل عمران]

في فترات التخلف والوهن يغيب الوعي الصحيح، وتنطفئ الفاعلية، وتتوقف القدرة علىٰ استيعاب الظروف وحسن التعامل معها، وتختلط الأمنيات بالإمكانات، وتتراجع المبادئ ويتقدم الأشخاص، وتنقلب الأمة إلىٰ مجموعة من الإقطاعات البشرية الحزبية أو الطائفية تختفي معها الوحدة الجامعة... وتهتز المشروعية العليا والأهداف الكبرىٰ التي يجب أن تلتزم بها الأمة وتعمل لها، ويصبح الماضي بالنسبة لكثير من الأفراد والجماعات هو المستقبل الذي يعيشون عليه ويقتاتون به، كما يصبح التاريخ الذي يجب أن تُستلهم حقائقه وتُستقرأ حوادثه لتحقيق الاعتبار وإغناء التصور بالرؤية الضرورية التي تمكن من الإبصار والحكم علىٰ الأشياء المستجدة في ضوء السنن التي تحكم الحياة والأحياء، والتي تملأ شواهدها صفحات التاريخ كأدلة عملية علىٰ نفاذ هٰذه السنن في مسيرة الحياة، يصبح التاريخ مهرباً ومخدراً بدل أن يكون دليلاً ومرشداً.. وتدخل الأمة «مرحلة القصعة» وتتداعىٰ عليها الأمم، وينقلب النظر إلىٰ السيرة النبوية التي هي مجال للاقتداء والتأسي في السلم والحرب، والنصر والهزيمة، إلىٰ ضرب من التغني والطرب والابتداع في المواسم والمناسبات (ذكرىٰ المولد ـ الهجرة ـ الإسراء والمعراج...) وتبدأ سلسلة من الهزائم النفسية والعملية علىٰ مختلف الأصعدة...

ولا بد من الاعتراف ابتداء بأن الهزائم في هٰذه الفترات قد تكون لازمة من لوازم إعادة بناء الأمم للقضاء علىٰ ما يلحق بها من صور الرخاوة ومظاهر الترف والسرف والرفاهية والفسق، ولِلتمرس علىٰ الظروف القاسية، والتدرب علىٰ الصبر والمعاناة، وإلغاء الصور الهشة للوصول إلىٰ القاعدة الاجتماعية الصلبة؛ وقد تكون الهزيمة أكثر لزوماً عندما تسود الأمة الأمراض الاجتماعية، ويحكمها الاستبداد السياسي، ويشتد فيها الظلم ويختفي العدل، وتغيب المساواة، ويفسق المترفون، ويكثر الخبث فتأتي الهزيمة لتكون العقوبة الموجعة التي تنفذ بأسلحة الأعداء، إنها عقوبة مستحقة من الله، وتسليط للأعداء يقع علىٰ الأمة علَّها تستيقظ وتتنبه لمعالجة عللها، فيكون التمحيص وتكون التنشئة علىٰ الظروف القاسية، كما قدمنا، فتتبلور من خلال ذٰلك كله القيادة المبصرة القادرة علىٰ الاعتبار وتصويب المسار...

ولا شك أننا بهٰذا لا نتمنىٰ لقاء العدو ومباركة الهزائم المتكررة في عالم المسلمين، وإنما نقصد إلىٰ شحذ الهمم باتجاه استيعاب دروس الهزيمة وتحويلها من حالة سلبية تؤدي إلىٰ التبعثر والضياع واختلاط الجهات واختلال التوازن الاجتماعي إلىٰ ضرب من الإيجابية يجدد شباب الأمة ويقضي علىٰ الجوانب الشائخة، ويحقق الاعتبار ويوصل إلىٰ التحديد الدقيق للأسباب سواء في ذٰلك عوامل الإعداد والاستعداد المادي أو الشروط المعنوية اللازمة للنصر والحصانة النفسية التي تحول دون السقوط والإحباط والانكسار... وكثيرون أولٰئك الذين كانت الهزيمة وكان الابتلاء نعمة بالنسبة لهم صححت مسارهم، وصوَّبت اتجاههم قبل فوات الأوان، وكانت مرحلة لتوبة الفكر والسلوك...

ومن الأمور التي يجب أن تكون واضحة في تصور المسلم أن ساحة المحنة والابتلاء والتمحيص لا تقتصر علىٰ الهزيمة دون النصر، بل لعل محنة النصر إنما تكون أشد وأعتىٰ وأطغىٰ إذا لم تترافق مع الوضوح الكامل لغاية الإنسان في هٰذه الحياة... ويمكن إلىٰ حد بعيد في هٰذه القضية أن نقول: إن معظم المسلمين اليوم تغلب عليهم النظرة النصفية فيعتقدون أن الابتلاء إنما يكون في الضراء والسلبيات وتسلط الأعداء، حتىٰ كاد هٰذا

يطبعهم بثقافة غالبة ويصبح مناخاً شاملاً (ثقافة المحن وتسلط الأعداء) يفكرون ويعدون المواجهات لمحن الضرَّاء والمطاردات السلبية ويجتمعون عليها وكأن السرَّاء ليست بمحنة، والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، ويقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والرسول ﷺ يقول: «**عجباً لأمر المؤمن، كل أمره له خير، إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيراً له**».

فالإصابة حاصلة في الخير والشر وكثيرون أولئك الذين يسقطون في محنة الخير عند الصدمة الأولىٰ، فلا معنىٰ لاعتبار المحن محصورة في إطار الشر والهزيمة فقط، لذٰلك نرىٰ أنه لا بد من نقل المواجهة الإسلامية والتربية الإسلامية لكامل ساحة الابتلاء في الهزيمة والنصر علىٰ حد سواء، وإعداد الأوعية الشرعية لهٰذه المواجهة في الخير والشر أيضاً، وإن كانت مساحة المحنة بالهزيمة أكبر وأبعد مدًى إلىٰ درجة غابت معها مساحة المحنة بالنصر أو كادت تغيب عن حياة كثير من المسلمين في هٰذه السنوات العجاف.

ولعل الواقع الذي نعاني منه هو الذي يحملنا دائماً علىٰ الكلام عن الهزائم لأنها أصبحت وكأنها ضربة لازب علىٰ جيلنا، ولأننا لا نزال نعتبر السرَّاء ساحة بعيدة عن الامتحان، وقد تكون الإصابات فيها أكبر والفواجع أخطر، ويمكن أن نعتبر أن من أوائل الشروط لاستيعاب الهزيمة والاستفادة من درسها ومحاصرتها وعدم السماح بتكرارها ـ ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، ونحن ما نزال نلدغ مراراً ـ الاعتراف بالهزيمة بجرأة، وتحديد أبعادها، ودراسة أسبابها وتحديد المسؤولية عنها، ومحاصرة آثارها... ذٰلك أن عدم الاعتراف بالهزيمة، وقراءتها بأبجديات خاطئة، كما هو حاصل، وسيادة فلسفات خاصة تجعل من الهزائم انتصارات لها بطولاتها وأبطالها، وممارسة التضليل الإعلامي إنما هو لون من تكريس الهزيمة والسماح باستمرارها، ومساهمة سلبية في تحقيق أغراض العدو، وما أظن أن أحداً في تاريخنا الحديث علىٰ الأقل اعترف بهزيمته في الوقت المناسب

لمعالجتها، وإنما نعترف بها بعد أن تتبدل الظروف ويفوت الأوان وتدخل في حيِّز التاريخ... وإن اعترفنا ببعضها فيما بعد فإننا نُحَمِّلُ أسبابها جميعاً للأعداء ومكائدهم وقدراتهم، أما نحن فإننا دائماً علىٰ أعلىٰ قدر من الكفاية والمقدرة!!

والأمر المعروف أن القيادات التي تفشل في معاركها إما أن تعتزل وتعتذر وتتحمل التبعة، ولا تُحَمِّلها العدو، صوناً للواقع النفسي للأمة من الانكسار، وإما أن تعجز عن المواجهة فتنتحر إذا كانت غير مسلمة لتبدأ عملية المراجعة وتحديد المسؤولية عن الهزيمة وتقييم الصور السابقة...

أما في عالمنا العربي والإسلامي، فنحن دائماً منتصرون، دائماً نرفع شارات النصر ونقدّس أبطاله إلىٰ درجة نحجر معها علىٰ فضل الله تعالىٰ بأن لا أبطال سوىٰ هؤلاء ولا يمكن للزمن أن يجود بمثلهم...

والحقيقة أن الخيبة التي نعيشها اليوم دليل علىٰ وجود خَلل في بنائنا العقيدي والفكري، وجنوح عن طريق الوحي الذي رسمه لنا، وعقوق لدروس وعبر السيرة النبوية الخالدة التي تشكل المنجم الثر والصورة العملية التطبيقية للحياة الإسلامية... لقد حفلت السيرة بدروس النصر كما تضمنت دروس الهزيمة، والسيرة مجال للاقتداء والتأسي ليس في النصر فقط وإنما في معالجة الهزيمة أيضاً، ولعل الحاجة للاقتداء في الظروف القاسية واستلهام كيفية المعالجة تكون أكثر إلحاحاً... وسوف نعرض هنا لبعض الملامح من السيرة النبوية لحالات الهزيمة علّها تذكر بأبعاد ضرورية للتأسي والاقتداء وتصويب المسار بعد أن كثرت الهزائم وقلَّ الاعتبار...

* * *

السنن الجارية.. والسنن الخارقة

من الحقائق الأولىٰ لهٰذا الدين أنه يتعامل مع الإنسان بكل مكوناته الفطرية والنفسية ومدىٰ قدرته واستطاعته علىٰ التعامل مع السنن الجارية التي شرعها الله تعالىٰ للحياة والأحياء، وأن غاية التكليف الشرعي من بعض

الوجوه يتمثل في قدرة الإنسان المسلم على فهم هذه السنن وحسن تسخيرها والتعامل معها، كما شرع الله، وعدم الارتطام بها، فهذه قوانين الله وسننه الجارية في الحياة والأحياء التي جاء الأنبياء وأوقفوا الناس عليها، وقدّموا لهم نماذج من حياتهم عن كيفية التعامل معها، أما السنن الخارقة، فهي لون آخر من أقدار الله الغلاَّبة التي لا يد للإنسان فيها ولا اختيار له معها ولا يحاسَب عليها، ولو أراد الله نصرة نبيه في كل معركة بسنة خارقة لنصره بلا شك، لكنها السنة الجارية التي تكمن في القدرة على التعامل معها كما شرع الله أمر التكليف؛ فالقضية تخضع لسنن جارية وحسن الاستفادة من الإمكانات المتوفرة والفرص المتاحة، ولا تتحقق بالأماني وأحلام اليقظة وانتظار المنقذ، قال تعالى:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ . . .﴾ [النساء: ١٢٣].

لذلك فالرسول ﷺ انتصر بعد توفير الأسباب ليكون قدوة في النصر، وهزم المسلمون في بعض معاركهم بسبب وتقصير منهم ليكون الاقتداء أيضاً بكيفية التعامل مع الهزيمة والتصرف بعدها... وتلك الأيام نداولها بين الناس...

ولعل أكبر الهزائم في تاريخ النبوة كانت معركة أُحد، والتي كان عنوان الهزيمة الكبير فيها والأسباب التي أدت إليها قوله تعالى بعد التساؤل الذي طرح: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ولا نزال منذ أربعة عشر قرناً إلى الآن نتلو آيات آل عمران التي تبين الواقع النفسي والتصرف العملي لهزيمة أُحد ليكون ذلك عبرة ودرساً نُسقطه على واقعنا بمقدماته ونتائجه، ونحقق تعدية الرؤية القرآنية لتكون ضوءاً كاشفاً لحياتنا؛ والأمر المضحك أو المحزن حقًّا أن يعتبر بعضنا نفسه فوق مرتبة النبوة والمساءلة ويعفي نفسه من الاعتراف بالتقصير ويلقي بالتبعة على الآخرين فإن خانه الدليل فعلى القدر، ولا يرضى

الاعتراف بالهزيمة، الأمر الذي يشكل المرحلة الأولىٰ والضرورية في المعالجة، حتىٰ لقد تعودنا أن نقرأ عن هزائمنا وأسبابها ونتائجها في كتب أعدائنا إلىٰ درجة أصبحت معها كِتاباتهم ومعالجاتهم مصادر المعرفة لقضايانا، أو في كتب المنهزمين أنفسهم الذين يأخذهم الصلف فيجعلون من الهزائم انتصارات فيزداد التضليل ويعم الضلال، مع ملاحظة أن أية قضية في عالمنا الإسلامي يصدر عنها عشرات الكتب والدراسات في الغرب قبل أن تنتهي إلىٰ درجة يمكن أن تتحكم هٰذه الدراسات بمسارها وتوجيهها، مع أن آيات القرآن الكريم نزلت علىٰ أرض هزيمة أُحد تبين أسبابها، وتعالج آثارها، وترصد تصرفات أصحابها، وترافقها خطوة خطوة، فأين نحن من تاريخنا، وأين نحن من عقيدتنا؟!

ونحن لا نريد الآن أن نعرض لهزيمة أُحد بكلياتها وجزئياتها، فذٰلك موجود في مظانه من كتب السيرة والمغازي، وإنما هي مواقف مختارة في مجال التأسي والتأكيد علىٰ المنهج القرآني في دراسة أسباب الظاهرة وتحديد تلك الأسباب لتكون درساً مستقبلاً لمعالجة الآثار المترتبة علىٰ الهزيمة من الناحية النفسية والتربوية...

ويمكن أن نعتبر أن هزيمة أهل الحق أمام أهل الباطل من أشد أنواع الابتلاء، فالرسول المعصوم ﷺ يسقط في الحفرة، فيشج رأسه وتكسر رباعيته، ويخضب الدم وجهه ويشاع قتله... ويعلو الكفر، فتكون قولة أبي سفيان: أعلُ هبل. أي: انصر جماعتك وقومك؛ وتعم البلبلة الصفوف لدرجة يفقد بعضهم معها توازنه، فيقول: الحقوا بدينكم الأول... إنه الامتحان الرهيب الرعيب لقضية الاستمساك بالحق والمتابعة علىٰ طريقه...

طبعاً يبقىٰ العنوان العريض للهزيمة وكل هزيمة وإخفاق الذي وضعه القرآن والذي يجب أن لا يغيب عن المسلم: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥] وتحت هٰذا العنوان نلمح من مسيرة الغزوة بعض المعاني السريعة:

يمكن إلىٰ حدٍّ بعيد أن نعتبر أن معركة أُحد جانب في المعركة المستمرة بين الإسلام وأعدائه وبالتالي فهي لا تنفصل عن معركة بدر الكبرىٰ، فبعد معركة بدر اختلف المسلمون في قسمة غنائم بدر حتىٰ كادت تسوء أخلاقهم، وتفسد ذات بينهم، يقول عبادة بن الصامت:

اختلفنا في الغنائم حتىٰ كادت تسوء أخلاقنا... فكان أن ذكرهم الله تعالىٰ بالشروط المعنوية للنصر وصفات الإيمان الحق بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ...﴾ إلىٰ آخر صدر سورة الأنفال.

ثم كان الدرس العملي في أُحد حيث خالف الرماة أمر الرسول ﷺ ونزلوا لجمع الغنائم رغم التأكيدات الكثيرة منه ﷺ بعدم النزول ومغادرة المكان مهما كانت نتيجة المعركة، فجاء الدرس العملي القاسي من أول الطريق أن الجهاد في الإسلام للعقيدة وليس للغنيمة، وأن مخالفة أمر الرسول ﷺ موقعة في الهلاك... فهل ننسىٰ حظوظ أنفسنا التي ما تزال تسلمنا من هزيمة إلىٰ أخرىٰ ونسترد الشروط المعنوية للنصر؟

❋ ❋ ❋

الالتزام بالمبدأ والفكرة

لسنا بحاجة إلىٰ بيان أهمية حياة القائد واستمراره علىٰ أرض المعركة، كما أننا لسنا بحاجة إلىٰ بيان حاجة المسلمين لرسول الله ﷺ في أشد حالات المحنة والابتلاء، مرشداً ومعلماً وقائداً، مع ذٰلك لما أشيع موته، واضطربت الصفوف، وزلزلت بعض النفوس، فكان شعارهم: الارتداد إلىٰ الدين الأول، وثبت آخرون ليقاتلوا علىٰ ما قاتل عليه محمد ﷺ؛ وكانت المحنة الشديدة إشاعة موت القائد فجاءت الحقيقة الخالدة لتوضح أن الإسلام حق وقيم ومنهج وأفكار يلتزم بها الإنسان المسلم، ويمنحها ولاءه، وليس ارتباطاً بأشخاص يخطئون ويصيبون، يحيون ويموتون، ينتصرون وينهزمون... إنها الحقيقة الخالدة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان، إنه

الإسلام، الرسالة الخاتمة، الذي انتقل بالبشرية من مرحلة الأشخاص إلىٰ مرحلة الأفكار كحقيقة مجردة يلتزم بها المسلم، يجتمع عليها ويفترق عليها ويدور معها حيث دارت، فتضمن له ديمومة الفاعلية والاستمرار، وتحول بينه وبين الإحباطات التي يمكن أن يتعرض لها علىٰ الطريق الطويل، ذٰلك أن الصواب والبقاء للأفكار والخطأ والزوال للأشخاص، قال تعالىٰ علىٰ أرض معركة أحد:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] (إننا سنقاتل علىٰ ما قاتل عليه محمد ﷺ وأصحابه، ونموت علىٰ ما ماتوا عليه. . .) أي وضوح في المنهج أكبر من هٰذا الوضوح، وبذٰلك تُستوعب الهزيمة وتُوظَّف لتنقلب إلىٰ نصر. .

وعادة ما تترك الهزيمة آثاراً مريرة، وجراحات نفسية ومادية تحتاج إلىٰ مواجهة صحيحة ومعالجة سليمة للحيلولة دون الإحباط والانكسار النفسي، خاصة في أشد المواقف حراجة؛ المسلمون بقيادة رسولهم ﷺ يُهزمون، ويقف أبو سفيان ليعلن انتصار الصنمية علىٰ الحق بقوله: أعلُ هبل، فيرد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمام المسلمين بقوله: الله أعلىٰ وأجل. فيقول أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. فيرد عليه عمر بقوله: **لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار**. . . وينزل قوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ . . .﴾ [آل عمران]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران] فيعتصم المسلمون بالاستعلاء الإيماني الذي يشكل لهم التطعيم والحصانة النفسية ضد الهزيمة، ويتابعون المسير إلىٰ حمراء الأسد رغم ما أصابهم من الجراح ليتعقبوا فلول الأعداء ويصدوا هجماتهم المتوقعة علىٰ المدينة المنورة. ويقول تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ . . .﴾ [آل عمران: ١٧٢].

* * *

التربية الميدانية علىٰ أرض المعركة

من المآسي الكبيرة علىٰ أرض المعركة التي اعتصر لها قلب الرسول ﷺ ألماً وحزناً: مأساة قتل عمه حمزة رضي الله عنه، وما حدث من التمثيل به من هند بنت عتبة، فقال عليه الصلاة والسلام بعد أن رأىٰ ذٰلك: «**والله لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم**». وهٰذا من طبيعة التأثر البشري، فينزل قوله تعالىٰ:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل].

إنه التدرج والتربية في المعالجة الذي بدأ من التماثل بين الجريمة والعقوبة، إلىٰ الندب إلىٰ الصبر وثوابه، إلىٰ الأمر بالصبر والاحتساب.

ومن الإفرازات السلبية أيضاً ما أظهره يهود والمنافقون من الشماتة بالمسلمين، فقالوا: ما محمد إلا طالب ملك، ما أصيب هٰكذا نبي قط، أصيب في بدنه، وأصيب في أصحابه!! وجعل المنافقون يُخذِّلون عن رسول الله ﷺ أصحابَهُ ويأمرونهم بالتفرق عنه، ويقولون: لو كان مَن قُتِلَ منكم عندنا ما قُتِل... وسمع عمر رضي الله عنه ذٰلك في أماكن، فمشىٰ إلىٰ رسول الله ﷺ يستأذن في قَتْل مَن سمع ذٰلك منه من يهود والمنافقين، فقال عليه الصلاة والسلام:

«**يا عمر، إن الله مظهرُ دينه، ومعزُّ نبيه، ولليهود ذمة فلا أقتلهم**» قال: فهٰؤلاء المنافقون. قال: «**أليس يُظْهرون شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله؟**» قال: بلىٰ يا رسول الله، وإنما يفعلون ذٰلك تعوُّذاً من السيف، فقد بان لنا أمرهم، وأبدىٰ الله أضغانهم عند هٰذه النكبة؛ فقال:

«**نُهيت عن قتل مَن قال لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ يا ابن**

الخطاب، إن قريشاً لن ينالوا منَّا مثل هٰذا اليوم حتىٰ نستلم الركن».

إنها النبوة وليست الملك، كما حددها العباس ﷺ أثناء فتح مكة عندما دخلها الرسول ﷺ منتصراً، ورأىٰ أبو سفيان جموع الفاتحين وإسلام القبائل العربية، فقال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً؛ فقال له العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة... فهل نعيد قراءة أهدافنا في هٰذه الحياة ووسائلنا في مواجهة مشكلاتنا وهزائمنا، فنعلم أنه السير علىٰ أقدام النبوة وليس السقوط في مناخ الجاهلية.

ربيع الآخر ١٤٠٤هـ ـ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤م



ما أشبه الليلة بالبارحة

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ...﴾ [البقرة: ١٢٠]

لا نعتقد أن ما نعرض له هنا يبعد بنا كثيراً عن متابعة ما بدأناه من تأملات حول مسيرة العمل الإسلامي لنساهم ما أمكننا في تسديد هٰذه المسيرة، ومحاولة نقل مواقع العمل الإسلامي إلىٰ المجال المجدي علىٰ ضوء الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، للوصول إلىٰ التوازن المطلوب بين طرفَي المعادلة عند العاملين للإسلام، وتحقيق التلازم الغائب بين إخلاص النية للّه وإتقان المقدمات واتخاذ الأسباب للوصول إلىٰ الصواب، والقيام بعملية المراجعة الدائمة، والدراسة والتقويم لنكتشف مواطن تقصيرنا وسبب قصورنا، ولنتعرف علىٰ مدىٰ انطباق خطواتنا علىٰ المنهج الإسلامي السليم، ونفقه السنن الجارية التي شرعها الله في الأنفس والآفاق، ونُحسن التعامل معها حتىٰ لا يقع الخلط بينها في توجهاتنا صوب تحقيق الأهداف الإسلامية وبين السنن الخارقة ـ المعجزات ـ حيث تتوقف عملية التكليف، وتخرق السنن والقوانين المألوفة للدلالة علىٰ قدرة الله تعالىٰ، ورفع الالتباس الحاصل بالفهم بين قدرة الخالق وصفاته وتكليف المخلوق وحسابه، وأن من شرع السنن وخلقها لا يمكن أن يحكم نفسه بها، وإنما يحكم مخلوقاته ويحاكمهم على ضوئها.

فلا بد لإنضاج الحقيقة من زمن والتزام للسنن، ولتحقيق الأهداف من الخضوع لهٰذه السنن، والتنبُّه الزائد إلىٰ عملية الخلط بين الإمكانات والأمنيات التي أرهقت العمل الإسلامي وأوقعته في الكثير من الارتباكات

والإحباطات والمهالك، وسيَّرته في الدروب التي أبعدته عن هدفه، فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء].

ذٰلك أن العمل الإسلامي السليم والحل الإسلامي، هو الأمل الباقي والمخرج الوحيد للأمة بعد سلسلة الهزائم العسكرية والسياسية وواقع التجزئة والتخلف وما أورث ذٰلك من الإحباطات النفسية علىٰ الأصعدة كلها، حتىٰ ليمكننا القول:

إن قضايا الأمة ووجودها الفاعل وعطاءها كان يتعرض تاريخيًا لعمليتَي المد والجزر علىٰ ضوء سلامة هٰذا العمل وحضوره وصوابه ووعي المسلمين التاريخي؛ ونسارع إلىٰ القول أيضاً:

إن الأمة المسلمة تعرضت لعمليات جزر متعددة، إلا أن هٰذه العمليات علىٰ امتداد التاريخ الإسلامي لم تؤدِّ إلىٰ ذوبان الأمة وانتهائها، وانقطاع تواصلها الحضاري... صحيح أنِ مساحة هٰذا التواصل كانت تتسع وتضيق، إلا أن القضية الإسلامية لم تتوقف أو تنقطع، والطائفة القائمة بأمر الله لم تغب عن الساحة يوماً... وأن الأمة المسلمة خضعت للدورات الحضارية التاريخية، لٰكنها تميزت عن سواها من الأمم باستعصائها علىٰ السقوط والذوبان بفضل اعتصامها بالقرآن الكريم وانتمائها للإسلام الذي كان قوة دافعة للنمو والامتداد أيام الازدهار، كما كان قوة مانعة من السقوط والانكسار في أيام الضعف والخضوع للاستعمار، الأمر الذي نلمحه خلال المسيرة الإسلامية الطويلة بأحوالها المختلفة... نلمح هٰذا في الحملات الصليبية التي دامت ما يقارب القرنين، والهجمات التترية التي كانت كالإعصار المدمر، لم تمر علىٰ شيء إلا تركته خراباً، والحقبة الاستعمارية وما رافقها من فساد وإفساد علىٰ المستويات كلها إلىٰ درجة غرس جيل غريب في فكره وثقافته في جسم الأمة التاريخي، إنه جيل الاستعمار الذي جيء به ليتابع الطريق، وما تعانيه الأمة المسلمة اليوم من الحقبة اليهودية التي حملت في جوفها كل الأحقاد التاريخية، واستحضرت كل التجارب

التاريخية في المنطقة المسلمة، وحاولت الاستفادة من كل الهجمات التاريخية لتتجنب عثارها.

❋ ❋ ❋

القراءة الخاطئة

وقد يكون المطلوب من الأمة المسلمة الآن، ونحن في شهر الإسراء والمعراج، القيام بعملية المراجعة علىٰ المستويات كلها، فإلىٰ أي مدًى نحن قادرون علىٰ الاستفادة من الدرس التاريخي، وتوظيف حقائق التاريخ التي ما تزال ماثلة، توظفها الصهيونية العالمية ثمرة الحملات الصليبية ونتيجتها؟ أما نحن فما نزال مصرِّين علىٰ القراءة الخاطئة ذٰلك أنه مهما يكن من أمر، ومهما اختلفت التفاسير للوجود اليهودي، فإن إسرائيل امتداد للغرب الصليبي تنتسب إلىٰ الحضارة الغربية، تكنولوجياً وعلمياً، تنحدر منها وتلتقي معها علىٰ العهد القديم في الرؤية الدينية «لقد أخبروني... أنه منذ بداية الحضارة سُنَّت قوانين، ولٰكنها جميعاً لم تصل إلىٰ مستوىٰ قانون الله في الوصايا العشر... إن المرء يسائل نفسه أحياناً عمَّ إذا كان العالم الآن يواجه معركة فاصلة قبل يوم القيامة بين قوىٰ الخير والشر كما تنبأت التوراة... إن العالم يمر حالياً في الفترة التي وصفها العهد القديم ـ التوراة ـ عندما تنبأ بمعركة فاصلة ولٰكنها مدمرة للعالم بين الخير والشر، يعقبها مباشرة يوم الحساب» (ريغان ـ الرئيس الأمريكي ـ ١٩٨٤م).

وتأتي محاولات يهود المستمرة في الاعتداء علىٰ الأقصىٰ وانتهاك حرمته تمهيداً لهدمه وبناء الهيكل مكانه ليكون قبلة يتجه إليها اليهود ويتوجهون منها إلىٰ أرض المسلمين جميعها، تحقيقاً لهٰذه الرؤية التوراتية...

إن الكثير من المسلمين يمرون بحادثة الإسراء والمعراج مروراً عابراً يحاولون قراءتها بصورة ساذجة وبسيطة، وقد يقعون في جدل حول بعض الأحاديث والرؤىٰ، لمَّا ينتهِ بعد، حول كيفية الإسراء، وهل حصل بالروح أم

بالجسد، ويعرضون الحادثة علىٰ عقولهم، فتستحيل عندهم كما استحالت في عقول مَن سبقهم فأنكرها أو أوَّلها، في الوقت الذي يتابع فيه يهود اعتداءاتهم علىٰ الأقصىٰ وبرامجهم في التهويد، وأقل ما يقال في الموضوع: إن القضية لها علاقة بالسنة الخارقة التي لا تخضع لقانون العقل، وإن الله تعالىٰ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١] ولا تطلق كلمة «عبده» في اللغة العربية إلا علىٰ الجسم والروح، ونرىٰ أنه لا بد من تجاوز الجدل حول الحادثة إلىٰ المعاني الكبيرة التي سبقت حادثة الإسراء ورافقتها، إنها جاءت بعد مواجهات مريرة مع المشركين في مكة، علىٰ كل المستويات بما في ذٰلك المقاطعة الجماعية في الشِّعْب، ورحلة الاضطهاد في الهجرة إلىٰ الطائف والعودة منها، وفي الاعتمال النفسي بموت العم الحامي والزوجة الحانية. . . إنها المعاني الكبيرة والآفاق الواسعة التي رسمتها الحادثة للخروج بالدعوة الإسلامية المحاصرة في مكة، والتي خرجت منهكة من الشِّعب ومحبطة من رحلة الطائف، عن مستوىٰ الزمان والمكان، فالدعوة ليست وقفاً علىٰ زمن معين، أو جيل بذاته، أو أي مكان، إنها قضية الإنسان حيثما كان وإلىٰ أي جنس انتمىٰ. . . إنها بدأت في مكة مركز النبوة الأولىٰ، وانطلقت إلىٰ القدس أرض النبوات، ثم شملت العالم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران:٩٦]، والذي بنىٰ البيت وأصَّل التوحيد هو أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والذي جاءت رسالته خاتمة، وجاء كتابه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه هو الرسول محمد ﷺ الذي صلّى بالأنبياء إماماً هناك في بيت المقدس الذي بارك الله حوله، والذي يشكل الاعتداء عليه اليوم اعتداء علىٰ النبوة بأصلها وختمها. . .

إن كثيراً من المسلمين يمرون أمام حادثة الإسراء والمعراج ويعجزون عن وضعها في مكانها المناسب من المسؤولية الإسلامية والتكاليف الشرعية؛ إن حادثة الإسراء والمعراج علىٰ الرغم من أنها تعطي المدد النفسي للمسلم، لٰكنها في الوقت نفسه مناسبة مؤدبة للمسلمين اليوم الضائعين عن إسلامهم ومستلزمات عقيدتهم.

＊ ＊ ＊

الهجمة المغولية.. حملة صليبية جديدة

وقد يكون المطلوب اليوم أكثر من أي وقت، وقد مضىٰ علىٰ احتلال يهود لأرض النبوات سبعة وثلاثون عاماً، العودة إلىٰ التاريخ ودراسة الحملات الصليبية، ومن ثم الحقبة الاستعمارية للعالم الإسلامي التي تشكل حلقة غير منفصلة عن الجذور الصليبية، ومن ثم الانتهاء إلىٰ الصورة الأخيرة للغارة علىٰ العمل الإسلامي، صورة الصهيونية التي تعتبر امتداداً طبيعياً للحملات الصليبية وتحاول الاستفادة من دروسها، والتي تقف النصرانية بوجهيها الشرقي والغربي علىٰ حد سواء في صفها... فالتحالفات اليهودية الوثنية الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ليست جديدة فقد بدأت في غزوة الخندق عندما حزبت يهود الأحزاب ضد المسلمين، وشهدت لقريش الكافرة المشركة وقتئذ أن أصنامها أهدىٰ من دين محمد ﷺ ولم تتوقف إلىٰ هٰذه اللحظة.

ذكر المقريزي في كتابه «السلوك» وغيره من المؤرخين أن المغول أثناء غزوهم للشام والعراق أظهروا اهتماماً خاصاً بالنصرانية، وعطفاً شديداً علىٰ النصارىٰ، كما احترموا المؤسسات النصرانية بشكل عام، وإذا كان المغول قد دأبوا في جميع المدن والبلاد الإسلامية التي دخلوها عنوة علىٰ ذبح أهلها من المسلمين، فإنهم حرصوا في الوقت نفسه علىٰ حماية أرواح وممتلكات سكانها من النصارىٰ، وهكذا هدم المغول جوامع، وخربوا مساجد ومآذن، في الوقت الذي حافظوا فيه علىٰ الكنائس وشملوها بحمايتهم، وقتل المغول كثيراً من فقهاء المسلمين وعلمائهم، وأعدموا خليفتهم في بغداد، في الوقت الذي لم يحاولوا المساس بأسقف أو قسيس أو راهب... بل لقد حدث في الوقت الذي قتل المغول فيه الخليفة العباسي، وأحرقوا المسجد الجامع أن أنعم هولاكو علىٰ البطرق النسطوري في بغداد بالهدايا الثمينة، وخصص أحد قصورها مقراً له... لذٰلك لا عجب إذا هلّل النصارىٰ الشرقيون بوجه خاص لما قام به المغول من أعمال في العراق والشام، واعتبروهم حماة النصرانية الذائدين عنها، الآخذين بثأرها،

فحرص بعض بطارقتهم وأمرائهم علىٰ ملازمة المغول في زحفهم، ومشاركتهم في احتلالهم، بل علىٰ تحريضهم ضد المسلمين للتشفي فيهم والقضاء عليهم؛ وبعبارة أخرىٰ: إن المعاصرين من النصارىٰ وجدوا في غزو المغول لبلاد الشام والعراق فرصة طيبة للثأر من الإسلام والنيل من المسلمين، واعتبروا تلك الغزوة بمثابة حملة صليبية جديدة أتت لنصرة النصارىٰ، لٰكنها أتت هٰذه المرة من الشرق لا من الغرب مثل سائر الحملات الصليبية المألوفة... ومما يجب ذكره أن زوجة هولاكو بالذات كانت نصرانية، كما أن بطانته ومستشاريه ومؤيديه كانوا من النساطرة والأرمن بوجه خاص... ويروي المقريزي في حوادث سنة ٦٥٨هـ فيقول:

«استطال النصارىٰ بدمشق علىٰ المسلمين، وأحضروا فرماناً من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشُّوه علىٰ ثياب المسلمين في الطرقات، وصبُّوه علىٰ أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مرُّوا بالصليب عليهم، وأهانوا مَن امتنع عن القيام للصليب، وصاروا يمرون به في الشوارع إلىٰ كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء علىٰ دينهم، وقالوا جهراً: ظهر الدين الصحيح دين المسيح. فقلق المسلمون من ذٰلك وشكوا أمرهم لنائب هولاكو «كتبغا» فأهانهم وضرب بعضهم، وعظَّم قدر قسس النصارىٰ ونزل إلىٰ كنائسهم وأقام شعارهم»(١).

لٰكن مسلمي هٰذه الأيام ما أسهل أن يُخدعوا عن هٰذه الحقائق، وأن يسقطوا في الشَّرَكِ لحظات انفصالهم عن دينهم، وبُعدهم عن التزامه وسلوك طريقه القويم...

وترجع أهمية الحروب الصليبية في أنها تشكل تجربة غنية في تاريخ المسلمين، وهٰذه التجربة ليست من التجارب العابرة المحدودة الأثر والنتائج

---

(١) انظر: «كتاب الحروب الصليبية» لسعيد عاشور، وما كتبه رنسمان عنها أيضاً، والمراسلات والاتفاقات بين بعض قادة الحملات الصليبية وبين المغول معروفة في مكانها من كتب التاريخ.

وإنما هي تجربة كبرىٰ خطيرة مملوءة بالدروس والعظات، الأمر الذي يتطلب أن نتأملها ونبحثها في كل وقت ونراجع حساباتنا معها علىٰ ضوء المستجدات في معركة المواجهة السياسية والحضارية والعسكرية لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها، ونواجه أخطار وتحديات الحاضر ونتغلب عليها... إن ذيول الحرب الصليبية لمَّا تنتهِ بعد، وسواء قلنا: إن التاريخ يعاد بنفسه أو لا، فإن هناك سنناً تحكم قيام الأمم وسقوطها، وتتكرر النتائج كلما تحصلت الأسباب.

* * *

الصليبيون الجدد.. وجيل التحرير

إن من الواضح أن الأوضاع التي تحيط بالعالم العربي اليوم تجعلنا نشعر بأننا في وضع أقرب ما يكون إلىٰ الوضع الذي سبق الحملة الصليبية الأولىٰ منذ ثمانية قرون، الأمر الذي يتطلب دراسة الحركة الصليبية دراسة علمية دقيقة، وتحديد عوامل النهوض التي قادت الأمة إلىٰ النصر، وشروط النصر التي تحققت بعد أن كادت تطمس الهوية الإسلامية لهٰذه البلاد خلال ثمانية أجيال، أي ما يقارب القرنين من الزمان، غاب فيها الإسلام، وأقيمت الجيوب الطائفية، ودعمت وأثيرت الأقليات الدينية، واستيقظت النزعات الإقليمية والباطنية التي ما نزال نعاني من آثارها حتىٰ اليوم، والتي ما تزال الصهيونية تغذيها وتقف إلىٰ جوارها بشكل ظاهر أو خفي «نحن جزء من العالم العربي، ولٰكننا في الوقت نفسه منفصلون عن هٰذا العالم لأن جزءاً كبيراً من هويتنا جاء من أصول أوروبية غربية»[1]. «إن مستقبلنا ومصيرنا مرتبطان بحجم التعاون المشترك مع إسرائيل»[2].

لقد مرت بالأمة المسلمة فترات ضعف مكَّنت العدو من التغلب عليها

---

(١) كميل شمعون: التايم الأمريكية، ٥ مارس [آذار] ١٩٨٤م.

(٢) الجميل: المصدر السابق نفسه.

والسيطرة علىٰ أرضها، لكن بقاء الانتماء للإسلام حال دون ذوبانها في فترات ضعفها، كما أسلفنا، والأمة المسلمة تاريخياً: كلما حققت الالتزام بالإسلام مع الانتماء إليه أمكنها من رد عدوها ونشر حضارتها، قد أدرك خصومها ذلك، فكان لا بد من سلخها عن إسلامها لضمان استمرار غلبة الأعداء عليها؛ والأمر الذي أصبح واضحاً: أن عملية الاسترداد للأراضي الإسلامية التي قام بها صلاح الدين الأيوبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد القضاء علىٰ واقع التجزئة والتمزق والتناحر والدويلات التي كانت تملأ عالم المسلمين، سبقها بناء جيل، هو جيل التحرير، استطاع بواسطته صلاح الدين أن يحرر القدس وغيرها من بلاد المسلمين من الصليبيين، وأننا مهما حاولنا استدعاء صلاح الدين دون إمكانية تربية جيل التحرير فلن نظفر بنتيجة.

ومن الأمور المضحكة المبكية أن يُقرأ تاريخنا بروح إقليمية عنصرية، ويُقزم أبطالنا تحت رايات جاهلية من قبل جيل الاستعمار فيحكم علىٰ صلاح الدين بأنه كردي يجب أن يخرج من تاريخنا، في الوقت الذي يهتم فيه يهود بقراءة تاريخنا الإسلامي ومعرفته ليتمكنوا من خلاله الإحاطة بنقاط الضعف والقوة مما يسهل لهم تحقيق ما يريدون. يقول موسىٰ ليفي رئيس أركان جيش العدو، وهو من أصل «عربي»: حصلت علىٰ دبلوم في التاريخ الإسلامي لأعرف كيف أحارب المسلمين وأنتصر عليهم[1]!!



العشور الصلاحية..

لقد كان لعودة القدس إلىٰ المسلمين بعد ما يقارب القرن من الزمان ـ الذي أُسكت فيه صوت التوحيد ـ دوي هائل في الساحة الإسلامية، ومحاولات مستميتة من جانب الغرب النصراني، حتىٰ إن فيليب أوغسطس ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك إنكلترا فرضا ضرائب علىٰ الإيراد العام في

(١) من دراسة أعدتها «أورينت برس» نشرتها جريدة «الوطن» الكويتية ـ ١٩٨٤م.

بلديهما وصلت إلىٰ عشرة بالمئة سمّوها «العشور الصلاحية» نسبة إلىٰ صلاح الدين، ورصدت حصيلة هٰذه الضريبة لإعادة غزو بيت المقدس، أتعجب بعد هٰذا إذا اعتبرنا الصورة الحديثة للحملات الصليبية هي الهجمة اليهودية، والدعم المادي والعسكري الذي يدفع لها هو الضريبة والجزية (العشور الصلاحية) لأنها حققت حلم الصليبية العالمية؟! هٰذا إذا لم تكن الحملات الصليبية الاستعمارية ابتداء قامت بتحريض من يهود الذين استقرت هجراتهم في أوروبا، وأنهم هم الذين دفعوا النصارىٰ صوب الشرق الإسلامي، وأنهم الآن يستفيدون من كل هٰذا ويوظفونه لمصلحتهم، هل تعجب بعد هٰذا للقروض والهبات الأمريكية، والجزية الألمانية، والمساعدات الأوروبية بشكل عام؟! لقد كانت إسرائيل قادرة علىٰ ابتزاز الشعور الأوروبي الصليبي في مواجهة المسلمين. . .

وقد تختلف الهجمة اليهودية عن الحملة الصليبية في أنها لم تقتصر علىٰ الجيوش، وإقامة القلاع والحصون والقواعد العسكرية، كما كانت الحملات الصليبية، وإنما أريد لها أن تزرع شعباً غريباً مكان الشعب المسلم، وبهٰذا تسيطر بقوة الجيش، وبقوة سكان مجتمع استيطاني له دولته، وهو كيان معادٍ دينياً وحضارياً للمنطقة حيث إنه امتداد حضاري وبشري لليهودية العالمية كنسب جنسي، وللغرب النصراني كنسب حضاري وتكنولوجي واستراتيجي. . .

❋ ❋ ❋

عملية إجهاض القيم

إن قيام إسرائيل حقق أهدافاً كثيرة: أقام الجيوب الطائفية والنزعات الإقليمية ونشَّطها، وامتص طاقات وخبرات المنطقة اقتصادياً، وساهم بتكريس واقع التجزئة، وخرب عالم الأفكار. . . ولا يمكن أن نفهم أسباب الهزائم المتكررة، وأسباب الانهيار أمام إسرائيل إلا إذا عدنا إلىٰ جوهر الأفكار التي نحملها إلىٰ مدارسنا وجامعاتنا، إلىٰ وسائل إعلامنا المتعددة،

إلىٰ بيوتنا وشوارعنا، إلىٰ واقعنا، فسوف لا نرىٰ فيه أثراً من هويتنا الأصيلة... ولا سبيل إلىٰ الخلاص إلا إذا جدّدنا انتماءنا إلىٰ هٰذا الدين والتزمنا به، وعدنا إلىٰ تاريخنا نستلهمه، ودرسنا عوامل النهوض ووسائله من الإعداد والاستعداد وشروطه، وأول هٰذه الشروط أن يشمل التغيير بنيتنا الفكرية... والحذر كل الحذر من طرح شعارات إسلامية للتحرير دون أن يكون من ورائها إعداد وتربية وفكر والتزام، لأن طرح الشعارات دون إيجاد المقدمات الحقيقية إنما هو عملية إجهاض لها، وبذٰلك تفتقد الأمة الأمل الباقي لها، ذٰلك أن أي محاولة للتغيير ضمن الشروط نفسها، وعلىٰ الأرض ذاتها، ومن خلال البنية ذاتها سوف لا يعني إلا المزيد من الارتكاس والإنهاك حتىٰ لو تغيرت الشعارات المطروحة والعناوين المرفوعة للتحرير...

إن صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بنفسه فغيّرها، واستشعر المسؤولية أمام الله عَزَّوَجَلَّ، فأنهىٰ واقع العطالة والفساد والتجزئة في عالم المسلمين، وبنىٰ جيل التحرير، وكذٰلك قام الفقهاء والعلماء والأمراء والقادة بمسؤولياتهم، فكان نصر الله، وكان تحرير المقدسات، ذٰلك أن المجتمع المفكك الفاقد لثقافته لا يمكن أن ينتج قوة عسكرية قادرة ومتماسكة، والإنسان المتخلف ثقافياً واقتصادياً وتربوياً لا يمكن أن يكون متفوقاً عسكرياً... ومهما ارتفعت أصواتنا في استدعاء «صلاح الدين» جديد، واشتدت معارك الشعارات علىٰ أرضنا، فلا سبيل إلىٰ التحرير واسترداد بيت المقدس دون العزم علىٰ إعداد جيل التحرير الذي يمثل الوليد الشرعي لعقيدة الأمة ووجودها التاريخي، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

رجب ١٤٠٤هـ - نيسان (أبريل) ١٩٨٤م

❑❑❑❑❑❑

الرؤية الدينية التوراتية والمواجهة الصادقة

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ [المائدة: ٨٢]

من الحقائق التي لم تبق محلاً للنظر والدراسة والاستنتاج، سواء علىٰ مستوىٰ الفرد أم علىٰ مستوىٰ الجماعة: أن التاريخ بقسميه: الخاص والعام، هو عصارة التجارب في مختلف الظروف والأزمان، وأنه من المعالم الأساسية التي تهتدي بها الأمم، في معالجة حاضرها وقراءة مستقبلها، والتخطيط له على ضوء الماضي، ذلك أن التاريخ هو نتاج عقول أجيال كاملة، وخلاصة تجارب بشرية طويلة، توضع تحت تصرف جيل، في خدمة حاضر الأمة، وبناء مستقبلها، فهو من هٰذا الجانب: اجتماع للعقول في عقل، واختصار للأعمار في عمر، واستحضار للزمن بقرونه المتطاولة في عصر.

هٰذا ما لم تكن الأمة، لسبب أو لآخر، محكوماً عليها أن تعيش خارج التاريخ، أو تكون عاجزة عن هضم تجاربها، والاستبصار بماضيها، إن لم نقل الاستفادة من تجارب الآخرين، أو أن يقرأ لها التاريخ قراءة مغلوطة، ويفسر تفسيراً بعيداً عن الحقائق التي صنعت تاريخ الأمة، فيزيد ذٰلك في ضلالها وإضلالها وتخلفها، وبذٰلك تعيش الأمة تائهة مترنحة، كالشجرة التي اجتُثَّت جذورها.. تتقاذفها الرياح شرقاً وغرباً ولا تقدر علىٰ الثبات أمام عوادي الزمن، وتحاول عبثاً أن تستغني بأوراقها عن جذورها..

والذي ينظر إلىٰ أمتنا والحال الذي انتهت إليه، والمصير الذي

ينتظرها، أو الذي تقاد إليه علىٰ يد بعض أبنائها أو الذين ينتسبون إليها، يتملكه الإحساس أن هٰذه الأمة تعيش الآن خارج التاريخ ولا تستطيع تمثل تجاربها الخاصة والاعتبار بها، بالنسبة لأكثر مشاكلها والطريقة التي تعالج بها قضاياها.

❋ ❋ ❋

مواجهة تاريخية دائبة

والمتتبع لسير الحوادث، منذ أن ابتعث الله محمداً ﷺ، والذي شاءت إرادة الله، أن تكون رسالته الرسالة الخاتمة، وجاءت مكانته ومكانة أمته في قمة التجربة الإنسانية للأنبياء مع أقوامهم. ولعلَّ أبرزها كان مع قصة بني إسرائيل حيث يُرىٰ أن المساحة التعبيرية الكبيرة، التي احتلها الكلام في القرآن الكريم، عن تاريخ يهود، تفوق كل مساحة، عرض القرآن لجرائمهم مع تاريخ النبوة الطويل، وبَيَّنَ صفاتهم وأخلاقياتهم، من مراوغة ونكث للعهود وصناعة للمنافقين الذين عاشوا في جسم المجتمع المسلم، وفتكوا به في فترات الضعف. إنهم يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان للمخادعة، ولا تزال مذاهب الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر صنائع يهود تعمل عملها في المجتمع الإسلامي، بكل أحقادها التاريخية علىٰ الإسلام والمسلمين. لقد نبّه القرآن الكريم الأمة إلىٰ اليهود، وصنائعهم من المنافقين لأنهم يشكلون الخطر الحقيقي علىٰ هٰذه الأمة. لتكون علىٰ بيِّنة من أعدائها، وتكون دائمة الحذر غير غافلة عن الذين يتربصون بها الدوائر.

ولقد كان اليهود، في مواجهة تاريخية دائمة مع المسلمين، وكان الإحسان إليهم وحسن الظن بهم لا يزيدهم إلا تآمراً وكيداً، ولم يختلف الأحفاد في ذٰلك عن الأجداد، فكأن الغدر والمكر والخيانة والكيد أصبح جبلة بالنسبة لهم، وأصبح يشكل المناخ الثقافي الذي يُنَشَّأ عليه الأحفاد في كل جيل، لذٰلك كان بيان القرآن في ذٰلك ينتظم كل جيل، وكان الحذر

منهم مطلوباً أيضاً من كل جيل، والقرآن مجرد عن حدود الزمان والمكان، وإلا لما كان لذكر صفاتهم وقصتهم ـ التي أكدت ذٰلك في القرآن الكريم ومن أكثر من وجه ـ قيمة وفائدة.

ولقد أدرك اليهود، ولا يعوزهم الإدراك لهٰذه القضية، أن المسلمين هم الخصم الحقيقي بالنسبة لهم، خاصة بعد أن تسللوا إلىٰ كل الأديان والمذاهب الفكرية والأحزاب السياسية فأفسدوها ووظفوها لتكون في خدمتهم، وعجزوا عن ذٰلك بالنسبة للقرآن الذي تكفل الله بحفظه.

ولسنا الآن بسبيل أن نتكلم في هٰذه العجالة، عن الشواهد الكثيرة، التي بات أمرها معروفاً ابتداء من التسلل إلىٰ النصرانية وإفسادها عن طريق بولس الذي انقلب وبقدرة قادر من أشد الناس حماسة وإخلاصاً لرسالتها، حتىٰ غدا أحد قديسيها، وأصبح بولس الرسول الذي ينسخ بتعاليمه كل التعاليم السابقة بناءً علىٰ أمر المسيح، ولعل أثر اليهود في كلا المعسكرين المتحكمين في رقاب العباد الآن واللذين كانت أولىٰ خطواتهما علىٰ طريق الوفاق الدولي، الموافقة علىٰ قيام إسرائيل والمسابقة إلىٰ الاعتراف بها لا يخفىٰ.

فاليهود هم الرواد الأوائل للشيوعية التي يعاني الإنسان من ويلاتها، وهم أول مَن تنكر لها وأعلن انتماءه الديني وطلب الهجرة من بلادها إلىٰ أرض الميعاد. كما أنهم الأساتذة المتربعون علىٰ قمة النظام الرأسمالي الربوي الذي يسحق الإنسان ويستغل حاجة المحتاج، وينظر للإنسان علىٰ أنه وسيلة إنتاج، ومن أخلاقهم دائماً الرهان علىٰ حصانَي السباق، ليكون لهم النصيب الأوفىٰ من ظهر الحصان الفائز. يتقاسمون الأدوار ويظهرون بالمظاهر المتناقضة لتحقيق أهدافهم، فهم أصحاب مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» الحقيقيون.

لذٰلك نقول هنا بأن معركتهم مع الإسلام والمسلمين دائمة وسبيلهم إلىٰ النصر إنما يكون في إبعاد الأمة عن عقيدتها، وإيجاد البدائل الثقافية في عالم المسلمين، وكلما سقط بديل أو اكتشف استبدل بآخر وهٰكذا دواليك.

وما استطاع اليهود المرور إلىٰ المجتمعات الإسلامية، إلَّا في حالات غياب العقيدة أو تغييبها.

ولا نرىٰ أنفسنا بحاجة إلىٰ تكرار القول: بأن مرورهم إلىٰ فلسطين كان بعد إسقاط دولة الخلافة آخر حصون المسلمين، وبعد إغراق المنطقة «الإسلامية» بالثقافات الغريبة التي لا تمت إلىٰ الإسلام بصلة، ابتداءً من بعث القومية الطورانية وما أحدث وأيقظ من النزعات الإقليمية في المنطقة الإسلامية كلها، والتي لا تخرج في حقيقتها عن أدوات في يد يهود علم بذٰلك دعاتها أو لم يعلموا.

ولا يسع الباحث المنصف إلا أن يبرز حقيقة هامة: وهي أنه علىٰ الرغم من تلك الثقافات الوافدة، التي أُغرقَتْ فيها المنطقة والتي أصبح لها كتَّابها ومروّجوها، فقد كانت الحواس الإسلامية، هي الحواس التي شعرت بالخطر اليهودي أولاً، وقدّرت مدىٰ خطورته، وتحركت لمواجهته، فكانت صيحات النذير الأولىٰ التي أطلقتها الحركة الإسلامية، في أوائل الثلاثينيات، وكانت الثورة التي قادها الشيخ المجاهد عز الدين القسَّام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٩٣٦م وما استتبع ذٰلك من جهاد الحركة الإسلامية علىٰ ربىٰ فلسطين عام ١٩٤٨م، والذي أسدل عليه ستار كثيف من التعتيم الكامل.

* * *

مكر يهودي ورؤية توراتية

وكان لا بد من رصد هٰذه الظواهر ومحاولة القضاء عليها وكان جزاء سنمار كما هو معروف.. كل هٰذا أكَّد لليهود من جديد، أن عدوهم الأول والأخير في العالم هو الإسلام. ويحضرني هنا ما أشارت إليه صحيفة «يديعوت أحرنوت» من حوالي أربع سنوات بقولها:

«ولٰكن نخشىٰ أن تستغل الجماعات الإسلامية المعروفة بعدائها لإسرائيل هٰذه الفرصة لتحريك المشاعر الإسلامية ضدنا، وإذا نجحت في

ذلك، وإذا فشلنا في إقناع أصدقائنا بتوجيه ضربة قاضية إليها في الوقت المناسب، فإن على إسرائيل أن تواجه حينذاك عدواً حقيقيًا لا وهميًا، هو عدو حرصنا أن يبقى بعيداً عن المعركة، وستجد إسرائيل نفسها في موضع حرج إذا نجح المتعصبون المسلمون في تحويل معركتنا ضد البلاد العربية إلى معركة ضد المجاهدين».

وفي المقابلة التي أجرتها إذاعة إسرائيل مع البروفسور - رون تادلز - تحت عنوان «الإسلام واليهود وإسرائيل» - قال:

«إن المسلمين لا يمكن أن يقبلوا بسيطرة اليهود على المنطقة!! إلّا إذا تعرضوا لعملية إعادة تعليم - غسيل مخ - شاملة تغير عقائدهم الراسخة، وتمحو من تراثهم وسلوكهم وكتبهم المدرسية وتفكيرهم كل الأفكار المعادية لليهود» ثم أعرب عن يقينه أن حكومة إسرائيل سوف تصر على أن تكون عملية التعليم من البنود الملزمة - سواء أكانت سرية أم علنية - في أية معاهدة سلام توقَّع مع أية دولة عربية، ويكون التباطؤ في عملية إعادة التعليم بمثابة خرق للاتفاقية يخول إسرائيل حق التدخل المباشر لفرضها على الأجهزة الإعلامية والإدارية والتعليم وغيرها.

وقد انتقدت صحيفة «يديعوت أحرنوت» التليفزيون الإسرائيلي على المقابلة التي أجراها مع الرائد سعد حداد - عميل إسرائيل في الجنوب اللبناني) - بقولها:

«إن ذلك التصرف الطائش من قِبَل وسائل الإعلام وخاصة التليفزيون قد سبّب ردود فعل عنيفة بين المسلمين في لبنان، وكل البلاد العربية بحيث حرك فيهم الروح الإسلامية، وهو أمر ظلت إسرائيل وأصدقاؤها تحاول كبته والقضاء عليه، طوال الثلاثين عاماً الماضية..».

واختتمت الصحيفة انتقادها بالقول:

«إننا نجحنا بجهودنا وجهود أصدقائنا في إبعاد الإسلام عن معركتنا مع العرب، ويجب أن يبقى الإسلام بعيداً عن المعركة، ولهذا فيجب علينا أن لا نغفل لحظة واحدة عن تنفيذ خطتنا في منع يقظة الروح الإسلامية، بأي

شكل وبأي أسلوب، ولو اقتضىٰ ذٰلك الاستعانة بأصدقائنا لاستعمال العنف في إخماد أية بادرة ليقظة الروح الإسلامية».

ولقد بات معروفاً أن الرؤية الدينية التوراتية التي تعيش إسرائيل من ورائها في فلسطين (أرض الميعاد ـ إعادة بناء هيكل سليمان ـ تحرير أرض الرب ـ تحقيق إرادة الرب) هي الدافع الذي حمل اليهود من جميع أنحاء العالم بمختلف عقائده وثقافاته، أن يعلنوا انتماءهم لها ويهاجروا إليها وكانت خطوات قادة إسرائيل وزعمائها منذ قيامها إلىٰ اليوم منسجمة ومتناسقة ومنبثقة عن هٰذه الرؤية.

ويكفي أن نذكر هنا مثالاً واحداً والشواهد أكثر من أن تحصىٰ:

إن طالب المرحلة الثانوية يتلقىٰ ثلاثمائة وستين حصة تربية دينية توراتية في السنة الدراسية ومثلها في التدريب العسكري، وطالب المرحلة الإعدادية في حدود مائتين واثنتين وأربعين حصة، علماً بأن هٰذه الرؤية الدينية والثقافة الدينية التوراتية التي يحصنون بها الطلاب هي أقرب إلىٰ الأساطير والخرافات التي تنتسب إلىٰ العصور المتحجرة، مع ذٰلك لم نسمع بأصوات النشاز التي تقول: إن هٰذا يعيق التقدم العلمي التكنولوجي، ولم نلمح أثر هٰذه الإعاقة في عالم الواقع عندهم.

ولا نريد هنا أن نتكلم عن الواقع المأساوي لمادة التربية الإسلامية في مناهج التعليم في بعض البلاد الإسلامية.

وليس أمر اللغة هنا بأقل خطورة من أمر مادة التربية الإسلامية فهما وجهان لقضية واحدة؛ فاللغة العربية عند بعض أبنائها العاقّين عاجزة عن أن تكون لغة العلم والفن والأدب والاختراع في عصر العلم والتكنولوجيا وقد تكون في نظرهم سبب تخلفنا العلمي وعجزنا الحضاري، وأن السبيل إلىٰ النهضة مرهون بترك الإسلام والعربية لغة الإسلام..

والأمر الغريب والمستغرَب أن العقم اللغوي مقتصر فقط علىٰ المجال العلمي والتقدم الحضاري، أمّا في مجال فلسفة الهزائم والقدرة علىٰ إيجاد مصطلحات وصيغ الاحتجاج فاللغة بحمد الله تملك الخصوبة والمرونة،

وهي قادرة علىٰ إمداد السياسيين بكل التعابير التي يريدون، وقادرة أيضاً علىٰ الولادة وعدم العقم. . . وكلما حصلت نكبة للأمة نجد اللغة قادرة علىٰ التعبير عنها، فمصطلح النكبات والنكسات ومصطلح اللاجئين ومن ثم النازحين ومن ثم الوافدين إلىٰ آخر هٰذه القائمة ـ التي لا ندري أندرك آخرها أم لا ـ موجودة بحمد الله، لقد أمتنا مصطلحات النصر والقوة والاختراع من لغتنا في حياتنا الحاضرة وبدأت الحياة والنمو لمسوغات الهزائم والنكبات.

هٰذا في الوقت الذي يحاول اليهود إحياء لغتهم العبرية. . اللغة المقدسة التي لا يمتلك غيرها من اللغات التقدم إلىٰ مجالات العلم والفن والاختراع والأدب بكل مناحيه، إنهم يفرضون وجودهم علىٰ العالم ويفرضون لغتهم علىٰ العالم ويحاكمون العالم من خلال رؤاهم الدينية.

ولا زلت أذكر مروري بباريس برفقة أحد الإخوة المختصين بالرياضيات المعاصرة (الرياضيات الحديثة) كيف أنه اشترىٰ كتباً للرياضيات بالعبرية وقال لي بأن هناك مؤسسة يهودية في فرنسا تعمل وتتابع البحث في تحديث الرياضيات وتقديم الدراسات في هٰذا الموضوع، وقد تكون دراساتها متقدمة علىٰ المؤسسات الأخرىٰ التي ترعاها الدولة في فرنسا، ولا بد لاستكمال الموضوع من شراء هٰذه السلسلة ومن معرفة المصطلحات باللغة العبرية. فقلت: هٰكذا تتقدم العبرية علىٰ يد أبنائها وهٰكذا تنهزم العربية علىٰ يد المنتسبين إليها، واللغة كائن حي يقوىٰ بقوة الأمة ويُهزم بهزيمتها.

❋ ❋ ❋

جنود في جيش العدو

وليس من تكرار القول: أن نؤكد أن إسرائيل تعرف ما تريد، وتقدم رؤية دينية لشعبها تتصرف علىٰ ضوئها، وتحاكم العالم من خلالها، وترسم صورة الحل المطلوب علىٰ أساسها، وما نراه اليوم من الإعلان عن ضم مرتفعات الجولان، لا يخرج عن كونه حلقة في السلسلة التي لا تحمل أية مفاجأة لكل الذين يتمتعون بحواسهم التي لا زالت سليمة، فعملية قضم

اليهود للجسم الإسلامي مستمرة، وعلىٰ كل المستويات، وما قامت به إسرائيل هو إعلان لواقع استمرت في إقامته وتكريسه أربعة عشر عاماً من الاستيطان، وإعطاء المناطق الأسماء والمصطلحات العبرية، وتنشئة المستوطنين علىٰ أنها مناطق محررة من أرض إسرائيل الكبرىٰ، وقد قدّم بيغن (رئيس وزراء إسرائيل) للموضوع بفلسفة توراتية، ومما قال في الكنيست:

«لا يمكن لأحد عاقل في بلادنا أو خارج حدودها إلا أن يعترف بعدما يقرأ تاريخ إسرائيل أن الجولان كانت جزءاً من الأراضي الإسرائيلية» (!!)

وقال للسفير الأمريكي صموئيل لويس أثناء رده علىٰ موقف أمريكا من الموضوع:

«إن اليهود يعرفون ماذا يريدون. وهم سيحققون بقوتهم كل شعاراتهم الدينية.. إن الجولان أرض توراتية وقد استعادها الشعب اليهودي ولا توجد أية قوة في الأرض تستطيع أن تحملهم علىٰ التراجع عن قرارهم...».

ولا بد من التذكير هنا أيضاً بقول ليفي أشكول بعد حرب حزيران ١٩٦٧م لما تقرر عقد الجمعية العمومية للأمم المتحدة:

«لن ننسحب من المناطق المفتوحة (كذا) أبداً ولو صوَّت مائة وواحد وعشرون عضواً من بين مائة واثنين وعشرين عضواً في الأمم المتحدة ضدنا، ولم يبقَ في تأييدنا إلّا صوت إسرائيل نفسها»!

وقول ديڤيد بن غوريون:

«لا تتعبوا أنفسكم في البحث عن حل، ليس هناك حل، الأرض واحدة وطالب الأرض اثنان، ولا بد أن تكون لواحد منهما فقط، لا بد أن يكون الشعب الإسرائيلي هو ذٰلك الواحد الذي يحصل علىٰ الأرض ويملكها، والحل الوحيد بالنسبة لنا: أن نسعىٰ بكل الوسائل بما فيها القوة والسياسة والخديعة لكي نجعل الطرف الآخر يرضىٰ بالتنازل عنها».

فالقدس عاصمة إلىٰ الأبد، ولا مجال للبحث في شأنها، لأنها إرادة

الرب، والضفة الغربية حق للشعب اليهودي، وهي الأرض التاريخية، أرض الميعاد..

إن إسرائيل تعرف ماذا تأخذ وماذا تدع وتحدد مرحلته وتهيئ الظروف المناسبة له وتنطلق من ثوابت تعتقدها وتلتزم بها، وأية قضية لا يتم إنضاجها في إسرائيل من قبل فرد مهما كان شأنه، ومهما كان عنوانه، ومهما كانت تضحياته ومكانته التاريخية، لأنها قضايا تخص الإسرائيليين جميعاً ولا تختص به.

فلا بد من إنضاج كل شيء في المؤسسات المختصة وعن طريق استفتاءات الرأي العام فإذا لم يستطع فرد أو أفراد ذٰلك، يتحولون عن الطريق ليأتي مَن ترتضيه الأمة ويكون الأكثر ملاءمة لظروفها، ولا نزال - نذكر جميعاً تشكيل لجان الدراسات المختصة في أعقاب حرب ١٩٧٣م - والكتب التي أُلِّفت في دراسة الموضوع وبيان أسبابه ونتائجه (لجنة إغرانات، وكتاب التقصير) وما أعقبه من تغيير.

والذي ينظر إلىٰ بعض شعوب العالم الإسلامي لا يحتاج إلىٰ إجهاد ذهنه ليرىٰ أن الاستهتار بهٰذه الشعوب يفوق كل تصور ويتجاوز كل منطق فلو كانت هٰذه الشعوب قطعاناً من الماشية لنظر في شأنها وأخذت بعين الاعتبار في مأكلها ومناخ رعيها ومدىٰ صلاحيته وملاءمته لها، فالشعوب في عالمنا لا تستحق ما تستحق الماشية من رعاتها.. فكيف تستطيع المواجهة ويتحقق عندها الإيمان بها. والحروب التي تقاد إليها وتقوم بينها لتستنزف طاقتها تدوم أعواماً وحربنا مع اليهود لا تستغرق أياماً..!؟

وَبَعْد: إن السلاح الوحيد الذي ينبغي أن يدخل معركة المصير ويحارب به هو الإسلام عقيدة وتربية وجهاداً في سبيل الله وتحصين الأمة بعقيدتها عدة كفاحها ودرع صمودها، وهو السلاح الذي تخشىٰ إسرائيل دخوله المعركة ولا تخفي الجهر بذٰلك. وإن الأمة ستظل تتردىٰ في مهاوي الهزائم والنكبات الداخلية والخارجية ما دامت تأبىٰ أن تطلب النصر من الله وتعد للنصر عدته.

وإن الذين يحولون بين الأمة وعقيدتها هم جنود في جيش العدو، وهم الأعداء الحقيقيون لهٰذه الأمة، يمزقون جبهاتها الداخلية ويقضون علىٰ مقومات المواجهة الصادقة مع إسرائيل.

أما أولئك الذين أعياهم السير في طريق الجهاد فنقول لهم: إن قضية فلسطين هي قضية الأمة الإسلامية بكل أجيالها وتاريخها وعقيدتها والأوْلىٰ لهم أن يتركوا الأمة في مواجهة العدو ومقابلة التحدي، من أن يقدموا لها مبررات ومسوغات للهزائم المتوالية، وما النصر إلا من عند الله.

ربيع الآخر ١٤٠٢هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٢م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

رمضان.. شهر القرآن

﴿... يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]

وتمر الشهور وتتقلب السنون، ويظلنا شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن ليعيد إلينا المعاني الكبيرة، والكبيرة جداً التي تشكل بمجموعها معالم الحياة الإسلامية، وقيم الدين، التي يجب أن لا تغيب عن حياة البشرية، في رحلتها الطويلة وأحوالها المتبدلة وحاجاتها المتجددة، ونزوعها النهم إلىٰ الإشباع المادي والجنسي الذي لا حد له، والذي يقودها إلىٰ الأثرة والطغيان، ومجتمع الإباحية..

إن التأكيد علىٰ هٰذه المعاني الخيرة، التي يحمل دلالاتها شهر القرآن، والتدريب عليها شهراً في كل عام، لا يعتبر من قبيل الإعادة والتكرار، وإنما يعني فيما يعني التجديد والتعميق والرعاية والتنمية لها والتربية عليها وإزالة الغبش والران الذي يمكن أن يلحق بها، كما أنه يعني الحماية لها من الغياب عن حياة المسلمين، والضمان لاستمراريتها، لأن غياب البُعد الإيماني واغتيال الشياطين، حاصل في حمأة الحياة المادية وسيطرة الشهوة الجنسية.. ذٰلك أن الأمر الذي استذل البشرية وعبَّد رقابها وتحكَّم بها تاريخياً هو شهوتا البطن والفرج، فهل تعني العودة إلىٰ تناول الطعام الذي به قوام الجسم من قبيل التكرار؟!! فإذا كان هٰذا بالنسبة لغذاء الجسم فأين هو من غذاء العقل ورواء الروح؟!!..

لذٰلك كانت العودة لتأصيل هٰذه المعاني، وتأكيدها وتعميقها لتصبح منهجاً للمسلم يأخذ بها سلوكه وتصطبغ بها حياته.. لا يمكن بحال من الأحوال أن تحكمها قاعدة التكرار وعيوب التكرار، وتستوي في ذٰلك العبادات كافة: الصلاة المتكررة في اليوم خمس مرات، والزكاة، والصيام الذي يعاودنا في العام مرة، والحج المفروض في العمر مرة أيضاً..

إن العبادات في الإسلام لا تغني فيها الواحدة عن الأخرىٰ حيث لكلٍّ وظيفتها وضرورتها في بناء الشخصية الإسلامية، فهي جميعها غذاء العقيدة والتعبير الإيجابي والعملي عنها.

إن الإنسان مجبول من دوافع الخير ونوازع الشر، وطريق الخير واحد وطرق الشر كثيرة علىٰ رأس كل واحد منها شيطان يغري بها، ونزوع الإنسان إلىٰ الشر قائم ودائم فلا بد له من ديمومة حراسة ويقظة وتزود بطاقات تضمن ديمومة تغلب دوافع الخير علىٰ نوازع الشر.. ولا يتأتىٰ هٰذا إلا بالعبادات عامة وبصيام رمضان شهر القرآن خاصة.

فالرسول المعصوم ﷺ الذي هو محل الأسوة والقدوة كان أجود الناس ومع ذٰلك كان أجود ما يكون في رمضان.. إنه الجود الذي يكبر ويزداد ولا يحول دونه أي عائق حتىٰ يصير أجود بالخير من الريح المرسلة..

ذٰلك أن الصيام: هو التربية الحسية المادية علىٰ الإحساس بجوع الجائعين، والشعور بحاجة المحتاجين.. إنه التكافل الاجتماعي الذي يربي عليه الصيام الفرد المسلم ليكون المرآة الصادقة له والنافذة الصحيحة لاستشعاره.. إذ لا يمكن للإنسان المترف أن يحس بصدق وحسن تقدير لحاجة الفقراء كما لا يمكن للإنسان المتخم أن يحس بصدق واستجابة لتضوع الجائعين والمحتاجين.

إنها دورة المعاناة المفروضة ومركز التدريب الذي لا يقتصر علىٰ الزعيم والقائد والكاتب والمفكر والغني والفقير والطبقة. إنما هي المعاناة التي تنتظم الجميع فتشعر بالتساوي، وتلغي التمايز، وتحقق التكافل حيث لا

يؤمن من بات شبعان وجاره جائع إلىٰ جنبه وهو يعلم. . إنه الشعار المرتبط بالشعيرة؛ شعيرة الصوم، ومطابقة القول العمل.

❋ ❋ ❋

نزعة التَأَلُّه..

ولعل المعاني هنا يستدعي بعضها بعضاً. . . فعلىٰ الرغم من أن الحس بالحاجة هو الطريق الوحيدة لتقدير حاجات الناس، واستشعار المسؤولية، إلا أن لهٰذا الحس وجهاً آخر أيضاً ـ علىٰ غاية من الدقة والأهمية ـ إنه إشعار للإنسان ببشريته المحتاجة، ووسيلة لتحقيق العبودية للّه وإلغاء نزعة التألُّه والاستغناء التي يعيشها بعض الناس، بدافع من سلطة أو مال أو جاه أو منصب. فتعود إلىٰ الحياة صورة النمرود الذي يظن بأنه يحيي ويميت، والفرعون الذي يتوهم أنه الرب الأعلىٰ، وقارون الذي يظن أن المال كل شيء في الحياة. . فيكون البغي والظلم، ويسام الناس الخسف ويرهقون بالذل ويُسْتَخَفُّونَ بالطاعة. . إن الفقر والأيام الشداد قد تكون ضرورة تربوية لحمل الإنسان إلىٰ شكر النعم، وذٰلك بوضعها حيث أمر المنعم، ويحس معها أنه عبد محتاج لخالقه. .

إن رمضان يعيد هٰؤلاء الجانحين إلىٰ صوابهم ويُشعرهم بأنهم عبيد محتاجون وبشر ضعاف. فتتوقف نزعة التألُّه التي عانت منها البشرية ولا تزال، ذٰلك أن معظم الشر في العالم كامن في تسلُّط الإنسان علىٰ الإنسان، وأن هٰذا التألُّه أخذ في التاريخ صوراً وأشكالاً متعددة: من تألُّه الإقطاعي، ورجل الدين، والحاكم الديني في العصورالوسطىٰ إلىٰ الطبقة والحزب والزعيم وما سوف تأتي به الأيام، وكلما اكتشف الإنسان صورة استبدلها المتألهون بأخرىٰ، ويبقىٰ التألُّه هو التألُّه!!!

ولقد مورس هٰذا التألُّه علىٰ العباد حتىٰ أصبح لازماً عند بعض الأمم حيث زرعت القابلية له وصعب الانفكاك عنه، فكان شعارهم: «اجعل لنا إلـٰهاً كما لهم آلهة» أفلا تستحق هٰذه النزعة التي كانت سبباً في شقاء

البشرية، ديمومة المعالجة وديمومة التحصين ضدها بما شرع الإسلام من عبادات وعلىٰ رأسها عبادة الصوم!!!

* * *

ملكة الفرقان

أي فضل لهٰذا الشهر علىٰ أشهر السنة يمكن أن يكون أكبر من نزول القرآن.. إنه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، إنه الشهر الذي قدّر الله له من بين شهور السنة جميعاً أن تتحقق من خلاله صلة السماء بالأرض لتستقيم مسيرة الحياة بعد هٰذا التيه والشتات والضلال وتلتقي علىٰ الخير.

كان رمضان هو الموسم الذي أراد الله فيه أن ينزل ﴿... ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.. إنها البينات التي لا بد من الاستمرار علىٰ الصلة بها حتىٰ لا تضل بنا الطريق ولا تزل بنا القدم حتىٰ تتحقق فينا ملكة الفرقان، وهي أهلية يختص بها المسلم الملتزم دون سواه.. إنها النظر بنور الله والسير علىٰ هدي رسول الله ﷺ، ولا تتحصل مكونات أهلية الفرقان من خلال نظرة فلسفية باردة لتعاليم الإسلام تعوزها حرارة العقيدة واستجابة السلوك وحركية الدعوة والعمل الإسلامي، كما أن ملكة الفرقان هٰذه ليست كما يظن بعض الناس، إنها تعني المزيد من التحفز العاطفي، والتجديد للتوثب الروحي، بعيداً عن القدرة علىٰ الإبصار، والإدراك، والتعرف علىٰ مسالك الأمور، والإمكانية الفعلية المخلصة علىٰ التمييز والتفريق بين الخير والشر، بعيداً عن الهوىٰ.. إن الهدىٰ والفرقان هما توفر عنصرَي الإخلاص والإدراك، وسوف لا تُحَل المعادلة الصعبة التي يعاني منها عالم المسلمين اليوم بتحقيق أحد طرفَي المعادلة، إنها لا تُحَل بالإخلاص فقط علىٰ أهميته وضرورته للخلوص من الهوىٰ والنزوة، كما أنها لا تُحَل بالإدراك وحده الفاقد لعنصر الإخلاص الذي يعتبر الموجه الحقيقي إلىٰ الخير والعاصم من الشر، وبذٰلك نبقىٰ نتأرجح بين جلد الفاجر وعجز

التقي اللذين استعاذ منهما سيدنا عمر ﷺ.. ذلك أنه لا بد لنا من الهدىٰ والفرقان معاً.. ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ ولعل في رواية علي ﷺ لحديث رسول الله ﷺ عن القرآن فيها كل البصائر لما نقول:

روىٰ الترمذي بسنده عن علي بن أبي طالب ﷺ وكرّم وجهه في الجنة أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ستكون فِتَن كقطع الليل المظلم**»، قلت: يا رسول الله وما المخرج؟ قال: «**كتاب الله تبارك وتعالىٰ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، مَن تركه من جبار قصمه الله، ومَن ابتغىٰ الهدىٰ في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يملّه الأتقياء، ولا يخلق علىٰ كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.. مَن علم علمه سبق، ومَن قال به صدق، ومَن حكم به عدل، ومَن عمل به أُجر، ومَن دعا إليه هدي إلىٰ صراطٍ مستقيم**».

إن توفر عنصرَي الإخلاص والإدراك سوف يتحققان من تدبر آيات القرآن الكريم والتعرف علىٰ السنن التي شرعها لحكم الحياة والأحياء، ومن الاستجابة كذلك بممارسة الإسلام عقيدة وعملاً وعبادة وسلوكاً.

ولعلّ صوم شهر رمضان هو الموسم الذي يربي عنصر الإخلاص، فـ «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به.. يدع شهوته وطعامه وشرابه لأجلي**».. وتلاوة القرآن وتدبر آياته والتبصر في قوانينه وسنن منهجه، هو المخرج من الفتن التي عميت فيها المسالك.. إنها «... **كقطع الليل المظلم**...» يمسي الرجل فيها مؤمناً ويصبح كافراً، ويصبح مؤمناً ويمسي كافراً يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل.. فتن تدع الحليم حيران.. إنه شهر القرآن، شهر نزوله وشهر مدارسته..

فهل يكون رمضان فرصة للعودة إلىٰ القرآن، دستور الثقافة الإسلامية، والسبيل الوحيد للخروج من المأزق، من قطع الليل المظلم حيث تكثر

الرايات العمية في الوقت الذي أصبح معه تمزقنا الثقافي وعنتنا الفكري والسياسي لا يخفىٰ علىٰ أحد، لقد افتقدنا الالتزام بقيمه الثابتة بعد هٰذه الحيدة وهٰذا العقوق وهٰذا الهجر الذي نعيشه ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ . . .﴾ [الفرقان]، وأية أمة من الأمم تمتلك من القيم الثابتة المجمع عليها ما يمتلك المسلمون؟!!. . .

❋ ❋ ❋

الرشد العقلي

إن شهر القرآن ضمانة للاستمرار في الخير وشيوع مناخه وأجوائه والتدريب عليه والالتزام به، وفرصة للمراجعة والعودة إلىٰ الله. . قال رسول الله ﷺ: «**إذا جاء رمضان فُتِّحت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين**. . .» ولو حاول أي إنسان أن يترصد ذٰلك في حياة الناس، وخاصة المسرفين علىٰ أنفسهم لوقع علىٰ مئات الشواهد والدلالات.

إن الكثير من عمليات التحول عن طريق الشر إلىٰ طريق الخير إنما يكون في هٰذا الشهر الكريم، ونسمع كثيراً من العهود والوعود التي يقطعها المذنبون علىٰ أنفسهم بأن رمضان هٰذا العام سوف يكون المحطة الأخيرة التي يتوقف عندها الإسراف والتقصير والتفريط في جنب الله. . وكثيرون كثيرون هم الذين يشكل رمضان منعطفاً في حياتهم، فهم قبل رمضان غيرهم في رمضان وبعد رمضان. . لقد «. . . **فُتِّحت أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب النار وصُفِّدت الشياطين ونادىٰ المنادي يا باغي الخير أقبِل ويا داعي الشر أدبِر**. . .» خاصة وأن الله يغفر الذنوب جميعاً.

قال تعالىٰ: ﴿. . . يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزمر: ٥٣].

ولسنا الآن بسبيل أن نتكلم عن أثر الخطأ النفسي في سلوك الإنسان، وعن واقع هٰذا الإنسان الذي يعيش طريداً لأخطائه محاطاً بها قلقاً من أثرها

النفسي. وما للتوبة التي فتح الله أبوابها أمام الإنسان دائماً ـ وفي رمضان بشكل خاص ـ من أثر في عملية التجدد النفسي والخلوص من الخطيئة التي تنغص الحياة.. قال رسول الله ﷺ: «**مَن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه**»، فلو أنعم الإنسان النظر في الآثار النفسية للتوبة واطمأن إلىٰ قبولها لانقلب من خاطئ معذَّب النفس مسدود الطريق يعيش عقدة الخطأ التي تورث السلبية والشعور بعدم الصلاحية والتشاؤم إلىٰ إنسان فاعل إيجابي يملأ نفسه الرضىٰ والاطمئنان والتفاؤل والتجدد..

إن الصيام يمكن أن يعتبر إلىٰ حدٍّ بعيد من مراحل التحول والمنعطفات الكبيرة في حياة الأفراد والجماعات... إنه محطة تغلق عندها أبواب الشر، وتسد منافذ الشيطان علىٰ النفس، وتفتح أبواب الخير وترسم طرقه وتستبين سبله. فيتابع الإنسان خطاه صوب المستقبل بما يمنحه رمضان من الطاقات الخيِّرة.. لذلك نرىٰ بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ آيات الصيام عقّب عليها بقوله:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة]... إنه الرشد العقلي والكمال النفسي الذي يحققه الصيام.

❋ ❋ ❋

المراجعة.. والتدبُّر..

إنه شهر اعتكاف.. وليس الاعتكاف إلا عكوف علىٰ الذات لمراجعتها وتجديد الجوانب الشائخة والهرمة فيها، والنظر في التقصير وبناء الذات طبقاً للمنهج الإسلامي، ووضع اليد علىٰ الأخطاء ودراسة أسبابها ومعالجة آثارها في النفس والمجتمع. إنه شهر الاعتكاف والتدبُّر. قالت عائشة رضي الله عنها: **كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأخير من رمضان شدّ مئزره وأحيا ليله وأيقظ أهله..**

وَبَعْـد...

فهل يكون شهر رمضان موسماً للعودة إلىٰ الله، وفرصة لمراجعة الحساب والتقصير في جنب الله علىٰ أكثر من صعيد؟

هل يكون فرصة للظالمين ليعيدوا النظر في سلوكهم ويفكروا في مصيرهم ويعتبروا بغيرهم، حيث يأتون يوم القيامة شاخصة أبصارهم ترهقهم ذلّة، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء، ويدركون أن الله يمهل ولا يهمل فيتداركوا الأمر قبل فوات الأوان؟ ذٰلك أن دعوة المظلوم لا تُرَد وليس بينها وبين الله حجاب، وأن الله سينتصر للمظلَوم ولو بعد حين.. قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا تُرد دعوتهم: المظلوم والصائم والحاكم العادل»**، فكيف إذا كان مظلوماً صائماً؟!! فالرجوع إلىٰ الحق والعدل ليس جبناً ولا ذلّة، وإنما هو بطولة وشرف وكرامة...

وفرصة للمسرفين علىٰ أنفسهم القانطين من رحمة الله، المعذبين بالأخطاء والآثام لسماع كلام الله: ﴿... لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ...﴾ [الزمر:٥٣] بقلوب واعية فيعودوا إلىٰ الجادة ويلتزموا الحياة الإسلامية النظيفة..

وفرصة للعاملين في الحقل الإسلامي ليوقفوا التراشق فيما بينهم وليعيدوا النظر بمهمتهم، ويدركوا أنهم يحملون أشرف دعوة ويعملون لأنبل غاية، فيوطنوا أنفسهم، ويعاهدوا الله أن يكونوا بمستوىٰ إسلامهم وعصرهم فيتخلص العمل للإسلام من التمحور حول النفس والطواف حول الذات.. فما عند الله خير وأبقىٰ.

وفرصة للذين يحاولون توظيف الإسلام لمصالحهم الشخصية ويبيعون أنفسهم وإسلامهم في السوق السياسية الرخيصة، فينقلبوا إلىٰ أدوات تحرك وليس لها من الأمر شيء، فيدركوا أن شرعية الوسائل من شرعية الغايات فيعيشون للآخرة.. وأنهم مهما حاولوا تبرير سلوكهم أمام الناس فإن الله مطّلع عليهم، وسوف يوقفهم ويسألهم، وأن هٰذا الدين محفوظ بحفظ الله له، وسوف ينفي عنه الخبث كما ينفي الكير خبث الحديد..

وفرصة للدعاة إلى الله، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، ليعيدوا النظر في وسائلهم وطرائقهم، ذٰلك أن دعوة الناس إلىٰ الإسلام إنما تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وليست بالإكراه، فمَن كان آمراً بالمعروف فليكن أمره بمعروف، وليستمعوا إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفرصة للفرد المسلم ليعيد النظر في موقعه الذي هو فيه الآن.. ما يقدم هٰذا الموقع للإسلام من فائدة، ويدرك أن الطاعة في الإسلام مبصرة وأن المسؤولية فردية، وأن لا يرتكس إلىٰ المفهوم الحزبي الجاهلي فينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً!! بل يلتزم المفهوم الإسلامي بأن ينتصر للمظلوم برد ظلامته، وينتظر للظالم بالأخذ علىٰ يديه.. فالتعاون علىٰ البر والتقوىٰ وليس علىٰ الإثم والعدوان. فتسود المناصحة الصف المسلم، ويفوز بالنصر في الدنيا والثواب في الآخرة.

وفرصة لبعض القادة والزعماء والحكام ليكونوا عند أمل أمتهم فيوقفوا الخصومات والحروب التي لا تدفع ثمنها إلا الدماء المسلمة، ويستشعروا المسؤولية المنوطةَ بهم، فلا يفرطوا بشبر من الأرض الإسلامية، فيجمعوا أمرهم ويلتزموا قيمهم ويواجهوا عدوهم صفاً واحداً، وتتوقف من حياة الأمة الإسلامية مرحلة الشعارات والفلسفات المهزومة لتبدأ عمليات الإنقاذ والمواجهة الحقيقية..

وفرصة للأغنياء والمترفين لمراجعة الحساب والحس بحاجة الفقراء، وشكر النعمة بوضعها حيث أراد المنعم، فيساهموا في إنقاذ الجائعين في العالم الإسلامي ويعلموا أن إيمانهم معرّض للخطر إذا لم يطعموا الجائع، ويكسوا العاري، ويغيثوا الملهوف..

وفرصة لكل مسلم ليدرك أن التساهل بالصغائر يؤدي إلىٰ الكبائر، فيوقف الغيبة والنميمة وسوء الظن، هٰذه العلل النفسية التي ابتلينا بها حتىٰ استسهلناها، ويرسم لنفسه منهاجاً يلتزم به ويتدرب من خلاله علىٰ المعاني الإسلامية لتصبح جزءاً من حياته اليومية، وبذٰلك يكون الفرد الرباني الذي

يصطبغ سلوكه بالإسلام فيمتلك اليد المسلمة والرجل المسلمة والعين المسلمة والأذن المسلمة بحيث تتحرك جوارحه جميعها الحركة الإسلامية التي شرعها الله لمَن يحبه، ذلك أن رمضان فرصة للاستزادة من النوافل. قال تعالىٰ: «**ما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها**...» اللهم بارك لنا في رمضان وأعِنّا فيه علىٰ الصيام والقيام وغض البصر وحفظ اللسان... واجعلنا من عتقائه من النار..

رمضان ١٤٠٣هـ - حزيران (يونيه) ١٩٨٣م



قراءة في ثلاث أوراق تاريخية

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]

لا نريد بعرض هٰذه الأوراق المأساوية من تاريخنا أن نقدم إضافات لصور المآسي والمعاناة التي نعيشها، وألواناً كئيبة من الإحباط واليأس التي تلحق بنا علىٰ أكثر من مستوىٰ، والتي باتت تملأ علينا حياتنا، وترافق طعامنا وشرابنا ويقظتنا ومنامنا حيثما تلفّتنا. ليس هٰذا هو المقصود، ولو كان هٰذا مقصودنا لاكتفينا بالصور المأساوية القائمة التي نعيشها صباح مساء، تحملها إلينا أجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة عن فظائع يهود وأفاعيلهم في بيروت الغربية، بل للمسلمين في بيروت، ولاكتفينا بمأساة الصمت العربي أيضاً، الذي لم يخرج في حقيقته عن أن يكون جزءاً من الصورة ومن بعض لوازمها أيضاً، ولكان ذلك جديراً وحده بتحقيق الانكسار النفسي والقنوط الذي أريد لهٰذه الأمة، ليس هٰذا هو المقصود، وإنما المقصود حقيقة أن نقول: إن هٰذه الأمة عانت في تاريخها الطويل من صور المآسي والنكبات ما تكفي الواحدة منها لإزالتها من الوجود، ومحوها من خارطة العالم، لٰكن الأمة المسلمة ـ تاريخياً ـ تحقق لها من عوامل الصمود والاستمرار، وعدم الذوبان والاضمحلال في أيام الغلبة والانكسار قدراً لا يقل عن عوامل القوة في أيام الفتح والانتصار.

إن الذي يقرأ في هٰذه الأوراق التاريخية التي نقدمها اليوم دون أن يتابع رحلة القراءة في التاريخ ليتعرف كيف استطاعت الأمة تجاوز محنتها في أكثر من مجال، سوف يحكم عليها بلا أدنىٰ شك بأنها انتهت إلىٰ غير

رجعة، ذٰلك أن الاجتياح كان ساحقاً ماحقاً لا يبقي ولا يذر، سواء في ذٰلك حملات الاستعمار القديم أم نكبات الاستعمار الحديث، مستهدفاً القضاء علىٰ الوجود الإسلامي مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ . . .﴾ [البقرة:٢١٧].

علىٰ الرغم من ذٰلك كله استطاعت الأشلاء الباقية في كل مرة أن تلملم جراحها وتتعرف علىٰ مواطن الضعف في حياتها التي كانت منافذ للعدو، وتتلمس مواطن القوة لتنطلق منها مرة بعد مرة..

من هنا نقول:

إن هٰذه الأوراق التاريخية ليست لمزيد من اليأس، وإنما معالجة لليأس والسقوط والقنوط، وليست القراءة التاريخية بدعاً منا، وإنما هي طريق الأمم الطبيعي عندما تمر بها أزمة، أو تجتاحها محنة، إنها ترجع إلىٰ قيمها تستوحي منها القوة، وتتعرف منها علىٰ مواطن الضعف، وتعود إلىٰ قراءة تاريخها مرة بعد أخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١].

وهٰذا ليس هروباً من الواقع كما يتوهم بعضهم من ضحايا التضليل الثقافي، وليس استمراراً للعيش في مناخ الهزائم، وإنما هو التفتيش عن الوسيلة الأفضل لمواجهة الواقع وتجاوزه، لأننا إذا قبلنا بمنظومة القيم القائمة والوسائل المستخدمة التي حملت لنا الويلات والدمار، معنىٰ ذٰلك أننا ما نزال مصرِّين علىٰ السير في الطريق المسدود، وقبول الواقع الحالي الذي لا يخرج في حقيقته عن أن يكون نتيجة طبيعية للمقدمات التي صنعناها بأيدينا، الأمر الذي بات معروفاً للقاصي والداني، ولا يتطلب مزيد جهد ونظر، إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن تنتصر الشعارات المرفوعة التي أريد لها أن تكون بديلة عن القيم الإسلامية في حياة الأمة المسلمة، والتي ترفعها الأيدي الملطخة لدماء المسلمين الضالعة في مخططات التسوية المرسومة مسبقاً والمنفذة بدقة ومرحلية.

هٰذه الأيدي التي حاولت باستمرار سلخ الأمة عن عقيدتها، عدة

كفاحها ودرع صمودها، والتي لا تخرج في حقيقتها عن أن تكون جنوداً في جيش العدو..

فالتاريخ ذاكرة الشعوب، وهو المعلم والمرشد، فهل ما تزال لنا ذاكرة تحمل لنا البصارة أم مورست علينا، كجزء من المعركة، عمليات الإخلاء والإملاء كما يقولون، لنبقىٰ عاجزين عن قراءة تاريخنا والاستفادة منه والاعتبار بحوادثه؟! نبقىٰ كالشجرة المترنحة التي تتقاذفها الرياح يمنة ويسرة، لا جذور لها، وما لها من قرار.

ولا بد من الاعتراف ابتداء بأن موقفنا من تاريخنا إلىٰ الآن لم يتجاوز الموقف العاطفي، أما الدرس والعبرة، وتلمُّس معالم الشخصية الإسلامية، والتعرف علىٰ مواطن الضعف لتجنبها وعوامل النصر والنهضة لالتزامها، فهٰذا أمر متروك لاستفادة عدونا، لأننا أمة تعيش خارج التاريخ، أو هٰكذا أريد لها علىٰ الأقل.

والغريب أن تاريخنا الإسلامي يقرأ لنا بشتىٰ القراءات ـ التي تبعدنا عنه، وتعطل الفائدة منه ـ عدا القراءة الإسلامية علىٰ الساحة الإسلامية... يفسر تاريخنا تفسيراً مادياً، ويفسر تفسيراً عنصرياً أو شعوبياً، ويفسر تفسيراً علمانياً، وقد يفسر تفسيراً باطنياً.. والذي تتاح له قراءة شيء من مناهج التعليم في المناطق الخاضعة للاحتلال اليهودي، يرىٰ أن أطفال المسلمين اليوم ضحايا التفسير اليهودي التوراتي للتاريخ.

إن العدوان العسكري كان موازياً دائماً للعدوان الفكري علىٰ قيم هٰذه الأمة وتاريخها، ولا شك أن العدوان علىٰ التاريخ جاء أكبر بكثير..

نعود إلىٰ هٰذه الأوراق التاريخية التي نطلب إعادة قراءتها علَّها تحمل الكثير من التفسير لواقعنا الذي نعاني منه:

الورقة الأولىٰ: كانت عن مسير القرامطة إلىٰ مكة، وما فعلوا سنة ٣١٧هـ كأنموذج للكيد الباطني المبكر، والجرثوم الذي وضعه اليهود في جسم هٰذه الأمة، والذي كان ولا يزال يستيقظ كلما ضعف هٰذا الجسم، يحاول القضاء عليه..

والورقة الثانية: كانت عن الحملات الصليبية وأفاعيل الصليبيين عند احتلالهم بيت المقدس، والخدمات التي قدِّمت لهم علىٰ السواحل الإسلامية، وهم في الطريق إليها، حتىٰ تمكنهم من رقاب المسلمين.. فهل يُعاد التاريخ نفسه اليوم، ذٰلك أن اختلاف التسميات في كثير من الأحيان لا يغير شيئاً من حقيقة المسمّىٰ..

أما **الورقة الثالثة**: فكانت عن الغزو المغولي التتري المدمر ـ أو بعضاً من أخباره ـ الذي جاء ليقضي علىٰ البقية الباقية من حراك الجسم الإسلامي والفكر الإسلامي، فماذا كانت النتيجة؟

❋ ❋ ❋

القرامطة في مكة المكرمة..

حجّ بالناس في هٰذه السنة (٣١٧هـ) منصور الديلمي، وسار بهم من بغداد إلىٰ مكة، فسلموا في الطريق، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية، فنهب أموالهم واستباح قتالهم، فقتل في رحاب مكة وشعابها، وفي المسجد الحرام، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً، وجلس أميرهم أبو طاهر، لعنه الله، علىٰ باب الكعبة، والرجال تصرع حوله، والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام يوم التروية، الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول:

«أنا الله وبالله، أنا أنا أخلق الخلق وأفنيهم أنا..».

فكان الناس يفرُّون منهم، فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذٰلك عنهم شيئاً، بل يقتلون وهم كذٰلك، ويطوفون فيقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضىٰ طوافه أخذته السيوف..

فلما قضىٰ القرمطي، لعنه الله، أمره وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة، أمر أن تدفن القتلىٰ في بئر زمزم، ودفن كثير منهم في أماكن من الحرم وفي المسجد الحرام.. لم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يصلِّ

عليهم لأنهم محرمون.. وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها، وشقها بين أصحابه، وأمر رجلاً أن يصعد إلىٰ ميزاب الكعبة فيقتلعه فسقط علىٰ أم رأسه فمات إلىٰ النار.. ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، فجاء رجل فضربه بمثقل في يده، وقال: أين الأبابيل، أين الحجارة من سجيل، وأخذوه حين راحوا معهم إلىٰ بلادهم، فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة..

وإنما حمل هٰؤلاء علىٰ هٰذا الصنيع أنهم كفار زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هٰذه السنة ببلاد أفريقية من أرض المغرب، ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح، وقد كان صباغاً بسلمية، وكان يهودياً فادعىٰ أنه أسلم ثم سافر من سلمية فدخل بلاد إفريقية، فادعىٰ أنه شريف فاطمي.. وكان القرامطة يراسلونه ويدعون إليه ويترامون عليه[1]...

فماذا كانت النتيجة؟ لقد احترقت الورقة القرمطية وعاد المسلمون إلىٰ الاعتزاز بإسلامهم، وكانت المشروعية العليا في حياتهم للكتاب والسنّة، واعتبرت فترات الخروج والرفض من الفترات المرضية التي مرت بها الأمة، وليس من المستغرب ـ ونحن نعاني ما نعاني ـ ظهور القرامطة الجدد الذين يمارسون التشويه والعدوان علىٰ تاريخ الأمة، وتُدرس الحركة القرمطية في بعض جامعات العالم الإسلامي علىٰ أنها ثورة تقدمية رائدة؟!



الصليبيون في بيت المقدس..

«وملكوها ضحوة نهار يوم الجامعة لسبع بقين من شعبان (٤٩٢هـ) وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل الفرنج بالمسجد الأقصىٰ ما يزيد علىٰ سبعين ألفاً، منهم جماعة كبيرة

(١) الحافظ ابن كثير «البداية والنهاية» (١١/ ١٦٠ ـ ١٦١).

من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم.. وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة، وأخذوا تنوراً من فضة، وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا ما لا يقع عليه الإحصاء»[1].

«استباح الفرنجة بيت المقدس، وأقاموا في المدينة أسبوعاً ينهبون ويدمرون، وأحصي القتلىٰ بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد والزهّاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون..»[2].

«كان قومنا يجوبون، كاللبوات التي خطفت صغارها، الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل، فكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إرباً، وكانوا لا يستبقون إنساناً، وكانوا يشنقون أناساً كثيرين بحبل واحد بغية السرعة.. وكان قومنا يقبضون علىٰ كل شيء يجدونه فيبقرون بطون الموتىٰ ليخرجوا منها قطعاً ذهبية، وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث... ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر، فأمر بضرب رقاب عجائزهم وشيوخهم وضعافهم، وبسوق فتياتهم وكهولهم إلىٰ أنطاكية ليباعوا فيها..

لقد أفرط قومنا في سفك الدماء في هيكل سليمان، فكانت جثث القتلىٰ تعوم في الساحة هنا وهنالك، وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها، فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها، وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يطيقون رائحة البخار المنبعثة من ذٰلك إلا بمشقة..

وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء تذبيح أهالي القدس قاطبة، فانهمكوا في كل ما يستقذره الإنسان من ضروب السكر والعربدة..»[3].

---

(١) «الكامل» (٢٨٣/١٠ وما بعدها) لابن الأثير، و«البداية والنهاية» (١٥٦/١٢ وما بعدها) لابن كثير.

(٢) «العبر» (١٨٤/٥) لابن خلدون.

(٣) غوستاف لوبون «حضارة العرب» (٤٠٠ وما بعدها).

«حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة، وكان دم المقهورين يجري في الشوارع، حتىٰ لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون، وعندما أرخىٰ الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من شدة الفرح، وخاضوا الدماء التي كانت تسيل كالخمور في معصرة العنب، واتجهوا إلىٰ الناووس، ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء للّه شكراً. .»[١].

«وتحركت جموع الصليبيين بعد أنطاكية تجاه بيت المقدس، وفي الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة، وهم قوم أشداء، ومقاتلون بواسل، فأسدىٰ هٰؤلاء إليهم خدمات جليلة لمعرفتهم تلك المنطقة، فكانوا الأدلاء لهم. .»[٢].

وحتىٰ إذا أطلت طلائع الصليبيين أمكن الموارنة أن يمدوهم بثلاثين ألف نبال، أجمع الفرنجة علىٰ الإعجاب لشجاعتهم ومهارتهم. . فالمارونية بنت لبنان، ولبنان في الكثير من مزاياه وخصائصه صنع المارونية. . فلا وطن لها سواه، ولا كيان له بدونها[٣]. . .

❋ ❋ ❋

هولاكو في بغداد..

«ووصل بغداد ـ هولاكو خان ـ بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة الظالمة الغاشمة، ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، فأحاطوا ببغداد من ناحيتها الغربية والشرقية، وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة، لا يبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش، كلهم قد صرفوا، وذٰلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي. . لهٰذا كان أول مَن برز إلىٰ التتار هو، فخرج

---

(١) Wells: «A Short History of the Middle East» P:74.

(٢) «Willism of Tyrd» Vol:2, p:429.، و«موسوعة التاريخ الإسلامي» للدكتور أحمد شلبي (١٩٣/٥ وما بعدها).

(٣) فؤاد أفرام البستاني في محاضرته عن مار مارون «التبشير والاستعمار»: (٢٨).

بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة، فخرج الخليفة في سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان..

وأحضر الخليفة بن يدَيْ هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: إنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأىٰ من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلىٰ بغداد وفي صحبته المولىٰ نصير الطوسي والوزير ابن العلقمي، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة.. وقد أشار أولٰئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين علىٰ هولاكو أن لا يصالح الخليفة.. وحسّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلىٰ هولاكو أمر بقتله، ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولىٰ نصير الطوسي، وكان الطوسي عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، ليكون في خدمته كالوزير المشير.. وقتل الخليفة، فباؤوا بإثمه وإثم مَن كان معه من سادات العلماء والقضاة والأكابر والرؤساء والأمراء..

ومالوا علىٰ البلد فقتلوا جميع مَن قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان.. وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلىٰ الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون إلىٰ أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطحة حتىٰ تجري الميازيب من الدماء في الأزقة.. وكذٰلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينجُ أحد منهم سوىٰ أهل الذمة من اليهود والنصارىٰ ومَن التجأ إليهم وإلىٰ دار الوزير ابن العلقمي.. وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف وجوع وذلة وقلة.. وقد اختلفت الناس في كمية مَن قُتل ببغداد من المسلمين في هٰذه الوقعة، فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمائة ألف، وقيل: بلغت القتلىٰ ألفي ألف نفس.. فإنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

---

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» (١٣/٢٠٠ وما بعدها).

«استولىٰ المغول علىٰ بغداد سنة (٦٥٦هـ) (١٢٥٨م) فخربوها، وخنقوا الخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله، ونهبوا ما في بغداد من الأموال، وحرقوا كتبها التي جمعها محبو العلم، وألقوها إلىٰ نهر دجلة، فتألف منها جسر كان يمكن الناس أن يمروا عليه رجالاً وركباناً، وأصبح ماؤه أسود من مدادها، كما روىٰ قطب الدين الحنفي..

ولٰكن أولئك الوحوش الضارية الذين أحرقوا النار في المباني وحرقوا الكتب وخربوا كل شيء نالته أيديهم، خضعوا لسلطان حضارة العرب في نهاية الأمر، حتى إن هولاكو الذي أمر بهدم بغداد وبجر جثة آخر العباسيين تحت أسوارها بهرته عجائب حضارة العرب..

ففي المدرسة العربية تمدن المغول، فاعتنقوا دين العرب وحضارتهم.. وأقاموا في بلاد الهند دولة قوية عربية المناحي، فأحلوا بذٰلك حضارة العرب محل حضارة الهند القديمة، فترىٰ سلطان حضارة العرب بادياً في الهند حتىٰ اليوم..»[١].

«كان للغزو المغولي عنف الإعصار وشدته، فأحرق بغداد، وعلا شعار الصليب علىٰ منابر المساجد، فالأخبار التاريخية تروي أن زوجة هولاكو كانت نصرانية، وأن النصرانية كان لها انتشار بين المغول، كما كانت هناك صلات بين المغول والصليبيين.. وقد ظهر أثر هٰذا التحالف عند دخول المغول بغداد، فلم يتعرضوا للنصارىٰ من أهلها بسوء، بل كانت بعض بيوتهم مأمناً التجأ إليها بعض المسلمين فنجوا من الهلاك علىٰ حد رواية ابن الفوطي!! بل بلغ الأمر حدًّا أكبر من ذٰلك عندما منح هولاكو بطريرك النساطرة قصراً من قصور الخليفة اتخذه مقراً وكنيسة وأغدق عليه العطايا..»[٢].

(١) غوستاف لوبون «حضارة العرب»: (٢٢٣).
(٢) رانسمان «الحروب الصليبية» (٥٥٢/٣).

وبعـد:

هٰذه الصور المأساوية التي عرضنا لها من خلال الأوراق الثلاثة وتركنا أمر الدراسة والاستنتاج والتعرف علىٰ الجذور التاريخية للقضايا التي نعاني منها اليوم للأخ القارئ دون مداخلة منا تذكر، نقول: هل استطاعت هٰذه المحن تدمير الأمة المسلمة وإنهاءها إلىٰ غير رجعة، أم أن الأمة استطاعت أن تتجاوز المحن وتجدد شبابها في كل مرحلة؟!

ونحن علىٰ يقين بأن الله سوف يهيئ لدينه مَن يحمله ويدافع عنه، وأن أسلحة الغزو الفكري والاجتياح العسكري سوف تسقط في يد أصحابها، فقد عجز الغزو الفكري، كما فشل الغزو العسكري تاريخياً، في تحطيم أفكار الأمة المسلمة وإلغاء شخصيتها الحضارية..

وكان القرآن الكريم هو القوة الفاعلة، والحصن الثقافي الذي حفظ الأمة من الذوبان، والقوة التي تعين علىٰ الثبات والمقاومة في حالات الغلبة والاضطهاد.

***

أجداد وأحفاد

لقد ارتكب يهود من الفظائع علىٰ مسلمي لبنان ما يعز عن الوصف، ولم نحس نحن تجاههم بواجب الأخوة، بل كنا دون سوية الموقف الإنساني، واكتفينا من الواجب بمهمة المراسل الحربي الذي تخضع تقاريره للرقابة أيضاً!! حتىٰ إن الكثيرين منا، الذين تعوّدوا الأكل بالقضية، لا يزالون إلىٰ الآن يحاولون الصعود علىٰ جثث أصحابها!!

إن عملية تهميش القضية الفلسطينية خطط بذكاء ودهاء، ونفذ علىٰ مراحل، فمن قضية فلسطين، إلىٰ مشكلة لاجئين، إلىٰ قضية الشرق الأوسط، إلىٰ أمن إسرائيل.. وهٰكذا تتضاءل وتهمش القضية شيئاً فشيئاً حتىٰ تصبح قضية بيروت الغربية وإخراج الفلسطينيين حفاظاً علىٰ أرواح

الناس، أما دخول اليهود وقتلهم الناس بالجملة واستباحتهم لكل شيء فلا علاقة له بالأرواح؟!

إن أمر المزايدات في السوق السياسية والعقائدية ليس جديداً علىٰ أمتنا.. فعبد الله بن أبي ابن سلول، زعيم النفاق والمنافقين، كان يصلي في الصف الأول، وهو الذي تولى كبر الإفك، كما هو معلوم، فإذا وجد ابن أبي في عصر النبوة حيث الوحي يفضح المنافقين وأساليبهم، ويكشف للرسول ﷺ أسماءهم، فإن في تاريخ القضية الفلسطينية وتاريخنا الحديث من أحفاد ابن سلول ما لا يمكن حصرهم..

ومع ذٰلك، فنحن علىٰ يقين بأن الشدائد والمحن تصنع الرجال، وتبصر الأمة بأعدائها الحقيقيين، وأن اشتداد التحدي يصقل الرجال، ويقيم الحضارات، ويقضي علىٰ الخلايا الشائخة في الأمة وينهي دور الجيل الرخو... وأن صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، ولد في ظلال الاحتلال الصليبي الجاثم بكلكله علىٰ البلاد منذ زمن، وهو الذي كان استنقاذ القدس علىٰ يديه.. وأن نبي الله موسىٰ عليه الصلاة والسلام تربّىٰ في قصر فرعون، وكتب الله علىٰ يديه تدمير القصر وإنهاء الظلم فيه، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] وأن في تاريخنا من المحن والبلايا ما يكفي للدلالة علىٰ قدرة هٰذه الأمة علىٰ تجاوز المحن والشدائد..

فهل نعي الدروس ونستفيد من العبر، فالعاقل مَن يعتبر بغيره والأحمق مَن يكون عبرة لغيره.

ذو الحجة ١٤٠٢هـ ـ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٢م

❑❑❑❑❑❑

حتىٰ لا نُهزم حضاريًا

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

[آل عمران: ١٣٩]

الموضوع الذي نريد أن نعرض له ليس أمراً منقطعاً عما سبق من المعالجات في إطار ما أسميناه «المشكلة الثقافية» التي نعاني من آثارها علىٰ كل المستويات، بل لعله في صميم القضية التي نتحدث عنها، وإن كان يشكل الوجه الآخر لها، وقد يكون الأكثر بروزاً وإلحاحاً الآن.

وكان مما ألمحنا إليه في أكثر من مناسبة: أن العالم الإسلامي علىٰ الرغم من الكوارث والنكبات والنكسات التي حلّت به تاريخياً، وما رافقها من وسائل التدمير والهمجية، بقي قادراً علىٰ الاحتفاظ بانتمائه للإسلام، موقناً بأنه الطريق الوحيد للوصول إلىٰ تحقيق الأهداف ومواجهة الاحتلال علىٰ كل الأصعدة، وإن كان قد افتقد في بعض الأحيان التزامه بالإسلام، فأفقده ذٰلك القدرة علىٰ الصمود والمواجهة العسكرية؛ وكان هٰذا الانتماء دائماً مرتكز القادة والمفكرين والمصلحين ودعاة التجديد وحاملي لواء التحرير، وما إن عاد الإسلام للأمة، أو عادت الأمة للإسلام بفاعلية والتزام حتىٰ كان درعها الواقية، وحربتها النافذة، واستطاعت به أن تقف أمام العسكر المغولي والغزو الصليبي ـ الذي كان قادراً علىٰ أن يهزمها عسكرياً ويحتل أرضها ـ لٰكنه ظلّ عاجزاً عن أن يُلحق بها الانتكاسة النفسية والهزيمة الحضارية، وكثيرة هي البلاد الإسلامية التي هُزمت سياسياً، واحتُلت عسكرياً، وبقي لها الإسلام علماً وحضارة وثقافة وانتماء، الأمر الذي مكّن

لها من الصمود، وأعانها على النهوض والمواجهة من جديد..

وكانت هذه القضية موضع دراسة وتفكير وتركيز وتحليل لاكتشاف مكامن القوة الحقيقية التي ترتكز عليها الأمة الإسلامية، وكان لا بد من إيجاد وسائل جديدة باستمرار بعد استبانة خطأ وعجز كل الوسائل السابقة، ولقد اعترف كثير من المفكرين والباحثين في مكونات الأمم، وأسباب نهوضها وسقوطها، والقوانين التي تنتظم الدورات الحضارية، أن حساباتهم لم تنطبق على الإسلام كدين له ثقافته وحضارته، والمسلمين كأمة تنتمي له سواء التزمت به، أو ضعف التزامها به، ولا يزال هذا الأمر محيراً، والحسابات له تفاجأ بكثير من الخطأ، ابتداءً من العصر الأول، وانتهاءً بالواقع الحالي...

فعمر بن الخطاب ﷺ، الذي ذهب غاضباً لقتل أخته وصهره اللذين أسلما، عاد من رحلته مسلماً، أعزّ الله به الإسلام، وتحدّى الشرك والمشركين...

❋ ❋ ❋

طرائق جديدة للقضاء على الالتزام بالإسلام

وكثيرة هي البلاد الإسلامية التي فُرضت عليها «أيديولوجيات» معينة بقوة السلاح، وتوهم أصحابها أنها استجابت لها عندما رأوها ساكتة لحماية نفسها من البطش والحصول على لقمة العيش، ثم ما لبثت أن عادت لإسلامها عند أول فرصة سنحت... وليست حركة اليقظة الإسلامية التي انبعثت في العصر الحديث ـ بعد إسقاط الخلافة، وإيجاد البدائل الفكرية، والظن بأن القضية الإسلامية ذهبت إلى غير رجعة ـ إلا الشاهد الجديد على أن الحسابات الماضية عن عالم المسلمين أخطأت كلها، وباتت عاجزة عن الوصول إلى النتائج المرجوة، فكان لا بد من وسائل جديدة تقضي على الالتزام بالإسلام والانتماء له معاً، وذلك بإعداد جيل عاقّ للإسلام ثمرة للمدرسة الاستعمارية، وضحية للغزو الفكري...

ونستطيع أن نقول: إن القضية الفلسطينية بكل تطوراتها، وصورها، وآثارها المختلفة، وطروحاتها الكثيرة، والتحولات الكبرىٰ التي حكمت مساراتها هي: الساحة الأحدث التي انتهىٰ إليها الاستعمار، وصبّ فيها كل تجاربه وخبراته التاريخية ووسائله المختلفة، وتحدياته المتعددة، ولا شك أن هٰذه الساحة، تمكن لنا ـ لو كنا علىٰ مستوىٰ قضايانا ـ أن نستقرئ صورة أعدائنا، ونتبين وسائلهم، ونحدد مواقعهم، وندرك أهدافهم..

وقد يكون صحيحاً إلىٰ حد بعيد ـ ونحن نعاني اليوم في كثير من قطاعات الحياة من فقدان الانتماء للإسلام والالتزام به، ونعيش مرحلة الضياع والتمزق والتخلف ـ قد يكون صحيحاً أن الإنسان في مراحل التخلف، ومناخ التخلف، يصبح عاجزاً عن الإبصار والاعتبار؛ ولٰكن المحقق أيضاً أن التحدي الثقافي والحضاري، والانكسار العسكري يوقظ الحس، ويلهب المشاعر، ويذكي الروح، ويعيد الانتماء، ويدفع إلىٰ الالتزام، ويجمع الطاقات النفسية والمادية لتبدأ عملية الإقلاع من جديد.

إن القضية الفلسطينية بكل أبعادها ما تزال هي القضية المركزية للأمة العربية الإسلامية علىٰ مدىٰ نصف قرن من الزمان، ولعلها تعتبر من التحولات الكبرىٰ في تاريخ المسلمين الحديث بعد إسقاط الخلافة، إن لم تكن ثمرة لها، ذٰلك أن الكثير من المعاني التي حكمت «المسألة الشرقية» وتحكمت بها تكاد تكون هي العوامل نفسها التي تحكم قضية «الشرق الأوسط» وتتحكَّم فيها، مع بعض التصرف بالأسماء والمسميات، الأمر الذي لا بد منه للتحضير للقضية نفسها.

ولقد كثرت القراءات والدراسات والتعليلات والتحليلات والتقويمات لهٰذه القضية الخطيرة، وسادت شعارات للتحرير، وبادت شعارات أخرىٰ، ولعل كثيرين ممن يمتلكون القراءة الصحيحة والصادقة للصورة لم يدلوا بآرائهم، واكتفوا بالقراءة الصامتة، لأن صوتهم غير مسموع، أو لأنه لا يسمح لهم برفع أصواتهم، فقد أسكتها يهود بشكل أو بآخر... حتىٰ أصبحت القضية تشبه إلىٰ حدٍّ بعيد المرض المتوضع المزمن الذي تتعدد معه

الأدوية والتجارب التي تتأتىٰ ثمرة لليأس، ولا تكون علىٰ بصيرة. . .

والعالم العربي الإسلامي يعيش الآن أكثر من أي وقت مضىٰ فترة التلاوم علىٰ الإفراط من بعض مَن تصدوا لحل القضية والتفريط من بعضهم الآخر، وإسرائيل تخضع كل القضايا للدراسة والاختبار والتحليل، والتعرف علىٰ واقع المنطقة وثقافاتها وإمكاناتها، ومن ثم ترسم المدخل الصحيح للتعامل معها. . .

ومن الأمور التي أصبحت من المسلمات أن يهود درسوا، ولا يزالون يدرسون تاريخ المنطقة وفكرها، وموجات الغزو التي مرت عليها، والمواقع التي يمكن أن تنطلق منها المقاومة، ويستطلعونها، ويتجنبون أخطاء الغزاة السابقين، خاصة الصليبيين منهم الذين احتلوا بيت المقدس، ولم يخف يهود حقيقة هامة هي: أن مراكز المقاومة الإسلامية والمواقع الإسلامية الفكرية التي تمثل القيادة الحقيقية للأمة هي مكمن الخطر بالنسبة لهم، فكان لا بد من القضاء عليها، وما ترافق الإصابات الإسلامية علىٰ مختلف المستويات للاحتلال اليهودي الفكري والعسكري إلا مصداق ذٰلك. . .

القضية وما فيها، كما يقال: إن إسرائيل تنتهي إلىٰ الموقف بعد استيعاب ودراسة وتحليل ودراية للصورة بجوانبها المختلفة، وتتحين الظروف المناسبة، وتستفيد من الدرس التاريخي والتجارب السابقة في المنطقة. . . أما نحن العرب فإننا نسارع إلىٰ اتخاذ الموقف بعيداً عن إمكاناتنا وإمكانات عدونا، وما نستطيع وما لا نستطيع بمزيد من الانفعال والعاطفية، ثم نبدأ بمحاولة الاستيعاب، وذٰلك بدراسة أسباب الموقف وأبعاده والآثار المترتبة عليه، وقبل الانتهاء من ذٰلك واختباره بشكل صحيح ينقلنا العدو إلىٰ موقع آخر وموقف جديد لنبدأ مرة أخرىٰ عملية التفتيش عن أسبابه ومسوغاته ومدىٰ ملاءمته. . . وهٰكذا قامت سياسة إسرائيل علىٰ الأخذ بزمام المبادهة، والقدرة علىٰ تحريكنا من موقع إلىٰ آخر بإرادتنا تارة، وبدفعنا إلىٰ ذٰلك في كثير من الأحيان، وهٰكذا يستمر التغيير في قائمة الممكن والمستحيل ابتداءً من الاحتلال وحتىٰ هٰذه الساعة. . . ولعل الدراسة والتحليل يعطي العدو

تقديراً مسبقاً للموقف الذي يمكن أن يكون عليه العرب، ومدىٰ قدرتهم علىٰ استيعابه وتمثلهم له، وهنا يزداد حجم المأساة، وتكبر صورة الإحباط، ويبدأ فريق من الناس بطرح قضية الممكن والمستحيل في التعامل مع يهود، ويلبسونها ثوب العقلانية وبلوغ مرحلة الرقي الحضاري تارة، وتسويغ الواقع الاحتلالي باسم الواقعية تارة أخرىٰ. . .

وقد يظن بعضنا، ويكون ظنه عن حسن نية، أننا فوّتنا الممكن الذي كان بمقدورنا الحصول عليه من يهود في سبيل طلب المستحيل؛ والذي ينظر إلىٰ تطورات القضية نظرة سريعة متعجلة قد يرىٰ هٰذا الرأي، ويذهب هٰذا المذهب، إلا أن الذي يتجاوز بنظرته الصورة إلىٰ الحقيقة، تتبدىٰ له حقيقة علىٰ غاية من الأهمية والخطورة، وهي: أن إسرائيل كانت علىٰ معرفة كاملة بالموضوع من خلال قراءة ردود الفعل العربية، ومدىٰ قدرة العرب علىٰ استخدام إمكاناتهم، وكانت تبني موقفها علىٰ الرفض العربي المقدّر سلفاً، ولولا هٰذا التقدير لتغير طرح إسرائيل للحلول أصلاً، إنها تعتمد الرفض العربي عندما تقدم لهم لائحة الممكنات، فإذا راجع العرب موقعهم، وقبلوا ما كان مرفوضاً مسبقاً، عادت إسرائيل إلىٰ استبدال لوائح التنازلات ليصبح الممكن مستحيلاً: فما كان ممكناً في مرحلة ما غدا الآن مستحيلاً، ولو كنا مهيئين في حينه لقبوله، أو كانت استطلاعات الرأي عند إسرائيل تفيد بقبوله لما طرح أصلاً، فنعيش فترة التلاوم كما قدّمنا، وتستمر مرحلة الوهن والعد التنازلي، ويقف بعضنا ليبكي علىٰ الأطلال، وإسرائيل ماضية في بناء أطلال جديدة للعرب، ومستوطنات جديدة لليهود. . .

❋ ❋ ❋

صراع ديني حضاري بحماية عسكرية

إن الغزو الإسرائيلي الذي يشكل أحدث حلقة في الغزو الاستعماري التاريخي لعالمنا الإسلامي ليس عملاً عسكرياً استيطانيًا فحسب، وإنما هو غزو فكري ثقافي، وصراع ديني حضاري بحماية عسكرية وعنصر بشري

استيطاني مزود برؤية دينية توراتية وتفوق تكنولوجي عالمي... من هنا فإنه يختلف عن الحملات الصليبية والغزو الاستعماري التاريخي كله الذي مرّ بالعالم الإسلامي.

وإن نظرة بسيطة علىٰ مناهج التعليم في الأرض المحتلة، والصور المشوهة التي تقدمها الخطة التعليمية عن الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي، التي تقدم للطلبة المسلمين، والتهويد الثقافي الذي تمارسه مؤسسات التعليم والإعلام صباح مساء.. ترينا أن العملية أخطر بكثير من احتلال الأرض، ذٰلك أن احتلال إسرائيل للنفوس هو الذي يمكنها دائماً من احتلال الأرض، وإذا لم نستطيع إخراج إسرائيل من نفوسنا، بالقيام بعملية تنقية ومطاردة لصور التهويد في حياتنا، فسوف لا نستطيع إخراجها من أرضنا...

إن عملية التهويد في الأرض المحتلة، وحذف أية كلمة في مناهج التعليم تتعرض ليهود، أو تتكلم عن أخلاقهم أو مواقفهم التاريخية، والتطبيع الثقافي في الأراضي المرشحة للاحتلال هو المطلب الإسرائيلي الأول في المعاهدات والمفاوضات قبل الأمن وقبل الانسحاب... إنها تستعمل العسكرية وسيلة لا بد منها لفتح الطريق أمام الغزو الثقافي، ولفتح الخروق في الحياة الثقافية الإسلامية لتبدأ عملية الانهيار النفسي بعد انهيار الجدار العسكري...

إن إسرائيل تدرك هٰذا تماماً، وتعمل له، وتعتبره في رأس قائمة المطلوبات، والمفاوضات التي جرت في لبنان بعد الغزو هي الصورة الأحدث حيث تقرر إسرائيل أن مسألة تطبيع العلاقات يجب أن تُبحث قبل الأمن، وقبل الانسحاب، لأن الحكومة الإسرائيلية تعلق علىٰ ذٰلك أهمية بالغة وتجتمع له، في الوقت نفسه تقدم المدرسين لتعليم اللغة العبرية في مدارس جنوبي لبنان، وتطلب إلىٰ أعضاء الكنيست تلقي دروساً باللغة العربية استعداداً لمرحلة ما بعد الصلح، وتنظم لهم دورات تستمر ثلاثة أشهر، ويؤكد وزير المعارف «زفلون هامر» في كلمته أثناء افتتاح الدورة الأولىٰ أهمية تعلم اللغة العربية خاصة بعد توقيع معاهدات

السلام، ويقول: «إنه يأمل أن يحذو الإسرائيليون حذو أعضاء الكنيست في تعلمها...».

***

احتلال عالم الأفكار

ويذهب المتخصصون من العلماء والباحثين والمفكرين والمنظرين إلىٰ معسكرات الاعتقال (معسكر أنصار) ويبدأون إجراء دراسة علىٰ الشباب الفلسطيني المعتقل لتوظيفها كمعلومات توضع في حساب المخططين للمنطقة، وفي مقدمة الأسئلة طبعاً: رصد التوجه الإسلامي، ورأيهم في الإسلام ومدىٰ اقتناعهم به؛ أما ممارساتها في جامعات الأرض المحتلة، والمناهج التي تعتمد تاريخ الفتن في الأمة الإسلامية فبات أمراً معروفاً...

إن الواقع النفسي اليوم يختلف عنه في معاركنا السابقة جميعاً، ونحن هنا لا نريد أن نعيد ما قيل في أعقاب هزيمة عام ١٩٦٧م: من أن إسرائيل لم تحقق أهدافها من الغزو حيث احتلت الأرض ولم تحتل الإرادة، ولم تسقط الأنظمة في ذٰلك الوقت!! وإنما من الأمور التي أصبحت حقيقة تاريخية أنه إذا سلم للأمة عالم أفكارها وثقافتها، فقد سلم لها كل شيء علىٰ المدىٰ البعيد مهما كانت الضربات موجعة، والهزائم العسكرية منكرة، ومهما انتقص العدو من أرضها ومالها وأشيائها، صحيح أن الأشياء تأتي ثمرة لوجود الأفكار وحصيلة لها، وأن عالم الثقافة والأفكار إذا كان سليماً معافىٰ يحول دون انتقاص الأشياء، وأن قدرة العدو علىٰ انتقاص الأشياء واحتلال الأرض يعني فيما يعني الخلل والضمور والغياب أو التمزق في عالم الأفكار... وأن الاحتلال والاستعمار لا يكون إلا بوجود القابلية له والاستعداد لاستقباله، وأن الوسيلة الوحيدة لمواجهته إنما تكون باستشعار التحدي وإيقاظ عالم الأفكار، وإعادة بنائه...

لذٰلك نستطيع أن نقول: إن أعداء الأمة من يهود وغيرهم فكروا بالموقع الآخر، وهو احتلال عالم الأفكار... وقد يحال بين الأمة

واستخدام قوتها في المواجهة بسبب من عجز أو تمزق أو عدم وجود قيادات قادرة علىٰ تجميع الطاقات وحسن استخدام الإمكانات، وعدم وضعها في الزمان والمكان المناسب، فلا يبقىٰ لها والحالة هٰذه، إلا الاعتصام وحماية عالم أفكارها حتىٰ تتاح لها فرصة استرداد الأرض والتخلص من آثار العدوان.

من هنا نستطيع أن نقول: لا بد أن تدرك الجماهير المسلمة ـ وقد تكون هٰذه التوعية مهمة القيادات الفكرية في العالم الإسلامي ـ خطر التهويد الثقافي وآثاره البعيدة علىٰ الأمة، في الوقت الذي حيل بينها وبين المعركة، ونجح عدوها في إبعاد الإسلام عن أرض المعركة في هٰذه المرحلة بالذات... الأمر الذي لم يعد خافياً علىٰ أحد، لأن استمرارالعدوان مرهون بإبعاد الإسلام.

إن مهمة الجماهير المسلمة ومسؤوليتها تتوحد الآن بإقامة الدفاعات الفكرية، والتحصين الثقافي، وحماية الأمة من التذويب والذوبان، وعزل الهزيمة العسكرية وتهميشها وتحجيمها للحيلولة دون بلوغها هدفها ومرماها بأقل قدر ممكن من الضحايا، وفي تاريخ المسلمين الوقائع الكثيرة التي هزم فيها المسلمون عسكرياً وبقي الإسلام ثقافة وحضارة وعلماً ودرعاً واقية..

وما تجربة الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهي من أحدث التجارب تقريباً، وجمعية العلماء المسلمين في الجزائر عنا ببعيد، فلقد دخلت فرنسا الجزائر مستعمرة منصرة مفرنسة، واستمر احتلالها أكثر من مائة وثلاثين عاماً، تعتبر الجزائر قطعة منها وتطبق عليها القوانين الفرنسية، ومناهج التعليم الفرنسية، وتحاول إلغاء عروبة الجزائر وإسلامها، وكانت المواجهة مع كتاتيب «ابن باديس» في السهول والجبال والقرىٰ والمدن، هي التي حمت عربية الجزائر وإسلامها بعد ستة أجيال نشأت في ظل الغزو الثقافي والاحتلال العسكري تقريباً... فهل ندرك الحقيقة، ونلتزم بالإسلام، ونستشعر المسؤولية، ونؤدي الواجب، ونحول دون الهزيمة النفسية، والغزو الثقافي، والسقوط الحضاري؟!!...

جمادىٰ الأولىٰ ١٤٠٣هـ ـ شباط (فبراير) ١٩٨٣م

ألا هل بلّغت
اللهم اشهد

(... فليبلغ الشاهد الغائب... فرُبّ مبلَّغٍ أوعىٰ من سامع)

[حديث شريف]

لا شك أن العبادات، بما فيها الحج، هي أشبه ما تكون بمحطات يتزود فيها المسلم بطاقات تضمن له ديمومة تغلب دوافع الخير علىٰ نوازع الشر، وهي وسائل لتحقيق الخضوع والعبودية للّه تعالىٰ، وبناء المسلم ذي السلوك المتميز الذي ينتقل بالعبادة من موقع يعاني الضعف والهبوط البشري إلىٰ موقع صاعد في مجال السمو والارتقاء، فهو بعد العبادة إنسان آخر، وإذا لم يتحصل ذٰلك فالعبادة لم تتحقق غايتها، ولم تؤت ثمرتها، ولم يحسن الإنسان الانتفاع بها، فمَن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فليس له منها إلا القيام والقعود؛ ومَن لم يدع قول الزور والعمل به فليس للّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه؛ ومَن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه... و﴿... **ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ** ...﴾ [البقرة: ١٩٧].

ولا شك أن لكل عبادة من العبادات مدلولها وأثرها في بناء الفرد المسلم وصناعة سلوكه وإلا لاكتفي بعبادة واحدة، ولاكتفي من العبادة الواحدة بنسك واحد، فالصلاة وقوف بين يدَي الله، واستشعار للمراقبة والمسؤولية في زحمة الممارسات اليومية، وما يمكن أن يكون من الغفلة

والجنوح... والزكاة وقاية من نزعة الشح التي تتلبس نفوس الأغنياء فتحملهم علىٰ الاستغناء وكفران النعمة، وتنتهي إلىٰ الصراع الاجتماعي وإنهاك المجتمع، وانعدام التكافل الاجتماعي... والحج معايشة لقضية التوحيد، وترسم خطا النبوة، وحياة في مهبط الوحي، ولو مرة في العمر، ونقل للتاريخ من الوراء، من الماضي، إلىٰ الأمام ليصبح الحاضر المشاهد، وتكون الممارسة العملية.

وكثيرون في عالمنا الآن الذين يحاولون ممارسة المعاناة نفسها التي عاشها الزعماء والمصلحون الذين استطاعوا تحقيق النقلة، وتغيير المجتمعات، وإعادة صياغة الإنسان... ونسمع كثيراً عن الذين يحاولون استعادة التاريخ، وخاصة منعطفاته الكبرىٰ، فيصمم بعض الأوروبيين علىٰ السير في طريق الحملات الصليبية وبالوسائل نفسها، وتتبع درب المسيح، وتقمص الشخصيات التاريخية...

❋ ❋ ❋

مسلم عصر التخلف

فالحج بالنسبة للمسلم فريضة العمر، وهو الحياة علىٰ أرض النبوة نفسها، وإقامة المناسك نفسها أيضاً، والذي لا بد من الاعتراف به أن العبادات في عصور التخلف والوهن تنقلب إلىٰ عادات ذات رسوم وأشكال تحكمها الآلية والتكرار وتنعدم فاعليتها لتصبح خالية من أي معنىٰ، حتى إن بعضهم صار يتساءل عن جدواها لأنه لا يشعر بأي تبدل في موقعه قبل أدائها وبعده، أو في مواقع كثير من الذين يؤدونها...

كما أن القيم في عصور التخلف والوهن أيضاً تنقلب إلىٰ شعارات تعلو بها الأصوات، وتسقط معها الهمم، وتخبو قدرات التغيير، ويظن معها أن حل المشكلات يستدعي مزيداً من الصراخ والعويل والاحتجاج، فيتوقف الفعل ويعم الانفعال، وتحصل حالة من فقدان التوازن الديني فيستغرق الناس في صور من العبادات تشكل لهم مهارب نفسية هي أقرب إلىٰ البدع

والخرافات، منها إلىٰ الدين بصفائه ونقائه وعطائه وفاعليته.

وقد تزداد الأمور سوءاً، فيمارس مسلِم عصر التخلف فصل الحياة عن الدين عملياً، ولو لم يعترف بذٰلك، فإما أن يهرب من الحياة إلىٰ لون من العبادة والذكر يظنها البداية والنهاية، وتتضخم عنده بعض التصورات فلا يرىٰ سواها، ويُقَوِّم سلوك الناس علىٰ ضوئها، وإما أن يمارس الحياة ممارسة عادية كسائر الناس الذين لا صلة لهم بالإسلام، ويقعد عن سائر واجباته، ولا يختلف في معاملاته عن غيره، ويظن أنه يكفر عن ذٰلك بصيام نفل، أو بتكرار حج، أو بمتابعة تلاوة أو حلقة ذكر، يتساهل بحماية الثغر الذي أقامه الله عليه، وقد يدع إتقان العمل وممارسة التفوق في الاختصاص، وأداء حقوق الناس إلىٰ صور من التدين يختارها هو...

إنه الاطمئنان الخادع، والتدين المغشوش، وعدم الاستشعار بالمسؤولية، وفقدان التوازن الديني، إن صحّ التعبير، وغياب التوتر الإيماني والقلق السوي الذي يصوب المسار، وتبدأ علمية تفسير النصوص الإسلامية والتعامل معها من خلال هٰذه المواقع المتخلفة؛ ويتملك الإنسان العجب، ألسنا نصلي كما كان الصحابة يصلُّون، ونصوم كما يصومون، ونحج كما يحجون؟! أليس هٰذا هو القرآن الذي نزل علىٰ صحابة رسول الله ﷺ فصنع منهم ما صنع؟!..

إن القرآن هو القرآن، لٰكن الفهم غير الفهم، والاستجابة غير الاستجابة، والتلقي غير ذاك التلقي... إن العلل الفكرية وإصابة عالم الأفكار لا تغني عنه بعض صور العبادة بما في ذٰلك تكرار الحج، إذا لم يترافق ذٰلك مع عمليات الاختبار لصحة الموقع وتصويب المسار، إنه الخلط بين حقوق الله التي تكفر بالتوبة والعبادة وحقوق الناس التي لا بد من أدائها. وقد تكون قضية الانفلات من عصر التخلف، وطي مرحلة التخلف، وإلغاء مفهوم عصر التخلف، والتلقي المباشر عن القيم والفهوم الأصيلة، عمليةً صعبةً علىٰ إنسان هٰذا العصر، لٰكنه الأمر الذي لا بد منه إن عاجلاً أم آجلاً..

إن الآيات البينات في رحلة الحج، وأداء مناسكه كثيرة، وكثيرة جدًّا، ولا بد للمسلمين من وعيها وإدراكها، وإن كان جهل بعض مسلمي اليوم الذين يتعلمون أحكام الحج وينسون آدابه - حتىٰ يقع بعضهم في ارتكاب المحرم لاستدراك مندوب أو مستحب - لا يعطي الفرصة لإبصارها واستشعارها في كثير من الأحيان.

ولعل من أهم معالم رحلة الحج إلىٰ جانب أداء المناسك العبادية، تلك المعاني الجامعة التي خاطب بها الرسول ﷺ المسلمين في حجة الوداع، فطلب إليهم أن يبلغ الشاهد الغائب، فرُبّ مبلغ أوعىٰ من سامع... أفلا يحق لنا بهٰذه المناسبة أن نقوم بواجب عملية البلاغ التي جعلها الرسول ﷺ مسؤولية كل مسلم بقدر وسعه، فنذكر المسلمين حجاجاً وغير حجاج بهٰذه الأمور... ذٰلك أن الحج كان موسمها، وكان الوعاء لكثير من المعاني وكثير من الأعمال التي شكلت منعطفات في تاريخ البشرية...

***

معالم الحياة الإسلامية..

في السنة التاسعة للهجرة، حج الرسول ﷺ، وحج معه خلق كثير، وكانت حجة الوداع التي نزل فيها قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وكان الكمال والاكتمال، وبعد أن اكتمل البناء فإن المعاني التي ذكر بها وعرض لها الرسول ﷺ في هٰذه الحجة علىٰ غاية من الأهمية، فهي المعالم الرئيسة للحياة الإسلامية التي لا بد من حراستها والتنبه لها حتىٰ لا يتآكل المجتمع من الداخل، والنص الذي ورد في كتب السيرة لخطبة الوداع لا يخرج بمجموعه عما يلي:

«... إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هٰذا، في شهركم هٰذا، في بلدكم هٰذا.. إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع،

ودماء الجاهلية موضوعة، فإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وأول رباً أضع ربانا، ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهم بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمته، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذٰلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما أن لا تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله؛ وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلَّغت وأدَّيت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلىٰ السماء، وينكتها إلىٰ الناس، ويقول: اللهم اشهد، ثلاث مرات...».

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً، منها: أربعة حرم، ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادىٰ وشعبان»، وقال: «أي شهر هٰذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة؟» فقلنا: بلىٰ. قال: «أي بلد هٰذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس البلد الحرام؟» قلنا: بلىٰ. قال: «فأي يوم هٰذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتىٰ ظننا أن سيسميه بغير اسمه. قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هٰذا، في بلدكم هٰذا، في شهركم هٰذا؛ وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض؛ ألا هل بلَّغت؟» قالوا: نعم. قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع...».

«واعلموا أن الصدور لا تغل علىٰ ثلاث: إخلاص العمل لله، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع... قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله».

إن مجموعة القضايا التي عرض لها الرسول ﷺ في هٰذه الخطبة، في

حجة الوداع، تشكل المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي، والتي لا بد من حراستها وعدم السماح بخرقها والخروج عليها من الحاكم والمحكوم، والأمر الذي لا يحتاج إلىٰ مزيد بيان أن هٰذه المرتكزات هي التي انتهىٰ إليها المجتمع المسلم وتربّىٰ عليها فلا يجوز التفريط فيها... وتأتي أهميتها في أنها «خطبة المودع» الذي حمل الرسالة، وأدّىٰ الأمانة، ونصح للأمة، ورعىٰ مسيرتها ثلاثة وعشرين عاماً...

لقد اختار الرسول ﷺ هٰذه المعاني من خلال مسيرة النبوة الطويلة ليؤكد عليها، وينبّه لها دون سواها، فلماذا هٰذه المعاني دون غيرها؟ ذٰلك لأن عدم التزامها يؤدي إلىٰ دمار المجتمع، ولا يعوزنا الدليل ـ نحن المسلمين ـ في القرن الخامس عشر الهجري حيث نرىٰ السقوط بأم أعيننا...

❋ ❋ ❋

الأمن النفسي والاقتصادي..

«إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هٰذا، في شهركم هٰذا، في بلدكم هٰذا.. لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...»، لقد أجمع العلماء أن مقاصد الشريعة هي: تحقيق مصالح العباد في معاشهم ومعادهم، ولا يتحقق ذٰلك إلا بحماية الكليات الخمس، التي لا تستقيم الحياة ولا تتحصل السعادة إلا بتوفرها وحمايتها، وهي: العقل والنفس والدين والعرض والمال.

ولسنا بحاجة هنا إلىٰ التذكير والتدليل بأن الدماء المسلمة التي تسيل يومياً كالأنهار، في أكثر من بلد، وأكثر من موقع علىٰ يد المسلمين أنفسهم، مهما كانت الشعارات، وكيفما كانت المسوغات، قضية لا تخدم إلا أعداء الإسلام في نهاية المطاف «... **لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض...**»، «**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما؛ فالقاتل والمقتول في النار**».

إن إراقة دم المسلم أكبر عند الله من هدم بيته الحرام ومن كل شيء في الدنيا «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل امرئٍ مسلم**» فكيف ستكون مسؤولية الذين يتاجرون بدماء المسلمين ويأكلون بها ويقبضون ثمنها، ويبنون ثراءهم علىٰ جماجم المسلمين؟! وكيف سيكون حسابهم عند الله؟!

وليست قضية الأمن الاقتصادي أقل أهمية من الأمن النفسي في المجتمع الإسلامي.. «**إن ربا الجاهلية موضوع...**».

إن العالم الإسلامي عاش ثلاثة عشر قرناً تقريباً، بعيداً اقتصاده عن لوثة الربا، وقادراً علىٰ مواجهة مشكلاته المالية وحلّها، إلىٰ أن جاء الاستعمار السياسي، وجاء معه الاستعمار الاقتصادي، وأصبح الربا سمة المعاملات المالية، فأفقدنا ذٰلك الأمن الاقتصادي بعد أن افتقدنا الأمن النفسي...

* * *

أمر الجاهلية..

«... إن كل شيء من أمر الجاهلية موضوع تحت قدمي...»، «إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء...».

إن الجاهلية ارتكاس وهبوط ورجعية، إنها رفض الخضوع لحكم الله ﷻ، وسقوط في الطاغوت بكل أشكاله، قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [المائدة] إن أمر الجاهلية وظهور النزعات الإقليمية الذي بدأ ولا يزال مستمراً، هو الذي مزَّق الأمة وأنهك قواها، إن الحدود التي وضعها المستعمر، وفرق عندها وحدة المسلمين، يستميت بعضنا في الدفاع عنها، وإن النزعات الجاهلية التي نبش قبورها المستعمر. نحاول أن نهب لها الحياة ونمنحها الاستمرار!.. والرسول ﷺ يقول: «**دعوها فإنها منتنة...**» وبعضنا يصر علىٰ الاستمساك بها!!!

إن التراجع الإسلامي عودة إلىٰ الجاهلية، وإن الجاهلية جاهزة

للانقضاض في كل لحظة ضعف إسلامية، إنها حاولت الانقضاض في غزوة بني المصطلق، والرسول ﷺ يرعىٰ المسيرة «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟**» وأطلت القيسية واليمنية برأسها علىٰ الصورة الإسلامية بشكل مبكر، ومبكر جداً، والخطورة كل الخطورة الآن أن نفصِّل الأثواب الإسلامية لنلبسها لأمور الجاهلية الحديثة، فنمارس الجاهلية تحت عناوين وشعارات إسلامية!!

إن مساحة الجاهلية في حياة الإنسان المسلم تتسع وتضيق بقدر ما يوفقه الله للرؤية الإسلامية والانضباط بها، وإن سقوط الإنسان في بعض أمور الجاهلية لا يعني أن نسلب عنه إسلامه، كما يحلو لبعضهم، من الذين يمارسون إشاعة هٰذا المصطلح ويحاولون تعميمه، ذٰلك أن التعميم لون من العامية في الرؤية، فالرسول ﷺ قال لأبي ذرٍّ عندما عَيَّرَ بلالاً بأمه: «**إنك امرؤٌ فيك جاهلية**» إن سلوك التعيير هٰذا ينتسب إلىٰ الجاهلية، ولا يعني بحال من الأحوال سلب أبي ذر رضي الله عنه فضله وإسلامه وجهاده... **فهل يكون** موسم الحج ونداء حجة الوداع فرصة لمطاردة الجاهلية في نفوسنا، وتخليص مجتمعنا الإسلامي من بعض مفهوماتها وأمورها بالحكمة والموعظة الحسنة؟! ذٰلك أن فقدان الحكمة في الموضوع قد يؤدي إلىٰ تكريسها واستغلالها.

***

النقل الثقافي..

«... **فليبلغ الشاهد الغائب.. فرُبَّ مبلَّغ أوعىٰ من سامع...**».

إنها مسؤولية البلاغ المبين التي لا تخرج هنا عن مسؤولية التحمل ومن ثم مسؤولية الأداء، لقد اعتبر الرسول ﷺ غاية مهمته: البلاغ، فقال: «**ألاَ هل بلّغت؟ اللهم اشهد**» وبذٰلك يكون الرسول شهيداً علىٰ المسلمين، ويكون المسلمون شهداء علىٰ الناس، يوصلون إليهم هٰذا الدين، ويطورون وسائلهم في نقل حقائقه لإنقاذ الناس من الجاهلية...

وهنا قضية تلفت النظر «**رُبّ مبلّغ أوعىٰ من سامع**» فعملية الحفظ وسلامة النقل لا تعني بالضرورة: القدرة علىٰ الفهم والوعي والإدراك لمدلولات الخطاب، فليست القضية قضية حفظ فقط، قد يكون صاحبها نسخة من كتاب، وإنما القضية قضية الفقه والوعي والدراية، وهي قضية علىٰ غاية من الأهمية لعالم المسلمين اليوم، ذٰلك أن بعض الناس اليوم كالأرض التي تمسك الماء لٰكنها لا تُنبت الكلأ... إن مسؤولية وأمانة النقل الثقافي «عملية البلاغ المبين» ومسؤولية الوعي والقدرة علىٰ فهم السنن وإمكانية التعامل معها هي مشكلة المسلمين الثقافية اليوم... فليبلغ الشاهد الغائب، فرُبّ مبلّغٍ أوعىٰ من سامع...

إنها المعاني التي شهدها الصحابة الحجاج في مكة في العام التاسع للهجرة، وحُمّلوا مسؤولية نقلها إلىٰ العالم ليكونوا شهداء علىٰ الناس، ويكون الرسول شهيداً عليهم، إنها المسؤولية المحددة والمهمة الدائمة للمسلم في مجال عالم الأفكار والوعي الثقافي، المسؤولية المحددة تقابلها الحيدة المهلكة المدمرة لبعض مسلمي اليوم في القعود عن مهمة البلاغ المبين وامتشاق وسائل أخرىٰ والسير في طرق وعرة شائكة...

***

شاهد إدانة..

«... إن ربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا العبَّاس بن عبد المطلب، إن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث...».

لقد جاء الإسلام بأنموذج للحكم والحاكم متفرد، في الوقت الذي كان الحكام فيه يمثلون ظل الله علىٰ الأرض!! وكانوا يُعبدون من دون الله، حيث كان تأليه الحاكم من المسلّمات...

إن الشخصية الحضارية الإسلامية لها مقومات في مجال الحكم

ومواصفات في اختيار الحاكم وصفاته، ولها تاريخ مشهود في التطبيق والممارسة، وسوف تبقىٰ هٰذه الشخصية التاريخية شاهد إدانة علىٰ الممارسات القمعية والاستعلاء بالسلطان التي يعاني منها عالم اليوم، إنه المقياس الذي ينتظم الحاكم قبل المحكوم «.... **إن أول ربا أبدأ بوضعه ربا عمِّي العباس... وإن أول دم أضعه دم ابن ربيعة بن الحارث...**» إنها قيم السماء التي لا بد للبشر من وضعها موضع التنفيذ والالتزام، يتعاون علىٰ إنفاذها الحاكم والمحكوم، إن إنسان الإسلام الذي يرىٰ في تاريخه هٰذه النماذج يصعب عليه أن يرضىٰ بما هو دونها وسوف يبذل جهده لاستردادها والعمل لها...

❋ ❋ ❋

تقوىٰ الله في النساء..

«... **اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله...**».

مما لا شك فيه أن قضية المرأة، وموقع المرأة في الحياة الإسلامية، وخاصة في عهود التخلف، تحكم فيها أكثر من عامل، واختلطت فيها المفاهيم، والتبست العادات السائدة في بعض المجتمعات الإسلامية، بالأحكام الشرعية حتىٰ لنكاد نقول: إن كثيراً من العادات قد ألبست الثوب الإسلامي واعتبرت من الدين، أو اعتبرت ديناً لدرجة غابت معها الصورة العملية للمرأة المسلمة، وعلىٰ الرغم من العنوان الإسلامي لكثير من الأسر إلا أن الثقافة الجاهلية تضغط علىٰ تصرفاتنا تجاه المرأة بين التسييب المطلق والتشديد الذي قد يُفقدها إنسانيتها، الأمر الذي ينأىٰ عنه دين الله ﷻ ويأباه شرعه...

ولا شك أيضاً أننا أوتينا من قبل المرأة، وغزينا من طريق الأسرة، وأقمنا المعارك لحماية حدودها والحيلولة دون اقتحامها، لٰكننا عدنا إلىٰ الأسرة المسلمة فلم نجدها، لم نجد المرأة المسلمة فعلاً، والطفل المسلم والتربية الإسلامية والممارسة الإسلامية.

وكثير منا تأبىٰ عليه نفسه وثقافته أن يعطي المرأة المسلمة دورها في الحياة الذي مارسته زمن الرسول ﷺ من التعليم والرواية والمبايعة والمشاركة في الجهاد ومعرفة الحياة، وإلا فكيف يمكن لها أن تقوم بدورها وتؤدي رسالتها، وتعد أطفالها لعصر لا تدرك طبيعته ولا تعرف مشكلاته، ولا تشارك في قضاياه؟! وهناك حقيقة تغيب عن بالنا في ظل التقاليد والعادات التي أصبحت من الدين، وهي أن الأكرم في الإسلام: الأتقىٰ؛ فليس الأكرم: الذكر، وليس الأكرم: الأنثىٰ، وإنما الأكرم: الأتقىٰ؛ وإن خطاب التكليف جاء للرجل وللمرأة علىٰ حد سواء، وإن المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الإنسانية العامة ليست محل نظر وبعدها يبقىٰ لكلٍّ اختصاصه في مجال الحياة، وبالتالي لا يمكن المقايسة وطرح قضية المساواة بين اختصاصين متباينين، فالمرأة في اختصاصها أفضل من الرجل في اختصاصها ومقدمة عليه، والرجل في اختصاصه أفضل من المرأة في اختصاصه ومقدّم عليها، أما في مجال الحقوق الإنسانية فهم سواء، ولكلٍّ جزاؤه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً . . .﴾ [النحل:٩٧] والقوامة التي شرعها الله ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ . . .﴾ [النساء:٣٤] إنما هي للإشراف والإدارة في البنية الاجتماعية الأولىٰ التي لا يمكن أن تترك تأكلها الفوضىٰ، وليست للتشريف والتعالي، فلا بد من تفكيك الصورة الموروثة واختبارها وتنقيتها مما لحق بها لنرىٰ صورة المرأة المسلمة خالية من كل غبش، ونستجيب لنداء الرسول ﷺ في حجة الوداع: «. . . **اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله. . .**».

❋ ❋ ❋

الاعتصام بالكتاب..

«. . . قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله. . .».

لا حاجة إلىٰ القول: إن القرآن الكريم كتاب الله، وإن الذي خلق الإنسان أعلم بما يحقق سعادته ويحميه من الضياع والضنك، إنها القيم

الثابتة البعيدة عن وضع البشر وتحكم الأهواء وتحقيق السيطرة والاستغلال، وتحقيق مصلحة لطبقة أو فئة أو طائفة أو فرد... ذٰلك أن معظم الشر في العالم مردّه تسلُّط الإنسان علىٰ الإنسان ولا بد لإيقاف هٰذا التسلط من أن تستمد القيم من الله الخالق وليس من بعض مخلوقاته.

إن كثيراً من القيم الوضعية في عالمنا المعاصر أشبه بدمىٰ الأطفال، يحكمها الناس ويشكلونها علىٰ الصورة التي يختارونها، وتبقىٰ محل نزاع وخصام، يفرضها الأقوياء ويتوهمون أنها تحقق مصالحهم، وما أسهل ما يغيرونها ويبدلونها تبعاً لأهوائهم، وتبقىٰ عاجزة عن حكم الناس، ويبقىٰ أصحابها عاجزين عن تحقيق الاحترام لها والالتزام بها من بقية الناس؛ ذٰلك أن الالتزام بها يبقىٰ طاعة للمخلوق، أما كتاب الله، فهو القيم الثابتة التي تحكم الناس ولا يحكمها الناس، يخف الإنسان للالتزام بها بوازع لا يمكن أن يتحقق لغيرها، فالطاعة للّه الخالق العليم المحاسب الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور... وفي الاعتصام بالكتاب عصمة من الخطأ، وأمن من الضلال، والشاهد التاريخي: إن التزام العرب المسلمين واعتصامهم بالقرآن الكريم كان سبيل وحدتهم وحضارتهم، وإن الحيدة عنه كانت سبب فشلهم وتخلفهم وفرقتهم، والواقع يشهد بذٰلك أيضاً، والله ﷻ يقول: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ...﴾ [الأنفال:٤٦] لقد اعتبرت الآيات أن العدول عن طاعة الله ورسوله موقع في النزاع، لتعدد الأهواء والآراء...

وَبَعْـدُ: فإنه نداء خطبة الوداع نوجهه لعالم المسلمين اليوم ليبلغ الشاهد منهم الغائب، فلعله يحقق المراجعة المطلوبة، والاستقامة علىٰ الطريق، والاستجابة لنداء سيد المرسلين ﷺ...

ذو الحجة ١٤٠٣هـ - أيلول (سبتمبر) ١٩٨٣م

□ □ □ □ □ □

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة







حوار مع :

الشيخ أبو الحسن الندوي

د. أحمد العسال

د. رشدي فكار

الأستاذ عبد العزيز بن تركي

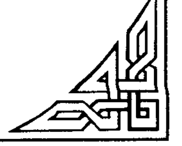
د. عبد الله عمر نصيف

الشيخ عبد الله كنون

الشيخ محمد الغزالي

د. محمود سفر

الجزء الأول

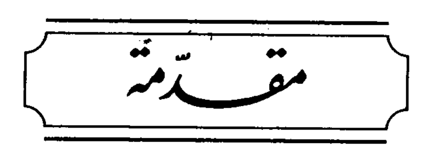


بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ:

«يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه: تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين».

رواه البيهقي



مقدمة

الحمد لله الذي حبّب إلينا الإيمان، وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، وأكرمنا بالإسلام، وشرّفنا بحمل رسالته، وناط الفوز والفلاح بهٰذه الأمة، ما دامت تدعو إلىٰ الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهىٰ عن المنكر، ولم يسلط عليها أعداءها تسليط استئصال، ليمنحها فرصة التوبة، واستشعار التحدي، والقدرة علىٰ النهوض، واستعادة العافية. والصلاة والسلام علىٰ المبعوث رحمة للعالمين، **فهو** وحده محل الأسوة والقدوة، لأنه مؤيَّد بالوحي ومسدَّد به، وليست العصمة والقدوة لأحد سواه، فرداً كان أو جماعة أو دولة، فكل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد؛ إلا صاحب هٰذا القبر كما يقول الإمام مالك رحمه الله.

وبعد:

فهٰذا كتاب الأمة الثامن عشر **«فقه الدعوة: ملامح وآفاق» في** سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات، برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر، مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري، والتحصين الثقافي، ومحاولة إعادة صياغة الشخصية المسلمة، التي افتقدت الكثير من منهجيتها، وفاعليتها، وصوابها، وترشيد العقل المسلم، وتسديد خطا العاملين في مجال الدعوة، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المسلمين المعاصرة، **وتبصيرهم بمحاولات المكر الخارجية، وتسليحهم بطرائق المواجهة**، وإيقاظ روح الجهاد، والتركيز علىٰ بيان أن الإصابات الداخلية، هي التي جعلت الجسم الإسلامي مؤهلاً وقابلاً للسقوط في حبائل الأعداء؛

ليستأنف المسلم دوره، ويقوم بحمل أمانة الاستخلاف، مستثمراً إمكاناته الروحية والذهنية والمادية كلها، شعاره الدائم: «الحكمة ضالة المؤمن؛ أينما وجدها فهو أحق بها».

ونسارع إلىٰ القول: بأن الذي نقدمه في هٰذا الجزء، والذي يليه إن شاء الله، هو مجموعة من الحوارات، كنت أجريتها في مناسبات متعددة، ونشرت أصولها في «مجلة الأمة» حول فقه الدعوة، والآفاق التي يمكن أن يرتادها الدعاة، وتحديد الموقع الفاعل من خلال الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، في محاولة لتمرين ذهنية مسلم اليوم علىٰ اكتساب مجموعة من الخبرات، والتحقق بأكثر من وجهة نظر؛ لعل ذٰلك يغنيه بالتصور الخصب، الذي لا بد منه للحكم علىٰ الأشياء بشكل سليم، وبذٰلك يتخلص من النمطية، والمراوحة في المكان الواحد، وينأىٰ بنفسه عن أن يكون نسخة مكررة، من حيث الزمان والمكان والحركة والأشخاص، وتلك إحدىٰ آفات التحزُّب والتعصُّب؛ ذٰلك أن الاطلاع علىٰ وجهات النظر المتعددة والمقارنة بينها يؤهل الإنسان، ويمنحه القدرة علىٰ المراجعة والمناصحة والتصويب والتقويم، ويُكسبه إمكانية التفريق بين ما هو ثابت من أصول الدين ومقاصد الشرع، وما هو متطور متغير من وسائل الدعوة، ومواقع العمل، وصور التعامل مع الحياة المتغيرة، وبذٰلك يستحق أن يكون وارثاً للنبوة، ومنسلكاً في نطاق الطائفة القائمة علىٰ الحق، الحاملة للرسالة الخالدة.

وقد أكدنا في أكثر من مناسبة: أن عمليات المراجعة، والاعتراف بالخطأ، لا ينتقص من الذات، وإنما يؤدي إلىٰ تزكيتها، ويحول دون تدسيتها، والقضية يجب أن تُفهم علىٰ أنها تعني باستمرار: المراجعة لوسائل الدعوة لتحقيق كسب أكبر للقضية الإسلامية، وليست الرجوع عن طريقها، فالإسلام بالنسبة لنا لا يشكل خياراً، وإنما هو كيان، وثقافة، وهوية.

ونرىٰ أنه لم يعد للمسلم اليوم خيار في أن يخرج من دائرة الطواف حول الذات، والافتتان بالنفس، والعجب بالرأي، والاقتصار علىٰ قراءة

ذاته، إلىٰ الاطلاع علىٰ وجهات النظر الأخرىٰ، خاصة آراء أولئك الذين يقفون معه علىٰ الأرض الواحدة، ويواجهون مكراً وكيداً مشتركاً، وإن تنوعت مدارسهم، وتعددت مواقعهم؛ ويدرك أبعاد الخطاب الإسلامي، الموجه للناس كافة، وأن يستشعر مسؤوليته أمام الله في الالتزام بحقوق الأخوة الشاملة، وعدم التسوية بين الذين يتنكبون طريق الإسلام وينحرفون عنه، وبين الذين قد يخطئون ويتطرفون ويغالون في السير فيه، نتيجة لضغوط الأوضاع غير الإسلامية، وهٰؤلاء أحوج للتصويب والرعاية والحوار، منهم للمواجهة والتهوين والاحتقار.

فإلىٰ أي مدًى نستطيع اليوم ـ وقد تكالب علينا الأعداء من كل جانب ـ أن نكون قادرين علىٰ بناء الخطة الواحدة، التي يأخذ كل منها بطرف، واكتشاف القواسم المشتركة، خاصة وأننا مستهمون في سفينة واحدة، وإن أصاب بعضنا أعلاها، وبعضنا الآخر أسفلها، وأن أي خرق يمكن أن يصيبها ـ ولو بحسن نية ـ سيغرقنا جميعًا إذا غفلنا عن الحراسة الدائمة، وتعطلت فينا حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتوقفنا عن المراجعة الدائمة لحركة الأفراد، وتوجهات ومسالك الدعاة والرواد.

ونستطيع أن نقول: بأن هٰذه الحوارات التي نقدمها اليوم، تمثل لونًا من الشورىٰ واستطلاع الرأي، حول مجموعة من القضايا، نحسب أنها من الأمور الأساسية في فقه الدعوة الإسلامية، حرصنا أن تأتي من أكثر من موقع علىٰ خارطة العمل الإسلامي، بمدارسه المتنوعة واجتهاداته المتعددة، كما حرصنا أيضاً، أن يكون فيها حضور شبه كامل للقائمين علىٰ أمر الدعوة؛ سواء كان ذٰلك علىٰ المستوىٰ الشعبي أو الرسمي أو المؤسسي أو الأكاديمي؛ إضافة إلىٰ المواقع الجغرافية المتعددة، ما أمكننا ذٰلك.

والحركة الإسلامية اليوم، بعد هٰذه الإحباطات الكثيرة، بحاجة ـ فيما نحسب ـ إلىٰ العديد من الاجتهادات، والتعدد في وجهات النظر، لإغناء الرؤية؛ فلعل جيلاً طليعيًا ينبثق من خلال هٰذه الاجتهادات الكثيرة، يهتدي

إلىٰ سبيل الخروج من الأزمة، والخلاص من صور الإحباط المتعددة، ويحدد موطن الخلل، ويصلح الأمور، ويكتشف طريق الصواب المفقود في معادلة المسلم المعاصر، حيث لا بد إلىٰ جانب الإخلاص لله في العمل، من الصواب في الخطو، والبصيرة إلىٰ جانب البصر، والعقل إلىٰ جانب القلب، فقد سئل الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن العمل الصالح فقال: أخلصه وأصوبه.

وهنا ترد قضية نظن أنها علىٰ غاية من الأهمية، ولا بد من الإشارة إليها بين يدي هٰذه الحوارات، وتجاه الواقع الذي تعيشه الدعوة الإسلامية المعاصرة، علىٰ تنوع مدارسها واختلاف وسائلها، وهي أن التجربة الإسلامية التاريخية غنية أيما غنًى بتنوع الوسائل، وتعدد المواقع في طريقها إلىٰ عملية التغيير المنشود، سواء أكان ذٰلك في فترة السيرة التي تعتبر البيان العملي، والصورة التطبيقية للرسالة، أم في حياة الصحابة ومسيرة التاريخ الإسلامي الطويلة.

حتىٰ ليمكننا القول: إن كل مدرسة من مدارس العمل الإسلامي اليوم قادرة علىٰ الاستدلال لصحة اختيارها ومنهجها من الكتاب والسنّة والسيرة العملية والتاريخ الإسلامي.

فالذي يرىٰ أن التربية والتعليم هما طريق التغيير يجد لاختياره سنداً، فالرسول ﷺ يقول: «**إنما بُعثت معلِّماً**» وأن أول ما نزل من الوحي قوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ ويستطيع أن يدلل لذٰلك من الواقع أن أية حركة سوف تكون عشواء وغير مؤتمنة دون علم وتربية.

والذي يستشعر آثار ومخاطر السلطان السياسي، وما يمتلك من وسائل قادرة علىٰ التغيير، وإعادة صياغة الجيل، ويستمع إلىٰ قول سيدنا عثمان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» قد يرىٰ إرجاء عملية التربية، وينصرف همُّه إلىٰ إصلاح السلطان، أو اكتساب السلطة، ولا يعوزه الاستدلال لما ذهب إليه اختياره.

والذي يرىٰ تكالب الأعداء، والتحديات الكبيرة التي تحيط بالمسلمين

من كل جانب، وحركة رؤوس الكفر والضلال كيف تستهين بالإسلام وأهله، قد يختار طريق الجهاد والفداء، ويعتبر القعود عن الجهاد هو الذي حمل الذلة للمسلمين، وأنه لا مجال لإضاعة الوقت بأعمال ووسائل سوف يحبطها العدو في الوقت الذي يشاء لامتلاكه القوة، بإمكانه أيضاً الوقوف علىٰ الأدلة والشواهد، من خلال التجربة الإسلامية التاريخية.

وبعضهم يرىٰ: أن الاهتمام بأمور المسلمين وإقامة مؤسسات الرعاية الاجتماعية، والتكافل الاجتماعي، كفيل بمعالجة الواقع الإسلامي.

وقد تشتد الفتن وتشتد، فيجنح فريق إلىٰ التزام نفسه، واعتزال الناس، والعض علىٰ جذع شجرة، والانسحاب من المجتمع بعيداً عن دراسة **الظروف والملابسات بدقة، مستشهداً لذٰلك بآيات وأحاديث ووقائع وأدلة من التجربة الإسلامية التاريخية.**

وقد لا يكون الوقوف علىٰ معرفة الدليل النظري من الكتاب والسنّة، أو الحدث والتطبيق العملي من السيرة والتاريخ وحده كافياً لاختيار وسيلة الدعوة، وطريقة التغيير الملائمة، حيث لا بد مع ذٰلك، من دراسة دقيقة ومتأنية لأسباب نزول الآيات، وسبب ورود الحديث، إضافة إلىٰ دراسة شاملة للظروف والملابسات التي أحاطت بالتطبيق، والمقايسة مع الواقع الذي نحن عليه، حتىٰ نتمكن من الاختيار الصائب، فالرسول ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة، لم يكسر صنماً، لٰكنه بعد الفتح لم يدع الأصنام لحظة واحدة؛ بل كان كسر الأصنام أول عمل قام به. ولسنا هنا بسبيل الاستقصاء لوجهات النظر المتعددة، وإنما هي نماذج ونوافذ ووسائل للإيضاح فقط.

وقضية أخرىٰ ـ قد يكون من المفيد طرحها بين يدَيْ هٰذه الحوارات أيضاً، وهي أن الله سبحانه وتعالىٰ إنما تعبّد الإنسان بوسعه واستطاعته، قال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]. . . والخطاب الإسلامي، والتطبيق العملي لهٰذا الخطاب يحمل من المرونة، والآفاق والأبعاد، والأمداء، ما يجعل المسلم مستطيعاً وقادراً علىٰ الفعل، والحركة،

والاستجابة، والكسب الإسلامي، في جميع الظروف والأحوال.. ذلك أن مدىٰ تحركه يبتدىء من قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، في حالات الشدة والظلم، ويتنامىٰ ذلك الكسب مستصحباً الاستطاعة حتىٰ يعم الحق، وتتحقق إنسانية الإنسان، وتتقرر حرية الاعتقاد، وتتوقف الفتنة والاضطهاد، لقوله تعالىٰ: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣]... وعلىٰ هٰذا فالمسلم يمتلك الفاعلية، في الظروف كلها، ولا يفتقدها إلا عندما يحاصر نفسه بنفسه.

وهنا أمر، يمكن أن يُعتبر فرعاً عن هٰذه القضية، ولا يخرج في عمومه عن نطاق فهم أبعاد الخطاب الإسلامي، وربط مدىٰ الاستجابة له بالوسع والاستطاعة، ذلك أنه من المعلوم، أن من أحكام التكاليف ما يقع ضمن استطاعة الفرد، وفي حدود مسؤوليته، ومنها ما يُناط بوجود الجماعة، كما أن هناك بعض الأحكام التكليفية يرتبط أمر إنفاذها بوجود الحكم والقضاء الإسلامي، والحاكم المسلم، كقضايا العقوبات من حدود وتعزيرات، وعقد المعاهدات، وقضايا السلم والحرب، وسائر السياسات العامة التي ترتبط بوجود السلطان.

والأمر المطروح والذي لا بد من إيضاحه: هل يحق للفرد المسلم في حال غياب السلطان الإسلامي، أن يعتبر من تكاليفه الشرعية أن يتولىٰ دور السلطان ويمارس مسؤولياته، دون أن يمتلك مقومات السلطة؟ وما يمكن أن يترتب علىٰ ذلك من الفوضىٰ والمخاطر، الأمر الذي يستحيل معه الاعتقاد بأن هٰذا هو مقصد شرع الله وغاية تكليفه.

وقد تكون المشكلة كلها في فقه خطاب التكليف، صحيح أن خطاب التكليف عام للناس جميعاً، علىٰ مستوىٰ الفرد والجماعة والدولة، لٰكن يبقىٰ الأمر المطروح: ما هي حدود تكليف الفرد بالنسبة للخطاب المنوط بالسلطان؟ هل من مقتضىٰ تكليفه: قطع يد السارق وإنفاذ حد الحرابة.. إلخ، استجابة لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا...﴾ [المائدة:٣٨]؟ أو أن تكليفه يتحدد أصلاً ضمن ما يقع تحت مقدوره، وأن

نصيبه من التكليف كفرد، ليس القيام بأعمال السلطان، وإنما العمل علىٰ إيجاد السلطان الذي يناط به تنفيذ الأحكام، وبذٰلك يكون مشمولاً بخطاب التكليف وليس خارجاً عنه؟

نعود إلىٰ القول: بأن التجربة الإسلامية التاريخية ـ إن صحّ التعبير ـ غنية بالوسائل المتعددة للتغيير، من خلال الظروف والملابسات الكثيرة التي مرّت بالمسلمين. لٰكن يبقىٰ الأمر المطروح علىٰ العاملين ـ والإسلام خالد يستجيب لكل الظروف والأحوال ـ: ما هي الوسيلة المشروعة والمجدية أكثر؟ وكيف نختار الموقع الفاعل والمؤثر؟ من خلال الإمكانات المتاحة والظروف المحيطة، مع عدم الإخلال بالتوازن، وضبط النسب، والاحتفاظ بالرؤية الشمولية للرسالة الإسلامية في الوقت نفسه.

إن هٰذا الموضع لا يزال في اعتقادنا يشكل أزمة العمل الإسلامي المعاصر، أو أزمة النخبة، كما أنه لا يزال مفقوداً وغائباً عن ساحات العمل، اللهم إلا بعض جوانب الكسب الإسلامي الذي لم يؤثر بعد بشكل واضح علىٰ المجرىٰ العام للذهنية الإسلامية.

وَبَعْـد:

فلا ندّعي لعملنا هٰذا الكمال، وإنما هي محاولة، وخطوة علىٰ الطريق يعوزها التواصل المستمر، القصد منها إلغاء الحواجز الفكرية، وإزالة السدود النفسية بين الدعاة إلىٰ الله، وتحطيم الأسوار الحزبية التي قد تحمي غير الأكفياء، وتحرم العمل من إمكانات مقدورة، وتحقيق التعارف عن قرب بحيث تصبح مدارس العمل الإسلامي المتنوعة حواس متعددة للعقل الإسلامي الواحد، وأجهزة متعددة لوظائف الجسم الإسلامي، الذي يشد بعضه بعضاً.

وكم كنت أتمنىٰ أن تتاح مساحة أكبر، للوقوف أكثر وبشكل أفضل عند الكلام عن مداخل الحوارات، لإبراز المنهج، والكلام عن مزاياه، ومناقشة بعض جوانبه ـ الأمر الذي أرجو أن يتاح في طبعات قادمة ـ وحسبي في هٰذه الطبعة حفظ وتقديم المادة الخام ـ إن صحّ التعبير ـ من

خلال الحوار، وفتح الباب أمام الدارسين والمهتمين بالقضية الإسلامية، لمزيد من الإضافات والاستنتاجات والتحليلات لجوانب الموضوع.

وهو لون من التصنيف أرجو أن يكون له دور في تشكيل العقل المسلم، وأن يحقق مساحة مطلوبة في المكتبة الإسلامية مستقبلاً.

والله أسأل أن يرزقنا الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد..

الدوحة ـ ١٥ رجب ١٤٠٨هـ

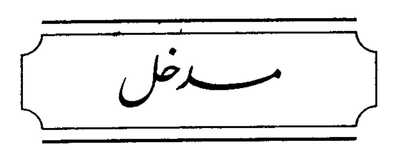
عمر عبيد حسنة





مشكلات العمل الإسلامي

الشيخ أبو الحسن الندوي



□ من مواليد قرية (تكية) مديرية (رائي بريلي) - الولاية الشمالية بالهند - عام ١٣٣٢هـ، من أسرة ذات أصل عربي عريق اشتهرت بالعلم والجهاد.

□ تعلّم في دار العلوم - ندوة العلماء - ودار العلوم في ديوبند وجامعة لكنهؤ، والتحق بمدرسة الشيخ أحمد علي في لاهور حيث تخرّج في علم التفسير.

□ عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

□ مؤسس المجمع العلمي الإسلامي بالهند ورئيسه.

□ عضو المجلس التنفيذي لمعهد ديوبند.

□ رئيس مجلس أمناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية.

❋ ❋ ❋

من مؤلفاته

«ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، «مختارات من الأدب العربي»، «القراءة الراشدة»، «روائع إقبال»، «ربانية لا رهبانية»، «النبوة والأنبياء»، «السيرة النبوية»، «حديث مع الغرب»، «المسلمون وقضية فلسطين»، «إلىٰ الإسلام من جديد».

نشرت بالعربية وترجمت إلىٰ التركية والإنكليزية والفارسية.

أحب كتبه إليه:

الطريق إلىٰ المدينة، النبوة والأنبياء، وآثرها إطلاقاً: ماذا خسر العالم، والأركان الأربعة، والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية.

ولعل عناوين بعض مؤلفاته تعطي مؤشراً واضحاً علىٰ منهجه واهتماماته ومعالجاته.

■ يعتبر سقوط الخلافة الإسلامية نقطة تحول في تاريخ الإسلام والمسلمين، وتحولاً لعجلة الحياة في خضوع العالم لحضارة الغرب ومقدمة لاحتلال فلسطين، ويقول: بأن احتلال القدس وزحف القوات الصهيونية إلىٰ الضفة الشرقية للقناة كان أحلك يوم في حياته.

■ دعا إلىٰ الإسلام بالقدوة الحسنة والكلمة النقية والتربية السليمة، واهتم بإقامة المؤسسات العلمية لأنه يعتقد بعدم انفصال العلم عن التربية.

■ العلوم التي يؤثرها بحبه: القرآن الكريم والحديث، ثم التفسير والتاريخ والأدب.

■ **ويرىٰ**: أن التاريخ مرآة الأمم وخزانة العبر المبرزة لأسباب النهوض والهبوط في حياتها، فليس ثمة من سقوط أو نهوض يحدث عفواً أو اتفاقاً، وإنما هي سنن وقوانين مرتبطة بتصرفات الأمم وأعمالها، فعلىٰ هٰذه التصرفات والأعمال تتوقف مصائرها في مسيرة التاريخ، وعلم القرآن والحديث هو الدليل الهادي إلىٰ أسرار هٰذه السنن الإلٰهية وعملها في حياة البشر، والتمكن من علم الأدب أداة لا معدىٰ عنها لإبراز هٰذه الحقائق علىٰ أفضل وجه، كما يعتقد أنه كلما عرف العاملون للدعوة الإسلامية كيف يغتنمون الفرصة بتوجيه قواهم للكشف عن مساوئ نظم الحكم غير الإسلامية المستمدة من الحضارة الغربية وما تقاسيه الشعوب في ظلها كلما أحرزوا نجاحاً جديداً لدعوتهم.

وأن أهم محاور الدعوة والإعلام تتركز في منطلقات أربعة: المسجد، والمنهج التعليمي، والكتاب، والسلوك الاجتماعي.

ويمكن أن يعتبر منهج الشيخ الندوي في الدعوة والبلاغ المبين مدرسة متميزة قائمة بذاتها بعيدة عن التحزُّب والتعصُّب الذي سقط فيه الكثير. تؤثر خلق السماحة واليسر على مسالك التشدد والتحرج، عنوانها: الاحتساب والترفع عما في أيدي الناس، وهو مستمَد من قولة الأنبياء جميعاً: ﴿لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود:٢٩] وبذلك تثير الاقتداء، وهي بلا شك من مدارس العمل الإسلامي الجديرة بالدراسة والانتفاع.

■ **يرى**: أن في مقدمة حقوق الأخوة المناصحة والتسديد، لم يمنعه حبه لإخوانه وانتظامه معهم من قولة الحق والنقد لما يعتقد خطأه.



المقـدّمة

■ في حياة الشيخ الندوي وقائع وأحداث وتجارب، وعلاقات وآراء ومواقف تُبرز اهتمامه بالقضية الإسلامية، وحُسن إدراكه لها، وتعكس ما طرأ عليها من متغيرات خلال أكثر من نصف قرن؛ لقد منحت العقيدة الإسلامية الشيخ الندوي البصيرة والرأي والموقف، بحيث لا يمر حادث في العالم الإسلامي إلّا ويكون في اهتمامه، يرصد وينصح، يعالج بالفكر، ويقترح الحل، ولما كان مترفعاً عن الدنيا وعمّا في أيدي الناس ـ حكّامًا ومحكومين ـ فإن لكلماته ولنصحه وقعاً مؤثراً ونفَاذاً خاصًّا.

من هنا قد يبدو لشخصية الندوي أكثر من جانب؛ فعلىٰ المستوىٰ العلمي، لا تزال رعايته لـ«ندوة العلماء» مستمرة، تُؤتي ثمارها حتىٰ أصبحت تُعرف به منذ أن حمل أمانتها ـ بالانتخاب ـ بعد أخيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني [١٣٨٠هـ ـ١٩٦٢م]. .

درَّس وحاضر في الجامعات الإسلامية بالهند وخارجها، وأسس «المجمع الإسلامي العلمي» في لكهنؤ [١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م]. . و«جمعية التبشير بالإسلام بين الهندوس».

له مؤلفات باللغات الإنجليزية والهندية والأوردية والعربية، تشغل حيزاً كبيراً من مكتبة المسلم وثقافته، ويرجع إليه الفضل في تعريف العالم الإسلامي برجال الفكر والدعوة ـ وخاصة علماء الهند ـ وآثارهم في العلوم والثقافة الإسلامية.

وعلىٰ المستوىٰ الشخصي يعتبر الندوي من القلائل الذين يلمح المرء

فيهم الإخلاص في العمل، والسداد في الرأي، والحكمة في معالجة الأمور، ومناصحة أئمة المسلمين وعامتهم، ولا نزكّي علىٰ الله أحداً.

لذلك لم يتوقف عن عملية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يوماً، ولم ينعزل عن الحياة أو يتخذ إزاءها موقفاً سلبياً.

منهجه:

التربية بالقدوة ورفض التعصب الحزبي، ولعلنا نلاحظ أثر هٰذا المنهج في طبيعة علاقاته مع العاملين للإسلام علىٰ مختلف مواقعهم، فهو لا يزال في صفوف الناس وقريباً منهم، يألفهم ويألفونه، حتىٰ الطفل الصغير يألفه ويأنس به علىٰ الرغم من أنه يشتغل بالقضايا العلمية.

ونرجو أن يكون الحوار معه كفيلاً أن يعطي بعض الملامح لشخصيته ونظرته للقضايا.. ■

□ نرىٰ أن يكون الحديث في ثلاثة مجالات:

● الدعوة الإسلامية بشكل عام؛ فالأستاذ الندوي ليس مِلْكاً للهند وحدها، وإنما هو مِلْكٌ للمسلمين جميعاً، وله في ثقافة كل مسلم ـ من خلال ما قدّمه من كتب ـ نصيب.

● في إطار الهند: واقع الثقافة الإسلامية، وما قدّمه علماء الهند في مجال العلوم الإسلامية، واللغة العربية من جهود.

● ما يُمكن أن يسدي للعاملين في الحقل الإسلامي علىٰ ضوء التجارب السابقة، من نصائح لترشيد العمل الإسلامي، والأخذ بيده إلىٰ الطريق الشرعي الصحيح، والحيلولة دون سقوطه في بعض المزالق التي يمكن أن تكون ناتجة عن ردود الفعل أو ضغوط المجتمعات المعادية للإسلام. وهنا يمكن أن يكون للحديث أهمية خاصة.



ردة فكرية

◎ النقطة الأولىٰ التي يمكن أن نعرض لها:

من خلال نصف قرن أو يزيد من الاهتمام بقضايا المسلمين سواء أكان ذٰلك في مجال الدعوة إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ في الهند أم في مجال الدعوة بشكل عام، أم في مجال الثقافة والتأليف.. وقد مرّ بالمسلمين خلال هٰذه الظروف مآسٍ كثيرة، هل يمكن تحديد الأسباب الرئيسة التي كانت وراء مأساة المسلمين خلال هٰذه الفترة التي عايشتم فيها الدعوة والعمل الإسلامي؟

⊙ في الحقيقة، الشيء الذي أفقد الدعوة تأثيرها المطلوب، منذ قرون، هو ما يعيشه المسلمون من تناقض.. المسلمون الآن يعيشون في تناقض، عملية هدم وعملية بناء، وعملية الهدم هي أقوىٰ وأنشط، والقائمون بها أقوىٰ وأنشط.. وهم يملكون من الوسائل ما لا يملكه الدعاة المخلصون، فعملية الهدم والبناء قائمة علىٰ قدم وساق، أما عملية البناء فهي بكل أسف بطيئة وغير مسلّحة، وفيها جوانب كثيرة من النقص؛ فما يبنيه الدعاة في أيام وفي أسابيع يهدمه الهادمون في ساعات وفي دقائق.

ثم في عدم وجود الدعاة المخلصين الذين وهبوا حياتهم ومواهبهم وطاقاتهم وركّزوها علىٰ إعادة الإيمان في نفوس الشباب، وإعادة الثقة في صلاحية الإسلام وجدارته ليس للبقاء فقط (وأنا أعتذر لنفسي وضميري لدراساتي القاصرة)، ولٰكن جدارة السبق للزمن وجدارة القيادة، قيادة البشرية.

فتجربتي ودراستي أن الشباب ـ كثيراً منهم ـ قد فقدوا هٰذه الثقة؛ وإن كانوا لا يصرحون بذٰلك ولا يعترفون به، ولٰكن هناك ردة فكرية قد غزت المجتمعات الإسلامية وغزت الشباب بصفة خاصة، فليس من «المودة» وليس من الظرافة والكياسة أن يذهب إنسان إلىٰ الكنيسة ويعلن أنه تنصّر، هٰذا ما لا يقبله أي مسلم؛ ولٰكن إذا بحثنا عن عقائدهم، وعن إيمانهم بالله

وبالرسول وبالحياة الثانية وبتعاليم الإسلام التي جاءت في القرآن، نجد أنهم قد فقدوا الثقة في كونها مطابقة للعقل والعصر، وأن فيها رسالة للإنسانية، للإنسان الجديد؛ إنما يعتقدون أن الإسلام قد قام بدورٍ لا بأس به، فقد قام في العصر الإسلامي الأول فنهىٰ عن وأد البنات، ونهىٰ عن عبادة الأوثان.. ولٰكن ماذا عن هٰذا العصر المتطور المتحضر الراقي المعقد؟ إنهم يعتقدون أن الإسلام ليست له رسالة لهٰذا العصر.. فالقضية الرئيسة أن نعيد الإيمان إلىٰ نفوس الشباب، ثم نعيد الثقة بصلاحية الإسلام وبأن الإسلام هو دين الله الأخير الخالد الذي لا دين بعده.

فالمشكلة الحقيقية التي نعيشها الآن هي تأرجح الشباب المسلم بين عملية الهدم وعملية البناء.. بين التعمير والتخريب.. بين النفي والإثبات.

❋ ❋ ❋

قراءة الظروف والتعامل معها

◎ أما ترون بأن أحد وجوه هٰذه المشكلة، أن بعض قيادات العمل الإسلامي المتصدرة للدعوة الإسلامية لم تستطع تقديم الأنموذج الحي الكامل المتوازن للشباب المسلم مما جعله يعيش هٰذا التأرجح الفكري والإيماني إن صحّ التعبير؟

⊙ أنا لا أنفي هٰذا.. ولا أقول إن القائمين بالدعوة الإسلامية قد مثَّلوها أحسن تمثيل، الدعاة طبقات وأنماط ومدارس وأنواع، ولٰكن ليست المسؤولية علىٰ الدعاة فقط بل علىٰ البيئات كذٰلك.

أنا أعتقد أن الإسلام لم يُسمح له في أي بقعة من بقاع الأرض أن يُظهر كوامنه، أعني الطاقة المذخورة الكامنة فيه.. لن يستطيع الإسلام والممثلون للإسلام، سواء من الدعاة أو المثقفين أو من علماء الدين، إظهار محاسنه، فلم يستطع الإسلام في حضانتهم وتحت إشرافهم أن يُظهر براعته وقدرته بكل حرية في الحلول الإنسانية، قدرته علىٰ حل القضايا الإنسانية،

وقدرته علىٰ تكوين بيئة جديدة وصبغة جديدة للحياة. . لم تتح لهم الفرصة الكافية ولا الحرية الكافية ليُبرز الإسلام محاسنه، ويُبرز ما عنده من طاقات مذخورة ومن صلاحيات كامنة؛ في حين سُمِح لكل فلسفة ولكل نظام من النظم الحديثة، سواء أكانت سياسية أو اقتصادية أو غير ذٰلك أن تثبت براعتها وقدرتها علىٰ الحدوث.

◎ يمكن أن يكون هناك وجه آخر للقضية فيما أعتقد:

لا شك بأن الأصل في الدعاة أو القيادات الإسلامية، أن يقدِّروا الظروف من حولهم ويحسنوا التعامل معها، بمعنىٰ محاولة تقديم الإسلام من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة؟

⊙ أنا لا أخالف هٰذا، وأعتقد أن كثيراً من الدعاة قد راعوا الظروف المحيطة بهم واجتهدوا أن يمثل الإسلام أو أن يقوموا بالدعوة الإسلامية في تلك البيئة والظروف التي كانت محيطة بهم، إن كثيراً منهم قد قاموا بواجبهم أو ببعض واجبهم. . ولا شك أن مراعاة الظروف لازمة لا بد منها. . لٰكن إذا كانت الظروف قاهرة وإذا كانت هي التي تخنق الدعوة وتكمم الدعاة؛ هنالك يصعب علىٰ أي داعية مخلص ـ مهما بلغ من الإخلاص والمقدرة واللباقة ـ أن يقوم بواجبه كاملاً.

* * *

طريق العودة

◎ نحن نلمح أن الكثيرين تحدثوا عن أسباب تخلُّف المسلمين، وكان إجمال الإجابة في سبب هٰذا التخلف هو بُعد المسلمين عن الإسلام ـ وهٰذا أمر لا شك فيه ـ لٰكن دون القدرة الكاملة علىٰ رسم طريق العودة. فالابتعاد عن الإسلام والانسلاخ منه قد أخذ مراحل طويلة وعمراً طويلاً أيضاً؛ ودون القدرة علىٰ تقديم صورة عملية ـ من خلال الظروف ـ ورسم طريق العودة، علىٰ مراحل، من خلال الإسلام نفسه قد

لا يجدي العلاج. . فما هي في رأيكم ملامح طريق العودة إلىٰ الإسلام التي يمكن أن تُقدم للمثقف المسلم في هٰذا العصر؟

⊙ معلوم أن الدين الوحيد الذي ليس مسؤولاً عن تأخر أتباعه، هو الدين الإسلامي. فإذا كانت النصرانية هي المسؤولة عن عرقلة السير في طريق التقدم وإحداث مشاكل كان النصارىٰ في غنى عنها وعن حروب لم يكن هنالك داعٍ لها. فالإسلام ليس مسؤولاً عن تخلف المسلمين؛ إنما المسلمون هم المسؤولون عن تخلفهم وحدهم لابتعادهم ـ كما تفضلتم ـ فالمنهج الصحيح عندي هو عرض تعاليم الإسلام عرضاً صحيحاً وشائقاً وبصيراً. . عرضاً مطابقاً لعقلية الشباب.

وكما أوصانا سيدنا علي بن أبي طالب ﷺ: «كلِّموا الناس علىٰ قدر عقولهم، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله؟!. .».

فإذا كان الذي يقوم بالدعوة إلىٰ الله هو أنموذج للحياة الإسلامية الصحيحة المثالية، فإذا جمع بين العمل والعلم الصحيح ثم بين العرض كذٰلك، فأنا متأكد من أن الشباب سيقبلون تعاليم الإسلام وسيترسمون خطوات الإسلام في حياتهم.

❋ ❋ ❋

فقه الداعية وثقافته؟

◎ إننا نرىٰ في العالم الإسلامي كثيراً من الإخلاص الآن. لٰكن المشكلة أن هٰذا الإخلاص قد يوظَّف في غير المكان المجدي، أو في غير الطريق الشرعي، أو قد يجنح عن الطريق الشرعي، أو قد نكون عاجزين عن تقديم الأوعية الشرعية لهٰذا الإخلاص في حركة الشباب، كقيادات لترشيده، وبذٰلك يمكن أن يعود علىٰ صاحبه وعلىٰ المجتمع الإسلامي ببعض المساوئ والمخاطر، أو أن يساهم سلبيًّا في الإساءة للإسلام دون أن يقصد ذٰلك!!

⊙ في الحقيقة هٰذا سؤال دقيق، لأن الدعوة هي من المقاصد التي ما يمكن أن تحدد، ما يمكن أن ترسم لها خطوط وحدود، لأنها ترجع إلىٰ وعي الداعي وحكمته. فكما يقول بعض بلغاء الغرب إن الحرب والحكم ما لهما ضوابط وحدود مرسومة. كذٰلك أنا أعتقد أن الدعوة الإسلامية ما يمكن أن نحدد لها حدوداً مرسومة وضوابط صارمة.. هٰذا يرجع إلىٰ دراسة الداعي للبيئة وللظروف وللمستويات العقلية المختلفة التي يتحلّىٰ بها الشباب مثلاً أو بعض الطبقات.. فلا نستطيع أن نقول: ينطلق من هنا ويقف هناك، ثم ينطلق من هنا ويقف هناك، ليس هناك دليل مثل دليل القطار أو مثل دليل البلد مثلاً.. الأمر يرجع إلىٰ فقه الداعي، هٰذا الفقه الذي يقوم علىٰ دراسة السيرة النبوية دراسة عميقة ودقيقة، ويتوقف علىٰ دراسة القرآن كذٰلك دراسة دقيقة وعميقة، وعلىٰ سِير الأنبياء وأحوالهم مع أممهم، ومعرفة نفسيات الشباب، كذٰلك يحتاج إلىٰ شيء من علم النفس، وإلىٰ العقل المؤمن المودع في نفس الداعية.

❋ ❋ ❋

السيرة ومواقع حياتنا

◎ هٰذا يذكرني بسؤال آخر: بعض العاملين للإسلام في هٰذه الأيام يحاولون ـ بالتعبيرات الحديثة ـ أن يسقطوا علىٰ سلوكهم بعض صور من السيرة، أو يُوجدوا مسوغات من بعض آيات القرآن الكريم لتصرفاتهم، يعني يحددون موقعهم من السيرة أو يسقطون السيرة علىٰ موقعهم، فيصبح الإخفاق في هٰذا الموقع، أو التعثر في ذاك، أو عدم بلوغ الكمال من خلال ذٰلك الموقع يوقع الشباب المسلم بشيء من الارتباك والإحباط والانكسار النفسي الذي قد يمتد إلىٰ قضية الثقة بالسيرة والقرآن.. كأنني أرىٰ في هٰذه القضية ـ والله أعلم ـ بأن تبقىٰ للسيرة مكانتها وتميزها، ونحن كبشر نخطئ ونصيب نحاول الاهتداء بها، ومن ثم نقترب ونبتعد عنها بمقدار ما يؤتىٰ كل منا من الخير، أمّا أن نسقط

السيرة - إن صحّ التعبير - علىٰ بعض مواقع حياتنا الإسلامية اليوم، فهنا المشكلة، أرجو من خلال معاناتكم وكتاباتكم في السيرة أن تلقوا لنا أضواء علىٰ هٰذه النقطة لأنها خطيرة جدًّا كما نلمح الكثير من آثارها اليوم.

⊙ في الحقيقة، كل علم يخضع لأهواء المؤلف أو الداعية أو الخطيب أو الأديب أو الكاتب، لا يُستثنىٰ علم من العلوم، حتىٰ القرآن كذٰلك استخدمه كثير من الفرق الإسلامية، كما تعرفون (الخوارج والمعتزلة وغيرهم) وبعض العلماء الكبار والكتّاب في حديثهم عن القرآن، سرد حجج جميع الفرق الإسلامية سواء أكانت ضالة أو كانت علىٰ هدًى، فكل فرقة وكل مدرسة فكرية في الإسلام احتجّت بالقرآن. فكل علم يمكن أن يخضع لمقاصد خاصة ولمخططات خاصة.. وهٰذا يرجع إلى أمانة الإنسان، وشعوره بالمسؤولية، وخشيته للّه تعالىٰ، ووقوفه أمام الله الذي نزَّل هٰذا الكتاب علىٰ الرسول الذي عرض هٰذه السيرة في الحياة الطيبة.. نستطيع أن نرسم له حدوداً مثلاً، يقتبس من هٰذا ويترك هٰذا، ويطبقه تطبيقاً جزئيًا وتطبيقاً كليًا.

نقتبس من السيرة المعاني الكريمة، نقتبس منها الحوافز والدوافع القوية، ولٰكن لا نُخضع السيرة لواقعنا، أو نجعلها شاهداً لما نفعله.

❋ ❋ ❋

التطرف.. وترويج المصطلحات

◎ ننتقل إلىٰ نقطة أخرىٰ، يمكن أن تعتبر قضية الساعة بالنسبة للعمل الإسلامي: يصف كثير من الناس - وعلىٰ مستويات متعددة - كوسيلة من وسائل حرب الإسلام نفسه، دعاة الإسلام بشكل عام أو بعض دعاة الإسلام في بعض الأماكن من العالم الإسلامي، بالتطرف والتزمُّت والتشدُّد وما إلىٰ ذٰلك من النعوت، لشل حركة الدعوة

الإسلامية، وتخويف الناس من الاستجابة لها، وإحاطة العاملين للإسلام بجو من الرعب حتىٰ يمكن أن نقول: إن هٰذه التهمة أوجدت نوعاً من الحواجز النفسية بين الناس وبين الإسلام حتىٰ إن بعض دعاة الإسلام أنفسهم وقعوا في هٰذا الشرك الذي نصب لهم فبدأوا يتحدثون عن التطرف ويسكتون عن جرائم أعداء الإسلام.. ولا شك بأن خصوم الإسلام يستغلون بعض صور التطرف ـ بعض الصور الشاذة ـ ويوظفونها لأغراضهم، فما هي في رأيكم الوسيلة الناجعة لمعالجة هٰذه القضية؟

⊙ من الموافقات البشرية في حياة الأمم وفي حياة الديانات كذٰلك أنها تروج مصطلحات يستغلها المغرضون دائمًا لإسقاط معنًى أو لإحراج عامل مثلاً أو داعٍ أو مفكر. فكانت كلمة الصابئة هي الكلمة الأولىٰ التي استغلتها قريش، فمَن دخل في الدين الإسلامي قيل إنه صبأ أو صابئ. ثم في القرون الوسطىٰ بالنسبة للتاريخ الإسلامي لا أقول بالنسبة للتاريخ العام كانت كلمة الوهابية.. وكلمة المحافظين مثلاً والمتزمتين.. هٰذه كلها كلمات دقيقة وكلمات مرنة يمكن أن تستخدم لغرض صالح، ويمكن أن تُستغل لغرض شنيع. فالتطرف في استخدام هٰذه الكلمة تطرف.. قد تطرف الناس في استخدام كلمة التطرف.. كانوا متطرفين في رمي بعض الجماعات بالتطرف، لا شك أن هناك تطرفًا، ومغالاة، وتزمتاً وجموداً، هٰذه كلها حقائق واقعية ولٰكن تطبيقها علىٰ الأشخاص، وتطبيقها علىٰ حوادث خاصة، وعلىٰ مدارس فكرية خاصة، يحتاج إلىٰ عدل، يحتاج إلىٰ وزن صحيح دقيق. لم يكن الناس في الحقيقة دقيقين في استخدام هٰذه الكلمات.

◎ نعود إلىٰ الكلام في قضية التطرف.. ما هي في اعتقادكم ـ ومن خلال الرؤية التي ترونها ـ أسباب التطرف الذي يقولون بأنه قائم وموجود؟

⊙ في الحقيقة، الرمي بكلمة التطرف نشأ كرد فعل. كما تعرفون في بعض البيئات الإسلامية، لما ابتعد المسلمون عن تعاليم الإسلام، الذين أرادوا أن يُعيدوا المسلمين إلىٰ التعاليم الإسلامية قد رموهم مثلاً بالجاهلية، يقولون: إنهم جاهليون وإن حياتهم جاهلية ـ بمعنىٰ الجاهلية التي كانت قديمة سابقة

للإسلام ـ فهناك تطرف في إطلاق هٰذه الكلمة علىٰ أناس عندهم تقصير في العمل مثلاً، أو أنهم ليسوا علىٰ المستوىٰ الكامل، المستوىٰ الرفيع من التطبيق الإسلامي، رميهم بالجاهلية هٰذا فيه تطرف. كذٰلك هناك تطرف عملي، مثلاً بعض الناس يُلزمون كل واحد أن يكون دقيقاً في كل سُنَّة مثلاً في أول يوم، لا يتسامحون معهم بل يريدون أن يكونوا مثلاً كاملاً للاقتداء بالرسول ﷺ والعمل بالسنّة من أول يوم دون تدرُّج. هٰذا فيه ما ينافي الحكمة، وفيه شيء من التطرف.

التطرف يكون من جانبين: التطرف من السلبيين، والتطرف من الإيجابيين.

❊ ❊ ❊

قياس مع الفارق

◎ كأنما المجتمع الذي أَلِف حياة معينة بعيدة عن الإسلام، يرىٰ في الذي يخرج علىٰ هٰذه الحياة المألوفة والمعتادة لديه غرابة فيتهمه بأنه متطرف لأنه ما ألف هٰذا اللون من الالتزام بالسلوك الإسلامي.. حتىٰ إن بعض العاملين في حقل الدعوة وصف بعض الصور بأنه يمكن اعتبار أصحابها من الغلاة، كما كان الحال زمن سيدنا علي ﷺ حينما خرج عليه الخوارج، اعتبرهم من البغاة قياساً علىٰ حالة الخوارج، مع أن الأمر في تقديري قياس مع الفارق.

نرىٰ الوضع مختلفاً بالنسبة للمجتمعات الحديثة في أكثر من جانب، الحقيقة في نظري: أنه يتم توظيف الأحكام الشرعية التي كانت لحاكم مسلم في مجتمع مسلم في ظروف تاريخية معينة، لواقع آخر فيه كثير من الجوانب المختلفة في الصورة.

يعني: ما يسميه علماء الأصول قياساً مع الفارق.. فأريد بعض الإضاءات علىٰ هٰذه النقطة إذا تكرّمتم علينا؟

⊙ أنا أوافقكم مائة في المائة في أنه قياس مع الفارق، فليس الآن حكم

سيدنا علي ﷺ أو مَن يقوم مقامه مثلاً من الخلفاء الراشدين الذين يمثلون الخلافة الإسلامية الصحيحة، فإذا لم تكن هناك خلافة إسلامية ولم تكن هناك خلافة راشدة، فالذي يعارض الحكم بالوسائل المشروعة ويدعو لتطبيق الإسلام لا يُعتبر خارجاً ولا باغياً.

وما يمكن إطلاق القول في ذٰلك إطلاقاً كليًا، إنما يختلف باختلاف الظروف، باختلاف الأسباب الدافعة إلىٰ ذٰلك. فقد يكون هٰؤلاء الذين خرجوا علىٰ أوضاع جائرة تحارب الإسلام حرباً سافرة، حرباً علنية، فيمكن أن يكونوا مجاهدين مثلاً في بعض الأمكنة وفي بعض الأحيان. ويمكن أن يكونوا متطرفين أو غلاة في بعض الأحيان.

◎ يعني، إذا سكتنا عن الذين لا يقرون الإسلام، ويعملون علىٰ إزالته، ونقدنا فقط الذين يعملون للإسلام بأسلوب مغلوط فنخشىٰ أن نساهم إلىٰ حد بعيد بعملية تكريس التطرف.

⊙ يجب أن نعطي كل واحد حقَّه من الحكم ومن التطبيق.. ننتقدهم إذا كانوا يستحقون النقد.. ننتقدهم بكل صراحة.

◎ يعني.. في الوقت الذي نتكلم عن أساليب بعض الإسلاميين لا بد لنا أن نتكلم عن انحراف وتقصير الآخرين، طبعاً بالحكمة والموعظة الحسنة.

❋ ❋ ❋

الأوعية الشرعية

◎ في العالم الآن توجه للإسلام، يمكن أن نلحظ آثار ذٰلك في أكثر من مجال، في إقبال الشباب علىٰ المساجد، وفي المؤلفات الإسلامية، وفي انتشار المؤسسات والمراكز الإسلامية في كل أنحاء العالم، في أوروبا وأمريكا. يعني: حركة المد الإسلامي التي أسموها الصحوة الإسلامية أصبحت سمة بارزة؛ ما هي في رأيكم الأمور الملحّة الآن لترشيد هٰذه الصحوة والأخذ بيدها في السير الإسلامي السليم الصحيح؟

⊙ أعتقد أن الركن الأساسي في هٰذا هو تعميق الفكرة الإسلامية. فإن هٰذه الصحوة أخشىٰ أن تكون أكثر سطحية منها عمقاً.. وأن تكون نشأت كرد فعل كذٰلك.. وردود الفعل لا بقاء لها طويلاً، إنما انعكاسات عصرية وسلبية، فيجب أن نُعمق الفهم الإسلامي، وألّا نتأخر في استثماره.. فإذا أهملناها نخشىٰ أن تفقد القوة وترجع إلىٰ الوراء.

◎ أي أن هٰذه الصحوة عبارة عن رد فعل لظروف وضغوط وواقع عصري معين، فإذا لم يُستفد منها وتوضع لها الأوعية الشرعية وتُعقَّل أو تُرشّد بشكل صحيح، يخشىٰ أن تكون آنية؟

⊙ نشأت من السآمة، من المادية الرعناء التي طغت في هٰذا العصر، وظهر رد الفعل لهٰذا في كثرة الانتحارات مثلاً، وفي الإقبال علىٰ روحانية متطرفة مثلما تسمعون عن الكثير من الرهبان الهنود الذين يؤمنون بهم في أمريكا، ويكون عليهم إقبال كبير، حتىٰ في الكويت سمعنا أن أحد الرهبان الهنود قد ذهب إلىٰ هناك وبدأ يعرض الحلول للحياة، لمشكلات الشباب، وكان عليه إقبال كبير. وهٰذا كله بسبب رد الفعل. فهٰذه السآمة دائماً، إذا درسنا تاريخ السآمة دائماً تقف عند حد.. فإذا انتهت إلىٰ هٰذا الحد ينشأ رد فعل آخر.

❋ ❋ ❋

عوامل النجاح والفشل

◎ إن تجارب العمل الإسلامي في مجال الدعوة إلىٰ الله أصابت في بعض الجوانب، وكان لها أيضاً بعض السلبيات.. هل يمكن من خلال استقراء واقع هٰذه التجارب، تحديد عوامل النجاح والفشل للعمل الإسلامي اليوم، علىٰ ضوء التجارب الميدانية ليكون ذٰلك بصيرة للدعاة والعاملين للإسلام؟

⊙ أكبر عوامل النجاح أولاً: الإخلاص والتفاني في الدعوة، والتجرد عن الشهوات، تجردًا عن استغلال هٰذه الدعوة لمآرب ولمنافع شخصية. ثم:

الابتعاد عن إثارة المشكلات التي ليست بواقعية وليست بلازمة. فإننا نلاحظ أن كثيراً من الدعاة يثيرون مشكلات ويثيرون صداماً، ويدخلون في معارك قبل وقتها فيتورطون في مآزق وفي مشاكل كانوا في غنًى عنها.. كان يمكن لهم أن يشقُّوا طريقهم إلىٰ الأمام من غير أن يتعرضوا لها. وهناك نماذج من الدعوة الإسلامية في هٰذا المجال، ومن أنجح هٰذه النماذج النجاح الذي حققه الإمام السرهندي في الهند مثلاً، ابتلي بحكومة قوية من أقوىٰ الحكومات ليس في البلاد الإسلامية فقط، بل علىٰ وجه الأرض.. وكانت هٰذه الحكومة مندفعة، متجهة إلىٰ محو الإسلام من هٰذه البلاد، لأسباب كثيرة يطول ذكرها.. بحثتها في كتابي «الإمام السرهندي» الذي صدر أخيراً. اختار الطريق الأسلم والأكثر فائدة.. الطريق الهادئ.. لم يصطدم بالحكومة، ولٰكنه أثّر في البلاط.. أثّر في أركان الدولة.. صار يراسلهم ويتصل بهم ويثير فيهم النخوة الإسلامية والحمية الدينية، يقول لهم: أنتم مسلمون، وآباؤكم كانوا مسلمين، والبلاد الآن متجهة إلىٰ البرهمية وإلىٰ اللادينية، فيجب أن تقوموا لهٰذا وأن تتجهوا بالدولة الوجهة الإسلامية، فاستطاع أن يصرفهم إلىٰ نفسه وأن يحتضنوا هٰذه الدعوة وأن يتبنوها، فقاموا والتفُّوا حوله.

ولما مات الملك أكبر الذي كان معادياً للإسلام لأسباب كثيرة، لما لقي حتفه، جاء الملك (جهانكير) وكان خيراً منه، وكان الإمام السرهندي قد هيّأ الجو لهٰذا الملك، فاجتمعوا حوله ووجهوه إلىٰ الوجهة السليمة، إلىٰ تبني الإسلام والانتفاع بهٰذه القوة الجبارة، فاستطاع أن يحوّل تيار البلاد من المعاداة للإسلام ومحوه إلىٰ حماية الإسلام. أصبح الملك حامياً للإسلام بعدما كان ماحياً للإسلام، وأصبح خادماً للإسلام بعدما كان هادماً للإسلام. استطاع هٰذا الرجل الوحيد الأعزل الذي كان يعيش في ركن من أركان هٰذه الأرض الواسعة، استطاع بفضل الألم والتوجع الذي ملكه والإخلاص والتجرد الخالص الكامل ـ الذي ما كانت تشوبه شائبة من الأنانية ومن حب الدنيا ـ والفهم الكامل للظروف والإمكانات؛ استطاع أن يحول هٰذا التيار من جهات معادية معاكسة إلىٰ جهة موافقة ومطابقة للإسلام.

فأنا أقول: يجب علىٰ الداعي أن يحترز بقدر الإمكان عن إثارة

المشكلات حوله وعن إثارة العداوات والإحن. . والسبب الكبير الذي يبعث الإحن والعداوات هو إذا رأت حكومة ما أن هٰذا الرجل يريد أن يأخذ مكانها، فالمسلم إنما هو صاحب دعوة وهو ناصح مخلص ليس له غرض أبداً، حتىٰ إذا اطمأن أن هٰذا الرجل نفسه أو هٰذه الحكومة نفسها تطبق ما يريد تطبيقه في هٰذه البيئة فهو من أول المرحبين، وأول المساعدين لهٰذا الرجل وهٰذه الحكومة. . هٰكذا فعل الإمام السرهندي. ليس المقصود إبدال شخص بشخص وإبدال أسرة بأسرة، وإنما استبدال حسن بسيئ لا سيئ بحسن، من حيث النتيجة.

◎ **كأنما يبدو لي ـ والله أعلم ـ كتتمةٍ لهٰذه الصورة، أنه يمكن أن يكون من السلبيات التي أصابت العمل الإسلامي، عدم القدرة علىٰ تحديد الموقع الذي يستطيع الدعاة التحرك من خلاله بدقة، فكان الأوْلىٰ بهم أن يحددوا المواقع التي تتوافق مع الإمكانات التي يملكونها.**

هل تعتقدون بأن ترك المسلمين للمواقع التي يستطيعون أن يكونوا فيها فاعلين إلىٰ المواقع التي لا يستطيعون أن يفعلوا فيها، كان من السلبيات التي أصابت العمل الإسلامي؟ هلا تفضلتم بإيضاح هٰذه النقطة؟!

⊙ هٰذا كان منهج الدعاة الأولين وفي مقدمتهم وعلىٰ رأسهم رسول الله ﷺ حين كتب إلىٰ هرقل يقول: «. . . **أسلِم تسلَم يؤتك الله أجرك مرتين. .**» البدء أولاً بدعوة الشعوب والبلاد ـ التي كانوا يفتحونها ـ إلىٰ الإسلام. فإذا قبلوا الإسلام، أهلاً وسهلاً، أنتم أصحاب البلاد، أصحاب الكرسي تنفذون أوامر الله تبارك وتعالىٰ. وإذا لم يقبلوا هٰذا فالجزية. . وإذا لم يقبلوا فالحرب إذاً. ولٰكن نحن نخشىٰ أن نكون قد عكسنا القضية. . الحرب أولاً. . وأنتم تعرفون أن الإنسان مفطور علىٰ المحافظة علىٰ ما يملكه.

◎ **وسؤالنا الآن، أيضاً، هو وجه آخر للقضية:**

من خلال التجارب التي عشتموها وعايشتموها: ما هي أفضل الوسائل في العصر الحديث التي علىٰ الدعاة التزامها لنشر هٰذا الدين خلال الظروف الحاضرة؟ نعني بذٰلك نوعاً من إعطائهم الضوء الذي يسيرون عليه؟

⊙ والله، لم يزل ولا يزال - إلىٰ أن يرث الله هٰذه الأرض ومَن عليها - الشيء الأول والأكثر تأثيراً هو الأنموذج العملي (ما يسمىٰ بنشر الدعوة بالقدوة العملية، التربية بالقدوة)، التجرد من الشهوات، من الأنانيات، والإخلاص للّه تبارك وتعالىٰ، والتوجه للفكر وللدعوة، ثم عرض الفكرة الإسلامية في أسلوب عصري شائق، وموافق للمستوىٰ العقلي الذي يعيشه الجيل الجديد، إذا قلت هٰذا فإنني لا أعني أنه يجب علىٰ الداعية ألّا يستخدم المصطلحات السياسية والعصرية كما - لعلكم - لاحظتم في كتابنا «التفسير السياسي للإسلام»، ولٰكن لا بد أن يكون الأسلوب أسلوباً عصريًا إلىٰ حدٍّ يتفق مع روح الإسلام، خشية الخروج عن هٰذا الروح!!

❋ ❋ ❋

المناصحة واجب شرعي

◎ في القضايا الفكرية نصل إلىٰ السؤال الأخير.. في تقديري، يعتبر كتابكم الأخير «التفسير السياسي» مساهمة من مساهمات المناصحة - ولا أقول النقد الذاتي - في مجال العمل الإسلامي. ويعتقد كثير من العاملين للإسلام بأن عملية المناصحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو ما يسمىٰ بالنقد الذاتي تعرض العمل الإسلامي لشيء من خلخلة الصفوف، وترسم بعض الثغرات للعدو لينفذ منها، وتؤثر بشكل سلبي علىٰ واقع العمل الإسلامي؛ مع أننا نعتقد بأن التصويب والمناصحة، إلىٰ جانب أنه واجب شرعي لا يملك الإنسان المسلم إزاءه اختياراً، نعتقد بأن فائدته علىٰ العمل الإسلامي نفسه، من حيث متانة الصفوف ورسوخ العمل وصلابة الأرضية التي يقف عليها، أقوىٰ بكثير من السكوت عن الأخطاء التي تؤدي إلىٰ انهيار العمل الإسلامي.. وهٰذه قضية أرىٰ أن تتوسعوا لنا في الإجابة عليها؟

⊙ هٰذا سؤال قد يكون محرجاً بالنسبة إليّ، ولٰكنه سؤال قد يفتح الآفاق

ويزيح الستار عن بعض سوء فهم أو سوء تعبير. في الحقيقة أنا أعتقد أن السر في بقاء الإسلام أنه دين محفوظ من التحريف، مهما أخلّ به أتباعه وقصّروا في تطبيقه، والسر في بقاء هٰذا الدين علىٰ أصالته هو: قيام علماء الدين في كل عصر بنفض الغبار عنه، وبالتنبيه علىٰ المغالطات التي تأتي من المنحرفين، المغالطات التي تأتي من الأعداء أمر هين.. ولٰكن المغالطات التي تأتي من جهة الدعاة، من جهة المفسرين للإسلام الفاهمين له، بعض الفقهاء. هٰذه مغالطات دقيقة جدًّا، وتشكل محنة للعقل الإسلامي ومحنة للعمل الإسلامي.. فنرىٰ في تاريخ الإصلاح، في تاريخ الدعوة الإسلامية، في تاريخ الفكر الإسلامي، أن العلماء لم يقصروا في تنبيه الفقهاء علىٰ أخطائهم وفي تنبيه الصوفية والزهّاد والنُّسَّاك علىٰ مغالطاتهم، وفي تنبيه الحكام علىٰ مغالطاتهم، في وقت واحد.

فإذا كانوا قد شعروا أن هٰذا قد يُحدث اضطراباً أو قد يُحدث ما لا تُحمد عاقبته من فقد الثقة بالدعاة، كان هٰذا ربما يمنع من الاستمرار في هٰذا الاتجاه. ولٰكنهم وفقهم الله، عرفوا أنه بالمقدار المناسب، المقدار الذي لا بد منه إذا كان هٰذا النقد بإخلاص، وإذا كان هٰذا النقد باعتراف وبتقدير مَن ينتقدونه، ولٰكنه بمقدار مناسب وإلىٰ حدٍّ مناسب فهٰذا في صالح الدعوة الإسلامية وفي صميمها.. في الحقيقة هو العمود الفقري في الدعوة الإسلامية.

لعلكم تعرفون ما كان بيني وبين الأستاذ المودودي من صلة طيبة، ومن صداقة قديمة.. ولعلي أنا الرجل الوحيد الذي فارق الجماعة وبقي علىٰ صلة طيِّبة مع الأستاذ المودودي مؤسس هٰذه الجماعة. حتىٰ اللقاء الأخير الذي تمّ في لاهور في سنة ١٩٧٨م، تلاقينا كأخوين، كصديقين قديمين، لا يزالان علىٰ ودهما وصداقتهما.. ولما قدمت له كتاب «التفسير السياسي» الذي انتقدت فيه بعض أفكاره أو تعبيراته بالأصح، استقبل هٰذا الكتاب وجاءني منه كتاب يشكرني عليه، ويطلب مني أن أطالع ما بقي من كتبه إذا كان بقي شيء، وأن أنبهه.. قال (لعلكم قرأتم): أنا لا أعدكم أني سأوافقكم مائة في المائة ولٰكني سأنتفع، وأنا لا أرىٰ نفسي فوق مستوىٰ

النقد. أنا كما قلت في مقدمة الكتاب: من رأيي أن النقد لا يطبق عليه قانون الاتجاه الواحد كما هو في البلديات مثلاً في تنظيم الشوارع والمراكب، النقد ذو وجهتين، إذا قام إنسان لانتقاد إنسان، لانتقاد جماعة، خصوصاً مَن سبقوه ومَن يمكن أن يكون أفضل منه، فهٰذا قد خوَّل لغيره حق نقده كذٰلك، في وقت واحد، وفي المنطق نفسه.. أنا أرىٰ أن هٰذه العملية يجب أن تستمر، عملية النقد، ولٰكن بإخلاص وبالمقدار المطلوب وبأمانة وبدقة وبرحابة صدر وبالاعتراف بفضل المُنْتَقَد، ولٰكن لا يقوم بها كل واحد.. إنما يقوم بها القادرون عليها، وهٰذا شأن كل فن وشأن كل وظيفة..

◎ يمكن أن نكون حصلنا علىٰ الإجابة. لٰكن مزيداً للإيضاح.. هل ترون أن هٰذا يؤثر علىٰ الصف الإسلامي بشكل سلبي، كما يعتقد بعضهم.. أم أنه يُمكِّن من بناء الصف الإسلامي؟

⊙ إذا كان الصف الإسلامي بهٰذه العقلية الضيقة، أنه إذا انتقد مثلاً موجهه أو منير الطريق له بشيء من الانتقاد، ثار فيه الغضب، فهٰذا الصف لا يُوثق به.. ليس بالمكان المطلوب من القوة ومن الثقة ومن الجدارة.. فيجب أن يكون كل صف إسلامي وكل جماعة إسلامية تقوم لخدمة الدعوة للإسلام، تكون عندها من رحابة الصدر ومن سعة الأفق ما يجعلها قادرة علىٰ هضم هٰذه الانتقادات وعلىٰ وضعها في المكان السليم، وهٰكذا كان الصحابة ﷺ.

❋ ❋ ❋

محاربة الحزبية

◎ ألا يخشىٰ أن ينقلب العمل الإسلامي الذي تسوده هٰذه العقلية التي ترفض النقد إلىٰ لون من الحزبية ونوع من الطائفية أيضاً؟

⊙ نعم.. العصبية والحزبية تؤدي إلىٰ التطرف، وكذٰلك إلىٰ تقديس أمير الجماعة أو منشئ الجماعة، وقد حدث هٰذا، ولاحظناه في الهند، وصل

الأمر إلى التقديس.. يعني: **يعتقدون أن مُنشئ الجماعة، لا أقول بالتحديد الجماعة الإسلامية، بل جماعات كثيرة، وإن لم يصرحوا بلسانهم، أن أمير الجماعة أو مَن كان له فضل في إنشائها قد بلغ من العصمة في نظرهم ما لم يبلغه الأنبياء.. وهٰذا الذي يجب أن نحاربه**، وقد حاربه الأستاذ المودودي بنفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ.. حارب هٰذه العقلية. وما نشأت هٰذه الجماعة إلا بمحاربة هٰذه العقلية، ولو كانت هٰذه العقلية هي المسيطرة لما نشأت جماعة جديدة، لو كان للجماعات القديمة حق البقاء لماذا تنشأ جماعة جديدة؟ لأنهم لا يعتقدون العصمة في الجماعات القديمة. فإذا لم يعتقدوا العصمة في الجماعات القديمة فلكل مسلم حقه في ألّا يعتقد العصمة في هٰذه الجماعة.

◎ هل يمكن أن نأخذ أنموذجاً تطبيقيًّا لهٰذه القضية؟

⊙ أنموذج سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ في قضية المهر، لما نبهته امرأة من الصحابيات حينما أراد أن يحدد المهور قالت:

«كيف يجوز لك يا أمير المؤمنين والله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا...﴾ [النساء:٢٠] والقنطار هو أكثر مما تحدده أنت؟!»، كذٰلك يقول سيدنا عمر ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا» فيقوم في ركن من أركان المسجد أحد من عامة المسلمين فيقول: لا نسمع ولا نطيع..!!

لماذا؟

قال: لأنك تلبس حلة كاملة!! رداءين.. وقد وزعت الأردية رداءً رداءً.. فقال: أين عبد الله بن عمر؟ فقام، فقال: ماذا تقول؟ قال: إنما وهبتُ ردائي لأبي..!!!

وله أمثلة كثيرة.. يقول سيدنا أبو بكر ﷺ:

«... إذا أخطأت فقوّموني...»!!

❋ ❋ ❋

حقيقة أحداث آسام

◎ يسمع المسلمون في كل مكان بالمجازر الرهيبة التي تقع علىٰ إخوانهم المسلمين في الهند في منطقة آسام.. كما سبق وسمعوا بالمجازر التي وقعت علىٰ إخوانهم في المخيمات بلبنان.. حبذا لو حدثتمونا عن هٰذه القضايا من جوانبها المختلفة..

⊙ قضية «آسام» التي شغلت الرأي العام الآن، ليس في الهند فقط؛ بل في العالم الإسلامي وفي خارج العالم الإسلامي كذٰلك، واقع مرير ومؤسف.. فقد اشتغلت عدة عناصر وعدة دوافع في تكوين هٰذا الواقع..

القضية ابتدأت من صراع بين مَن يسمونهم أجانب أو نزلاء.. الذين نزحوا من باكستان في الحرب التي وقعت بين باكستان والهند. وأبناء البلاد، الأهالي، لما عندهم من عدم صلاحية في بعض المجالات وعدم نشاط، اعتبروا هٰذا هجوماً عليهم وتسلُّطاً علىٰ المنطقة وعلىٰ وظائفها الرئيسة وإمكاناتها الكثيرة. لأن الأهالي، أبناء البلاد، عندهم شيء من الضعف والفتور والكسل، وهؤلاء كانوا نشيطين فاعتبروهم نزلاء.. من هنا بدأت القضية. وكان الهدف جميع الأجانب وجميع النزلاء، وكان العدد الأكبر من غير المسلمين طبعاً، لأنه لما قامت الحرب بين باكستان والهند وعرف الهندوس الذين بقوا في شرقي الباكستان أنهم سيفقدون مركزهم في باكستان وأنهم سيستهدفون لمشاكل كثيرة، نزحوا إلىٰ أرض الهند، المنطقة الهندية..

كانت القضية، قضية الأجانب والنزلاء، قضية وطنية، ولٰكن يبدو أنه في الدور الأخير لعبت أشياء دورها في هٰذه القضية، وحُوِّلت القضية إلىٰ قضية طائفية، إلىٰ صراع بين الهندوس وبين المسلمين. ولما كان الشرطة أكثر عددهم من الهند ومن الهندوس وهم كما جُرِّب في مناطق الهند كلها، هم اشتغلوا بالهجوم علىٰ المسلمين وحمَّلوهم خسائر كثيرة ووقعت مذابح ونُسفت قرىٰ بأسرها وأبيدت.. كانت إبادة شاملة في بعض المناطق. وكان المسلمون هم الهدف الأكبر.

هٰكذا عرفنا من مصادر وطنية ومن تتبعنا للأخبار، ولٰكن لا تزال

الصورة الآن فيها شيء من الغموض لذٰلك لا نستطيع أن نتأكد، ولٰكن الشيء المحقق أن المسلمين خسروا كثيراً وكانوا أهدافاً لمذابح كثيرة.

❋ ❋ ❋

الحصن الأخير

◎ علىٰ الرغم من أن أفغانستان تعتبر الحصن الأخير للمسلمين في شبه القارة الهندية ـ كما عبّرتم عن ذٰلك في إحدىٰ رسائلكم ـ فإن قضية أفغانستان لا تعتبر قضية محلية، ولا تنحصر بين شبه القارة الهندية وروسيا، فقد جاء الغزو الروسي لينذر بخطر يتهدد مواقع أخرىٰ متقدمة، حيث بات واضحًا أن الهدف من الغزو الشيوعي هو التسلل إلىٰ أجزاء العالم الإسلامي واحتوائه بالقوة علىٰ مراحل، وتجربة احتلال الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي لا تزال ماثلة..

هل تلقون بعض الضوء علىٰ هٰذه القضية الهامة؟ وما هي توقعاتكم لمستقبلها؟

⊙ أدليتُ ببيانٍ ضافٍ فيما يتصل بهٰذه القضية، وفي الحقيقة مأساة أفغانستان مأساة كبيرة، لأن أفغانستان كانت الحصن الأخير للمسلمين في شبه القارة الهندية، وكما قال الأمير شكيب أرسلان في حواشيه القيِّمة علىٰ حاضر العالم الإسلامي: إنه إذا سكن كل عرق في العالم الإسلامي فإن العرق الإسلامي في أفغانستان لا يزال متحركاً.. وهو كان مدخل المسلمين الفاتحين في الهند.. دخلوا من مضيق خيبر إلىٰ الهند، وكانت أفغانستان تزوِّد الهند بخيرة المجاهدين وخيرة العناصر.. فكون أفغانستان تفقد شخصيتها الإسلامية فمعنىٰ ذٰلك أن المسلمين في كل العالم الإسلامي يفقدون حصناً من حصونهم.

وعرف الأفغان بالنخوة الإسلامية وبالشجاعة والحماس، ولم يستسلموا لأي فاتح أجنبي أو لهجوم أجنبي إلا للمسلمين فقط. فقد اعتبروا المسلمين

حملة رسالة الإنسانية والمساواة، فلم يستسلموا لهم إنما قبلوهم طواعية.

والإسلام هو الضيف الأجنبي الوحيد الذي دخل فأصبح صاحب البلاد، أصبح مضيفاً وأصبح جزءاً من البلاد لا يمكن فصله من أفغانستان.. واختمرت طينة أفغانستان بالإسلام وبتعاليم الإسلام، وظلوا محافظين، معتزين بالإسلام، مستميتين في سبيل الإسلام إلىٰ آخر يوم. ولٰكن كانت روسيا من قرون ـ كما يبدو من تتبع تاريخ الأفغان ـ بحكم جوارها وبحكم وقوع أفغانستان بين باكستان وبين الهند وبين روسيا، كانت روسيا تطمع في أفغانستان من زمان.. ولٰكن الملوك الأفغان المسلمين الغُيُر رفضوا هٰذا، وظلوا محافظين علىٰ حريتهم.. وعرّفنا التاريخ أن الإنجليز أرسلوا جيشاً من الهند لتدويخ أفغانستان ولإخضاعها، ففني هٰذا الجيش كله، وما بقي إلا طبيب واحد رجع من مضيق خيبر، وأخبر نقطة (مركز) الجيش في الهند بالمأساة، أن الجيش الإنجليزي أبيد كله.

في الحقيقة بقاء أفغانستان علىٰ شخصيتها الإسلامية وبخصائصها الأفغانية كان مصدر قوة كبيرة ليس للهند فقط، لشبه القارة الهندية، بل للعالم الإسلامي كله.. وضياعها كدولة مسلمة وكشعب مسلم غيور، معناه أن الجسم الإسلامي قد فقد جزءاً سليماً وجزءاً قويًّا من أجزائه. لذٰلك لا تعتبر قضية أفغانستان قضية محلية ولا قضية تنحصر بين شبه القارة الهندية وروسيا، بل هي قضية إسلامية عامة.

وبقي الأفغان إلىٰ هٰذا اليوم، وهي مدة قياسية بالنسبة إلىٰ ما يملكه المجاهدون من إمكانات ومن عدد ومن مادة، بقي الأفغان يجاهدون في بلادهم لمدة لا نعرفها لبلد آخر، وهو البلد الوحيد الذي صمد في وجه الزحف الروسي الأحمر في تاريخ هٰذا الزحف علىٰ البلاد الإسلامية علىٰ طوله.

❋ ❋ ❋

المجتمع الهندي.. والفراغ

◎ قد يكون من المناسب الآن أن نتناول قضايا المسلمين في الهند..

والقضايا في الهند كثيرة، وجوانب العمل الإسلامي كثيرة، والثقافة الإسلامية كثيرة، فنريد أن تحدثونا عما ترون عن الوضع الإسلامي في الهند والثقافة الإسلامية في الهند..

⊙ في الحقيقة: الوضع الإسلامي في الهند يبعث الأمل. لأن هناك فراغاً في الهند، في شبه القارة الهندية خصوصاً في هٰذه المنطقة فراغ هائل، فراغ خلقي، وفراغ ديني، وفراغ روحي.. فراغ لا يملؤه أحد إلا المسلمون.. فالمسلمون هم وحدهم الذين يستطيعون أن يملأوا هٰذا الفراغ، وأن يُنقذوا هٰذه البلاد من الهوة العميقة السحيقة التي تتردىٰ فيها وباندفاع وبسرعة. لأنه الآن تغزو المجتمع الهندي الأنانية وحب المال، حب المادة الزائد، نخشىٰ علىٰ البلاد من الانهيار القريب. فالمسلمون هم وحدهم، بفضل تعاليمهم الإسلامية، بفضل أنهم يحملون كتاباً سماويًا يؤمنون به ولا يزالون يحملونه، وبفضل ما عندهم من بقايا الإيمان علىٰ علاتهم، بفضل ما عندهم من رمقٍ للإيمان، من نفس يتردد فيهم، وقد فقدها المجتمع الهندوسي فقداً تامًّا، أفلس فيه إفلاساً إلىٰ آخر حدٍّ.

فالمسلمون وإن لم يكونوا مثاليين في ذات أنفسهم، ولٰكن بالنسبة للبلاد هم الأمل الوحيد، فيستطيعون أن يكونوا مقام القائد، منقذ البلاد.

والثقافة الإسلامية كذٰلك، بحمد الله، للمسلمين نشاط فيها. والأمل الكبير في المدارس الشعبية، في المراكز الثقافية، والبيوت الشعبية التي تعيش علىٰ مساعدات الشعب فقط، علىٰ إعانات الشعب، ولعله الأنموذج المفقود في كثير من البلاد الإسلامية، تجدون هناك المراكز الرئيسة مثل ديوبند ومظاهر العلوم في سهارنفور..

وهنا ندوة العلماء، لا تأخذ ولا فلساً واحداً من الحكومة؛ مع إلحاحها في أن تقدم مساعدات بأسماء مختلفة، بعناوين مختلفة، ولٰكن استطاعت بحول الله هٰذه المراكز الثلاثة أو الأربعة، أن تحافظ علىٰ حريتها وشعبيتها إلىٰ هٰذا الوقت.. فالأمل فيها كبير، لأنها لا تدخل في سيطرة الحكومة، ولا تستطيع الحكومة أن تسلط عليها رغبتها مثلاً، أو منهجاً

تربويًا خاصًا أو تفرض عليها أشياء.. لا.. ثم لا تزال فيها روح التضحية وروح الذي يقوم بالاحتساب.. العمل المتطوع لا يزال باقياً في هٰذه المراكز. فالشباب الذين يتخرجون فيها ينبثون في البلاد دعاة وخطباء وصحفيين ومؤلفين ومرشدين للشعب.. قليل منهم مَن يدخل في وظائف حكومية مثلاً أو يدخل في اختبارات رسمية ثم يتولىٰ بعض الوظائف الرسمية أو يذهب إلىٰ بعض البلاد العربية، يدخل في جامعات حكومية، ويتخرج فيها ويتوظف، هٰذا قليل نادر. ولٰكن الأغلبية هي التي تخرج من هٰذه المدارس وتتولىٰ مناصب دينية شعبية براتب زهيد، وبراتب كانوا يستطيعون أن يتقاضوا أكثر منه بسهولة.

❋ ❋ ❋

عطاء المسلمين الحضاري

◎ لا شك بأن المسلمين ـ فيما نعتقد ـ هم أصحاب الحضارة الحقيقية في الهند، وأن ما يملكونه من العقيدة ومن التاريخ الحضاري والثقافي يفتقده المجتمع الهندي ككل..؟

⊙ أنا تحدثت عن هٰذا بالتفصيل في كتابي «المسلمون في الهند»، وذكّرت بشهادات قائمة علىٰ شهادات الهندوس أنفسهم، من كبار الأساتذة في الجامعات، ومن كبار المؤرخين في الهند بما فيهم جواهر لال نهرو رئيس الوزراء الأسبق وغيره، أنه لولا جهود المسلمين لبقيت هٰذه البلاد متخلفة جدًا، في كل مجالات المدنية، فإنتاج المسلمين، ما أهدوا إلىٰ هٰذه البلاد من الهدايا الاجتماعية والخلقية والمدنية الحضارية، هدايا ذات قيمة كبيرة.. فمثل الهند كمثل امرأة متحلية، غنية في الحلي، تتجرد عن حُليِّها فتصبح عاطلة، كذٰلك الهند عندما اكتست وازّيَّنت وظهرت كان ذٰلك بفضل المسلمين وبفضل دينهم، بفضل الحضارة التي جرّبوها في خارج الهند وقامت حكومات متحضرة، وقامت مجتمعات متمدنة، وقامت منظمات راقية وجامعات كبيرة، هٰذا كله نقلوه إلىٰ الهند.

كانت الهند علىٰ طبيعتها البدائية.. كانت الهند متأخرة في كل شيء.. فجاء المسلمون فتناولوا من الأشجار إلىٰ الحيوانات، ومن الحيوانات إلىٰ البشر، ومن البشر إلىٰ المنظمات والمدارس الفكرية، هٰذا كله معترف به عند الهندوس، عندهم كتابات في هٰذا.

◎ هل تسعىٰ المراكز العلمية الإسلامية (ديوبند والندوة) الأربعة التي ذكرتموها، إلىٰ لون من تأصيل هٰذه المعاني في نفس الجيل المسلم الجديد، ليستطيع أن يستأنف العمل الإسلامي ويعتز بالحضارة الإسلامية، ويعتبر أنه هو صاحب الحضارة الحقيقية في هٰذه البلاد؟

⊙ أستطيع أن أتحدث عن ندوة العلماء، أنا من المسؤولين عنها ومن المشتغلين فيها، أستطيع أن أقول: إن أبناء ندوة العلماء والمجامع العلمية التي أنشؤوها والمجلات الراقية التي يحررونها، عن طريق هٰذه المجلات وعن طريق المجامع العلمية وفي مقدمتها المجمع العلمي الكبير في «أعظم كَره»، «دار المصنفين» التي عقدت ندوة عالمية في موضوع الاستشراق، [أعظم كَره، قرية من لكنوء فيها أكبر مجمع علمي في الهند يسمىٰ «دار المصنفين» كان يرأسها العلامة الشيخ سليمان الندوي صاحب كتاب «الرسالة المحمدية».. أنا الآن المسؤول عنها ومن أعضائها] عن طريق المجمع العلمي «دار المصنفين» في «أعظم كَرَه» وعن طريق المجمع الإسلامي العلمي عندنا في ندوة العلماء، نشرنا كمية كبيرة من الكتب بالإنجليزية وباللغات المحلية، وبعض اللغات الإقليمية، كذٰلك عرضنا فيها محاسن الإسلام وما أضافه المسلمون إلىٰ هٰذه البلاد.. ما أغنوا به هٰذه البلاد، وهٰذه الكتب والنشرات منتشرة بحمد الله في الهند ويقرأُها كثير من الهندوس كذٰلك بالإنجليزية، بأسلوب أدبي رفيع. كذٰلك تعتبر هٰذه الكتب مراجع في المواد التي تبحث عنها.

الحمد للّه، تعريف الجماهير الهندوسية الهندية بفضل الإسلام في بناء الحضارة الهندية، هٰذا عمل جارٍ..

هناك والحمد للّه ظاهرة طيبة سارة، وهي أنه أصبح الجيل الإسلامي

الجديد أكثر اعتزازاً بالإسلام من الجيل القديم الذي نشأ في حضانة الإنجليز في أيام الحكم الإنجليزي.

❋ ❋ ❋

مشاريع مستقبلية

◎ هل يمكن لنا أن نسأل عن آخر الأشياء العلمية أو الاهتمامات، أو الكتب المنتظرة، أو المعالجات الفكرية التي تعدونها أو تفكرون فيها، أو المشاريع العلمية للمستقبل إن شاء الله؟

⊙ في نيتي أن أكمل سلسلة كتب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام».. قد ظهر الجزء الثالث، وسيخصص الجزء الرابع لبحث دور حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدهلوي بن عبد الرحيم الدهلوي.. الذي أعتبره من عمالقة ومن أقطاب الفكر الإسلامي، ولعله لا يساويه في سعة الفكر، وفي شمولية الفهم الإسلامي أحدٌ في القرون المتأخرة. ولعله يلي شيخ الإسلام ابن تيمية في أصالة الفهم للإسلام.. سيكون هٰذا الجزء الرابع.

وقد بدأت أؤرخ حياتي في فترتي الأخيرة، لأن هنالك تداخلاً بين العصر والشخصية، بعضهما في بعض. فإذا أرَّخت حياتي مثلاً خمسين سنة إنما أؤرخ العالم الإسلامي، أؤرخ القارة الهندية.. شبه القارة الهندية، وكبرىٰ الحركات التي ظهرت فيها، وما كان لي من سهم فيها ومن تفاعل معها.

أنا أخصص وقتي إلا إذا كنت في سفر وتنقل، لا أضيع يوماً والحمد للّه، أخصص وقتاً خاصًا، ثلاث ساعات أو أربع ساعات في الكتابة مهما كانت الأعمال والظروف.. في السفر قد أستطيع وقد لا أستطيع.. إنما أشتغل في الصباح من ثلاث إلىٰ أربع ساعات علىٰ حسب المواسم والفصول للكتابة.. ثم، أنا أعتمد القراءة أكثر من الكتابة.. أولاً أجمع المعلومات المبعثرة في صفحات الكتب. أجمعها وأكوِّن منها فكراً ثم أبدأ بتسجيلها.

◎ **هل يمكن أن تتوجهوا بنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم؟**

⊙ أعتقد أن العالم الآن، ليس العالم الإسلامي بل العالم الإنساني، علىٰ مفترق طرق.. ونعيش في دور حاسم مُقرر للمصير.

فيجب علىٰ المسلمين أن ينقذوا الإنسانية وأن يقوموا في أقرب وقت ليأخذوا بزمامها ويوجهوها وألّا يفلتوا الزمام فتفوت الفرصة.

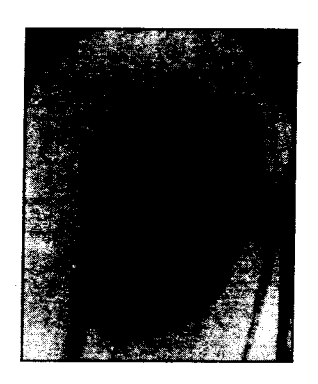
وقد أخفق المعسكران جميعاً علىٰ ما عندهما من محاولات لتغطية هٰذا الفشل، ولٰكن قد أخفقا إخفاقاً ذريعاً.. المعسكر الغربي والمعسكر الشرقي، ولا أمل إلا في الإسلام والمسلمين، لذٰلك لا بد أن يعرف المسلمون رسالتهم، وأن تعرف حكوماتنا الإسلامية ومجتمعاتنا الإسلامية رسالتها، وتعرف القوة الكامنة، وتعتمد علىٰ شعوبها.. وأنا أعتقد كما قلت في كثير من المناسبات أن الشعوب الإسلامية من أقوىٰ الشعوب البشرية ومن أسلمها ومن أكثرها إخلاصاً وحماساً. فإذا استعانت الحكومات بهٰذه الشعوب واعتمدت عليها من غير أن تكون هنالك حرب بين الحكومات والشعوب كما هو واقع الآن.. المؤسف أن المعركة الوحيدة القائمة علىٰ قدم وساق هي المعركة بين بعض الحكومات والشعوب، لا أطلق القول إطلاقاً لكنْ أقول الكثير من الحكومات الإسلامية، والشعوب الإسلامية.

فالقوة الآن تضيع في جهاد من غير جهاد، في غير ساحات العدو، فإذا عرفت الحكومات، حكوماتنا العربية والمتسمية بالإسلام، إذا عرفت قيمة هٰذه الشعوب واعتمدت عليها واستعانت بها وأثارت ما عندها من كنوز، تستطيع أن تُكوّن أقوىٰ معسكر وأقوىٰ جبهة عالمية.. [الخصائص العقيدة وخصائص الشعوب].. والذين جابوا البلاد، والمتبصرون يقولون: إن الشعوب الإسلامية في الشرق هي من أفضل الشعوب إطلاقاً.. يمكن أن يُعتمد عليها، لأن الشعوب غير الإسلامية كلها إما منافقة وإما منحرفة.. الإخلاص الذي يوجد عند المسلمين علىٰ ضعفهم، ليس له نظير ولا يوجد في غيرهم.. والكلمات الدينية: الله، الرسول ﷺ،

الشهادة في سبيل الله، الجهاد.. لا يزال لها سحر في نفوس المسلمين ليس لأي كلمة عند أي شعب. فيمكن أن تساق وأن تثار، وأن تحرك الشعوب وتؤثر على العالم، لأن هٰذه المعاني قد فقدت قيمتها، وفقدت مفهومها عند شعوب العالم.

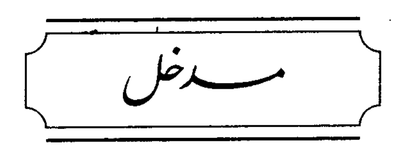
رمضان ١٤٠٣هـ ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٣م

□ □ □ □ □ □



مقوّمات التغيير

الدّكتور أحمد العسّال



■ من مواليد قرية الفرستق مركز بسيون ـ محافظة الغربية ـ جمهورية مصر العربية.

■ أتمّ حفظ القرآن في مكتب القرية.

■ تخرّج في كلية الشريعة جامعة الأزهر عام ١٩٥٣.

■ وحصل علىٰ دبلوم الدراسات القانونية عام ١٩٥٨.

■ دكتوراه في الدراسات الإسلامية من جامعة كامبردج.

■ شارك في تحرير مجلتَيْ «منبر الإسلام» في الأوقاف و«الوعظ» في الأزهر، كما شارك في إنشاء قسم الثقافة والدراسات الإسلامية في جامعة الرياض.

***

من مؤلفاته

ـ الإسلام وبناء المجتمع، والنظام الاقتصادي في الإسلام.

ـ يعمل حاليًا نائباً لرئيس الجامعة الإسلامية العالمية للشؤون الأكاديمية في إسلام أباد.

● يرىٰ: أنه لا بد من تغيير الرؤية والتصور في ذهن المسلمين العاملين، لأننا في عالم اختلفت قسماته وتحركاته، واختلفت ظروفه،

ولا نزال نجد كثيراً من العاملين قد انتزعوا صورة العمل الإسلامي من الفترات الماضية ثم جمدوا عليها وتحنطوا بها. فالعقلية الإسلامية بحاجة إلىٰ تغيير بحيث تستوعب ظروف العصر الذي تعيش فيه، وعملية إعداد الدعاة تحتاج أيضاً إلىٰ إعادة نظر.

● وطريق التغيير في نظره يتمثل في:

- إصلاح منهج العلوم الشرعية.

- معرفة العلوم العصرية بطريقة جديدة شمولية.

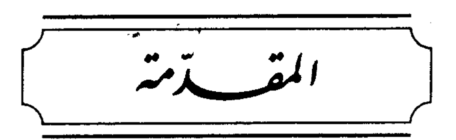
- ممارسة الحياة الإسلامية ممارسة واقعية.

● **ويعتقد**: أن العاملين للإسلام يخطئون خطأً كبيراً حينما لا يربُون الناس علىٰ روح الأمة بحيث لا يفرق الإنسان بين أي فرد فيها، وإنما يأخذ الجميع إلىٰ مرضاة الله ﷻ، وأن الإنسان يبلغ مرحلة الرشد عندما يبدأ بمحاسبة نفسه ووزن أعماله استجابة لقول الرسول ﷺ: «**مَن ساءته سيئته وسرّته حسنته فهو مؤمن**».

● **ويرىٰ**: أن الرفض حالة من التوتر الشديد أمام أزمة، وليس هو الموقف الطبيعي المستمر، والأصل في الإسلام أنه دعوة وبلاغ.

وأن من الضروري أن يتنبّه الإنسان إلىٰ ما في يده، فكثير من الناس تختلط عندهم الأمنيات بالإمكانات، ويمدُّون أبصارهم إلىٰ خارج ولايتهم، ولهٰذا ينبغي بذل الجهد في تحسين كل ثغرة يقف عليها أي مسلم أو أي داعية، فهٰذا التحسين سيصبح فيما بعد شلّالاً ضخماً يمد الأمة بالنهوض والارتقاء إن شاء الله.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المقدمة

■ *لمّا كان الدكتور أحمد العسّال أحد رموز الدعوة الإسلامية الحديثة، وكانت مشكلات المسلمين وسبيل النهوض بهم هاجسه الدائم وشغله الشاغل، كان لا بد أن نغتنم الفرصة المناسبة لإجراء هذا الحوار معه حول مجموعة من قضايا الدعوة المطروحة؛ ترشيداً للطاقات الإسلامية، وتسديداً للطريق، ومجاوزة للمنعطفات التي يمكن أن تعوق المسيرة الإسلامية. .* ■

◎ **وابتداءً كان لا بد لنا أن نتعرف علىٰ وجهة نظر الدكتور أحمد العسال في ضرورة طرح موضوع المراجعة والنقد، ودراسة أسباب التقصير، وتحديد مواطن القصور علىٰ طريق الصحوة الإسلامية.**

⊙ حينما يصحو الإنسان يفكر في نفسه ويحاول أن يقوّم مسيرته. فمقياس الرشد في الإنسان والأمة واحد. ورشد الإنسان أن يحاسب نفسه، ويزن أعماله، والرسول ﷺ يقول: «**مَن ساءته سيئته وسرّته حسنته فهو مؤمن**» وما من معركة من معارك الإسلام الكبرىٰ إلّا وقوّمها القرآن الكريم، ففي غزوة «أحد» مثلاً يذكر جوانب القوة ومقومات وعوامل النصر.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [آل عمران].

***

أدوات التغيير

وما من شكٍّ أن من الخطر الداهم أن تُترك الأمة تجتر آلامها دون أن نفتح أمامها أبواباً للخير والحل حتىٰ تستطيع أن تتغلب علىٰ المشاكل والمحن التي تواجهها.

وإذا أردنا أن نوجد حلًّا لهٰذه القضية الكبيرة، فمما لا شك فيه أن أولَ طريق للحل هو الاهتمام بتغيير الرؤية والتصور في ذهن المسلمين العاملين، ذٰلك أننا نعيش في عالم اختلفت قسماته وتحركاته، واختلفت ظروفه، بينما نجد كثيراً من العاملين للإسلام قد انتزعوا صورة للعمل الإسلامي من الفترات الماضية ثم جمدوا عليها وتحنطوا فيها، وهٰذا يُدخلنا في أخطر قضية واجهت المسلمين وهي: التقليد للجمود..

وحين جاءنا الإسلام بالشريعة الربانية والدعوة العالمية وأمرنا بالجهاد والاجتهاد، إنما كان يحدد لنا ألَّا نتعبد أو نُعبِّد الناس إلاً بما أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ، وكل ما يأتي بعد ذٰلك أشكال تتغير تبعاً للعصر والظروف، فالعقلية الإسلامية في حاجة لأن تتغير بحيث تستوعب ظروف العصر الذي تعيش فيه، ولا يمكن أن يغيِّر المجتمع إلا الدعاة والعاملون للإسلام، ولذٰلك فإنَّ عملية إعداد الدعاة والعاملين للإسلام تحتاج إلىٰ إعادة نظر.. وتجدني كإنسان عاش في جامعات عريقة وكليات إسلامية، أحس بالفارق الكبير بين ما ينبغي أن يكون عليه هٰؤلاء الدعاة والعاملون وبين الواقع الذي نعيشه، والحل هو: العناية الهائلة بإعداد الدعاة والعاملين.



المؤثر والمتأثر

إن الظروف الأخيرة التي عاشها العالم الإسلامي خفَّ فيها وزن العلماء، وخفَّ فيها استيعابهم وإعدادهم حتىٰ لم تعد هناك مسافة واضحة بين المؤثر والمتأثر. وقد منحنا الله سبحانه وتعالىٰ صورة عظيمة لإعداده

أنبياءه.. وحينما ننظر إلىٰ سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، نجد كيف أعدّ الصحابة إعداداً قويًّا هائلاً.. وحينما نقترب من الدعاة المخلصين الصادقين علىٰ مرِّ العصور ممن تركوا بصماتهم علىٰ الحياة، نجد أن إعدادهم كان هائلاً.. ولذٰلك لا يمكن أن ننتظر حلولاً سهلة بدون أن نعطي عناية هائلة جدًّا لأدوات التغيير، وهٰذه الأدوات ما هي إلا هٰؤلاء الدعاة والعاملون للإسلام.. إذ ليس من شك في أن الدعاة للأمة كالرأس للجسد.. هم العقل الموجّه والمربي والقائد..

◎ ما هي الطرق والوسائل العملية التي تقترحونها لإعداد دعاة قادرين علىٰ القيام بالعملية التغييرية من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة؟

⊙ إن عملية الإعداد عملية شمولية. وإنَّ الذين يُباشرون هٰذا الإعداد ينبغي أن يعاشروا الحياة، وأن يأخذوا أقساطاً من المعرفة ـ مرحليًّا ـ فإذا أردنا أن نهيئ طلبة العلم الشرعي ليقوموا برسالة الإسلام، فهناك ثلاثة محاور لا بد من أخذها في الاعتبار:

أولاً: إصلاح منهج العلوم الشرعية، وذٰلك باستخلاصه من القضايا التي تضيع وقت الطالب؛ حتىٰ نتمكن من إدخاله في الفهم الأصيل للإسلام في مظانه الصحيحة، وفي تجربة الأمة الإسلامية.

ثانياً: معرفة العلوم العصرية بطريقة جديدة وشمولية؛ فمن غير أن نعرف العالم الذي نعيشه، لا نستطيع أن نقدّر الخطوات التي سُبِقت بها الأمة الإسلامية.

ثالثاً: ممارسة الحياة الإسلامية ممارسة واقعية من خلال وسط إسلامي نظيف.

إضافة إلىٰ ذٰلك، لا بد أن نمنع عن الداعية الفوضىٰ الذهنية. فمن الأشياء التي نشكوها عملية القفز، إذ بينما لا يزال الطالب في مرحلة مبكرة من الدراسة، نأتي ونشوش ذهنيته بقضايا لمّا يحن موعدها، ولا يتمتع هو

بالعمر العقلي أو الثقافة الكافية لإدراكها ولمعالجتها ومناقشتها أو للحوار فيها. . وهٰذا يجعله لا يقدّر قيمة العلم ومعرفة الحقائق ووضعها في مكانها تماماً.

***

الأوعية الشرعية لحركة الشباب

◎ ألا تعتقدون أن تعليل ظاهرة الشوشرة الذهنية وعملية القفز التي نراها عند الجيل عامة، حتىٰ في الوسط الإسلامي، يعود إلىٰ خلو الساحة من علماء أثبات يفرضون قيمتهم العملية علىٰ الناس، أو أننا خلّينا بين الشباب وبين مصيرهم فلم نعش معهم، ولم نضع لهم الأوعية الشرعية الصحيحة من خلال علماء يفقهون العلم الشرعي وخلود الإسلام الذي يجب أن يستجيب لكل حالة من الحالات، ويفقهون إلىٰ جانب ذٰلك العصر وحاجاته؟

⊙ كما أوضحتُ فإن من مظاهر العلة الموجودة في المجتمع الإسلامي، ذٰلك الفراغ الهائل من الموجهين من العلماء الأثبات. . وكما هو معلوم فإنَّ الله تعالىٰ يبتلي الأمة حين يخليها من العلماء الصالحين:

«إنَّ الله لا يقبض العلم ينزعه انتزاعاً، وإنما يقبضه بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يبقَ أحد، اتخذ الناس رؤوساً جهّالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضَلُّوا وأضَلُّوا» لكن، في الوقت نفسه، ينبغي أن ننبه الشباب إلىٰ أن لكل شيء وسائله وأسبابه وسننه، وأن الطفولة لها حدود، وما بعد الطفولة له حدود أيضاً. . لا بد أن نقوم بعملية توعية كبيرة ليحترم كل واحد الحقيقة من حيث هي. . فإذا هو لم يعرف هٰذه الحقيقة، عليه أن يقف عند حدّه.

ومن الأمور الخطيرة، أننا سهّلنا للشباب القضايا فأضفنا إلىٰ مشكلاته ما سمّاه الأستاذ «مالك بن نبي» رَحِمَهُ اللَّهُ بذُهان السهولة، فإما أننا نستسهل الشيء جدًّا أو نستصعبه جدًّا لدرجة الشلل، وليس أدل علىٰ ذٰلك من

قضايانا الكبرىٰ التي حينما نتحرك لحلها، نتحرك بطريقة هوجاء..

وهناك أمثلة كثيرة، لا مجال لذكرها هنا، لٰكنها تدل علىٰ أنه حتىٰ أولٰئك الذين يفكرون في التحرير وفي القضايا الكبرىٰ يأخذونها بطريقة سهلة.

وأعتقد أن من المفاتيح الكبيرة للحل إعداد الدعاة بشكل جيد، إضافة إلىٰ تغيير النظرة العامة والرؤية الفكرية للمجتمع.. لا بد أن نعمل علىٰ أن نضع الأمة أمام مشكلاتها.. لا بد أن يفهم كل إنسان في الأمة الإسلامية أن هناك نقصاً في العطاء.. فحينما ننظر إلىٰ المجتمع الإسلامي الأول نجد أنه مجتمع عطاء بمعنىٰ الكلمة.. ولٰكن حدث بلاء عام في المجتمع الإسلامي، فأصبح الناس يعلقون مشاكلهم علىٰ حكامهم وينتظرون الحل، ليس من أنفسهم، وإنما أن يأتي إليهم من الخارج، وذٰلك حتىٰ في القضايا الكبرىٰ.. ولا شك أن هٰذه الظاهرة مرضية شديدة وخطيرة.. وحتىٰ حينما تنظر نظرة فاحصة إلىٰ المؤسسات التي تعمل داخل الأمة الإسلامية، تجد أنها لا تعمل بكفاءة، وما هٰذا إلا بسبب فقدن الروح الجماعية.

من هنا فإنَّ العاملين للإسلام يخطئون خطأً كبيراً حينما لا يربون الناس علىٰ روح الأمة، بحيث لا يُفرق المرء بين أي فرد فيها وإنما يأخذ الجميع إلىٰ مرضاة الله ﷻ وإلىٰ التعاون علىٰ البر والتقوىٰ.. وهٰذه نقطة خلل كما هي أيضاً نقطة حل..

فلطول الهوان الذي أصاب الأمة، أصبح كل واحد منّا يعيش في برجه أو يعيش في همه. ولم يعد الحسّ الإسلامي حسًّا حيًّا جماهيريًّا.. ولذٰلك ينبغي ـ حلًّا للمشكلة ـ إيقاظ العامة، لأن جماهير الأمة هم درع الإسلام وقوته.. لا بد أن نحرك الأمة بجميع أفرادها إلىٰ هٰذا المعنىٰ، إلىٰ استشعار قضاياها.. وهٰذا أمر هام جدًّا.. لٰكن من المؤسف أن تجد المتحدثين والمتكلمين يتحدثون عن قضايا جزئية، ولا يربطون الأمة بقضاياها الكلية والمصيرية.

***

النظرة التجزيئية

◎ ما هو تعليلكم لظاهرة النظرة التجزيئية وعدم القدرة علىٰ الالتزام بالجماهير ككل، وتوسيع دائرة المشاركة في العمل الإسلامي، وظهور بعض مؤسسات الدعوة الإسلامية وكأنها أجسام منفصلة عن قضايا الأمة وجماهيرها وإيقاظ روحها الجماعية؟

⊙ لهٰذه الظاهرة أسباب كثيرة، منها ما هو اجتماعي ومنها ما هو سياسي.. أما السبب الاجتماعي فهو غياب الوعي عن أفراد الأمة بالدرجة المطلوبة.

◎ الأصل أن إيقاظ الوعي منوط بالناس المتقدمين وعياً.. فإذا اعتبرت أن العاملين للإسلام هم العقل الذي ينبغي أن يحرك الأمة ويعيد لها وعيها، فالسبب في هٰذه الحالة يعود بالدرجة الأولىٰ إلىٰ وسائلهم في التعامل..

⊙ لقد حدث انقطاع في حياة الأمة.. فبدخول الاستعمار الغربي العالم الإسلامي، وجدت تيارات كانت تحرص علىٰ إيقاف المد الإسلامي، بدليل أنه في الفترات التي وجدت الأمة بعض الدعاة الأقوياء، استجابت..

◎ هل يمكن أن نعتبر، علىٰ ضوء ذٰلك، أن المشكلة كانت دائماً في عدم وجود الدعاة والعلماء الأقوياء المؤثرين القادرين علىٰ النهوض بالأمة ومعرفة كيفية الاتصال بها والتعامل معها؟

⊙ نعم.. وهناك قضية أخرىٰ تحتاج من العاملين للإسلام التفكير بجدّ.. وهي ـ كما أسلفت ـ ضرورة أن يغيّر الدعاة من أساليبهم ووسائلهم، بحسب كل مرحلة.. فإنهم أحياناً يسجنون أنفسهم في أنماط معينة لا يخرجون عنها، وهٰذا ممّا يمنعهم من ملاحقة ومتابعة قضايا الأمة.

وقد يكون من الأمور الخطيرة الآن مواجهة التيارات التعسفية التي تحجب الرأي الآخر عن الأمة.

وقد يكون من الأمور الخطيرة الآن مواجهة التيارات التعسفية التي تحجب الرأي الآخر عن الأمة.

◎ ليس من شك في أن الرصيد التاريخي للإسلام في نفوس الأمة، وميراثه الثقافي والحضاري الذي يتحقق من خلال المسجد والكتاب والدورية والصلة الشخصية، كان ولا يزال الحصانة الدائمة ضد التعسف الذي يمكن أن يقع.. وتبقىٰ الأمة المسلمة قادرة علىٰ العطاء إذا وهبها الله مَن يجدد لها أمر دينها.. لذٰلك نرىٰ في فترات التاريخ المتعددة أنه عندما يظهر عالم كابن تيمية أو أحمد بن حنبل رحمهما الله، يغيب من التاريخ ومن ضمير الأمة الجلاد والحاكم المستبد، ذٰلك يعني في كثير من الأحيان أن التعسف قد يكون موقظاً إذا وجد العالم العامل والداعية القادر علىٰ المواجهة بالطرق الشرعية...

⊙ هٰذا صحيح.. وهناك أنماط أخرىٰ لا تزال ماثلة للعيان مثل النمط البلغاري والألباني.. فمن المعروف أن ألبانيا كانت حتىٰ عام ١٩٣٨م بلداً غالبية سكانه مسلمون، وكان ملكهم يسمىٰ «أحمد زوغو» فلما فرض عليها هٰذا النظام الاستبدادي التعسفي الذي أغلق المساجد ومنع أداء الشعائر، انتهت إلىٰ ما نراه اليوم.. وهٰذه من القضايا الجديدة التي تواجه الأمة الإسلامية.



مراجعة لا رجوع

◎ يعتبر بعض العاملين للإسلام أن مراجعة الوسائل نوع من الرجوع عن الخط والعدول عن الطريق وعدم الثبات للمحنة.. فهل ترون أن هناك فوارق ـ في المقدمات علىٰ الأقل إن لم يكن في النتائج ـ بين ما يمكن أن يصنَّف في إطار الخطأ والتقصير الذي تجب مراجعته واكتشافه وتصويبه وبين ما يمكن أن يقع في دائرة الفتنة والابتلاء

الذي لا يد للإنسان في دفعه ورفعه؟.. وهل يمكن أن نأتي بنماذج للتقصير؟

⊙ من المسائل التي أصبحنا مقصّرين أو غير مستوعبين لعصرنا فيها، إحجامنا عن دخول الميادين الجديدة المؤثرة في مجتمعات الأمة الإسلامية، فتجد المسلم، في بعض الأحوال، يخاف علىٰ نفسه ويهتم اهتماماً كبيراً بذاتيته ولا يدخل إلىٰ ميدان من الميادين المؤثرة كميدان الإعلام مثلاً.. لو أجريت إحصائية بين الصحفيين أو الذين يعملون في وكالات الأنباء أو بين الذين يدرسون في الدراسات الاستراتيجية، لوجدت كمية المسلمين ضامرة وقليلة جدًّا، وهٰذا يبين أن التوجه الإسلامي توجه منكفئ نحو الذات وليس ناظراً للمستقبل.. بل حتىٰ علىٰ مستوىٰ المؤسسات ومستوىٰ الناس الذين لديهم قدرات مختلفة، تجد أن الأداء ليس موازياً لمثيله في المؤسسات الأخرىٰ..

◎ هٰذا يعني: أن القدرات الموجودة في العالم الإسلامي غير موظفة بشكل صحيح في المجالات المطلوبة والمجدية لهٰذه المرحلة.. ونعتقد ـ من بعض الوجوه ـ أن هٰذه القضية قد لا تكون بسبب من الخوف وإيثار الراحة أو تحكُّم النزوع إلىٰ الذات بقدر ما هو عطالة في الرؤية، بدليل أن المسلمين قد يقتحمون مواقع خطرة ومنزلقات غير مضمونة ويقدمون التضحيات الكثيرة التي تبرهن علىٰ روح فداء عالية جدًّا. لٰكن يبقىٰ، مع الأسف، أنَّ هٰذه الطاقات وُضعت في غير الآفاق والمواقع المجدية.. ونستطيع أن نقول بأن المسلمين لمّا يستطيعوا إلىٰ الآن حذف وإسقاط الحركات غير المجدية ـ أو تبديد الطاقات في المجالات غير المجدية من حياتهم ـ ولمَّا تتكون عندهم بعد الحواس التي تستشعر حاجات العصر ليتوجهوا إليها وتكون وسيلة من وسائل عملهم ودعوتهم..

⊙ لهٰذا، فإن الحاجة ماسة لمؤسسات التربية التي تنهض بطاقات الفرد العامل للإسلام من نواحيه المختلفة، بحيث تكون الطاقة الفكرية طاقة مبصرة

والطاقة العملية طاقة متقدمة، وهٰذا يحتاج لعملية صهر.. ربما نكون نجحنا في الجانب العام، فقد تجد الناس يتكلمون كثيراً ويخطبون كثيراً ويتحمسون كثيراً لكنهم يفقهون قليلاً، أو تجد الكمية الإنفعالية أكثر من الكمية العملية، وهٰذا ما نلحظه عندما ندخل مناطق مهمة جدًّا مثل مناطق المجاهدين الأفغان في بيشاور وغيرها، حيث ينبغي أن تكون هناك حركة دائبة لتأمين كفالة اليتامىٰ ورعاية الأرامل، ولكن تنظر هناك كيف ضمرت الأمة الإسلامية وكيف أصبحت قليلة القدرة علىٰ استيعاب المحنة.. بينما إذا نظرت إلىٰ مجتمع آخر حدث عنده شيء من ذٰلك، تجد القدرة علىٰ امتصاص المشكلة وتنظيمها.

◎ وقد تجد أيضاً من نتائج عدم القدرة علىٰ امتصاص المشكلة الواقعة وعدم إمكانية التعامل معها في العالم الإسلامي، كيف أن مشاكل الجفاف في بعض مناطق العالم الإسلامي كمثال، كان المجتمع الغربي أقدر علىٰ استيعابها، من وجه إنساني، أكثر من استيعاب العالم الإسلامي لها حيث فرضية التكافل الاجتماعي وحقوق الأخوة الإسلامية!

⊙ ولذٰلك، ينبغي التركيز الشديد علىٰ العمل في المؤسسات الاجتماعية بصبر وتقًى وإنكار للذات حتىٰ يمكن تحرير القاعدة العامة للمجتمع الإسلامي من هٰذه الأمراض التي أسقطته..

❋ ❋ ❋

رد الفعل ونمطية العمل

◎ هل تعتقدون بأن مؤسسات العالم الإسلامي الشعبية استطاعت إلىٰ حدٍّ ما أو ساهمت بشيء، في تفكيك هٰذه الصورة الواقعة؛ أم أنها حملت الأمراض التي يعيش فيها عصرها ويشكو منها؟

⊙ لا شك أن هٰذه المؤسسات ـ في مرحلة من المراحل ـ خلّصت الفرد

المسلم من عملية الإحباط وسلّحته بالأمل وأعطته حيوية، لٰكنها لم تستطع أن تستمر في أن تهيئه للدور الكبير الذي ينتظره، لذٰلك رجعت مرة أخرىٰ إلىٰ الخلف.

◎ قد تقول بأنها استطاعت ولا شك أن تحقق ذاتها وأن تخلص الفرد المسلم من عقدة مركب النقص التي أحاطت به، ومن عقدة الافتتان بالآخرين، ونقلته لعملية الاعتزاز بالإسلام والإيمان به.. لٰكنها، فيما نعتقد، توقفت عند هٰذه الحدود ولم تستطع متابعة الطريق.. بمعنىٰ أنها لم تستطع أن تتجاوز مستوىٰ الخطبة لتقديم شيء من البرامج في الإطار الاجتماعي والإنساني والثقافي، دعك من المجال السياسي.. وكثيراً ما يؤثر الجانب السياسي علىٰ الجوانب الأخرىٰ بالرغم من أن هناك فرصاً كثيرة متاحة يمكن ملؤها، فعدولنا عن هٰذه القضايا التي نمتلكها لنقف بنمطية وصفوف واحدة في العمل والوسيلة والنظر أمام الجدار السياسي الذي لا نستطيع أن ننقبه من خلال الصورة العالمية والتحكم العالمي، أضاع علينا الكثير من الطاقات والمجالات وأحبط النفوس التي لم تستطع أن تميز بأن هٰذا خطأ في التعامل وليس خطأ في المبدأ..

⊙ لقد وضعت يدك علىٰ موطن الجرح وهو الانشغال برد الفعل. فقد لبست المرأة الحجاب، وحتىٰ لا يكون ذٰلك ردّ فعل، فيجب أن يترافق ذٰلك بتحرك هٰذه المرأة لتأدية دورها الحقيقي في التكوين والتربية، وأن تُسلَّح بالعلم الشرعي والثقافة المطلوبة.

وكذٰلك حينما يظل الشباب واقفاً أمام مسألة الجدار السياسي ـ التي لا يستطيع حلها لارتباطها بقضايا أكبر منه ـ بدل أن يتحرك نحو شيء آخر يعمله وينفذ فيه، فذٰلك إنما يحدث بسبب غياب المنهج العلمي عن التفكير في المشكلة.. وكل مشكلة من المشكلات لها منهج بحث يجب أن تُبحث علىٰ أساسه حتىٰ يكون بإمكاننا طرح أكثر من حل لها.

***

◎ من خلال فرز الحلول ومواءمتها مع الطاقات والإمكانات للوصول إلىٰ النتيجة الأفضل تخطر لنا عدة قضايا نريد أن نتعرف علىٰ رأيكم فيها:

أولاً: لا شك أن الإصابات التي تعرض لها العالم الإسلامي، والإحباطات الكثيرة، أوجدت عنده حالة خاصة تكاد تكون غير سوية لأنها ثمرة لمواجهة أزمة أوجدت فكراً يمكن تسميته بفكر الأزمة.. لكن المشكلة أنه اعتبرها مقياساً ينظر من خلاله إلىٰ صواب العمل وخطئه، في ظروف الأزمات وغيرها علىٰ حدّ سواء..

ثانياً: عملية التعميم التي يمكن أن يقع فيها العقل المسلم الذي تعرض لأزمة في مكان ما فينجرّ إلىٰ التعامل مع سائر الظروف والأمكنة والأحوال والمتغيرات بالعقلية نفسها.

ثالثاً: إن استخدام الوسائل نفسها التي كانت لحالة أزمة معينة لمواجهة الحالات مطلقاً سيوقع الفكر والعمل الإسلامي بنوع من التخبط وسوء التعامل والرفض من قبل المجتمعات.

⊙ إذا أصيب الإنسان بحالة نظر واحدة، أصبح عنده ما يُسمىٰ بعمىٰ الألوان، بحيث يسيطر عليه شيء واحد ويرفض ما عداه.. وقد كان الفكر الإسلامي في مرحلة من مراحله رافضاً. وهٰذا الرفض حالة من التوتر الشديد أمام أزمة من الأزمات، وليس هو الموقف الطبيعي المستمر.. وتعبيرات القرآن الكريم مثل تعبيره مع أهل الكتاب.. ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ...﴾ [آل عمران: ٦٤] ترسم أرضية للواقع الذي نتعامل معه.. والأصل في الإسلام أنه دعوة وبلاغ. ونتيجة البلاغ والدعوة جهاد لإزالة العوائق.. ومعنىٰ البلاغ أن المسلم يمد يده دائماً للعالمين بدليل أنه في ليلة المعركة يكون الذي يحاربك عدوًا كافراً، ثم يصبح أخاك حينما يعتنق الإسلام.. ولذٰلك يمنع الفكر الإسلامي الأحكام المسبقة

والأحكام المطلقة على الناس والبناء على الظنون ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ...﴾ [الحجرات:١٢] إنه يفتح الباب على مصراعيه للتعامل الصحيح الحيّ، لذلك لا ينبغي أن يرتبط العمل الإسلامي بفكر موحَّد أمام قضايا متعددة، لا بد أن يكون فكراً متعدداً متنوعاً أمام القضايا المتعددة.. ولا بد من الإيمان بقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ...﴾ [البقرة:٢٥١] فهذه سنن المدافعة.. ومن سنن المدافعة أن يكون لكل حالة علاجها، ولكل قضية وزنها، ولكل مشكلة أسبابها وحلولها.. ومن الأشياء الهامة التي يقرأها الإنسان لشيخ الإسلام «ابن تيمية» أنه لم يحكم على التتار بحكم واحد، فمَن عامل المسلمين معاملة طيبة له حكم، والذين لم يرفعوا السيف لهم حكم أيضاً.

والنبي عليه الصلاة والسلام عندما عامل القضايا، عاملها بأحكام متنوعة وليس بحكم واحد.. وعالمنا الحاضر هو عالم الأخذ والعطاء وليس عالم الرفض والمصارعة..

◎ **لا سيما وأن العمل الإسلامي يفترض أن يكون وراءه احتساب وثواب، وليس محاكمة للناس وإصدار الأقضية عليهم.. ولا شك أن فكر الأزمة أوجد نوعاً من الشخصية الاقتحامية التي باتت تظن أن كل الأعمال التي لا تترافق مع صور اقتحامية معينة، محكوم عليها بالفساد، وأصبح مقياس الاستقامة والصلاح، مدى الارتطام والصدام، مع أن الأصل في الفكر الإسلامي هو أن يحل الأزمة لا أن يصنعها، وأن يغير الناس لا أن يقضي عليهم، وأن البلاء يكون بالخير كما يكون بالشر...**

⊙ لقد كانت أوامر الله ﷻ للرسول ﷺ في المواجهة دائماً: الصبر، التريث، المصاولة ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ﴾ [الأنعام:٣٤] ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف:٣٥] فكأن المساحة التي وضعها الإسلام للعمل أكبر من مساحة

عملية الاقتحام وأكبر من عمر الفرد وأكبر من الزمن.. ولهٰذا فعندما خيِّل إلىٰ المسلمين أنهم في حالة خوف وترقب، وصاروا مشلولين عن العمل الطويل والبناء، لم يسبقوا إلىٰ الحضارة لأنهم متوجسون خيفة.. والإنسان المتوجس خيفة لا يستطيع أن يفرغ لعمل ولا أن يقيم حضارة، فهو قلق وغير سوي..

***

تحرير النية والبحث عن الصواب

◎ يعزف بعض الناس عن المراجعة واكتشاف مواطن الخطأ والتقصير تحت شعار: أن هٰذا بلاء ومحنة من الله، وأنه لا بد لهم في قضية المحنة وما يمكن أن يترتب من حكم للّه تعالىٰ، ما هو الحد الفاصل بين ما يمكن أن يسمىٰ محنة وبين ما يمكن أن يعتبر مسؤولية الإنسان في مواجهة الخطأ والتقصير لإصلاحه؟

⊙ المسلم، الداعية بشكل خاص، مطالَب بأن يستفرغ جهده في إحسان العمل.. وإذا قصّر في الوصول إلىٰ إحسان العمل قصّر في أداء رسالته، والله تعالىٰ يقول: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولا بد أن نفرق بين أمرين كبيرين:

الأمر الذي يقع علينا دون أن يكون لنا يد فيه (قدّر الله وما شاء فعل) والأمر الذي من صنع أيدينا، وهو ما لا بد أن نراجعه.. ولقد اتخذ العلماء قول الله تعالى: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢] أساساً من أسس مبدأ القياس في أصول الفقه.. والآيات كثيرة ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ [آل عمران] ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧] فإذا كان الله يعلِّم عباده كيف يعرفون أنفسهم، فكيف يقصِّر المسلم في معرفة جوانب الخطأ وجوانب الصواب؟

◎ إن فوت النتائج قد يحول بين الإنسان وبين مراجعة المقدمات وإحسانها، للوصول إلىٰ النتائج الصحيحة تحت عنوان: عليّ أن أعمل وليس عليّ إدراك النتائج.. وقد امتدت هٰذه القضية إلىٰ درجة عطلت المراجعة واكتشاف مواطن التقصير، ذٰلك أنه حينما تتخلف النتائج، لا تنسب القضية إلىٰ المقدمات الخطأ؛ وإنما تنسب لأمر خارج علىٰ ذٰلك.

⊙ هٰذه قضية خطأ في الفكر الإسلامي.. فالإنسان مطالَب بتحرير النية وإخلاصها، وما لم يحرر النية فعمله مردود إليه.

◎ قد يحرر النية لٰكنه لا يبحث عن الصواب!

⊙ هو مطالَب بالأمرين، ولذٰلك لمّا أمره الله بأن يتحرر من الهوىٰ والشهوة، أمره كذٰلك باتباع أحسن الطرق ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨].

وهٰذا الاتباع لا يكون إلّا إذا قدح الإنسان زناد فكره واستفرغ وسعه. ولهٰذا سمي الاجتهاد استفراغ الوسع والطاقة للوصول إلىٰ أحسن النتائج، وحينما نتأمل سيرة المصطفىٰ ﷺ، نجده علّمنا استفراغ الوسع في الأخذ بالأسباب المؤدية إلىٰ النجاح.. والسيرة النبوية كلها عبارة عن خارطة واضحة جدًا في هٰذه القضية..

❋ ❋ ❋

بلاء حضاري

◎ يلمح الإنسان هنا أن المسلمين في قضايا دنياهم لا يطبقون هٰذه القاعدة، فإذا جاءوا إلىٰ حقل الدعوة والعمل الإسلامي يعفون أنفسهم من المسؤولية.

⊙ هو بلاء حضاري يصيب الأمرين معاً، لأن الأمرين متكاملان، فإذا

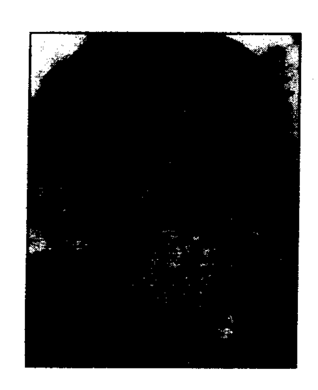
نظرت إلىٰ مستوانا في الزراعة والخدمات، تجد أن المجتمع الإسلامي عاجز عن أن يحقق الاكتفاء الذاتي وأن يخدم نفسه.. وما يقض المضجع ويدمي الكبد أن المؤسسات الكبرىٰ التي تعمل استشارات للمشاريع الكبرىٰ مثل الصرف والسدود، هي مؤسسات أجنبية، بينما نحن نملك العلم والمهندسين. ونحن لا نفرق بين أن يكون عندنا طبيب ممتاز ولا تكون عندنا ممرضة ممتازة مثلاً، فكيف بمرضانا يذهبون إلىٰ الخارج ولا يُعالجون في داخل الأمة؟.. إنه البلاء الحضاري..

◎ وفي ختام الحوار وجّه الشيخ أحمد العسال الكلمات التالية للعاملين للإسلام:

⊙ من الضروري أن ينتبه الإنسان إلىٰ ما في يده، فكثير من الناس تختلط عندهم الأمنيات بالإمكانات، ويمدون أبصارهم إلىٰ خارج ولايتهم.. ولهٰذا ينبغي أن نبذل جهداً في تحسين كل ثغرة يقف عليها أي مسلم أو أي داعية، فهٰذا التحسين سيصبح فيما بعد شلالاً ضخماً يمد الأمة بالنهوض والارتقاء إن شاء الله عز وجل.

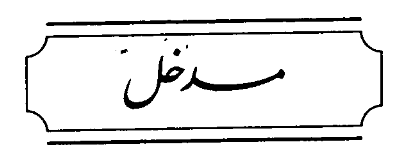
شعبان ١٤٠٦هـ ــ نيسان (ابريل) ١٩٨٦م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



حضارة الأزمة وموقع الإسلام في عملية الإنقاذ

الدكتور رشدي فكار



■ من مواليد الكرنك ـ جمهورية مصر العربية ـ سنة ١٩٢٨.

■ حاصل على الدكتوراه من جامعة باريس ودكتوراه الدولة من جامعة جنيف ١٩٦٧، ويعمل أستاذاً بجامعة محمد الخامس.

■ ينتسب بالعضوية لأكثر من ٢٤ جمعية دولية وأكاديمية.

■ يتجاوز إنتاجه العلمي حالياً مائة بين مؤلفات ودراسات وأبحاث وترجمات وتعليقات باللغة الفرنسية والعربية والإنكليزية نذكر منها على سبيل المثال:

- السوسيولوجيا (علم الاجتماع) والاشتراكية الدولية وأصول الماركسية ـ في مجلدين.

- المراهنة الصناعية ـ في خمسة مجلدات.

- علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية ـ معجم موسوعي عالمي ـ في مجلدين.

- الفرج بعد الشدة (نظرية القلق عبر الفكر الاجتماعي الإسلامي).

- الشباب وحرية الاختيار.

- أوجست كونت عملاق السوسيولوجيا وموقفه من الإسلام.

- الماركسية والدين.

- الإسلام بين دعاته وأدعيائه.

ـ تأملات إسلامية في قضايا الإنسان والمجتمع.

يرىٰ: أن المحاور الرئيسة لمنهج الدعوة والعمل الإسلامي تتلخص في:

● تفاهم المسلمين مع ذاتية الإسلام في عصرٍ طبع بالاستلاب وفجور النفس غرائزيًّا، هٰذا التفاهم الذي يقرب المسلم من السلوك السويّ، ويؤهله للسلوك القدوة حيث الفعل يطابق العمل.

● تفاهم المسلم مع إسلامه سوف يؤهله بدوره لإحياء حقوق الأخوّة حيث تتوحد القلوب بالإيمان، وتلتقي في الله.

● تفاهم المسلم مع عصره وهو عصر له خصائصه، ذٰلك أن العقل الذي ارتكز علىٰ العلم والمنهج والمعرفة والتكنولوجيا والتطبيق الصناعي هو في أمس الحاجة إلىٰ الإنسان القدوة لا في إنتاجه فقط لٰكن في سلوكه المتعادل، ليضفي علىٰ سمات عصر التقدم المادي إنسانية الإنسان المستنير بحوار السماء، وهو إنسان الإسلام.

يقول عن نفسه: بأنه متخصص بعلوم الكفار، ويعتز بأن المرجعية الإسلامية التي كونت المعالم الأولىٰ لشخصيته كانت ولا تزال هي الضمان والحصانة الثقافية التي حالت دون الذوبان في ثقافة الآخرين، ويرىٰ أن فترة الاثنتي عشرة سنة الأولىٰ من حياة الفرد هي فترة بناء المرجعية التي يجب أن تقتصر علىٰ الثقافة الذاتية دون أن يعكّر صفوها أي وافد، ثم بعد ذٰلك يكون الانفتاح علىٰ ثقافات العالم.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المقدمة

■ كثيرون من الذين تحدثوا وكتبوا عن سقوط الحضارة الغربية وترديها وعوامل انهيارها، علىٰ الرغم ممّا وصلت إليه من رقي وإنجاز «تكنولوجي» كانوا يُصدرون في حكمهم عن موقف هو أقرب إلىٰ الرفض العاطفي منه إلىٰ النقد المبرَّر، مستندين في ذٰلك إمَّا إلىٰ مشاهدات عابرة لمظاهر هٰذه الحضارة، أو إلىٰ مطالعات ـ قد لا تكون منظمة ـ لكتابات مؤرخي وفلاسفة القرن العشرين.. وقليلون هم الذين خبروا الحضارة الغربية ووقفوا علىٰ أرض الواقع يحلّلون معطيات العصر الاجتماعية والاقتصادية والتقنية؛ فتأتي شهادتهم ـ من ثم ـ من موقع الخبرة والمعاناة والتخصص المنهجي.. والدكتور «رشدي فكّار» الذي نحاوره يُعتبر من أبرز المفكرين المسلمين الذين عايشوا الحضارة الغربية وخبروها من الداخل، وتخصصوا بفكرها وعلومها لفترة تزيد علىٰ ربع قرن من الزمان.. وقد أتاحت له مشاركاته الكثيرة في المؤتمرات واللقاءات المختلفة علىٰ المستوىٰ العالمي الاطلاع أكثر علىٰ جوانب الأزمة في هٰذه الحضارة، والتعرف علىٰ شخصية إنسانها.. فاكتسبت بذٰلك شهادته وإدانته لحضارة الأزمة أو أزمة الحضارة المعاصرة قيمة خاصة ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

ويعتبر الدكتور «رشدي» أنموذجاً للمسلم الحصين الذي كان للمرجعية التي رُبِّي عليها في سنوات عمره الأولىٰ من خلال القرآن الكريم والحديث والسيرة والفقه واللغة العربية أثر كبير في حماية ذاته والمحافظة علىٰ أصالته الإسلامية.. ولعل ذٰلك ما جعله يؤكد تأكيداً

صارماً علىٰ خطورة مرحلة الطفولة ومراحل التعليم الأولىٰ حيث تتم فيها زراعة البذور لمستقبل الحياة الوجدانية والسلوكية، ويدعو إلىٰ تحريم اطلاع الطفل المسلم علىٰ أي انتماء آخر غير انتمائه الإسلامي الحضاري حتىٰ الثانية عشرة من عمره؛ كما تفعل ذٰلك الأمم الأخرىٰ كلّها مع أطفالها. .

ولنا هنا تحفُّظ عام ارتأينا الإشارة إليه بمناسبة الحوار مع الدكتور «رشدي» وهو أن مشكلة كثير ممّن تخصصوا بالفكر والفلسفة الغربية بشكل عام، ربما تكون في أنهم يتناولون المعرفة الإسلامية وحضارتها بوسائل البحث والمعرفة نفسها التي تحكم وتتحكم بالفكر الغربي، فقد تغيب في غمرة ذٰلك عن الأذهان مصادر المعرفة في الإسلام. . ومعلوم أن تفسير قصة الحياة وتحديد أهدافها وحماية إنسانها لا يتأتىٰ ـ في الإسلام ـ من المعرفة المتحققة من النظر العقلي فقط وإنما يتحقق بالدرجة الأولىٰ عن طريق المعرفة التي يوفرها الوحي.

وليس من شك عندنا، أن الدكتور «رشدي فكّار» بما يمتلك من اختصاص ومتابعة لفكر الأزمة وإنسانها سوف يكون الشاهد القادر علىٰ كشف الخروق والكسور التي تعاني منها الحضارة المادية بشقَّيها الرأسمالي والاشتراكي. . إنه يقف علىٰ ثغرة ويرابط في موقع علىٰ غاية من الأهمية. . إنه الموقع الذي يُورث الاعتزاز بالإسلام كدين إنساني يشكل الحلّ الوحيد لأزمة البشرية من جهة، ومن جهة أخرىٰ يكسب المسلم الاطمئنان إلىٰ سلامة الطريق الذي يسير فيه. ■



حضارة الأزمة

◎ يكاد يتفق علماء الفكر الغربي ـ سواء علىٰ المستوىٰ الفلسفي أو التقني ـ علىٰ أن الحضارة الغربية بالرغم مما وصلت إليه من تطور، تتجه إلىٰ طريق مسدود، وتقود البشرية إلىٰ حضارة الإنسان المتأزم في قوته وليس في ضعفه؛ الأمر الذي ينذر بأزمة خطيرة قد يدمر الإنسان فيها نفسه، ذٰلك أن التطور المعاصر يقوده في اتجاه واحد هو اتجاه الأزمة، بينما يقتضي الأمر أن يكون هٰذا التطور شاملاً متوازناً.

من خلال معرفتكم للفكر الغربي ومعايشتكم الطويلة لواقع الحياة في الغرب، نود أن نتعرف علىٰ المدىٰ الذي وصلت إليه الحضارة الغربية ذات البُعد الواحد، وكيف يمكن أن يكون للإنسان حضور حقيقي لتصحيح مسيرة التطور؟

⊙ إنَّ التطور يكيّف السلوك دائماً، كما أن السلوك يكيّف التطور.. وقد اختلف بعض الفلاسفة حول أيهما يقود الآخر: التطور يقود السلوك، أو السلوك هو الذي يقود التطور؟ ومتىٰ؟ إلّا أن هناك شبه إجماع علىٰ أن التطور يقود السلوك في اللحظات الانسجامية حينما تكون المسيرة إيقاعية، ويملي عليه التغيير.

أمّا في حالة التأزم فإنّ السلوك هو الذي يقود التطور.. وقد تجاوز الإنسان الأزمات الكبرىٰ للبشرية بالسلوك وليس بالتطور.. ومن الخطأ أن تتبنىٰ القول بأن التطور هو الذي قاد البشرية في المجتمعات القديمة؛ وإنما السلوك ـ بمعنىٰ الرسالة الإلٰهية والوحي الإلٰهي ـ هو الذي قاد المجتمعات التي كانت تعيش في الصنمية والوثنية، وغير قادرة حتىٰ علىٰ تعليل أبسط الأمور، قادها إلىٰ التأمُّل.. ذٰلك ـ كما قال «دوركايم» الفيلسوف الملحد ـ أن وراء كل فلسفة ديناً، ولا يمكن تصور فلسفة لا ترتكز علىٰ دين.

فالدين هو الذي دفع إلىٰ التأمُّل وأيقظ الحكماء والرؤية الفلسفية.. وبالتالي فإن السلوك الذي نبع من رسالة الخالق هو الذي قام بعملية تصحيح مسيرة المجتمعات البدائية، والمجتمعات التي كانت تعاني من الالتباس والمراوغة.. ويعتبر الإسلام، بلا شك، المرحلة الرئيسة في التصحيح الجذري للتطور بالسلوك وليس تصحيح التطور بالتطور.

❋ ❋ ❋

مرحلية الإسلام

◎ ما هو تقديركم للمرحلية هنا؟

⊙ حين بزغ فجر الإسلام، كانت المواقع الحضارية الكونية في يد الإمبراطوريات، وكان من المفترض، حسب منطق التطور، ألاّ يأتي إشراق الإنسان من جزيرة العرب وإنما من بيزنطة أو روما.. ولٰكن، حينما تأزمت بيزنطة وتأزمت روما، خرج الإسلام من هٰذه الجزيرة ليصحح التطور الكوني، لا بحروب كبرىٰ وإنما بالسلوك.. فتحولت الإمبراطوريات، من ثم، إلىٰ كيانات هامشية أمام سلوك خالد هو السلوك الإسلامي.

ولفت نظري، وأنا أراجع بعض الصراعات الجدلية، كيف أن القياصرة كانوا ينفقون أموالاً طائلة للرد علىٰ الإسلام وإيقافه.. غير أن الإسلام ـ السلوك ـ استطاع في نهاية الأمر أن يوقف التطور التقليدي والالتباسي وما كان من مصادرة الإنسان. ولست أقول هنا بأن المسيحية هي التي صادرت الإنسان، ولٰكن مَن زعموا اعتناق المسيحية.. ويكفي أن أشير إلىٰ أن راهب سيناء ـ يوحنا الكلكدوني ـ الذي عاصر الرسول ﷺ، كان يعتقد أن الإسلام هو عقاب الرب للنصارىٰ الذين خرجوا علىٰ تعاليم المسيح عليه السلام.. ولذٰلك أسلم..

❋ ❋ ❋

◎ هناك رهبان آخرون عاشوا في الصدر الأول للإسلام لم ينتهوا إلىٰ ما انتهىٰ إليه راهب سيناء، وكتبوا عن تلك الفترة ما يعتبر الآن من الوثائق الأساسية التي يعتمد عليها المستشرقون.. ولعل من هٰؤلاء الرهبان «يوحنا الدمشقي».

⊙ في اعتقادي أن «يوحنا الدمشقي» جاسوس عاش في البلاط الأموي، حيث كان يعمل والده الذي استغل سماحة معاوية ﷺ فكان يهاجم الإسلام في البلاط، وسار يوحنا علىٰ نهج أبيه مستغلاً كثيراً من الأفكار التي كانت تروج في البلاط. وضمن ذٰلك في وثيقة اعتمد عليها كثير من المستشرقين في كتاباتهم عن الإسلام وعن النبي ﷺ.

فمصدر «يوحنا الدمشقي» إسلامي.. ولٰكنني أستبعده لأنه لا يتمتع بالمصداقية. وكان ينطلق في مناصرته لمعاوية علىٰ عليّ ﷺ من حقد دفين.. ووثيقته في آخر الأمر وثيقة رجل يبيع أخباراً.

◎ بهٰذه المناسبة نشير إلىٰ أن هناك دعوة يطرحها بعض المهتمين بالعمل الإسلامي لعقد مؤتمرات مواجهة ومحاورة بين مستشرقين موضوعيين وبين مفكرين إسلاميين، ما هو تقديرك لنتائج مثل هٰذا الحوار؟ وهل هناك شروط ينبغي أن تتوفر لدينا أولاً قبل الاستجابة لهٰذه الدعوة؟

⊙ تناقشت ذات مرة في باريس مع البروفيسور «منكورم ريود» وخرجت من المناقشة بأن معلومات الرجل عن الإسلام والمسلمين محدودة جدًّا.. وتلك سمة للمستشرقين بشكل عام.. فهم يعتمدون أساساً علىٰ بعض الوثائق الموجودة في الفاتيكان ـ وهي وثائق أشك في صحتها ـ وعلىٰ وقائع غريبة ضعيفة يعطونها أهمية بالغة.

ويتصف المستشرقون بنوع معين من «الانصلاحية» في الأعماق.

ويعتقد بعضهم بأنه أكثر منهجية من المفكرين المسلمين.. ولكن من يتحاور معنا منهم نستطيع أن نقنعه.. ونحن مستعدون لذلك لقناعتنا بأن الأمر في نهاية المطاف سيكون لصالحنا.. فقط علينا أن نأتي البيوت من أبوابها، وهي أن نطرح فلسفة التاريخ كما هي، كتخصص صارم، لنقفل الباب أمام محاولاتهم لما أسمِّيه: الاستغلال المحدود أو القاصر لفلسفة التاريخ..

ومعنىٰ ذلك، أننا مطالبون بالقيام بعملية بناء للفعل التاريخي في جزيرة العرب عشية مولد الرسول ﷺ، وهٰذا بالطبع سيكون عملاً شاقًّا يستغرق وقتاً طويلاً، ولٰكنه ضروري لأنه سيسد منافذ لا حصر لها.

والتاريخ فكر ورصد مؤرخين.. ولدينا بناء فكري تاريخي.. ولٰكن لا وجود للفعل التاريخي، وهٰذا مما سهل مهمة المستشرقين فأخذوا يتصيدون الفعل التاريخي ـ حسب المنهج في فلسفة التاريخ ـ من الحدث والواقع، لا ما يقوله المؤرخون.. وهم بذٰلك يقومون بعملية بناء ولٰكن بإعطاء «ساندويتشات» صغيرة.. بينما نريد نحن أن نقوم بعملية بناء للبيت كله، للفعل التاريخي كله منذ القرن السابع الميلادي.. وذٰلك ممكن لأننا نملك توثيقاً رائعاً.. وإذا استطعنا أن نقوم بعملية بناء لهٰذه المادية بصرامة، فأنا علىٰ يقين من أنها ستكون لصالح الإسلام.



النبوة الخاتمة

◎ إن الاقتصار علىٰ فلسفة التاريخ في غيبة الرؤية الدينية الأصولية (شأن الكثير من المستشرقين) قد يعني ـ من بعض الوجوه ـ محاولة لإلغاء دور النبوة الخاتمة.. ويخشىٰ من أن تكون استعارة هٰذا المنهج ـ الذي ربما لا يكون صارماً ودقيقاً ـ سبباً في إيقاع كثير من المسلمين في عملية التشكك بإمكانية الانتهاء إلىٰ نتائج علمية وإسلامية.. فما هو تصوركم حول هٰذه القضية؟

⊙ إنني أدعو - لهٰذا السبب - إلىٰ أن تُدخل العلمية في مؤتمراتنا الإسلامية.. فما الذي يمنع من أن تأتي الرؤية العلمية المعاصرة إلىٰ مؤتمراتنا وتتحاور في حضور الرؤية الدينية الأصولية لا في غيبتها؟ ما الذي يمنع المسلم من أن يستوعب كل القدرات الموجودة في الرؤية الدينية الأصولية ثم يعطينا توظيفاً لما لديه من علم التاريخ وفلسفة التاريخ وغيرهما؟

◎ وقد تكون المشكلة من وجه آخر في التفسير المذهبي، لا المنهجي، للتاريخ الإسلامي والاقتصار علىٰ الفعل التاريخي بعيداً عن الظروف والملابسات؛ حيث ينقلب الأمر إلىٰ عملية انتقائية مذهبية أكثر منها منهجية تنتظم كل الحوادث وتعطيها تفسيراً..

⊙ لا شك أن هناك عقولاً كثيرة متمردة ثائرة، خلاقة مبتكرة، وهي أيضاً حائرة تبحث عن الإنقاذ.. وهي إما أن تنفجر أو أن تتجه إلىٰ منقذ.. وبعبارة أخرىٰ إما أن تنتهي بمأساة «إلتوسير» أو بإنقاذ «غارودي».. و«إلتوسير» هٰذا هو أحد عمالقة الفلسفة المادية، قتل زوجته وهي نائمة إلىٰ جانبه.. أما «غارودي» فبما أنه علىٰ علم بخلفيات الحضارة الغربية وابن الدار وشعر بالانكسار وبالعدّ التنازلي، فقد وجد في الإسلام المنقذ للعقل الحائر.. وهٰذه النهاية التي انتهىٰ إليها «غارودي» أراها لكثيرين من «الغاروديات» أو العقول المتمردة في السنوات القادمة..

هٰذه حقيقة.. ولذٰلك فإن الإسلام سيكون سلوكاً كونيًا، ليس لقطيع من الخراف، وإنما لعقول متمردة، عقول تبحث عن المصداقية.. ومن هنا سيكون له دور خطير في المستقبل، وهو - كما أكرر دائماً - لن يتصدر في الكون في القرن الحادي والعشرين، ولن يدخل إلىٰ الساحة العالمية كقدرة تطور جديدة تملي مزيداً من التطور في التكنولوجيا والصواريخ والأقمار الصناعية والقنابل اليدوية وغير ذٰلك؛ وإنما سيدخل قدرةً خلاقة قادرة علىٰ الإنقاذ.

***

تأصيل الانتماء وقضية الأولويات

◎ وهٰذا ما يؤكده التعامل التاريخي للإسلام مع الأجناس والإمبراطوريات، فلم يستطع السيف يوماً أن يقف أمام القيم والسلوك. والسؤال هنا هو: كيف يمكن للمسلم أن يؤدي دوره من خلال الصورة الفكرية الموجودة في العالم اليوم، ليبلغ الإسلامُ بُعده الإنساني والبشري؟

⊙ هٰذا السؤال هو الذي سيطرح بالضرورة في السنوات القادمة. والقضية، فيما يبدو لي، قضية أولويات أطرحها هنا حتى إشعار آخر:

هل من الأوْلىٰ للأجيال القادمة أن تؤصل للطفل انتماءه الإسلامي باعتبار أن الطفل مؤشر للأجيال القادمة، أو أن نتركه يعيش عصره، حتى إذا ما بلغ درجة من الرشد جعلناه يتعامل مع الإسلام كقيم وسلوك؟

هناك مَن يعتقد ـ خطأ ـ أن من الأوْلىٰ أن تجعل الطفل يعيش عصره أولاً باعتبار ألّا خوف عليه من أن يتعامل مع الإسلام لا سيما وأنه ينتسب لأب وأم مسلمين ويترعرع في بيئة مسلمة، وأن ما ينقصه هو التعليم والتنمية والعلاج.. إلخ.. ولٰكن مَن يتبع أصول التنشئة «والبيداجوجيا» في الغرب أو الشرق، سوف يلاحظ أن بناء الطفل يرتكز أساساً علىٰ الانتماء، تأصيل الانتماء، ففي المجتمعات الليبرالية مثلاً، نجد أن الأسرة تحرص علىٰ إرسال أطفالها إلىٰ «السسترات» أو الأخوات في الكنيسة، رغم عدم قناعتها، وأحياناً، إلىٰ القس أو راعي الكنيسة، ولٰكنها تعتبر أن ذٰلك أمر لا بد منه لتحقيق وزرع بذور الانتماء.. والشيء نفسه يحدث في الاتحاد السوفيتي والكتلة الشيوعية بشكل عام، حيث يبدأ الطفل تعليمه الابتدائي في بيئة يسيطر عليها التنظير الماركسي اللينيني..

❋ ❋ ❋

حلقات التفاهم

◎ لا شكَّ أنَّ قضية تأصيل الانتماء من أخطر القضايا التي ينبغي التركيز عليها في مجال تربية الطفل المسلم في سنواته الأولىٰ، ولٰكن يُلاحظ أن الوسائل في مفهوم ثقافة مجتمعنا قد انقلبت إلىٰ غايات، فتجد الأسرة تهتم بطعام الطفل ولباسه وصحته وما إلىٰ ذٰلك مما يعتبر وسائل خادمة لا مخدومة..

⊙ ولهٰذا تجدني من أنصار فكرة التفاهم، بمعنىٰ أن يمر المسلم بثلاث حلقات للتفاهم: يتفاهم مع نفسه أولاً ثم مع إسلامه، وبعد أن يتفاهم ويتفهم الإسلام، يتعامل مع غير المسلم..

◎ يمكن أن نستهدي لذٰلك بموقف الرسول ﷺ في بدء الرسالة، حينما منع بعض الصحابة قراءة التوراة وصحف اليهود التي وجدها بين أيديهم؟

⊙ هٰذا صحيح، ولذٰلك أرىٰ أن قضية الطفل حتى سن الثانية عشرة ينبغي أن تكون هي تحقيق انتمائه.. وأتمنىٰ أن يُمنع منعاً باتًّا إعطاء أطفال هٰذه الأمة حتىٰ الثانية عشرة أي انتماء أو أنموذج أو قدوة إلاّ انتماءه الحضاري، كما تفعل ذٰلك الأمم الأخرىٰ والدول التي تواجهنا الآن في حلبة الصراع الحضاري..

وليس من الحكمة أن نحدث أطفالنا قبل هٰذه السن عن «نابليون» و«سقراط» و«جان جاك روسو» وغيرهم.. هٰذا لا يكون إلّا بعد أن تنضج كل نماذج الطفل وتصبح المرجعية الإحالية أو القيم المرجعية لديه واضحة وثابتة..

ويكمن خطر إعطاء الطفل نماذج من حضارة الغرب إلىٰ جانب نماذج من السيرة العطرة والتاريخ الإسلامي، في أن ذٰلك يشوش ذهنية الطفل ويدخله في حيرة، لا سيما وأن الحضارة الغربية لها قدرة الحضور وهي أنموذج مبرر. وهٰذا يؤدي تلقائيًا إلىٰ صراع في «اللاشعور» بين الأنموذجين ويجد الطفل نفسه بين خيارين، فإمّا أن يختار الأنموذج الغازي الذي هو

حاضر أمامه أو أن يلغي الأنموذجين معاً، فينتهي الأمر إلىٰ ما نلاحظه الآن من انفصام في التكوين الحضاري..

❁ ❁ ❁

وسائل الاتصال الحضاري

◎ قد يرىٰ بعضهم في هٰذا الطرح نوعاً من التحجر والانغلاق..

⊙ ليس في هٰذا تحجر؛ إذ أننا سنعطي هٰذا الطفل حتىٰ الثانية عشرة وسائل الاتصال الحضاري.. نعلمه لغات أجنبية ولٰكن بلا أي انتماءات أو نماذج أو إحالات، وحين نقدم له أمثلة يجب أن تكون نابعة من تاريخه ووطنه، كما تفعل ذٰلك الأمم الأخرىٰ..

وأنا شخصيًا أعتقد أن المرجعية التي تكونت لي في طفولتي من خلال القرآن والحديث والفقه وألفية ابن مالك وغير ذٰلك، أدت دوراً مهمًا في أن تكويني الذهني كانت نتائجه النهائية لصالحي لا لتدميري.. وفي اعتقادي أن العالم حين يصل إلىٰ درجة من النضج، لا بد أن يفعل شيئاً: فإما أن يبني أو أن يدمر.. وقد تؤول به القضية إلىٰ أن يدمر ذاته القادرة. وتجدني ألتمس عذراً للعديد من الذين تمردوا الآن في الغرب علىٰ ذاتهم الغربية.. فهم قد نشأوا في أسر مهتزة إلىٰ حدٍّ ما فلم يتكون لديهم انتماء محدد ومرجعية للإحالة للذهن الخلاق حين يصل إلىٰ قمته.

❁ ❁ ❁

الهزيمة النكراء

◎ لا شك أن كثيراً من العقول الكبيرة التي حاولت أن تقتحم بعض الساحات المحرمة علىٰ العقل وعجزت عن أن تعود منها بنتيجة،

انفجرت تلقائيًّا.. بينما نجد أن معرفة الوحي أو قضية النبوة قدمت إجابات شافية وعصمت العقل المسلم من ارتياد ساحات يمكن أن يفجّر من خلالها نفسه..

⊙ بالتأمُّل في أول ما نزل من القرآن الكريم، نلاحظ أن القراءة ربطت بنوع معين من النسبية، فبعد قوله تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾، جاءت الآية ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق] فحدَّث عن الطغيان الذي يمكن أن يمارسه العقل غير المؤمن.. وكثيراً حينما أستعيد بعض الآيات القرآنية كمتخصص في علوم الغربيين لأكثر من ربع قرن، أنحني إجلالاً وأسىً لمَن هم في الضلال. إنَّ المفكرين منهم يعلمون أنهم علىٰ غير حق ولٰكنهم يستكبرون ويعاندون.. وفي الحقيقة قدرت «جان بول سارتر» في كلمة قالها وهو يحتضر ونشرتها صحف «الإكسبرس» و«الأبزرفاتور» باللغة الفرنسية.. فعندما قال له محرر «الإكسبرس»: «أراك حزيناً، أين نحن من فلسفة التمرد والعبث والغثيان؟» ردّ عليه: «قادتني فلسفتي في النهاية إلىٰ الهزيمة النكراء» ويروىٰ أنه قال: «ائتوني بقسّ».

وليس من شك في أن العلم المفيد للإنسان والبشرية هو العلم الذي له مرجعية.. وأن العلم المخرب والمدمر هو العلم الذي لا مرجعية له سوىٰ مرجعية البطن ورفع مستوىٰ الرفاهية والإشباع والنهم.

***

تحجيم الظاهرة

◎ لا شك أن تحقيق الانتماء بالنسبة للطفل كعملية مستقبلية أمام الأعداء هو المخرج من الأزمة.. لٰكن كيف ترون التعامل الواقعي مع الجيل القائم الآن والذي فقد هٰذه الأصول الانتمائية في مراحل الطفولة ويعيش الصورة التي نراه عليها حاليًّا؟

⊙ إذا ما رجعنا إلىٰ طرق البحث العلمية وإلىٰ الباحثين الاجتماعيين

والنفسيين، نجد أنه حين يبدو شيء من الاهتزاز علىٰ ظاهرة معينة لها نوع من الترسيب والمناعات فمن الأوْلىٰ أن تحصر وتحجّم ولا تزيد، إذ قد يصعب استئصالها.. ولا أقول بتحجيم الجيل الحالي؛ ولٰكن إذا ما استطعنا أن نؤهله لأن يرث عنه الجيل القادم ما لديه من مكتسبات حالية، فهٰذا في حدّ ذاته انتصار كبير.

❋ ❋ ❋

خصوصيات النبوة

◎ حين تأخر الشيوخ في الإيمان بالرسول ﷺ، بدأ البنيان الأصلي في إطار الشباب.. لٰكن مع ذٰلك يرىٰ الإنسان تحولات لافتة للنظر في سن متقدمة من أمثال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بعد أن تجاوزوا الأربعين.. تحولوا إلىٰ الإسلام ولا يزال عطاؤهم ماثلاً.. فبمَ تعلل هٰذه الظاهرة؟

⊙ تلك فترة إعجازية لها كثير من الخصوصيات.. قلت لـ«سارتر» ذات مرة: لا يمكن أن يفهم النبي ﷺ إلّا مَن سار علىٰ طريقه.. ومن معجزات عصر النبوة أن مَن لم يسِر علىٰ طريق النبي وواجهه انهزم.. وقلت له أيضاً: بأني أفضّل «السارتريين» المعاصرين لرسولنا ﷺ علىٰ «سارتر» القرن العشرين الذي يخلو ذهنه تماماً من الانعكاسات والدفع الرهيب لهٰذا الحضور وهٰذا النور المشرق في هٰذا الإنسان الذي يوحىٰ إليه من السماء، وسارتر المواجه لرسولنا ﷺ لم يكن أقل أصالة من «سارتر» القرن العشرين، فقد كان دهريًا ومصرًا علىٰ المواجهة ولٰكنه انهزم، فاعتبرت هزيمته قمة الإعجاز.. إن فترة الرسول ﷺ فترة متميزة وخاصة.

◎ ولٰكن تبقىٰ عندنا هنا قضية خلود الرسالة الذي يعني الامتداد والتجرد عن حدود الزمان والمكان والاهتداء بهديها في تفسير الظواهر

الاجتماعية؛ لذٰلك فالقول بالخصوصية والتميز يُخشىٰ من أخذه علىٰ إطلاقه.

⊙ إن مَن وصل إلىٰ سن النضج (٤٠ ـ ٤٥) في القرن العشرين ولا يزال يبحث عن حيثيات لقناعاته فإن مشكلته لا بد وأن تسوَّى علىٰ مستوًى آخر، باعتبار أن التمرد في القرن العشرين تمرد رهيب لا يكاد يوجد له مثيل في بقية القرون. وفي اعتقادي أن النصف الأخير من القرن العشرين يعادل ـ من حيث كثافة العقل ـ خمسة أو ستة قرون.. ذٰلك أنه يشهد تراكماً معرفيًا رهيباً وبالتالي هو اختزال للأزمة الفكرية.. والعقل أمام ذٰلك إما أن يتجاوز أو ينفجر.. لأنه أتىٰ بأمور ليست عادية. وكلما يختزل يزد في اختزاله، وكلما يكثف يزد في كثافته.. فالقضية ساخنة وكلها غليان.. ولهٰذا فإن هٰذه الفئة التي تعيش في قلب السخونة والغليان، تكون نهايتها إما علىٰ طريق «إلتوسير» أو علىٰ طريق «جارودي».

وهناك فئة من البسطاء تعيش في القرىٰ بعيداً عن مناطق السخونة والغليان، وهٰذه يمكن أن يتم حصارها وتشكيل قناعاتها عن طريق القدوة والسلوك.. إلخ.

أما الفئة الوسطية ـ ليسوا بالبسطاء أو المتمردين ـ فيمكن أن تعطىٰ لهم الفرصة ليسيروا حتىٰ نهاية المطاف.. ولكن علينا أن نؤمّن لهم الطريق من الأخطار.

ولا أعتقد أن نهاية العقول المتمردة في الغرب ستطول كثيراً.. ومما يؤكد هٰذا المصير، ذٰلك الشعار الذي طُرح أمامنا منذ سنوات في مؤتمر عقد في باريس، والذي يشير إلىٰ أن نصف المجتمعات المتقدمة سوف يعاني نفسيًا بعد ربع قرن ـ وربما أقل ـ في أسرّة المرضىٰ، بينما ينتظر النصف الآخر دوره في غرفة الانتظار.



الدين الموثق

◎ ما هي مبررات اعتقادكم بأنه سيكون للإسلام دور في إنقاذ البشرية المتمردة؟

⊙ إن الإسلام يتمتع بميزات لا وجود لها في أي دين آخر، فهو الدين الوحيد الذي يستطيع أن يتحاور مع المتمرد.. وقد اعترف بذٰلك «كونت» حين ذهب إلىٰ القول بأنه إذا كان ولا بد للإنسانية أن تعود إلىٰ دين «وضعي» ـ أي علمي ـ يتمشىٰ ومتطلبات العصر، فلن تجد إلا الإسلام.. هٰذا الاعتراف قيل في القرن التاسع عشر، عصر التمرد الأساسي في المدرسة الوضعية.. وهٰذه القدرة علىٰ المحاورة التي يتمتع بها الإسلام تنبع من تجاوزه الشكليات، فهو يتحدث دائماً بلغة الشمول والتجانس والإيقاع الكوني، ويتنزه عن الحماقات البشرية، وهٰذا ما يلفت نظر العقل المتمرد..

أما الميزة الأخرىٰ التي لا تقل أهمية وخطورة وستشكل رصيداً كبيراً للإسلام.. فقد أكدها لي أحد فلاسفة الروحانيات النصرانية المعاصرة في القرن العشرين، وهي: أن الإسلام هو الدين الموثق الذي من خلاله توثَّق بقية الأديان.. وأن أكبر دليل علىٰ المسيحية نفسها هو ما جاء في القرآن.. ولذٰلك فإن العقل المتمرد الذي لا يقبل إلا بشيء موثَّق نواجهه بالقرآن؛ الوثيقة التاريخية الأقدم..

◎ هل تعتقد أن من اليسير تحويل العقل المتمرد إلىٰ عقل مسلم؟

⊙ نحن ـ المؤمنين ـ نسلّم بأن الإسلام سيكون له نصيب في المستقبل.. وعندما أسلم «غارودي» لم يكن إسلامه بسبب إقناع أحد من المسلمين له بالإسلام، وإنما عقليته واجتهاده الشخصي أوصلاه إلىٰ الإسلام.. وهٰذا قد يحدث ـ كما قلت ـ لكثير من العلماء في ربع القرن الأخير.. ولٰكن علينا ألّا نترك هٰذه العقول المتمردة تصل إلىٰ «الغارودية» عن طريق التلقائية والاجتهاد الشخصي..

◎ قد تبدو المشكلة في كيفية إخراج المسلمين من حالة الانتظار حتىٰ ينتهي العقل الغربي إلىٰ ما قد ينتهي إليه بالتلقائية والاجتهاد الشخصي..

⊙ يجب علينا كأمة وسط أن نحدث تداخلات علمية إسلامية لهٰذه العقول المتمردة ونحولها للإسلام.. وهنا سنكسب قوًى كبرىٰ..

ولا بد أن نسلّم بأن هناك حاليًّا تناقضات في المجتمعات الإسلامية، وأن هناك مشاكل وهموماً بشرية لدىٰ المسلمين.. والذي أخشاه هو أن تُفتعل مشاكل المسلمين مشاكل للإسلام.. وما أتمناه هو أن تظل مشاكلنا بشرية، وأن نتمكن من آنٍ لآخر من طرح الحل الإسلامي ولو بالكلمة الطيبة وذٰلك أضعف الإيمان.

ولست أعتقد بأن المسلم المعاصر بمشاكله التي لا حصر لها، يستطيع أن يقنع غير المسلم الغربي، ذي العقلية المتمردة القادرة، الذي استطاع أن يحل مشاكله مع الآخرين وبقيت له مشكلة كبرىٰ هي مشكلته هو مع نفسه..

إن المجتمعات الإسلامية تعاني حاليًّا من مشكلات عضوية لدى الإنسان المسلم: من سوء توظيفٍ لقدراته الذهنية وخبراته وسلوكه.. والأزمة باختصار شديد هي أزمة جيل لا أزمة مصير.. وتحاصر بمحاصرة الكبار وتنمية الصغار.



جيل الانتصار

◎ تبقىٰ مشكلة المناخ الذي سينمو فيه الصغار، وكيفية اقتحام العقبة..

⊙ طرح السؤال في حد ذاته اقتحام لجزئية من العقبة.. وبما أنه سؤال ينطوي علىٰ قدر كبير من المصداقية قد يتسع بمرور الوقت.. ولٰكن لدينا في العالم العربي حاليًّا مشكلة هي أن جيلاً معيناً مطالب بكل شيء.. وهٰذا

مستحيل. . فلا يمكن أن تختزل الأجيال كلها في هٰذا الجيل الذي لا يزال يعاني منذ أن فرضت عليه إشكالات من الخارج. . وإن كنت لا أنكر بأنه جيل حقق وأعطىٰ، إلا أني أعتقد أن من الأوْلىٰ أن يحسب حساباته، خسائره ومكاسبه، وينتظر الرحيل إلىٰ الدار الآخرة ككل الأجيال التي سبقت، ويترك الساحة لجيل قادم نتمنىٰ أن تكون مكاسبه أكثر من خسارته؛ تمهيداً لجيل يأتي من بعد ليكون جيل الانتصار. .

ولا بد للمؤمن أن يتوفر علىٰ قدر من الأمل والثقة في أن الخير سينتصر بإذن الله. . فالمشكلة ليست عضوية وليست «كوارثية» ولست أعتقد أبداً في جدية أطروحة أن الأمور محزنة وأننا في كارثة وأن الأمة انتهت.

❋ ❋ ❋

أزمة نخبة.. لا أزمة أمة

وأنا أقول دائماً: إنها أزمة نخبة، وليست أزمة أُمة. . وأزمة جيل لا أزمة مصير. . وواجب علينا أن نأخذ الأزمة بموضوعية حتى يكون لنا أمل في أن نتجاوزها، وسنتجاوزها بإذن الله. . ولديّ قناعات بأن ذٰلك سيتحقق. . ولا أعتقد أن الأجيال القادمة ستكون أجيال ضياع. . وما نراه اليوم من اتجاه الشباب نحو «التمدرس» وشعوره بالمعاناة وطرحه للمشاكل يعني نمو وعيه. . ويعتبر ظاهرة صحية ممتازة علىٰ طريق الانتصار.

❋ ❋ ❋

صحوة المسلمين

◎ بمناسبة توجه الشباب نحو «التمدرس» وشعوره بالمعاناة نود أن نستطلع رأيكم حول الصحوة الإسلامية. . هل هي ظاهرة أصيلة متجددة

تعني العودة إلىٰ الأصول أم أنها ظاهرة وقتية آنية جاءت مع موجة الرفض العالمي؟.. وهل يصح أن نطلق مصطلح «الصحوة الإسلامية» علىٰ ما هو قائم الآن بالفعل في عالم المسلمين من يقظة؟ وكيف يمكن ترشيد هٰذه الصحوة؟

⊙ لو احتكمنا بصورة عامة إلىٰ المعايير «البسمولوجية» أو إلىٰ فكرة الوعي بحركة تاريخ الأمم سنلاحظ أن الأمم تمر دائماً بما نسميه «نظرية التناوب» وهو تناوب بين فترتين: فترة نقدية وفترة تنظيمية.. ففي الفترة النقدية توضع أصول وجذور الفترة التنظيمية.. وحينما تصل الفترة التنظيمية إلىٰ مرحلة الإشباع، تبدأ جذور الفترة النقدية في التراجع.. وهو ما عبّر عنه ابن خلدون بـ«أطوار الأمم».

والحقيقة أن الإسلام دائماً في صحوة.. فلا يمكن أن نقول بأن المبادئ الإسلامية في فترة معينة تكون قادرة، بينما هي في فترة أخرىٰ تصبح عاجزة؛ ذٰلك أن هٰذه المبادئ تتمتع بإعجاز لافت للنظر، إضافة إلىٰ قدرة الصلاحية الذاتية، وتلقائية المواءمة.. فهي التي واءمت ابن الجزيرة العربية في قراه وبواديه، وتوائم اليوم قمماً في الأمم المتقدمة وتفخر بها فلاسفة القرن العشرين.

وقد لا يكون الإعجاز في أنها تتواءم مع الإنسان وإنما في كونها تعطي للإنسان وسائل موضوعية وتلقائية ومباشرة كي يتكيف معها..

ولذٰلك ربما يكون من الأفضل ألا نقول «الصحوة الإسلامية» وإنما «صحوة المسلمين لأجل أن يكتشفوا ما غفلوا عنه».. وهٰذا يعني إذا ما حاولنا تطبيق فلسفة التاريخ أن هناك فئتين من المسلمين: فئة ترمز إلىٰ الفترة النقدية وفئة ترمز إلىٰ الفترة التنظيمية.. فحينما يكون المجتمع المسلم أو البشر المسلم في فترة مخاضات وتوعك وأزمة، يبدأ يعيد حساباته ويبحث عن وسائل إنقاذ.. فهٰذا يغرر به وذاك يجذبه إلىٰ بعض الافتعالات وثالث يعطي له بعض إمكانات المحاكاة والتقليد.. فهو يبحث عن وسيلة للخروج

ـ لا أقول من المأزق، وإنما من التوعك ـ ويحاول أن يحقق ذاته ويحدد موقعه من الإسلام.. وتلك هي الفترة النقدية..

مَن أنا؟

.... ويضيف الدكتور فكّار:

■ إن الصحوة في الحقيقة هي صحوة المجتمعات الإسلامية أو البشر المسلم.. أو هي صحوة النخبة.. ذٰلك أن شروط الصراع والتدافع جعلت المسلم يستفهم ويستجوب.. وبلا شك فإن الاستجواب الأول دائماً هو «مَن أنا؟».. ويمكن أن نسمِّي هذه الفترة التي نعيشها الآن فترة: «مَن أنا؟».. والذي يقول: «مَن أنا؟» هو مسلم، يحمل اسماً مسلماً ويعيش في بيئة إسلامية وفي الغالب يؤدي الشعائر الدينية، ولٰكنه مع ذٰلك يبحث عن ذاته ويتساءل: مَن أنا؟



حيثيات تاريخية

◎ هل تركز الصحوة علىٰ دعامات من الماضي والحاضر بما يضمن تحقيق أهداف المستقبل؟

⊙ الصحوة كما أراها حاليًا، لها عدة حيثيات تاريخية، منها:

١ ـ غيبة القصور في التجربة التاريخية الإسلامية.

٢ ـ الإسلام هو القاسم المشترك الوحيد للأمة.

٣ ـ استنزاف البدائل المعاصرة.

وبالنسبة **للحيثية الأولىٰ**، فإن القصور يعني الإدانة.. إذ من المستحيل القول بأن التجربة التاريخية الإسلامية كانت تجربة فاشلة.. قد يقول الخصم بأن المسلمين ليس لديهم في الوقت الحاضر إلّا التغني بأجدادهم، وهٰذا في

الحقيقة اعتراف بأنه كانت للمسلمين فترة عبقرية وعطاء أفرزت أسماء خالدة لا تزال تذكر إلىٰ الآن في قاعات الأكاديميات في العالم كله..

والتجربة التاريخية الإسلامية ليست كالتجربة التاريخية الوسيطة الميتافيزيقية في الغرب التي كانت فاشلة، والغربيون الآن لا يريدون العودة إليها مطلقاً.. ولٰكنها - أي التجربة الإسلامية - كانت تجربة عمرانية علمية فلسفية.. وخذ مثالاً علىٰ ذٰلك الرحلات والرحالة المسلمين.. لقد توصلت من خلال مراجعات أخيرة إلىٰ أن أساس تعرف الروس وجانب من سكان شمالي أوروبا علىٰ تاريخهم الوسيط يعود لمصدر إسلامي؛ الرحالة المسلم «ابن فضلان» الذي كان سفيراً لأحد الخلفاء العباسيين، وإن كان هناك مَن يقول بأنه ضلّ الطريق فذهب إلىٰ تلك المناطق وقدّم صورة وصفية لحياة شعوبها في أفراحهم وأحزانهم وحروبهم ومناخهم.. إلخ.. ويكتب كتاباً تُرجم إلىٰ اللغة الروسية، يعتبر الآن الوثيقة التاريخية الأكثر تأصيلاً ومصداقية وصلاحية، ولا يمكن لمَن يريد أن يغوص في الجذور التاريخية لتلك الشعوب إلاّ أن يعود إلىٰ ما كتبه «ابن فضلان».

ولهٰذا، فإن الصحوة الإسلامية حين تطالب بالحضورية علىٰ الساحة، فذٰلك لأنها مستمدة من تجربة تاريخية لم تكن فاشلة.. ولا بد من التأكيد علىٰ أن المسلم لم يستبعد من ساحة المواجهة والتصدي إلّا حينما استبعد هو الإسلام من قلبه.

* * *

القاسم المشترك

أما **الحيثية الثانية فهي** أن الإسلام، كانتماء، هو القاسم المشترك الوحيد لأمة متكاملة كبرىٰ، ولا شيء غيره، خاصة في هٰذا العصر الذي يرمز له بعصر «القاسم المشترك».. إذ لا بد لكل مجموعة بشرية من قاسم مشترك تتفق عليه لتلتقي فيه كوحدة شاملة لها مردودية وإنتاج ومصالح



اقتصادية ولها استراتيجية قومية، وقوة عسكرية أيضاً.. فهناك مثلاً القاسم المشترك الليبرالي، والقاسم المشترك الماركسي.

وإذا ما نحّينا الإسلام جانباً، فمن المستحيل أن نجد قاسماً مشتركاً آخر تتفق عليه وتلتقي عنده الأمة الإسلامية، فلا الأرض ولا اللغة ولا التاريخ يمكن أن تكوّن القاسم المشترك لأمتنا، وذٰلك لأن الأرض واللغة والتاريخ تعتبر امتداداً للإسلام.. وهنا لا ننكر أن لكل شعب من شعوب الأمة الإسلامية تقاليده وعاداته وبيئته وخصوصياته، وتلك ليست مشكلة.. فحينما يأتي نداء الشمول والتكتل الكوني ويقول الأمريكي: الولايات المتحدة الأمريكية، ويقول الأوروبي: الدول الأوروبية المتحدة أو السوق الأوروبية المشتركة، ويقول الروسي: الاتحاد السوفييتي، ينبغي علىٰ المسلم أن يقول: الأمة أو المجتمعات أو الأقطار الإسلامية المتحدة.. لا بد من «الإسلامية» لأنها وحدها التي ترمز لاتحاد الأمة.. والإسلام أُمة، فإذا عزلت عنه مفهوم الأُمة عزلته هو.. والمسلمون وصفوا بأنهم خير أمة.. ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١١٠]، ومن الصعب أن نضع علامة استفهام علىٰ هٰذه الخيرية إرضاء لهٰذا أو لذاك، وحين نمارس المجاملة أو المداهنة التي لا أساس لها، فإننا بذٰلك نتنكر لكل الأسس العلمية والمنطق والتاريخ والجغرافيا.. إلخ.. وربما لهٰذا نجد الدول المتقدمة تفعل المستحيل اليوم حتى لا يتحقق هٰذا القاسم المشترك الحقيقي.



قمة التجديد

أما **الحيثية الثالثة** وهي استنزاف البدائل:

فمما لا شك فيه، أنه خلال فترة تجاوزت الثلاثين عاماً ـ أي منذ فجر الاستقلال ـ برزت فئة من المسلمين تحاول أن تتقمص «العصرنة» والحداثة، لا كوسائل وإنما كغايات، وتعتقد أنه حتىٰ «يتعصرن» المسلم أو

«يتحدثن» فلا بد من أن ينكر أو يقطع العلاقة بذاته، دون إدراك منها لكون العصرنة والحداثة الحقة هي في الأصالة.. وأن الأصالة تأتي في قمة التجديد، كما أن التجديد يأتي في قمة الأصالة.. ويستحيل علىٰ مَن لا أصالة له أن يكون مجدداً.

ولقد جربت هٰذه الفئة، واستنفدت - بحسن نية - عدة بدائل.. ولٰكنها كانت بدائل تطبعها الفورية والمجازفة وربما الانجذاب والانفعال.. وكانت كذٰلك بدائل غير مهضومة.. ولا ننكر أنها ربما تكون نجحت في أن تخلع الرداء، ولٰكنها فشلت في أن تلبس شيئاً بدلاً منه..

* * *

البديل النهائي

◎ ولٰكن، كيف ترون صورة الموقف الآن بعد أن استنفد العالم الإسلامي البدائل المعاصرة؟ وكيف يكون الطريق إلىٰ الإسلام بديلاً نهائيًا؟

⊙ بعد أن جرَّب العالم الإسلامي هٰذا وذاك من البدائل، أدرك أنه لا بد من مواجهة الذات.. وحتىٰ يتحقق ذٰلك ويمكن وضع الإسلام بديلاً نهائيًا، لا بد من أن تفتح الأبواب للإسلام ليدخل باسم الحوار، عن طريق المستنيرين القادرين علىٰ أن يتحاوروا ويواجهوا ويتدافعوا مع ذهنية القرن العشرين.. ولا شك أن قفل الأبواب أمام الإسلام يُعتبر إحدىٰ النوافذ التي يمكن أن يأتي منها الدمار.. فالصحوة الإسلامية بذٰلك ليست قضية مؤقتة أو مفتعلة، كما أنها ليست قضية جاهزة، إنها قضية مسارات كبرىٰ وقناعات، وباختصار: قضية مصير..

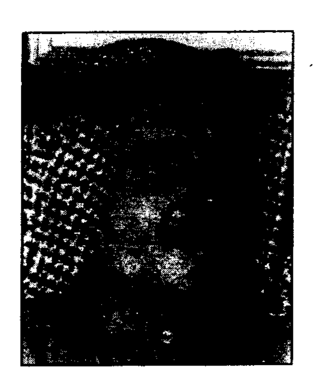
ومن هنا، تكتسب الصحوة طابع المشروعية، ولا بد من إعطائها الإطار الزمني الذي يتناسب مع القدرة علىٰ المواجهة.. ولست أميل كثيراً إلىٰ الجاهز والفوري من الأمور، وأرفض عمليات الإجهاض المبكرة..



فالقضية آتية، ولٰكن ليست بالسرعة التي يتصورها بعضنا.. ولذٰلك لا بد أن يحاول كل جيل الإضافة إليها حتىٰ يكون البناء متكاملاً وقادراً علىٰ مواجهة الأعاصير والرياح ولا يسقط أو ينهدم حينما تفاجئه أقل أزمة سطحية أو تغير في المناخ.. وهٰذا ما جعلني أكرر القول بأن الصحوة الإسلامية لا بد لها من تأهيل ولا بد لها من زمن..

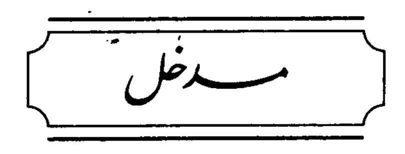
رجب ١٤٠٦هـ ــ آذار (مارس) ١٩٨٦م





الــدور الثقــافي
للهيئة الخيريّــة الإسلاميّة العالميّة

الأستاذ عبد العزيز عبد الله تركي



■ خريج كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.

■ وكيل وزارة التربية، عضو مجلس الأمناء لجامعة قطر، ورئيس تحرير مجلة التربية، وعضو المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وعضو المجلس التنفيذي لمكتب التربية العربي، وعضو مؤسس في الهيئة الخيرية العالمية.

له كتاب: «من قضايا التربية المعاصرة».

■ **يرىٰ**: أن الإسلام يواجه في هٰذا العصر أشد المعارك ضراوة، وأن أعداءه يحاربونه بكل سلاح، لذٰلك لا بد أن تكون الدعوة الإسلامية عملاً مدروساً مرتكزاً علىٰ الأسس التالية:

ـ دعم المسلمين وتحصينهم ضد عمليات الاختراق التي تقوم بها الحركات التبشيرية المنظمة، وذٰلك في البلاد الإسلامية أو ذات الأقليات الإسلامية مستغلين الظروف الاقتصادية المتردية التي يعاني منها المسلمون، وشيوع الأمية بينهم بعامة، وضعف ثقافتهم الدينية بخاصة، والخلافات المذهبية والعرقية.

ـ حماية وتشجيع الطلائع التي اعتنقت الإسلام في مختلف بقاع العالم، والذين يتعرضون لضغوط نفسية واقتصادية هائلة، ويشغلهم أمر أبنائهم، وهم يشبُّون في مجتمعات لا تؤتمَن علىٰ عقائدهم وثقافتهم الإسلامية.

- عرض الإسلام بوجهه المشرق السمح بكل وسائل الإعلام الحديثة بحيث يكون له حضوره العالمي في كل موقف وكل قضية عالمية.

- المواجهة الصلبة للمتهجمين عليه في كل مكان، والتصدي لهم في عقر دارهم وأمام جماهيرهم ليسقط حجابهم وينكشف زيفهم.

- مواصلة الدراسة الجادة للكشف عن كنوز القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ونشرها بكل اللغات الحية علىٰ المستوىٰ العالمي.

- التصدي للفكر الغالي والتعصب الديني المغلق بإزالة الغشاوة التي ازدادت كثافتها علىٰ بعض العيون لعوامل غريبة لا تمت بصلة إلىٰ مبادئ وعقائد وقيم وتعاليم الإسلام السمحة.

ولكي يتيسر للدعوة الإسلامية القيام بهٰذه المهام، فلا بد من دعم الهيئات الخيرية الإسلامية العالمية الموحدة التي تسعىٰ لتأكيد عالمية التأسيس وعالمية التمويل، وعالمية الاستثمار وعالمية الإنفاق، فالمعونات الاقتصادية والتربوية التي تقدمها الدول الإسلامية القادرة للمسلمين في هٰذه الأيام ليست قدراً يستهان به، ولٰكنها إذا صدرت جميعاً بتنسيق واحد وتوجيه واحد وخطة واحدة آتت أكلها أضعافاً مضاعفة.

وهي بذٰلك تنظم وتحشد طاقات المؤسسات المعنية بالدعوة الإسلامية لتكون مصدر قوة مؤثرة في مسيرة الحركة الإسلامية في أصقاع الدنيا.

لقد ولّىٰ عصر التشرذم والجهد الفردي المبعثر، وأصبحت المذاهب والدعوات - حتىٰ الباطلة منها - تعتمد أسلوب التحرك عبر المؤسسات الموحدة وبجهود منظمة متكاملة التخطيط والتنفيذ، مما يوجب علينا نحن المسلمين أن نحث الخطىٰ مسرعين نحو اعتماد هٰذا الأسلوب الناجح في الدعوة إلىٰ الإسلام.

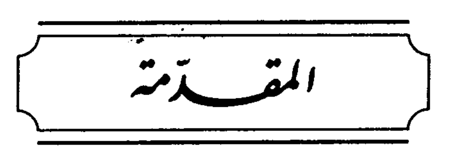
ثم إنه لا ينبغي أن تكون الدعوة الإسلامية مجرد برنامج ديني أو حديث عابر تقدمه وسائل الإعلام؛ بل لا بد أن يكون لها حضور ضابط وموجه في كل عمل إعلامي يبث علىٰ المسلمين. نريد للدعوة أن تبث من

روحها في كل ما تلتقطه أذن أو تشاهده عين بحيث تكون جزءاً من نسيج كل ما يقدم للناس، تذهب إليهم حيث كانوا، وتخالط مشاعرهم، وتنفذ إلىٰ عقولهم من خلال ما يحبون ويهوونٰ، وذٰلك يقتضي تطوير أساليبها وحضورها المؤثر في كل برنامج أو مادة إعلامية تقدمها وسائل الإعلام، فلا تكون مجرد برامج منفصلة ـ ولٰكن سلوكاً دينيًا مرعيًا في كل برنامج أو مادة إعلامية.

وينبغي عدم الغفلة، والتنبُه إلىٰ أن الدعوة الإسلامية مع الأسف الشديد ليست في بعض البلاد الأوروبية وأمريكا أردية مختلفة مذهبية وعرقية، وفي ذٰلك ما فيه من خطورة علىٰ جوهر العقيدة الإسلامية وعلىٰ أمة الإسلام بشكل عام، والأمر لا يخلو من انغماس بعض الأجهزة العميلة التي تكيد للإسلام وأهله، وهي راغبة بكل قوة في تفريغ الدين من محتواه، وتقويض أركانه بيد بعض مَن ينتسبون إليه زوراً وبهتاناً بغية بذر الشقاق وتصعيد الخلاف.

وهناك مهمة كبرىٰ لمؤسسات التربية والتعليم في سياق إنجاح برامج الدعوة، بوضع المناهج، وتشييد المدارس، وإعداد المدرسين والكتب المدرسية ووسائل التعليم المتطورة، والتوصية بالمنح الدراسية في جامعات ومعاهد ومؤسسات التعليم في العالم الإسلامي كلها من الأمور التي تدعم مسيرة الدعوة وتشد من أزرها وتُكسبها حضوراً بارزاً في المواقع التي ينبغي أن توجد فيها، ولن تقلل المهمة أيضاً من قوة تأثير معسكرات العمل والجهد الشبابي التطوعي في خدمة المجتمعات الإسلامية وترسيخ المبادئ والقيم من خلال التفاعل والاحتكاك وإبراز القدرات والكفاءات المتمرسة بالأساليب المتجددة في مواجهة تحديات العصر.





المقدمة

■ تأسست الهيئة الخيرية العالمية كثمرة لمبدأ الأخوة الإسلامية، وما يترتب عليه من حقوق، لسد الثغرات والحاجات الاجتماعية والصحية والثقافية والتعليمية في مجتمع المسلمين، وحمايتهم من القوىٰ المضللة والتيارات الغازية التي تستغل ضحايا الفقر والمرض والجهل، وضحايا الكوارث لتفتنهم عن عقيدتهم، وسبيلها إلىٰ ذٰلك تبني تقديم مساعدات إنتاجية مجدية تساهم في حل مشكلة الفقر، إلىٰ جانب الإغاثات الاستهلاكية التي لا تحل مشكلة المسلمين إلا بصفة مؤقتة، وضرورة استقراء واقع المجتمعات الإسلامية والقيام بدراسات ميدانية لتصنيف الفقر والحاجة في هٰذه المجتمعات، لتأتي خطة الهيئة في مساعداتها ومشاريعها الإنتاجية في العالم الإسلامي متناسبة مع درجة الحاجة القائمة فيه، وتثمير موارد الهيئة، باعتبار أن أهم ما جاءت به من إضافة في مجال العمل الخيري هو: الاعتماد علىٰ مورد ثابت من ريع استثمار رأس المال ـ ألف مليون دولار ـ وفقاً للضوابط الشرعية. ■

❑❑❑❑❑❑

الدور الثقافي وأولويات العمل

◎ إن ما يعنينا من هٰذا الحوار مع الأستاذ عبد العزيز بن تركي ـ بشكل أخص ـ هو الدور الثقافي للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية، فنحن نعلم أن الجهل والأمية هي من الخروق الحقيقية والثغور المفتوحة التي تسلل من خلالها التنصير والغزو الثقافي، وأن من برامج الهيئة أن تقدم مساعدات إنتاجية دائمة لا حلولاً استهلاكية لواقع المسلمين.. فهل ستقتصر الهيئة علىٰ تحصين المسلمين ضد ما يمكن أن يتسلل ـ مع حمايتهم ـ من المبادئ والثقافات الغازية، أم سيكون لها دور بنائي وخطة شاملة للعطاء الثقافي وعدم الاكتفاء بسد الثغور المفتوحة؟

⊙ إن أحد الأهداف الرئيسة التي تقوم عليها الهيئة الاهتمام بالجانب الثقافي فيما يتعلق بدور الإسلام والمسلمين في الوصول بالإنسان إلىٰ ما يحقق السعادة والرفه، ويوفر للمسلمين الحصانة التي تحفظ لهم عقيدتهم، وذٰلك لأن الاتجاهات الثقافية الأخرىٰ إنما تقوم مبرأة من الناحية القيمية والعقيدية ـ كما تعلمون ـ فهي تستهدف ترويج فلسفة استعمارية معينة، أو زرع توجهات عقائدية معينة، أو تحقيق مكاسب تجارية واقتصادية، أو كل الأهداف معاً، الثقافة الآن تسخر بمنأى عن الجانب القيمي والأخلاقي والإنساني، وفي تصوري أنه في ضوء التناقضات القائمة الآن في هٰذا العصر، ما كشفت عنه حضارة الغرب ـ التي تعتبر قمة الحضارات المادية ـ من وجود فجوة عميقة في قلب الإنسان ومشاعره لن تستطيع أن تملأها هٰذه الحضارة التي تعتمد علىٰ إثارة الانبهار والدهشة ـ فقط ـ عند الناس وتحقيق إنجازات مادية يعتبرها بسطاء الناس من الخوارق، إلىٰ درجة قد تهزم الإنسان البسيط المتخلف وتجرده من كيانه الثقافي بفعل هٰذه المبهرات.

أقول: إنه في ظل هٰذا الواقع إذا استطعنا أن ننتفع بمعطيات جوهر الإسلام، ونعمل علىٰ نشر مبادئه الأصيلة، وبعث ثقافته، أنموذجاً للثقافة ذات القيم الراسخة، التي تحفظ علىٰ الإنسان ـ بصورة عامة ـ إنسانيته

وكرامته، وتهتم بترقيته وتقدمه بعيداً عن الأغراض والأهواء وارتكاسات المادة فمن المؤكد أن هٰذا سيكون هو الاستجابة الطبيعية المطلوبة لحاجات البشر في هٰذا العصر.

◎ إذن ففي تصوركم أن الهيئة لن تقتصر علىٰ إغلاق النوافذ التي يتسلل منها الغزو الفكري بمختلف وسائله وتعدد أهدافه، وإنما تفكر بالقيام بدور بنائي لإيصال رسالة الإسلام إلىٰ العالم لإنقاذ الإنسان مما يعانيه من أزمة الحضارة المادية؟

⊙ هٰذا صحيح، وإن كان الأمر في البداية يقتضي أن تكون هناك أولويات، فقد تكون بعض الأمور البسيطة التي ينبغي أن تقوم بها الهيئة، لتحقيق تنمية تعليمية سليمة في قلب الأجزاء الإسلامية المحرومة التي توجد فيها نسبة كبيرة من الأميين، قد يكون ذٰلك هو الأهم في البداية لتخليص هٰؤلاء المسلمين من أميتهم، والعمل علىٰ سد احتياجاتهم وتحقيق حد الكفاية في مستوىٰ التعليم كأولوية هامة، ثم يأتي بعد ذٰلك مجال الانطلاق من خلال مراكز مفتوحة لتوعية الجيل المسلم المتعلم وتثقيفه وتحصينه ضد هٰذا التغريب الذي نراه في الساحة الإسلامية.

◎ مما لا شك فيه أن خطة الهيئة، والأعمال المنوطة بها في المستقبل سوف تأخذ في الاعتبار ترتيب الأولويات ووضع الخطط المرحلية والمدروسة لأعمالها، فإلىٰ أي مدىً يمكن أن تفكر الهيئة - فيما يتعلق بالمجال الثقافي والمجال الفكري - بإيجاد برامج مستقبلية مخططة علىٰ المدىٰ البعيد، مبصرةٍ للمراحل التي سوف تنتقل إليها، وذٰلك لأهمية هٰذه المجالات التي يرجو المسلم لها أن تخلص من الارتجال وأن تحقق أقصىٰ درجات الفعالية؟

⊙ دعني أقرأ عليكم بعض الأهداف المنصوص عليها في النظام الأساسي للهيئة، المتعلقة بالنواحي الثقافية والتعليبمية، لعل فيها ما يطمئن قلوب المسلمين:

(بناء الشخصية المسلمة، ونشر الوعي الإسلامي الأصيل المبني علىٰ الكتاب والسنّة، والمساهمة في محو الأمية، وتعليم القرآن الكريم واللغة العربية، وتبليغ رسالة الإسلام إلىٰ الناس كافة، وإيضاح الحقائق عن الإسلام، وكشف أباطيل الخصوم بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وإنشاء ودعم المؤسسات التعليمية والثقافية والإسلامية، كالمدارس والمعاهد والجامعات والمكتبات والأندية، وتوفير المنح الدراسية مع توجيه التخصص لتغطية ما تحتاجه المجتمعات الإسلامية، وتطوير أساليب التعليم والدعوة باستخدام الوسائل المتطورة المرئية والمسموعة والمقروءة، وترجمة معاني القرآن الكريم والكتب الإسلامية إلىٰ اللغات المختلفة، وإعداد الدعاة والمعلمين، وإنشاء معاهد لتدريبهم ليكونوا قادرين علىٰ القيام بمهمة التعليم والدعوة وفق الكتاب والسنّة. .).



بين المبادئ العامة والبرامج العلمية المحددة

◎ هٰذه كلها مبادئ طيبة، ولٰكن ألا تلاحظون أنها واردة ـ كقاسم مشترك ـ ضمن الأهداف المعلنة عند معظم المهتمين بالقضية الإسلامية؟! ولذٰلك يبقي الأمر المطلوب ترجمة هٰذه المبادئ إلىٰ برامج من خلال لجان متخصصة وأجهزة فنية، لأنه ليس في وسع كل إنسان عنده غيرة علىٰ الإسلام أن يضع البرامج الحقيقية التي تتناسب مع الإمكانات والظروف وسلم الأولويات التي تحتاجها مناطق العالم الإسلامي. . فهل بتصوركم ـ كإنسان يعاني القضية الثقافية بطبيعة اهتماماته وموقعه من العمل الرسمي ـ أن الهيئة يمكن أن تفكر بإيجاد لجان متخصصة في القضايا الثقافية، تتولىٰ نقل هٰذه المبادئ إلىٰ برامج؟ وما هي الملامح العامة التي يمكن أن تروها في هٰذا المجال؟

⊙ أستطيع أن أؤكد أن العمل في إطار الهيئة سوف يكون ـ إن شاء الله ـ عملاً مبنيًا علىٰ أسس علمية تخطيطية تنظيمية بالدرجة الأولىٰ، ولن يتم الإقدام علىٰ تنفيذ خطوة ما لم يتوفر لها الإمكانات الإحصائية والمعلومات الدقيقة التي توفرها الأجهزة القائمة في داخل الهيئة، فهناك مجلس تنفيذي، وهناك مجلس الإدارة، وهناك لجان متخصصة، وأعتقد أن الأعضاء المؤسسين ـ بالإضافة إلىٰ المفكرين والمسلمين والدعاة والعلماء الذين يوجدون في كثير من الأقطار العربية الإسلامية، أو حتىٰ في أقطار غير إسلامية ولٰكنهم يمارسون الاهتمام بشؤون المسلمين ـ هٰؤلاء جميعهم قادرون ـ بفضل الله ـ علىٰ إعداد برامج لها من القوة ومن الفاعلية في مجتمعات المسلمين المحتاجة، ما يمكن أن يُحدث تأثيراً فعليًا في قطاع الثقافة والتعليم والتربية ومحو الأمية.

لٰكن قبل كل شيء، أعتقد أنه لا بد أن تتوفر دراسات دقيقة عن الواقع الإسلامي، وتحديد الاحتياجات الحقيقية، والأولويات وكيفية البدء، وكلها مسائل علىٰ غاية الأهمية، وقد يكون أحد الأجهزة الهامة الموجودة ضمن الهيئة جهازاً للمعلومات أو بنك معلومات، وستكون مهمته الرئيسة أن يغذي القائمين علىٰ الخطط والبرامج بالبيانات التي تمكنهم من تقديم البرامج علىٰ كل المستويات.

***

موقع القضية الفكرية

◎ لٰكن الحقيقة أن القضية الفكرية تبقىٰ لها مواصفاتها الخاصة التي تتطلب إعداداً خاصًا. فقد تكون الحاجات الأخرىٰ مقدمة مثل قضية الطعام والشراب والكساء وما إلىٰ ذٰلك، حتىٰ يهيأ الإنسان لاستقبال القضية الفكرية، وحتىٰ تغلق الأقنية التي يتسلل منها الغزو

الفكري.. إلا أنه لا بد - في الحقيقة - أن يكون عندنا تصور عن البرامج التي لا تقتصر علىٰ الحصانة الفكرية لعالم المسلمين وإنما تتجاوز ذٰلك بأن تجعل المسلم صاحب رسالة يستطيع أن ينقلها إلىٰ العالم.

⊙ لا شك أن هٰذا هو أدق تعبير عن الحاجة الحقيقية للمسلمين اليوم التي يمكن أن تعالج الواقع المؤسف الذي نشعر به جميعاً، إن تخلف الدور الإسلامي علىٰ الساحة العالمية جعل القوىٰ العالمية المتصارعة لا تحسب أي حساب لهٰذا الدور، وهو ما نعتبره نتيجة طبيعية للتمزق والتخلف والانقسام الذي أصاب المجتمعات الإسلامية، وبالتالي عدم استشعار المسؤولية، - وما تقتضيه من ضرورة إيجاد القوة والفاعلية - وإسقاط مبدأ أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، عقيدةً وشعوراً وسلوكاً ومستقبلاً ووجوداً.

◎ **في إطار تحديد الحاجات الحقيقية قد نختلف عن غيرنا في جدولة الأولويات، فقد نعتبر أن تخريب القضية الفكرية هو الذي أدى بالمسلمين إلىٰ ما هم فيه من التمزق، وقد يكون ترتيب القضية الفكرية وإعادة تنقيتها وسلامتها، يمكن أن يقع في جدول الأولويات من القضايا الإسلامية في عمل الهيئة.**

وهناك في الحقيقة نقطة أخرىٰ، هي أن رسائل كثيرة تأتي من الطلبة المسلمين من جميع أنحاء العالم، الذين يكونون هدفاً للغزو الفكري بما يقدم لهم من فرص للدراسة والرعاية المجانية بالمدارس والجامعات التنصيرية والاستعمارية بشكل عام.

فإلىٰ أي مدىً - في تصوركم - يمكن التفكير بالاتصال بالهيئات والمؤسسات التعليمية والجامعات والمعاهد الإسلامية المعنية - الرسمية والشعبية - لإمكانية الحصول علىٰ مجموعة من المنح الدراسية للطلبة من أبناء المسلمين - بعد إجراء مسح ودراسة للعالم الإسلامي لتحديد

احتياجاته؟ وقد ترون أن هٰذه المنح تحقق هدفين رئيسين: فهي أولاً تنقذ أبناء المسلمين من أيدي المؤسسات التعليمية التنصيرية الاستعمارية ـ وهي عملية تحصين ضرورية ابتداءً ـ ثم تجعل منهم جسوراً تمر من خلالها الثقافة الإسلامية الصحيحة إلىٰ بلادهم فيبنىٰ بهم كيان الثقافة الإسلامية هناك.

⊙ الأمر الذي لا شك فيه، أن الفترة التي مضت منذ إعلان قيام الهيئة حتى الآن قصيرة، والأهداف التي وضعت لها تقوم بالفعل علىٰ تمكين الشباب المسلم من تحقيق فرص دراسية في الجامعات والمؤسسات التعليمية القائمة في العالم الإسلامي، أما عن العمل الأساسي الذي تقوم به الهيئة ـ في البداية ـ فهو بناء القوة المادية داخل الهيئة نفسها، والفكرة التي طرحتموها إنما تقتضي قيام جهاز يستطيع أن يتحرك، والجهاز القائم حتىٰ الآن لا يعدو أن يكون مجموعة المؤسسين والتشكيل المنتخب لمجلس الإدارة، وعندما نستكمل هٰذه المرحلة ـ التي تتمثل في بناء القوة المالية المستقلة للهيئة حتىٰ تتحصن ضد عوامل الضعف والخضوع لتأثيرات معينة من هيئات رسمية أو غير رسمية، وحتىٰ يقوم بناؤها بشكل مستقل ـ يمكنها من أن تتعامل وفق المبادئ الإسلامية وفي إطار ظروف المسلمين، وتعمل علىٰ تخليص المسلمين من المعضلات والمشاكل التي يواجهونها، وتصنف الأولويات، دون أن تخضع في قراراتها إلىٰ أية تأثيرات سياسية أو رسمية من أية جهة، وأعود الآن لأقول: إن من المقرر أن يتم تنظيم حملة علىٰ مستوىٰ الوطن الإسلامي والعالم كله للحصول علىٰ رأس مال الهيئة (ألف مليون دولار) وخصوصاً من الدول الغنية، وسوف تسهم في هٰذه الحملة جميع فئات الشعب، وقد تسهم هيئات رسمية، ولٰكن التبرع بالمال سوف يكون تبرعاً خالصاً، بريئاً من أي شرط أو غرض، لأن هٰذا المال سوف يستخدم لتحقيق أهداف الهيئة، فيجب أن يكون مالاً صافياً مستقلاً، ثم تأتي بعد ذٰلك مرحلة تنظيم الجهاز الداخلي للهيئة الذي يتكون من موظفين وإداريين ومفكرين ومتخصصين في المجالات المختلفة، ومن ضمنها المجال

الثقافي بقضاياه المختلفة. . سواء كانت قضايا وافدة ينبغي للهيئة أن توعي المسلمين بها في مناطق معينة، أو قضايا تتعلق بنشر التربية الإسلامية والاهتمام بالكتاب والسنّة وتعليم اللغة العربية ومحاربة الأمية، أو علىٰ مستوىٰ الاهتمام بالطلبة من أبناء المسلمين وتمكينهم من الحصول علىٰ مقاعد ومنح دراسية في المعاهد والجامعات الإسلامية، للحيلولة دون محاولات احتوائهم واستيعابهم في مؤسسات الآخرين. . فكل هٰذه القضايا - في الحقيقة - سوف يخطط لها إن شاء الله بمجرد قيام الأجهزة التي نتوخىٰ أن تقوم سريعاً بإذن الله عندما نتمكن من تحقيق الأولوية الأولىٰ وهي بناء الهيئة من الناحية المادية والاقتصادية.

❋ ❋ ❋

المتخصصون والمخلصون

◎ الهيئة بالفعل - كما نعلم - تخطو الخطوة الأولىٰ، لٰكن في تصوري أن دور أجهزة الإعلام والثقافة الإسلامية أن تبصّر الهيئة بالجوانب والآفاق التي يمكن أن ترتادها، وأن تقدم لها رؤًى، وأن تكون حواسّ لها، فنحن لا نطرح هٰذا علىٰ أساس أن الهيئة قد استكملت أجهزتها وإنما نحاول أن نقدم آفاقاً، وأن نفتح نوافذ للنظر من خلالها علىٰ بعض الأبعاد التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار، لتكون وسائل الإعلام الإسلامية أداة مساعدة للهيئة. وكما يبدو لنا أيضاً فإن كثيراً من طلابنا المبتعثين في جامعات أوروبية يخضعون لنمط ثقافي وحضاري معين، ويخضعون لشبهات معينة. فهٰؤلاء لا بد - في الحقيقة أيضاً - أن يؤخذ وضعهم بعين الاعتبار.

وعلىٰ العموم، فإن ما نعنيه هو أن القضية الثقافية التي يمكن أن تمارس الهيئة العمل لها علىٰ مستوى المسلمين في العالم الإسلامي،

وبين الأقليات الإسلامية في العالم، وعلىٰ مستوىٰ الفرد كإنسان في العالم، قضية يمكن أن تكون علىٰ غاية من الأهمية والخطورة، وبعض الإخوة الذين يحسون بأن وظيفتهم تنتهي عند ملء البطون الجائعة وستر الأجساد العارية.. يكونون قد حققوا أقل من خطة العمل المطلوب تحقيقها..

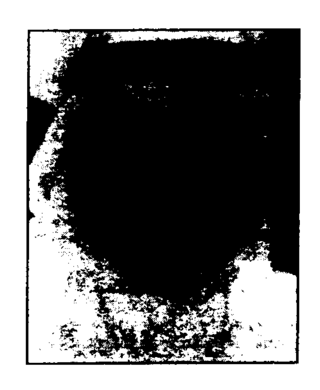
⊙ هٰذا الأمر واضح جدًا، وكثير من الإخوة في الاجتماع الذي عقد في دولة الكويت الشقيقة للأعضاء المؤسسين كانوا يمثلون الجوانب المختلفة للعمل الإسلامي. كان من بينهم إخوة يمثلون اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية وفي كندا وآخرون من هيئات تمثل الندوة العالمية للشباب الإسلامي، وأيضاً بعض الإخوة المفكرين المعروفين باهتمامهم بالمجالات الثقافية والفكرية إلىٰ أبعد حدود.. ولذٰلك فالهيئة - ولله الحمد - يمثل الأعضاء المؤسسون فيها قطاعات متنوعة قادرة بالفعل علىٰ العطاء، وعلىٰ تغطية الجانب الثقافي والفكري والحضاري بكثير من الأفكار التي تمثل أولويات علىٰ الساحة الإسلامية. وإننا ندعو الله تعالىٰ أن تتوفر لدينا العقول والقلوب والنوايا المخلصة والرجال القادرون علىٰ العطاء غير المحدود، وأن ينظر إلىٰ هٰذا العمل علىٰ أنه جزء من الالتزام بعقيدة الإسلام وجزء من واجب الفرد المسلم في هٰذا العصر، وأن يحاول كل مسلم أن يكثف جهوده للتغلب علىٰ هٰذه المشكلات التي هي بحاجة، ليس فقط إلىٰ هيئة واحدة ولٰكن إلىٰ عشرات من أمثال هٰذه الهيئة، وفي حاجة إلىٰ جهود مضاعفة.. والهيئة قد تكون مجرد علامة علىٰ الطريق تضيء - إن شاء الله - ونحمد الله سبحانه وتعالىٰ أنها حتىٰ الآن تسير في الطريق الصحيح.

■ قد تكون المشكلة - في تصوري - أن عالم المسلمين لا يعاني من وجود الناس المخلصين، لٰكن الكثير منهم من غير المتخصصين، أو وجود متخصصين لا يمتلكون القدر الكافي من الإخلاص، والإنسان يخشىٰ من باب غيرته أن يتولىٰ بعض اللجان التخصصية أناس مخلصون ولٰكن بعيدون

عن التخصص، فترتكس الهيئة وتقع بمشكلات، قد يخف معها حماس المسلمين وعطاؤهم، ويقلل بالتالي من قدر الهيئة علىٰ تنفيذ رسالتها، فيتمنىٰ الإنسان أن يكون التخصص والإخلاص هما العنصران اللذان يمكن أن يحققا النتائج المطلوبة إن شاء الله.

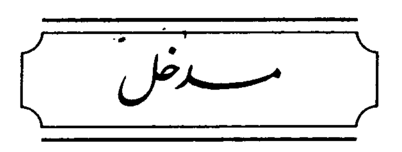
«المحرم ١٤٠٥هـ ــ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٨٤م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مؤسسات المسلمين
بين معطيات الواقع والدور المطلوب

الدكتور عبد الله عمر نصيف



■ من مواليد جدة عام ١٩٣٩، أمين عام رابطة العالم الإسلامي.

■ دكتوراه في العلوم الجيولوجية من المملكة المتحدة.

■ مدير جامعة الملك عبد العزيز سابقاً، وأستاذ علم الجيولوجيا بكلية علوم الأرض ـ جامعة الملك عبد العزيز.

■ يقوم بالتدريس إلى جانب عمله أميناً عامًا لرابطة العالم الإسلامي.

■ شارك في أنشطة اتحاد الطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية، كما شارك في تنظيم المؤتمر العالمي الأول للاقتصاد الإسلامي الذي عقد في مكة عام ١٩٧٦.

■ عضو اللجنة العالمية للأقليات المسلمة في المملكة المتحدة.

* * *

من مؤلفاته

ـ دراسات بترولية لصخور طريق قفط ـ القصير بالصحراء الشرقية ـ مصر ـ عام ١٩٨٠ بالاشتراك مع الدكتور: حشاد.

ـ العلوم الاجتماعية والطبيعية بالاشتراك مع الدكتور إسماعيل الفاروقي.

ـ انبثاق التضامن الإسلامي.

- الإسلام والشيوعية.

- العلم والشريعة والتعليم (باللغتين العربية والإنكليزية).

- دور الإيمان والتعاليم الإسلامية في تدريس العلوم الطبيعية والتطبيقية.

يرى: أن يتضمن منهج الدعوة إلىٰ الله المرتكزات الأساسية التي تضبط سيرها وتلخص مفاهيمها، ويأتي في مقدمتها:

- الاعتماد علىٰ القرآن الكريم، والاستفادة من أساليبه في الدعوة.

- الاهتداء بالسنّة النبوية في إرشاد الناس ودعوتهم إلىٰ سبيل الخير والهدىٰ.

- مراعاة قواعد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- سلوك مبدأ التدرج في تحويل المجتمعات من العادات الضالة والبدع إلىٰ الطريق المستقيم؛ تجنباً للإثارة أو تحزب الناس ضد الدعوة.

- التزام الحكمة والموعظة الحسنة وعدم الغلظة في القول أو العمل؛ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٩].

- الاستفادة من الأساليب العلمية والمتبعة لأي نشاط؛ بدءاً بتحديد الأهداف البعيدة والقريبة والتخطيط السليم والأداء المتقن ثم التقويم لنتائجه أولاً بأول.

ومن وسائل الدعوة ما يلي:

- الاستفادة من وسائل الإعلام الحديثة من إذاعة وتلفاز وصحافة ونشرات وأشرطة الكاسيت والڤيديو.

- دعوة القائمين على الجامعات في الدول الإسلامية إلى الالتزام بالتعاليم والأخلاق الإسلامية، والتخلي عن المبادئ والمذاهب المخالفة للإسلام؛ ليكونوا قدوة حسنة لغيرهم ولطلبتهم بصفة خاصة.

- العمل على إقامة مركز معلومات متكامل عن أحوال المسلمين ونشاط الدعوة الإسلامية في العالم، والحركات الهدّامة المعادية لها، مع الاستفادة من الأجهزة والأنظمة الحديثة الخاصة بتجميع المعلومات وتصنيفها وتوثيقها.

- القيام بإعداد الدراسات والبحوث عن التيارات الهدّامة للاستفادة من تلك البحوث في وضع خطة متكاملة للدعوة الإسلامية ومحاربة تلك التيارات.

وفي مجال الدعم المادي للدعوة والدعاة يرى:

أ - بحث سبل توفير مصدر تمويل للدعوة من التبرعات العينية والنقدية من الحكومات أو المؤسسات الإسلامية أو أفراد المسلمين، والاستثمارات أو الأوقاف، والدعوة للتطوع للقيام بأعمال الدعوة.

ب - تحسين رواتب الدعاة حتى يتمكنوا من القيام بمهمتهم كاملة، وتوفير وسائل المواصلات، وتزويدهم بالإمكانات التي تساعدهم على أداء مهمتهم.

ج - توفير الحرية للدعاة وحمايتهم من التعرض للمضايقات بحيث يتمكنون من نشر الدعوة الإسلامية بين الناس على بصيرة.

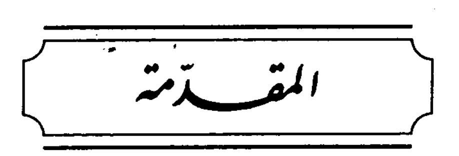
كما يرى أن المؤسسات والهيئات القائمة بأعمال الدعوة على اختلاف أشكالها وأنواعها من العناصر المهمة والرئيسة لنجاح الدعوة، ولذلك فإنه من الضروري الاهتمام بدعمها وتهيئة الفرص لها للتعاون والتشاور فيما بينها متمثلاً في اتخاذ خطوات إيجابية منها:

أ ـ تطوير الأجهزة الحالية التابعة لمؤسسات الدعوة، ودعمها ماديًا ومعنويًا وتزويدها بالكفاءات العلمية اللازمة لتكون في مستوىٰ المسؤولية المنوطة بها.

ب ـ العمل علىٰ تهيئة إطار للتشاور والتعاون والتنسيق بين مختلف المؤسسات والهيئات الإسلامية.







المقدمة

■ يزيد عدد المسلمين في العالم اليوم على ألف مليون، تمثلهم ـ نظرياً ـ (٤٢) دولة، إلا أن حوالي ٤٠٪ ـ ٥٠٪ منهم من الأقليات التي تعيش في بلاد أغلبيتها غير مسلمة، ويعانون من مشكلات سياسية واقتصادية واجتماعية معروفة للجميع. . ولكن الأحوال ليست أفضل بكثير بالنسبة للآخرين، فحتىٰ هؤلاء الذين يعيشون في البلاد التي تسمىٰ بلاداً إسلامية؛ يواجهون ظروفاً اجتماعية واقتصادية صعبة، ويفتقدون الحرية الفكرية، فالتخلف المادي الذي يخيم علىٰ المجتمعات المسلمة هو نتيجة طبيعية للتخلف الفكري. .

والسمة الظاهرة التي تميز المسلمين اليوم هي تخلفهم، فالبلدان الإسلامية ومناطق الأقليات، كلها محسوبة علىٰ أنها من العالم المتخلف أو الثالث، أو ما يعرف ـ خداعاً ـ بالدول النامية، وكثير منها يعيش دون مستوىٰ الفقر، ولا ينمو(!) بل يزداد فقراً. . يضاف إلىٰ ذٰلك أن نسبة ٦٠٪ ـ ٧٠٪ من عدد اللاجئين في العالم (ستة ملايين حسب إحصاء ١٩٨١م في أفريقيا وحدها) هم من المسلمين. . فالشعوب المسلمة فقيرة وجائعة، وفي بعضها مجاعة حقيقية تحاول المؤسسات التنصيرية (٤ آلاف مؤسسة) أن تخفف من حدتها علىٰ حساب العقيدة والكرامة.

أما عن الأمية فلا توجد أرقام تحدد نسبتها بين المسلمين، ولكن العالم العربي فيه أعلىٰ نسبة من الأمية في العالم، إذ تبلغ ٦٢٪ من السكان، وفي أفريقيا ٦٠٪. .

وهكذا يفرض الواقع المأساوي المؤلم مهمة عاجلة وملحة، هي العمل الفاعل لتنمية مجتمعات المسلمين، تنمية واقعية ومدروسة، تستهدف الإنسان المسلم. . وعلىٰ مؤسسات المسلمين أن تقوم به، وأن تتقنه، لدفع الأخطار التي تستهدف الوجود الإسلامي كله. . فهٰذا العمل هو عبادة رفيعة القدر. . .

من هنا ـ وفي هٰذه الظروف الدقيقة ـ يكتسب لقاؤنا مع الدكتور عبد الله عمر نصيف ـ الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ـ أهمية خاصة، حول الرابطة كمؤسسة عالمية معنية بالقضايا الإسلامية.■



التعليم الإسلامي مجرد حلم

◎ **ونبدأ بقضايا المسلمين..**

يقول الدكتور نصيف:

⊙ إن أوضاع المسلمين وقضاياهم ومشكلاتهم كثيرة جدًا، ويصعب الحديث عنها كلها.. ولكني سأركز علىٰ موضوعين:

الموضوع الأول يتعلق بالنظم الإسلامية العامة، فالمسلمون عندما تأخروا وتخلفوا لم يبقَ لهم من النظم الإسلامية الأصلية شيء؛ لا في مجال الاقتصاد ولا في مجال السياسة ولا في مجال الاجتماع ولا التعليم والتربية.. أصبحوا مقلدين، ولا بد من السعي لإيجاد هٰذه النظم التي يحتاجها المسلمون لترقية أنفسهم وتحسين وضعهم للانطلاق إلىٰ الأمام، إننا لا نزال نرىٰ المشكلات ونلمسها وندركها ونتحدث عنها في لقاءاتنا، ولٰكن ليس هناك أي عمل إيجابي يمضي بنا خطوات إلىٰ الأمام، وسنظل كذٰلك ما لم يتوافر لدىٰ الإخوة العاملين في شتىٰ أنحاء العالم الإسلامي الجهد والوقت والمال لخدمة هٰذه القضايا.. لقد ظهرت ـ والحمد للّه ـ مؤسسات إسلامية، لٰكنها تبقىٰ في حاجة إلىٰ الرجال.. والتعليم هو الأساس الذي يجب علينا أن نبدأ به للقضاء علىٰ مشكلة التخلف.. ذٰلك أن كل مشكلات المسلمين مصدرها عدم وجود تعليم إسلامي صحيح متكامل، وقد عقدت مؤتمرات كثيرة لبحث هٰذه القضية، عقد المؤتمر الأول للتعليم الإسلامي في مكة المكرمة عام ١٩٧٧م، وحضره ما يزيد علىٰ ثلاثمائة عالم ومفكر ومربٍّ من العالم الإسلامي، ووضعوا خطة لإيجاد نظام إسلامي للتربية والتعليم، ثم تبع ذٰلك ثلاثة مؤتمرات ـ في باكستان وبنجلاديش وإندونيسيا ـ ولٰكن لم يتم تنفيذ شيء من هٰذه اللحظة حتىٰ الآن؛ فقد قامت في وجهها العقبات، ذٰلك أن وزارات التربية والتعليم اعتبرتها مسألة صعبة جدًا وتحتاج إلىٰ جهد كبير، والجامعات قاومتها مقاومة واضحة، ليس من باب حرب الإسلام، وإنما لأنهم يعتقدون أن التعليم الإسلامي مجرد حلم ليس له في واقع الحياة مجال للتطبيق.

منطلقات علمانية

◎ وحول مدىٰ ارتباط المناهج القائمة بحاجات المجتمع الإسلامي يقول:

⊙ إن التعليم اليوم تعليم غير تطبيقي، فالطالب يدرس في المدارس الثانوية وفي الجامعة أشياء ليس لها علاقة بمجتمعه.. وعندما يخرج إلىٰ الحياة لا يستطيع أن يمارس تخصصه ومهنته علىٰ وجهها المطلوب.. علاوة علىٰ أن المادة التي يدرسها بعيدة عن الأخلاق والعقيدة، لأن الغرب منذ العشرينيات من هٰذا القرن أخرج مناهج الأخلاق والدين من النظم التعليمية، وقلدناه نحن في ذٰلك تقليداً، أما المناهج نفسها فهي مصوغة من منطلقات علمانية بحتة..

وقد ينطبق ذٰلك من زاوية ما علىٰ الطالب الذي يدرس في كلية الشريعة، فهو يدرس الأصول الشرعية الأساسية، ولٰكنه عندما يخرج إلىٰ واقع الحياة يواجه بمشكلات ومسائل لم يدرسها بالجامعة ولم يتعرض لها منهج الدراسة، وينسحب ذٰلك أيضاً علىٰ مستوىٰ الدراسات العليا.. كما ينسحب علىٰ كل التخصصات..

* * *

أطفال بلا مدارس

◎ وخلال مناقشته لقضية التعليم، تناول مشكلة أساسية، تشكل جانباً من القضية، هي مشكلة الأمية..

⊙ إن برامج محو الأمية ثبت فشلها في كثير من البلاد الإسلامية بسبب طريقة التدريس ومواد الدراسة نفسها، والحل هو أن نبدأ بتعليم الأطفال أولاً وتوفير المدارس لهم، فالأطفال في مناطق إسلامية كثيرة لا توجد لهم مدارس علىٰ الإطلاق، أو توجد مدارس تنصيرية لا يرغب المخلصون من المسلمين في إلحاق أبنائهم بها، والذين يدخلون هٰذه المدارس معظمهم لا يستطيع مقاومة التنصير حيث يُستقطبون ويُبعث بهم إلىٰ الغرب، وحتىٰ الاتحاد السوفييتي بدأ يستقطب أبناء المسلمين في أفغانستان، وقد بعث من أطفالها (١٢) ألفاً في سن

السادسة إلىٰ روسيا ليتعلموا هناك، ومن المؤكد أنهم سوف يحولونهم كفاراً ملحدين أو علىٰ الأقل يبعدونهم عن الإسلام تماماً. . فقد عرفوا نقطة الضعف بينما نحن لم نبذل جهداً في هٰذا المجال، والرأي عندي هو أن الاهتمام بالمدارس وتوفير المدرسين لها أهم بكثير من أي أسلوب آخر في الدعوة، ونستطيع أن نستخدم المواد والخامات المتوفرة في البيئة بدلاً من إنشاء مدارس ضخمة لغرض المباهاة. . وقد نرىٰ اليوم في مجتمعات إسلامية كثيرة مَن يريد ـ عن جهل ـ أن يُنشىء مسجداً تصل تكاليفه عشرة ملايين دولار في بنجلاديش أو البرازيل أو هنا أو هناك، ولو أنه أنشأ مسجداً بمائة ألف بالطين أو الطوب أو الخشب لحقق الغرض، إننا لا نزال نعاني من مركب النقص، نريد أن نبني مساجد بقباب ومنابر فخمة وبالهواء المكيف، وننسىٰ أننا بحاجة إلىٰ نشر دور لتعليم الأطفال في مناطق المسلمين. . وأذكر أنه عندما ذهبت مجموعة من الأفراد لبحث موضوع المجاعة في أفريقيا وجدت في بعض المناطق أن عدد الأطفال المسلمين الذين يهيمون بلا مدارس يزيد علىٰ ثلاثمائة ألف في المنطقة الواحدة. . إننا نتهاون في قضية تعليم الأبناء، ثم نكافح الأمية عند الكبار، فكأننا في الحقيقة نعمل في فراغ. .

* * *

دعوة المتطوعين

◎ أما القضية الثانية، فهي تفرض نفسها علىٰ الضمير الإسلامي في كل مكان، قضية المجاعة التي تجتاح مجتمعات المسلمين في أفريقيا، والضغوط التي تخضع لها هٰذه المجتمعات من قبل مؤسسات التنصير. . يقول الدكتور نصيف:

⊙ إن الأوضاع هناك أسوأ بكثير مما أستطيع أن أصفها، وهي تثير الحزن والألم الشديد في القلب. . ولا بد أن يكون للمسلمين دور إيجابي باستقطاب المتطوعين من كل التخصصات والمستويات للمساهمة في خدمة المسلمين. . وقد تعلمون أن عدد المنظمات التنصيرية في أفريقيا بالذات

أربعة آلاف منظمة تستخدم ما يزيد علىٰ عشرة ملايين من مختلف التخصصات، في الطب والتعليم والإدارة، وحتىٰ التخصصات الفنية الدقيقة، واستغلت هٰذه المنظمات فقر المسلمين وجهلهم وحاجتهم، وبثت فيهم الشك في دينهم ـ إن لم تنصر بعضهم ـ وتركتهم بلا عقيدة ولا أخلاق، وبعد ظهور الجفاف الذي تطور إلىٰ مجاعة، أصبح المسلمون يتلهفون علىٰ الإغاثات والمعونات من أية جهة، ولا يعنيهم بالطبع أن تكون هٰذه الجهات تنصيرية، فالمسلمون هناك يرون أطفالهم يموتون أمامهم كل ساعة، حتىٰ أصبحوا عاجزين عن التفكير، وقد وجدت البعثة التي أرسلتها رابطة العالم الإسلامي إلىٰ مناطق في السودان وأجزاء من الصومال أنه لا يوجد علىٰ قيد الحياة طفل دون السنتين من عمره، والأطفال الأكبر سنًا يعانون من الجوع، بطونهم منتفخة بسبب قلة المواد البروتينية وغالباً يموتون، أما العائلات التي تستطيع الهجرة فإنها تبدأ رحلتها بعشرة أفراد، وعندما ينتهي بها المطاف يبقىٰ منها فرد واحد، الأب أو الأم أو أحد الأبناء البالغين..

◎ ونتوقف هنا عند الجهود التي قامت بها الرابطة لمواجهة قضية الجوع، التي ذكرها الأمين العام الدكتور عبد الله نصيف:

⊙ وجهت رابطة العالم الإسلامي نداءً للمسلمين، تدعوهم فيه إلىٰ ضرورة الالتفات إلىٰ هٰذه القضية علىٰ وجه السرعة، لأن عامل الزمن هنا مهم جدًا، فالجفاف لم يترك أثراً لأي زرع أو نبات، حتىٰ الأشجار السامّة يأكلها الناس وهم يعلمون أنهم خلال يومين أو ثلاثة سيموتون، وهم يكفنون موتاهم بورق الصحف لعدم وجود أقمشة.. والوضع يتفاقم يوماً بعد يوم..
لقد وجدت الرابطة أن هناك حلّين سريعين:

أولاً: إرسال المؤن والأغذية بالطائرات وبالقطارات والسيارات إلىٰ مناطق المتضررين حتىٰ لا ينزحوا عنها إلىٰ المدن.

ثانياً: حفر الآبار في مناطق الجفاف، وهٰذا في الحقيقة أهم عمل إيجابي فعّال يمكن القيام به في الوقت الحاضر، حيث يوفر البئر ماءً للشرب ولري الأراضي وتوفير العلف للماشية، لأن الناس هناك لا يستغنون عن ماشيتهم ويموتون معها إذا ماتت.

لٰكن هناك ملاحظة وهي أن الآبار السطحية لا نفع لها لأن الجفاف قد وصل إلىٰ مستواها، ولا بد من الحفر علىٰ مستوىٰ ثلاثمائة متر علىٰ الأقل، والبئر من هٰذا النوع يتكلف من مائة ألف إلىٰ مائتي ألف ريال سعودي في المتوسط.. لٰكن ما نحتاج إليه في الحقيقة هو إثارة مشاعر المسلمين وبذل الجهد للحصول علىٰ متطوعين من المسلمين يقومون بتوزيع هٰذه المؤن والإغاثات علىٰ إخوانهم، وقد نعلم أن المنظمات التنصيرية لا تعتمد علىٰ موظفين إنما تعتمد علىٰ متطوعين من طلاب وطالبات الجامعات يقضون إجازة الصيف في هٰذه المناطق.. ونحن أوْلىٰ منهم، لأن ديننا يأمرنا بذٰلك، وعقيدتنا الإسلامية تفرض علينا هٰذا العمل، وإننا لنأثم عندما نعلم أن إخوة لنا يموتون جوعاً ونحن لا نبالي، ننعم ونتمتع ـ والحمد لله ـ بالمأكل والمشرب والمنام..

❋ ❋ ❋

الإخلاص والاختصاص

◎ القضية الأولىٰ التي نود أن نسمع فيها رأياً، هي أن كثيراً من المؤسسات الإسلامية الموجودة في العالم الإسلامي الآن لا تخلو من أهل الغيرة والإخلاص والإحساس بقضايا العالم الإسلامي، لٰكن من جانب آخر، نرىٰ أنها تفتقر لأهل الاختصاص، وتاريخيًّا نلحظ أن أهل الغيرة ليسوا بالضرورة من أهل الاختصاص وأصحاب الخبرات القادرين علىٰ الإدارة والتخطيط والمتابعة، فقد نجد إنساناً عنده من الإخلاص ومن الغيرة علىٰ قضايا العالم الإسلامي الشيء الكثير لٰكنه عاجز عن قضايا التخطيط والإدارة والمتابعة وما إلىٰ ذٰلك، ويمكن أن نلمح هٰذا في معظم مؤسسات العالم الإسلامي، وقد يُعزىٰ إلىٰ ذٰلك كثير من التعثر والارتباك الذي تعاني منه هٰذه المؤسسات، فما رأيكم في هٰذه القضية؟ وهل وضعت الرابطة في اعتبارها أن تجمع بين عنصر الغيرة وعنصر الاختصاص في مواجهة قضايا العالم الإسلامي؟

⊙ في الحقيقة، لا بد لأي جهاز يعمل للإسلام من الغيرة علىٰ قضايا

العالم الإسلامي، والإحساس بها، والإخلاص لها، وإن كانت قضية الإخلاص قضية بين الإنسان وربه، أما الناس فترصد نتائج العمل..

وبالنسبة للجهاز الإداري في المركز الرئيس للرابطة فهناك بعض الأشخاص الذين تمّ الاستغناء عنهم لأنهم تجاوزوا السن وقلّ عطاؤهم ولا بد أن يرتاحوا، لكن الباقين الموجودين لا بد لنا من عمل دورات تدريبية لهم أثناء العمل حتىٰ نتبين المخلص منهم، ونتبين الذي يريد أن يعمل ويقدر علىٰ العمل، والذي تنقصه بعض المقدرة، فقد لا يكون بعضهم مُجيداً في عمله، فتوفَّر لهم بقدر الإمكان هٰذه التدريبات، فإذا ثبت أن عطاءهم قد تحسَّن مستواه يستمرون في عملهم..

أما النوع الثاني فيمكن أن يستغنىٰ عنه أو يبحث له عن عمل آخر.. وفي الوقت نفسه لا بد من تطعيم الجهاز الإداري - وهٰذا ما بدأت فيه بالفعل - بعناصر نأمل منها الإخلاص للّه تعالىٰ وحب العمل والتفاني فيه، وهٰذا النوع من الناس علىٰ العموم قلة.. وقد عملنا في اتجاهين - في الحقيقة - ولكن لمّا تتبلور المسألة بعد لأن الفترة التي مرّت منذ بدء عملي والاضطلاع بمسؤوليات أمانة الرابطة فترة وجيزة..

◎ ألا ترون بأنه يمكن الاستفادة من الخبرات، دون أن تكون موظفة في الرابطة؛ بمعنىٰ أن يتم تشكيل لجان فنية - إن صحّ التعبير - أو تخصصية، في قضايا معينة من عناصر من العالم الإسلامي يمكن أن تكون لها لقاءات دورية - كلجان استشارية - بحيث تمتلك هٰذه العناصر قدرات فنية؛ لأن كثيراً من مؤسسات العالم الإسلامي تعاني في الحقيقة من عدم وجود الإنسان المتخصص؟

⊙ طبعاً المسألة واضحة وممكنة.. وأنا في الحقيقة ضد فكرة تضخيم أي جهاز من الأجهزة، فكلما تضخم الجهاز كلما كثرت مشاكله وقلّ عطاؤه، وإنما المهم هنا هو البحث عن النوعيات التي تقوم بالأعمال وتنجزها بسرعة وإتقان رغم قلة العدد، وهٰذه الخطة هي المفضلة عندي، والرابطة تعتمد - بعد الله ﷻ - علىٰ المنظمات الإسلامية في العالم الإسلامي لأداء أعمالها،

فبدل أن تقوم بتضخيم جهازها وزيادة عدد المبعوثين وعدد المكاتب تستفيد من الخبرات والإمكانات المتاحة في العالم في قضاء مسألة أو التعاون علىٰ إنجاز مشروع أو عمل دراسة معينة. . هٰذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن لدىٰ الرابطة الآن لجاناً استشارية دائمة ومؤقتة من أساتذة الجامعات ومن العاملين للإسلام ومن العلماء والمفكرين، وأعتقد أنهم هم المسؤولون عن جانب التخطيط ووضع التصورات، وأيضاً عمل الدراسات علىٰ ما يرد الرابطة من تقارير وأبحاث، كما يقومون بإنجاز وتنفيذ بعض الأمور. . كلجنة تنفيذية لأداء واجب من الواجبات أو دراسة مشكلة من المشاكل. . أنا معك في هٰذا مائة بالمائة، فلا بد للرابطة أن تستعين بالناس وهم في مواقعهم؛ لأن حرمان أي موقع من رجل مخلص ومنجز للعمل هو أيضاً مشكلة كبيرة، ونحن لا نريد أن نعطل المؤسسات الأخرىٰ العاملة.



شيء من الثوابت

◎ لا شك بأن الرابطة ـ كمؤسسة تتصدر لحمل هموم العالم الإسلامي، تعاني من مشكلاته وتحاول أن تقدم في هٰذا الإطار ما تستطيع ـ يمكن أن تكون لديها خطة ثابتة تعمل لها ولو ببطء، لتصل إلىٰ تحقيقها علىٰ المدىٰ البعيد، ولديها أيضاً خطة للاستجابة للحاجات العاجلة والإغاثات الطارئة، فالحاجة تقتضي وجود هذين النوعين من الخطط، خطة بنائية إنتاجية علىٰ مدًى بعيد في العالم الإسلامي، إلىٰ جانب الاستجابة للحاجات الطارئة وإغاثات المهاجرين والمحتاجين والمرضىٰ وما إلىٰ ذٰلك. فالأصل أن يكون هناك شيء من الثوابت، يؤدي في المستقبل إلىٰ كيانات قادرة علىٰ تغطية حاجات المسلمين.

والسؤال هنا: هل فُكِّر ـ إلىٰ جانب ما تقوم به الرابطة من أعمال الإغاثة في العالم الإسلامي والاستجابة للطلبات العاجلة ـ أن تكون عندها خطة ثابتة لحل مشكلات المسلمين الأساسية ضمن عمر معين؟

⊙ في الواقع لا توجد الآن خطة مدروسة علمية لمستقبل العمل الإسلامي للرابطة، فهي لا تزال تتفاعل آنيًا مع الطلبات وإلحاح الناس، والحقيقة أن ضغط حاجات الناس أشد بكثير مما يتخيل أي إنسان، سواء بالمراسلات أو بالزيارات اليومية، وأحياناً يجد الإنسان نفسه مرغماً أن يستجيب للمراجعين لأنهم يأتون من آخر الدنيا، ويصعب ردّهم، وقد يكون الواحد منهم محدوداً في وقته ويحتاج إلىٰ العودة.. في الوقت نفسه أعتقد أنه مما أصيبت به المؤسسات الإسلامية في العصر الحاضر كثرة الأوراق وكثرة الإجراءات الروتينية، وهٰذا يجهد المسؤولين والمختصين، ولا بد لنا من التخلص من كثير من هٰذه الأمور حتىٰ نتفرغ للتخطيط والتنظيم ـ هٰذا من ناحية ـ ومن ناحية ثانية فإن مسألة وضع خطة للعالم الإسلامي أمر يحتاج إلىٰ وقت، وإن كنّا قد بدأنا بعض الخطوات بتجميع التقارير وتفريغها.

وقد شكلت لجنة التخطيط ووضع الخطط والموازنات، ولٰكنها لمّا تجتمع بعد لأننا بصدد تجميع المعلومات ووضعها وفرزها، ولٰكن إن شاء الله نأمل من الله ﷻ أن يحقق لنا وضع خطة ولو كانت بدائية، ثم يُصار إلىٰ تقويمها وزيادتها والإضافة إليها حتىٰ نضمن استمرارية العمل وسيره في اتجاه عملي صحيح..

◎ لا شك أن ضغوط الحاجات في العالم الإسلامي أكبر من الطاقات، هٰذه قضية، لٰكن إذا بقينا نعيش علىٰ ردود الفعل والاستجابة للحاجات الآنية فمعنىٰ ذٰلك أننا قررنا أن يبقىٰ العالم الإسلامي يراوح في مكانه، ولا بد من وضع خطة ـ ولو كانت طويلة الأمد ـ تكون ثابتة، نتقدم إليها شيئاً فشيئاً فتنهي الكثير من مشكلات العالم الإسلامي..

⊙ التصور والحمد لله موجود.. والنية متوفرة لوضع خطة، ولٰكن ترجمتها ووضعها علىٰ الورق لا يزال يحتاج إلىٰ وقت..

❋ ❋ ❋

المنح الدراسية وحاجات المسلمين

◎ في الحقيقة، لقد أصبح للرابطة عمر الآن في العالم الإسلامي، ونحن لا نبخسها حقها فيما قدمت في إطار العالم الإسلامي، لٰكن الإنسان يطمع بأن تبدأ في إخضاع القضايا للون من التخطيط والدراسة البعيدة.

ويمكن الآن أن ننتقل لنقطة أخرىٰ في الحوار..

لا شك بأن الرابطة تعمل للحصول علىٰ منح دراسية للطلبة من جامعات العالم الإسلامي، فهل تخضع هٰذه المنح لنوع من الدراسة، يتم بموجبها اختيار مجالات معينة تسد حاجات قائمة في المجتمعات الإسلامية، وتتحكم في اختيار الطالب؟ ففي مجال الأقليات مثلاً، قد تختلف طبيعة المنح المطلوبة عنها في بلاد أخرىٰ بالعالم الإسلامي عنها في البلاد العربية، فهل توجد سياسة معينة لطلب المنح من الجامعات، وتحديد نوعيتها علىٰ ضوء الحاجات الفعلية؟ وهل توجد لجنة مختصة بهٰذا الإطار ضمن أجهزة الرابطة؟

⊙ هناك بالفعل لجنة مختصة بالمنح، تستكمل أولاً إجراءات الاستفسار عن الطلاب، والتأكد من أخلاقهم ومن سلوكهم ومن حاجة مجتمعاتهم، ولمّا توضع خطة تعبر عن احتياجات العالم الإسلامي من الطاقات البشرية، لٰكن ما نقوم به في حدود اجتهادنا، فنحن الآن مثلاً لا نعطي منحاً دراسية لدراسة الأدب أو التاريخ.. اجتهاداً منّا بأن العالم الإسلامي ليس بحاجة ملحة لهٰذه التخصصات، بينما نعطي منحاً لدراسة العلوم الشرعية لأني أعتقد أن هٰذا واجبنا الأساسي، ودراسة الطب والهندسة والتخصصات التي نرىٰ أن مجتمعاتنا الإسلامية بحاجة إليها، فالمجتمعات الإسلامية في أفريقيا قد لا يوجد ببعضها طبيب واحد من أهل البلد نفسه وإنما هناك أجانب، وغالباً ما يكونون تابعين للكنيسة، فنحاول أن نغطي هٰذا الجانب اجتهاداً، وأعتقد أننا ربما نحتاج لوقت طويل قبل التأكد من حاجة كل المجتمعات الإسلامية، ولعلّ الدراسات والتقارير التي نحن الآن بصدد تبويبها وصياغتها في خطة ـ كما ذكرنا ـ تبين الحاجات الحقيقية المطلوبة للمسلمين..

الذي أقصده هو أن تكون عندنا خطة تقضي بتوزيع المنح حسب حاجات العالم الإسلامي، وتوزع الاختصاصات أيضاً علىٰ ضوء حاجات العالم الإسلامي، فقد نقبل بمنحة في أفريقيا لا نقبلها مثلاً في منطقة أخرىٰ مثل آسيا أو لا نقبلها في أوروبا، فالتوزيع يأتي ثمرة لدراسة سابقة.. حيث يتمّ اختيار الطالب ونوعيته واختيار دراسته أيضاً، لأن دراسته أصلاً ذات أهمية وقيمة مستقبلاً في تحقيق الأهداف التي نسعىٰ إلىٰ تحقيقها في مجتمعه..

◎ في الواقع هٰذه القضية تحتاج إلىٰ علاج من عدة جوانب، أولها ما هو معروف من أن معظم الطلاب ـ إن لم نقل كلهم ـ يسعىٰ للحصول علىٰ «الشهادة» بأي ثمن، ولا يفكر فيما وراء ذٰلك..

هٰذا هو مرض النظام التعليمي في العالم الإسلامي ككل، ولٰكن إذا اعتبرنا أن الرابطة ـ كمؤسسة ـ رائدة وقادرة علىٰ استيعاب مشكلة العالم الإسلامي والمساهمة بوضع حلول لها متقدمة، يمكن أن نخلص نظام التعليم من المشكلات التي تعاني منها..

⊙ هٰذه في الحقيقة قضية هامة لا بد من اتخاذ خطوات في شأنها إن شاء الله.

❋ ❋ ❋

الثقة المتبادلة

◎ هناك هيئات كثيرة للعمل الإسلامي سواء أكانت في العالم الإسلامي أم كانت في أوروبا أو أمريكا، ولكل هيئة برامجها وتصورها وأهدافها وطرائقها في العمل. وكأنما يلمح الإنسان بين فترة وأخرىٰ أن الكثير من هٰذه المؤسسات في أوروبا وأمريكا تنقل معها مشكلات العالم الإسلامي فتقع بشيء من التخبط والتعثر والاصطدامات وما إلىٰ ذٰلك، مما يسيء إلىٰ العمل الإسلامي ويعوق مسيرته، ويعطي صورة غير صحيحة وسليمة عن واقع المسلمين.. ونود أن نعرف دور الرابطة من وجهين: كيفية التعامل مع هٰذه الكيانات ـ من ناحية ـ ودورها في حل مشكلاتها، وتبنّي صور العمل الإسلامي الذي قد يقضي علىٰ ما يسيء إلىٰ المسلمين؟

⊙ إن توثيق العلاقات مع المؤسسات الإسلامية المختلفة في داخل العالم الإسلامي وخارجه أمر مهم جدًا وجوهري، وأعتقد أنه علىٰ أساسه يمكن أن يكون هناك نجاح في العمل الإسلامي أو لا يكون.. وهٰذه المرحلة من العمل قائمة الآن، فهناك صلات واتصالات، وهناك أيضاً تنسيق، لٰكن لا بد من مراعاة ظروف وإمكانات العمل الإسلامي اليوم، لأن بعض الهيئات والمؤسسات - للأسف الشديد - يتحكم فيها حب السيطرة، وأنا أسمّيه اتجاهاً قبليًا، وقد أدّىٰ هٰذا إلىٰ تنازع المنظمات وتنافرها وأحياناً تقاتلها فيما بينها، ودور الرابطة الآن هو جمع كلمة هٰذه المنظمات وتوحيد صفوفها وعمل التنسيق اللازم وإزالة ما قد يوجد من خلاف أو اختلاف في وجهات النظر، ثم بعد ذٰلك نضع خطة تشمل عمل الجميع بإذن الله.. الآن لا نزال نحاول أن نبيّن للناس أن رابطة العالم الإسلامي هي لخدمة المنظمات ورعايتها، ولم تقم من أجل السيطرة.

◎ هٰذا في الحقيقة ما أريد أن أقول، إنه قد يُخشىٰ بأن ينشأ تصور عند العاملين للإسلام بأن الرابطة تريد أن تبتلع منظماتهم أو تفرض وصايتها عليها أو ما إلىٰ ذٰلك، وقد تكون بعض الحوادث والممارسات التي وقعت في تاريخ الرابطة مؤشراً في الحقيقة علىٰ هٰذا الاعتقاد الذي يراه بعضهم، حيث أوجد نوعاً من عدم الثقة المتبادلة، لشعور بعض الناس بأن الرابطة أيضاً جاءت لممارسة القضية التي تباشرها منظماتهم؛ بمعنىٰ أنها لم تكن خارجة عن الإصابة بالمشكلة التي جاءت تعالجها.

⊙ هٰذا ما لمسته شخصيًا - ومن بداية عملي - ونحن نركز لإزالة هٰذا التصور عند الجمعيات والمسؤولين عنها، وقد قمت بإجراء الاتصالات والزيارات الميدانية واللقاءات لإزالة هٰذا التخوف.. وأعتقد - والحمد لله - بأننا الآن في مرحلة متقدمة من هٰذه الناحية، التعاون الآن قائم بيننا وبين أية جهة مهما كانت بدون أي خلاف، ولا أي نزاع، بل بالعكس، الآن هناك تعاون كامل، ونستعين بهٰذه الجمعيات ويستعينون بنا فيما يصلح العمل الإسلامي وما يقوم بخدمة المسلمين، ونريد أن نطور هٰذا، بحيث يكون للمسلمين تصور واحد وخطة واحدة متكاملة علىٰ المدىٰ الطويل وعلىٰ

الأفق الواسع، بحيث لا يكون هناك أي تضارب أو اختلاف أو تكرار، وأعتقد - إن شاء الله - أننا نسير في الاتجاه الصحيح بإذن الله.

❁ ❁ ❁

العمل الإسلامي الرسمي

◎ هناك قضية هامة في الحقيقة: لا شك بأن الرابطة يمكن أن يكون لها صفتان: صفة الاستقلالية - استقلالية القرار كهيئة مستقلة تتابع قضايا المسلمين - ولها بعض الاعتبارات الرسمية من جانب آخر، هٰذه الاعتبارات بسبب من التمويل أو بسبب من وجودها في المملكة العربية السعودية..

والحكومات بطبيعة الحال لها روابطها الرسمية والدولية، ولها ضوابطها ولها علاقاتها العامة التي قد لا تستطيع تجاوزها في بعض الأحيان، بينما المؤسسات الشعبية والمؤسسات الخاصة أقدر علىٰ التحرك من بعض الوجوه والاعتبارات لأنها لا تخضع للضوابط والروابط نفسها التي تخضع لها الحكومات، فما أدري إلىٰ أي مدًى تمتلك الرابطة استقلالية قرارها وممارساتها ومتابعاتها، والإحساس بمشكلات العمل الإسلامي والاقتراب من العمل الإسلامي الشعبي؟ لأنه إلىٰ حدٍّ بعيد هناك أزمة ثقة بين العمل الإسلامي الشعبي - إن صحّ التعبير - والعمل الإسلامي الرسمي، فالعمل الإسلامي الرسمي يُنظر إليه من خلال الحكومات وظروفها وأزمة الثقة بينها وبين شعوبها في كثير من مناطق العالم الإسلامي.. وقد لا تكون هٰذه الظروف واقعة في بلد، لٰكنها في بلاد أخرىٰ موجودة وقائمة، فكيف فكرتم بهٰذه القضية وكيفية علاجها؟ لأنه إذا اعتبرنا الرابطة صورة للعمل الإسلامي الرسمي، فلقد يبتعد كثير من الناس عن الاستفادة منها والتعاون معها وبذٰلك يفوت خير كبير علىٰ المسلمين.

⊙ إن الرابطة حتى الآن - ولله الحمد - لديها الاستقلالية في التفكير وفي اتخاذ القرارات وفي تنفيذ الأمور، والمملكة العربية السعودية - والحمد لله -

هي التي تعطيها الدعم طبعاً، ٩٩٪ من الدعم يأتي من المملكة، وهٰذه الرابطة جعلت لخدمة العالم الإسلامي والمسلمين في أي مكان، والمملكة العربية السعودية وإن كانت تمولها إلاَّ أنها لا تريد أن تملي عليها شيئاً، بل تريدها أن تباشر عملها في أوساط الشعوب الإسلامية بحرية وانطلاق حتىٰ يمكن أن تحقق الفائدة، ولذٰلك أعتقد أن الحرية مكفولة للرابطة ـ والحمد لله ـ طبعاً لا بد من مراعاة الظروف ـ ظروف وضعنا داخل المملكة العربية السعودية ـ لٰكن هٰذا لا يعوق العمل.

هناك أعداء للإسلام بين المسلمين وغير المسلمين يحاولون أن يكيدوا للعمل الإسلامي وأن يهوِّلوا الأمور ويصوروها بغير حقيقتها، وهٰؤلاء نجحوا في وقت من الأوقات في تشويه سمعة الرابطة ومكانتها، وأوهموا الناس بأنها مؤسسة رسمية سعودية لا تستطيع التصرف وما إلىٰ ذٰلك من ادعاءات، وربما ترصدوا الحوادث وهوَّلوها وكبَّروها، ولٰكنني أعتقد أن الحرية المكفولة للرابطة الآن لا يمكن لأحد أن ينكرها، وهي ملموسة في أنحاء العالم الإسلامي..

◎ **إن ما أريد أن أقوله: هو أن الرابطة كما أشرتم تمارس الآن عملاً، تتفاعل من خلاله بالضرورة مع العمل الإسلامي الشعبي، وذٰلك بمساعدته وتبنِّيه ومعاونته، والسير معه إلىٰ مدىٰ إزالة الحواجز النفسية التي يمكن أن تنشأ بين المسلمين.**

⊙ هٰذا ما يتم في الواقع، وهو السبب وراء زيادة الضغط علينا، لأن المؤسسات الإسلامية والأفراد والجهات المختلفة في الخارج تحس أن المساعدات التي تقدمها الرابطة هي أولاً نابعة من إخلاص ـ إن شاء الله ـ وفي الوقت نفسه غير مشروطة، فالرابطة تسعىٰ إلىٰ أن تعالج حاجة ماسة في مجتمع ما أو نقصاً قائماً أو علاج مشكلة من المشاكل، ولذٰلك زاد الطلب، ويزداد يوميًّا لأنهم يحسون أن الرابطة لا تملي عليها شروطاً أو تقدم إعانات مشروطة أو تطلب من الجمعيات أشياء غير معقولة، بل بالعكس نطلب من الجهات تأسيس وقف، ونتأكد من أن هٰذا الوقف إسلامي، وأنه مصون بالنسبة للمستقبل ولا نشترط أن نمتلك شيئاً، أو أن يكون المشروع ملكاً للرابطة، رغم أنه قد

ندفع مائة بالمائة من تكاليف المشروع سواء أكان مركزاً أو مدرسة أو غير ذٰلك، وأعتقد أننا بحاجة إلىٰ فترة من العمل الإيجابي حتىٰ نزيل ما هنالك من تصورات مخطئة، أو حساسيات متوارثة من الماضي إن شاء الله. .

❋ ❋ ❋

مناخ التخلف

◎ لا شك أن كثيراً من العاملين في إطار العمل الإسلامي غير الرسمي كان أملهم كبيراً بمجيئكم للرابطة، بأن تأخذ الرابطة في الحقيقة بعداً آخر في معالجة بعض الأخطاء التي كانت تقع ـ كمحاولات السيطرة وغيرها ـ حتىٰ تكون المراكز الإسلامية في أوروبا وفي غير أوروبا حواس تتكامل في تكوين العقل الإسلامي الصحيح، الذي يمكن أن ينظر لمشكلات المسلمين وأن يعالجها، ولا شك بأنه في الطريق سيظهر ضمن الناس الذين تسيطر عليهم روح القبلية وروح الزعامة، والرغبة في الاستئثار بالعمل الإسلامي وإقامة دويلات في العمل الإسلامي كدويلات العالم الإسلامي الرسمية، لٰكن هٰذه يجب أن توضع لها في الحقيقة خطة طويلة الأمد لإنهائها شيئاً فشيئاً. .

وهناك موضوع قد يكون أقرب إلىٰ الاعتبار الشخصي منه إلىٰ الصورة العامة؛ أجد أن كثيراً من الإخوة الذين درسوا في أوروبا وأمريكا ـ وتخصصوا ـ يعودون بعد ذٰلك إلىٰ العالم الإسلامي فلا يستطيعون الانفصال عن المناخ المتخلف في العالم الإسلامي، ولا يكون عطاؤهم كاملاً بينما تُنتظر منهم أشياء كثيرة، ولٰكن تغلبهم طبيعة ومشكلات المناخ المتخلف الذي يعيشون به، فلا يفيدون كثيراً من دراستهم في الغرب، فتنعكس هٰذه الدراسة وهٰذه العقلية علىٰ عملية تطوير المناهج والخطط الموجودة في المؤسسات الإسلامية، ويمكن أن نلحظ هٰذا في المراكز الإسلامية في الغرب، كما يمكن أن نلحظه في المؤسسات الإسلامية التي

جاء إليها مَن كانت له دراسات وتخصصات منهجية في أوروبا وأمريكا..

⊙ من الأمور الواضحة أن أبناءنا عندما يعودون من الخارج بعد حصولهم علىٰ الشهادات المطلوبة يأتون بحماس وغيْرة ورَغبة في العمل الإيجابي البنَّاء، ويتحرقون شوقاً لإنجاز الأمور ومحاولة إصلاح الوضع.. ولٰكنهم يصطدمون فعلاً بواقع حياتنا المعاصرة في العالم الإسلامي، من وجود روتين قاتل وبيروقراطية متفشية إلىٰ أبعد الحدود وحواجز تجعلهم بعد سنة أو سنتين يفقدون هٰذا الحماس تماماً ويندمجون في واقع المجتمع، وهٰذه الحقيقة مسألة فطرية، فلا يمكن للإنسان أن يقاوم، إلّا مَن آتاه الله سبحانه وتعالىٰ الحكمة والمقدرة واستمرارية الحماس، ولذٰلك أعتقد أن دولنا مطلوب منها أن تعيد النظر في الموضوع.. فعندما يأتي هٰؤلاء الأبناء عليها أن تتقبل منهم آراءهم وأن تحاول أن تلبيها لهم قدر الإمكان وشيئاً فشيئاً حتىٰ يمكن إصلاح الوضع، الآن هناك كثير من الدول أعلنت أنها تريد أن تستقطب العقول المهاجرة للغرب، وهٰذه المشكلة يعاني منها العالم الإسلامي، فهناك عشرات ومئات الألوف من أبناء المسلمين المتخصصين في شتىٰ الفروع والعلوم والفنون ـ التي يحتاجها العالم الإسلامي اليوم أشد الحاجة ـ يعيشون في الغرب، وقد حاولت بعض الدول أن تستقطب هٰؤلاء، ووعدتهم بالإمكانات ثم فوجئوا بعد عودتهم إلىٰ تلك البلاد ـ وهٰذا يعم البلاد الإسلامية كثيراً ـ أن هٰذا الأمر كان مجرد حلم أو سراب خادع واصطدموا بواقع الأمور وطبيعتها، بحيث فقدوا الحماس، لأنه لم يتوفر لهم الجو العلمي والإمكانات البعيدة عن الروتين وعن متطلبات العمل الورقية وتعطيل الأمور، فجعلهم هٰذا ينصرفون مرة أخرىٰ، وكثير من أبناء المسلمين عادوا إلىٰ الغرب مرة أخرىٰ، وهم أشد اقتناعاً بعدم الرجوع ثانيةً حتىٰ يحدث الله أمراً كان مفعولاً، فأنا أرىٰ أنه لا بد من علاج هٰذه المشكلة بإيجابية وصراحة ورغبة في تغيير الواقع..

◎ باعتبار مجيئكم وتعرفكم علىٰ أبعاد العمل وعوائقه ومشكلاته من الناحية الرسمية ومن الناحية الشرعية، ومعرفتكم بطبيعة المناخ الذي لا يزال يساهم بطرد المتخصصين والعقول التي يمكن أن تساهم بإنقاذ العالم الإسلامي من تخلفه، في الوقت الذي تستقطب فيه أمريكا والغرب

كل العقول المفكرة. . ألا ترون بأن تقوم الرابطة بدور تستطيع من خلاله إقناع بعض الجهات وتذليل بعض العقبات؟

⊙ والله ما أدري إذا كان هناك دور ما، نحاول التفكير في هٰذا الموضوع إن شاء الله، لٰكن ما أعلمه هو أن كثيراً من المسؤولين الصغار والكبار لديهم الإخلاص والرغبة في تذليل هٰذه العقبات، لٰكن واقع المسلمين عموماً يعطل ذٰلك ـ فكل إنسان في موقع عمله مسؤول عن سبب هٰذه المشكلة ـ وما تخاطب أحداً إلَّا ويعرف أن هٰذه المشكلة قائمة وموجودة ويريد أن يعالجها، لٰكنه لا يقوم ببذل أي جهد، ويندمج في نطاق وإطار العمل القائم ويدخل في الروتين، ثم ينسىٰ الدور الذي عليه أن يؤديه.

وأعتقد أنه لو استصدرنا مئات التوصيات ثم لم تلقَ رغبةً وحماساً في التنفيذ من جميع العاملين بدون استثناء، يصعب تنفيذها، ولٰكن هٰذه المشكلة ربما تطرح للدرس أكثر، ونضع توصيات بشأنها، لأن وظيفة الرابطة في الحقيقة هي الدراسة وتقديم توصيات.

◎ في الحقيقة الرابطة ـ شئنا أم أبينا ـ علىٰ علاقة بالقضية، فهي تشرف علىٰ دراسات وتتعامل مع جاليات وتتعامل مع طلبة يدرسون في الغرب، وتتعامل مع عقول مهاجرة، في مكاتبها في أوروبا وأمريكا. والأصل أنها تتعامل مع العقول المسلمة المهاجرة هناك، فهي موجودة في العالم الإسلامي وهي في الوقت نفسه موجودة في أوروبا وأمريكا والبلاد التي تستقطب هٰذه العقول، وأعتقد بأن هٰذا الوجود يعطيها دوراً ما علىٰ مستوىٰ الأفراد الموجودين والمهاجرين، بتوضيح حاجات بلادهم، وضرورة العمل لتغيير الواقع، وأن هٰذا الواقع لا يتغير بين عشية وضحاها، وتغريبهم بالعودة إلىٰ بلادهم، ومن جانب آخر تحاول أن تهيئ لهم المناخ الطبيعي في بلادهم ما أمكن، لأن كثيراً من العقول المهاجرة في الحقيقة موجودة في مكاتب الرابطة بالخارج. .

⊙ في هٰذه المرحلة: تقوم الرابطة بالاستفادة من تلك العقول في مهام مؤقتة أو في شغل مناصب مؤقتة، أو في عمل دراسات معينة، وتدل الجهات في العالم الإسلامي علىٰ أماكن وجود هؤلاء وعناوينهم ومجالات تخصصهم حتىٰ يمكن

الاستفادة منهم، هٰذا جانب لا بأس به كفترة انتقالية، ولٰكنني أرىٰ أن علاج المشكلة من جذورها يبدأ بالتعليم، فلا بد من تغيير مناهج التعليم وأسلوب التربية، أما مدارسنا وجامعاتنا فليس فيها تربية في الواقع، فيها فقط تلقين وشيء من التعليم، فلا بد من غرس التربية الإسلامية والروح البنَّاءة، نحن نرىٰ اليهود كيف ينشِّئون في أبنائهم المبادئ التي يدعون إليها بطريقة عملية؛ في البيت والمدرسة وفي الشارع. وهٰذا من واجب المسلمين، كان المسلمون في الماضي يغرسون في الطفل - منذ نعومة أظفاره - الجوانب البنَّاءة وروح الإخلاص والتفاني والعمل، والإخلاص للّه ﷻ فينشأ الشاب وهو متحمس، الآن شبابنا يتخرجون وهم بعيدون جدًّا عن الحماس، والأهداف والوسائل والغايات مختلطة عليهم، لا يعرفون ما هي الوسيلة وما هو الهدف، فأصبحت الوسائل أهدافاً والأهداف وسائل، واختلطت الأمور كثيراً، وهٰذا يحتاج إلىٰ نفس طويل، وإلىٰ أن يعي المسلمون هٰذا الدور، ويحاولوا إصلاح مناهج التربية والتعليم حتىٰ تنطلق.

* * *

دليل عمل

◎ لا شك بأن الجاليات الإسلامية التي تعيش في البلاد الأوروبية مثل: بلجيكا وفرنسا وألمانيا وغيرها لها مشكلاتها المعروفة، وقد لاحظنا ذٰلك خلال زيارتنا لها، ولٰكن كأنما يلمح الإنسان بأنه لا توجد الدراسة الدقيقة عن هٰذه المجتمعات ومداخلها وقوانينها وكيفية التعامل معها، أو دليل عمل - إن صحّ التعبير - للقضية الإسلامية وللمتعاملين معها سواء علىٰ مستوىٰ الجالية أو علىٰ مستوىٰ الطلبة المبتعثين أو علىٰ مستوىٰ أبناء الجالية الذين لا يزالون مستنقعين بنوعية معينة من الدراسات، عاجزين عن تجاوزها إلىٰ غيرها، وكأن الإنسان ما شعر بأن القضية تأخذ نهجاً علميًّا، وطريقاً منهجيًّا، فهٰذه القضية في الحقيقة علىٰ غِاية من الأهمية والخطورة: دراسة مداخل الشعوب وتاريخها وثقافتها وخريطتها العقيدية وكيفية التعامل معها،

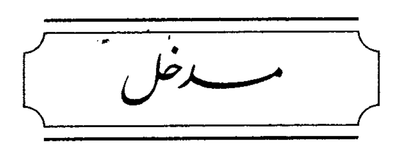
ووضع دليل عمل للقائمين هناك والعاملين بالقضية الإسلامية، وبالنسبة لمركز بروكسل ـ الذي يتبع الرابطة ـ هناك قضايا التعليم في المعهد القائم به، وقضايا الإذاعة الموجهة، حيث يمكن الاستفادة منها في تقديم دروس لتعليم اللغة العربية بشكل عام توجه للجالية، هناك في الحقيقة إمكانات موجودة، لٰكن لا بد لها من خطة منهجية مرحلية كاملة مستوعبةٍ صورةَ المجتمع الذي يجب أن تتعامل معه، فكل إنسان يتصرف بما يراه، وقد يكتشف خطأ تصرفه فينتقل إلىٰ تصرف آخر، فما أدري، هل صار هناك ـ بالنسبة للمراكز الإسلامية في أوروبا وأمريكا ـ تصور معين أو دراسات تمكن من إيجاد دليل العمل الإسلامي هناك؟ وإلىٰ أي مدىً استُفيد من تجربة المركز الإسلامي والمعهد في بروكسل؟

⊙ إن مشاكل الجاليات الإسلامية في العالم الخارجي مشاكل قائمة بذاتها، بعضها مستورد من العالم الإسلامي ومنقول إلىٰ هناك، وبعضها نابع من البيئة، وبعضها ناتج من عوامل أخرىٰ كثيرة، وهناك نوعان من الجالية، فالغربيون المسلمون لهم مشاكلهم والشرقيون لهم مشاكلهم، ولٰكن صعوبة العمل ـ أعتقد ـ تأتي من كبر حجم العمل المطلوب تحقيقه من الرابطة، وهو المطلوب من الخلافة الإسلامية ـ لو كان هناك خليفة ـ فهٰذه مسؤولية الخليفة، مطلوب منَّا حجم عمل أكبر بكثير من طاقاتنا، ومع ذٰلك فنحن الآن بصدد الاستفادة من بعض المنظمات الكبيرة في الغرب ـ خاصة في أمريكا ـ في عمل دراسات عن واقع الجاليات ومشكلاتها ومتطلباتها، ووضع منهاج عمل لعلاج هٰذه المشاكل، لٰكن هٰذا في الواقع يحتاج إلىٰ بعض الوقت، وقد بدأنا بأمريكا، وإن شاء الله بعد ذٰلك تأتي أوروبا، لأن أوروبا في الحقيقة مشكلاتها أكبر، فالمجتمع متباين وظروف الجاليات مختلفة بعض الشيء وقد تحتاج إلىٰ أكثر من دراسة. . أما في أمريكا فهناك نوع من التجانس في المشاكل، والدراسة هناك أسهل، فإذا نجحنا في تلك الدراسة نحاول أن نستعين بمنظمات أخرىٰ في أوروبا أو أن تقوم الرابطة بهٰذا العمل، أما الآن فلا يوجد طبعاً منهاج عمل.



جامعة القرويين
في مواجهة التغريب الثقافي

الشَّيخ عبدالله كنون الحسني



مدخل

■ من مواليد فاس ١٣٢٦هـ. حاول والده الهجرة عند نصب الحماية الفرنسية على المغرب إلى المدينة المنورة عن طريق طنجة، لكن هذه الهجرة لم تتم لانقطاع الطريق بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى فاستقرت الأسرة بطنجة.

■ درس على والده الشيخ عبد الصمد وعلماء آخرين، واشتغل بالتعليم، وكتب في الصحف والمجلات.

■ تنبّه إلى أهمية التعليم والتربية بشكل مبكر فأسّس مدارس (حرة) خاصة للبنين والبنات، وأنشأ المعهد الإسلامي بطنجة.

■ شارك في الحركة الوطنية، حيث لم ينفصل العلم عن الجهاد في تاريخ المسلمين، ولعل مصطلح «الرباط» مؤشر على التلازم الدائم بين العلم والجهاد.

■ ألّف عشرات الكتب في الأدب والنقد والتاريخ والدعوة، طبع منها أكثر من أربعين كتاباً بالمغرب ومصر ولبنان.

■ منح وسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الممتازة، ووسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى من مصر.

■ رئيس رابطة علماء المغرب، وعضو الأكاديمية المغربية، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجامع عربية أخرى، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي، ومجمع البحوث الإسلامية، ومؤسسة آل البيت

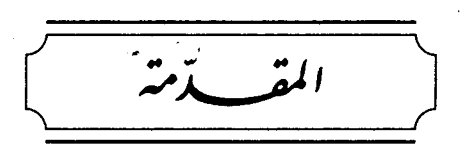
لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن، فهو الشاهد المخضرم الذي قاوم الاحتلال وشارك في بناء الاستقلال وواجه التغريب والفرنسة.

■ **يرىٰ**: أن أعظم وأخطر ظاهرة تلاحظ علىٰ الدعوة والدعاة في الحقبة الراهنة هي إلباس الإسلام لباس التفسير المادي والتعليل الأيديولوجي المستورد الذي كان يلجأ إليه بعض المصلحين في فجر القرن الرابع عشر المنصرم للرد علىٰ خصوم الدين الحنيف، والجنوح إلىٰ التفسيرات العلمانية، ويرىٰ أن الكثير من المؤلفات الجديدة التي تحمل أسماء إسلامية هي في جوهرها انعكاس لأفكار بعيدة عن الإسلام، وأن الكثير من هٰذه المؤلفات جاءت لترضية الحكام الذين يصطنعون أنظمة الحكم الأجنبية ويزعمون أنها تستمد مبادئها من الإسلام تضليلاً لشعوبهم وخداعاً لها، لذٰلك يصدق عليها - في نظره - حديث رسول الله ﷺ: «**الناس كإبل مائة ليس فيها راحلة**».

- يأخذ علىٰ الكثير من الدعاة الظاهرة التنطعية والاهتمام بالمسائل الجغرافية التي باتت تهدد الأمة الإسلامية أكثر من الانتماءات القبلية والعرقية، يدعو إلىٰ إسلام الوفاق لا إسلام الخلاف، ويرىٰ أن طريق البلاغ التي كان يتبعها الرسول ﷺ هي التي تجمع ولا تفرق، وتهدي ولا تضل.

- ميثاق الدعوة عنده: «**بشّروا ولا تنفروا، ويسّروا ولا تعسروا**».
والحوار معه يحمل إضاءات عن أهم حقبة في تاريخ المغرب العربي الشقيق.





المقدّمة

■ في زمن تكاد تنحسر فيه عن عالمنا ملامح الشخصية الموسوعية، يصبح وجود مثل هٰذا الرجل علامة بارزة ترمز إلىٰ استمرارية خصوبة عطاء الأمة الإسلامية من الرجال.

يسمي القضايا التي يعالجها «معارك» لذٰلك فهو لا يتناولها من طرف قلمه أو لسانه، وإنما يخوضها بذاته كلها، وقد تسلّح بدرجة عالية من الوعي النادر، والمرونة التي يمكن أن توفر ديمومة الفعل وحرية الحركة، حتىٰ في ظل الظروف الحرجة أو عند معالجة القضايا الدقيقة.. وهٰكذا ظلت ساحة العمل الإسلامي مفتوحة أمامه، يمتلك زمام الأمر فيها ـ تحت الاحتلال وبعد الاستقلال ـ بل ويسجل عليها ـ بالحكمة ـ مواقف تاريخية.

ومواقف كنون هي نبض حياة أمته الإسلامية، لأنها تتزامن مع الأحداث يوماً بيوم، تحسب أبعادها وتكشف عن تأثيرها، وتعكس ما يستوحيه ضمير العالم المسلم الملتزم وما يستشعره وجدانه إزاءها.. وقد يكفي المرء أن يعود إلىٰ كتاباته حتىٰ يقف علىٰ «درس التاريخ» ويعيه من خلال رؤية إسلامية شمولية واضحة، ولعل الشيخ كان يرمي إلىٰ هٰذا المعنىٰ حين قدّم لواحد من كتبه فقال: (.. وهٰذا الذي أثبتناه هو ـ في الواقع ـ يمثل ما له قيمة تاريخية لا تبلىٰ مع تطاول الزمن..).. سواء كانت القضية تتعلق بالحرية الإنسانية أو المرأة أو الاقتصاد أو نظام الحكم أو استقلال المغرب والدفاع عن القرويين أو اللغة أو فلسطين.. ومثال ذٰلك ما طرحه

من تساؤل، حين عالج - مبكراً - قضية فلسطين: . فقال: (ترىٰ ماذا كان يصير لو تصدّىٰ العرب وحدهم لمقاومة الصليبيين وقد جاءوا من كل حدب وصوب بأعداد وعُدد لا تعد ولا تحصىٰ، وأطبقوا علىٰ فلسطين وأهلها بوحشية ضارية، لا تشبهها إلا وحشية الصهيونيين الآن؟) ثم يضيف مجيباً علىٰ هٰذا التساؤل: (إذن لكانت فلسطين قد ضاعت من يد المسلمين إلىٰ الأبد، ولربما لم يقتصر الأمر علىٰ فلسطين، بل تعدىٰ لما جاورها من ولايات وأقطار، تماماً كما ينوي الصهيونيون أن يفعلوا اليوم إذا تمكنوا من تنفيذ مخططهم في تأسيس دولة إسرائيل الكبرىٰ التي تمتد - في تقديرهم - من الفرات إلىٰ النيل. .).

أما عن منهج الشيخ كنون في العمل الإسلامي، فهو يرىٰ أن الحق لم يستغنِ قط - علىٰ قوته وظهوره - عن الدفاع عنه وتجليته للناس، علىٰ أساس أن الرسول - القدوة - ﷺ قد جاهد لإرساء قواعد هٰذا الدين وإعلاء كلمته، وهو المؤيد بالوحي والبراهين الساطعة، ولذٰلك ينكر كنون علىٰ بعض المسلمين اليوم - وهم في زمن الباطل - ما يعتقدونه من أن الحق سينتصر ويعلو من تلقاء نفسه بدون جهد ولا جهاد.

وبقي أن تعرف أن «الكلمة الطيبة» هي بعض وسائله لتحقيق هٰذا المنهج. . وتتمثل في كتب عديدة ألفها، وفي صحف أسسها أو كتب لها مثل: «الحرية»، «الوحدة المغربية»، «منبر الشعب»، «لسان الدين»، «الميثاق»، «الفتح»، «الأهرام»، «المقطم». . وغيرها. . كما تتمثل في هٰذا الحوار الذي أجريناه معه. . حول أكثر من قضية. . ■



معارك لا تنتهي

◎ في مستهل لقائنا معه: نواصل التعرف على الشيخ عبد الله كنون من خلال «الكلمة الطيبة»، التي كانت بعض وسائله في مجال العمل الإسلامي، حيث اشتغل بتأليف الكتب وبالكتابة الصحفية ـ مبكراً ـ منذ أيام الحماية الفرنسية.. فيقول:

⊙ كانت كتاباتي ذات شقين:

كتابات سياسية: وهي غالباً ما كانت للصحف المحلية التي أنشأتها أو كنت أشارك في تحريرها.. ولكن في الأوقات التي كانت الحماية الفرنسية تمنع صدور الصحف السياسية، كنت أكتب للصحف التونسية التي كانت تتمتع بقدر من الحرية مثل: صحيفة «الزهراء»، وصحيفة «النهضة»، و«الوزير» وهذه كانت متخصصة في النقد السياسي وما إليه.. كما كتبت أيضاً عن قضية الظهير البربري في صحيفة «الفتح» الأسبوعية لمحب الدين الخطيب، وكتبت في الصحف المصرية مثل: «الأهرام»، و«المقطم» وغيرهما..

والشق الثاني: يتمثل في معالجات بالصحف الأدبية ومن أشهرها ما كتبته في مجلة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله «الشهاب» ذات الرسالة السلفية، وأيضاً في مجلة «الرسالة» للزيّات، وقد تمّ ترشيحي ـ من خلال كتاباتي في الصحف والمجلات ـ عضواً في أول مجمع للغة العربية بدمشق.

أما الصحف الوطنية التي شاركت فيها فهي جريدة «أطلس» التي عُطلت فور صدورها، وجريدة «المغرب» التي كانت تصدر من (سلا) وتمّ إيقافها كذلك.. وفي تطوان شاركت في جريدة «الأمة» وجريدة «الحياة» و«الحرية» و«الوحدة المغربية» التي كنت أتعاون في تحريرها مع إخوة آخرين، وكانت تمثل صورة من صور التعاون الوطني؛ إذ لم نكن نتلقى أية مساعدات أو مكافآت من أحد، بل كان الكتّاب الذين يكتبون في صحيفة معينة، هم الذين يقومون بتمويلها والإنفاق عليها.

أما أهم ما ألفت من الكتب فهو كتاب «النبوغ المغربي في الأدب العربي» الذي صدر سنة ١٩٣٧م.. وولدت فكرته عندما وجدت أن كتب تاريخ الأدب العربي التي صدرت في المشرق العربي، لا يذكر فيها الأدب المغربي ولو بكلمة واحدة.. فأخذتني الغيرة مما دفعني لأجتهد في البحث عن تاريخ الأدب المغربي.. وقد كتب عليه الأمير شكيب أرسلان تقريظاً، وكتب عنه العقاد، وأذكر أنه عندما نشر الكتاب، أصدر الفرنسيون قراراً بمنعه من التداول ومحاكمة كل مَن يملك نسخة منه؛ إلا أن الإسبان، كرد فعل علىٰ الموقف الفرنسي، عرضوا عليّ دكتوراه فخرية ـ عن تأليفي الكتاب ـ من جامعة مدريد، ولٰكني اعتذرت خوفاً من مواقف سياسية قد يفرضها عليّ الإسبان مقابل تشريفهم هٰذا.. وبعد الاستقلال أعدت النظر في الكتاب..، وطبع ثانية وثالثة ورابعة..، وأصبح يشكل مرجعاً لكل مَن يكتب عن تاريخ الأدب المغربي..

هناك كتاب آخر هو «معارك» الذي يضم مجموعة مقالات بعضها كتبته أيام الحماية وبعضها الآخر بعد الاستقلال إذ أن معاركنا لم تنتهِ بعده.



وعاء الفكر

◎ تعلمون فضيلتكم مدىٰ أهمية اللغة العربية، ودورها في حماية الشخصية الإسلامية في المغرب من الذوبان في ثقافة المستعمر الفرنسي حيث صرفتم جهودكم، والمجاهدون المخلصون ـ في مرحلة ما قبل الاستقلال ـ إلىٰ الكفاح الوطني والتمكين للعربية والعلوم الإسلامية بوسائل كثيرة، لعل من أهمها فكرة المدارس الخاصة، ولعلكم تتفقون معنا علىٰ أن يكون بدء الحوار مناقشة أبعاد هٰذه الفكرة.

⊙ أحسسنا في تلك المرحلة بأن التعليم ـ الذي أنشأته الحكومة الاستعمارية ـ لم يكن ليفي بالأغراض التي نتطلبها لنهضة الأمة المغربية المسلمة، حيث كانت الفكرة الإسلامية غائبة تماماً، وكذا الفكرة العربية والوطنية، فمواد

التاريخ والجغرافيا كانت تعطي تاريخ وجغرافية فرنسا عناية فائقة، ولم يكن هناك أي اهتمام بالدين الإسلامي في المناهج الدراسية، علىٰ أهميته كعقيدة ومبدأ وأيديولوجية ونظام حياة.

وعندما أحسسنا بذٰلك قررنا ـ منذ منتصف العشرينيات ـ تأسيس ما سمي التعليم الحر آنذاك، حيث أنشأنا مدارس أهلية خاصة في فاس والدار البيضاء والرباط وغيرها من المدن المغربية. والجدير بالذكر هنا أنه لم تكن هناك هيئة أو جهة معينة تتولىٰ فتح هٰذه المدارس أو تأسيسها، وإنما كان فتحها مجهوداً فرديًا شخصيًا، ولٰكن في إطار العمل الوطني، فقامت أولاً علىٰ جهود الأفراد فقط بمساعدة بعض ذوي الغيرة، ثم بعد ذٰلك لما رأىٰ محمد الخامس رَحِمَهُ ٱللَّهُ نتيجة تلك المدارس ـ حيث كان يحضر أحياناً بنفسه لتدشين وفتح بعضها ـ سعىٰ مع مديرية المعارف لإعانتها، فخصصت لها بعض المساعدات من ميزانية الدولة.

◎ وكيف كان الإقبال علىٰ هٰذه المدارس الخاصة؟

⊙ كان الإقبال عليها كبيراً، بحيث استوعبت عدداً من التلاميذ والناشئة يفوق عدد أولئك في المدارس الحكومية التي فتحها المستعمر.

◎ ما هو ـ في رأيكم ـ الدافع الأساسي لاستجابة المواطنين وإقبالهم علىٰ المدارس الخاصة وعدولهم عن الفرنسية، خاصة وأن بعضهم ـ علىٰ مستوىٰ البسطاء ـ يظنون أن المدارس الأجنبية مدارس ذات صبغة علمية وإمكانات تربوية.. وما إلىٰ ذٰلك؟

⊙ في بداية الأمر، عندما فتحت المدارس الحكومية، توجس منها الناس خيفة، فكانوا لا يرسلون بأبنائهم إليها إلا بعد أن يكملوا مرحلة (الكُتَّاب) وبعض المعاهد الدينية التابعة لجامعة القرويين، وبعد أن يتأكد حصول الأبناء علىٰ قدر من المعلومات الإسلامية الأساسية التي تعين علىٰ تكوين شخصيتهم المسلمة، يؤتىٰ بهم إلىٰ هٰذه المدارس الحكومية.. ومن ناحية أخرىٰ كانت الإدارة الفرنسية تتساهل كثيراً في قبول تلاميذ في سن متقدمة حتىٰ تملأ المقاعد المخصصة، ولهٰذا كانت حصيلة المدارس الحكومية هٰذه

في بداية الأمر طيبة، إذ تخرج فيها تلاميذ يجمعون بين الثقافة الأجنبية والثقافة العربية الإسلامية، فكانت طليعة لا بأس بها.

ولٰكن ـ مع هٰذا ـ فقد لمس الناس سوء نية إدارة التعليم «المعارف» من خلال برامجها ومناهجها وتخطيطاتها لتعجيم الألسنة وإلغاء اللغة العربية تقريباً، وكذٰلك لمحاربة الفكرة الإسلامية والفكرة الوطنية، لا سيما مع صدور الظهير البربري، الذي كان يهدف إلىٰ إبعاد العنصر البربري من أهل المغرب عن الإسلام بإلغاء التحاكم فيما بين أفراده إلىٰ الشريعة الإسلامية، ومن ثم استدراجه إلىٰ اعتناق النصرانية أو نبذه لفكرة التدين مطلقاً وإدماجه في العائلة الفرنسية، ولٰكن الشعب المغربي المسلم الذي قضىٰ بغيرته الدينية علىٰ هٰذه السياسة، وجعلها منطلقاً إلىٰ الجهاد في سبيل استقلاله وحريته، كان قد توجس خيفة من المدارس الحكومية الفرنسية، وأخذ يتجه بأبنائه إلىٰ المدارس الخاصة.

ومن المدهش حقًا أن معظم الأشخاص الذين سبق لهم أن تلقوا دراسات أجنبية وثقافات باللغة الفرنسية، كانوا هم أحرص الناس علىٰ إلحاق أبنائهم بالمدارس الخاصة.. وليس من سبب في ذٰلك إلا أن يكونوا قد عرفوا أكثر من غيرهم خطورة النهج الذي تنتهجه المدارس الحكومية.

◎ كيف ترون خطورة مبدأ التعليم باللغة الفرنسية، أو بأي لغة أخرىٰ غير العربية؟

⊙ اللغة ـ أي لغة ـ من حيث إنها وعاء الفكر، والأداة المعبرة عن سوسيولوجية الشعب الناطق بها، فإنه لا مفر أبداً من أن تترك أثرها في نفس المتعلم بها، وطبع تفكيره بطابع أهلها المميز لهم، حتىٰ إنك لا تتعب في استكشاف بصمات التأثير الاجتماعي الفكري في حياة الفرد وسلوكه، ومن ثم في حياة الشعب الذي يكثر فيه المتعلمون بهٰذه اللغة..

والفرنسية التي كانت سائدة كلغة تلقين في التعليم الحكومي قبل الاستقلال، أول ما تتميز به أنها لغة أمة تفصل الدين عن الدولة ومصالحها العامة، وأهم هٰذه المصالح التعليم، فتعليم أهلها مبني علىٰ تجاهل الدين

والنظر إليه بعين الشك والارتياب، ولذلك يثمر التعليم باللغة الفرنسية رقة الدين وضعف الإيمان، وهذا أمر مشاهد في كثير من شبابنا المتعلم بها، ولم تستطع الدروس الدينية ومادة التربية الوطنية أن تحميه منه، إلا مَن رحم ربك..

❊ ❊ ❊

محاولات تصفية القرويين

◎ وننتقل في حوارنا مع الشيخ كنون إلىٰ الحديث الأثير عنده، وهو ما يدور حول القرويين، فثقافته القروية يعتز بها غاية الاعتزاز؛ بل ويحمد الله علىٰ أنه لم يتعرض لفتنة الاغترار بالتقاط بعض الفتات المتساقط من موائد غيرها من الجامعات الأجنبية، «فننتكر لها ولثقافتها، ونلعنها لنصبح تقدميين غير رجعيين (!)» علىٰ حد قوله.

وحول دور القرويين كحصن إسلامي ثقافي انطلقت منه كتائب الجهاد ضد المستعمر الإسباني والفرنسي، كما انطلقت منه فصائل الحركات الإصلاحية التي يزخر بها تاريخ المغرب، يقول الشيخ:

⊙ إن كلمات بعض أعمدة الاستعمار، والحكام بأمرهم من مندوبي فرنسا في المغرب هي التي تؤكد أكثر من غيرها بأن معظم الانطلاقات الكبرىٰ لمقاومة الاستعمار كانت تقوم من القرويين، إذ كانوا يطلقون عليها اسم «البيت المظلم» وقد بذل المستعمر جهده من أجل القضاء علىٰ هذا «البيت» «فالقرويين» لم تكن فقط جامعة دينية، وإنما كانت المؤسسة الوحيدة في المغرب التي تهيئ أطر الدولة في جميع مراتب التأطير، فحكام المغرب من وزراء ورؤساء ومديرين، وكذلك بعض الملوك، درسوا في القرويين، وذلك حتىٰ بدء فرض الحماية الفرنسية علىٰ المغرب عام ١٩١٢م، عندما احتاجت الدولة ـ بموجب تطعيمها بالنظم الغربية واتصالها بحضارة الغرب، أو بموجب تحكم الاستعمار الذي أنشأ إدارة علىٰ غرار الإدارة في بلده ـ احتاجت إلىٰ إنشاء مؤسسات أخرىٰ إلىٰ جانب القرويين، ليجري فيها إعداد موظفين علىٰ النمط الذي يريده المستعمر.. وقد كان.

◎ وماذا عن موقف أبناء القرويين ـ وعناصر القوىٰ الوطنية الأخرىٰ في المغرب ـ من فكرة التعليم التي روَّج لها الاستعمار؟

⊙ كنا نطالب طيلة فترة الاستعمار بإنشاء جامعة عصرية إلىٰ جانب القرويين، وذٰلك بهدف توطين التعليم العالي، حتىٰ يتلقىٰ أبناؤنا دراستهم الجامعية في بلدهم بدلاً من أن يتلقوها خارجها ـ في فرنسا أو غيرها ـ ولٰكننا لم نحصل علىٰ هٰذا الطلب إلا بعد الاستقلال، حيث تمّ إنشاء جامعة محمد الخامس في الرباط كأول جامعة عصرية في المغرب، وإنما كنا نجاهد أيضاً قبل الاستقلال وبعده من أجل عودة القرويين إلىٰ سالف مجدها بعد أن عانت من الإغفال؛ إن لم تقل الإهمال.. وفي هٰذا الصدد كنا نتوقع أن تتوقف الحرب علىٰ القرويين بعد الاستقلال، وأن يعاد النظر في وضعيتها، وأن يمكّن لرجالها من تخطيط برامج ومناهج تجعلها قادرة علىٰ مواصلة أداء رسالتها الإنسانية، «فالقرويين» تراث إنساني ملك للإنسانية جمعاء بحق، ولٰكن فوجئنا بعد الاستقلال بمشاهدة العناصر نفسها التي كانت تكيد للقرويين قبل الاستقلال، وقد عادت لتواصل كيدها وتربصها مستخدمة كل الوسائل لتدمير ذٰلك الكيان، علىٰ اعتبار أنه يمثل العقبة الكأداء التي تحول دون تحقيق تلك العناصر لخططها الهادفة للقضاء علىٰ كل ما من شأنه أن يجعل الأمة تتمسك بدينها ومقوماتها الأصلية.

ولعله من الغريب حقًّا أن وزارة التربية آنذاك هي التي لعبت دوراً كبيراً في محاولة تحطيم وتصفية القرويين تصفية نهائية، وذٰلك بمقتضىٰ برامجها التي عزمت علىٰ تنفيذها في السنة التعليمية (١٩٦٠ ـ ١٩٦١).

◎ وما هو مضمون هٰذه البرامج؟

⊙ تتضمن هٰذه البرامج مخططات لإدماج الطور الأول من التعليم الإسلامي القروي والسنوات الأولىٰ من الثانوي الخاصة به في التعليم العصري العام.. ونصب مدير للقرويين لا صلة له البتة بطبيعة تعليمها ومناهجها وثقافتها، كما تمّ فرض أطر من الموظفين البعيدين تمام البُعد عن سلك التعليم الإسلامي القروي ولا يفهمون عنه مدلولاً ولا دالًّا. وكان قد سبق تلك الإجراءات إلغاء جامعة ابن يوسف بمراكش التي تشبه دراستها إلىٰ حد كبير دراسة

القرويين. . كما ألغي المعهد بتطوان، وتمّ تحويل المعهد والجامعة إلىٰ تدبيرات أخرىٰ ثانوية.

◎ وماذا كان موقف أبناء القرويين؟

⊙ بطبيعة الحال ثارت حفيظتهم لهٰذه السياسة التعليمية، فعقدوا مؤتمراً كبيراً في الرباط، شارك فيه نحو أربعمائة عالم يمثلون جميع الأقاليم المغربية، واستغرق يومين (١٨، ١٩ سبتمبر ١٩٦٠)، تناولوا فيه بالمناقشة موضوع التعليم الإسلامي القروي وما يتهدده ـ بصفة خاصة ـ وأعلنوا رفضهم لهٰذه السياسة مشيرين إلىٰ أن حذف الطور الأول، والسنوات الثلاث الأولىٰ من ثانوي التعليم الإسلامي، سوف لا تعوض بحال فيما بقي من أقسام هٰذا التعليم، مما يعني حدوث فراغ يكون عاملاً قويًا في ضعف النتائج المحصّلة في المعلومات الإسلامية عند الطالب القروي حين التخرج. . كما قرر المؤتمرون رفضهم المدير المعين للقرويين من غير خريجيها، لأن أقل ما يعبر عنه هٰذا التعيين إنما هو عجز رجال القرويين حتىٰ عن تدبير شؤون جامعتهم التي هم أوْلىٰ بها من غيرهم أيًا كان.

◎ وهل صدر عن هٰذا المؤتمر موقف إيجابي؟

⊙ نعم؛ ففي السابع والعشرين من يونيو ١٩٦١ التقىٰ وفد من رابطة علماء المغرب بالسيد وزير التربية الوطنية (بالإنابة) وقدّم له مشروعاً ترىٰ الرابطة أنه ضروري لتطوير التعليم الإسلامي في المغرب وإقرار جامعة «القرويين» والعناية بها وتنظيم الدراسة فيها تنظيماً يضمن لها الحياة والتجدد والاستمرار في أداء رسالتها العلمية والثقافية لا علىٰ نطاق المغرب فحسب وإنما علىٰ المستوىٰ الإسلامي العربي والأفريقي بصفة عامة.

◎ ويلخص الشيخ عبد الله كنون هٰذا المشروع في عدة نقاط:

⊙ الاعتراف رسميًا بجامعة «القرويين» وتعليمها وشهاداتها وباستقلال إدارتها كما هو الشأن في غيرها من الجامعات. . مع قصر النظر في شؤونها وتولي مديريتها علىٰ خريجيها وحاملي شهاداتها دون غيرهم. .

● إحداث كليتين للغة العربية وأصول الدين تكون إحداهما بمراكش في الجنوب، والأخرىٰ بتطوان في الشمال، وذٰلك لتعويض القسم النهائي الذي كان بكل من المدينتين وجرىٰ إلغاؤه.

● الاحتفاظ للمدارس الثانوية الإسلامية ببرامجها الكاملة واستقلالها الذاتي ممّا يمنع إدماجها كلّاً أو بعضاً في غيرها بدعوىٰ التوحيد أو غيره من العلل، مع تطويرها وتلقيحها بمواد الثقافة العامة الضرورية وإدخال اللغات الأجنبية اللازمة إليها من غير أن يطغىٰ ذٰلك علىٰ المادة الأصلية التي ينبغي أن يبقىٰ لها الاعتبار الأول في جميع السنوات.

● الاحتفاظ بالطور الأول مع مراعاة سن القبول الطبيعية فيه علىٰ شرط إحداث سنة إعدادية قابلة للإعادة إلىٰ جانبه، يقبل فيها الطلبة المتقدمون في السن من الذين حفظوا القرآن، كله أو بعضه، ولهم إلمام أولي بالعلوم الإسلامية والعربية حيث يهيأون للالتحاق بالثانوي، وتطوىٰ مرحلة الطور الأول بالنسبة لهم في سنة واحدة.

● مجموع هٰذه المؤسسات من معاهد وكليات هو الذي يتركب منه هيكل جامعة «القرويين».

● الاعتراف بمعادلة شهادات «القرويين» من عالمية فما دونها، لغيرها من شهادات الكليات والمدارس العصرية التي في درجتها، وتخويل حاملها نفس الحقوق التي تخولها الشهادات الأخرىٰ، والاعتراف كذٰلك للعلماء بجميع الحقوق التي لغيرهم ممن يزاولون عملاً في الوظيفة العمومية بما في ذٰلك حق التقاعد من تاريخ اشتغالهم.

◎ لعل محاولات القضاء علىٰ رسالة القرويين والمعاهد التي تعمل علىٰ نشر العلوم الإسلامية واللغة العربية تلقي بعض الضوء علىٰ مخططات أعداء الثقافة الإسلامية وعملاء التنصير، فهل هناك أمثلة يمكن الاستفادة منها في هٰذا المجال؟

⊙ إنها صفحات من الماضي، ولٰكن لا بدّ من إعادة قراءتها لتوضيح حجم الكيد ومقدار الضربات التي وجهت «للقرويين»، وأيضاً لبيان دور ومواقف أبناء وأساتذة «القرويين»، من ذٰلك وما قاموا به من محاولات لإنقاذ

«القرويين» بخاصة والتعليم الإسلامي بعامة، من الهوة التي كان يُستدرج لدفنه فيها.

ومن المواقف المشهودة أيضاً لأبناء القرويين موقفهم ممّا سمي «الاحتفال بمرور أحد عشر قرناً علىٰ تأسيس القرويين» وكان ذٰلك قبل خمس وعشرين سنة تقريباً.. وأذكر يومها أني كتبت مقالاً بعنوان «هل هو احتفال بوأد القرويين أم ازدهارها؟» وكانت نتيجته أن تأجل الاحتفال سبعة أشهر عن الموعد الذي حُدِّد له.. ثم جدد الاحتفال ودعي له الناس من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فقرر أبناء «القرويين» مقاطعته، وبلغ الأمر محمداً الخامس رَحِمَهُ اللَّهُ فأرسل إلينا واجتمع بنا، فأوضحنا له وجهة نظرنا في الأمر، وبعد أخذٍ وردٍّ تمّ الاتفاق علىٰ أن نحضر خطاب الملك فقط ثم ننسحب ـ وقد فعلنا ـ ففشل الاحتفال، وهٰكذا استمرت معركتنا دفاعاً عن «القرويين» ورسالتها إلىٰ ما بعد وفاة محمد الخامس رَحِمَهُ اللَّهُ الذي كان يتدخل دائماً لحل المشكلات التي تنشأ بيننا ووزراء التعليم.. وعندما تولىٰ الملك الحسن الثاني مقاليد الأمور، عرضنا عليه المشكلة وقدّمنا له نسخة من مشروع رابطة علماء المغرب لتنظيم القرويين وتطوير التعليم الإسلامي فاستجاب، وأصدر مرسوماً ملكيًا بإعادة الحياة للقرويين.. وتمّ تقسيمها إلىٰ ثلاث كليات:

١ ـ كلية الشريعة في فاس.

٢ ـ كلية الدراسات العربية في مراكش.

٣ ـ كلية أصول الدين في تطوان.

***

درس للأجيال

◎ كلنا يعرف أن معركة التعليم الإسلامي التي خاضها العلماء لحمايته وإقرار الأوضاع الأساسية التي يقوم عليها، وتطويره والاعتراف بجامعيته

واستقلاله.. كانت السبب وراء قيام رابطة علماء المغرب التي تترأسونها؛ كيف تمّ ذٰلك حتى تكون التجربة درساً للأجيال؟

⊙ إن النجاح الذي حققناه في معركة إعادة الاعتبار للقرويين علّمنا أنّ مواجهة المشكلات علىٰ انفراد وبصورة شخصية لا ينفع ولا يجدي.

وقد كانت هناك عدة جمعيات للعلماء في المدن المختلفة ـ في فاس والرباط والدار البيضاء وسلا ومراكش وغيرها ـ وكانت كل جمعية قائمة بذاتها ومستقلة استقلالاً كاملاً عن بقية الجمعيات.

وفي مؤتمر الرباط الشهير (أيلول/سبتمبر ١٩٦٠) تكتلت هٰذه الجمعيات في جمعية واحدة سميت بـ«رابطة علماء المغرب» التي ولدت بهدف: الاهتمام بمسألة التعليم الإسلامي وحمايته وإقرار الأوضاع الأساسية التي يقوم عليها، والمحافظة علىٰ الصبغة الإسلامية للبلاد ومقاومة الأفكار المستوردة والدعاوىٰ المنحرفة.

◎ وما هي الوسائل التي تنتهجها الرابطة لتحقيق هٰذه الأهداف؟

⊙ من أهم هٰذه الوسائل الدروس العلمية في المساجد، وإلقاء المحاضرات والندوات في الأندية الثقافية، والأحاديث المنظمة عبر أجهزة الإعلام، ومتابعة القرارات الحكومية والسياسية، والإشارة إلىٰ ما نحس بأنّه انحراف عن الخط الإسلامي، والتعاون مع الحركات والجمعيات الإسلامية في الخارج وأذكر منها رابطة العالم الإسلامي والجمعية الشرعية في مصر، وأذكر أن أعضاءها كانوا يؤيدوننا في قضايانا ونحن بدورنا نؤيدهم في قضاياهم.

ومن الوسائل الأساسية أيضاً أننا خلال محاولات التعليم ركزنا أساساً علىٰ المحافظة علىٰ «القرويين» وإحياء المعاهد التي كانت روافد لها بعد أن صدر القرار بتوحيد برامج التعليم الابتدائي وتوحيد مناهجه.. وهو القرار الذي رفضناه بحجة أن التوحيد يكون في الأهداف لا في المناهج، كما أنّ التنوع في الجامعات والكليات أمرٌ ضروري، وكان المسؤولون يواجهوننا بقولهم: إننا شعب واحد، دينه واحد، لا مذاهب ولا نحل، ولذٰلك لا بد

أن يكون تعليمنا موحداً، وكنا نرد بالإصرار علىٰ عدم التوحيد، علىٰ أساس أنّ طالب كلية الشريعة ينبغي أن تكون له خلفية علمية إسلامية تمكنه من الاستمرار في الكلية وهٰذا ما لا يتوفر إلا في المعاهد الإسلامية.

◎ وماذا عن حاجة الطلاب في المدارس الرسمية إلىٰ خلفية علمية إسلامية؟

⊙ لقد طالبنا أيضاً بضرورة صبغ التعليم الرسمي بالصبغة الإسلامية والعربية خاصة. وقد نُقلت برامج كثيرة في التعليم من برامج بلاد أخرىٰ لا توافقنا في كثير، كما أن اللغة الفرنسية ظلت تلقىٰ العناية والاهتمام والتثبيت علىٰ حساب اللغة العربية؛ ففي أيام الحماية كانت اللغة الفرنسية هي اللغة الوحيدة بينما العربية إلىٰ جانبها لغة ثانوية، وبعد الاستقلال تساوت اللغتان، بعض المواد يدرس بالعربية، وبعضها الآخر بالفرنسية؛ ولٰكن التي بالفرنسية كانت تحظىٰ باهتمام أكبر، وليس من دليل علىٰ ذٰلك أكثر من أن عدد المعلمين الفرنسيين بالمغرب بلغ تسعة آلاف معلم وهو عدد لم يكن موجوداً في أي بلد مستعمر آخر، بل هو أكثر من نصف عدد المعلمين الذين صدّرتهم فرنسا إلىٰ الخارج وكان وقتها سبعة عشر ألف معلم.

ولهٰذا كنا نطالب بإسلامية التعليم وتعريبه منعاً لانزلاق المغرب المسلم في هاوية اللادينية..

* * *

قوة لا تُقهر

◎ وينقلنا الحوار مع الشيخ إلى مناقشة قضية العالم الإسلامي اليوم المتمثلة في الصحوة الإسلامية؛ مصدرها وأسبابها وأبعادها الحاضرة والمستقبلية؛ لكي نتعرف علىٰ رؤيته حولها.. يقول الشيخ كنون:

⊙ لقد جرّب المسلمون كل المذاهب والنظم في نهضتهم الحديثة، اعتقاداً منهم أو مجرد ظن بأنها أساس تقدم الغرب ورقيه، لٰكنها لم تغنِ عنهم

شيئا، بل عرقلت نهضتهم وفرقت كلمتهم، وذلك ما جعل بعض مفكريهم يولون وجههم شطر الإسلام ويدعون إلىٰ نبذ ما عداه.. والواقع أن في العالم الإسلامي اليوم مدًا كبيراً وقوة شعبية هائلة تقول بالرجوع إلىٰ الإسلام من جديد، ولا أدل علىٰ ذلك من مقاومة التجربة الشيوعية في بعض بلدان العالم الإسلامي، وردود الفعل العنيفة التي ظهرت مع بعضها الآخر ضد العلمانية وفصل الدولة عن الدين، وهٰذا الواقع إن دلّ علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ أن الإسلام قوة لا تُقهر، وأن كل المخططات التي وُضعت للقضاء عليه ـ وبعضها مما وكل تنفيذه إلىٰ أبنائه وبعضها الآخر مما تولىٰ تنفيذه خصومه وأعداؤه، تارة بالقوة والتحكم وتارة بالسياسة واللين ـ قد ذهبت أدراج الرياح وظهر خبثها للعيان، فمن أين تنبع قوة الإسلام هٰذه التي تحدّت كل القوىٰ المعادية لها من مادية ومعنوية؟ إن الإسلام دين الله الذي ارتضاه للبشر وأوحاه إلىٰ أنبيائه ورسله من لدن إبراهيم عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ، وهو بهٰذه الصفة وحدها حري أن يتغلب علىٰ كل معارضة ويقاوم التحديات من أي نوع، لأن قوته مستمدَّة من خالق القوىٰ، الذي يعلم مصالح العباد ويدلهم علىٰ ما هو خير لهم بالذات، فمهما فكر الإنسان وقدّر، لا يدرك مصلحته الحقيقية ولا يهتدي إلىٰ ما يحققها له كما هداه الله، وفي هٰذا المقام فإن الاستشهاد بالغيبيات لا يكفي، فلننظر في الجواب من وجه آخر. لقد جاء الإسلام والعالم يدين بهٰذه الأديان المعروفة من سماوية في أصلها كاليهودية والنصرانية، وأرضية وضعية كالزرداشتية والبوذية، فدخل الإسلام موطنها ونازلها في معاقلها، ولم يكن له معها إلا جولة أو جولتان حتىٰ ألقت إليه بالمقاليد، وانقلب أهل الشام ومصر ـ وهما مهبطا الديانتين الأوليين ـ مسلمين طائعين عن طريق الاختيار والاقتناع، من غير ضغط ولا إكراه، وكذٰلك كان الحال بالنسبة لأهل فارس والهند، فالأولىٰ ـ وهي موطن الزرادشتية ـ أسلمت عن بكرة أبيها، والثانية ـ وهي معقل البوذية ـ أسلم فيها عشرات الملايين، وكل ذٰلك إنما كان بصدق الدعوة وحسن القدوة، إذ ليس من المعقول ولا المقبول أن تتحول شعوب بكاملها من عقيدتها الموروثة عن آبائها إلىٰ عقيدة جديدة بالحرب والقتال..

ومؤدّى هٰذا الكلام هو أن قوة الإسلام نابعة من هٰذه الأصالة التي عرفها أهل الكتاب السابقون قبل غيرهم، ولم يسعهم إلا أن يقروا بها ويخضعوا لها.. ولقد عبّر النبي ﷺ عن هٰذا المعنىٰ تعبيراً واضح الدلالة حين رأىٰ عمر بن الخطاب ﷺ وبيده صفحة من التوراة يقرؤها، فأنكر عليه، وقال: **«ألم آتكم بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسىٰ حيًا ما وسعه إلا اتباعي»**؛ علىٰ أن أكمل ما تتمثل فيه ريادة الإسلام هو سبقه إلىٰ سن التشريعات التي بقيت الإنسانية تتعثر في خطوها نحوها قروناً عديدة، برغم العلم والفلسفة، فلم تهتدِ إلىٰ بعضها إلا مؤخراً وفي القرن العشرين الذي يسمونه عصر النور، وشد ما كانت دهشة المفكرين والمشرعين والفلاسفة الاجتماعيين حين وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام الإسلام السبّاق إلىٰ الحلول الإيجابية لمشاكل المجتمع الإنساني.

ومن ناحية أخرىٰ.. إذا نظرنا إلىٰ ما هو واقع اليوم في العالم الإسلامي، فإنه من الجائز أن نقول بأن هناك صحوة إسلامية شعبية ـ ولٰكن بتحفظ ـ فالشعب لم يبقَ لنا وحدنا، لقد تقاسمته المذاهب والأفكار والتيارات والنظم المستوردة المخالفة للإسلام، وصار التعاون والتآزر فيما بين المسلمين ضعيفاً، كما أن بعض الحكام ـ حتىٰ أولئك الذين يظهرون نزعة إسلامية ـ لا يساعدون الحركة الإسلامية، بل يعتبرونها خصماً لهم، تماماً كما يعتبرون الحركات الأخرىٰ المناوئة لهم، مع علمهم بأن هٰذه الحركات تريد أن تقتلعهم من أماكنهم وتقذف بهم إلىٰ الشارع، في حين أن الحركة الإسلامية لا تهدف إلىٰ ذٰلك، لا سيما ذات النهج منها.

❋ ❋ ❋

الطريق إلىٰ الحل

◎ وفي هٰذا الصدد يرىٰ الشيخ كنون أن عدم تعامل بعض الحكام مع الحركة الإسلامية يعود ـ أساساً ـ إلىٰ أسباب شخصية، ويوضح ذٰلك فيقول:

⊙ بينما تدعو الحركة الإسلامية للالتزام بآداب الإسلام وأخلاقه نجد أن بعض الحكام متحللون رافضون أن يقيدهم أحد بأي قيد.. إنهم يحبون أن يعم التحلل المجتمع حتىٰ لا يبقوا وحدهم منبوذين غرباء عنه، وحتىٰ يكون الجميع علىٰ مستوًى واحد من التحلل والتفسخ.. ولهٰذا يعادي بعض الحكام الحركات الإسلامية.. وأحياناً يعادونها بسبب سلوك بعض المتشددين من رجال الحركة الإسلامية ومواقفهم إزاء قضايا معينة مثل قضية «الحكم».

أما عن زيادة عدد الشباب المسلم في المساجد وانتشار الكتاب الإسلامي والمجلات الإسلامية وما إلىٰ ذٰلك، فإنه قد لا يعني أن هناك حركة توجه حقيقية نحو الإسلام.. وينبغي ألاّ تغرنا هٰذه المظاهر كثيراً، فربما لم تكن من الصحوة الإسلامية في شيء.. وقد نجد أن بعض مَن يمثلون هٰذه «الصحوة» من المشتغلين بسفاسف الأمور؛ الأمر الذي يثير الفتن ويفتح أبواب الخلاف والشقاق بين المسلمين من جديد.. وفيها كذٰلك جماعة أخرىٰ من الذين يريدون عبادة الله في المساجد فقط دون أن يكون لهم وجود فيما سواه.. وهٰؤلاء لا يستجيبون للصيحة إذا نادتهم.

يضاف إلىٰ ذٰلك أن بعض القائمين علىٰ أمر الحركة الإسلامية لا يزالون يتجاوزون بعض المراحل التي لم يصل إليها الشعور الإسلامي العام، متناسين أن ما ضاع منا، لم يكن ضياعه في يوم وليلة.. وأن استرداده لا يمكن أن يتم في يوم وليلة كذٰلك وإنما علىٰ مراحل، وقد أدىٰ هٰذا التجاوز - في بعض البلاد الإسلامية - إلىٰ حدوث الكثير من المصادمات مع الحركة الإسلامية.

◎ وكيف ترون فضيلتكم الطريق إلىٰ حل هٰذه المشكلات؟

⊙ في اعتقادي أنه بإمكاننا تجنب ما يحدث من صدامات إذا استطعنا عقد مؤتمر شعبي - وليس رسميًا - ونظمنا الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية واتفقنا علىٰ القاسم المشترك الذي ينبغي أن نبثه الآن فيما بيننا، وقد يكون في ذٰلك خير كثير للمسلمين ووقاية لهم.

إن اتفاقنا اليوم ضرورة، فنحن مواجهون بقوًى عالمية تعمل جاهدة

٢/ ٣٧٢

للإطاحة بالإسلام واستبداله بنظم أخرىٰ، ولٰكن عالمنا الإسلامي مضطرب، يضرب بعضه بعضاً، ويعادي بعضه بعضاً، ولم يعد كما قال القائل يوماً، مثل صندوق الخشب، إذا نقرته من جهة سمع الصدىٰ من جهة أخرىٰ، وهٰذا ما يجعلني أصر علىٰ أن الصحوة الإسلامية لا تزال محل تحفُّظ وتساؤل.

◎ وهل من كلمة توجهونها في هٰذا الشأن إلىٰ العاملين في حقل الدعوة والعمل الإسلامي؟

⊙ إن أهم شيء يجب أن يشتغل به العاملون في حقل الدعوة الإسلامية:

أولاً: جمع الشمل والكلمة، ونبذ الشتات والسفاسف، وعدم الاشتغال بالأمور الثانوية والجزئيات التي لن يكون لها إلا الأثر السلبي في توجه الأمة الإسلامية نحو غاياتها المنشودة.

ثانياً: الهدنة، وتجنب الاصطدام، ينبغي أن نعود من جديد، وأن نستمر وذٰلك لرد القافلة إلىٰ طريقها الذي يصل إلىٰ المطلوب، جماعةً لا فرادىٰ، فمسيرة الدعوة تتطلب الوحدة وترفض الفرقة، معاملة تسامح ومعاملة هدنة إلىٰ أن يعود للأمة الإسلامية ما كان لها من تضامن وتجاوب وتماسك وتعاون علىٰ الغاية الموحدة.

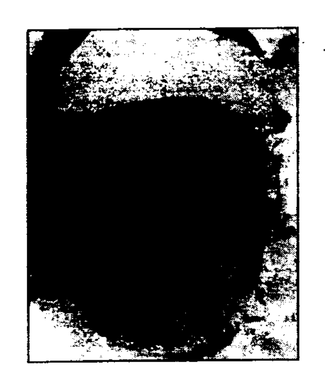
ثالثاً: العمل علىٰ إيقاف الحروب والمطاحنات التي تدور رحاها بين كثير من بلاد العالم الإسلامي.

رابعاً: الحذر والحيطة ـ بدرجة أكبر ـ من الآخرين.

وأخيراً: أن نكون قدوة حسنة لنكون بذٰلك ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

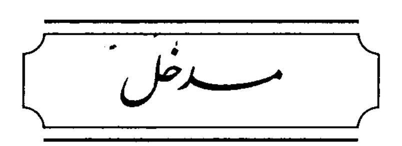
صفر الخير ١٤٠٣هـ ـــ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٢م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



فقه الدّعوة ومشكلة الدّعاة

الشيخ محمد الغزالي



مدخل

■ من مواليد البحيرة بجمهورية مصر العربية عام ١٩١٧.

■ تخرّج في الأزهر الشريف عام ١٩٤١.

■ جاهد في ميدان الدعوة إلىٰ الله، وشغل عدة مناصب منها: مدير إدارة المساجد ـ مدير الإدارة العامة للدعوة الإسلامية ـ وكيل وزارة الأوقاف لشؤون الدعوة، كما شارك في مؤتمرات إسلامية كثيرة، وتولىٰ التدريس في جامعات الأزهر والملك عبد العزيز وأم القرىٰ وجامعة قطر، وهو الآن المدير الأكاديمي لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية في الجزائر.

والشيخ الغزالي يعتبر بحق أحد شيوخ الدعوة الإسلامية المعاصرة وفقهائها. يحمل تاريخ وتجربة أكثر من نصف قرن من العمل الإسلامي، حيث رافق نشوء الحركة الإسلامية الحديثة، وشارك في رسم قسماتها الثقافية، وتميز علىٰ مدىٰ هٰذه الأعوام بخاصة التوازن الاجتماعي، فلا هو من الذين انسحبوا من المجتمع ورفضوا التعامل معه، ولا من الذين ذابوا وأصبحوا من فقهاء السلطات الظالمة وسدنة الاستبداد السياسي؛ بل كان دائماً العقل المفكر، والقلم المسطر، واللسان الناطق، والفارس الشجاع؛ فجاءت أقواله وكتاباته تحمل الملامح الرئيسة للدعوة الإسلامية الحديثة وتطورها، وتصويب مسارها، وتشغل جانباً هامًا من مكتبتها، وتشكل سجلاً لتاريخها الفكري إلىٰ حدّ بعيد. ولم تكن تعوزه المعاناة الدائمة والغيرة الصادقة وأناة العالم وتبصره واطلاعه وهو يعالج مشكلات العالم الإسلامي

من الداخل والخارج، ويرشده، ويقدم المناصحة لدعاة الإسلام والعاملين في المجال الإسلامي.

فهو يرىٰ أن الدعوة الإسلامية «تحصد الشوك من أناس قليلي الفقه كثيري النشاط ينطلقون بعقولهم الكليلة، يسيئون ولا يحسنون».

و«.. إننا قد نخطئ وليس في ذٰلك عجب، ولٰكن العجب أن يبقىٰ الخطأ وأن نصبر عليه، والأعجب أن يمضي بعضنا في طريق الانحراف وهو لا يدري؛ أو لعله يحسب نفسه علىٰ صواب».



فقه السنن في الأنفس والآفاق

◎ من قضايا الفكر والعمل الإسلامي الهامة، التي تطرح نفسها بإلحاح ـ مؤخراً ـ قضية فقدان التوازن الاجتماعي عند كثير من العاملين في حقل الدعوة، وهو يتعامل مع المجتمع الذي قد ينطوي علىٰ أخطاء وانحرافات، وذٰلك بأن يتخذ مواقف متباينة، لا تقوم علىٰ فقه صحيح لسنن الله الكونية في نضج الحقيقة واستوائها في المجتمع، ولا تعتمد علىٰ أساليب مدروسة للدعوة الإسلامية. وتتخذ هٰذه المواقف: إما صورة الرفض الكامل للمجتمع وتأثيمه والخروج عليه لتغييره ـ رغبة في تحقيق نتائج عاجلة ـ أو صورة الانسحاب من المجتمع والهروب منه واعتزاله، بسبب إحباطات عدم الحصول علىٰ هٰذه النتائج العاجلة.

من خلال تجربتكم بالعمل في مجال الدعوة الإسلامية الحديثة ودراستكم الواسعة لفقه السيرة النبوية.. كيف ترون معالجة هٰذه القضية؟

⊙ هٰذه القضية في مجال الفكر ـ والعمل الإسلامي بالذات ـ لها سوابق في التاريخ، قديماً وجدوا أخطاء من الحكم أو من الحكام، فكان موقفهم متبايناً بسبب نوع الثقافة الذي سيطر عليهم.. فوجدنا مثلاً الخوارج يفزعون إلىٰ سيوفهم، ويطمئنون إلىٰ عقائدهم، ويرون أن حبهم للتضحية ووعد الله بالنصر يتيح لهم أن يخرجوا وأن يقاتلوا وأن يحْدِثوا فتوقاً في الدولة لا آخر لها.

والنوع الثاني كان يتمثل في عدد من المتصوفين الذين اعتزلوا المجتمع وأخطاءه، والحكم ومآربه وشهواته، ورأوا أن في العزلة سعادة، وأنه خير لهم أن يتركوا المجتمع بما فيه ـ وفي العزلة سلامة ـ وجعلوا ينظرون إلىٰ الأحاديث التي وردت في الغربة والعزلة ويتأولونها علىٰ موقفهم هٰذا.. الحقيقة التي أراها أن كلا الفريقين مخطئ، فلا الذين خرجوا معتمدين علىٰ وقوع الخطأ وضرورة مقاومته كانوا علىٰ الصواب الذي يقرره الإسلام، ولا الذين اعتزلوا الخاطئين وانحرافهم كانوا مصيبين أيضاً.

الإسلام يريد أن يقاوم الخطأ، ولٰكنه يضع خططاً بعيدة المدىٰ، ويجعل الإنسان علىٰ اختلاف الزمان والمكان، وعلىٰ مراحل ممتدة من الزمن يبلغ غايته علىٰ مُكْث، ولله سنن كونية في نضج الحقيقة واستوائها في المجتمع، مهما كانت عقائدنا، ومهما كانت حرارة الإيمان في قلوبنا، ومهما كانت ضراعتنا له أن ينصرنا.

لهٰذا أرىٰ أن الذين يقومون بالعمل الإسلامي الآن، يجب عليهم أن يتعلموا من أخطاء الفريقين في الماضي، وأن يكونوا أصحاب إيمان وأصحاب غيرة علىٰ حرمات الله وأصحاب رغبة في التغيير إلىٰ ما هو أفضل؛ ولٰكن متابعة هٰذا التغيير حتىٰ يصل إلىٰ مداه لا تتم وفق مشيئتنا، ولٰكن وفق سنن الله الكونية، وقد خضع النبي ﷺ لهٰذه السنن، وعندما استعجله أصحابه وقالوا له: ادعُ الله لنا - لأن الآلام التي برحت بهم جعلتهم يجأرون بالشكوىٰ - كانت الإجابة النبوية: «**والله لينصرن الله دينه ولٰكنكم تستعجلون**». . كانت الإجابة النبوية: **أن الرجل قديماً كان يؤتىٰ به فيُشق نصفين ما يفتنه هٰذا عن دينه، فلا بد للإيمان من ضحايا، ولا بد لحركاته التي تغير العالم وتكتب فيه صفحة جديدة من وقود،** يقوم المؤمنون بإمداد سنن الله الكونية بمتطلباتها في هٰذا المجال، وليس لهم أن يستغربوا، ولا أن يتعجلوا، وأعتقد أن الاستعجال هنا أو الاستغراب جهل بسنن الله الكونية، فلم يكن أحد أعظم خُلُقاً ولا أكثر دماثة من النبي ﷺ في عرضه لحقائق الإسلام، وفي تلطفه لبلوغ غاياته، ومع ذٰلك فإن الذين ربطوا أوضاعهم ومصالحهم بما مضىٰ أو بما استقر من أوضاع، كانوا حريصين علىٰ كره الإسلام ومخاصمة نبيه ﷺ، ويقول الله سبحانه وتعالىٰ في هٰذا:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان] ويقول في هٰؤلاء:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

* * *

منطق العبودية

◎ يفسر بعضهم هٰذه الظاهرة بأنها نتيجة عدم فقه السنن الكونية، والوقوع في إحباطات نتيجة لعدم الحصول علىٰ نتائج.. فحينما لا يحصل الإنسان علىٰ النتيجة التي يحلم بها أو يراها، يقع في إحباط يجعله ينعزل عن المجتمع وينسحب منه، أو يخرج عليه، أو يذوب فيه، فالمشكلة تكمن في عدم إعطاء السنن الكونية مكانتها في العقل الإسلامي، حتىٰ إن بعضهم يرىٰ بأن المسلمين لا يفتقدون الإخلاص والإيمان في هٰذه المرحلة ـ وقد قدّموا الكثير من الوقود للعمل الإسلامي ـ لٰكنهم يفتقدون الإدراك وفقه السنن التي تحكم الحياة والأحياء..

فما رأيكم حول هٰذا التفسير؟

⊙ لا يمكن فعلاً أن يكون إخلاص الإنسان مهما كان عميقاً، وحبه للّه مهما كان مكيناً، لا يمكن أن يكون هٰذا وذاك سبباً في إلغاء السنن التي أدار الله عليها شؤون العالم ـ فهي سنن مكينة ـ وقد أخضع الله أنبياءه لها، فلمَ لا يخضع لها الأتباع؟!

ثم إن منطق العبودية ـ ولست هنا صوفيًا إنما مقرر حقيقة دينية ـ منطق العبودية أن أنظر إلىٰ أقدار الله تعالى علىٰ أن هٰذه الأقدار أرشد من تفكيري، ومن خططي، وهي الجو الوحيد الذي يمكن أن تنضج فيه الحقائق الاجتماعية التي يحتاج الناس إلىٰ أن يعيشوا بها، ليس ما أفكر فيه أو ما أضع خطته هو الذي يحقق المراد ـ لا ـ نحن عبيد الله. ونلمح هٰذه العبودية وقصورها وعدم معرفتها للمستقبل وعجزها عن إدراك المصلحة العاجلة في غزوة بدر.. فإن جمهور الصحابة كان يريد الثمرة العاجلة: ﴿... وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ...﴾ [الأنفال: ٧].

وكذٰلك كان جمهورهم كارهاً للمعركة ابتداءً، حتىٰ إن القرآن يذكر هٰذا بقوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ [الأنفال].

هم يساقون إلىٰ الموت في إحساسهم، ولٰكنهم لا يدرون أن القدر يسوقهم إلىٰ أعز نصر ستدركه الدعوة الإسلامية في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام.. هٰذا يجعلنا نضع خطوطاً فاصلة بين تصورنا نحن وإدراكنا للحقائق، وبين ما يخططه القدر الأعلىٰ لنا، لعل ذٰلك يجعلنا نشعر بأننا عبيد، وبأن مراد الله تعالىٰ ينبغي أن نستسلم له أكثر، وأن نستريح إلىٰ نتائجه مهما كانت مُرّة..

لماذا يكون غيرنا قديراً علىٰ ربط نتائج عمله بزمن طويل؟

في أول مؤتمر صهيوني (١٨٩٧م) قال هرتزل: إن إسرائيل ستقوم بعد خمسين سنة. وأراد اليهود أن يحققوا وعد الرجل أو نبوءته، فأقاموها سنة ١٩٤٧م عندما صدر قرار تقسيم فلسطين ٢٩ نوڤمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧م.. وفي الحقيقة لم يكن هرتزل يفكر في أنه سيعيش حتىٰ يدرك هٰذه النتيجة، ولٰكن ربما رأىٰ أن ما يعجز هو عنه سيحققه أبناؤه، وما عجز أبناؤه عن تحقيقه سيحققه أحفاده، المهم أن جنساً تتعاون أجياله المتعاقبة علىٰ إدراك نتيجة. ماذا علينا نحن المسلمين ـ ونحن نرث أخطاءً لها عدة قرون ـ أن نضع خطة بعيدة الأمد لكي نتخلص من هٰذه الأخطاء، ولكي يشعر أبناؤنا أنهم يحملون عبئاً مع الذين وضعوا الخطة، فإذا كان بعض الناس قضىٰ نحبه، فإن بعضهم الآخر ينتظر، والذي ينتظر ربما يموت قبل أن يرىٰ النتيجة، ولٰكنه يخلف من بعده من الأولاد أو من الأنصار مَن يجعلهم يؤدون حق الله عليهم، قال تعالىٰ:

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦].

ولهٰذا لا أزال أناشد أهل الحق ألاّ تكون العاطفة الحارة هي التي تسيِّرهم، بل ينبغي أن ينضم إلىٰ القلب الواثق عقل ثاقب ونظر دقيق حتىٰ يمكن أن نخدم ديننا، خصوصاً بعد أن اتسعت مسافة الخُلف بيننا وبين أعدائنا.. إننا من الناحية المعاشية والفكرية والفلسفية متخلفون جدًّا،

الآخرون غزوا الفضاء ووضعوا أرجلهم علىٰ بعض الكواكب ويدرسون كواكب أخرىٰ، ولا نزال نحن نعتمد في الرغيف الذي نأكله علىٰ ما يصنعه الآخرون لا علىٰ ما نصنعه نحن..

◎ المشكلة في الواقع تكمن في أن بعضهم قد يفهم قضية أقدار الله الغلَّابة ـ والتي يجب أن يطمئن لها المسلم ـ وإرادة الله النافذة في نهاية المطاف، قد يفهم هٰذا علىٰ أنه لون من الجبرية تقعد به عن ساحة التكليف، وإتقان المقدمات، وانتظار النتائج، ودراسة أسباب التقصير واستدراكها، حتىٰ لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ـ أو ما إلىٰ ذٰلك ـ وحتىٰ لا يكون هناك اختلاط بين إيمان الناس بالقدر وبين إتقانهم للعمل وقيامهم به..

⊙ الفارق بعيد بين جبريةٍ ترمي العزيمة الإنسانية بالوهن وتجعل الإنسان يتكاسل ويمشي متثاقل الخُطا، وبين تقدير لسنن الله الكونية.. إن الله سبحانه وتعالىٰ يقول في كتابه كلمات كثيرة تعتبر سنناً كونية.. فمثلاً يقول:

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]. ويقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣].. ويقول في بني إسرائيل ـ قديماً ـ:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة].

معنىٰ الصبر واليقين أن الأمر يحتاج إلىٰ زمن ـ واستعجال الزمن خطأ ـ ومن قوانين الله الكونية أن أعمل وأنا موقن بنصر الله، لٰكن ليس من قوانينه أن تنفَّذ الأمور حسب تقديري أنا.. فالزمن عندي له ثوانيه وساعاته وأيامه.. حساب طويل، لٰكن الزمن عند الله تعالىٰ له حساب آخر: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وعندما ذهب المسلمون في غزوة الحديبية كانوا واثقين من أنهم داخلون في الحرم ومؤدون العمرة، لٰكن لفتهم أبو بكر عندما طلبت

نفوسهم: (أقال لكم في هٰذه السنة؟..).. أي: لا بد من عودة، وسندخل، إلا أن تحديد زمن الدخول ندعه لله ﷻ...

... إنني أؤكد علىٰ هٰذه المعاني، لأني وجدت معارك كثيرة حدثت بين المؤمنين وبين الكافرين أو بين أعداء الله، كان المؤمنون فيها أصحاب قلوب تنبض باليقين وأصحاب نفوس متوجهة إلىٰ ربها عن إخلاص؛ ولٰكنها ما أحسنت الخطة، ولا درست الميدان، ولا قدَّرت العواقب، فكان فيما أصابنا من هزائم ما يمكن أن ينطبق عليه قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٦٥]..

فهزائم كثيرة أصابت الأمة الإسلامية وأصابت المجاهدين في هٰذه الأمة، لأنهم لم يحسنوا التخطيط للمعركة، والعقل لا بد منه، إنه أثمن هدية أعطاها الله خلقه، وقد أحصيت كلمة ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في القرآن الكريم فوجدتها تكررت في ستة عشر موضعاً، ومعنىٰ هٰذا أن الذين يخدمون الإسلام يجب أن تكون لهم عقول كبيرة..

❋ ❋ ❋

التدرج في التطبيق

◎ في الحقيقة: يمكن أن يكون فرعاً عن هٰذا الكلام أن الرسول عليه الصلاة والسلام أخذ الناس بالتدرج في التشريع، وأنه قضىٰ فترة من الزمن في مكة لم يكسر صنماً، ولم يمارس المسلمون أية عملية مواجهة مادية، وإنما كانت القضية قضية بيان لحقائق العقيدة، وكانوا يحتملون ما يقع عليهم ويصبرون.. وعندما دخل مكة فاتحاً لم يُبْقِ علىٰ الأصنام لحظة واحدة؛ فكان أول عمل بدأ به هو كسر الأصنام، نريد أن نلقي شيئاً من الأضواء للعاملين في الحقل الإسلامي حول هٰذه القضية..

⊙ من الممكن فعلاً تقسيم فترة الرسالة بين العهدين ـ العهد المكي والعهد

المدني ـ ومن الممكن أن يقال: إن العهد المدني كان عهد تشريع، وإن العهد المكي كان عهد بيان للعقائد وأخذٍ للنفوس بها وتكوين لمجتمع؛ أساس الترابط فيه الإيمان بالله وصدق الاتجاه إليه.. ولا شك أن التدرج كان سنَّة في بعض الشرائع الفقهية الفرعية في الإسلام، فمثلاً الربا كان أول ما نزل فيه قوله تعالىٰ:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الروم] فهناك تلويح بأن الربا مرفوض، لكن الحسم في تنظيف المجتمع من الربا ومحو آثاره كلها كان في العصر المدني لا في العصر المكي.. وآخر الآيات في هٰذا نزولاً قوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ...﴾ [البقرة:٢٧٥] وقوله:

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ..﴾ [البقرة:٢٧٦] وقوله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ...﴾ [البقرة:٢٧٨] فكان التشريع حاسماً، وكذٰلك في تشريعات الخمر وما إليها، لٰكن لا نستطيع أن نقول: إن الذين يعملون للإسلام الآن يتدرجون في شرح الحقائق الإسلامية العلمية لأن هٰذه الحقائق قد اكتملت، ومنذ نزل قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ...﴾ [المائدة:٣] أصبحنا مكلَّفين بعرض الإسلام كله آية آية وسُنّة سُنّة.

لٰكن بناء الدولة بعد نشر الدعوة، هٰذا لا بد فيه من التدرج، لأن البناء الذي انهدم علىٰ عدة قرون لا يمكن أن يتم إعادة صرحه في خلال أسابيع أو في خلال أعوام قليلة، ولذٰلك كان كبار المصلحين يقولون: الزمن جزء من العلاج؛ بمعنىٰ أني لا بد أن أقول: الحدود تقام، وما أقبل مماراة في حد، لٰكن عند التطبيق لا بأس أن أشرع فوراً بحد الافتراء.. أو حد قطع يد السارق، لأن ذٰلك سهل، ويمكن إرجاء بعض الحدود إلىٰ أن تواتيني فرصة التنفيذ.. فعلميًا أنا مكلَّف ببيان الإسلام كله، وعمليًا لا بد

أن أتدرج في التطبيق العملي، وهٰذا ما تفرضه أحوالنا التي لا بد منها، فالدواء الذي لا بد أن يتجرعه المريض ليصحو أعطيه له جرعة جرعة.

❊ ❊ ❊

القرآن.. والسلطان

◎ هناك قضية تتصل بما بدأنا الحديث عنه.. وهي أن بعضهم يرىٰ أن المسلمين أغنياء جدًّا في الفقه التشريعي، وفقراء جدًّا في الفقه السياسي بمعناه الإداري والدستوري، وما إلىٰ ذٰلك.. وهٰذا قد يدعو إلىٰ شيء من التخبط في الرؤية السياسية لأنها لم تزل مبادئ عامة لم تترجم ـ تاريخيًّا ـ إلىٰ فقه وبرامج تشكل خصوبة في التصور عند الفرد المسلم، يمكن أن يتعامل مع الحياة من خلاله.. فهل كان هٰذا ثمرة لانفصال السلطان عن القرآن في التاريخ الإسلامي؟ علماً بأن الكثير من الآيات التي وردت تحض علىٰ النظر والاعتبار، والدعوة إلىٰ الشورىٰ هي أقرب في طبيعتها إلىٰ الفقه الاجتماعي والسياسي منها إلىٰ الفقه التشريعي، وعلماً بأن النمو لا يزال مستمراً في الفقه التشريعي، بينما نعاني من ضمور في الفقه السياسي.. كيف يمكن أن يتخلص المسلمون من بعض هٰذه المعاناة؟

⊙ لا بد من الاعتراف بأن فقه العبادات ـ وجوانب من فقه المعاملات ـ اتسع عندنا اتساعاً أكثر من اللازم، وأن الاستبحار التشريعي في أمور الطهارة والصلاة والحج والزكاة وما إلىٰ ذٰلك كان أكثر مما يطيقه الفرد المسلم أو المجتمع المسلم، وقليل من هٰذا كان يكفي الناس، كما أنه عدة أسماء لحقيقة واحدة ليس بلازم أن يعرفها الجميع؛ لٰكن لا شك أن في الأمة الإسلامية تخلفاً في سياسة الحكم وسياسة المال، فأما في سياسة المال فمعروف أن فتنة أمتنا المال كما جاء في الحديث: **«فتنة أمتي المال»** والفتنة تجيء من مصادر الكسب ومن طرق الإنفاق، فلا مصادر الكسب وضعنا لها

مصافي تحجب الحرام وتتيح مرور الحلال، ولا طرق الإنفاق وضعنا عليها رقابات قانونية تمنع التبذير الجنوني وتمنع السفه في إراقة المال في غير موضعه، وربما سبقتنا الآن أمم كثيرة في هٰذا، حيث وضعت للمال سياسات دقيقة في إنفاقه وفي كسبه، تظهر في الموازنات العامة التي تضعها الدول، فالدول تفرض على الحكومات ألّا يؤخذ من الشعب قرش واحد إلا بقانون أو إلّا بتشريع واضح يُرىٰ معه أن الدولة محتاجة، ولا ينفق شيء إلا بالدقة نفسها التي تتبع في الكسب، وإعلان الحرب كذٰلك لا يترك لنزوات فرد يخاصم أو يسالم كيف يشاء، وإنما الأمة التي تدفع من دمها ثمن الحروب وتضحيات القتال هي التي تبت في مثل هٰذه الأمور.

ولا بد في الحقيقة من أن تكون هناك أجهزة متخصصة في أمور فنية وإدارية لمعرفة موقع الأمة الإسلامية من الأمم الأخرىٰ وما يعود عليها بالكسب وما يعود عليها بالخسارة، وأن تكون هناك قوانين تحكم العلاقات وترسم المعاهدات التي تكون بيننا وبين الآخرين.

ومع أن الفقه الإسلامي يمثل علىٰ الأقل ٥٠٪ من المكتبة الإسلامية، ومع أن هٰذا الفقه استبحر عندنا بحيث إنه لا توجد حضارة عالمية استبحر فيها الفقه كما استبحر في حضارتنا، مع هٰذا فإننا في هٰذه الناحية مصابون بضمور كما قلتم ـ في بعض المعاملات عندنا ـ علىٰ سبيل المثال نحو (٢٥) كبيرة من الكبائر لم توضع لها عقوبات، ونحن لم نضع عقوبات للتعامل بالربا أو للغصب أو للفرار من الزحف أو لأكل مال اليتيم، أو للغش، أو لما يقع من مخالفات كثيرة.. فهل الحدود التي وضعها الله تغني عن تشريعات لا بد منها في الميدان الاجتماعي؟ وهي تترك التعزيرات هٰكذا دون ضوابط، ودون رصدها بقوانين محكمة؟

الشيء الثاني: وجدنا أن الفقه الإسلامي ـ حتىٰ في ميدان الأسرة ـ قد احتبس في حدود المذاهب الأربعة حتىٰ جاء ابن تيمية واستطاع أن يصنع عملاً هائلاً عندما رفض طلاق البدعة ودخل بهٰذا مدخلاً معجباً وكريماً في المحافظة علىٰ الأسرة الإسلامية، وإن كان بعضهم يرفض كلامه في هٰذا

الموضوع، لكن انفتاح باب الاجتهاد أمام الرجل جعله يضع ضوابط للأسرة الإسلامية، هٰذا شيء حسن.. قوانين العمل والعمال لا تزال صفراً عندنا ونستوردها الآن من الخارج في إصابات العمل وفي حقوق العامل، وهٰذا لا يجوز.. القوانين الإدارية إلىٰ الآن لا تزال أيضاً مجلوبة.

◎ في الحقيقة كأنما المطلوب تحديد الأسباب ـ أسباب الضمور في هٰذا الجانب والنمو في الجانب الآخر ـ هل هو الانسحاب من المجتمع؟.. هل هو انفصال السلطان عن القرآن؟ مع أن الإنسان يلمح بأن الآية التي استدل بها الفقهاء علىٰ حجية القياس ـ وهي قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ في سورة الحشر [الآية:٢]، بعد أن تكلم عن الحال التي كان عليها بنو النضير، وكيف أخذهم الله بسبب واقع اجتماعي معين ـ وأن كل مَن يصيبه هٰذا الواقع سينتهي إلىٰ النهاية نفسها ـ هي أقرب للفقه الاجتماعي منها إلىٰ الفقه التشريعي، أنا ألمح بأن هٰذا لون من الفقه للسنن الاجتماعية ـ عمليًّا ـ صرف إلىٰ الفقه التشريعي وبقيت القضية الاجتماعية أو الفقه الاجتماعي أو السنن المتعلقة بقيام الأمم وسقوط الأمم وقضايا المال بقيت قضايا ضامرة.

⊙ من الناحية النظرية استطاع أئمتنا من قديم أن يضعوا قواعد تشريعية مثالية في هٰذه النواحي؛ فمالك وبعض المذاهب الأخرىٰ اعتمدوا مبدأ المصلحة المرسلة، والحنفية اعتمدوا مبدأ الاستحسان، الحنابلة لهم فقه مرن جدًّا في ميدان المعاملات يكاد يكون أكثر سماحة واتساعاً من الفقه الحنفي؛ لأنهم يرون أن العقود ابتداءً في الأصل مباحة، أما غيرهم فيرىٰ أنها محظورة، ولهم في هٰذا مجال واسع ـ لكن..

◎ لكن، ألا ترون معي أن هٰذا يبقىٰ في إطار الفقه التشريعي؟

⊙ نعم.. قلت: إن الذي جعل هٰذا الفقه لا يأخذ امتداده العملي، بحيث تمتد المبادئ وتتوزع علىٰ شبكة تشريعات تشمل المجتمع كله.. هو الخصام الذي وقع بين الحكم والعلم الديني؛ فإن الأئمة الأربعة تقريباً كانت بينهم وبين الحكام جفوة.. أبو حنيفة قُتل في السجن ـ علىٰ الأشهر أو علىٰ

الأغلب ـ ومالك ضرب لأنه أفتىٰ فتوًى أغضبت الحاكم في عهده، وابن حنبل ضُرب ضرباً مبرحاً وكاد يموت في سجنه، لولا أن الله لطف به، والشافعي قُبض عليه وامتنع عن القضاء لأنه وجد أن الأمور تسير سيراً سيئاً.. فهٰذه الناحية التشريعية قد جاء ضمورها من الخلاف..

◎ الضمور سببه الخلاف بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية إذا صحّ التعبير.

⊙ نعم هٰذا هو الذي أريد أن أقوله.. لذٰلك يجب أن نعقد صلحاً بين الاتجاهين، بين الاتجاه الثقافي والاتجاه السياسي.

◎ هل يمكن أن نعتبر أن التخلف والارتكاس يمكن أن يُكرس ويستمر طالما أن هٰذا الافتراق حاصل بين القيادة الفكرية والقيادة السياسية، أو بين أهل الرأي وأصحاب القرار؟

⊙ سيبقىٰ التخلف حتماً.. وهٰذا أشبه بالانفصال الشبكي الذي يُفقِد المرء البصر، وفي اعتقادي أن شيئاً من هٰذا ـ أيضاً ـ وقع بين المفكرين أنفسهم.

****

سجود القلب

◎ ... وإذا كنا نلحظ في تاريخنا انفصالاً بين الفكر السياسي والفكر الثقافي التشريعي عندنا، فهناك انفصال وقع بين الفقه التربوي والتشريعي أيضاً، فانفصل ما يسمىٰ بعلم القلوب أو علم التصوف أو علم التربية.

◎ أو ما أسموه الحقيقة والشريعة؟

⊙ نعم؛ انفصل هٰذا عن ذاك في واقعنا الإسلامي انفصالاً مُرًّا.. ونحن نعلم أن كتب التصوف تملأ المكتبات، وأن الطرق الصوفية زحمت العالم الإسلامي دهراً، وأن الاستغناء ممكن عن هٰذه الطرق؛ بل قد تصلح الحياة وترشد بدون هٰذه الطرق، لٰكنها لا تصلح ولا ترشد إذا بقي القلب الإنساني دون تعهدِ فقيه؛ بمعنىٰ أن التربية أساس في تكوين الأمم، والتربية التي لا بد منها كي تكون النفوس راشدة والمجتمعات فاضلة، هي التي تقوم علىٰ فهم

مقام الإحسان. أو رقابة الله علىٰ الضمير البشري في سلوكه كله، ليله ونهاره.. هٰذه الرقابة هي التي ينشأ عنها الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والمحبة والورع والتوبة ومعرفة المعاصي الكبيرة التي هي أخطر من معاصي الأبدان، بمعنىٰ أنه كيف تغسل النفوس من حب الظهور.. من الأنانية.. من الحقد.. من طلب الرئاسة.. من العراك علىٰ المآرب الخسيسة.. من الذهول في طلب الدنيا عن الآخرة.. هٰذا كله إذا فقدناه فإن هيكلاً تشريعياً كبيراً لا يغني مكانه، وكان مفروضاً أن العلماء يربون الأجيال ابتداء علىٰ هٰذه المعاني، فإن هٰذا ما بني عليه المجتمع الأول.

وعندما تتأمل تراث ابن تيمية ـ الذي يعتبر خصماً للصوفية ـ أو ابن القيم تلميذه، فإنك ترىٰ أن ابن تيمية رصد جزأين من فتاواه تقريباً في القلوب والحديث عن الله وخشيته والعمل له والإخلاص والإحسان، وما إلىٰ ذٰلك من المعاني التي خاض فيها المتصوفة بدون وعي فقهي.. وجاء تلميذه ابن القيم وفصَّل هٰذا في كتابه «طريق الهجرتين»، وكتابه «مدارج السالكين»، وكتابه «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» وكتب كثيرة.. وكان أكثر من أستاذه توسعاً في هٰذه النواحي.. هٰذه المعاني معدومة الآن، ونجد مَن يعلم حركات الصلاة من ركوع وسجود، ولا يحسن تعليم الخشوع وتقديس الله وسجود القلب مع سجود الجوارح.. وهٰذا خطأ هائل.

❋ ❋ ❋

الشورىٰ.. في عصر تبرج الفلسفات

◎ نعود إلىٰ نقطة انفصال القيادة الفكرية والتربوية عن القيادة التشريعية.. هٰذا الانفصال الذي أحدث الشروخ والأخاديد في المجتمع المسلم.. الحقيقة أصبح كثير من الناس يحس بهٰذه القضية، ولا بد أن توضع أوليات للمعالجة.. أنا لا أعتقد بأن السبب كله يعود إلىٰ القيادة السياسية، ولا السبب كله يعود إلىٰ القيادة التشريعية أو الفكرية.. وإنما لكلّ من القيادتين نصيبه من الخطأ، فكيف ترون سبيل المعالجة؟

⊙ لا أستطيع أن أعود باللائمة علىٰ نفر معينين، فنحن جميعاً من علماء وحكام ومن إداريين ومربِّين، ومن فقهاء ومن مشرِّعين وقادة عسكريين، نحن جميعاً نحمل أوزار الضعف الذي ألمَّ بالعالم الإسلامي كله، ومن الخير أن نتعارف علىٰ خطة سواء يمكن بها أن ننقذ أمتنا وننقذ تراثنا ونؤدي رسالتنا التي لا بد أن نؤديها حتىٰ نلقىٰ ربنا بوجه أبيض، وإلاَّ فإن التبعات ثقيلة علينا، ونحن لا نبدأ من فراغ، فمن إكرام الله لهٰذه الأمة أن كتابها لا يزال قائماً، وأن سنَّة نبينا ﷺ لا تزال واضحة المعالم، وأن الفقه في أصوله وأهدافه الكبرىٰ لا يزال يعطينا القدرة علىٰ الرؤية والانطلاق.. كل ما هنالك أن يُمنع القاصرون وأصحاب الغرض من الكلام في دين بالله أو العمل له، لأنهم يسيئون من حيث يريدون الإحسان، إنني أرفض في مثل هٰذا العصر الذي ذُللت فيه الشعوب وتبرجت فيه الفلسفات التي تعرض نفسها علىٰ الخلق، أرفض أن يجيء إنسان فيقول: الحاكم في الإسلام يتصرف بدون مجالس شورىٰ تشير عليه، وله أن ينفرد برأيه متخطياً كل رأي يعرض عليه، هٰذا كلام لا يمكن أن يقال، وصاحب الرسالة المعصوم عليه الصلاة والسلام ما زعمه لنفسه؛ فكيف يُزعم للآخرين؟! القول بأن الشورىٰ لا تُلزم أحداً كلام باطل، ولا أدري من أين جاء!

◎ لعل فكرة عدم إلزامية الشورىٰ وفكرة المستبد العادل.. كلها كانت فلسفة لواقع معين لتبرير الاستبداد السياسي من فقهاء السلطة.

⊙ كلمة «مستبد عادل» تساوي كلمة «عالم جاهل».. تساوي كلمة «تقي فاجر».. هٰذا جمع بين الأضداد.

◎ أعني أنه قد يشيع في المجتمع الإسلامي فترة من الفترات مصطلح مستبد عادل، أو أنه قد يشيع في المجتمع الإسلامي أن الشورىٰ غير ملزمة، كلون من التبرير أو التسويغ أو إعطاء الفتوىٰ للاستبداد السياسي، أو إلباس ثوب إسلامي للاستبداد السياسي؟

⊙ نعم، وهٰذا لا يجوز.. فالذي رأيناه في سيرة النبي ﷺ أنه التزم بالشورىٰ؛ فإنها من مبادئ الإسلام، وقبل أن تقوم للمسلمين دولة قيل لهم: مجتمعكم

هٰذا الذي لمَّا يتحول بعد إلىٰ دولة يجب أن يقوم أمره علىٰ الشورىٰ:

﴿... وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ...﴾ [الشورىٰ:٣٨]، وكان ذٰلك في العهد المكي، وعندما قام المجتمع علىٰ دولة بعد أن انتقل إلىٰ المدينة؛ فإنه قيل للرسول ﷺ بعد هزيمة أحد ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾.. وكان أول اختبار للشورىٰ في غزوة الأحزاب عندما كاد النبي ﷺ يمضي معاهدة بينه وبين القبائل الوثنية المحدقة بالمدينة والتي توشك علىٰ اقتحامها، لأنه رأىٰ حرج الأنصار وكَلَب العدو عليهم وتتابع البذل منهم خشي هٰذا.. واقترح، فلما عرض ذٰلك علىٰ زعيمَيْ الأوس والخزرج ـ سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ـ رفضا، وفي ما أحفظه من روايات أن النبي ﷺ قال لهما: «**إذا اتفقتما علىٰ شيء، فلا أخالفكما فيه**».. فهٰذا أصل الشورىٰ، ومعروف بداهة أن الشورىٰ لا صلة لها بالنصوص، الشورىٰ حيث لا نص، والذين يقولون: إن الشورىٰ تغير أحكام الإسلام، لا يفهمون معنىٰ الشورىٰ.. يوم نقول: الدولة دينها الرسمي الإسلام، فمعنىٰ هٰذا أن نصوص الإسلام علىٰ العين والرأس ولا كلام فيها، أما الشورىٰ فحيث لا نص.. وقد سمعت بعض الشبهات أوردها الذين يقولون: إن الشورىٰ لا تلزم.. منها موقف النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة الحديبية؛ والظاهر أن الموقف في غزوة الحديبية لم يكن للشورىٰ دخل فيه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام أحسّ بأن رب العالمين قد تدخل في الأمر، فقال: «**ما خَلأت القصواء وليس لها بخلق، حبسها حابس الفيل**» فهم أن الله لا يريد حرباً الآن، فنفذ أمر الله ـ وهو خبير بالوحي ـ وعندما سئل قال: «**أنا عبد الله، وهو لن يخذلني**»، فكان لا بد أن ينفذ أمر الله، وطالما أمر الله فلا شورىٰ لأحد.

الشيء الثاني، وهو عجيب، قولهم ـ في قضايا محاربة المرتدِّين ـ: إن أبا بكر استبدّ برأيه.. وهٰذا كلام باطل؛ لأن معنىٰ الشورىٰ أن يقول الحاكم ما عنده، وأن يسوق الأدلة عليه، وأن يعترض مَن يعترض، ثم يذكر أدلته، ثم تستقر الأمور علىٰ ما يراه المجتمعون، فهل رأىٰ المجتمعون رأياً غير رأي أبي بكر؟ هٰذا غير صحيح، عمر بن الخطاب ﷺ الذي اعترض، قال: (فما هو إلا «كذا» حتىٰ شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر).. معنىٰ

هٰذا أن المعارضة اختفت. . كذٰلك اختلفوا في تخميس الغنائم، وكانت المصالح المرسلة كما قيل ـ المصلحة المطلقة ـ أنها لا تخمس، كما يفهم بعضهم من النص. . فرأىٰ عمر أن التخميس الذي جاء به النص كان في أمور محدودة، أما في امتلاك أراضي البلاد المفتوحة وتوزيعها علىٰ المقاتلين فلا، واختلفوا شهراً وفكروا، فكانت الأغلبية مع عدم التخميس، ورأوا الذي رآه عمر، فمعنىٰ الشورىٰ أن الآراء تقال وكلٌّ يقول ما عنده ويدافع عنه وهو يعرضه، حتىٰ إذا أخذت الآراء وعُرف الاتجاه إلىٰ أين فمع الأغلبية نسير. . هٰذا هو الذي نقوله. . أما القول الآن بأنه لأي إنسان أن يأخذ الأمة شرقاً وهي تريد أن تذهب غرباً فهٰذا لا يمكن أن يقال.

❋ ❋ ❋

البيعة العامة.. وجماعة المسلمين

◎ في الحقيقة يمكن أن تنسحب آثار قضية إلزامية الشورىٰ أو عدم إلزاميتها علىٰ بعض العاملين للإسلام من الجمعيات والجماعات الإسلامية. . فقضية عدم إلزامية الشورىٰ واردة عند بعض الجماعات الإسلامية أو العاملين للإسلام، وقد أوقع ـ ولا يزال ـ بكثير من الارتباك، ويمكن أن يكون الوجه الآخر للقضية هو مشكلة فهم النصوص التي وردت بشأنها، ونحن نعلم أن البيعة العامة لا يمكن أن تكون إلا للحاكم المسلم القادر علىٰ مدًى معين وصلاحيات معينة، فبعض الجماعات الإسلامية وبعض العاملين للإسلام وقعوا في مشكلتين: الأولى: عدم إلزامية الشورىٰ، والثانية: البيعة العامة لأمير العمل أو لقائد الجماعة أو ما إلىٰ ذٰلك، الأمر الذي أحدث فيما بعد شيئاً من التعسف في التعامل مع الأحكام الفقهية ـ من جانب ـ وتصورهم أنهم جماعة المسلمين، أدىٰ إلىٰ شيء من التحنيط، والحكم علىٰ المسلمين خارج إطارهم بأحكام أبعدت بينهم وبينَ رسالتهم الحقيقية حيث أغلقت منافذ الدعوة إلىٰ الله.

⊙ هٰذه كلها أخطاء لا أستطيع أن أنكرها، وقعت في العالم الإسلامي ـ للأسف ـ فإن كثيراً من العاملين في الميدان الإسلامي تصرفوا بطريقة تستدعي التساؤل والدهشة.

فأولاً: كثير منهم سمّىٰ نفسه أميراً، ومبلغ علمي أن الأستاذ حسن البنا كراهية منه للرياسة، ولما يعلمه من أن حب الرياسة وطلب الإمارة أساء إلىٰ المسلمين في تاريخهم الطويل سمّى نفسه مرشداً، وكره أن يكون رئيساً أو أميرا، فلا أدري ما الذي جعل أعداداً كبيرة من الجماعات الإسلامية تطلق علىٰ القائمين بالأمر فيها «أمراء».. وصحيح إنه «**إذا كنتم ثلاثة؛ فأمّروا أحدكم**»، لٰكن ليس المقصود أن يكون ذا رئاسة وتعالٍ، وإنما المقصود أن يكون مسؤولاً، وقد تبع هٰذا أن الأمير الذي أصبح أميراً لبعض الطلبة أو لبعض العمال أو لبعض الشباب، أصبح يرىٰ لنفسه حقًّا في إملاء الرأي علىٰ الآخرين، بينما قضية الشورىٰ مبهمة في نفسه، فأعطىٰ لنفسه حق التوجيه الذي لا يُساءل فيه، والذي يرفض الاعتراض حينما يوجَّه إليه، وبهٰذا ساد الاستبداد نواحي كثيرة، وهٰذا خطأ بيقين.

الشيء الثاني: إن القول بأن هٰؤلاء الأمراء للشباب أو للطلاب أو للعمال لهم حقوق أبي بكر وعمر وعثمان وعلي التي هي حقوق الخلافة العظمىٰ وحقوق الطاعة علىٰ المسلمين لأنهم أولياء الأمر ـ والله أمر بإطاعة أولي الأمر ـ هٰذا كلام أيضاً مرفوض، ولا يمكن قبوله، لأن الخروج علىٰ البيعة أو الخروج علىٰ طاعة ولي الأمر إنما كانت إبقاء لكرامة الدولة ومكانتها، ومنعاً لأن تكون الفتوق سبباً في انهيارها أمام عدوها.. ولذٰلك كان الخروج المسلّح هو الذي عُيِّب واعتبر أشبه بالرِّدَّة، لأنه لا شك أن الخروج المسلَّح علىٰ الدولة خطير يبيح الدم، لٰكن الخروج العادي بمعنىٰ رفض رأي فلان من الأمراء أو الرؤساء فليس شيئاً يعاب المرء عليه، ومن الخير أن يكون الإنسان مبدياً ما عنده. وما يمكن أن أقول: إن الذي خالف رئيس الجماعة لا يمكن أن يعتبر مارقاً من الإسلام أو خارجاً علىٰ الجماعة أو ناقضاً للبيعة أو مات ميتة جاهلية، إلىٰ آخر التطبيقات التي ينقلونها من ميدان الدولة إلىٰ أفقهم الضيق المحدود الذي يعيشون فيه.

العمل الإسلامي يجب أن يكون بعيداً عن هٰذه الكهانات وهٰذه الادعاءات، فإذا إختار جمع من المسلمين رئيساً لهم، فهو رئيس لهم، يكون إماماً لهم كإمام الصلاة، إذا أخطأ فإنه يستفتح عليه ويوجه للصواب، وليس له أن يُلزم الآخرين بمتابعته علىٰ خطئه، ومن حق الناس أن تراجعه وأن تتركه وأن تخالفه إذا رأت أن مسلكه ينبو عن تفكيرها، ولا يعتبر هٰذا إطلاقاً عصياناً لله ولا خروجاً علىٰ الإسلام، أما مسألة النيات فهي إلىٰ الله، فمن ترك جماعة من الجماعات لأن تكاليف الجهاد بهظته أو أثقلته فهو رجل يُسأل أمام الله: لماذا استثقل تكاليف الجهاد بينما يجب عليه أن يكون مجاهداً. . أما إذا وجد خطة خطأ، فرأىٰ ـ بعد أن بذل النصح ورُفض سماع قوله ـ أن يترك هٰذا الخطأ، فهٰذا من حقه، ولا يعتبر خروجاً علىٰ بيعة ولا انسلاخاً عن الملّة ولا عودة إلىٰ الجاهلية ولا شيئاً من هٰذا كله.

◎ معنىٰ ذٰلك أن مصطلح جماعة المسلمين الآن يحمل خطورة كبيرة؟

⊙ يجب أن يقال جماعة من المسلمين. . أما جماعة المسلمين فلا. . جماعة المسلمين إنما يتكلم عنها الخليفة الأعظم كما يُسمىٰ، وهو غير موجود الآن للأسف. .

◎ نقطة أخرىٰ في قضية الاجتهاد. . من المعروف أن باب الاجتهاد أوقف أو أغلق، وهٰذا أوقع المسلمين بفوضىٰ شديدة جدًّا. . فالحق أن إيقاف باب الاجتهاد هو اجتهاد في الأصل. . فهل هو اجتهاد ملزم؟ ومن أين له صفة الإلزام؟

هٰذه قضية؛ القضية الثانية: أليس إيقاف باب الاجتهاد معناه توقيف النمو الإسلامي في مواجهة المشكلات المعاصرة والحكم عليها؟

النقطة الثالثة في الموضوع: ألا يعني هٰذا لوناً من الانفصال بين الإسلام وبين المجتمع، أو فصل الإسلام عن المجتمع بأيدٍ مسلمة، ومساهمة سلبية منا بتوقيف الإسلام؟ وألا يتعارض هٰذا مع خلود الشريعة، وأن الله تعالىٰ الذي أنزل الشريعة عالم بتقلبات الأمم

والأحوال وما يُسمىٰ بعملية فساد العصر التي احتج بها مَن اجتهدوا في ذٰلك، ودعوا إلىٰ إيقاف الاجتهاد، وكانت دعوتهم محل نظر؟

⊙ الأمر كما قلتم ابتداءً إن إغلاق باب الاجتهاد هو اجتهاد، ويخيل إليّ أن الإغلاق لم يكن يعني - في عُرف مَن طالب به أو مَن فرضه علىٰ الناس - لم يكن يعني إطلاقاً حبس العقل الإسلامي في هٰذه الحجب التي جدَّت، فالذي حدث - فيما قرأت للبغدادي في كتابه «تاريخ بغداد» - أن الاجتهاد كان قد بلغ الفوضىٰ، وبلغ بالأمة الإسلامية أن بغداد كان يفتىٰ فيها بحل دم في حي وبحرمته في حي آخر، وبحل المرأة في حي وبحرمتها في حي آخر، ولأضرب مثلاً:

هبْ أن رجلاً مسلماً قتل ذميًا، فإن المالكية أو الشافعية يقولون: لا نقتل فيه، فعصموا دمه، أما الحنفية فيقولون: يُقتل فيه، فكان لا بد من تدخل الدولة هنا، أو من تدخل اجتهاد لكي يرجح حكماً علىٰ آخر، ويغلق الباب أمام أحد الاجتهادين.

◎ هٰذا نوع من التنظيم..

⊙ هو نوع من التنظيم.. وقد بدأ تنظيماً محدوداً، ولكنه - للأسف - تحوَّل إلىٰ فوضىٰ، وإلىٰ إماتة، وإلىٰ تجميد للعقل الإسلامي.. كان من الممكن أن يقع طلاق البدعة أو لا يقع مثلاً، بعض الناس يقولون: تطلق المرأة عندما يقال لها أنتِ طالق بالثلاث - تُطلق ثلاثاً - وتتزوج غيره فيما بعد.. بينما يرىٰ بعضهم: أنها طلقة واحدة ولا يجوز أن تتزوج الآخر، فكان لا بد من هٰذا التنظيم.



المجتهدون الجدد

◎ القضية في تقديري أن هناك ثروة فقهية ونظرات كثيرة.. هناك شيء اسمه فقه وشيء اسمه قانون بالمصطلحات الحديثة.. بمعنىٰ أن الفقه هو

مجموعة نظرات متفاوتة.. متفاوتة في قدرة أصحابها، ومتفاوتة في الحل والحرمة.. لٰكن إلىٰ جانب المدرسة التشريعية والفقهية هناك شيء اسمه قانون.. فما ينتقىٰ من المدرسة التشريغية من الأحكام، في صورة تطبيقية يتم تقنينه وجعله الأمر الملتزم.

⊙ نعم.. وهٰذا لم يكن موجوداً في الأمة الإسلامية، فقد بدأ حديثاً.. لٰكن القاضي قديماً كان يجتهد.. وكان له الحق أن يتبع أحد المذاهب المعتمدة الأربعة المعروفة، وهو ليس كقاضي اليوم؛ أمامه قانون، يطبق مواده علىٰ الواقعة ويصدر الحكم، بل هو يجتهد في استنباط الحكم وفي التنقل بين عدة مذاهب، أو إذا كانت الدولة تتبنىٰ مذهباً معيناً يأخذ من هٰذا المذهب، ووظيفته الاجتهاد في معرفة الحكم، هل يطبَّق أم لا؟

◎ كما لو قصّر القانون الآن عن حالة، فيرجع إلىٰ مصدر من مصادر الفقه؟

⊙ نعم.. لٰكن علىٰ كل حال هٰذا الاجتهاد بإغلاق باب الاجتهاد انتهىٰ إلىٰ ضرر، والضرر هو أن الأمة توقفت فعلاً عند التفكير القديم الذي كان سائداً في القرن الرابع تقريباً، والزمن يتجدد، وكما قيل: تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من أنزعة.. فلا بد من أن يترك باب الاجتهاد مفتوحاً.. لٰكن لي ملاحظة، وأريد أن أكون دقيقاً، فإني وجدت ناساً يستغلُون فتح باب الاجتهاد، فجاؤوا بأحكام اجتهدوا هم فيها، كانت وبالاً علىٰ الأمة، لأن عقولهم قاصرة، ولأنهم لم يستجمعوا المؤهلات العلمية والخلقية للمجتهد، حتىٰ كدت أقول: نعود إلىٰ التقليد المذهبي أفضل من هٰذه الفوضىٰ التي جعلت بعض الناس ينشئ مذاهب خامسة وسادسة وسابعة، ليس وراءها من ثروة علمية تجعل لها أية حرمة.

شيء آخر حول هٰذه الملاحظة هو أن الاجتهاد دار في المجال الذي يجب أن يتوقف فيه الاجتهاد، بمعنىٰ أننا لم نجتهد فيما توقفنا فيه، أو فيما ضمر فقهنا فيه وهو سياسة المال وسياسة الحكم.

◎ **ما يسمىٰ الفقه السياسي؟**

⊙ نعم.. سياسة العمل والعمال، والفقه الإداري، علاقاتنا الخارجية بالدول، كل هٰذا يحتاج إلىٰ اجتهادات كثيرة.. وهؤلاء لا يعرفون شيئاً في هٰذه الميادين، لا تقليداً ولا اجتهاداً، وإنما كل الذي بدأوا فيه وأعادوا فيه هو فقه العبادات.

ولذٰلك أرىٰ وقف هٰذا الاجتهاد الجديد كله، لأنه اجتهاد في ميدان ينبغي أن يكون عملنا فيه الانتقاء والترجيح من أقوال السابقين التي استوعبت - تقريباً - كل شيء.

◎ **لأن العبادات غير متجددة أصلاً؟**

⊙ نعم.. العبادات غير متجددة أصلاً..

أما المعاملات فرأيي أن نعتمد مبدأ المصلحة المرسلة الذي اعتمده مالك وبعض الشافعية، والاستحسان الذي اعتمده الحنفية، والقواعد العامة في ديننا وهي معروفة وكثيرة - القواعد الفقهية التي نضح بها فقه الأئمة الأربعة - وهو فقه محترم في الحقيقة، ومن الممكن أن ندخل بهٰذا في ميدان سياسة المال والحكم والإدارة والعمل والعمال والشؤون الدولية.. إلىٰ آخره.. مع فتح الباب للانتفاع بالعلم الجديد، ومعنىٰ ذٰلك أنه لا مانع من أن أعرف ما كان حسناً عند الآخرين، أنقله ولا حرج.. افرض أنهم وضعوا فعلاً قوانين أو مواد تبين كيف يستشير الحاكم الناس؟ وكيف يرجع إليهم؟.. فما الذي يمنعني أن أنتقي ما لا أراه مخالفاً ديني في هٰذه المؤسسات كلها؟!

◎ **تعني ما وصلوا إليه في عمليات استطلاع الرأي والشورىٰ وما إلىٰ ذٰلك؟**

⊙ نعم.. كل هٰذا أستطيع أن أنتفع به، وهو يدخل في باب الاجتهاد الذي ينبغي أن تُفتح أبوابه ليكون داخل الإطار الإسلامي.

***

سقوط الفتاوىٰ الرسمية

◎ نقطة أخرىٰ حول قضية الاجتهادِ... إذِا تركت حرية الاجتهاد سيشتغل بعض الناس من المؤهلين ومن غير المؤهلين بقضايا الاجتهاد.. لٰكن ـ في تقديري ـ إذا كان هناك وعي إسلامي صحيح، وتفاعل بقضية الاجتهاد، ستسقط بعض الفتاوىٰ التي جاءت من غير أهلها، والتي لا تستحق أن تكون فتوىٰ في الدين، لأن صاحبها صاحب بدعة أو غير ذي علم أو ما إلىٰ ذٰلك، كما نلمح هٰذه الأيام ـ في ملامح بسيطة ـ أن بعض الفتاوىٰ الرسمية ـ التي تأتي لملابسات معينة ـ الجماهير المسلمة لا تقبل بها، ولا تغير من واقع الجماهير شيئاً؟

⊙ نعم.. هٰذا حقيقي.

◎ بينما تكون بعض الفتاوىٰ من أهلها الذين ليس لهم سلطان سياسي، وإنما سلطان علمي ويتمتعون بمؤهلات تجعلهم أهلاً للنظر والفتوىٰ، تكون عند الجماهير ذات أثر كبير.

⊙ ممكن أن أضم إلىٰ هٰذا أن بعض الناس ـ لقصورٍ فقهي ـ ينظر إلىٰ التاريخ الإسلامي ـ خصوصاً في الألف سنة الأخيرة ـ علىٰ أنه مصدر للتشريع، أو ينظر إلىٰ التقاليد الاجتماعية السائدة في بعض البلاد علىٰ أنها مصدر للتشريع، وهٰذا غير صحيح، فإن التاريخ الإسلامي هو عمل الحاكمين لتنفيذ الإسلام، وهٰذا العمل قد يكون خطأً وقد يكون صواباً. وكما أن الفقه الإسلامي غير معصوم لأنه هو عمل العقل الإسلامي في استنباط الأحكام من أدلتها ـ وفيه الخطأ والصواب ـ فكذٰلك التاريخ الإسلامي.

◎ لا نقول بأن التاريخ مصدر من مصادر التشريع.

⊙ نعم.. لا نقول هٰذا، وقد يقع بعض الحكام في أخطاء كثيرة، يجب أن نضع في اجتهادنا الآن كيف نتجنبها.

***

مفهوم التراث

◎ .. هناك في الحقيقة كلام طويل في قضايا التاريخ وقضايا التراث، فبعض الناس في تعريفاتهم للتراث ـ الذي يعني كل قديم موروث سواء أكان اجتهاداً بشريًا أم وحياً سماويًا، قد يصلون إلىٰ اعتبار الكتاب والسنّة من التراث، يعني ما ورثه اللاحقون عن السابقين.. ممكن أن يأخذوا ويدعوا ما يشاءون منه.. وبعضهم يفرِّق بينه فيقول: إن التراث هو فهوم المسلمين من الكتاب والسنّة ـ القابلة للخطأ والصواب ـ أما الكتاب والسنّة فهما وحي الله، ولا يمكن أن يخضعا للمقاييس والمعايير التي يقوّم بها التراث من حيث الخطأ والصواب.

⊙ من ناحية اللغة تحتمل كلمة الكتاب والسنّة أن تكون تراثاً من المواريث.

◎ تراث النبوّة ما جاء عنها..

⊙ نعم.. ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:٣٢] وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أنتم هنا وتراث محمد يوزَّع في المسجد». فتراثنا الذي حملته الأمة العربية هو أساساً رسالة سماوية.. كتاب جاء من عند الله، ونبي ملهَم سدَّد الله خطاه في حركاته وسكناته كلها، فهو عن عصمة أرشد وألهم، ولذلك نحن نرىٰ أن الكتاب والسنّة مصدران رئيسان لا بد منهما، ولا بد من إحاطتهما بهالة من التقديس، لأنهما حياتنا الروحية، وكل تفريط في الكتاب والسنّة هو خروج الشيء عن حقيقته.

◎ أي أن مصطلح التراث الذي شاع في أذهان بعض الناس، الذي هو ما ورثه اللاحقون عن السابقين من فهوم غير ملزم لا ينطبق علىٰ الكتاب والسنّة.

⊙ هٰذه الفهوم ينطبق عليها مصطلح التراث الذي يمكن الاهتداء به، أما الكتاب والسنّة فقضية لا ينطبق عليها هٰذا المصطلح.. فهي شيء معصوم لا بد من احترامه، وهي فوق المساءلة والمناقشة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب:٣٦].. ويقول سبحانه وتعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات:١].. فإذا قال الله تعالىٰ أو قال رسوله ﷺ انتهىٰ الأمر.

ونحن نحترم صحابة رسول الله ﷺ لأنهم جزء من الرسالة ومن كيان النبوة، وخير القرون القرن الأول وبعده القرن الذي يليه. فالرسول ﷺ مات ورسالته محصورة في الجزيرة العربية ـ مع أنها من الناحية العلمية رسالة عالمية ـ فمَن الذي أعطاها الامتداد العالمي والطابع العالمي؟! هٰؤلاء الصحابة الذين ربّاهم محمد ﷺ وأحسن تربيتهم هم الذين نقلوا الإسلام من جزيرة العرب إلىٰ أفريقيا وآسيا، ولا ننسىٰ أنهم كانوا أقدر وأنضج وأجدر بالحياة، وأكثر صلابة من أتباع الأنبياء السابقين، فأتباع عيسى عليه السلام عندما صدر الأمر بالقبض علىٰ عيسىٰ أعلنوا إنكارهم لمعرفتهم به، وأولهم بطرس، وقال: أنا ما رأيته ولا أعرفه، بينما وجدنا أن أصحاب محمد ﷺ في حياته وبعد مماته كانوا أشدَّ الناس وفاءً له ومدًّا لتراثه، فهم الذين حققوا العالمية، وهدموا أكبر إمبراطوريتين في التاريخ في وقت واحد، فلم تمضِ سنون عشر بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام حتىٰ كانت الإمبراطورية الفارسية قد تلاشت، ثم لحقتها الإمبراطورية الرومانية في آسيا الصغرىٰ وفي الشمال الأفريقي كله، وانحصرت تقريباً في أوروبا وبعض آسيا.. فالذين صنعوا هٰذا لهم مكانتهم.. ويؤسفني أن العدوان علىٰ صحابة رسول الله ﷺ مقصود.. وقد سمعت إذاعة من الإذاعات الأجنبية، وُجّه لها سؤال عن تاريخ خالد بن الوليد، وكاد المذيع ـ وقد عرفت بعد أنه غير مسلم ـ كاد يرىٰ خالداً رجلاً فاتكاً، وأخذ يدندن بأنه قتل مالك بن نويرة وأخذ امرأته، ثم سلبه كل عبقرياته العسكرية وكل أمجاده في هدم أطغىٰ إمبراطورية في الدنيا ـ الإمبراطورية الرومانية ـ وهٰذا في الحقيقة تزوير للتاريخ.

وأيضاً عندما يقال: إن عمرو بن العاص كان خطّافاً أو شيئاً من هٰذا،

فإن ذٰلك شيء خطير، لأن معنىٰ تلويث الصحابة تحت عناوين شتىٰ، يعني أن محمداً ﷺ لم يُحسن التربية، وأنه أطلق أناساً طلاب مآرب وليسوا أصحاب تقوىٰ، مع أن الشعوب ما تعلَّمت الإيمان والتقوىٰ إلا من هٰؤلاء الفاتحين..

❋ ❋ ❋

الموقع الفاعل

◎ ننتقل الآن إلىٰ نقطة أخرىٰ من الحوار تتعلق بقضية الدعوة وبالعاملين للإسلام من خلال الظروف المحيطة..

كيف ترون الموقع الفاعل بالنسبة للعاملين للإسلام ولقضية الدعوة في هٰذا العصر، الذي بدأت تحكم وتتحكم فيه الموازنات الدولية، وتتركز فيه ابتكارات التكنولوجيا في خدمة السلطة والسلطان؟

⊙ أنا لا أظن الأمر أتىٰ بجديد في عصرنا هٰذا، علىٰ معنى أنه إذا كان التيار الإسلامي الآن عندما يتحرك يشعر بأن أمامه جنادل، وأن أسواراً هائلة تحجبه عن الانطلاق وأداء رسالته، فإن هٰذه العوائق هي ذاتها التي اعترضت صاحب الرسالة أول ما قام يدعو، ما أحد يصدق أن شعباً كشعب الصحراء يشبه في قدراته العقلية والنفسية أي شعب من شعوب العالم المتخلف الآن، يمكن أن يحمل رسالة كبيرة، ولٰكن مع عظمة الداعية ومثابرته وتلطفه، ومضائه علىٰ أمر الله واستهدائه بنور الله وانتظاره لنجدات الله.. مع هٰذا كله بدأ الأمر يتغير وفق الخطة التي يضعها القدر لتنفيذ قوله جلّ شأنه:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات].

فإذا كان التيار الإسلامي الآن تحيط به حدود غليظة من التخلف العلمي والحضاري والتخلف العسكري والمدني، فإنه لا يجوز أن يكون هٰذا دافعاً لليأس.

◎ الحقيقة، أنا لا أعني الوصول لمرحلة اليأس ولٰكن أقول: إنه من خلال الظروف المحيطة، ما هي المواقع التي يفكِّر بارتيادها الآن لمواجهة هٰذه الظروف؟.. فاليأس يعني التوقف والسقوط والاستسلام.. ونحن لا نقول بالاستسلام، وإنما نقول بأن الداعية المسلم يجب عليه أن يفقه الظروف من حوله، وأن يحسن تخيُّر الموقع الذي يمكن أن يكون أكثر فاعلية من خلال هٰذه الظروف.

⊙ نعم.. لذٰلك أرىٰ أن يبدأ الداعية المسلم بإصلاح بيئته وإعدادها إعداداً نفسيًا وعقليًا لتكون منطلقاً إلىٰ ما بعدها.. وكلما أصلح جزءاً من الأرض التي يقف عليها بقدميه انتقل إلىٰ آخر، وضمّ إلىٰ قديمه جديداً لتتسع الرقعة التي ينطلق منها إلىٰ العالم كله، وعليه ألّا يكون مقلداً تقليداً حرفيًا لحركات الإصلاح الأولىٰ، فإن التغيرات التي حدثت في العالم تجعله الآن حذراً ومقدراً لأبعاد ما يقول.

إن الكلمة الآن تقال في جزيرة العرب، فلا تمر بها ساعات حتىٰ تكون في القارات الخمس منقولة هنا وهناك، فربما تصدر الفتوىٰ يقصد بها بيئة داخلية، فتنتقل إلىٰ الخارج فتكون سبباً في تعويق مسيرة الدعوة الإسلامية.

أريد أن يعلم أيضاً أن هناك الآن وسائل جدَّت، الإعلام الآن أصبح فنًا، وأصبح من الممكن عمل أشياء كثيرة لجعل كلمة الإسلام تتردد بعدة صور وبعدة أساليب، فن الكتابة أصبح فنًا فعلاً، له رجاله الذين يتقنون أن يبلغوا أعماق النفوس، والله سبحانه يقول: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾ [النساء].. كيف تقول القول فيبلغ أعماق النفس البشرية؟ الآن حتىٰ الصورة أصبح لها تأثير.. والخبر أصبح له فن، كل هٰذا يجب أن يتوفر لمَن يتعرضون للعمل في الميدان الإسلامي، المنطلق الفاعل أنهم أصحاب إيمان بالله يعملون له ويستمدون منه، وأنهم يعرفون ما جدَّ في العالم من أساليب.. وما جدَّ في العالم من أساليب يشبه ما جدَّ في العالم من أسلحة، فالارتباط بالأسلحة القديمة جنون والارتباط أيضاً بالخطوات القديمة جنون، الحركة تحتاج إلىٰ ذكاء ولباقة وفكر.

من هنا فأنا محتاج إلىٰ إنسان تكون خصائصه العقلية مرنة، ويستطيع أن يتحرك بالإسلام في مواطن كثيرة.

❋ ❋ ❋

فلسفات سحابية

◎ نعم لأنه في الحقيقة يخشىٰ ـ بعجز المسلم عن إبصار الساحة التي يتعامل معها ـ أن يعلن عن قضايا كبيرة فلا يستطيع من خلال إمكاناته أن يحققها فيقع في شيء من الإحباط، ويوقع الآخرين بشيء من الانكسار، والذي أردته أن يكون عنده فقه للصورة التي يتعامل معها من خلال إمكاناته المتوفرة، ومن خلال الفرص المتاحة له.

⊙ بعض الناس عندما يعتنق دعوة الإصلاح الإسلامي، يكون أول ما يفكر فيه ضرب الحاكم، هٰذا إنسان فيه بلاهة، لأن آخر ما يفكر فيه المصلح تغيير أجهزة الحكم.. طبعاً الآن هناك إصلاح في البيت، وإصلاح في الشارع، وإصلاح للتقاليد، وإصلاح للأخلاق، وهناك أمور كثيرة جدًّا قبل أن تصل إلىٰ الديوان الذي تجلس فيه لتحكم.. لماذا نتخطَّاها كلها ولا نفكر فيها، ولا نفكر إلا في أن نذهب إلىٰ الديوان لنجلس فيه ونحكم.. الذي ينسىٰ الطريق الطويل قبل الوصول إلىٰ ديوان الحكم، وكل تفكيره وهو يبدأ أول الطريق أن يتجاوز المسافة الطويلة العريضة ليصل إلىٰ الديوان، إنسان أستطيع أن أتهمه في نيته إن لم أستطع اتهامه في عقله، فكِّر أولاً في الدعوة الإسلامية، الدعوة الربانية التي أساسها معاملة الله، وإذا كان الناس في أوروبا يقولون: أنا لا صلة لي بمسلك الإنسان الشخصي، ليكن سكيراً، ليكن مقامراً وفاسقاً، هٰذا مسلك شخصي له، وما يهمني هو عمله للدولة وعمله للمجتمع.. فهٰذا الكلام لا يمكن فهمه من الناحية الإسلامية.. الله سبحانه وتعالىٰ أمر بأن أُصلح نفسي، وعلىٰ ضوء إصلاحي لنفسي أُصلح الناس.. يعني مع تجاربي في إصلاح نفسي أُصلح الناس.

◎ وقد يكون بعضهم ـ في الحقيقة ـ صاحب نية سليمة وصحيحة، لٰكنه عاجز عن إدراك الصورة التي يتعامل معها فيندفع إلىٰ بعض المواقف التي توقعه في الإحباط والانكسار وضياع القضية أصلاً..

وتبقىٰ نقطة أخرىٰ: إن بعض المسلمين في هٰذه الأيام يعتقد بأن ساحة العمل الإسلامي مقتصرة علىٰ درس بالمسجد وعلىٰ خطبة علىٰ المنبر، وعلىٰ زي معين يلبسه وأن يخرج في يوم من أيام الأسبوع إلىٰ قرية مجاورة أو ما إلىٰ ذٰلك، وأن هٰذا هو الإسلام وهٰذه أبعاده لدرجة ينفصل معها عن المجتمع وعن الدراسة وعن العلوم العصرية، وقد يدع بعضهم الجامعات في سنة متقدمة اعتقاداً منه بأن قضية الدعوة أهم، وأن قضية الدعوة هي قضية أخرىٰ مقابلة لما هو فيه، فهو عاجز أيضاً عن أن يرىٰ الدعوة من خلال نبوغه واختصاصه العلمي وقدرته علىٰ اعتلاء المنابر الفاعلة في المجتمع.

⊙ هٰذه مشكلة فعلاً اعتورتنا ونحن ندعو للإسلام، ووجدنا أن بعض الناس اعتنقوا فلسفات سحابية غريبة، جعلتهم يختصرون الطرق وبدل أن يذهبوا ليتزودوا بالعلم لكي يخدموا دينهم في الميادين الرحبة، ظنوا فعلاً أن الدين هو هٰذه الركعات في المسجد، وهٰذه السلبيات التي يعيشون في داخلها في قوقعة، هٰؤلاء الناس محتاجون لِمَن يوسع فقههم، وماذا أستطيع أن أقول لرجل يحب الجهاد ويحرص علىٰ أن يكون الجهاد فوق صهوة الخيل وبالسيف؟ ماذا أقول لهٰذا المخلوق إذا كان طيب القلب ويريد أن يموت شهيداً وعقد العزم علىٰ أن يكون مجاهداً في سبيل الله؟ لماذا لا يعلم أن الجهاد الآن له كليات للبر وللبحر وللجو، وأن الجهاد أصبح علماً له امتدادات علمية تكاد تشمل كل شيء في الحياة العامة؟ مثل هٰذا المخلوق يجب أن نفتق ذهنه بأي طريق حتىٰ يعقل، وإذا كان بعض الناس مغلقاً لأنه من النوع الذي يقول فيه الرجل الصالح:

«من أصحابي مَن أرجو دعوته وأرفض شهادته» يعني «تقي» لٰكنه لا خبرة ولا فقه لديه، فإنه يلزم حدَّه فلا يشتغل بالدعوة، يكفيه بأن يأمر

بالمعروف في حدود ما يعرف من المعروف، وينهىٰ عن المنكر في حدود ما يعقل من منكرات، أما أن يعمل للدائرة الإسلامية الكبيرة التي تجعل رب العالمين ينزل كتابه هداية للعالمين فهٰذا دون هٰذا المستوىٰ، ومن الخير أن يلزم كل منا مكانه.

إن مواهب الناس كثيرة ودون طعن في أحد، فأبو ذرّ سيدنا ـ ورحم الله أبا ذرّ ـ ولٰكنه لا يصلح للعمل الإداري، وعندما طلب أن يكون عاملاً أو أميرا في مكان من الأماكن صارحه الرسول ﷺ بأنه ضعيف لا يصلح للعمل الإداري، وقال له: «**هٰذه أمانة، وإني أراك ضعيفاً**» ـ وهٰذه الأمانة ستكون يوم القيامة خزياً وندامة إن لم يأخذها بحقها ويؤدي الذي عليه فيها ـ فقد تكون مواهب الإنسان فنية فيستطيع أن يكون عالماً كبيراً في ناحية من النواحي، ولٰكن لا طاقة له بالناحية الإدارية، فالرياسة والقيادة العسكرية فن.

لقد دخل خالد بن الوليد الإسلام بعد أربع سنين فقط من النكبة التي نزلت بالمسلمين في «أُحد»، ومع ذٰلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام رأىٰ إخلاصه وقدَّر مواهبه، وعرف إمكانات الرجل الكبير بعدما حسن إيمانه، فقلّده القيادة وجعله من سيوف الله المسلولة علىٰ أعداء الله، بينما يوجد ناس كثيرون بقوا في وظيفة العمل العادي لأن هٰذه مواهبهم.

◎ استعدادات وقدرات فردية..

⊙ نعم، فكون أحدهم طيباً، يرىٰ ـ لأنه طيب ـ أن يكون طليعة المسلمين؟! لا، هٰذه مواهب وزّعها الله علىٰ عباده.. فقد أصلح أنا شخصيًّا لشيء وأجوّد فيه، وأفشل في شيء آخر وأكون أقل من العادي، فلا معنىٰ لأن أضع نفسي حيث لا أصلح. فالعمل للإسلام يحتاج إلىٰ رجل له بصيرة، وقائدٍ أيضاً له بصيرة يستطيع أن يصنف الناس الذين معه ويوزعهم علىٰ الأعمال التي يحتاجون إليها.

ومن البلاء الجسيم ـ وقد حدث هٰذا في وقعة من وقعات فتح فارس ـ أن رجلاً محبًّا للشهادة، قاد الجيش فقتله، لأنه محب للشهادة ـ في وقعة

الجسر أظن ـ وكان الانهزام شديداً للمسلمين. . لا. . الأمر غير هٰذا. . خالد بن الوليد لما وجد أن المعركة غير متكافئة في «مؤتة» انسحب، فأنا أعطي القيادة عَمْراً وأعطيها خالداً. . من أصحاب الكر والفر، من أصحاب القدرة علىٰ الانطلاق وعلىٰ العودة لأنه لا يريد ـ مجرد ـ أن يموت، بل يريد أن يحيا لدينه وأن يموت لدينه. . فالقصة ليست قصة موت وانتهىٰ الأمر، القصة قصة كيف أخدم الإسلام وأضع الحسابات، فإذا جاء بعض الناس الطيبين وأحبَّ أن يقود أو أن يكون أمير جماعة لأنه مخلص وانتهىٰ الأمر ـ لا ـ لا يصلح هٰذا، بل يجب أن يُعطىٰ حقه الطبيعي في مكانه التوجيه العلمي أو التوجيه الشخصي أو ما إلىٰ ذٰلك، وله أن يلزم مكانه ولغيره أن يتقدم.

❋ ❋ ❋

ستنضج الزروع

◎ **في الختام أرجو التكرم بتوجيه كلمة نصح للعاملين في حقل الدعوة إلىٰ الله.**

⊙ أطلب من إخواني ـ الذين شرّفهم الله بالعمل في ميدان الدعوة الإسلامية ـ أن يصمدوا وأن يرابطوا في أماكن الدفاع عن عقيدتهم، وعن مقدساتهم، حتىٰ يحرزوا النصر ويسلموه إلىٰ أولادهم وأحفادهم كي يتموا المشوار كما يقال، إن المرابطين الآن في ميدان الدفاع عن الإسلام ودعوته يتحملون الكثير من العنت والكثير من الإرهاق، لٰكن لا أزال أذكر نفسي وأذكر غيري بقوله تعالىٰ:

﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ﴾ [النساء: ١٠٤]. . لتكن التضحيات كثيرة. . لتكن الآلام مترادفة، لٰكن علينا أن ننطلق ونمضي ونؤدي ما علينا ونحن الكاسبون، وكما أمر الله المجاهدين دائماً أن يتوقعوا أحد أمرين ـ والحسنىٰ في الأمرين معاً ـ قال لهم:

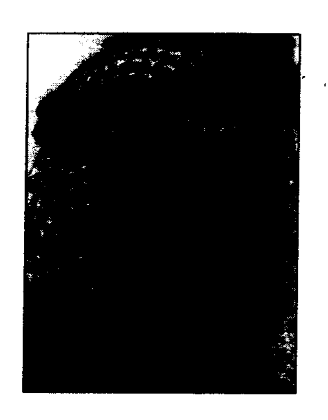
﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ (٥٢)﴾ [التوبة].

ومع الزمن ستنضج الزروع، وتتحق النتائج، ولأمرٍ ما نجد سورة «هود» ختمت بهٰذه الآيات:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ (١٢١) وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾.

جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ ـــ ١٤ آذار (مارس) ١٩٨٤م

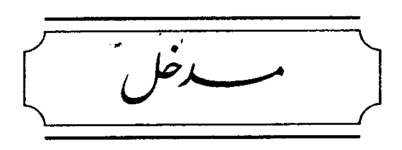




المســلمون

من التكديس إلى الإبـداع الحضاري

الدكتور محمود محمّد سفر



مدخل

■ من مواليد مكة المكرمة عام ١٩٣٩.

■ حصل علىٰ بكالوريوس الهندسة المدنية من جامعة القاهرة عام ١٩٦٤.

■ وعلىٰ شهادة الدكتوراه من جامعة ولاية كارولينا الشمالية عام ١٩٧٢، وكان حقل تخصصه الدقيق ميكانيكا التربة وهندسة الأساسات في فرع الهندسة المدنية.

■ عيِّن عضواً بهيئة التدريس بكلية الهندسة في جامعة الملك سعود (الرياض سابقاً) وعميداً لشؤون الطلاب ـ إلىٰ جانب عمله الأكاديمي ـ وأميناً عامًا للمجلس الأعلىٰ للجامعات، ووكيلاً لوزارة التعليم العالي، وعضواً في المجلس الأعلىٰ لرعاية العلوم والفنون والآداب، وأول رئيس لجامعة الخليج العربي بالبحرين، وله عدد من البحوث والمؤلفات.. فمن بحوثه:

ـ التكنولوجيا نقل أم استنبات؟

ـ التعليم التقني ضرورة وتحدٍّ.

ـ منظور حضاري لقضايا الترجمة والتعريب.

ـ التقنية والبدء الحضاري.

ـ اللغة العربية والحضارة المعاصرة.

* * *

ومن مؤلفاته

«التنمية قضية»، «الحضارة تحدٍّ»، «الإعلام موقف»، «إنتاجية مجتمع»، «للمستقبل صورة»، «ثغرة في الجدار المسدود» (بالمشاركة).

يرىٰ: أن المنهج الأفضل في نشر الدعوة والعمل الإسلامي يقوم علىٰ الأسس التالية:

١ ـ الإيمان القوي بأنه لا بديل عن الحل الإسلامي لكل مشكلاتنا وقضايانا، علىٰ أن يتبع ذٰلك ويواكبه تنظيم أمور حياتنا وبرمجة أعمالنا؛ للاستفادة من الصحوة بصورة فعالة وشاملة، تعيد إلينا الثقة والأمل، وأن نصبر ونصابر في هٰذا السبيل.

٢ ـ تصحيح النظام التعليمي بحيث يكون نتاجه إسلاميًّا معاصراً يمكن من خلاله إعداد الفرد المسلم الملتزم الذي يتحدث لغة العصر ويتحاور مع الحضارة الغربية من موقع الفهم والإدراك والنقاش والتعديل والإضافة.

٣ ـ إعادة النظر في إعداد العلماء والمتخصصين بهدف بناء الإنسان المتكامل؛ ليكون قادراً علىٰ العطاء وعلىٰ استيعاب المفاهيم المعاصرة في شتىٰ مجالات الحياة، وعلىٰ التفاعل الإيجابي البنّاء مع مجتمعه.

وفي الوقت ذاته عقد لقاءات مستمرة بين العلماء والفقهاء لسد أي فراغ قائم نتيجة المنهج الحالي في إعداد كل من علماء الدين وإعداد المتخصصين في مختلف فروع المعرفة.

٤ ـ أهمية وضرورة توفر القدوة الحسنة من خلال رجال ملتزمين مخلصين قادرين يقودون الأمة في مسيرة الإصلاح وعمارة الأرض، هٰذا إلىٰ جانب اعتبار أن كل مسلم ومسلمة إنما هو داعية في نظر الإسلام عليه أن يأمر بالمعروف وأن ينهىٰ عن المنكر. كما أن كلنا راعٍ وكلنا مسؤول عن رعيته، كلٌّ في مجال عمله ومسؤولياته في الحياة.

٥ ـ الاهتمام بالإعلام الإسلامي كعامل رئيس، ويشمل ذٰلك وسائل

التوعية المختلفة، بما فيها خطباء المساجد والوعاظ، وليست الأجهزة الرسمية فقط.

٦ - التحرك البنّاء لمواجهة مختلف القضايا التي تواجه الإسلام والمسلمين بتنظيم لقاءات للمتخصصين في مختلف ميادين المعرفة، لتوحيد التعاريف والمصطلحات كبداية لبدء جهد منظم يأخذ زمام المبادرة في مجال العلوم الإنسانية، وطرح حلول إسلامية لكثير من القضايا الاجتماعية التي يعيشها مجتمع المسلمين، ومثال ذٰلك الباحثون والمتخصصون في الاقتصاد الإسلامي. . وغيره.

٧ - توثيق الصلة بين الشباب المؤمن الملتزم وعلماء الدين وصانعي القرار من القيادات العليا المسؤولة.

ونحب أن نؤكد أن ما سنعرض له من حوار مع الأخ الدكتور محمود لا يحقق المعرفة الكاملة لأبعاد المشروع الحضاري الإسلامي الذي يساهم في تخطيطه وإغنائه وإبراز معالمه وبيان شروطه، ونرىٰ أن هٰذا الحوار لا يغني عن الرجوع إلىٰ كتبه لا سيما كتابَي «الحضارة تحدٍّ» و«ثغرة في الطريق المسدود» الذي شاركه فيه الدكتور سيد دسوقي، إضافة إلىٰ مقالاته المنشورة في الصحف والمجلات العربية عن القضية الثقافية في العالم الإسلامي، خاصة وأن له من التجربة الميدانية في مجال العمل الأكاديمي والتربوي ما يمكنه من اختبار الكثير من جدوىٰ الطروحات التي تغطي الساحة الإسلامية اليوم.



المقدمة

■ استعادة الأمة المسلمة لدورها الحضاري على الصعيد الإنساني، والقيام بأعباء الاستخلاف في تعمير الأرض وفق منهج الله تعالى، وحمل الخير والرحمة إلى العالمين، أداءً للأمانة وإبلاغاً للرسالة، هو الهاجس الدائم والمؤرق لكل مسلم يدرك الأبعاد الكاملة لمعنى إسلامه، ويعي مهمته تجاه العالم.

ومن نِعَم الله تعالى على هذه الأمة المسلمة أنه لم يجعل تسلط الأعداء عليها تسلط استئصال، وإنما تسلط يشعرها بالتحدي، ويجدد فاعليتها، ويدفعها إلى اليقظة لتبقى الفرصة متاحة في كل حين للعزمة الصادقة على النهوض، ولتبدأ عملية الإقلاع الحضاري من جديد.

وعملية الإقلاع الحضاري هذه لها معالم لا بد من الانتهاء إليها، كما أن لها شروطاً لا بد من توفيرها والتحقق بها، من هنا نقول: إنَّ من الأمور الهامة جداً أن يعرف المسلم دوره، ويحدد موقعه بدقة، ويستشعر مسؤوليته في الإنجاز الحضاري المطلوب؛ ولا يسوِّغ السقوط والركود وانطفاء الفاعلية بإلقاء التبعة على الآخرين مهما كانت مواقعهم. ■



الدورات الحضارية

◎ كثيراً ما يثار الكلام حول «الدورات الحضارية» كمقياس صارم في تفسير النهوض والسقوط الحضاري، في حين نجد أن الحضارة الإسلامية ـ التي أساسها الإنسان المسلم، ومن خلال ملامح بسيطة ـ استطاعت النهوض في أكثر من فترة من فترات التاريخ، وكانت قادرة علىٰ شيء من التواصل الحضاري، ولو أن مساحته اختلفت من عصر لآخر..

من خلال اهتمامكم بالقضية الحضارية؛ إلىٰ أي مدًى يمكن أن ينطبق هٰذا المقياس علىٰ الحضارة الإسلامية؟ وبأي شيء تختلف هٰذه الحضارة عن سائر الحضارات؟

⊙ الحضارة الإسلامية ليست حضارة فردية نابعة من فكر شخص أو من فكر مجموعة أشخاص، كما أنها لم تنبثق عن عقيدة موضوعة من قبل مفكرين أو عباقرة.. الحضارة الإسلامية حضارة تستند إلىٰ قيم ومبادئ، وتنطلق من عقيدة ربانية، عقيدة التوحيد التي حملها نبي الهدىٰ ﷺ بوحي من ربّه سبحانه وتعالىٰ، خالق الكون ومدبِّره، والقادر الأوحد علىٰ معرفة ما ينفع خلقه وما لا ينفع.. من هنا جاء تميُّز الحضارة الإسلامية، بكونها مستندة في منطلقاتها أساساً لشروط موضوعية نابعة من الذات الإنسانية بوحي إلٰهي، بمعنىٰ أنه إذا لم تتوفر هٰذه الشروط الموضوعية من حيث الالتزام العقيدي، ومن حيث المنهج الأخلاقي، ومن حيث الأسلوب التربوي، لم تقم هٰذه الحضارة..

الحضارات الأخرىٰ جاءت نتيجة فلسفات، اجتهادات، محاولات بشرية الهدف منها في نهاية المطاف: ربما الإصلاح، وهي هنا تلتقي مع الحضارة الإسلامية علىٰ هدف الإصلاح، لٰكن إصلاحاً قد يختلف عن إصلاح.. منطلقات الإصلاح في الحضارة الإسلامية، أو عمارة الأرض، محور الارتكاز؛ عندما خلق الله تعالىٰ الإنسان خلقه لأهدافٍ منها: عمارة الأرض، وهٰذا يجعل الحضارة الإسلامية متميزة علىٰ غيرها من الحضارات

الأخرىٰ، في منطلقاتها وأسسها ومبادئها بالدرجة الأولىٰ؛ كما أنَّ ديمومتها واستمراريتها مرتبطة بالضرورة بالشروط الموضوعية التي يجب أن تتوفر لتبقىٰ الحضارة الإسلامية قائمة، لذا لا بد أن تزتبط بقدوة، بمجموعة من الرجال الملتزمين المخلصين القادرين، الذين ينفرون خفافاً وثقالاً ليقودوا أمتهم في مسيرة الإصلاح المتصلة وعمارة الأرض؛ إذا لم تتوفر هٰذه النوعية من البشر لا توجد حضارة بالمعنىٰ الإسلامي؛ قد توجد فنون وأعمال ونوع من الآثار التي لا نستطيع أن نسميها حضارة.. الحضارة الإسلامية فيها نَفَسٌ روحي، فيها بشر، فيها قدوة، فيها ناس يقودون مركبة الإصلاح.

الحضارة الغربية المعاصرة مثلاً ـ إن جازت المقارنة ـ نجدها تعيش علىٰ قوىٰ الدفع السابقة التي وضعها أقوام سابقون، ولم يبرز في صفوف الغربيين مَن يواصل مسيرتهم، لذٰلك فقدت هٰذه الحضارة جزءاً أساسياً لازماً لاستمراريتها وديمومتها من حيث قيادة منهج الإصلاح، رغم وجود بعض المحاولات من بعض عقلاء الغرب لتصحيح بعض المفاهيم التي انجرفت عنها مركبة الحضارة الغربية المعاصرة، لٰكن القضية تظل مرتبطة بانفصال الدولة عن الدين كمنطلق أساسي من منطلقات هٰذه الحضارة، إذ جعل الجانب المادي فيها يطغىٰ بصورة ملموسة علىٰ الجانب الأخلاقي العقيدي الموجود فيها، والذي يجب أن يظل فيها منطلقاً رئيساً من منطلقاتها..

هٰذه ـ في ظنّي ـ أبرز مميزات الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات.

❋ ❋ ❋

التواصل الثقافي

◎ هل يمكن أن نعتبر التواصل الحضاري ـ إن صحّ التعبير ـ متحققاً من خلال الجماعة القائمة علىٰ الحق، والمدائمة التي تختلف مساحتها من عصر لآخر، تحمل روح الحضارة وخميرتها، وتقوم بعملية النقل

الحضاري، وهي الجماعة التي أخبر عنها الرسول ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق»؟ وهل هٰؤلاء هم البذور الحضارية أو المشاعل الحضارية؛ بمعنىٰ أن الحضارة الإسلامية لم تعانِ من الانقطاع والسقوط الحضاري؟

⊙ نعم، هٰؤلاء هم المشاعل، وهم الذين يزيدون زخم الحضارة الإسلامية ويمدونه بزاد عقيدي، بزادٍ تَقَوِيٍّ يجعلها مستمرة، فهي ليست بشراً فقط، لٰكنها بشر ذوو مستوًى أخلاقي ثقافي، يترجمون ما يعتقدونه من خلال أعمال، ومن خلال تصرفات في مختلف نواحي الحياة، لذٰلك خضعت الحضارة الإسلامية كغيرها من الحضارات إلىٰ ما يعرف بالدورات الحضارية، الأسلوب نفسه، والطريقة نفسها، لٰكنها اختلفت عنها من حيث المحتوىٰ والرموز والأهداف الأساسية، إنها مختلفة اختلافاً جذريًّا عن الحضارات الأخرىٰ في هٰذا، لذٰلك فالمقارنة بينها قد لا تكون حرفية، سواء في ذٰلك الحضارة الغربية المعاصرة، أم الحضارات التي بادت واندثرت كالرومانية واليونانية والفارسية..

❋ ❋ ❋

مقومات الخلود

◎ هٰذا يعني أنَّ الإنسان الحر المكلَّف هو أساس الحضارة في الإسلام، ويعني أيضاً أنَّ قابلية الإقلاع الحضاري مرتبطة بجهده وكسبه، وأنَّ عناصر الخلود في الحضارة الإسلامية الموحىٰ بها موجودة ومستمرة؛ لذٰلك نستطيع القول: بأنَّ الحضارة الإسلامية تختلف في عوامل النهوض والسقوط عن الحضارات الأخرىٰ؛ هناك حضارات كثيرة سادت ثم بادت لعدم وجود عناصر الخلود فيها، ولعدم اعتمادها الأساس الذي هو الإنسان.

⊙ نعم، هٰذا ما أردت قوله، مع التنبيه إلىٰ أن مقومات الخلود في

الحضارة الإسلامية موجودة، غير أن قضية الصعود والهبوط، والتطور والانحطاط، ترتبط ارتباطاً أساسيًا بمدىٰ الجهد الذي يبذله الإنسان المسلم السويّ، الحر المكلَّف، في أدائه للأمانة ـ أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض ـ ولو درسنا التاريخ الإسلامي لوجدنا أنه كلما بذل المسلم جهده، وأدّى واجبه، كان النهوض الحضاري، ومتىٰ توارىٰ هٰذا الجهد كان الانحطاط الحضاري.. إلَّا أنَّ الحضارة الإسلامية لا يمكن أن تموت أو أن تندثر، من هنا فهي في هٰذا تختلف عن قانون الدورات الحضارية المعروف.

... هنا يمكن لنا أن نستشهد بشيء مما أشار إليه الرسول ﷺ بأنَّ الأمة المسلمة لا تُستأصل؛ ولٰكنها يمكن أن تمرض وأن يُسلَّط عليها الأعداء تسليطاً لا يستأصل شأفتها، ولٰكنه تسليط تحدٍّ ليثير همتها ويحركها نحو تجديد شبابها، ولقد تكرر ذٰلك في التاريخ الإسلامي.. بينما الحضارات الإنسانية الأخرىٰ كانت عاجزة عن النهوض، صحيح هناك حضارات استفادت من أصول حضارات أخرىٰ، لٰكن ـ كهوية حضارية متميزة ـ لا توجد حضارة سوىٰ الحضارة الإسلامية استطاعت الصمود والنهوض بعد الضعف لأكثر من فترة من فترات التاريخ، وفي أكثر من موقع من مواقعه.

***

سبيل الخروج من الحيرة الفكرية

◎ كيف يمكن في تصوركم الخروج من الحيرة الفكرية التي تتجلىٰ بوجود تيّارين الآن في العالم الإسلامي:

تيار الدعوة للعودة إلىٰ الفكر التراثي كوسيلة لا بد منها للخروج من الأزمة، بينما يرىٰ التيار الآخر أنه لا بد من الالتزام بمنطلقات الفكر المعاصر، هٰذا في الوقت الذي قد لا نرىٰ فيه ـ من حيث المحصلة

الحضارية، من حيث النتيجة، من حيث العطاء الحضاري ـ فارقاً بين هٰؤلاء وأولٰئك، والمعركة بينهما غالباً ما تكون معركة شعارات إلىٰ جانب بعض المظاهر السلوكية في التقليد والمحاكاة أكثر منها في القدرة علىٰ الإبداع؟!

⊙ أعتقد أن هٰذا التشخيص لواقع المسلمين من خلال هٰذين التيارين دقيق وسليم، ويحدد المشكلة ومعاناة المسلمين؛ لقد ابتلينا بقدرة عجيبة علىٰ أن نصنف أنفسنا، ونمزِّق أنفسنا أيضاً من الداخل تحت شعارات ومنطلقات، ونسينا المهمة الأساسية التي خلق الله ﷻ المسلم لأجلها في هٰذا الكون، وهي: دعوة الإنسانية إلىٰ الحق، والالتزام به قولاً وعملاً، وأصبحنا ننزلق في تيارات مختلفة، أو في تحليلات لتيارات مختلفة مقلِّدين بصورة مباشرة أو غير مباشرة، بوعي أو دون وعي، ما يحدث في الغرب، وفي الحضارات الأخرىٰ، وكأننا رَجْعُ الصدىٰ..

لذا ترانا نقول ـ دون تشبيه ـ: إنَّ هناك رجال دين، كما هو موجود في الكنيسة، يحافظون علىٰ الأصالة والتراث ونحو ذٰلك.. وهناك رجالاً عصريين، بفكر عصري ليبرالي حر يحاولون أن يعيشوا عصرهم..

هٰذه المقارنة غير واردة أصلاً، فالأمم تختلف، ومع ذٰلك وقعنا في المصيدة، نحن ليس لدينا رجال دين، هناك عالم متخصص نرجع إليه في القضايا، أي: إنه كالعين السحرية في المجتمع، يمر عليه خط الإنتاج، أي شيء يريد أن يفعله المجتمع لا بد أن يمر بخط الإنتاج علىٰ هٰذه العين، وهي تنظر إلىٰ المنتَج، هل يرقىٰ إلىٰ مستوىٰ المواصفات والقياسات الموضوعة المقنّنة أم لا؟ وذٰلك للمحافظة علىٰ سمعة هٰذا المنتَج وسمعة المصنع؛ فإذا مرّ بالعين السحرية هٰذه، نزل إلىٰ الأسواق واستُهلك، وبذٰلك نحفظ سمعة المصنع.. هٰذا التشبيه غير وارد حرفيًّا لكنني أردت فقط أن أُحدِّد وأُقرِّب الصورة.

آن لنا أن نتوقف عن اللهاث خلف الغرب وتقليد ما يحدث هناك.. آن لنا أن نحدد وبوضوح شديد دور الفقيه والعالم في المجتمع دون أدنىٰ

مجاملة، ولا دغدغة للعواطف نحو أي فئة من الفئات، آن لنا أن نحدد مواصفات مَن يتصدىٰ للقيام بهٰذا الدور، أن نعيد النظر في كثير من المناهج التي يُعد من خلالها العالم والفقيه بحيث يصبح إنساناً متكاملاً قادراً علىٰ العطاء.

نريد اليوم نوعاً من العلماء كالذين أفرزتهم الحضارة الإسلامية، وجعلتهم محببين إلىٰ النَّاس، هم يحبون النَّاس والناس يحبونهم، لا فجوة تفصل بينهم، لم يمسكوا بعصا ويُمْلُوا بواسطتها إرادتهم علىٰ المجتمع المسلم.. في المجتمع لا يوجد إنسان يختلف عن الآخر بالنسبة لأداء الحقوق والقيام بالواجب، الجميع سواسية بالالتزام أمام الله تعالىٰ، لا يوجد هناك طبقة حقوق وطبقة واجبات.. هناك إنسان يُذكِّر وإنسان يُرجع إليه..

ويمكن أن نذكر مثلاً علىٰ هٰذا: إذا أردنا أن نقيم نظاماً اقتصاديًا في المجتمع المسلم، لماذا نجعل الجزئية الواحدة التي ينصرف إليها الذهن بكليته هي الفائدة (الربا)؟ الاقتصاد الإسلامي أرحب من ذٰلك بكثير في مفهوماته وأسسه؛ لماذا لا نترك مطلق الحرية للشباب الإسلامي في أن يفكر ويعمل علىٰ تطوير النظام الاقتصادي؟ ثم نجمعه بالمتخصص في العقيدة والفقه، يمرر عليه هٰذا الإنتاج.. هنا خطأ، هنا منزلق، هنا احتمال للانزلاق، حيث يعود المتخصص إلىٰ مراجعة ذٰلك من جديد للوصول إلىٰ الأقرب لروح الإسلام.

آن لنا أن نستقطب المتخصصين من أبنائنا، القادرين علىٰ العطاء الجيد، والذين نتوقع منهم أيضاً أن يكونوا متخصصين، لا في الفقه والعقيدة، ولا في القضايا الإسلامية البحتة، ولٰكنهم متخصصون في مجالات أخرىٰ، في الاقتصاد، في السياسة، في الاجتماع.. هٰؤلاء نُطلق يدهم، ونجعل هناك نوعاً من اللقاءات المستمرة بينهم وبين المتخصصين في القضايا الإسلامية لكي نملأ الفراغ؛ لم تعد هناك إمكانية في أن يكون عالم الدين ـ كما كان في العهود السابقة ـ موسوعيًا، ملحمة ثقافية، يفهم في

الاقتصاد، وفي الفلك، وفي الحشرات، وفي أمور الدنيا والدين.. لم يعد هٰذا ممكناً الآن، فقد تفتت العلم فأصبح لكل جزء منه متخصص، ولا بد لكل واحد من هٰؤلاء المتخصصين أن يدلي بدلوه في مجال تخصصه، ويترك بعد ذٰلك لعلماء الدين أن يقولوا: هنا خطوط حمراء فلا تتعدوها، وما وراء ذٰلك فافعلوا ما شئتم.

❊ ❊ ❊

بين الفقهاء والعلماء المتخصصين

◎ أريد أن أستوضح هٰذه النقطة: فكرة العالم المتخصص وفكرة الفقيه، لا شك بأنَّ الفقيه يمكن اعتباره العين السحرية التي تحكم علىٰ كل ما يُنتَج من الناحية الثقافية أو الفكرية من قِبَل المتخصصين، فإلىٰ أيّ مدًى يستطيع الفقيه الذي لا دراية له كاملة بالعلم ومساره، أو بالمتخصص ودقائقه أن يكون عيناً سحرية والحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره؟!

من جانب آخر: المتخصص الذي لم يتحقق بالتصور الإسلامي الكامل، ولم تكن عنده المؤهلات والأطر التي يجب أن يُنتج من خلالها، أو المناخ الذي يمكن أن يُنتج من خلاله ليأتي إنتاجه متسقاً مع نظرة الإسلام للحياة والكون.. ألا يخشىٰ أن يقع نوع من الصراع والصدام، بأن يأتي بعض الفقهاء الذين لا دراية لهم بالمسارات العلمية، فيتوهمون أن بعض الإنتاج العلمي يمكن أن يتعارض مع الشريعة ـ وقد تنقلب الظنيَّات إلىٰ قطعيات بالنسبة لقضايا العلم، وفي تاريخنا شيء من هٰذا ـ وأن يتحول المتخصص إلىٰ فقيه يُفتي أيضاً؟ فهنا نخشىٰ أن يتكرر في الحياة الإسلامية ما وقع في العصور الوسطىٰ لدىٰ النصارىٰ (العلماء قالوا بكروية الأرض فقال رجال الدين: هٰذا كفر...) تدخلوا بغير اختصاصهم، وأفتوا دون علم فضلُّوا وأضلُّوا، ووقعت الكارثة،

وعوّقت المسيرة العلمية فترة من الزمن.. فكيف يمكن أن تُحَلّ هٰذه المشكلة؟

ويمكن أن آتي بمثال هنا: في المصارف الإسلامية هناك هيئة تسمىٰ بهيئة الرقابة الشرعية، بعيدة نوعاً ما عن المعرفة بالمعاملات المصرفية المتخصصة، وهناك هيئة الرقابة القانونية المتحققة بالأمور الاقتصادية المعاصرة، والبعيدة عن قضايا المعرفة المتخصصة بالشريعة الإسلامية، هنا قد تقع ازدواجية تسبب معاناة للمصارف الإسلامية، هٰذه المعاناة نشأت من عدم وجود المتخصص بالأعمال المصرفية والفقه الشرعي في الوقت نفسه.

⊙ هٰذه نقطة مهمة، وتخوُّفك في محله إن لم يُحسم في الذهن، وأنا أرحب بهٰذا النوع من الصراع ـ صراع الأفكار ـ بين الفئتين، لأنه في نهاية المطاف سيؤدي إلىٰ أن يكون الإسلام هو الرابح، عندما يحدث الصراع الفكري بينهما ـ فئة العلماء وفئة الفقهاء ـ فئة الفقهاء غير المتخصصين في قضايا معينة، وفئة المتخصصين في قضايا معينة.. هٰذا الصراع بحد ذاته مكسب كبير، يجب أن نرحب به ولا نخشاه، ففي الإسلام رحابة صدر، وسعة أفق، ومجال للحوار والمناقشة يثري الفكر الإسلامي بصورة فعَّالة وجادّة.

صحيح أنه قد لا توجد نوعية من العلماء قادرة علىٰ مجاراة المتخصصين في فهم كثير من خبايا الأمور، وبالتالي قد يصدر نوع من ردود الفعل العنيفة، أو من التحفظ، أو المقاومة من جانبهم تجاه الآخرين المتخصصين، والقضية هنا ببساطة لا تحتاج إلىٰ وقفات فلسفية، فالعلوم نوعان: علوم بحتة، لا دين لها ـ محايدة ـ ولا تخضع لمعيار أو هوية معينة، لها متخصصون، ولا تحتاج إلىٰ فتوىٰ أو إلىٰ تشريع، فلنزاحم الغرب فيها، وعندها ننهي هٰذه القضية، ونقفل ذٰلك الفصل، ونلتفت للقضايا التي هي أهم بكثير، وتنخر في جسم الأمة المسلمة بالغزو الفكري المركز من خلال المفاهيم الغربية في العلوم الاجتماعية..

كثير من طلابنا وأبنائنا الدارسين في بعض جامعاتنا وجامعات الغرب معرضون لها، ولم يبرز ـ للأسف ـ حتىٰ الآن البديل القوي الذي يمكن أن يُزاحمهم، لا في علم الاجتماع، ولا في علم التاريخ، ولا في علم الجغرافية، ولا في علم النفس، ولا في العلوم الاقتصادية وما يرتبط بها من تفريعات.

إذن: الخطر الأساسي أو نقطة التخوف هي في العلوم الإنسانية، في العلوم الاجتماعية، ورغم ذٰلك فللآن لم يبرز ذٰلك الجهد المنظم المقنن القادر علىٰ أخذ زمام المبادرة في هٰذا المجال، وطرح حلول إسلامية لكثير من القضايا الاجتماعية التي يعيشها مجتمع المسلمين.. لا نزال ندور في حلقة مفرغة، لا نزال أسرع استجابة للمفهوم الغربي وللثقافة الغربية، أو للمفاهيم الغربية بالنسبة للعلوم الاجتماعية.

إن أي محاولة تُبذل في هٰذا السبيل لكسر طوق التبعية شيء يجب أن نرحب به، حتىٰ ولو كان خطأ في البداية، مشكلتنا أننا نخشىٰ أن نبدأ حتىٰ لا نخطئ، وإذا بدأنا نتحفظ ونتخوف، ويمكن أن نقدم مثالاً علىٰ ذٰلك: الجهد الذي بُذل في الاقتصاد الإسلامي.. هناك مراكز أبحاث، فيها شباب لا يمكن أن يُشَكَّ في عقيدته، ولا في دينه، ولا في قدرته، ولا في علمه في مجال تخصصه، في جميع أنحاء العالم الإسلامي.. عندما تجمع هٰؤلاء الشباب حول مائدة، وتقول لهم: تعالوا، تناقشوا وتحاوروا في القضايا التي تبحثون فيها، ستجد حينذاك أن هناك كثيراً من التعاريف هم مختلفون عليها، فهم لم يستطيعوا أن يوحِّدوا التعاريف فيما بينهم، وأولىٰ الأوليات أن يجتمعوا ويوحِّدوا هٰذه التعاريف.. عندما نتكلم عن الفائدة، ماذا نقصد منها؟ أهي بمفهومها الغربي؟ أو بمفهومنا نحن؟ ما معنىٰ الربا؟ ما هي أنواعه؟

يجب أن يكون هناك نوع من التعاريف المحددة الراسخة التي تضيِّق شقة الخلاف حتىٰ بين المتخصصين أنفسهم، وهٰذه هي الخطوة الأساسية

التي يجب أن تحدث، ونتمنىٰ أن يعقد لقاء تتبناه جهة ما من الجهات المهتمة بقضايا الإسلام والمسلمين، وقضايا الأمة، تجمع فيه مجموعة من الباحثين في مجال الاقتصاد الإسلامي، وتجعل مادة النقاش أمامهم: توحيد التعاريف والمصطلحات في أبحاثهم فقط، وستعجب عندما تجد أن كثيراً من هٰذه الأمور مختلط، وكثيراً من المفاهيم غير موحَّد، واحد في الشرق، وثانٍ في الغرب.. هٰذه القضية يجب أن تُحسم.

وقضية أخرىٰ: مدىٰ استيعاب عالم الدين للمفاهيم الاقتصادية المعاصرة.. لا أكون مغالياً إذا قلت: إن جامعاتنا ومعاهدنا ومراكز تدريبنا لمّا تستطع حتىٰ الآن - ونحن علىٰ مشارف القرن الحادي والعشرين الميلادي - أن تخرج لنا نوعية من العلماء والفقهاء الذين يقرأون تعابير عصرهم ومفاهيمه.. من هنا نستطيع أن نُصدر حكماً بالفشل الذريع علىٰ كل هٰذه الجامعات والمعاهد والمراكز.

آن لنا ألّا نعزل العالم أو الفقيه عن بعض المفاهيم المعاصرة، وليكن فهماً أوليًا لغير المتخصص، ولا نتوقع منه أن يكون متعمقاً وإلّا أصبح رجل اقتصاد وعالم اجتماع..

هناك فجوة موجودة، وستظل، لٰكنني متفائل بأنه لن يكون هناك نوع من الصدام الفكري المميت الذي يشل الحركة، علينا أن نتمسك بمبدأ التخصص، عالم الدين أو الفقيه له دور محدد، ويجب ألّا نشكك فيه بحجة أنه غير قادر علىٰ استيعاب بعض المفاهيم، فإن كان غير قادر فهٰذا ليس خطأه، ولٰكنه خطؤنا نحن، خطأ جامعاتنا ومعاهدنا.

◎ هنا قد نعاني من مشكلة أيضاً، وهي من الحالات المرضية الموجودة في مجتمعنا، حيث نجد أن بعض مَن يُعَنْوَنُ لهم بالفقهاء، أو برجال العلم الديني أو الإسلامي تصل ببعضهم الأمور إلىٰ التدخل في قضايا العلم وإطلاق الأحكام بما لا يحسنون، وقد نجد العكس أيضاً.

⊙ هٰؤلاء جميعاً يجب أن يوقفوا، وأن يعرفوا أن دورهم غير ذٰلك.. يجب أن نحدد لكل منهم دوره، ونقول له: قف، العالم الآن أصبح

علم تخصص. ويجب أن تعرف دورك ومهمتك، دورك أن تكون العين السحرية التي تنظر في الإنتاج وتحكم عليه من منطلقات إسلامية، لا نتوقع من باحث الاقتصاد المسلم أن يكون قادراً علىٰ فهم كل التعاريف والمصطلحات، وكل القضايا الإسلامية تجاه الاقتصاد، هٰذا هو دورك أنت.

أما التخوف من ألّا يكون المتخصص علىٰ دراية، أو ألّا يتوفر لديه الحد الأدنىٰ من المعرفة بأمور دينه وعقيدته.. فأعتقد أننا نتكلم عن نوعية من المتخصصين المسلمين غير الملتزمين، وهٰؤلاء لا تهمهم القضية، الإنسان الذي تهمه القضية هو الإنسان الملتزم.. ومما يطمئن أن كل الباحثين في ميدان الاقتصاد الإسلامي هم ـ والحمد للّه ـ من الشباب المسلم الملتزم، إذن لا يهمنا الآخرون، لأنهم سائرون في ركاب الغرب بشقّيه، وموقفهم هٰذا يتصل بقول الرسول ﷺ: «**لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» لذا يجب ألّا نهتم كثيراً بأمور هٰؤلاء، بل يجب أن ندعم شبابنا الملتزم الذي يهوىٰ ويتمنىٰ أن يقدّم لأمته المسلمة نتاج فكر جديد ينقذها من الضلال والضياع والتشرذم الذي تعيشه، ومن التيه في ظل أنظمة غربية أو شرقية تسيطر علىٰ مجاري الأمور والأحداث في المجتمع المسلم في مجالات العلوم الاجتماعية والاقتصادية.. هٰذه حقيقة يجب أن تنال العناية والاهتمام.. إذن لا تخوُّف من العالم الذي لا يفقه شيئاً في العلوم الاجتماعية، والمتخصص الذي لا يفقه كثيراً في علوم الدين، إن كلًّا منهما مكمل للآخر، إذا التزم كل منهما بحدوده، وعرف تخصصه قام التعارف بينهما علىٰ أساس صحيح إسلامي يهدف إلىٰ إنقاذ الأمة والأخذ بيدها.

* * *

أسلمة المعرفة

◎ يتفرع عن هٰذه القضية قضية أخرىٰ هي: الدعوة إلىٰ أسلمة المعرفة أو أسلمة العلوم، وهي كما طرحها أصحاب القضية: محاولة النظر في

النتاج البشري العام في مجال العلوم الإنسانية بالذات، وتحديد المواطن التي يمكن أن تتعارض مع النظرة الإسلامية، والتي يمكن أن تتفق معها، فدعوا إلىٰ قيام معاهد أو مؤسسات تحت عنوان «أسلمة المعرفة» ما رأيكم في هٰذه الدعوة؟ وإلىٰ أي مدًى يمكن أن تجعل المسلمين في مكان التلقي وتمنحهم القدرة علىٰ النظر إلىٰ إنتاج الآخرين؟

⊙ أعترض في البداية علىٰ هٰذه التسمية، وأعتقد أن في هٰذا التعريف ليًّا للتعابير، ويجب أن نصحح مفهوم العبارة، ما معنىٰ أسلمة؟ ماذا نقصد بأسلمة؟ نجعلها إسلامية؟ إذن الهدف واضح والتعبير خطأ، فإذا اتفقنا أن التعبير لا يعكس بالضرورة المفهوم والنية الحسنة وراءه، فإن أي جهد يُبذل في هٰذا المضمار يجب أن نرحب به، وأن نشجعه وندعمه، ونسعىٰ إلىٰ أن يأخذ دوره التطبيقي. . هناك كثير من الاجتهادات والمحاولات التي بذلها شباب ومفكرون مخلصون ملتزمون ومؤمنون بأنه لا منقذ للبشرية ـ وليس للأمة المسلمة فقط ـ من شقوتها سوىٰ أن تعود إلىٰ الإسلام إيماناً وممارسةً وتطبيقاً، لٰكن المشكلة في أن هٰذا الجهد، وهٰذا العمل الذي تراكم بمرور السنين لم يأخذ طريقه إلىٰ التطبيق، وما ذٰلك إلا لوجود حلقة يبدو أنها مفقودة بين مَن يملك القرار والعالم في المجتمع المسلم، لم يعد ـ للأسف الشديد ـ في كثير من بقاع العالم الإسلامي صاحب القرار بالضرورة هو الرجل الذي يعتمد في إصدار قراره علىٰ أسس علمية ومنطلقات واضحة، أصبحت القضية مرتبطة باعتبارات كثيرة، من هنا كانت مشكلة هٰذا النفر من الشباب المؤمن الملتزم، الذي نذر حياته ونفسه ليحقق أسلمة المعرفة بتعريفهم، مشكلة هٰؤلاء والتحدي الأكبر الذي يواجههم هو أن ما يتوصلون إليه لا يجد طريقه إلىٰ التطبيق العملي الواقعي في المجتمع، ونحن هنا لا نريد لهٰؤلاء الشباب أن ييأسوا، أو أن يتضايقوا إذا لم تجد أفكارهم وأبحاثهم مجالاً للتطبيق ـ العالم لا يستطيع أن يتحقق من صحة ما ذهب إليه إلا إذا اختبر ذٰلك بالتطبيق العملي ـ معاناة هٰؤلاء الشباب واضحة جدًا، هم في وضع لا يُحسدون عليه، يريدون فعل شيء، وفعلوا أشياء يريدون أن يروا مدىٰ انعكاساتها، أو

صلاحيتها للمجتمع المسلم، وربما يحتاجون إلىٰ جزيرة نائية، فيها مجموعة من المسلمين من مختلف المشارب، يُمنحونها وتصبح حقل تجارب لهم - خيال في القضية - لٰكنني أردت أن أوضح - بشيء من المبالغة - مدىٰ معاناة هٰؤلاء الشباب، لذٰلك أتمنىٰ عليهم ألّا يفقدوا الثقة فيما يفعلونه ويقومون به وأن يستمروا في مسيرتهم - مسيرة الخير - التي نحن بأمسّ الحاجة إليها، وأن يوثقوا صلتهم - باستخدام كافة الأساليب الممكنة - بأصحاب القرار في الدول الإسلامية علىٰ مختلف المستويات، وأن يوثقوا صلتهم أيضاً بالفقهاء وعلماء الدين حتىٰ لا يفهمهم هٰؤلاء خطأ، وبالتالي يصبحون عوناً لهم - لو استطاعوا استيعابهم - بدل أن يكونوا مقاومين لهم، عليهم أن يستقطبوا جميع القدرات الممكنة، ويستخدموا كل الوسائل المتوفرة لكي تنجح مسيرتهم، ولا بد أن نعاني في مرحلة البحث العلمي، ولا بد من أن نصبر حتىٰ نصل إلىٰ نظم نستطيع القول بأنها نظم إسلامية.. نحن نتحدث عن النظام الاقتصادي الإسلامي، وعن النظام السياسي والاجتماعي والفكري.. في ظني ليس هناك نظام بالمعنىٰ الحرفي لكلمة System بالإنجليزية، هناك مبادئ عامة وأسس ومنطلقات.. آن لنا أن نترجم هٰذه المبادئ - من خلال جهد هٰؤلاء الشباب - إلىٰ قوانين، وإلىٰ عمليات تطبيقية، عندها تزداد الثقة بالنفس.

وتجربة البنوك الإسلامية تجربة يجب ألّا تغيب عن ضمير المسلم، يجب أن نشد من أزر مَن فكّر فيها، ومَن عمل أو لا يزال يجاهد في مضمارها، لأنها كسرت الحلقة المفرغة التي نعيش فيها، نتحدث ونتحدث، ونرفع شعارات، ونتمنىٰ ونتطلع، ولا يوجد هناك شيء واقعي، هٰذه التجربة بما لها وما عليها يجب أن تلقىٰ الترحيب والتشجيع والدعم، وأن نعمل علىٰ ترشيدها، وننظر إليها بعين الرضا لا بعين السخط، هناك كثير من الناس الذين يتحاملون عليها بغيرة دينية، وبمحبة وإخلاص، لٰكنهم ينظرون إليها بعين السخط، لماذا؟ حاول أن تنظر إليها بعين الرضا، حاول أن تقوِّمها وترشدها، أن تستفيد مما تفعله، ودع العربة تنطلق..

◎ لقد أردنا في قضية «أسلمة المعرفة» وجهاً آخر أيضاً: مراكز الإنتاج لمثل هٰذه العلوم، أو السيل المنطلق، معظمه نتاج حضارة غير إسلامية في نظرتها ومنطلقها ووسائلها وأهدافها، فإذا أردنا نحن أن ننظر إلىٰ هٰذا الإنتاج ونحكم عليه، ونحدد ما هو صالح وما هو غير ذٰلك، وما يتفق منه مع الإسلام وما يختلف، ونغير بعض المصطلحات في معطيات العلوم الإنسانية لتتفق مع النظرة الإسلامية والثقافة الإسلامية، ألا نجد أن ذٰلك إن كان مقبولاً في المرحلة التمهيدية الأولىٰ فهو في المحصلة قد لا يكون مقبولاً، لأنه سيبقينا في مواقع التلقي عن الآخرين والحكم علىٰ إنتاجهم، وقد لا يحملنا إلىٰ التحقق بالإنتاج نفسه؟ هٰذا الذي أردناه من القضية. إضافة إلىٰ نقطة أخرىٰ، فالذي يعجز عن الإنتاج هل يقدر علىٰ الحكم علىٰ إنتاج الآخرين؟

⊙ أعتقد أن هٰذا التخوف في مكانه، خاصة في المرحلة النهائية وليس في مرحلة البدء، لٰكن هٰذا لا يزعجني كثيراً، لأن الذين يتصدون لهٰذا الأمر من الشباب المسلم المتخصص الذي نذر نفسه وحياته لتحقيقه، لم يفعل ذٰلك إلا وهو ملتزم بمفاهيمه الإسلامية وتعاريفه الإسلامية، وإنه إذا استفاد مرحليًا من بعض هٰذه التعاريف والمصطلحات التي تحكم هٰذه العلوم الاجتماعية، والتي قد تبدو لنا غير إسلامية في مفاهيمها ومعانيها، فذٰلك مرحلي، وسنطور هٰذه المفاهيم، ونبحث عن بدائل إسلامية صحيحة وسليمة، ولا ضير في هٰذا، ولا عيب في أن نستخدم بعض هٰذه التعاريف والمصطلحات حتىٰ نصل إلىٰ الهدف، ما دامت الرؤية أمامنا واضحة، نعرف أين سنتجه، وإلىٰ أي شيء نهدف، والمنطلقات والأسس لذٰلك كله.. لا أعتقد أن هٰذه القضية تثير كثيراً أو تزعج كثيراً، فأنا مطمئن، ولله الحمد، إلىٰ نوعية بعض هٰؤلاء الشباب المسلم الذي نذر نفسه وحياته لهٰذا العمل.

❋ ❋ ❋

المسلم والتعامل مع العصر

◎ كيف يمكن ـ في تصوركم ـ لمسلم اليوم بما يمتلك من عقيدة وإمكانات وموروثات فكرية ثقافية سابقة أن يتعامل مع أساليب العصر ونواتجه، ويكون قادراً علىٰ استيعاب هٰذه الأساليب وهضمها وتطويعها لذاته وحضارته التي تعبر عن شخصيته، وتمكنه من أن ينتقل من مرحلة التكديس إلىٰ مرحلة العطاء الحضاري؟

⊙ أعتقد أن محور الارتكاز في هٰذا الأمر هو: نظمنا التعليمية والتربوية، إذا لم يقوَّم هٰذا النظام التعليمي ولم يصلح، ولم يوضع في إطاره الصحيح بحيث يكون نتاجه إسلاميًا معاصراً ملتزماً قادراً أن يتحدث لغة عصره، فلا وسيلة. لا بد من تقويم مناهج التربية والتعليم في هٰذا الأمر، الوصول بالمسلم إلىٰ أن يستوعب الواقع حوله من منطلقات معاصرة.. إذا لم يكن دور التربية والتعليم أساسيًا في هٰذا فستكون كل الأدوار الأخرىٰ أدواراً ثانوية، أنا لا أعتقد أن هناك تعارضاً ـ بأي حال من الأحوال ـ وقد يكون فيما أقوله نوع من التكرار نلجأ إليه دائماً عند الحديث عن عقيدتنا وإسلامنا من منطلق زيادة الثقة بالنفس، ليس هناك تعارض في أن يتحدث المسلم المعاصر لغة العصر، ولٰكن المشكلة أن هناك معاناة وقضايا ومشكلات تواجه الفرد المسلم في مجتمعنا، لا يمكن لك أن تتوقع إنساناً يعيش حياة ذات إطار معين بعيداً عن الممارسة العملية والتطبيقية لإسلامه وعقيدته، ثم لا ينبهر بما هو موجود في الغرب من وسائل.. خذ قيمة الحرية مثلاً يوضح ما أريد، الحرية قيمة أساسية أكد عليها الإسلام وحرّض عليها في حدود أطر معينة، ليست مطلقة أو هلامية أو همجية، هي حرية منضبطة لها منطلقات وأسس، أين هٰذه الحرية؟ وكيف تمارَس؟ لا أعتقد أن هناك مجتمعاً مسلماً يشعر فيه الفرد بالحرية في أن يقول ما يريد في حدود الإطار العام، فإذا كان هٰذا النوع من المسلمين لا تتوافر له أبسط مقومات الحياة، فكيف تنتظر منه أن يظل محافظاً علىٰ إسلامه ولا ينبهر بالغرب؟!

القضية المثارة قضية هامة جدًا، وموجهة إلىٰ الشباب المسلم اليوم، إما أن يلتزم بإسلامه أو أن ينبهر بما هو موجود في الغرب، للأسف الشديد، الغالبية منبهرة لأسباب مختلفة، فكيف نجعل من الشاب شابًا مسلماً ملتزماً وفي الوقت نفسه يتحدث لغة العصر ويتحاور مع الحضارة الغربية ليس من موقع الانبهار، ولا من مركب النقص، ولٰكن من موقع الفهم والإدراك والنقاش والتعديل والإضافة؟

هٰذا النوع من الشباب يجب أن نسعىٰ لإيجاده من خلال نظم التربية والتعليم أساساً، ومن خلال نظم الحياة عامة، لأننا لا نستطيع أن نفصل نظامنا التعليمي عما سواه من أنظمة الحياة الأخرىٰ. .

مقارنة بسيطة بين الطفل الغربي والطفل العربي: لو أن طفلاً عربيًا حدثت له مشكلة تعرض لها قرينه الغربي، كيف يتصرف كل منهما إزاءها؟

لو اعتدىٰ بعض الأطفال علىٰ طفل عربي، وسرقوا منه كرته مثلاً، سيذهب إلىٰ أمه، يخبرها بما حدث، فيكون جوابها: اجلس مستريحاً، سيأتي أبوك وسيقتص لك وسيستعيد كرتك.

أما الأم الغربية، فتقول لابنها: اذهب، عالج مشكلتك بنفسك، لا تنتظر أحداً يساعدك، قاوم وأحضِر كرتك.

أين هٰذا النوع من التربية؟ غير موجود عندنا، عندنا نوع من الحماية الزائدة عن اللازم لأطفالنا ـ تربية اتكالية ـ مما يجعلهم يفقدون كثيراً من مبادراتهم الذاتية، لا بد أن نعود إلىٰ نظام التربية والتعليم لنصحح كثيراً من مفاهيمه، ونرتقي بالبيت المسلم بحيث يستطيع الطفل التعامل بأسلوب حضاري معاصر يعلّمه الاعتماد علىٰ النفس، والثقة بالآخرين، وحسن التعامل معهم. . هٰذا هو أسلامنا.

◎ المشكلة أننا جميعاً نشكو، لٰكننا لا نرىٰ في الواقع شيئاً من التقدم علىٰ طريق التغيير، الكل يشكو من مناهج التربية والتعليم، وأن المخرج

والمنطلق سيكون بواسطتها، ومع ذٰلك لا نشعر بأننا نتقدم كثيراً باتجاه الحل الصحيح.

⊙ هٰذا صحيح، لٰكن يجب ألّا يفقدنا الأمل، وأن نرىٰ الطريق بوضوح.. عندما تواجه مشكلة، عليك أولاً تحديد هٰذه المشكلة وتعريفها، ومن ثم القيام بالبحث عن حلول لها، كونك طبّقت هٰذه الحلول، وكانت صحيحة أو لا، هٰذه قضية أخرىٰ تعتمد علىٰ مدىٰ ما لديك من ذاتية وأصالة وحرص، ومن مثابرة وجهد وإصرار علىٰ حل المشكلة، أنا لا أخالف في أننا نتحدث، لٰكنني أعتقد أن «كثرة الطرق تولج»، كما تقول العرب، فبالاستمرار ـ إذا استطعنا أن نقنع أنفسنا بأن النظام التعليمي والتربوي هو المنطلق، وهو الأساس في تصحيح المفاهيم ـ نستطيع إيجاد الشاب الملتزم المتوازن الذي يتحدث لغة عصره.

◎ هٰذه قضية أساسية، لٰكن عوامل التخلية بين الذين يريدون وما يريدون، قضية أخرىٰ.

⊙ نعود إلىٰ ذكر النقطة التي أثرنا قبل قليل، وهي الفجوة الموجودة والملحوظة بين المتخصصين وصانعي القرار، صانعو القرار يجب أن يضيقوا الفجوة، العصر عصر تخصص، لا بد لصاحب القرار من العودة إلىٰ المتخصصين من أبناء أمته، يستفز هممهم، يعطيهم ثقته في أنه سيأخذ كلامهم مأخذ الجد ويعمل علىٰ تطبيقه، القضية ليست قضية رأي شخصي، لٰكنها قضية علمية مقننة، وهٰذا جزء من معاناة المسلمين علىٰ كل حال، يجب ألّا نسقط في بئر اليأس والإحباط فلا نرىٰ طريقاً.

❋ ❋ ❋

نقل التكنولوجيا

◎ يرىٰ بعض المسلمين أن العالم الإسلامي لا يستطيع ـ مهما حاول ـ التحقق بالمنجزات العلمية والتكنولوجية التي وصل إليها الغرب، وسبيل

العالم الإسلامي إلىٰ العطاء والقيادة الحضارية اليوم إنما يكون بتقديم نماذج سلوكية يفتقر إليها التطور الغربي الذي يسير نحو التأزم في علومه الإنسانية والتجريبية، ويستدلون لذٰلك بأن المسلمين لم يتفوقوا علىٰ الحضارة الرومانية والفارسية بالتطور العلمي وإنما بتقديم النموذج السلوكي.. بينما يرىٰ آخرون أن بإمكان العالم الإسلامي أن يتفوق علميًّا وتكنولوجيًّا، وسبيله إلىٰ ذٰلك إنما يكون باستعادة العقول المهاجرة، حيث إن بعضها أو معظمها من النوابغ، وإعادة توطينها والإفادة منها، فما هو تصوركم لهٰذه القضية؟

⊙ لا أؤمن بقضية نقل التكنولوجيا كما تتداول كعبارة يقصد منها مفاهيم مختلفة، وأبرز هٰذه المفاهيم أن تنقل التكنولوجيا بمعنىٰ أن تستورد الأجهزة والمعدات، وأن تقيم المصانع لتستقدم فيما بعد جيوشاً جرّارة لكي تديرها وتعمل علىٰ صيانتها، أن أؤمن ببديل آخر، هو استنبات التكنولوجيا، بمعنىٰ أن ندرب الطفل منذ البدء وننشئه علىٰ القضايا العلمية الأساسية الحيوية التي تحبّب إليه العمل اليدوي، وتنمِّي فيه القدرات، فطفلنا لا يختلف عن نظيره الغربي، كلاهما بريء، وكلاهما وعاء تسكب فيه ما تريد، ويمكن أن تنشئه النشأة التي تريد، كلاهما من خلق الله تعالىٰ، وكلاهما قادر، صحيح أن كلًّا منهما يعيش في بيئة تختلف عن بيئة الآخر، لٰكن كل واحد منهما في نهاية المطاف إنسان بشر، خلقه الله تعالىٰ وزوّده بذكاء وعقل وقدرات، عليك أن تنمِّيها وتوجهها.. لذٰلك أرفض أن ننظر إلىٰ التكنولوجيا نظرة حرفية، بل يجب أن ننظر إليها علىٰ أنها غرسة، أو شجيرة تعتمد علىٰ التربة التي نريد أن نزرعها فيها، إن كانت تربتك صالحة فستأتي بغرسة صالحة ارتفاعها كذا، فتغرسها في تلك التربة فتنمو، إذن أنا أريد استنباتاً وليس نقلاً حرفياً.. هٰذه واحدة.

وأخرىٰ، قضية الأنموذج السلوكي، أعتقد أن الإنسانية اليوم بأمسّ الحاجة إلىٰ بروز أنموذج سلوكي منضبط، قادر علىٰ هدايتها وإرشادها والأخذ بيدها في مجال السلوك والمعاملات، وأنا أؤمن أن الأنموذج

الإسلامي في هٰذا هو الأنموذج الأوحد، وعلينا ألّا نسقطه، وأن نهتم به، لكنني أعتقد أيضاً أن الغرب بشقّيه - الرأسمالي والشيوعي - الذي يقود الطفرة التكنولوجية الموجودة، وانفجار المعرفة الرهيب الذي حدث في أجواء الفضاء، وأعماق البحار، وعلىٰ وجه الأرض، هٰذا الغرب بهٰذه القدرات الرهيبة التي يسيطر بواسطتها علىٰ مخلوقات الله، يعوزه الأنموذج السلوكي وإلا سقطت حضارته، لعلك تعلم أنه يوجد الآن في جامعات الغرب، وجامعات الولايات المتحدة الأمريكية خاصة أقسام متخصصة تقدم علماً جديداً يربط أو يبين العلاقة بين التكنولوجيا والأخلاق والقيم، ذٰلك أن بعض عقلائهم الذين يعملون دائماً علىٰ تصحيح مسيرة الحضارة، اكتشفوا أن هناك تآكلاً من الداخل، هٰذا الوحش الكاسر الذي بنوه ويسمونه تكنولوجيا بدأ يسيطر علىٰ سلوكهم وقيمهم ومبادئهم وحياتهم عموماً، وأصبح العقل البشري سجين أو أسير هٰذا الوحش.. هٰذا الوحش الذي يجب أن يسلسل ويقيد، يجب أن يكون الإنسان قائده، لا أن يقود هو الإنسان كما هو حادث في المجتمعات الغربية، فبدأوا يقدمون هٰذا النوع من التخصص والدراسة بهدف: ترشيد مسار الحضارة التكنولوجية. إذن هناك مجاهدة وحرص من الغرب علىٰ ألّا تسيطر التطورات التقنية علىٰ حياتهم وتنسيهم أنهم بشر وأن لهم عادات وتقاليد وقيماً يجب أن يحافظ عليها.

نأتي إلىٰ المسلمين، هل نكتفي بالسلوك ونبرز الأنموذج؟ أم أننا نواكب السلوك والنموذج بمزاحمة الغرب بذٰلك؟ أعتقد أن مَن يقول: إننا لا نستطيع أن نستنبت التكنولوجيا، وإننا لا نستطيع أن نطرق أبواب القرن الحادي والعشرين ونزاحم الغرب فيه؛ هو إنسان يائس، لا مكان له في موكب الحياة المعاصرة حقيقة، وأعتقد بما قاله الشاعر: ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

الرسول ﷺ في حديثه المشهور المعروف الذي اعتبر الأمل ركيزة من ركائز الحياة.. عندما أخذ عصاه، وخطّ علىٰ الأرض خطوطاً، ثم وضع خارجها نقطة، وبيَّن لأصحابه رضوان الله عليهم أن الإنسان سجين هٰذا

الإطار، والنقطة الخارجية هي الأمل، فأنا أعتقد أن الأمل يجب أن يبقىٰ رائدنا، والرجاء في الله سبحانه وتعالىٰ يقودنا إلىٰ هٰذا.. هٰذه القضية - الاستنبات - تأخذ وقتاً، نعم؛ تحتاج إلىٰ مجاهدة، نعم؛ سنتعرض أثناء ذٰلك إلىٰ تضحيات ومعاناة شديدة، نعم، سنتعرض إلىٰ ذٰلك كله بالتأكيد.. لٰكن مَن قال: إننا سنبدأ من الصفر؟ لا أعتقد ذٰلك، هناك محاولات في العالم الإسلامي (باكستان - السعودية - أقطار أخرىٰ) للأخذ بزمام المبادرة، نحن في جامعة الخليج - إذا جاز لي أن أقحم جامعة الخليج - نحاول أن نجعل منها أنموذجاً نطل من خلاله علىٰ القرن الحادي والعشرين في مجال التقنية والعلوم التطبيقية، هٰذا ما نسعىٰ إليه، علينا إذن أن نعيد حساباتنا وترتيب أولياتنا، وأن ننفض عن أنفسنا حياة الترف والرفاهية التي غرقنا فيها، أو غرق بعضنا فيها لدرجة أننا نسينا دورنا في هٰذه الحياة، وأصبحت اهتماماتنا جزئية، يجب أن نعيد ترتيب أمورنا بصورة تجعلنا قادرين علىٰ المزاحمة والمواكبة.. إذا استطعنا أن نعيد القدرات التي حبانا الله تعالىٰ بها إلىٰ مكانها الطبيعي، واستخدمناها الاستخدام الصحيح - بكل تأكيد سنستطيع - هناك شباب يعيش حاليًّا في الغرب وهو قادر ولديه إمكانات، وأنا أعتقد أن من السهولة بمكان إقناعه بالعودة إلىٰ بلده.

❊ ❊ ❊

التحكم الحضاري

◎ يوجد في العالم الآن ما يسمىٰ «التحكم الحضاري» وتعميق الفجوة بين العالم المتقدم والعالم المتخلف، بإقامة مناخات سياسية في العالم الثالث لا تسمح بنمو البذور والأجنّة العلمية والتكنولوجية، وفي الوقت نفسه تتيح الفرص للدول الكبرىٰ لامتصاص العقول المهاجرة، وكأن الإنسان يشعر بلون من التحكم الحضاري يبقي البلاد المتقدمة متقدمة، والمتخلفة متخلفة، بمعنىٰ أن الدول المتقدمة المتحكمة تمتص الطاقات من الدول المتخلفة، وتقيم أو تساعد علىٰ إقامة مناخات لا تسمح لهٰذه

العقول المهاجرة بالعودة، كما لا تتيح الفرصة لنمو عقول جديدة، بل تضع من العراقيل ما يجعل العقول المفكرة محاصرة مطاردة في موطنها لتكسبها هي فتكون أدمغة وسواعد في عجلة الحضارة الغربية.

⊙ هٰذه قضية أساسية ومهمة، لٰكن ما أود أن أقوله ـ وأظن أنك تتفق معي فيه ـ إننا إذا انتظرنا الإذن من الغرب أو الشرق فلن نحصل عليه، وسيظل هٰؤلاء حريصين علىٰ أن يزيدونا خبالاً، وأن نبقىٰ مرتبكين في أولياتنا، غير قادرين علىٰ تبصُّر طريقنا، لنظل في أسر التبعية، مشاكلنا ذاتية بالدرجة الأولىٰ، والتبعية التي نعيشها آن لنا أن نكسر طوقها ونتمرد عليها، ولا يكون ذٰلك إلا بأن نواجه أنفسنا مواجهة صحيحة، وأن نصحح مفاهيمنا وقيمنا ونظم حياتنا، وأن نرسي قواعدها علىٰ أسس ومنطلقات إسلامية صحيحة، وإلا فلا أمل في كل ما نقوله ونتحدث به، ولا أمل في كل ما نسعىٰ إليه، أنا أعتقد أن نظم الحياة ترتبط ببعضها، السياسي مع الفكري مع الاجتماعي مع الاقتصادي.. ولا يمكن أن تعالج نظاماً بعزله عن الأنظمة الأخرىٰ، فلو وفرنا للفرد المسلم، القادر علىٰ العطاء، الفاعل، المتعلم، المتخصص، الجو المناسب من الحرية الفكرية، ومن الإمكانات المادية، ووضعناه علىٰ المحك فإننا سنجد عند ذٰلك ما يرضي، سنجد قدرات فائقة.. يجب ألّا نستسلم لليأس.

◎ لم نقصد الاستسلام لليأس، ولٰكنه نوع من طرح القضية، لأن معرفة الأبعاد التي نتحرك فيها نوع من عدم الاستسلام لليأس، ولو كان الإنسان يائساً لما عرضت له القضية أصلاً، ولما كان هناك داعٍ لطرحها.. طرحها بحد ذاته دليل علىٰ عدم اليأس، وما يريد الإنسان أن يقوله هنا: إن السلطان السياسي ـ الحاكم السياسي، الصور السياسية في العالم عامة ـ أصبحت له حواس إضافية، فأنت لا تستطيع أن تنشئ أجنّة بعيدة عن متناوله، وتقتلع من ذهنها التعامل بالقضية السياسية حتىٰ لا تصاب في الطريق، ولا تستطيع أن تبني حضارة، أو أن تشكل أفراداً قادرين علىٰ بناء حضارة بعيداً عن التعامل مع السياسة التي يمكن أن

تلحقهم عواصفها.. فهل بالإمكان بناء هٰذه الأجنّة؟ علماً بأني أعتقد بوجود آفاق كثيرة يمكن التعامل معها لبناء الأجنّة الحضارية بعيداً عن صور العواصف السياسية التي يمكن أن تقتلع البذر.

⊙ العجيب في الأمر أننا نتعامل مع السياسة كلفظة ومفهوم وتطبيق من منطلق الخوف والحرص والحذر، لدرجة أن كلمة «سياسة» بحد ذاتها أصبحت «بعبعاً» مخيفاً، لماذا؟ ما هي السياسة؟ السياسة هي القدرة علىٰ أن تسوس حياتك، تبحث من خلالها عن الأصلح ـ علىٰ الأقل بمفهومي ـ صحيح أنني لست متخصصاً في العلوم السياسية، لٰكنني أفهم السياسة بالمفهوم العام الشامل، أي: ليس باستطاعتك أن تعزل أي نظام من أنظمة الحياة عن غيره من سائر الأنظمة ـ التأثر والتأثير ـ لٰكن هناك أدواراً علىٰ كل واحد منا أن يقوم بالدور المنوط به منها، هناك السياسي المحترف الذي يقود المركبة في البحار المتلاطمة للسياسات الدولية، هو قادر ـ أكثر مني مهندساً، ومنك عالماً، ومن زيد مفكراً ـ علىٰ قيادة هٰذه المركبة.. إذن علينا أن نوفر له كل القدرات والإمكانات التي تعينه وتساعده، وعليه في الوقت نفسه بأن يوفر للمتخصصين في الجوانب الأخرىٰ كل الضمانات لينصرفوا إلىٰ عملهم، يجب ألّا نخلط الأوراق، وألّا نتعامل مع بعضنا من منطلق الريبة والشك، مشكلتنا العظمىٰ أننا نتعامل مع بعضنا من منطلق الريبة والشك، لماذا؟ لماذا لا تكون الثقة متبادلة بين الجميع ما دام الهدف هو الارتقاء بالمجتمع المسلم، والوصول به إلىٰ أعلىٰ مستويات الحضارة والتطور؟ قد يبدو في كلامي نوع من الحماس أو العاطفة، أو نوع من التنظير، غير أن الحقيقة هي هٰذه.

◎ هٰذا مطلب لا شك في وجاهته، لٰكن إزالة الحواجز أو الوصول إلىٰ هٰذا المطلب، أو التحقق بهٰذه القضية في العالم الإسلامي هو المشكلة..

⊙ أعتقد أن هناك مشاكل وقضايا كثيرة نعاني منها، لو انصرف الإنسان إليها لظلّ مسجوناً في دائرة الشجون والأحزان والبكاء علىٰ الأطلال، ولابتعد عن

قضايا الأمة.. غير أنها محاولة، كل منا علىٰ ثغرة، فليحرص ألّا تؤتىٰ الأمة من قبله، ولو أن كل واحد منا أخلص في مجاله، وقام بما هو موكل إليه من عمل - أي عمل - وأدىٰ ما يجب عليه أن يؤدي، وأعطىٰ كل ما عنده من علم أو قدرة أو إمكانية لما هو مكلف به، أو في الموقع الذي هو فيه فلن يشك الآخرون عندها في نواياه ولا في منطلقاته، سيطمئنون إليه.. إن قضية بناء الثقة بين الأفراد تحتاج إلىٰ وقت.. وأنا أعتقد أنه في خضم حركة التحرر من الاستعمار الغربي في العالم الإسلامي أصبحت كلمة «سياسة» أشبه بقميص عثمان ﷺ، كل إنسان يريد أن يظهر وطنيًّا مخلصاً، وأنه قادر؛ فالعالم أصبح سياسيًّا، والمهندس وأستاذ الجامعة وطالبها كذٰلك، فإذا كنا جميعاً ساسة، فمَن نسوس؟ ومَن يقوم بالأعمال الأخرىٰ؟ هٰذا الأمر أدّىٰ إلىٰ إيجاد نوع من الفجوة وعدم القدرة علىٰ ضبط الأمور وتحقيق التوازن.. فيما أسلفنا طالبنا بوضع حدود، حدود محددة لكل واحد في مجال تخصصه، الكلام نفسه ينسحب أيضاً علىٰ السياسة والسياسيين، كما ينسحب علىٰ الثقافة والمثقفين.

❋ ❋ ❋

الكثافة البشرية والبناء الحضاري: المعادلة الصعبة!

◎ من خلال ملاحظات عامة، يرىٰ الإنسان مجتمعات فيها كتل بشرية كبيرة، ولٰكنها مصابة بما يمكن تسميته بالكساح الحضاري، ومجتمعات أخرىٰ قليلة العدد - بشريًّا - ولٰكنها تمتلك عطاءً حضاريًّا.. فكأنما قضية الكثافة البشرية بالقدر الذي تعطي فيه مدًى أو رصيداً يمكن أن يتولد عنه حضارة في مرحلة من المراحل يمكن كذٰلك بالقدر نفسه أن تكون عبئاً علىٰ قضية الحضارة.. ويمكن أن نأخذ أنموذجاً لذٰلك دولة العدو الصهيوني، رغم أن بعض الناس يعتبرها جيباً غربيًّا - وهو اعتبار عليه شيء من التحفظات - حيث يتبين لنا مدىٰ الفاعلية التي يتمتع بها الفرد

فيها؛ إذا ما قورنت بفاعلية غيره سواء أكان ذٰلك في عملية إقامة الدولة أو بإمكانية العنصر اليهودي في الغرب وقدرته علىٰ التأثير واعتلاء المنابر المتخصصة والضغط علىٰ الأزرار المؤثرة في العالم لقيادته باتجاهه؛ في حين نرىٰ هناك كتلة بشرية هائلة في العالم الإسلامي وغيره من المهاجرين والمبتعثين والجاليات والمتخصصين؛ ولا تأثير لهم علىٰ المجتمعات التي يعيشون فيها رغم أنهم أصحاب رسالة عالمية جاءت لاستنقاذ البشرية، بينما اليهودية المحرفة ديانة مغلقة عنصرية تعصبية..

تلك قضية قد تشكل معادلة صعبة لا ندري وجهة نظركم في تفسيرها.

⊙ أعتقد أن قضية الكثافة السكانية في العالم الإسلامي لم تعالج المعالجة الصحيحة.. كل ما نعرفه عن الكثافة السكانية هو الدعوة لتحديد النسل، وهي دعوة تتردد علىٰ لسان السياسي والاقتصادي والمفكر ورجل الإعلام.. بينما القضية ليست كذٰلك.. إنَّ أيَّ مجتمع يريد أن ينهض وينشئ حضارة، يحتاج لحدٍّ معين من السكان قادر علىٰ العطاء، وإن كانت القضية ليست قضية عدد فقط ولكنها ترتبط أساساً بالفاعلية الاجتماعية للفرد.

هناك كتل بشرية كبيرة تعيش علىٰ مجموعة قليلة هي التي تنتج، ويمكن أن أقدم مثلاً صارخاً علىٰ ذٰلك: الهند والولايات المتحدة.. عدد سكان الهند أضعاف عدد سكان الولايات المتحدة، فلو نظرنا إلىٰ الطاقة الإنتاجية في المجتمع الهندي والطاقة الإنتاجية في المجتمع الأمريكي لوجدنا في الولايات المتحدة عشرين ضعفاً للموجود منها في الهند رغم أنَّ عدد سكان الهند أكبر بكثير.. والسبب هو الفاعلية الاجتماعية..

إنَّ الطاقة الإنتاجية الشاملة ليست بالمفهوم الاقتصادي فقط، وإنما الطاقة الإنتاجية علىٰ المستويات كلها، فالفاعلية الاجتماعية هي قدرة الإنسان علىٰ العطاء من حيث التأهيل والتدريب والذكاء ونحو ذٰلك.. هٰذا هو محور الارتكاز وليس عدد السكان فقط.. فالمعادلة مكونة من عاملين مضروبين ببعضهما: عدد السكان مضروباً بالفاعلية الاجتماعية، فإذا كانت الفاعلية الاجتماعية منخفضة فإنَّ السكان مهما كان عددهم كبيراً، لن يرتقوا بالطاقة الإنتاجية إلىٰ مستوًى مقبول.

والشاهد من ذٰلك كله، أننا نحن المسلمين لم نتعامل إلىٰ الآن مع قضية الكثافة البشرية من منطلق حضاري واقعي؛ صحيح أن هناك معاناة شديدة في بعض بلدان العالم الإسلامي ولٰكن سبب هٰذه المعاناة ليس في عدد السكان بقدر ما هو في الإدارة الفاسدة السيئة التي تشرف علىٰ إدارة الموارد. .

أنا لا أريد أن أضرب أمثلة لذٰلك بدول إسلامية بعينها خوفاً من الحساسيات. لٰكنني أعرف الكثير من الأمثلة، ففساد الإدارة وسوؤها هو السبب الرئيس للمعاناة؛ لذا يخرج بالقضية عن إطارها الصحيح ويركز علىٰ قضية تحديد النسل.

❋ ❋ ❋

الحرية المنضبطة والقدرة علىٰ العطاء

◎ قد تكون المشكلة في أنَّ بعض الناس يعتمد علىٰ الكثافة السكانية دون التوجه إلىٰ إثارة الفاعلية الاجتماعية بالقدر المطلوب في العالم الإسلامي، مثل مدرسة الأفغاني رَحِمَهُ اللهُ، وقد كان الأوْلىٰ أن نعيد الفاعلية إلىٰ هٰذه المجموعات البشرية أكثر من أن نعتبر أن مجرد وجود الكتلة السكانية الكبيرة مقدرة وكسب. . الكتلة السكانية تفيد عندما تترافق معها فاعلية اجتماعية، أما إذا كانت دون هٰذه الفاعلية، تبقىٰ عاجزة.

⊙ هٰذا هو الأساس، ولٰكن كيف يمكن شحذ هٰذه الفاعلية الاجتماعية التي هي قدرة الإنسان علىٰ العطاء وإثارة كوامن الإبداع التي خلقها الله تعالىٰ فيه كي تنتج؟ إنَّ ذٰلك يمكن من خلال التربية الصحيحة والحرية التي يجب أن تتوفر للفرد لينطلق بفكره، الحرية المنضبطة المحددة بالإطار العام، وعندها لن نخشىٰ كثرة السكان أو قلتهم، بل إنَّ الكثرة وقتها ستكون مفيدة لرفع الإنتاج، لكننا ـ للأسف ـ نعالج القضية من منطلق جزئي غير شمولي فنقع في الدائرة المغلقة التي أوقعنا فيها الغرب.

❋ ❋ ❋

◎ هل يمكن أن نأخذ مثالاً علىٰ ذٰلك الصين والهند؟ فعندما وجهت الكثافة البشرية في الصين إلىٰ الفاعلية الإنتاجية تقدمت، في حين بقيت الهند علىٰ تخلفها لأنها لم تتمكن من توجيه الكثافة فيها نحو الإنتاج..

وتتمةً لاستكمال الإجابة علىٰ السؤال المطروح، نريد أن نتوقف قليلاً عند قضية الفرد العربي المسلم الموجود الآن في الغرب والفرد اليهودي الموجود هناك.. لماذا ـ وهما يعيشان مناخاً واحداً؛ مع ملاحظة اختلاف موروثاتهما والعالم الذي انحدرا منه، ويعيشان واقعاً متشابهاً ـ لماذا كانت الفاعلية والقدرة علىٰ التأثير واعتلاء المنابر المؤثرة والقدرة علىٰ اكتشاف الأزرار المحركة، موجودة لدىٰ الفرد اليهودي مفقودة لدىٰ الفرد العربي المسلم، في تصوركم؟

⊙ أعتقد أن القضية تحتاج إلىٰ استعراض علىٰ ضوء خلفيات تاريخية مختلفة ونظرات معينة، فاليهود ـ نتيجة معاناتهم ـ استطاعوا أن يصبحوا متكاتفين متعاونين بصورة تدعو إلىٰ الإعجاب والتقليد، كما استثمروا هٰذه المعاناة ـ التي يبالغون فيها مبالغة رهيبة ـ كمحرض ومثير لكسب الرأي العام الغربي في منزله ومصنعه ومصارفه ووسائل إعلامه ومؤسساته الاقتصادية، إلىٰ جانب ما يمتلكون من قدرات ومهارات عجيبة في الخبث والدهاء والمكر والخداع الذي يربأ المسلم بنفسه عن ممارستها، عندهم: «الغاية تبرر الوسيلة» منطلق أساسي، في حين لا يستطيع المسلم أن يكون كذٰلك.. وهٰكذا نجد أن القضية قضية مواريث فكرية وثقافية وتاريخية.. وإلىٰ جانب هٰذا كله، هناك النظرة العنصرية التعصبية التي ينظر بها الغرب نحو المسلم عموماً: تراكمات منذ الحروب الصليبية وما قبلها.

* * *

◎ ألا تعتقد بأن لذٰلك في الغرب أصلاً دينيًّا توراتيًّا. حيث إن الرؤية الدينية للغرب لم تخرج عن العهد القديم «التوراة»؟

⊙ نعم أعتقد ذٰلك، وهٰذا من العوامل الأساسية التي تجعل الفرد اليهودي يتعرف علىٰ الأزرار المؤثرة بينما الفرد العربي المسلم غير قادر علىٰ ذٰلك.. لقد استطاع أحبار اليهود وكهنتهم أن يقيموا حواراً مع النصرانية ـ رغم عداوتهم لها، والجرائم التي ارتكبوها في حقها ـ وتمكنوا بوسيلة أو بأخرىٰ من استصدار قرار جديد بالبراءة وبناء جسور مع النصرانية. في حين لم نستطع ذٰلك نحن المسلمين رغم أننا أقرب إلىٰ النصارىٰ من اليهود، ولقد حاول «فيصل بن عبد العزيز» رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يخطو في هٰذا السبيل. ولا أعرف لِمَ لَمْ تُستثمر المحاولة من بعده. لقد استطاع أن ينشئ نوعاً من الحوار الإسلامي النصراني. وكان هدفه بعيداً جدًّا في اعتقادي.. وأعتقد أيضاً أن هٰذا الأمر لم يحقق جميع أهدافه.. علينا أن نُوجد جسراً بين المسلمين والنصارىٰ بصورة تجعل الغرب يتقبل المفهوم الإسلامي بأسلوب حضاري وليس بأسلوب عنصري صليبي متسلط، كما هو حادث.

من هنا يبقىٰ الفرد المسلم في الغرب عموماً غير قادر علىٰ التأثير؛ فهو غير متكاتف مع أبناء جنسه، ولا يستطيع أحد أن ينكر أو يتعامىٰ عن الخلافات بين الجاليات المسلمة في البلد الواحد حيث تجد أكثر من منظمة تشرف علىٰ شؤونها..

ويبقىٰ الفرد العربي المسلم ترساً في ماكينة الحضارة الغربية ما دام منتجاً، أما إذا توقف عن الإنتاج فإنه يقذف به خارجاً، ولدينا أمثلة كثيرة علىٰ ذٰلك.. فهناك كثير من كبار العلماء العرب المسلمين الذين خدموا الغرب خدمات كبيرة جدًّا ـ بل إن العديد من نظريات الغرب وتقدمه التكنولوجي الموجود الآن قام علىٰ أكتافهم ـ لم يذكروا في أية مناسبة، لماذا؟ للروح التعصبية العنصرية الغربية، ولعدم وجود ذٰلك الزخم الكافي أو القدرات التعاونية التي تجعل منهم جسماً واحداً ويداً واحدة.. انظر إلىٰ

الجالية العمالية المسلمة الموجودة في فرنسا، استعرض معاناتهم ومشاكلهم: يقذف بواحد منهم من القطار فلا يأبه له أحد، يعاملون معاملة مواطنين من الدرجة التاسعة رغم أنهم مواطنون فرنسيون يحملون الجنسية الفرنسية.. وعندما اتجهوا للقيام بمحاولة لإصلاح أحوالهم في مصنع من المصانع الفرنسية.. لا أحد يجهل ما الذي حاق بهم.. ولو أن هٰؤلاء العمال سحبوا واستوعبهم العالم الإسلامي لاهتزت العجلة لدىٰ الغربيين. ولٰكن!!

◎ ألا تعتقد بأننا نحن ساهمنا بهٰذا لأننا لم نفهم الغرب ولم نحسن التعامل معه؟

⊙ نعم، ولذٰلك تحدثت عن تجربة «فيصل بن عبد العزيز» رَحِمَهُ اللهُ في فتح الحوار، كنت أقصد هٰذا. إننا نريد حواراً حضاريًا عن قرب مع الغرب.. يجب أن نعترف بأن الغرب وحضارته يسيطران علىٰ الحياة الإنسانية.. شئنا أم أبينا، اعترفنا أم أنكرنا.. ويجب أن نفتح حواراً حضاريًا معه ـ حوار الند للند ـ حتىٰ نفهمه جيداً ونعرف كيف نتعامل معه.

تحقيق الذات.. وبرمجة المبادئ

◎ استطاع الفرد المسلم ـ إلىٰ حدٍّ بعيد ـ أن يثبت ذاته. وأن يتخلص من مركب النقص تجاه الحضارة الغربية وهو ما يمكن أن نسميه: تحقيق الذات، لٰكنه لم يستطع بعد ذٰلك أن يوجد لحركته المؤسسات والأوعية الشرعية التي تنقل المبادئ التي يؤمن بها وتترجمها إلىٰ تطبيقات واقعية، خاصة وأن مرحلة المبادئ يجب أن تستتبعها مرحلة أخرىٰ هي ترجمة هٰذه المبادئ إلىٰ واقع.. هٰذه قضية وإن تحقق الشق الأول منها إلا أن الشق الآخر لما يتحقق بعد، الأمر الذي يُخشىٰ معه حدوث ردّة فعل نتيجة خيبة الأمل والمراوحة في المكان الواحد.. ما هي النصائح التي يمكن أن نقدمها للفرد المسلم حتىٰ يتجنب السقوط في هٰذه الحفر؟

⊙ إن ما ذكرته يمثل معاناة حقيقية فعلاً، فبعد أن استطعنا ـ من خلال

الصحوة الإسلامية - أن نستقطب أو - بمعنًى آخر - نعيد الأمر إلىٰ نصابه، واستطعنا أن نعرف أنه لا بديل لإسلامنا وعقيدتنا كمنقذ، ولا بديل للحل الإسلامي لكل مشكلاتنا وقضايانا، لم يتبع ذٰلك أو لم يواكبه تنظيم أمور حياتنا وبرمجة أعمالنا للاستفادة من هٰذه الصحوة بصورة تجعل الفاعلية أكثر والإنتاجية أكبر، وتعيد الثقة والأمل.. وأعتقد أن هٰذه المرحلة تحتاج إلىٰ نوع من الصبر وعدم فقدان الثقة والأمل.

القضية متشابكة ولا يمكن فصل نظام عن آخر من أنظمة الحياة المختلفة التي تحكم مسيرتها، فما بالك بمجتمع مسلم له منطلقاته وأسسه ومبادئه وأهدافه، وهي أهداف خير لا غشاوة عليها ولا شك فيها.. إنها قضية مرتبطة باعتبارات كثيرة قد لا يستطيع الإنسان حصرها والتحدث عنها، وإذا استطاع أن يحصرها فقد لا يستطيع أن يوفيها حقها من حيث الإيضاح والتفصيل والبيان.

وخلاصة القول في ظني: أنه يجب ألا نفقد زخم هٰذه الصحوة، وألّا يفقد الشباب المسلم الأمل في أن الحل الإسلامي هو البديل الوحيد.. وأعتقد أن للإعلام دوراً أساسيًا ورئيساً في هٰذا إن استطاع أن يتجرد عن كثير من أعبائه وتبعاته، من زيغه وضلاله - للأسف الشديد - وأنا هنا لا أخصص جهازاً بعينه - صحافة أو إذاعة أو تلفازاً - ولٰكني أتحدث عن الإعلام عامة بما في ذٰلك خطباء المساجد والوعاظ الذين أعتبرهم من رجال الإعلام، وأعتبر كل وسائل التوعية في المجتمع المسلم وسائل إعلام، وليست وزارات الإعلام أو أجهزة الإعلام المتعارف عليها فقط.. إن القضية تحتاج إلىٰ جهد ومثابرة ومصابرة. والأهم من ذٰلك كله أن يثبت الشباب وتثبت أفئدتهم الرقيقة التي أوصانا بها الرسول ﷺ.

شوال ١٤٠٦هـ ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٦م

□□□□□□

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



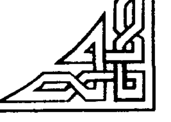


فقه الدعوة
ملامح وآفاق

حوار مع :

الدكتور حسن الترابي
البرفسور رجا جارودي
الدكتور زغلول النجار
الدكتور عمار الطالبي
الدكتور محمد فتحي عثمان
الشيخ محمد المختار السلامي
الدكتور المهدي بن عبود
الدكتور يوسف القرضاوي

الجزء الثاني

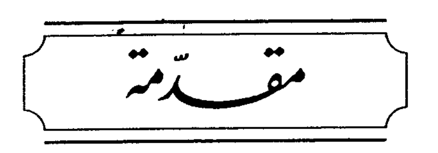


بسم الله الرحمن الرحيم

قال رسول الله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك».

رواه مسلم



مقدمة

الحمد للّه الذي أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق، والصلاة والسلام علىٰ معلم الناس الخير، تركنا علىٰ المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.

وَبَعْـد:

فهٰذا كتاب الأمة التاسع عشر «**فقه الدعوة ـ ملامح وآفاق ـ** الجزء الثاني» في سلسلة الكتب التي يصدرها مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر؛ مساهمة في تحقيق الوعي الحضاري، والتحصين الثقافي، ومحاولة لتجديد أمر الدين، وإعادة تشكيل العقل المسلم الذي افتقد الكثير من الفاعلية والمنهجية والصواب، ليستأنف المسلم دوره، ويقوم بحمل أعباء أمانة الاستخلاف، ويؤدي رسالته مستثمراً إمكاناته الروحية والذهنية والمادية كلها، ويسترد دوره المفقود في القيادة والشهادة.

وقد أشرت في الجزء الأول، بأن الذي نقدمه في هٰذا الكتاب بجزئيه هو مجموعة من الحوارات كنت أجريتها مع بعض القائمين علىٰ أمر الدعوة والعالم الإسلامي في مناسبات متعددة ونشرت أصولها في «مجلة الأمة» حول فقه الدعوة والآفاق التي يمكن أن يبلغها الدعاة، وتحديد الموقع الفاعل، من خلال الظروف المحيطة، والإمكانات المتاحة، في محاولة لتمرين ذهنية مسلم اليوم علىٰ اكتساب مجموعة من الخبرات، والتحقق بأكثر من وجهة نظر، والتعرف علىٰ أكثر من تجربة، لعل ذٰلك يغنيه بالتصور

الخصب الذي لا بد منه للحكم علىٰ الأمور بشكل سليم، وينأىٰ به عن أن يكون نسخة مكررة من حيث الزمان والمكان والحركة والأشخاص، وأن يسقط في حمأة التحزب، الذي ينتهي به إلىٰ التعصب والانغلاق وعدم الإفادة من تجارب الآخرين، والتعرف علىٰ المذاهب الاجتهادية الأخرىٰ، والمقارنة والمقايسة والترجيح بينها؛ وفقاً لما تقتضيه مصلحة المسلمين.

لذٰلك فقد يكون المطلوب اليوم بإلحاح التوسع كثيراً فيما اصطلح علىٰ تسميته بالفقه المقارن في مجال الدراسات الأكاديمية بشكل أخص، لأن ذٰلك وحده هو الكفيل بتمرين الذهنية الإسلامية علىٰ قبول الرأي الآخر واحترامه، ووأد التعصب المذهبي والحزبي، وتحقيق القناعة بأن الإسلام أوسع كثيراً من الصورة المحدودة التي يقبع وراءها بعض المسلمين اليوم، إضافة إلىٰ ضرورة إجراء الحوار والمقارنات مع الأفكار والتشريعات الأخرىٰ من خارج الدائرة الإسلامية كثمرة للسير في الأرض الذي طلبه الله إلينا، والنظر في التجارب البشرية، وعدم الاقتصار علىٰ التجربة الإسلامية؛ لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾ [النمل:٦٩] فالحكمة ضالّة المؤمن.

ولعل من القضايا الأساسية التي لا تزال تُطرح علىٰ الساحة الإسلامية من داخل العالم الإسلامي وخارجه علىٰ حدّ سواء ـ وإن اختلفت الدوافع ـ قضية الانتقال من مرحلة المبادئ والشعارات العامة إلىٰ تقديم البرامج، وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المجتمع، والحلول الإسلامية لمشكلاته، حيث لم تعد قضية المبادئ محل نظر ومناقشة، وتكاد تكون من المسلمات.

ومع اعتقادنا بأن الإنسان في عصور التخلف يصبح عاجزاً عن الإبصار السليم والإدراك الواعي لأبعاد القضية ـ والإحساس بالمشكلة شيء والإدراك لها والاهتداء إلىٰ المعالجة الصحيحة شيء آخر ـ ولو أدركها لاستطاع مجاوزة التخلف، فقد تكون الغاية من هٰذه الحوارات والكتابات الإسلامية بعامة تلمّس جوانب المشكلة والتبصير بها، لينبثق من خلال ذٰلك الجيل القادر علىٰ إدراك المشكلة، والاهتداء إلىٰ الحل، وتجاوز مرحلة التخلف،

والمساهمة بصياغة التصور والفكر الجمَاعي أو الفقه الجماعي المؤسسي، وصب الجهد الفردي - أو الاجتهاد والفقه الفردي - في المصب المؤسسي العام، والاجتهاد في وضع البرامج التفصيليةَ المَنضبطة بالقيم الإسلامية.

وقد تبدو الضرورة اليوم - أكثر من أي وقت مضىٰ - في أن يستمر هٰذا اللون من التأليف والتصنيف؛ شريطة أن يكون ضمن خطة محددة ومدروسة الأبعاد والآثار، تطرح القضايا الأساسية التي تعاني منها الأمة المسلمة علىٰ مستوياتها المختلفة، للوصول إلىٰ الرؤية المشتركة، واستطلاع الواقع الفكري والثقافي الذي يمنح المهتمين بالقضية الإسلامية التصور الذي يمكنهم من الحكم علىٰ المستجدات والمتغيرات، والاهتداء إلىٰ سبيل الخروج من الأزمة وإصلاح الخلل، وتجنب العثرات التي لحقت ببعض التجارب في الماضي، ذٰلك أن هٰذا اللون من الشورىٰ واستطلاع الرأي؛ إضافة إلىٰ ضرورته لإزالة السدود النفسية بين المسلمين، والقضاء علىٰ نزعات التعصب والتحزب التي قد تحمي غير الأكفياء، وتسمح بنمو واستمرار بعض الأفكار المعوجة التي تعوزها المناقشة، وتحرم العمل من إمكانات مقدورة، فهو يضيف أعماراً إلىٰ عمرنا، وعقولاً ورؤًى إضافية إلىٰ عقلنا، ويحقق لنا العبرة والدرس لمستقبل مسيرتنا.

وهنا قضية لا بد من الإشارة إليها في هٰذه المقدمة: وهي أن الذين يمتلكون الحق في المساهمة بهٰذا اللون من الحوار والاجتهاد والنظر، هم العلماء العدول الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ بقوله: **«يحمل هٰذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين»**؛ لأنهم المؤهلون والقادرون علىٰ النظر والتقويم الذي يصوّب حركة الأمة، وليس مَن لا فقه لهم من المتعصبين وبعض الكتّاب وبعض الصحفيين الذين يقحمون أنفسهم في مثل هٰذه القضايا دون أن يمتلكوا البضاعة الكافية، والمؤهلات الشرعية المطلوبة؛ لأنهم بذٰلك يزيدون الأمر خبالاً، مهما حملت عناوين كتاباتهم من الإثارةَ الصحفية، وأغرت جماهير المسلمين بقراءتها.

ولنا في سيرة سلفنا الصالح، وميراثنا الثقافي في فترات التألق والإبداع خير مثال يحتذىٰ؛ فقد كان كسبهم الاجتهادي في إطار التنوع والتعدد والإخصاب والتعاون، ولم يكن مجالاً للصراع والاختلاف والافتراق والتضاد، وما المذاهب الفقهية الاجتهادية في حقيقتها إلا مدارس فكرية متنوعة، بذل أصحابها جهدهم للوصول إلىٰ الحكم الشرعي مستنبَطاً من الكتاب والسنّة، وإن انتهت علىٰ يد بعض أتباعها من المقلدة والعوام ممن لا فقه لهم إلىٰ لون من الانغلاق والتحزب والتعصب، والبعد عن روح الحوار وأدب الاختلاف. وقد لا تكون الإصابة بالنسبة للعقل المسلم في إغلاق باب الاجتهاد فقط، ومصادرة أي تفكير أو اجتهاد جديد؛ وإنما في التعصب المذهبي الذي يعني - فيما يعني - حرمان المسلم من أكثر من تسعة أعشار ميراثه الفكري.

ومع اعترافنا بضرورة الاجتهاد في تقديم البرامج وإيجاد الحلول للمشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية علىٰ مختلف الأصعدة، وأهمية النزول إلىٰ الميدان، واكتساب فقه الحركة، والتعرف علىٰ واقع الناس، وعدم الاكتفاء بالحديث العام عن المبادئ والقيم الإسلامية التي أصبحت من المسلمات كما أسلفنا؛ ذٰلك أن الاستمرار في الحديث عن المبادئ العامة في الخطب والأحاديث ووسائل الإعلام ودروس الوعظ، بعيداً عن معاناة الأمة، وتقديم الحلول الإسلامية لها، يُخشىٰ أن يساهم سلبيًا في التقليل من قيمة هٰذه المبادئ، وقدرتها علىٰ الإنقاذ للواقع، ومن ثم العزوف عنها بحجة أنها مثالية غير قابلة للتطبيق، وعلىٰ الرغم من أن الكثير من هٰذه المشكلات جاء نتيجة لتطبيق أنظمة غير إسلامية؛ إلا أن المسلمين بحاجة دائماً لمعرفة كيفية التعامل مع هٰذه المشكلات من المنظور الإسلامي - ريثما تتاح لهم الفرصة ليأخذوا أنفسهم بالإسلام كاملاً - وهنا حقيقة لا بد من أن نتوقف عندها بالقدر الذي تسمح به هٰذه المقدمة:

لقد كثر في الفترات الأخيرة الهجوم علىٰ دعاة الإسلام ونقد أهل الصحوة الإسلامية، واتهامهم بأنهم يفتقدون الخطط والبرامج التي تنظم شؤون المجتمع والدولة بمؤسساتها المختلفة، وأنهم ينطلقون من فراغ ومن

تعميمات لم تعد صالحة لحكم الحياة وتنظيم شؤونها، إلىٰ آخر هٰذه النغمة التي لا يزال أصحابها يبدئون فيها ويعيدون، والسؤال المطروح علىٰ هٰؤلاء الذين يدّعون العلمية، ويتصنعون الموضوعية والإنفتاح علىٰ الثقافات العالمية - إلا الثقافة الإسلامية طبعاً - ويعلنون الغيرة علىٰ مصلحة الأمة ومستقبلها:

أين برامجهم وخططهم الذاتية التي يتقدمون بها لحل مشكلات الأمة والنهوض بها من وهدة التخلف؟ اللهم لا جواب؛ إلا إذا كان الجواب هو المزيد من الاستيراد للبرامج التي لا تزال توقع الأمة بإشكالات، وتحول دون تحققها بالحلول الصحيحة، وحسبهم في ذٰلك معرة أنهم يقفون علىٰ أقدام غيرهم، ويعيشون حالة من الاغتراب لا يحسدون عليها، ويعجزون عن توليد البرامج واستنباتها من خلال الشخصية الحضارية التاريخية وملاحظة المعادلة النفسية والاجتماعية للأمة. فهم يعيشون الاغتراب الحضاري والثقافي باسم الحداثة، وعذرهم أنهم لا يعرفون من الإسلام إلا بعض العموميات، ويفتقدون في سلوكهم لأبسط المعاني الإسلامية، إنهم وجدوا في الاستيراد البديل الأسهل، ظنًّا منهم أنه قادر علىٰ حل المشكلة، لٰكنه في الحقيقة والواقع لم يزدها إلا تعقيداً لأنه يقدم الصورة ويسلب الحقيقة.

والمنتمون للإسلام الملتزمون به هم المهيؤون دون غيرهم لتقديم البرامج القادرة علىٰ استيعاب حركة المجتمع؛ بسبب رصيدهم الفقهي وميراثهم الثقافي وتجربتهم التاريخية، وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، لٰكن هٰذا الرصيد سوف ينقلب إلىٰ عبء إذا لم يتدارك المسلمون الأمر، ويستشرفوا آفاق المستقبل، وينزلوا إلىٰ الساحة، ويقدموا الاجتهاد المطلوب لحركة الحياة، ولا شك عندنا أن الفكر شرط الفاعلية والفعل وأن الفعل يستدعي الفكر، لذٰلك فإن عمليات التفاكر والحوار والفقه الميداني هي الطريق المأمون إلىٰ تحقيق الخصوبة المطلوبة والشرط الضروري للنهوض.

ومع إيماننا بضرورة وجود النماذج الذين يتمثلون الإسلام ويجسدونه في حياتهم ويمثلون الطائفة القائمة علىٰ الحق، والخلف العدول الذين يحملون العلم ليكونوا محل الأسوة والقدوة للجيل، إلا أنه لا بد من إيضاح

هٰذه النقطة؛ فمما لا شك فيه أن الأشخاص والأسماء والجماعات والجمعيات والحكومات إنما هي وسائل لتحقيق كسب أكبر للدعوة الإسلامية، وإثارة الاقتداء، والتعاون علىٰ البر والتقوىٰ، والتدريب علىٰ المعاني والأخلاق الإسلامية، والخروج بالناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله، وليست غايات بحد ذاتها، ومن ثم فالعمل الإسلامي والدعوة إلىٰ الله والعاملون للإسلام ليسوا إقطاعات بشرية يمكن أن توظَّف لفلان هٰذا أو فلان ذاك، بل نستطيع أن نقول بأن الإسلام أصرّ علىٰ ربط المسلم بالمنهج ولم يربطه بشخص فالله سبحانه يقول:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ...﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد قال أبو بكر ﷺ في أول قيادته لمجتمع المسلمين: (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومَن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت)، وعدّ الرسول من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله: **«ورجلان تحابّا في الله اجتمعا علىٰ ذٰلك وافترقا عليه»** وقد سئل سيدنا علي ﷺ عن أهل الحق وأهل الباطل ـ زمن الفتنة ـ فقال: «اعرف الحق تعرف أهله»، والمتأمل في القيم والحضارة الإسلامية يرىٰ أنها اهتمت بمعاني البطولة وقدرتها، أكثر من اهتمامها بصفات البطل الخلقية، وحصر تلك المعاني في شخصه ليكون ذٰلك مجالاً للترقي وفي متناول الجميع، فإذا ذكر عمر ﷺ ذكر العدل، وإذا ذكر خالد ﷺ ذكرت الشجاعة والبلاء في سبيل الله، وما إلىٰ ذٰلك، علىٰ الرغم من ضرورة أن تتمثل معاني البطولة وتتجسد في أشخاص لتصبح قابلة للتطبيق، إلا أن الارتباط بالمنهج والمعنىٰ والحق هو الأساس، وليس الأشخاص ـ خاصة الأحياء منهم ـ الذين لا تؤمَن عليهم الفتنة والسقوط في الخطأ.

وَبَعـْـد:

فلا شك أن هناك مدارس فكرية مقدورة ومواقع أخرىٰ علىٰ ساحة العمل لم تأخذ نصيبها من هٰذا الحوار ـ علىٰ أهميتها وضرورتها من الناحية

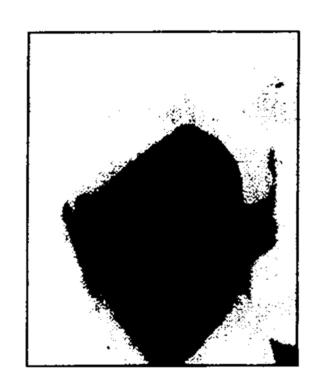
الفكرية والجغرافية لأنها تشكل إضافات أساسية ـ ولعل فرصة تتاح مستقبلاً للاستمرار في هٰذا اللون من العمل للقضية الإسلامية.

والله نسأل أن يُلهمنا الإخلاص في العمل، والصواب في الخطة والرأي، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الدوحة في ١٤ شوال ١٤٠٨هـ

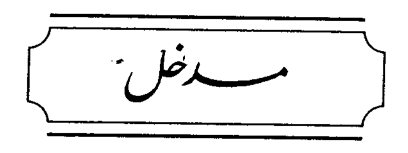
عمر عبيد حسنة





فقـــه المرحـــلة
والانتقال من المبـادئ إلى البـرامج

في حـــوار مـع : الدكتور حسن عبد الله الـترابي



■ من مواليد مدينة كسلا بالإقليم الشرقي بالسودان عام ١٩٣٢.

■ تلقىٰ عن والده - الذي عمل بالقضاء الشرعي نحو ثلاثين عاماً - علوم العربية والفقه والدين.

■ حفظ القرآن الكريم ببضع قراءات.

■ تلقىٰ تعليمه الأولي بالمدارس السودانية الحكومية.

■ درس القانون في كلية القانون جامعة الخرطوم.

■ حصل علىٰ البكالوريوس في القوانين من جامعة لندن عام ١٩٥٥، والماجستير عام ١٩٥٧.

■ درس نحو أربع سنين في جامعة باريس، وحصل علىٰ الدكتوراه في القانون المقارن عام ١٩٦٤م.

■ يتكلم ويكتب العربية والإنكليزية والفرنسية ويقرأ الألمانية.

■ عمل أستاذاً للقانون الجنائي والدستوري، وعميداً لكلية القانون بجامعة الخرطوم.

❋ ❋ ❋

- الصلاة عماد الدين.
- الإيمان.
- المسلم بين الوجدان والسلطان.
- رسالة المرأة.
- المسألة الدستورية.
- تجديد أصول الفقه الإسلامي.

■ **يقول**: حرصت علىٰ تعلُّم الفرنسية لأطّلع علىٰ الحضارة الفرنسية من مصادرها الأصلية ولأدرس كسبهم النظري في القانون، فهو أوسع مما عند الإنكليز، وتعلمت الألمانية لأول الأمر لأقف علىٰ مكتوبات الألمان في الفكر الديني والفلسفي، ولهم في ذٰلك باع طويل.. وحبّب إليّ من تعمقي مبكراً في علوم العربية، ومن كسبي للنظر المقارن في اللغات أن أعكف علىٰ كل لغة أو لهجة تواتيني الظروف لتعلمها، فإن في توسيع الأسماء والأفعال بلغةٍ سعةً للعقل.

■ يؤمن بالحوار والتفاعل مع الجميع بعيداً عن السذاجة الفكرية، دون أن يتخلىٰ عن أرضيته..

■ أكسبته التجارب والنزول إلىٰ ساحة الواقع القدرة علىٰ الفهم، وإبداع أفكار ومصطلحات، تعبر عن المراحل، وتحولها إلىٰ أعمال، وتجسدها في حياة جماهير الأمة (التزاوج بين المنقول والمعقول) دون التوقف عن النظر إلىٰ المستقبل، واستشراف أبعاده من خلال الواقع الممكن.

كما أكسبته التجربة القدرة علىٰ إشاعة مفهوم الأخوة الشامل، وتعبئة الجماهير المسلمة استجابة للخطاب الإسلامي العام، والارتكاز في الوقت نفسه علىٰ النخبة المثقفة لأنها تشكل عقل الأمة وطليعتها.

■ **ويرى**: أن الدين توحيد بين المثال المطلق والواقع النسبي، فالمثال ترسمه التعاليم والتكاليف الشرعية، التي يخاطب بها الإنسان، والواقع هو الابتلاءات المادية والظرفية التي تحيط بدنيا الإنسان، والتدين هو إيمان نفسي بمثال الحق المطلق، ثم كسب تاريخي يجاهد الواقع ليقربه من المثال، ويجسد الإيمان في أمثل صوره واقعية ممكنة، ومن ثم المحاولة الدائبة للرقي نحو كمالات المثال.

■ كما **يرىٰ**: أنَّ الصراع في أفريقيا صراع حضاري بين العروبة والإسلام من جهة، وبين الشرق والغرب من جهة أخرىٰ، وإذا أصبح السودان عربيًّا مسلماً خالصاً، سيقلب موازين القوىٰ في المنطقة.

■ **ويرىٰ**: أنَّ العرب والمسلمين متمكنون من ثروة مقدرة تنفَق في شتىٰ المجالات، ثم لا يُرىٰ شيء مقدَّر يوجه نحو مدّ الدفع الثقافي العربي الإسلامي بالرغم من أن الملايين من المسلمين في أفريقيا وآسيا يتطلعون إلىٰ تعلم اللغة العربية والاستزادة من علوم الدين، وأن الملايين الآخرين من ذوي المعتقدات غير الكتابية مهيأون لتقبل الدعوة الإسلامية بيسر شديد، وأن حرية الدعوة الإسلامية أوسع بكثير من المحاولات التي تستثمر ذٰلك الظرف.

■ **ويقول**: إن كثيراً من أبناء المسلمين بسبب من ضغوط التعليم والترقي الاجتماعي، انخرطوا في ملل غير إسلامية أو ذابوا في الحضارة الغربية، والحاجة اليوم شديدة لاتخاذ استراتيجية مشتركة لمجابهة هٰذا التحدي الذي لا تجدي معه الصدقات والمشروعات المحدودة.

■ **ويرىٰ**: أن المرأة المسلمة تحكمها التقاليد والأعراف القديمة التي تظلمها وتحبسها عن المشاركة في الحياة تحت اسم الدين، وعلىٰ حسابه، لذٰلك لا بد أن تستظهر المرأة المسلمة بقوة شرعية تضفي علىٰ مشاركتها الشرعية وترشدها، وتضبطها في الوقت ذاته.

وأن العجز عن إيجاد الأوعية الشرعية لخروج المرأة وإعطائها حقها في الحياة الإسلامية هو الذي استدعىٰ صور الخروج بعيداً عن الاستظهار بقوة الشرع.

■ **ويرىٰ**: أن البناء الديني يقوم علىٰ الإخلاص والاختيار الطوعي، ولا يمكن للقوة فضلاً عن العنف أن تكون أداة لتحقيق هٰذا البناء.

■ وأن الصحوة الإسلامية ظاهرة تاريخية دورية: يصيب المسلمين ذبول في دوافع الإيمان، وخمول في الفكر والفقه، وجمود في الحركة، فينحط كسبهم، ثم تستفزهم أزمة السقوط ويحضهم الوعي بالانحطاط عن أمجاد سالفة، والذل إزاء تحدٍّ خارجي فينهضوا من جديد.

وأن مظاهر هٰذه الصحوة لا يمكن أن تُرَد إلىٰ محاور النشاط الإسلامي المنظَّم فقط لأنها غدت تياراً فكريًّا جماهيريًّا سائراً. والصحوة ليست مستوطنة بأرض العرب وحدها، فالإسلام ميراث مشترك للأمة الإسلامية.

وأن الصحوة جاءت استجابة لظروف غشيت العالم قاطبة: انحسار الاستعمار السياسي، وانكسار الغرور الحضاري الغربي، وخيبة النظم اللادينية، وحركة الوعي الإسلامي.

■ **ويعتقد**: أن المجتمع المسلم برغم صحوته المباركة، لا يزال يعاني من نقص نسبي في المجال الفكري والتنظيمي، ومن أكبر الخطر أن تنطلق طاقات الإيمان فلا تجد الهداية الفكرية والأوعية التنظيمية فتبدد سدًى، أو تضل، أو تتخبط، أو تتوجه صوب الانحراف.

ولا بد للنهوض من استكمال شروط اليقظة الروحية، والصحوة الفكرية، والنهضة الحركية، وبذٰلك نكون قد استكملنا توبتنا من ماضي الانحطاط، واستقبلنا توجهنا نحو دورة حضارية تتقدم بالمسلمين نقدمها إلىٰ العالم أجمع.

■ كما **يعتقد**: أن المناخ السياسي القهري شغل الصحوة الإسلامية بأصل وجودها، وصرفها عما وراء ذٰلك، وحرمها من الحرية التي هي شرط النشأة، والحياة، والتطور لكل صراع فكري منزل علىٰ الواقع، وحال بينها وبين الحوار الداخلي والخارجي.

■ **ويرىٰ**: أن الفقه السياسي عامة في الإسلام قد اضمحل مبكراً. بينما كانت وجوه الفقه الأخرىٰ تزدهر قبل أن يطبق الجمود الشامل علىٰ الفقه كله. ويعلل ذٰلك بسبب من الفتنة السياسية المبكرة التي خرجت بالسياسة من نيات الدين، وضوابط الشرع، وباعدت بين الفقهاء والسلطان.

■ **ويرىٰ**: أن حكومات المسلمين مدعوة ـ بحق الدين وبالمصلحة في الاستقرار السياسي ـ إلىٰ أن تتخذ سياسة أرشد نحو الإسلام، وألا تلجئ الإسلاميين إلىٰ الصراع السلبي.

وأن الدول الاستعمارية مدعوة كذٰلك أن تتعقل لأنها لن تستطيع مغالبة التطور الإسلامي المتقدم، وقد تضره قليلاً بمصادمته المباشرة أو بإغراء حكومات المسلمين به، لٰكن الأمر في النهاية سيؤدي إلىٰ تصاعد الجهاد.

■ **ويعتقد**: أن الديمقراطية إذا طرحت بشكل صحيح فإن غالبية الشعب سوف تجنح نحو الإسلام لأن الشعوب مسلمة بفطرتها، لذٰلك فإن المؤامرات لإقامة أنظمة عسكرية، أو قهرية، القصد منها سد الطريق أمام الشعوب المسلمة بشريحة مغتربة عنها.

■ **ويرىٰ** في الواقع العربي اليوم: أنه لا بد لفقه الصحوة التوحيدي في الوطن العربي أن يقعد حواراً مع مذاهب القومية العربية التي تتجه أيضاً نحو الوحدة علىٰ الرغم من أن المناظرة كانت سلبية في الماضي، نظراً لما لاحظ دعاة الصحوة في بعض دعاة القومية من إدارة الظهر للأمة الإسلامية ومن الافتتان بالمذهبيات الغربية اللادينية، من علمانية ومادية في العقيدة أو السياسة ومن كيد واضطهاد لدعاة الإسلام.

كما **يرىٰ**: أن الدعوة القومية مهما انفعلت بعض أطروحاتها بالأصل العرقي أو الثقافي أو تأثرت بالحضارة الغربية المهيمنة فغالب المؤمنين بها شعوب تعبر عن فطرة القربىٰ العربية ولا تتخذها خصماً لدينها بل تتحد بها مع دينها، وبعض دعاتها وصلها بالإسلام صراحة لا سيما في الآونة الأخيرة.. وفي الواقع العربي حاجات لتوحيد القومية إلىٰ الدين فالعاطفة القومية مهما دعمتها المضامين المبهمة التي تطرح الآن لا تقوىٰ وحدها علىٰ

مغالبة أهواء الفرقة الإقليمية والسياسية، ومكائد التفريق الإمبريالية.. وإخفاق مشروعات الوحدة الكثيرة، شاهد علىٰ قصور دافع التوحيد القومي، إلّا أنْ يعزز بدافع التوحيد الديني الفعال.. والقومية وحدها لا تطرح مع الوحدة مضموناً هدفياً ومنهجياً شاملاً كالإسلام الذي يُبرز معالم الحياة الموحدة المنشودة ومضامينها.

والإسلام يضيف إليها بُعداً بفتحها علىٰ العالم وتوسيع قاعدتها الطبيعية بالتعريب ويبسط منها إلىٰ العالم روحاً رسالية، ومنهجاً إنسانياً يحمل مقومات الإصلاح والعدالة للمسلمين قاطبة وللناس كافة.

■ ويدعو القوميين إلىٰ ملاحظة انحسار الدعوات، وبوار المخططات الوحدوية، وتفاقم الإخفاق والإحباط الراهن ليدركوا أنها أعراض لحالة مرضية جذرية لا يجدي فيها إلا علاج حضاري أصيل تلتمسه الأمة في حق قيمها وعبر تراثها الإسلامي.

كما يطلب إلىٰ دعاة الإسلام أن يدركوا أن وحدة العرب ـ مهما اختلطت دوافعها الأولية بل حتىٰ لو انطوت علىٰ بعض نكسة لحرية الدعوة الإسلامية وتقدمها في المدىٰ القريب ـ تبقىٰ ذات مغزًى تاريخي كبير للإسلام فسيذهب الزبد جفاءً ويبقىٰ العرب للإسلام وإذا عزوا بالوحدة فسيصب عزهم عاجلاً وآجلاً في عز الإسلام.

■ **ولذٰلك كله يرىٰ**: أنه لا يجوز للعاملين في الحقل الإسلامي أن ينقلبوا إلىٰ طوائف منفصلة عن جسم الأمة وأهدافها العامة، يعكفون علىٰ خاصة أمرهم ويعجبون بتراثهم، بل لا بد لهم من أن يحاولوا العمل في جبهة عريضة تضم كل مَن ينفعل بالقضية الإسلامية.

ويعتقد: أن حصر قضية الإسلام بجماعة أو حزب، أمر يثير غيرة القوىٰ السياسية الأخرىٰ وولاءها التاريخي.

وأنه لا بد للعاملين في الحقل الإسلامي من التوغل في أوساط الجماهير، والتفاعل مع الفطرة المؤمنة لتوليد الطاقة الشعبية التي تحمل الهمّ الإسلامي العام وبناء العلاقة المتفتحة مع حركة الإسلام الشاملة، وإقامة

دبلوماسية شعبية يمكن لها أن تزيل عجز التواصل بين المسلمين، وأن العمل الدعوي يمكن أن يتم في إطار الحياة الواسعة والأطر الطبيعية للحياة الاجتماعية، في معاهد العلم والمساجد ومراكز الثقافة الشعبية وأجهزة الإعلام والعمل السياسي.

هٰذه بعض النوافذ البسيطة التي يمكن أن تشكل إطلالة سريعة علىٰ التصور الذي يتمتع به الدكتور الترابي للعمل الإسلامي وهي لا تغني بالطبع عن ضرورة الإحاطة لمعرفة تطور التجربة وكسبها في مختلف الميادين ذٰلك أنه لم يتوقف عند مرحلة التنظير والكلام في المبادئ وإنما تجاوزها إلىٰ محاولة تنزيل الإسلام علىٰ واقع الناس والاجتهاد في وضع البرامج، ويمكن أن تعتبر هٰذه التجربة وفي مجال فقه الدعوة نقلة نوعية متميزة في فهمها للواقع وقدرتها علىٰ قراءة الظروف بأبجدية إسلامية وإبراز المشروع الإسلامي في هٰذه المرحلة.

ولا شك عندي أن الرجل يمثل تجربة غنية ورؤية متميزة ومتقدمة في العالم الإسلامي يمكن أن يشكل بحق إضافة للمسيرة الإسلامية المعاصرة سواء بما حالفها من صواب لتلمسه أو ما وقعت فيه من أخطاء لتجنبها والإفادة منها. ذٰلك أن السكونية والانسحاب من الساحة والابتعاد عن فقه الواقع وعن امتلاك القدرة علىٰ التعامل معه لا يعني صواب الرأي بالقدر نفسه الذي لا يعني فيه الخطأ. إنه صورة خارجة عن معادلة الخطأ والصواب، وعجز عن تنزيل الإسلام علىٰ واقع الناس وإيجاد الأوعية الشرعية لحركة المسلمين والاكتفاء بإلقاء التبعة علىٰ الظروف والعامل الخارجي دون الانتباه إلىٰ أننا بشكل غير مباشر نحكم علىٰ أنفسنا بأننا دون سوية العصر بظروفه، ودون سوية التعامل مع القضية الإسلامية وفقه ميدانها.



المقدّمة

■ اقتضت سنة الله ألّا تقتصر عملية الابتلاء علىٰ جوانب الشر، كما يتبادر إلىٰ كثير من الأذهان، بل قد يكون الابتلاء بالخير أشد، وفتنته أقوىٰ، ومن الخطورة بمكان تلك التربية النصفية، حيث تسيطر علىٰ عقلية بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية ثقافة الابتلاء بالشر فقط فيصاب بالعجز عن التعامل مع ابتلاءات الخير، ويسقط عند الصدمة الأولىٰ، حتىٰ وصل الأمر عند بعضهم إلىٰ الاعتقاد أن الابتلاء بالشر وحده دليل صواب الطريق، ومقياس صدقه وسلامته، بهٰذه التربية النصفية يصبح بعض دعاة الإسلام عاجزين عن التعامل مع الخير، وإن أرادوا ذٰلك فقد لا يحسنونه، بسبب من غيابه عن ساحة التصور والتدريب التربوي، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، والعمل الإسلامي اليوم قد يعتريه بعض التخبط والتعثر بسبب من هٰذه التربية النصفية التي أصبحت وكأنها ضربة لازب عليه.

إن فقه المرحلة، وحسن اختيار الموقع الفاعل من خلال الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة، وفقه سنن التغيير والمدافعة، وامتلاك وسائله الحكيمة، يكاد يكون قضية العاملين للإسلام الملحة اليوم.

في ذٰلك نرىٰ أنه لا بد من إدراك جغرافية الساحة التي يتحرك فيها الدعاة اليوم وخلفياتها المتعددة، وقد اعتبر فقهاؤنا العرف أحد مصادر التشريع الفرعية، ويفتقد صفة الاجتهاد العاجزُ عن إدراك أعراف الناس،

ظروف معاشهم، وطبيعة حياتهم، لابتعاده عن الساحة وانسحابه منها؛ لذلك تقرر بأنه لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان.

إن العمل للإسلام اليوم يقتضي حسًّا صادقاً، وإدراكاً واعياً، وعقلاً راجحاً، واطلاعاً واسعاً، وحسن فهم لمعركة الإسلام وخصومه، حيث تتبدل الظروف، وتتغير المشكلات وتتطور المواجهة، إنه باختصار يقتضي فقه المراحل.

من هنا تأتي أهمية هذا الحوار مع الدكتور حسن الترابي الذي يعتبر بحق أحد شيوخ الدعوة الإسلامية، ومنظّريها المعاصرين، ذلك أن أصوله العلمية الشرعية، وثقافته العصرية، ومعرفته لعديد من اللغات الأجنبية، وتقلُّبه في مواقع علمية وثقافية وسياسية وقضائية، إلى جانب الابتلاءات المتنوعة التي تعرضت لها الحركة الإسلامية في السودان والعالم أكسبته قدراً من البصارة والنفاذ، أو ما يمكن أن نسمِّيه بـ«فقه المرحلة»، إنه يمتلك نظرات هامة في قضية التجديد والاجتهاد وفقه المراحل، لا بد أن تخضع للحوار والمناقشة للانتقال بمواقع العاملين في الحقل الإسلامي من النافع إلى الأنفع، ومن الصالح إلى الأصلح، ومن الحسن إلى الأحسن. إن هذا الحوار يكشف عن الكثير من جوانب القضية الإسلامية في السودان، ويشكل النافذة الأمينة لرؤية التوجه الإسلامي من الداخل، والعقلية التي تتعامل مع هذا التوجه، ويغني رؤية دعاة الإسلام بتقديم تجربة ميدانية للانتقال من المبادئ إلى البرامج سوف تنعكس بالضرورة على وسائل الدعوة وعقلية الدعاة. ■



معطيات التجربة الميدانية

◎ لا شك، أن التحول إلىٰ تطبيق الشريعة الإسلامية في السودان، واجه مشكلات عملية قد لا تكون كلها في الحسبان؛ ما هي المعطيات التي يمكن أن تنعكس من خلال التجربة الميدانية علىٰ مناهج وتصورات ووسائل العاملين في الحقل الإسلامي بعد أن اختُبرت بعض الاجتهادات، وجُرِّبت بعض الوسائل في الواقع التطبيقي؟

⊙ كانت حركة الإسلام في مرحلة الدعوة تُعالج قضايا الإسلام علىٰ صعيد النظر. وكان يتيسر عليها أن تُرتب صور الأنموذج الإسلامي بطلاقة، وأن تعرضها علىٰ الناس، كذٰلك، في قمة مثالها حتىٰ تُرغِّب الناس في النهضة إليها. وكانت لا تأبه كثيراً بالمشكلات العملية، وللقوىٰ التي يمكن أن تثور حين يتنزل الإسلام علىٰ الواقع، ولذٰلك لم تكن تأخذها في الاعتبار وهي تُقدر نظريات المنهج الإسلامي كما تتصوره، وكما تدعو إليه.

فلما بلغنا من بعد الدعوة مرحلة الدولة، أصبح لزاماً أن يتنزل الدين، في شعاب أحكامه الفرعية، علىٰ الواقع، وبدت لنا من الصورة الواقعية مشكلات ما كانت لتلوح للناظر من قبل، وبدا أن الأحكام تتوارد علىٰ الواقع، وتتناسخ وتتعارض مقتضياتها أحياناً، ونشأت حاجة ماسة إلىٰ تصريف الأحكام وترتيب أولوياتها، لأن في تطبيق بعضها ما قد يؤدي إلىٰ تفويت مصالح إسلامية أخرىٰ مقدرة، أو يُحدث فتنة تضر بمستقبل الإسلام. وكان لا بد من فقه أدق من الفقه النظري يُرتب أولويات الأحكام، ويناظر بين قيمها المختلفة، ويؤخر ويقدم ويصرِّف بين هٰذا الواقع، هٰذه مشكلة طرأت لفقه الإسلام.

وهناك مشكلة أخرىٰ؛ فقد بدا جليًا أنه لا يتيسر للجهد البشري ـ مهما بلغ من الجهاد والاجتهاد ـ أن يحقق كل أحكام الإسلام دفعة واحدة، ذٰلك أن هٰذا الدين التوحيدي يشمل الحياة كلها، ولا يمكن أن يستوعبه جهد

البشر ولا اجتهادهم إلا بمعاناة متطاولة، يتعاون عليها الناس، ويمتد لها الزمان والمكان؛ ولذٰلك كان لزاماً أن نبدأ من أول الطريق، ومن القضايا الجوهرية حتىٰ نتوفر، بما لدينا من جهد، علىٰ تحقيقها، وحتىٰ نخصص الطاقة الدينية المتاحة في المجتمع، وهي في أول العهد تظل طاقة محدودة، ونجندها لتأسيس أسس الدين.

ولٰكن تراثنا النظري ـ بصوره المثالية للإسلام ـ كان يعلق الناس ـ كما ذكرت ـ بأعلىٰ القيم. وبدا الفرق شاسعاً بين ما تحقق من صورة الإسلام وما كان الناس يتخيلون. وحاكم بعض الناس هٰذا الواقع المحدود بذٰلك المثال غير المحدود، وارتابوا في صدق هٰذا الواقع.

ومن خلال هاتين المشكلتين، بدا لنا أن فكر أو فقه مرحلة الدعوة لا بد من أن يتهيأ للتطبيق. ولو أننا استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا، لقدّمنا فكر الإسلام، لا علىٰ أنه مثال خيالي لا يكاد يتحقق إلا لمجتمع الملائكة، أو عبر مجاهدات أجيال كثيرة تتكامل فيها منجزات الإسلام، ولعرضناه كمًّا واقعيًّا، ولبسطنا بين الناس صورة المجتمع السني الأول الذي كان مجتمعاً تلوح فيه التطلعات نحو القيم العليا، ولٰكنه بواقعه الماثل بالفعل كان يحتوي ويشتمل علىٰ كثير من القصور عن ذٰلك المثال، وكانت فيه طوائف علىٰ مختلف مراحل الطريق، منهم الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات.

وهٰذه الصورة الواقعية التاريخية للأنموذج السني الأول تجعل الإسلام أقرب مثالاً للناس، وتزيد أملهم في أن يحققوه كما تحقق، ولا تُوجِسهم من بُعد مثاليته. ثم لو كان لنا أن نبدأ من حيث انتهينا لعرضنا كذٰلك فقه الإسلام عرضاً دقيقاً يركز علىٰ مقاصد الدين، وضرورة الترجيح دائماً بين تلك المقاصد وترتيبها حتىٰ إذا نشأت حاجات العمل، تزوّد الناس بفقه لتصريف الأحكام وترتيبها، ولم نبسطها بسطاً أفقياً تترتب فيه كلها كأنها سواء.

وأحسب أننا في مرحلة الدعوة، من اهتمامنا بعمومات النظر، من

تعويدنا علىٰ منقولات الفقه عندما غدا فقه الأحكام مدونات مجردة شيئاً ما عن الواقع، تفصل الأحكام وترتبها لا لأغراض التطبيق بالفعل، أحسب أننا فعلنا شيئاً ما بذٰلك المنهج في أخذ الفِقه الديني ـ والدين واقع وعمل ـ وهٰكذا تنزَّل القرآن ذاته، وكان ينبغي أن يطّرح حيث هو؛ فقهاً للعمل لا للنظر.

❋ ❋ ❋

فقه المرحلة وحسن اختيار الموقع

وهناك أمر آخر أيضاً، وهو أننا لم نُدخل عنصر الواقع إدخالاً تامًّا في تقديراتنا، وليس الدين إلا محاولة للتوحيد بين الأنموذج الشرعي المثالي وبين البيئة المادية والاجتماعية الواقعة. ولا يتم فقه الدين وعلمه إلا إذا تكامل علم الشرع المنقول بعلم الواقع الاجتماعي، محليًّا أو دوليًّا، ماديًّا كان أو اجتماعيًّا، لأن حركة التديُّن تتأثر صيغتها النهائية بهٰذا الواقع الذي هو الإطار الذي ينصبه الله سبحانه وتعالىٰ؛ ابتلاءً للعبد. ولا يمكن أن نتصور الدين إلا أنه حصيلة التفاعل بين القيم والمعايير الشرعية وبين قوىٰ الواقع المختلفة، ولذٰلك لا يمكن أن يكون فقه المتدينين إلا تكاملاً واتحاداً بين معرفة وثيقة بواقعهم الاجتماعي والدولي، وبمشكلات الحياة المادية، إلىٰ جانب أخذهم من فقه الشرع المنقول.

وعندما قام الإسلام في السودان ـ مثلاً ـ اتحدت مصالح الإسلام مع مصالح الكيان الإسلامي المتمثل في السودان، وأصبحت قضايا الفقر والتخلف الاقتصادي قضايا ملحة من قضايا الدين، لأن التطبيق لا يتم إلا بمعالجتها، ولأنه من خلال التخلف الاقتصادي يُمكن أن يُفتن أهل السودان ـ جماعة ـ عن التزام شرع الله سبحانه وتعالىٰ، أو أن يُغزَوْا بالمذاهب التي تقربهم إلىٰ الذين يلتمسون عندهم العونَ الاقتصادي، وبالفقر الاقتصادي يمكن أن يفتن الأفراد كذٰلك ويتعسر عليهم أن ينشغلوا بحاجات المعاش

الملحة عن التأمل في قبلة الدين، وهموم الحياة العليا، ومهمات البناء الحضاري للسودان.

❋ ❋ ❋

تجدد الابتلاء سنة ماضية

ولذلك، فعندما جاءت مرحلة التطبيق، اقتضت بالفعل تطوراً هائلاً في ذهنية الدعاة أنفسهم وفي توجهات اجتهادهم. ولا أريد أن أتحدث عن التحول الذي وقع في نفوس الناس الآخرين أو ما وقع في نفوس الذين يريدون أن يكيدوا للإسلام، ويكفي أن نقول: كيف اضطر الدعاة أنفسهم لأن يكيِّفوا أنفسهم للابتلاء الجديد؛ وتلك سنَّة ماضية، لأن الله سبحانه وتعالىٰ لا يرضىٰ للعبد أن يجمد علىٰ حالٍ من التدين واحدة؛ سواء أحسن فيها أو أساء، وإنما يُقلِّب له الابتلاء ليمحصه بكل وجوه التدين، وليقتضيه في كل مرحلة جديدة أن يعرف الله سبحانه وتعالىٰ، ليعرف مقتضىٰ عبادته في الأرض، ويبذل من ذات نفسه جُهداً متجدداً لتقبل الحق، ثم لالتزامه.

❋ ❋ ❋

من المبادئ إلىٰ البرامج

في تصوري أن الاختبار الحقيقي للدعوة الإسلامية الحديثة، يكمن في القدرة علىٰ الانتقال من مرحلة المبادئ إلىٰ مرحلة البرامج؛ ألا تعتقدون بأن مؤسسات الدعوة ـ وهي مرحلة قبل مرحلة الدولة ـ يمكن أن تكون مراكز تدريب أيضاً علىٰ الحياة الإسلامية، وعلىٰ التطبيقات الإسلامية باعتبارها عينة من عينات المجتمع، إذ الأصل فيها أن تحمل هموم المجتمع القائم، وأن تعيش صورة مصغرة تطبيقية عن المجتمع المنشود، وتكون مركز تدريب للدعاة؛ حتىٰ إذا ما حانت مرحلة تطبيق البرامج استطاعت أن تقدم العناصر البشرية المدربة والقادرة علىٰ فقه مرحلة التطبيق، وحسن التعامل معها؟

⊙ نعم في عهد أطبق فيه النسيان، وعمّت الغفلة عن الدين كله، وأصبح الدين بأصوله الأولىٰ غريباً عن المجتمع، وسادت في مجتمعاتنا كذٰلك فترات من تاريخ إسلامي انحسرت فيها كثير من معالم الدين، وتحولت فيه كذٰلك كثير من صور ممارسة الدين إلىٰ مجرد عواطف ظاهرية ليس وراءها من أصول الإيمان في النفوس بقايا، تناصر هٰذا التاريخ المبتعد عن الدين مع الغزو الثقافي الغربي، الذي أخرج الدين تماماً من الحياة العامة ومن قلب هموم المجتمع، كان لزاماً علىٰ الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية عندئذٍ أن تصوِّب جلّ دعواتها ومناظراتها ومجادلاتها علىٰ هٰذه الأصول حتىٰ تحيي شعاب الإيمان من جديد، لا إسلاماً بعاطفة الخوف من الله والرجاء في الله وحسب، ولٰكن تصويباً لهٰذه الدوافع الإيمانية نحو قضايا التدين المختلفة، وللمناطق التي انحسر فيها الدين وأصبحت بُقع إشراك، واتسعت هٰذه البقع حتىٰ حاصرت الدين في زاوية محدودة من الحياة.

كان لزاماً أن تصرف الحركة الإسلامية جانباً كبيراً من همها لهٰذه القضية، ولٰكن يُؤسف المرءَ أن يقول: إنه علىٰ تطاول الزمن، وعلىٰ تذكر بعض المسلمين لهٰذه الأصول، كأنما انحبست الحركة الإسلامية في هٰذه المرحلة لوقت أطول مما ينبغي، بل إن دعوتها قد ولّدت عند المسلمين طاقات من الإيمان هائلة، فبدأت حركة المسلمين المنفعلة بذكر الله سبحانه وتعالىٰ في مجالات الحياة العامة، تعبر عن نفسها في حركات سياسية، وفي توجهات وتطلعات اقتصادية وغير ذٰلك.

ومع ذٰلك، فإن فكر الدعوة الإسلامية ظلّ حبيس هٰذه المرحلة، حتىٰ إنك لتجد أن الحركة الإسلامية حتىٰ في أشكال تنظيمها لا تضرب أنموذجاً صادقاً للإسلام، فمثلاً تجد أن القيادة غير شورية، أو تجدها شورىٰ شبه وراثية، وتجد علاقات المناصحة والمناصرة والموالاة لا تمثل أنموذجاً للدولة الإسلامية التي يريدونها. ولو أنهم نقلوا الصورة التي تقوم بها جماعتهم إلىٰ المجتمع لكانت صورة شائهة للإسلام؛

ذٰلك من محض الغفلة عن ضرورة تنزيل الدين علىٰ الواقع، وتعلم هٰذا الفقه الواقعي.

❋ ❋ ❋

التدرج في التطبيق

وكان يمكن لو أن حركة الإسلام، بدلاً من أن تنتظر الفتح الأكبر الذي يقوم فيه المجتمع كله بالإسلام، أن تحاول في جوانب الحياة المختلفة أن تقيم نماذج جزئية في جانب من الاقتصاد، وفي جانب من السياسة، وفي جانب من الفكرة، وفي جانب من المجتمع. ونحمد الله سبحانه وتعالىٰ، في السودان، أن تهيأ لنا شيء من ذٰلك الكسب، وأن حركة الإسلام بالرغم من أنها تعتصم بالأنموذج الكلي، وتصر علىٰ أن الدين توحيد، إلا أنها تعلم أنه لبلوغ الكل لا بد من البدء بالجزء، فهي لا تؤمن ببعض وتكفر ببعض؛ بل تؤمن بالإسلام كله، ولٰكنها تحاول أن تطبق منه ما تيسر، ولا تقدر أنه لا بد من انتظار مرحلة الدولة حتىٰ يتمكن الدين بكل جوانبه، ولٰكن يُمكن دون ذٰلك مع مجتمع لا تزال فيه ـ بحمد الله ـ بقية من إيمان، أن تطبق؛ فنشأت مؤسسات اقتصادية للإسلام، ومؤسسات اجتماعية، ومؤسسات ثقافية، جُرِّب فيها تطبيق الإسلام عمليًّا.

وتوجهت الحركة إلىٰ ذات نفسها، وحاولت أن تعبّر في أشكالها عن أحكام الإسلام الفرعية؛ فعندما أصبح الإسلام هو شرعة المجتمع كله، ودخلت كل هموم المجتمع في هموم الدولة، كانت هٰذه المبادرات الأولىٰ خير ما يعين حركة الإسلام وفكر الإسلام علىٰ أن يستوعب حركة المجتمع بأسره؛ بتوسيع النماذج وتطبيقها، كما تأخذ الأنموذج التطبيقي والتجربة من المختبر إلىٰ السوق وإلىٰ الإنتاج الواسع.

كانت تلك البدايات هي في واقع الأمر مفاتيح حل مُغْلَقات المشاكل الاجتماعية، وهٰذا هو أخطر ما يطرأ علىٰ الحركة؛ إنها من الهم بذات أمرها (أو إذا تطورت من الهم بعلاقتها المباشرة مع

المجتمع: كيف تؤثر علىٰ المجتمع وكيف يرتد المجتمع عليها)، فجأة تجد نفسها وقد إضطرت إلىٰ أن تحمل أمانة كل الأمة، وأن تستوعب كل همومها جملة واحدة.

❊ ❊ ❊

السنن الجارية والسنن الخارقة

◎ من المشكلات التي يعاني منها السودان وكثير من البلدان الإسلامية الأخرىٰ هٰذه التركة الثقيلة التي هي ثمرة لتاريخ طويل من الانسلاخ عن الإسلام، ولأنماط متعددة من التجارب والتطبيقات والقوانين التي قد لا يكون للإسلام فيها النصيب الكبير. ولا شك في أن التحول إلىٰ النهج الإسلامي وإلىٰ تطبيق الشريعة سوف يواجه كل هٰذه المشكلات، ولا بد للتغلب عليها ومعالجتها من زمن وجهود متطاولة. ومن هنا يُخشىٰ أن يصاب بعض بسطاء المسلمين، أو بعض مَن يعيشون الجانب النظري ولا يعانون التجربة التطبيقية، ببعض الإحباطات نتيجة الظن أن عصا الإسلام يمكن أن تكون سحرية، تعالج الواقع القائم بالسنة الخارقة وليس السنة الجارية؛ لأن معاناتهم التاريخية كانت لقضايا نظرية جدلية مثالية، بينما القضية تحكمها سنن المدافعة والابتلاء والتطبيق المرحلي. وقد نرىٰ أن الجيل الأول القدوة لم يعانِ المشكلة نفسها، لأنه كان يعيش التدرج في التشريع والتطبيق معاً، أما بالنسبة لنا فقد اكتمل التشريع. وقد لا نستطيع بعد هٰذا الانسلاخ الطويل عن شمولية الإسلام إلا ممارسة التدرج في التطبيق مع رؤية للمواقع جميعاً. وفي الوقت نفسه قد لا نستطيع أن نغطي في جيل ما أو في زمن ما إلا موقعاً أو أكثر، لٰكننا في الوقت نفسه لا بد أن نرىٰ الصورة الكاملة التي يجب أن يرتادها العاملون للإسلام.

⊙ إذا نظرنا إلىٰ واقع السودان خاصة، وهو بقدر ما يمثل جانباً من واقع

المجتمع المسلم عامة، فإنه ركام من تراث سابق للإسلام، لأن دخول الإسلام للسودان لم يكن فتحاً حاسماً يطهر الأرض من الباطل كله أو جله، ويقيم مقامه مؤسسات الحق، وإنما دخل الإسلام السودان ولا تزال عملية استكمال الدين وعياً وممارسة وشعائر وأعرافاً اجتماعية، تتقدم إلىٰ يومنا هٰذا.

وأمر ثانٍ: هو نصيبنا من تاريخ الإسلام بخيره وشره، وفي تاريخنا كما هو معلوم عناصر ضربت علىٰ الإسلام، وانحرافات، وبعضها التبس بحق الإسلام، وأصبح لا يتيسر إلا للفقيه المتبصر أن يميزه بين مُدخلات تاريخية غريبة عن الإسلام وبين أصول الإسلام الشرعية.

يضاف إلىٰ ذٰلك أن الصور التي تيسرت للمسلمين تاريخيًا من التطبيق في نظام الجماعة ونظام القيادة والمجتمع ـ وهي صور بالطبع كانت محدودة بقدر طاقاتهم المحدودة عندئذٍ ـ جمدت في أذهان الناس، وحسبوها الصورة النهائية الأزلية لتطبيق الإسلام، بينما يتاح أن يتسع الناس لبلوغ مُثل الإسلام.

ثم خضع السودان للاستعمار، ولا شك أن المستعمرين المتمكنين قد استطاعوا أن يفرضوا عليهم شيئاً من تراثهم وحضارتهم، وأن يحاصروا الدين، ويشوهوه بما يوافق أهواءهم.



أنموذج القدوة

والسودان يثوب اليوم إلىٰ الإسلام وهو يحمل كل هٰذا الركام. ويقتضينا الأمر فقهاً دقيقاً لنتبين هٰذا الواقع فنستصحب بقية الخير التي كانت تمثل قيم الإسلام أو بعض الخير الذي اهتدىٰ إليه السودان بتجربته البشرية، مما يمكن أن يكون وسيلة للتعبير عن قيم الدين، ولأن نميز بين هٰذا كله وبين ركام التجارب والتقاليد والأعراف المخالفة للدين، ويستدعي هٰذا الفقه

ذاته زمناً من النظر في شأن الواقع السوداني بهٰذه المعايير الجديدة التي لم نُحكم بَعْد استعمالها. ومن بعد هٰذا الاجتهاد الدقيق، يقتضينا الأمر جهاداً طويلاً لتجاوز هٰذا التاريخ والسعي إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ زلفىٰ. وقد يُجدينا جدًّا، كما أسلفت، أن نعرض الدين بالأنموذج السني الأول كما كان بالفعل، لأنه كان أنموذجاً انتقاليًّا، وهو أنسب للمسلمين في مراحل الانتقال ـ الانتقال من المجتمع الجاهلي إلىٰ المجتمع الإسلامي ـ منه في مراحل المضي علىٰ طريق مستقر؛ فالأسر المسلمة كانت أسراً يكتنفها كثير من الاضطراب والعقائد الباطلة أحياناً، وتطرح فيها قضايا الدينامية حول علاقات بآباء غير مسلمين.. وبأزواج غير مسلمين، والدولة المسلمة كانت كذٰلك دولة انتقالية، وإن كان قائدها يقوم معصوماً بهدي من الوحي، وهدي من الله، فإن جماعات المسلمين التي كانت تدخل الإسلام تَربَّت علىٰ جاهلية، وما انفكت فيها بقية من جاهلية، تطهر منها بعض الناس، ولٰكن لم يزل بعض الناس يعانون منها.

فالمجتمع الإسلامي الأول كان مجتمعاً انتقاليًّا، وكانت مشكلاته الحية شبيهة جدًّا بمشكلاتنا، وقد يبدو أن القياس إليه، والاعتبار به قريب، ولٰكننا نحن نأخذ من هٰذا الأصل مباشرة الذي حجبنا عنه، الفقه الإسلامي الخالف الذي ـ كما ذكرتُ ـ أخذ هٰذا الأنموذج الحي المتصل بالواقع، وبسطه علىٰ مائدة النظر، ورتبه ترتيباً جديداً يناسب النظر ولا يناسب الواقع.

***

استيقاظ أقدار التدين

◎ ليس من شك في أن المجتمع الإسلامي الأول الذي يمثل عملية الانتقال، هو المقياس في مرحلة مماثلة أو مشابهة؛ لأن نهوض أي مجتمع مرهون بتوافر شروط ميلاده الأولىٰ. لٰكن نحن مختلفون ـ كما قدمت ـ عن المجتمع الأول، بأن التدرج في التشريع والتطبيق كانا في المجتمع الأول مترافقين.

⊙ لعل ذلك مما ييسر أمرنا، فقد كانوا يتقدمون علىٰ طريق الإسلام إيماناً وتوكلاً وينتظرون الوحي من الله سبحانه وتعالىٰ ثم يلتزمون. فكان الأمر يقتضيهم درجة من الإيمان بالغيب، أما نحن اليوم فوراءنا عبرة التاريخ كله تهدينا، ووراءنا الصورة الكاملة للقبلة الإسلامية التي نستهدفها، فنحن إذ نخطو خطوة علىٰ الطريق، نتصور ما يتلوها من خطوات، إن لم يتيسر لنا أن نتمثل ذٰلك في واقعنا.

ثم إنهم بدأوا من جاهلية مطلقة في أمة أمية كانت محرومة من التراث الكتابي العام الذي يمهد لبعض المفهومات الدينية، أما نحن، فنقوم بحمد الله في مجتمع ليس بكامله جاهليًا، قد تكون فيه جاهليات وفيه ظلم، ولكنا نحذر أن نسميه مجتمعاً جاهليًا لأننا بذٰلك نظلمه. ولا تزال في كوامن فطرته أقدار من التدين، ولذٰلك - بالتذكير القليل - تستيقظ كل هٰذه الأقدار، وتكاد تُحدث معجزة في دفع التحول. وتُشاهد أحياناً في الفرد الواحد، كيف يحدث الانقلاب فيه من حادث يطرأ عليه، أو موقف يصدمه، فيذكّره بالله، فيحدث انقلاب هائل في حياته كلها، ويحدث مثل ذٰلك علىٰ صعيد المجتمع.

وإننا نشاهد اليوم - وهٰذه أيضاً مشاهد انتقال لا يكاد الإنسان يصدِّقها - كيف تتم المعجزات الحقيقية في الانتقال! وكيف نتصور المعضلة الكبيرة، التي نُقدر أنها ستكلفنا التكاليف، كيف ييسرها الله سبحانه وتعالىٰ، إذ يستيقظ الإيمان فيتصل بقوة الله سبحانه وتعالىٰ ذي الحول والطول، إن الله هو الموفق وبيده تصريف الخلق والأمر.

***

خطورة الإغراق في المثالية

وصور الانتقال بالرغم ممَّا يعتريها من مشكلات ومعضلات، إلا أنه كذٰلك تعتريها فتوح تبشر الإنسان وتعينه علىٰ مصادمة هٰذه المشكلات.

وقد كان - بحمد الله - طرحنا للإسلام في السودان، طرحاً واقعيًا موصولاً بالواقع، ولذٰلك قرَّبنا مُثُل الإسلام للواقع، وقدّمنا صورة للمسلم - ليس المسلم الملائكي الذي هو علىٰ قِمة الطاعات دائماً - ولٰكن المسلم البشري الذي يخطئ ولٰكنه إن كان خطّاءً فهو توَّاب أيضاً، كما قدّمنا صورة للحاكم المسلم الذي لا ينبغي أن يكون أعلىٰ مثال شهده التاريخ الإسلامي، بل علىٰ صورة ذٰلك المثال كما نقله إلينا المؤرخون الذين أرادوا - لأغراض تربوية - أن يُركِّزوا، بصورة أولٰئك الحكام الأفذاذ، علىٰ الإيجاب المطلق في سيرتهم، وتناسوا غير ذٰلك حتىٰ يُربونا بالتعلق بالصورة المثالية.

❋ ❋ ❋

الحاجة لإعادة كتابة التاريخ والفقه

◎ يُخشىٰ أن يؤدي الكلام والمبالغة في المثالية إلىٰ الوقوع في الوجه الآخر للقضية وهو التأكيد علىٰ استحالة التطبيق، والمساهمة السلبية بإبعاد الناس عن الإسلام.

⊙ صحيح، لأنه يُباعد بين تلك الصور؛ ولٰكن هٰذا كان اجتهاداً تربويًا من بعض المؤرخين: أن يرسموا صورة زاهية جدًا للتاريخ، وأن يذكروا محاسن الموتىٰ، وذٰلك ليحملوا الناس علىٰ الصعود.

ولٰكن مَن يلاحظ صور القصص القرآني يجد أنه يقصّ قصة الحياة كلها؛ لأن التدين هو الانتقال من الخطيئة إلىٰ المتاب، ومن القصور إلىٰ التكامل.

وليس التدين هو بلوغ هٰذه الحالة المثالية والبقاء عليها، فهٰذا مما لا يتيسر بشريًا، ولٰكن التدين هو هٰذه الحركة وهٰذا الانتقال، والانتقال مرحلة لا تنتهي، فمهما بلغ المرء من الطاعة يراوده الشيطان، لأن الشيطان مخلَّد، وتراوده الذنوب وتنتابه، فكأنه ينحط ثم يقوم، يسقط ثم ينهض، وهٰكذا دائماً، وهٰذه المعاناة هي لبّ التدين، ويُجدينا في واقع الأمر، أن نعيد كتابة

تاريخنا وكتابة فقهنا من جديد حتىٰ يكون فقهاً يُهيئُ أصحابه، وتاريخاً يكيِّف قارئه لأن يحققه في الواقع.

◎ كثرة الكلام عن المثاليات، من خلال واقع الضعف البشري، كأنه مُيَئِّس، وقد يُعطي نتيجة تربوية عكسية لما أراد له أصحابه، ويكون مساهمة سلبية، ومنافذ يخترق منها الأعداء الصفَّ الإسلامي بدعوىٰ أن الإسلام مثالي لا يمكن أن يحالفه التطبيق.

⊙ تماماً.. إن هٰذا القرآن هو كيمياء انصبَّت علىٰ واحد من أحط صور الواقع البشري. وكانت معجزة التدين أنه انتقل بواقع منحط جدًّا، وقدَّر الله أن يبعث هٰذه الرسالة لا في البلاد التي تهيأت بالحضارة، ولا في البلاد التي تهيأت بالثقافة الكتابية لها، ولٰكن في واقع بعيد جدًّا، وبالرغم من ذٰلك استطاعت هٰذه الكيمياء أن تُحوِّل هٰذا الواقع إلىٰ مثال أصبح قدوة في تاريخنا.

❋ ❋ ❋

ضمانات الاستمرار

◎ بعد أن دخلت التجربة السودانية مرحلة التطبيق العملي، ما هي ـ في نظركم ـ ضمانات الاستمرار، وتحديد الموقع المرحلي بالضبط من خلال الصورة الدولية المعقدة؟ ذٰلك أن المعادلة الدولية قد تتغير، والمعطيات من حولنا قد تتغير أيضاً، خاصة عندما تستشعر بعض الدول ـ التي لا ترىٰ من التجربة الآن إلا مواجهة الشيوعية في أفريقيا ـ جدِّيَّة التحول الإسلامي.

⊙ إن هدي القرآن يدلنا علىٰ أن المعَوَّل في حراسة الكسب الديني هو علىٰ قوة إيمان المؤمنين ووحدة صفهم. وأن الخلل والفشل وذهاب الريح يأتيهم من خلال العيوب الداخلية، ومهما اجتمع عليهم الناس أو جمعوا لهم، فإن ذٰلك قد لا يضرهم وقد لا ينقلبون منه إلا بخير زائد، ولذٰلك نحاول أولاً أن نوسع رُقَع تطبيق الإسلام في الحياة حتىٰ لا يكون تطبيق الإسلام

محاصراً في زاوية واحدة يمكن أن يقضىٰ عليها بيسر، وحتىٰ لا يظل ما يترتب عنها من بعث لتدين الناس محدوداً بحدودها.

فحاولنا أن نوسع رقعة التطبيق الإسلامي في مجالات الاقتصاد المختلفة ومجالات السياسة والمعاملات، بل في مجالات الحياة الشخصية بالسياسات التربوية المناسبة، وبذٰلك نضمن أننا حافظنا بقدر أوسع من الإيمان يُفجِّر طاقات أكبر عند الشعب. ونُعده بذٰلك ـ بهٰذه الطاقات الواسعة المتفجرة ـ ليجد كل مواطن، أيًا كان موقعه، مجالاً للدخول في هٰذه النهضة والثورة الواسعة، رياضيًا كان أو سياسيًا أو تاجراً، أو أميًا أو مثقفاً.

❋ ❋ ❋

الولاء الجديد

ثم إننا نريد أن نولِّد من هٰذه التشريعات، إيماناً بواقع الأمر، وهٰذا هو الجانب الذي لا يدركه كثير من الناس؛ إذ يحسب الناس أننا قنَّنَّا القوانين لتنضبط بها مؤسسات الدولة ومحاكمها وشرطتها وموظفوها، ولٰكن الذي وقع في نفوس الناس أكبر بكثير من أثرها المباشر في تطبيق حدود الشرع أو أحكام المعاملات: زاد إيمان الناس زيادة واسعة، بل إنها أصبحت الآن هي مركز ولاء جديد للمجتمع، فقد ظل المجتمع السوداني لعهود طويلة مقسماً إلىٰ طوائف وأشكال ورثها من تاريخه، ولٰكنه الآن يموج بحركة ستبدل علاقاته الاجتماعية وخارطة الولاء السياسي فيه، وتتجمع منه أقدار هائلة نحو مركز ولاء جديد، وذٰلك يعني أن الصفّ الواعي بالإسلام، بتحديات الإسلام المعاصرة، سيصبح بإذن الله صفًا كثيفاً مرصوصاً.

وحتىٰ مراكز القوة في هٰذا المجتمع، التي ربَّاها الاستعمار من قبل وكيَّفها لتكون هي حيثيات للنظام العلماني الذي فشل في البيئة الإسلامية، وخُشي أن تحاصره هٰذه البيئة، وأن تمتصه، كالقوات المسلحة والقضاء

والخدمة المدنية والجامعات، هٰذه المؤسسات زرعها الاستعمار وقوَّاها ومتَّن بناءها، وجعلها أمينة علىٰ حراسة تراثه، وظلت عهداً ما، كلما تطلع الشعب وهاج بتطلعات نحو الإسلام، قمعته، إن لم يكن بقوتها المادية فبقوة قهرها الأدبية.

هٰذه المواقع، بإذن الله، من أولىٰ المواقع التي صوَّبنا إليها الانتقال نحو الإسلام، فالجيش يتحول بتوجهاته القديمة وتصوره القديم لوظيفته إلىٰ توجهات جديدة، وإلىٰ تصور ديني لدوره في الحياة، ويتسع فيه الالتزام الإسلامي، وتتلاشىٰ تقاليد الوجود القديم، وكذٰلك مراكز الثقافة الإسلامية التي لا تزال تحمل بعض أشكال وأسماء ترمز للتوجه القديم، إلا أن مضمونها قد دخله الإسلام ووقع فيها انقلاب.

فالجامعات انقلبت من قواعدها، وسيخر السقف من بعد ذٰلك إن شاء الله، وكذٰلك القضاء الذي كان واحداً من أكبر مؤسسات العلمانية في البلاد، وهو لمَّا خوطب بالقوانين الإسلامية تثاقل شيئاً ما من أن يتحول عن مألوفه إلىٰ هٰذه القوانين الغريبة، تُتخذ الآن تدابير للتحول به تحولاً يهيئه لاستقبال هٰذا الجديد وحمله بإذن الله، وإن يسَّر الله لنا فسحة من الوقت، ستقوم في السودان، إن شاء الله، قوة شعبية ومؤسسية تمتِّن الإسلام.



مشكلة الجنوب

وهناك أمر نريد أن نتوجه إليه وهو أن جنوبي السودان كان ثغرة واسعة هيأها الاستعمار كذٰلك بمحاصرته لها وبتكييفه لها ثقافيًا بما يجانب الوجهة الثقافية السودانية، بأن تكون دائماً سلباً علىٰ إسلام السودان وخصماً للتدين. وتتوجه الآن ـ كذٰلك ـ طاقات من الدعوة الإسلامية ومن العمل الإسلامي الاجتماعي ومن الجدالي والحواري مع غير المسلمين، حتىٰ نحيط بهٰذا الكيان ونجعله معيناً للإسلام لا خصماً له، بإذن الله.

يضاف إلىٰ ما سبق أن أشرت إليه من أننا نصوب طاقات التدين بأقدار هائلة نحو الاقتصاد حتىٰ تكون لنا من قوة الاقتصاد ما يُمكن أن نُقاوم به ضغوط الباطل.

❋ ❋ ❋

سنة المدافعة ومواجهة التحديات

وبهٰذا الإعداد نستعد كذٰلك للتحديات. نحن نعلم أن الدِّين لا يمكن أن يقوم اليوم في بقعة معزولة، ولا يمكن أن نبني حائطاً حديديًا نحمي به ناشئة الإسلام في السودان حتىٰ يقوىٰ عودهم؛ لأننا مضطرون أن نقيم الإسلام في الشمس وفي الأعاصير وفي قلب الدفوع الدولية.

ونعلم أنه كلما تبلور الواقع الإسلامي وبدت أصالته وبعض آثاره، اشتد الفزع من مستقبله. وكلما نشط الحق نشط الباطل في وجهه أيضاً، وتلك سنة من سنن الله الذي قدَّر أن يقابل بين الحق والباطل، ابتلاءً لعباده.

ونحاول في صلاتنا العالمية أن نبسط بالحسنىٰ، وأن نراقب مَنْ حولنا من العالم، مسلمين وغير مسلمين، ونُبَصِّرَ بما يجري في السودان حتىٰ لا يفزع بعض المسلمين من هٰذا التحول الذي تترتب عليه تطورات مفزعة لاستقرار الأوضاع والمصالح الراهنة، وحتىٰ لا يُفرط الغرب كذٰلك في فزعه، فإننا نحاول أن نقدم لهم صورة بإيجابيات الإسلام لهم ـ لأن الإسلام جاء لكل الناس ولم يأتِ للمسلمين وحدهم ـ وما فيه من خير للبشرية ومن عطاء لحضارتها.

ونحاول بالجمع الذي نجمعه، وبالعدة التي نعدها أن نرهب عدو الله كذٰلك من أن تحدثه نفسه بأن يستهين بشأن الإسلام وأن يكيد له؛ حتىٰ يعلم أنه إن حاول الكيد سيكاد له، وإن مدَّ يده ستقطع بإذن الله.

ذٰلك بعض من جملة من السياسات الخارجية الجديدة، وهٰذا وجه من

وجوه الدعوة إلىٰ الإسلام لم نجرِّب منها إلا قليلاً لأن الحركات الإسلامية كانت منكفئة في بطن المجتمع وقليلاً ما كانت تتصل بالعالم الخارجي أو تضطر حتىٰ إلىٰ تصور مواقف إسلامية فيه.

❋ ❋ ❋

دخول السياسة الخارجية في الدين!

◎ ولذٰلك ستفاجأ بكثير من المواقف لأنها تبدو جديدة عليها.

⊙ نعم.. لقد دخلت السياسة الخارجية كما دخلت كل السياسة اليوم في الدين، دخولاً واسعاً، وأصبحت لنا مصالح الآن في موقف كل قوة عظمىٰ أو صغرىٰ لأن العالم كله يموج بالتفاعلات، ولا تقوم دولة بشأنها، قوية كانت أو ضعيفة، فكما تحتاج الضعيفة للقوية، تحتاج القوية لسوق الضعيفة ولتابعيتها، وهٰذا وجه جديد من وجوه الابتلاء ووجوه الفقه سنحاول أن نقتحمه بإذن الله، بزاد محدود من الاجتهاد؛ حتىٰ نحمي ناشئة الإسلام، ولا نقول نحميها وحسب، لأن الدفاع ليس إلا مرحلة، والقصد في نهاية الأمر أن يمتد هدي الإسلام، وأن ينتشر، وألّا نكون مستقلين عن الناس ولٰكن أساتذة هداة للناس.

ونعلم أن الأنموذج السوداني، بسعة مداه، سيكون لافتاً للنظر، وسيصوِّب الناس إليه النظر وقد يكون مبشراً أو يكون منفراً، ولا نريد أن نصدّ عن سبيل الله، ولٰكن نريد أن نهدي إلىٰ سبيل الله، ونستشعر لذٰلك قدراً هائلاً من المسؤولية، عن بلادنا وعن العالم أجمع، ذٰلك العالم الذي ينظر إلينا اليوم، لا بعين موضوعية مجردة صادقة ولٰكن بعين فيها كثير من الارتياب، وبقلوب فيها كثير من التحامل علىٰ الإسلام. ونحن مضطرون في وجه ذٰلك كله أن ننفذ بصورة إسلامية مُشرقة بما يجري في السودان.

❋ ❋ ❋

مؤسسات شعبية للرقابة العامة

◎ **هل من ضمانات الاستمرار التفكير بإقامة مؤسسات شعبية للرقابة العامة ـ أو ما يمكن أن يسمىٰ بالمصطلح الإسلامي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ ليس من خلال الصورة المترسبة في أذهان الناس لبعض صور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي تأخذ جانباً من الحياة وتهمل أو تنصرف عن الجوانب الأخرىٰ ـ وذٰلك حتىٰ تشكل هٰذه المؤسسات بعض الضمانات علىٰ المستوىٰ الشعبي، وتكون معينة وليست بديلة ولا مقابلة للمؤسسات الرسمية، حتىٰ نتفادىٰ مخاطر الازدواجية، وما يمكن أن يكون من صراعات خفية أو معلنة؟**

⊙ لمَّا لم يكن المشروع الإسلامي تنزيلاً من تلقاء الدولة وحدها، وإنما كان دعوة لروَّاد من الدعاة اتسعت واتخذت بعداً جماهيريًا، فأصبحت توجهاً شعبيًا تجاوبت معه الحكومة، فقد كانت التشريعات الإسلامية تكاد تتوزع لتستجيب لحاجات هٰؤلاء وأولٰئك. فإذا كانت بعض التشريعات مما يلي الحكومة ومحاكمها، **فقد كان من أول القوانين التي صدرت قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**. وهو لا يضبط ـ بالطبع ـ الشعب لأن يكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر مرهوناً بإشارة من الحكومة، **ولكن ليتيح للشعب أُطراً من التنظيم، حتىٰ يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منظماً وفعالاً في المجتمع**.

ويؤسِّس هٰذا القانون علىٰ إيلاء المبادرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشعب في تنظيماته المختلفة، وللشعب أفراداً. **ولعلَّ ضآلة البناء السياسي والحكومي الإسلامي في تاريخ السودان قد اضطر السودانيين قديماً لأن يقوموا ـ شعباً ـ بكثير من مهمات العمل الإسلامي، وأداء كثير من الوظائف التي يكلها مسلمون في أماكن أخرىٰ لحكومة** يثقون بها وتؤدي دورها بفعالية.

إن غياب الدولة الإسلامية لعهود طويلة في السودان اضطر أهل

السودان لأن يقوموا بخاصّة أمرهم. ولذٰلك فإن قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يبنىٰ علىٰ تقاليد واسعة في التنظيم الاجتماعي وفي الإيجابية الاجتماعية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وليس من شك في أن **المجتمع الإسلامي الأمثل ـ ولا أقول المثالي ـ هو المجتمع الذي يقوم فيه الناس بأغلب شؤونهم، ويتضاءل فيه دور السلطان لأضيق الحدود،** لأن السلطان يستعمل أدوات القهر والأحكام الظاهرية، أما الدين ـ بجوهره ـ فهو مواقف للوجدان، وطاعة الله سبحانه وتعالىٰ يجزي عليها الإنسان يوم القيامة، وكلما تديَّن المجتمع وأفراده، من تلقاء أنفسهم دون أن يرهبهم سلطان، ولٰكن رهبة للّه سبحانه وتعالىٰ ورغبة فيما عنده، يقومون بأغلب وظائف الدين.

***

محاصرة الشر والحد من آثاره

لقد شهدنا مراحل من تاريخنا الإسلامي السالف قامت الحكومة في بعضها ببعض الصور غير الشرعية، إلَّا أن الفقهاء حاصروها حتىٰ لا ينشروا هٰذا الشر علىٰ المجتمع، وخاطبوا المجتمع رأساً ليقوم بوظائف التعليم ووظائف العلاج والتكافل الاجتماعي وعون الضعفاء احتساباً. ولذٰلك قام المجتمع بأغلب الوظائف التي هي في مجتمعات أخرىٰ متروكة للدولة.

ونحن الآن في السودان، من خلال قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن خلال البناء علىٰ هٰذا التقليد الحميد في التاريخ الإسلامي وفي الواقع السوداني، نريد **أن يتكامل الجهد الشعبي والجهد الحكومي**. وبالطبع ـ نظراً لطول غياب الحكومة الإسلامية عن الواقع ـ تعطلت بعض الوظائف التي لا يمكن أن تؤدىٰ إلَّا من خلال السلطان لأنها تقتضي دقة في التنظيم لا تناسبها عفوية التنظيم الاجتماعي، كما تقتضي كذٰلك بسطاً لقوة الإسلام المادية بما لا يُتاح من خلال العمل الاجتماعي. ولذٰلك، **أحسب أننا في**

دوْر الانتقال سنكِل إلىٰ الدولة أن تقود المجتمع، وأن تؤدي كثيراً من الوظائف، ولكن تؤديها بوجهٍ يُربي الشعب بمقاصدها حتىٰ يُمكن ـ في مرحلة متقدمة إن شاء الله ـ أن نولِّد فقهاً جديداً، يوزع وظائف الحياة توزيعاً مختلفاً، ويمكن للسلطان أن يتقلص شيئاً ما لينتهي عند حدود الضرورة الشرعية ويقوم المجتمع عفواً، من تلقاء دوافع الدين، بعامة أمره.

❊ ❊ ❊

قصور الفقه السياسي

◎ من المعروف أن الفقه السياسي قد توقف عن النمو من زمن بعيد، حينما انفصل السلطان عن القرآن، بينما استبحر واستمر النمو في الفقه التشريعي والعبادي، الأمر الذي قد يجعل المكتبة الفقهية الإسلامية ـ في مجال الفقه السياسي ـ تبدو عاجزة في بعض الأحيان عن مدِّ التجربة الإسلامية بقدرٍ كافٍ من الفكر الفقهي ييسر أمامها رؤًى ومواقع جديدة، مما يتطلب اجتهاداً ضمن إطار مقاصد الشريعة وقواعدها العامة، فكيف يمكن معالجة ذٰلك، خاصة أن الدولة الحديثة اضطلعت بوظائف جديدة وحققت آفاقاً بعيدة ومعقدة علىٰ المستوىٰ الداخلي وفي مستوىٰ العلاقات الدولية؟

⊙ كان قدر المسلمين في تاريخهم أن يكون أول ما عطَّلوا من التدين وأكبر ما قصروا فيه هو جانب السياسة؛ ففتنة الصراع السياسي أحاطت بهم، ولم يقوموا بقدر من التدين يكافئ قدر هٰذه الفتنة التي تعاظمت بانتشار الإسلام السريع ودخول طوائف وقوًى سياسية منفعلة بتاريخ السياسة اللادينية الجاهلية، ولذٰلك تبدَّل نظام الخلافة، وأصبح السلطان في كثير من جوانبه لا يقوم علىٰ نيَّات التدين. وبُعد الواقع السياسي عن العقيدة شيئاً ما ـ ولا أقول خرج منها تماماً لأن معاني الدين بقيت تُظَلِّل الدولة الإسلامية إلىٰ عهد قريب حتىٰ مرقت عمداً وسفوراً من بعد سقوط الخلافة العثمانية ـ **ومع انحسار الواقع ينحسر الفقه لأن العلم والعمل متلازمان**، فإذا اتسع العمل

اتسع معه العلم، وإذا اتسع العلم اتسع معه العمل، وإذا انحسر العمل كذٰلك انحسر معه العلم، **فالفقهاء زهدوا فيما عند الحكام، والحكام أدبروا عما عند الفقهاء في مجال السياسة خاصة**، ولذٰلك تضاءل الرصيد الفقهي السياسي في تراثنا.

وتعقدت علينا هٰذه المشكلة في السودان، لأن السودان لم يكن من البلاد التي فُتحت وتأسست فيها نظم للإسلام، ولذٰلك تبقىٰ بقية من بعض صور التطبيق الإسلامي القديمة يُمكن أن تُكيَّف وتُطوَّر. ولم يمارس السودان الدولة الإسلامية بمعناها الواضح السافر إلَّا لماماً.

وبالرغم من أننا حاولنا ـ من تجربة الغرب الكثيفة في مجال السياسة ـ أن نُقايس، كما حاول بعض المفكرين المسلمين أن يقدروا كيف تكون الأحكام الإسلامية في واقع حضري كثيف تقوم فيه سلطة واسعة الوجود، إلَّا أن هٰذه **المبادرات الفقهية** التي ظهرت أخيراً، بين يدَي تحديات الواقع، لا تكاد تغني شيئاً، وإنْ كان لنا كسب من الفقه الشعائري ومن فقه الأحكام في الأحوال الشخصية بل في المعاملات المدنية، لا بأس به، وإن كان يحتاج إلىٰ استكمال الكثير؛ إلّا أنه إذا قسنا إليه رصيدنا من الفقه السياسي ألفيناه ضئيلاً جدًّا في واقع الأمر.



معادلات جديدة

◎ **لا شك، أن وظائف الدولة تبدَّلت وعلاقاتها تعقَّدت؟**

⊙ وانتصبت مشكلات للمعادلة بين الحاكم والمحكوم، بين استقرار الحكم وقوته، لا سيما أنه حكم تُناط به مهمات انتقال وتحول إسلامي، لا تحول فقط إلىٰ التزام معايير شكلية، ولكن **تحرك بالمجتمع كله نحو قوة اقتصادية وسياسية جديدة، وأنه يُجابه انقضاضاً من العالم كله علىٰ التجربة الإسلامية**،

فلذٰلك لا بد من أن تتقوىٰ الحكومة. **كيف نعادل بين هٰذه المعادلة وبين معادلة الحرية والشورىٰ داخل المسلم؟** كيف نعادل بين **حق المسلم في أن يرىٰ رأيه** وألّا تحده دون رأيه عصبية، وبين **ضرورة تنظيم الرأي العام في توجهات** حتىٰ يسهل الحوار بين توجهات متعددة ولا يختلط الرأي هٰكذا؟ هل يمكن أن **نتيح مجال التنظيم حتىٰ ينتهي إلىٰ أحزاب وإلىٰ عصبية جديدة تمزق وحدة الأمة،** أم نخشىٰ من ذٰلك ولا يتأتىٰ لنا - إن بسطنا الحرية - إلَّا ارتباك وفوضىٰ واسعة؟

⊙ إنها قضية معقدة! ويزيدها تعقيداً أنها تطرح في ظروف انتقال، **والشعب المسلم غير مهيأ، ولا تزال فيه عصبيات، ولو أطلقت له الحرية فإنه لا ينطلق بالإسلام** وإنما ينطلق بكثير مما ورثه من قبل، وبذٰلك تتعقد علينا هٰذه المشكلة بأنها تطرح في مرحلة انتقال. وصور الحكم - حتىٰ التي نحاول أن نتمثلها - تفترض حاكماً ومحكوماً وإماماً ومأموماً علىٰ ذاك القدر من الوعي بالدين والانفعال به والعلم به كذٰلك. وحتىٰ الكُتَّاب يصورونها هٰكذا ويتوهمون أن كل المجتمع يقوم بحدّ أدنىٰ من الإيمان ومن العلم ومن المجاهدة بالإسلام؛ ولذٰلك يرتبون الصور علىٰ هٰذا الاستصحاب، ولٰكن الاستصحاب يتخلف في مراحل الانتقال. وينسون - كما قدرت - مُدخلات العوامل الخارجية؛ لأن ثمة قُوًى تحيط بالعالم الإسلامي وتتخلله، وتكاد تؤثر علىٰ اقتصاده وعلىٰ ثقافته، وتقهره بالدعاية.

ولذٰلك إذا أُطلقت الحرية استغلت لتدخل منها مُدخلات غريبة علىٰ الدين، **وإذا توجهت الحرية نحو الإسلام وُئِدت وأُجهضت، وفُرض علىٰ المسلمين نظام قهري حتىٰ لا يتمهد لهم طريق الإسلام؛** بالرغم من أن الغرب يتشدق بالديموقراطية؛ فلذٰلك يتعامل المرء مع شعب غير كامل الوعي والتدين، ويتعامل مع قوة تكاد تكون في فعلها في المسرح الداخلي أقوىٰ من قوة الشعب مجتمعة، وقوة أقوىٰ من أحزابنا وطوائفنا وتجمعاتنا التاريخية في أثرها علىٰ الحكومة الواحدة.

❋ ❋ ❋

من جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام

◎ ولٰكن لا بد من التحقق بقدرٍ من الحرية كبير يميز التوجه الإسلامي عن الأنماط الأخرىٰ التي أهدرت إنسانية الإنسان تحت عناوين شتىٰ ومسوِّغات مضحكة من منطلق الاستبداد السياسي الموجود في كثير من بلدان العالم العربي والإسلامي، حتىٰ الذي ينسج علىٰ منوال أوروبا، يحاول أن يتهم الشعوب بوعيها وبقدرتها علىٰ التعامل مع جو الحرية ولذٰلك يأخذها بلون من الاستبداد السياسي، ولا ندري: كيف يمكن، إذا لم تكن مكتملة الوعي، أن يكتمل وعيها بالظلم والاستبداد السياسي؟ فقد يكون المطلوب أن تتحقق التجربة بقدرٍ من الحرية مميز؛ ذٰلك أن التوجه يعني - أول ما يعني - الخروج من جور الأديان إلىٰ عدل الإسلام، وإلَّا افتقد التوجه مقوِّمات وجوده.

⊙ إن الغرب الذي ينعي علينا نظمنا التي يتهمها - استبداداً - يفعل ذٰلك ليكيد لصورة المسلمين. فإذا رأىٰ توجهاً عند المسلمين للحرية، **والحرية عادة تفتح الباب للشعب** والشعب منفعل بالدين، وأد تلك الحرية بفعله حتىٰ تظل التهمة متعلقة بنا، وحتىٰ ينسد الباب أصلاً دون الإسلام، ولٰكن صحيح ما تقول: **إنه لا بد من توفير قدر واسع من الحرية لأنه لا يمكن للتدين أن ينمو إلَّا في مناخ الحرية**، وما قام نبي إلاَّ دعا أن يعمل كلٌّ علىٰ شاكلته، ويعمل كلٌّ علىٰ مكانه، وألَّا يُلزم الواحد أخاه، وألَّا يُكرهه علىٰ الدين لأن **التدين هو تحرر من واقع القهر والسلطان**، وحتىٰ يتعبد الإنسان للّه سبحانه وتعالى. **فالحرية لازمة من لوازم التوحيد وضرورة من ضرورات تنمية التديُّن**، ولا بد من أن نهيئ لها المسلمين؛ لأن المسلمين لم يتهيأوا لهٰذا القدر من الحرية، فقد عهدوا في تاريخهم كله - ولا أقول في البناء السياسي وحده بل في البناء الاجتماعي أيضاً - قدراً كثيراً من التعبد والتذلل للسلطات البشرية، فكان الفقيه دائماً يلقي بالفتوىٰ ولا يُناقش أبداً، ولا دور للعامي إلَّا أن يتلقىٰ وينفذ دون أن يُداور ويحاور، وكذٰلك في طوائفنا الدينية **تجد الأتباع كأنهم لا شيء**، عطَّلوا الدين كله وأصبحوا يتحركون

بإشارة، فنحن لنا تقاليد اجتماعية وفكرية وسياسية تكرس بعض الممارسات المخالفة لقيمنا.

❊ ❊ ❊

الفزع من الحرية عطّل الحياة الإسلامية

ثم إن **المسلمين يفزعون جدًا من الحرية**، حتىٰ الذين يدعون إلىٰ فتح باب الاجتهاد مثلاً، وإذا جئت برأي جديد ـ وهو بالطبع نتيجة لازمة للحرية ـ قامت الدنيا كلها: من أين أتيت بهٰذا؟ ومن أين نقلته؟ ولم نسمع بهٰذا في آبائنا الأولين! **فكثير من المسلمين يخافون من الحرية، ويرون أن للدين في كل فرعية دقيقة من فروع الحياة رأياً واحداً** ننتظره من أفواه العلماء وننبش التراث حتىٰ نقف عليه.

والحرية إذا اتسعت، اتسعت الآراء وازدهرت وتكاثرت، وإن كان في الدين يقينيَّات وقطعيَّات يجمع عليها الناس فستقوم حولها آراء واختلافات وظنيَّات واسعة. **والله سبحانه وتعالىٰ ابتلانا بهٰذا القدر من الظنيَّات**، وهو الذي قدَّر أن تكون واسعة بهٰذا المدىٰ، ولا يمكن أن نعطِّل هٰذا الابتلاء بأن نردّ الدين كله إلىٰ قوالب جامدة، **فلا بد من إتاحة الحرية حتىٰ يألفها المسلمون ولا يفزعوا من الخلاف مثلاً** ويحسبوا كل خلافٍ فتنة، ولا يقدروا أن كل شيء في الدين قطعي، فإذا اتسعت أمامهم الطرق تبلَّدوا واحتاروا وارتبكوا ارتباكاً واسعاً.

وسنحاول إن شاء الله في الأنموذج السوداني، بالرغم من التحديات المحيطة به، وبالرغم من أنَّ هٰذا المجتمع الذي نُقيم فيه الدين اليوم بأتمّ وجوهه، مجتمع معقد مركب متباين له حدود واسعة وعلاقات واسعة بالمجتمعات الأخرىٰ، وتلك السعة فيه تولِّد كثافة مما تموج به الحياة السودانية، بالرغم من كل ذٰلك ـ واستعانة بالله سبحانه وتعالىٰ ـ **سنحاول أن نوسع الحرية؛ لأن التزام الإسلام ذاته يهيئ لنا قدراً من الانضباط ومن الاستقرار** الذي يحول دون الفوضىٰ التي يمكن أن تتحقق من قضية الحرية؛

ولأننا بالأمس كنّا نخاف إذا فتحنا الباب من أن تُستقطب البلاد والأحزاب، ويتشتت ولاؤها للخارج، وتتمزق أشلاءً، ويضيع الكيان الذي نعده لمستقبل الإسلام، لٰكن الآن، وبعد هٰذا الانفعال الواسع بالدِّين، اكتشفنا وحدة جديدة، وهٰذه **التحديات ذاتها تضطرنا إلىٰ أن نضم هٰذا الصف**، ويمكن في هٰذا المجال أن يتاح لنا أن نتسع في الحرية السياسية بقدر كبير إن شاء الله.

❊ ❊ ❊

الحرية مؤشر التحول الإسلامي

◎ هٰذا ما نتمنىٰ أن يتحقق؛ لأن المؤشر الصحيح للتحول الإسلامي سوف يكون رهين الحرية السياسية؛ لأنه ـ كما تعلمون ـ سادت في التاريخ الإسلامي مسوغات لقضايا الاستبداد السياسي، وتكلموا بالمستبد العادل، وغير ذٰلك. فالأمر هو صناعة مسوغات للظلم في قوالب أخرىٰ، تحت مظلة أو عناوين إسلامية.

⊙ لعلَّك تدرك أنه في أيام الاستبداد السياسي يُزيَّن للناس أن يبحثوا عن مسوغاته، وأن يؤولوا الآيات والأحاديث والمعاني الفقهية لمصلحة المناخ الذي يعيشون فيه، وأن يبالغوا من الخوف من الفتنة والفرقة، ومن الظنيات في الدين عموماً.

◎ بينما الخوف من بقاء الأخطاء وبقاء الانحراف وحراسة الظلم أشد.

⊙ **الدين كله ثقة بالإنسان** لإتاحة الحرية له حتىٰ يتحرر من أسر الطبيعة والمجتمع وأسر الحكام ليخلص التعبد للّٰه سبحانه وتعالىٰ؛ هٰذا هو جوهر التدين الذي لا بد أن يتمثل في حركتنا الفقهية، وفي تنظيم الأسرة والجماعات الإسلامية، وفي تنظيم دولتنا أيضاً. فهٰذه قيمة أكبر بكثير من الأحكام الشرعية الكثيرة التي تؤسس معنىٰ الشورىٰ ومعنىٰ المناصحة ومعنىٰ عدم استعباد الناس.

◎ ولٰكن مع الأسف بقيت في الكتب بالنسبة للحياة الإسلامية لفترة

طويلة من الزمن، والصف الإسلامي كان عاجزاً عن احتمالها أو لا يرغب في ممارستها بسبب بعض التخوفات أو الأوهام التي يمكن أن تدخل عليها.

❊ ❊ ❊

التوجه صوب الإسلام مطلب جماهير الأمة

◎ لا شك بأن التوجه الإسلامي، كما بدا في السودان ـ وكما هو واقع المسلمين جميعاً بعد رحلة الضنك التي عاناها من التطبيقات غير الإسلامية وما إلىٰ ذٰلك ـ مطلب جماهيري؛ وإن كان الفضل في تجديد ذاكرة الجماهير المسلمة تجاه القضية الإسلامية، وتكوين الوعي الجماهيري يعود لروّاد يمثلون سرايا الاستطلاع للواقع والتحديات، واكتشاف أمراض المجتمع والتبصير بها.

فكيف يمكن للعاملين للإسلام أن يضمنوا الاستمرار، بالفاعلية الجماهيرية نفسها، في حمل أهداف الأمة، وعدم الرجوع إلىٰ مواقع خاصة، أو تشكيل طائفيات، أو طبقة خاصة تنسب إليها هٰذه المكاسب، فيخدعها ذٰلك عن أداء وظيفتها الرسمية فتنتقل القضية من إطار القيم والأفكار لتحبس في إطار الطوائف والأشخاص؟

⊙ من أخطر الابتلاءات التاريخية التي تُجابه الحركات هي أن تتحول من حيث لا تدري من دعوة منفتحة مقبلة علىٰ الناس، تريد أن تستوعبهم للإسلام ولا تنحصر في ذات أمرها ولا تعكف أو تطوّف حول نفسها، إلىٰ **طائفة مغلقة تزدهي بتاريخها وبرجالها** وتريد أن تحتكر الفضل والعلم والكسب كله.

والنظر في عبرة تاريخ كثير من الحركات التي بدأت، ثم ـ من حيث لا تدري ـ تحولت هٰذا التحول المؤسف، **وعظنا بعض الشيء** هنا في السودان. وظلت حركة الإسلام فيه تحاول أن تنتبه دائماً إلىٰ هٰذه العلل التي

يسري إليها من هنا وهناك؛ **فهي لم تقم أبداً يوما من الأيام باسمها المتميز، لأن الاسم ذاته محور للتعلق الطائفي**، وإنما تحاول دائماً أن تدخل في جبهة واسعة من جمهور الإسلام، **وتركز على القضية التي يُدعىٰ إليها لا إلىٰ الداعين إليها**. وتركز علىٰ الرسالة دون الرسول. والحمد للّه الذي هيأ لهٰذا المنهج المتفاعل مع المجتمع، الذي لا يجدِّد فقط وظائف لجماعة صغيرة مهما كانت صفوة في الإيمان. ولٰكنه يعبئ طاقات الإيمان في مجتمع واسع. وأحسب أنَّ هٰذه الفاعلية الاجتماعية الواسعة هي التي يسَّرت للسودان توجهه، فلم يكن أكثر البلاد تأهلاً من حيث استقلاله الفكري أو السياسي أو حتىٰ من حيث عراقة تراثه الإسلامي؛ ولٰكن الاتساع **بتعبئة الطاقة الإسلامية الكامنة** في الشعب كما يسّرت **للإمام المهدي** قبل مائة عام في السودان أن يعبئ أهل السودان السذج حول قضايا الدين، وأن يصدم الاستعمار ويكسره في وقت كان الاستعمار فيه أقوىٰ ما كان - كان في عنفوانه وشبابه، وكان يبسط سلطته كذٰلك - يسرت للسودان الآن، رغم كل التحديات التي تحيط به؛ وما ذٰلك إلَّا بفضل الطاقة الشعبية الواسعة وبفضل الله من قبل ذٰلك؛ لأن ملايين من المسلمين يدعون إلىٰ الله ويجاهدون في سبيله، أقرب إلىٰ الله من فئةٍ قليلة مهما كان إيمانها. إن توفيق الله سبحانه وتعالىٰ **يتجلّىٰ هنا في كثرة الملتمسين لهٰذا التوفيق**.

❊ ❊ ❊

الامتحان العسير

ونحمد الله أن **الإطار السياسي** الذي طرح فيه هٰذا المشروع الإسلامي والأدب الذي تأدبت به **الحركة الإسلامية** يمهد مناخاً صالحاً لأن يكون الشعب كله منفعلاً، حكومة ورعية ورعاة؛ حتىٰ الذين كان لهم تاريخ طائفي، انحصروا في هٰذه الرسالة التي استوعبتهم الآن، وكسرت حاجز العصبية، وكان يمكن أن ينفضُّوا عنها لأنها لم تأتِ من تلقاء ما عهدوا من قياداتهم ومراكزهم.

والحركة الإسلامية لمّا انفعلت بهٰذه السماحة وهٰذه السعة، **أعدت كذٰلك غيرها من الجماعات**. ولو أنها زهت بأمرها وأرادت أن تسلب الفضل، لنفرّت كثيراً من المسلمين، ولوقع التحاسد والتباغض بين الناس ولسقط بينهم الحق.

◎ ولانتقلت ـ أيضاً ـ من وسيلة إلىٰ غاية، ولكانت سبباً في الإساءة للحقيقة الإسلامية.

⊙ نعم.. ونحن بالطبع لا نضمن، مهما اعتصمت الحركة الإسلامية بدواعي تجديد ذاتها، ولٰكن لا نريد أن نكِل أمر الدين لأية جماعة كانت، وإنما الجماعة المجاهدة الداعية هي مثل الفرد المجاهد الداعي ينبغي أن يفني ذاته وأن يستشهد في سبيل الله سبحانه وتعالىٰ. **فحركة الإسلام** التي كانت مؤهلة بشيء من زاد الفقه، والزاد الإيماني **تفنىٰ اليوم في المجتمع. وكلما تحقق للمجتمع وجود وحضور للإسلام كلما ذابت هي فيه لأنها ليست غاية لذاتها**، وهٰذا امتحان عسير في مراحل الانتقال لكل حركة. وكثير من الأحزاب التي ادّعت أنها طلائع لتحول اجتماعي لمّا وقع تحوُّل اجتماعي، أصرّت علىٰ أن تظل هي متمكنة في السلطان. وتحتكر السلطة، وأضر ذٰلك بقضيتها ذاتها؛ لأنها بدلاً من أن يحاصرها الأعداء الذين يريدون أن يكيدوا لها، **رضيت هي بأن تحاصر نفسها**، وبدلاً من أن يعزلها غيرها، **اعتزلت هي وتجردت، وأصبحت جسماً منفصلاً عن المجتمع.**

وهٰذا يقتضي شيئاً من الصبر ومن التربية. فكلما اتسع الإسلام، ضعفت هي.

❋ ❋ ❋

الموكب الإسلامي

◎ المشكلة قد تكون ـ إلىٰ حدٍّ بعيد ـ بسبب من سيطرة الصفات الحزبية علىٰ أخلاق الدعاة، الأمر الذي أوقع بعض جوانب العمل الإسلامي بمشكلات، وحال دون بلوغه المدىٰ المطلوب؟

⊙ هٰذه الصورة المثالية للتدين التي ترىٰ أنه ليس أهلاً لأن يكون واحداً من الرعية المسلمة، إلَّا مَن بلغ قدراً هائلاً من الإيمان والإخلاص والجهاد والتقوىٰ ـ وهٰكذا ـ صورة غير صحيحة؛ **فالموكب الإسلامي يستوعب الناس أجمعين،** ولكلٍّ دوره ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوٓاْ﴾ ولربما الضعيف الذي يستوعبه الموكب، لو أن الموكب عزله لظلَّ مرتكساً في جاهليته، ولٰكن إذا حمله الموكب فلربما تستيقظ فطرته، ويصبح من السابقين، ويتجاوز بعض قُدامىٰ السابقين. وهٰذا ظهر لنا حيث إن **كثيراً من الغافلين القاعدين الذين كان يمكن أن نُباهيهم بكسبنا، لمَّا انفتحت حالة الإسلام، تقدموا.**

◎ في الحقيقة عندما تكون العلامة والتقدير للقيم وليس للأشخاص تنتهي هٰذه المشكلة.

⊙ وهٰذا هو معنىٰ الدين؛ حتىٰ بالنظر لشخصية الرسول ﷺ، فقد كان القرآن يعلِّمه هٰذه المعاني: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ كان الكفار يركزون علىٰ شخصية الرسول ﷺ ويهاجمون رسالة الإسلام من خلال هجومهم علىٰ الرسول ﷺ وهو دائماً يذكرهم بمضمون الرسالة. وبعض المسلمين ـ ضعاف الإيمان ـ كانوا يتعلقون بشخص الرسول ﷺ.

◎ وفي تقديري حتىٰ عدم التسمية بمحمديين بالنسبة إلينا، كانت ذات مغزًى وأثر عظيم؛ إذ ارتبطنا بالقيمة ولم نرتبط بالشخص عبر التاريخ. لٰكن المشكلة الآن هي في ممارسة المسلمين.

⊙ ما إن تكامل الأنموذج السنِّي الإسلامي في دولة تمثلت فيها كل معاني الدين حتىٰ قُبِض رسول الله ﷺ وأصبح لزاماً علىٰ المسلمين أن يتوجهوا علىٰ الطريق ذاتها وليس علىٰ الشخص، ولذٰلك نشروا الدعوة وبسطوها في العالم.

❋ ❋ ❋

حركة الصفوة وحركة الأمة

◎ لا شك بأن يكون الأصل في هدف دعاة الإسلام؛ حكم القيم الإسلامية. ويستوي عندهم أن يصلوا هم إلىٰ السلطان أو أن يصل الإيمان إلىٰ السلطان. وفي التاريخ الإسلامي نماذج لوصول أهل الإيمان إلىٰ السلطان أو لوصول الإيمان لأهل السلطان.

فكيف ترون الطريق الأمثل الآن من خلال المعادلة الدولية القائمة، ومن خلال الظروف الحالية والتجارب التي مرت بها الدعوة الإسلامية؛ خاصة وأن الدعوة الإسلامية في السودان مرَّت بعدة تجارب من المعارضة والمواجهة والمصالحة وما إلىٰ ذٰلك؟

⊙ هٰذا فرع عن الأصل الذي أصَّلناه سالفاً؛ ذٰلك أنه إذا **أخلص الدعاة لما يؤمنون به لكان هو أعزَّ عليهم من أنفسهم، ولالتمسوه أنَّىٰ جاء**؛ ذٰلك في الصلة بينه وبين المجتمع، أن يتيحوا للمجتمع كذٰلك أن يؤدي دوره، ومهما تضاءلت نسبة الفرد من عامة الناس من التدين، إلَّا أن **أقدار التدين التي تتأتىٰ من حركة شعب بأسره أضعاف ما يمكن أن يتأتىٰ من حركة صفوة مهما بلغت**. وهٰذا أضمن إلىٰ بلوغ القيم وإلىٰ إثباتها من أن نحتكرها لطائفة.



السلطان.. والقرآن

وكذٰلك الصلة بينهم وبين الحاكمين، ومعروف أن حركة الإسلام ـ لأسباب تاريخية ـ انفعلت بشيء من الجفاء للحكام، ذٰلك أن **حكام المسلمين** كانوا دون سائر القيادات الفقهية والشعبية **نصيباً من التزام الإسلام فيما يليهم من الحكم**؛ ولذٰلك انفعل المسلمون عامة بشيء من الجفاء لهم، ووضح من التقويم الفقهي أنهم لا يؤسسون حكمهم علىٰ أصل شرعي مقبول، وإنما تجاوز الفقهاء ضرورةً عنهم؛ ولذٰلك كان الحكم دائماً مشبوهاً

حتىٰ فقهيًا. . وحتىٰ **الحركة الصوفية** التي انتظمت العالم الإسلامي، كانت **نوعاً من اليأس من أن يربي الحكام الشعب**، وأن يأمروا بمعروف وينهوا عن منكر، أو أن يحققوا وحدة المسلمين، فحاولت بالطرق المنبثة في قاعدة الشعب، أن **توحِّد المسلمين حول مركز ولاء** آخر، وأن تواليهم بالتربية من تلقاء القطاع الخاص، كما نقول الآن.

وزاد ذٰلك أن **الحركة الإسلامية** في عهدها الحديث بدأت غريبة بدعوتها لأول مرة، **وفزع منها كثير من الحكام** فصادموها بعنف شديد وعذّبوها واضطهدوها، ولذٰلك انفعلت هي، لا فقط بهٰذا التاريخ، ولٰكن **برد فعلٍ من هٰذا الواقع القائم** في كل بلد ـ تقريباً ـ من بلاد الإسلام. ولما كانت **الحركة الإسلامية** تنشأ دائماً في قطاعات المثقفين، فإن الثقافة الغربية التي انفعل بها هٰؤلاء المثقفون، هي ثقافة فيها كثير من الرفض. وقد شاع فيها في العهود الأخيرة الثورية والرفض ومنهج التحول العنيف، وشاع عند كثير من المثقفين رفض الواقع ـ حتىٰ بغير بديل ـ والثورة عليه حتىٰ بغير تصور لقبلة معينة.

كل هٰذه العوامل التاريخية والذاتية والمجلوبة من الخارج، أثّرت علىٰ كثير من الدعاة المسلمين؛ بل **دعتهم أحياناً، عمداً إلىٰ أن يعزلوا أنفسهم؛ فعندما لا يتمكنون من مصادمة الدولة بالقوة كانوا يعتزلون جانباً.**

❋ ❋ ❋

معطيات التجربة الإسلامية في السودان

ولٰكن، هنا في السودان، تهيأت لنا ظروف من الابتلاء وظروف في نشأة فقه، **حاولنا من أول يوم أن نتعامل مع المجتمع بيسر، وأن نتفاعل معه**. وأهّلنا ذٰلك، كذٰلك، أن **نمد أسباب التعاون والتفاعل ذاتها مع السلطان**، كما اكتشفنا في المجتمع قدراً كثيراً من الخير، وأن اليأس منه وقطع الثقة به جملةً واحدةً أمر غير مؤسس، وإنما يُعين ذٰلك شيطانه عليه، ويضطره إلىٰ أن يتخذ من **الحركة الإسلامية** موقفاً معيناً.

ولذلك، **صالحت الحركة الإسلامية المجتمع وصالحت الدولة أيضاً**. صحيح أن المصالحة تعني أن يختلط الحق أحياناً بكثير مما يراه باطلاً. **وكثير من المسلمين يفزعون من هٰذا الاختلاط** ويريدون الحق بائناً في جانب والباطل بائناً في جانب آخر حتىٰ يقولوا القولة المشهورة: ألسنا علىٰ الحق؟ أليسوا علىٰ الباطل؟ فماذا بيننا وبينهم؟ ولٰكن، إذا اختلط الحق بالباطل، لا أقول اختلط في أذهان الناس **ولٰكن اختلط في الواقع واتصل، قوَّىٰ ذٰلك وزاد أهل الحق إيماناً**، بهٰذه المجاهدة والمفاعل. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد:١٧]. **ومن هٰذه المدافعة يحقق الله التدين**، وبغير هٰذه المدافعة تفسد الأرض كما يقول القرآن: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

فمن خلال هٰذه المفاعلة **أعدىٰ أهلُ الخير الشر**، وحاصر أهل الخير الشر، ولم يُحاصَروا هم ولم يستعيذوا ويفرُّوا إلىٰ شعاب الجبال، **بل دخلوا معه في كل مدخل وطهّروا منه الأرض**. وتحقق بحمد الله سبحانه وتعالىٰ هٰذا القدر من الإيمان **وتوحَّد عليه المجتمع بغير صراع**، لأن الصراع - بالطبع - له مغبّات كثيرة. وقد يضطر المسلمون للجهاد وقد يضطرون للصراع، وهٰذا باب وارد في الدين ولا نقول إن الدين لا يتأتىٰ إلَّا من خلال المصالحة، ولٰكن هٰذه الطريقة هي الطريقة الحسنىٰ.

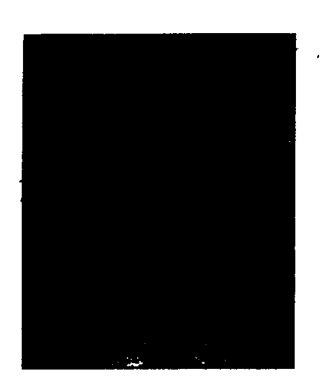
◎ لٰكن يبدو - والله أعلم - أن اعتماد أحد الطريقين بإطلاق فيه خطورة، وقد يوصل إلىٰ طريق مسدود ويحول بين الدعوة وتحقيق أهدافها؛ ولذٰلك لا بد أن يفكَّر بالطرق الأجدىٰ في كل مرحلة وبما تقتضي. إن صورة بعض العاملين للإسلام اليوم، أصبحت في أذهان بعض الحكام أنهم لا يريدون من وراء التعامل مع السلطان إلَّا أن يكونوا بديلاً في الحكم وما إلىٰ ذٰلك. فهٰذا ولَّد تهمة لهم بأنهم يطلبون السلطة. وقام نوع من الصراعات الشديدة ربما يكون قد أعان الشيطان علىٰ السلطان وحال بينه وبين أن يصل صوت الإيمان إليه في كثير من الأحيان.

⊙ شأن المسلم أن يستعد لكل ابتلاءٍ بما يناسبه من التدين. ولما كان في وسائل ومناهج الدين سعة، لا يقابل المحسن إلّا بالحسنىٰ ويجادل بما هو أرفق وألطف به، وإذا انقلب الأمر وجابهه العدوان فلا يستكين ولا يلين وإنما يرد العدوان بالجهد، كان لا بد أن تستعد **الحركة الإسلامية** بكل المناهج وكل الأدوات حتىٰ تحسن وضع الأمور في مواضعها **ولا تفوّت فرصة لأنها تفقد ـ حينئذٍ ـ الأدوات المناسبة لهٰذه الفرصة.**

ومن بعض **وجوه البركة علينا** أننا قدَّرنا بعد أن قام الدين هنا، لا من تلقاء **الحركة الإسلامية** مباشرة، ولٰكن من مناصرتها وتعاونها، ووصل جهدها بجهد الحكومة القائمة، أن **غُمِّي الأمر بعض الشيء علىٰ بعض الذين يريدون أن يكيدوا للإسلام؛** لأنهم لو رأوا **الحركة الإسلامية** التي يرهبونها أيّما رهبة ويتهمونها بالإرهاب، هي بذاتها ووجهها تصل إلىٰ الحكم، ربما حملوا علىٰ واقع الإسلام حملة أضخم بكثير مما تحتمل الطاقات المدافعة الدينية في هٰذا البلد. ولٰكن الله سبحانه وتعالىٰ يلطف بعباده ويستر ويحمي أحياناً ويُلقي غشاوة علىٰ أعين الآخرين، ويعصم عباده الدعاة كما عصم الرسول ﷺ من الناس. وقد يكون من بعض هٰذه الغشاوة وهٰذه العصمة أن يتخذ الشكل الإسلامي شكلاً يرونه أقرب إليهم مثلاً شيئاً ما، أو أقلَّ بشاعة في أنظارهم، ولٰكن **يبقىٰ أن جوهر الحق واحد مهما كانت الأثواب التي يلبسها.**

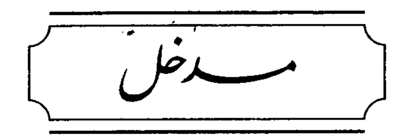
ربيع الأول ١٤٠٥هـ ـــ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٤م،
ربيع الآخر ١٤٠٥هـ ـــ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٥م





نصف قرن من البحث عن الحقيقة

في حوار مع : البرفسور رجا جارودي



مدخل

■ أديب، وفيلسوف، ومفكر فرنسي بارز.

■ ولد عام ١٩١٣م. في مارسيليا من أسرة عمالية.

■ حصل علىٰ منحة الدولة لدراسة الفلسفة.

■ انضم في العشرين من عمره إلىٰ الحزب الشيوعي.

■ تنقّل بين السجون والمعتقلات.

■ انتُخب نائباً عن منطقة تارن عام ١٩٤٥م، وعضواً في مجلس الشيوخ، ورئيساً للمجلس الوطني الفرنسي من عام ١٩٥٦ إلىٰ ١٩٥٨م.

■ كان مديراً لمركز البحوث والدراسات الماركسية عام ١٩٦٠م.

■ أُبعد عن الحزب الشيوعي عام ١٩٦٠م.

■ **في رحلة القلق الحضاري والتفتيش عن معنًى للحياة:**

آمن بالمسيحية بصورتها البروتستانتية في سنة ١٩٢٧ ـ علىٰ الرغم من أن أبويه كانا بعيدين عن التدين ـ ومع نذر انفجار الأزمة العالمية الكبرىٰ عام ١٩٣٠ فكر في أسلوب مواجهة الأزمة فاتجه إلىٰ اعتناق الماركسية فكراً وممارسة عام ١٩٣٣، لكنه جمع ـ في الوقت نفسه ـ بين عضوية الحزب الشيوعي ورئاسة منظمة الشباب المسيحيين البروتستانت.

■ رسالته في الدكتوراه «**النظرة المادية في المعرفة**» جاءت صدًى لتوجهه، حيث ضمَّنها الموضوعات التي عالجها أساتذة الفلسفة المادية:

ماركس، وآنجلز، ولينين، وماوتسي تونج وغيرهم.

■ جاءت مراجعته الشاملة للماركسية نتيجة الصدمة الشديدة بما عرفه عن «ستالين» بناءً علىٰ ما جاء في البيان السري الذي ألقاه خروتشوف عام ١٩٥٦ في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، وكان ذٰلك مأساة انعطافية كاملة، ترتبت عليها النتائج اللاحقة كلها، وكان من أبرز نتائجها امتناعه عن نشر رسالته للدكتوراه، ومن نتائجها أيضاً إصدار كتابه الهام «نظرات حول الإنسان» عام ١٩٥٩ حيث بدأت عملية النقد الداخلي.

وفي عام ١٩٦٠ أسس **(مركز الدراسات والبحوث الماركسية)** الذي أداره لمدة ١٠ سنوات، وكان المسؤول عن الترجمة الفرنسية لمؤلفات لينين جميعها.

يقول: بأن البيان (بيان خروتشوف عام ١٩٥٦) هو الذي أيقظه من سباته العقائدي، فأجرىٰ دون كلل نقداً ذاتيًّا لعقيدته الوثوقية.. وبدأ يتكرّس الشرخ بين جارودي والأنموذج السوڤييتي للماركسية منذ اطلاعه علىٰ جرائم ستالين.

■ وفي تلك الفترة أيضاً أصدر كتابه «**واقعية بلا ضفاف**» الذي انتقد فيه بشدة الواقعية الاشتراكية التي تجمدت في قوالب حالت بينها وبين التطور الحضاري.

■ **وفي عام ١٩٦٦** أصدر كتابه «**ماركسية القرن العشرين**» حيث نقد فيه نقداً مميزاً المسلّمات الماركسية. وفي هٰذا الكتاب اتهم جارودي الماركسية بالتحول إلىٰ دين رسمي ذي طقوس وأتباع، وكانت قولته الشهيرة ـ ردًّا علىٰ الفهم الجزافي لمقولة: الدين أفيون الشعوب ـ: **(إن القول بأن الدين في كل زمان ومكان يصرف الإنسان عن العمل والكفاح متناقض تناقضاً صارخاً مع الواقع التاريخي)**.

■ وفي عام ١٩٦٨ نشر كتابه «**في سبيل نموذج وطني للاشتراكية**» بعد أحداث تشيكوسلوفاكيا واحتلالها من قبل قوات حلف وارسو.

■ وفي عام ١٩٦٩ أصدر كتابه «**منعطف الاشتراكية الكبير**» الذي طالب فيه بتصحيح وتعديل الماركسية تحت عنوان: **(إن مراجعة مؤلمة هي اليوم ضرورية)**.

وقد أفسح في هٰذا الكتاب مجالاً أوسع للمثقفين، إذ رأىٰ أن أهميتهم العددية والاستراتيجية تتزايد باطّراد، بينما تتناقص أهمية الطبقات الوسطىٰ.

■ بعد أن اجتاز منعطف الأحلام باحثاً عن اليقين والإيمان بعينين مفتوحتين، انتقد جذور الدغماتية الستالينية، والمادية الاقتصادية المبتذلة، والجبرية الميكانيكية، والمواقف العدمية من الفرد وطاقته الذاتية، والتصلب الفلسفي، والحزبية العقلية، والتقنين المدرسي لمبادئ الديالكتيك، والعزلة الذاتية عن بقية الأفكار.

■ وفي عام ١٩٧٠ ازدادت حدة التوتر بينه وبين حزبه، وكانت هناك مناقشات ومجادلات انتهت إلىٰ فصله، ويلخص هٰذه الأحداث بقوله:

كنت في هٰذه الفترة أعمل أستاذاً بالجامعة، ولٰكني تعلمت من طلبتنا وعمالنا درساً كبيراً، مفاده أن بعض الأنظمة قد يشكل خطورة كبيرة بنجاحه، أبعد من الخطورة التي تنتج عن فشله. ويتمثل هٰذا النظام في النمط الغربي في التقدم والنماء سواء عبّرت عنه برأسمالية تعزز الحروب والاستعمار والأزمات الداخلية المميتة، أو اشتراكية سوفييتية تضطهد شعبها، وتستغل العالم الثالث، وتتسابق إلىٰ التسلُّح الرهيب، والسيطرة، ذٰلك أن الاتحاد السوفييتي يتبع النمط ذاته.

■ وبعد عامين من الخروج علىٰ الحزب الشيوعي أصدر كتابه «**البديل**» الذي هو أقرب للنداء، وإيجاد الحافز لصناعة المستقبل، أكثر منه برنامجاً يرمي إلىٰ إنشاء حزب، حتىٰ يمكن وصفه بأنه مشروع حضاري.

■ وفي عام ١٩٧٤ أصدر مجلة سياسية أسماها «**البدائل الاشتراكية**» حيث أعلن أنه يجب إعادة الغرب إلىٰ وضعه الحقيقي من خلال حوار حقيقي بين الحضارات.

■ وفي عام ١٩٧٦ قام بتأسيس **(المعهد الدولي للحضارات)** وكان يعتبر أن الحضارة الغربية استنفدت أغراضها، ولم تعد لها ضرورة، وكان من أهم ما كتبه في هٰذه المرحلة «**حوار الحضارات**» حيث يمكن تلخيص وجهته في ذٰلك بقوله:

(إن حوار الحضارات ـ حقيقة ـ ليس بجائز إلا إذا اعتبرت الإنسان الآخر والثقافة الأخرىٰ جزءاً من ذاتي يعمر كياني، ويكشف لي عما يعوزني).

■ وفي عام ١٩٨١ أصدر كتابه «**وعود الإسلام**» الذي يجعل الإسلام الخيار الوحيد أمام البشرية للخروج من المأزق.

■ أعلن إسلامه في ١١ رمضان سنة ١٤٠٢هـ في مدينة جنيف[١].

■ يتحدث عن مساهمة النصرانية في الاستعمار فيقول في كتابه «**المرض الأبيض**»:

لقد ساهم الدين في الاستعمار، فكانت الصيغة الدائمة أن يذهب المبشّر أولاً، ثم يلحقه الجند، كي يصل بعد ذٰلك التاجر.

ويمثل لهٰذه الروح الاستعمارية بقوله: **إن أجرة العامل الأسود لستة أيام ينالها العامل الأبيض في ساعة واحدة.**

ويقول: بعد خمسة قرون من سياسة الغرب تتلخص حضارته فيما يلي:

لقد صرف علىٰ التسلُّح عام ١٩٨٢ مبلغ ٦٥٠ مليار دولار، لو وزع علىٰ أفراد البشرية لأصاب الفرد ٤ أطنان من المتفجرات، في السنة نفسها توفي في العالم الثالث خمسون مليوناً بسبب الجوع وسوء التغذية.

■ **يعتقد**: أن إسرائيل تلعب دور مندوب الاستعمار الغربي، وهو ما يفسر الدعم المالي والمساعدات غير المشروطة من الأسلحة التي تتلقاها من الولايات المتحدة الأمريكية ومن شبكته الصهيونية العالمية.

---

(١) «لماذا أسلمت»: للأستاذ أحمد عثمان الخشت.

■ اتهم بعدائه للسامية بعد أن نشر بحثه «**ملف إسرائيل**» ورفعت منظمة (ليكر) اليهودية الفرنسية ضده قضية بتهمة العنصرية ومعاداة السامية، **فدافع عن نفسه بأنه قضىٰ ثلاث سنوات في السجون النازية، وحمل رسالة من غولدمان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي إلىٰ الرئيس جمال عبد الناصر**.

ويمكن أن نقول: بأن حركته الذاتية لم تكن قفزاً بهلوانيًا من موقع لآخر، بقدر ما هي مراجعة ذاتية لجزء هام من الفكر الغربي.

■ ومما يلفت النظر أنه يعتبر من أبرز الداعين إلىٰ وحدة الأديان، ورفع شعار العودة إلىٰ الإبراهيمية، وإحياء روح جامعة قرطبة. وقد أقام مؤتمراً لذٰلك دعا إليه مجموعة من المفكرين والباحثين من يهود ونصارىٰ ومسلمين (؟!!)

■ **يرىٰ**: أنه من الممكن ـ استناداً إلىٰ الوحي القرآني ـ أن نجد في الطريق الصحيح حلولاً للمشاكل التي تفرضها الحياة اليوم، دون أن نمزج ذٰلك بتقليد النماذج الأمريكية والسوفييتية. ودون أن نخلط بين الاتجاه نحو العصرية والاتجاه نحو الغرب.

■ **ويرى**: أن ادعاء الاختصاص لمجرد الاختصاص، والعلم للعلم، والفن للفن هو نسيان مميت للهدف، وإحلال للوسائل محل الغايات.

■ وتجربة جارودي ليست نادرة؛ فكثيرون هم الذين تحولوا إلىٰ نقيض فكرهم، لٰكنها تبقىٰ تجربة متميزة حدثت من مفكر كبير، ارتبط بالشيوعية، وله في ذٰلك كتب ودراسات؛ لٰكنه وصل في النهاية إلىٰ الطريق المسدود فبدأ بالبحث عن البديل.

ويمكن اعتبار تلك التجربة طريقاً للخروج من حضارة الأزمة للكثيرين الذين لا يزالون في غرف الانتظار[١].

---

(١) ولا يفوتني في هٰذه المناسبة أن أتقدم بشكري للأستاذ عماد الدين شرف الذي سهّل التفاهم وقام بالترجمة.

■ وبعد فقد قدمت للحوار الذي أجريته معه في جمادىٰ الأولىٰ ١٤٠٣هـ كلمة بعنوان **(جارودي شاهد سقوط الحضارة الغربية)** قد يكون من المفيد إثباتها: الحضارة الأوروبية المادية، تشرف علىٰ السقوط وتنتهي إلىٰ الانتحار الجماعي، إنها امتلكت الوسيلة وافتقدت الهدف والغاية، وحصلت علىٰ شيء من العلم، لكن غابت عنها الحكمة.

وقد نكون نحن المسلمين ـ من خلال موقعنا المتخلف حضاريًا، واضطراب مقاييسنا، بسبب ضعف التزامنا بهٰذا الدين ـ عاجزين عن التعرف بشكل دقيق علىٰ أزمة الحضارة الأوروبية، لأن بعضنا يعاني مأساة الانضباع الحضاري، وتتحكم بنظرتنا مجموعة عوامل أخرىٰ، ليس أقلها عقدة القهر والاستعمار، والحقد الصليبي علىٰ الإسلام والمسلمين، التي لا نزال نعيش آثارها، وقد تتحكم بموقفنا الروح الدفاعية، والوسائل العاطفية، في بعض الأحيان.

من هنا تأتي أهمية الشهادة الحضارية التي يدلي بها المفكر الفرنسي الكبير **«رجاء جارودي»** ابن هٰذه الحضارة الذي عاش أزمتها، وخبرها من الداخل، وتنقّل بين صورها الفكرية المتعددة، من بروتستانتية وكاثوليكية إلىٰ شيوعية أرثوذكسية، وتبين له أنها وجوه متعددة لحقيقة واحدة؛ فانتهىٰ إلىٰ الإسلام.

لقد قطع جارودي رحلة فكرية شاقة تزيد علىٰ النصف قرن قبل إسلامه من البحث والتفتيش عن الإنسان في الحضارة الأوروبية المادية، واستجلاء الهدف الذي يستأثر بنشاطه، وينتظم فاعلياته، فرجع بالخيبة المريرة، ورأىٰ بارقة الأمل تلوح بالشيوعية كحل للخروج من الأزمة الاقتصادية العالمية، باعتبارها طرحت كنقيض للصورة الرأسمالية، لكنه تبين بعد أن وصل إلىٰ عضوية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي أن الشيوعية جاءت لتعالج الانحراف الرأسمالي المادي فعالجت الانحراف بانحراف أشد، لكن في الاتجاه المعاكس، ولم تخرج في حقيقتها عن أن تكون الوجه الآخر للحضارة الأوربية النصرانية، فعاد مرة أخرىٰ إلىٰ النصرانية، وطرحت عنده من جديد قضية الأديان.

عاش ويلات الحرب، وظروف الاعتقال، وحكم عليه بالإعدام، ورُبّ ضارّة نافعة كما يقال.

أول مرة يلتقي بالإسلام، عندما امتنع الجنود العرب المسلمون الجزائريون عن تنفيذ إطلاق النار عليه (لأن شرف وأخلاق المحارب المسلم يقتضيه ألّا يطلق النار علىٰ إنسان أعزل).

يدعو الغرب ليراجع موقفه المتصلب من الإسلام، ويرىٰ ضرورة قيام حوار حضاري، علىٰ ألّا تدور المناقشة والحوار بين رأسمالية تولد الاستعمار والحروب والأزمات الداخلية، واشتراكية من النمط السوفييتي تستغل العالم الثالث.

يأخذ علىٰ الكنيسة موقفها الرسمي من القضية الفلسطينية، وتبنّيها للدعاية الصهيونية والرؤية التلمودية، علىٰ أساس خرافة أرض الميعاد التي يعلمونها للأطفال في مدارس الأحد.

إنه شاهد وليس كأي شاهد علىٰ السقوط الحضاري الأوروبي، وما ينتظر إنسان هٰذه الحضارة العدمية المجنونة الجانحة.

ونحن إذ نقدم الحوار معه لنرجو أن نستطيع بذٰلك المساهمة في تحديد النوافذ المضيئة، والمداخل الحقيقية لأزمة الحضارة، يطل من خلالها جيل الانبهار بالحضارة الأوروبية، والافتتان بوسائلها وإنجازاتها المادية، وذهولها عن الغايات والأهداف.

بقي أن نقول: إلىٰ أي مدًى نستطيع نحن المسلمين أن نستفيد من موقع المفكر الفرنسي المسلم «رجاء جارودي» والثغر الذي هو عليه، ونستطيع مساعدته للمحافظة علىٰ الموقع نفسه لأهميته، ولا نندفع وراء عواطفنا لنحمله إلىٰ مواقع أخرىٰ في العمل الإسلامي ليست من طبيعته ولا من اختصاصه واهتمامه؛ علىٰ طريقنا في الرفع والخفض.

فقد تكون المشكلة كلها فينا، نحن الذين يقودنا الاندفاع وراء عواطفنا إلىٰ بعض التصرفات المخطئة. ولا نزال نقول: إنّ الثغر الذي يقف عليه

جارودي عظيم وخطير، فلو أعنّاه عليه، وهيأنا له الوسائل المطلوبة للمرابطة في هٰذا الثغر لكان أوْلىٰ من أن نحمله إلىٰ مواقع قد لا تكون من طبيعة اختصاصه، فماذا يستطيع أن يقدم في مؤتمرات للفقه الإسلامي والحديث والطب، عدا أن يكون ذٰلك علىٰ حساب موقعه الأصلي؟! فهل نعود إلىٰ القول: بأن المشكلة فينا؟! ونرجو الله لنا وله حسن الإسلام.

ومن الحقائق التي نرىٰ أنه لا بد من إثباتها هنا أن الإسلام بما يمتلك من حقائق خالدة مجردة عن حدود الزمان والمكان، لا يزال قادراً علىٰ مخاطبة أرقىٰ العقول البشرية، وأن قدرته علىٰ الانتشار دائمة سواءً في ذٰلك المجتمعات المتقدمة أم المجتمعات المتخلفة علىٰ الرغم من الحالة المتخلفة التي يعيشها المسلمون. وما إسلام جارودي وغيره إلا مؤشرات ومبشرات في الوقت نفسه، ونحن بالطبع لا نتطلب أن يأتي جارودي إلىٰ الإسلام عالماً به منظّراً لجماعته حيث لا يجوز أن يغرب عن بالنا أنه سوف يكون لتاريخه الطويل وخلفيته الفكرية بعيدة الغور التي تشكلت من خلال رؤًى فلسفية وتجارب عملية ومعاناة اجتماعية وتأملات أخلاقية حضوراً دائماً في حياته.



المقدّمة

■ بعد رحلة فكر وبحث وحوار: شاقة وطويلة، أسقط كل المعتقدات والفلسفات والأفكار، انتهىٰ المفكر العالمي (الشيوعي الكاثوليكي سابقاً) روجيه جارودي إلىٰ الحقيقة الأزلية:

(لا إلٰهَ إلّا الله، مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ).

ورجاء جارودي (اسمه الجديد) إنسان متفوق ومتميز بالمنطق وبالحس معاً، أكثر ما كان يشغله هو البحث عن النقطة التي يلتقي عندها الوجدان والعقل. وهو يمثل اختياراً، ويشكل تياراً فكرياً قوياً في الأوساط الثقافية العالمية عامة، وفي المحيط الغربي الذي نشأ فيه بشكل خاص.

ويرىٰ أن الحوار القائم محكوم عليه بالفشل؛ لأنه يسلك طريقاً مسدوداً إذا ظلت عقيدة أحد أطرافه ـ الأوروبيين ـ غير مصقولة من صدأ قرون السيطرة والاضطهاد. ويرىٰ في ثقافة الغرب أنها فقدت المعنىٰ والغاية، فقامت خديعة العلم للعلم، والفن للفن، فانتهت إلىٰ العدمية في الأهداف؛ تقنية غايتها التقنية لذاتها، وعلم يهدف إلىٰ العلم ذاته، وحياة لا تهدف إلىٰ شيء.

ويرىٰ أن التنمية علىٰ النمط الغربي تبتر من الإنسان أبعاده الإنسانية، وتفصله عن السمو الروحي، وتقتل فكرة الجماعة، وتضع سدّاً بين العلم والتقنية من ناحية، والحكمة من ناحية أخرىٰ، .وهذا النمط الغربي يتمثل في الرأسمالية التي تولّد منها الاستعمار والحروب والأزمات الداخلية المميتة،

وفي الاشتراكية التي تضطهد شعبها وتستغل العالم الثالث. . وتتسابق إلىٰ التسلح الرهيب والسيطرة.

إن فكر جارودي كان يقربه دائماً من الحقيقة، لٰكن أكثر ما تأثر به هي التجارب التي التقىٰ فيها مع الإسلام مرات متعددة، بدأت في مرحلة مبكرة من حياته. يقول عن إحداها، وكانت بسبب موقف أخلاقي إسلامي:

(. . . وهٰذه التجربة المبكرة ـ بالنسبة لي ـ قد علمتني أكثر من دراسة نظرية لعشر سنوات في السوربون). .

ويعقب علىٰ تجربة قريبة فيقول: (. . . وهٰكذا ترون كيف كنت قريباً جدًا من الإسلام).

أما النقلة المباشرة إلىٰ الإسلام، فقد جاءت بعد اكتشافه حقيقة الموقف الذي تتبنّاه الكنيسة الكاثوليكية من القضية الفلسطينية، ذٰلك الموقف الذي يعتمد الفكرة الصهيونية حول خرافة «أرض الميعاد» ووهم «الشعب المختار».

ولٰكن إذا كانت القضية تتعلق بالإسلام، فإما أن تكون التجربة كاملة أو لا تكون، والشرط الأول لتمام كمالها هو الهداية الإلٰهية؛ إذ بدونها لا يتحقق سر انشراح الصدر.

من هنا نتبين نعمة الإسلام التي تتجلىٰ في حفظ الطاقات، وتوفير الجهد؛ بوضع الإنسان في مكانه الصحيح من الكون، وإعادته إلىٰ توازنه الفطري الأصيل، حتىٰ يحيا تجربته البشرية كاملة، ويسهم إسهاماً فاعلاً في إعمار الأرض.

ولن يتأتىٰ ذٰلك إلا بمشيئة الله تعالىٰ، الذي خلق الإنسان ومنحه القدرة علىٰ الاختيار، وكرمه دون بقية المخلوقات الأخرىٰ■.

* * *

مرحلة النقلة المباشرة

◎ اعترف العلماء والمفكرون مراراً بأن خطواتهم في ميادين العلم والفكر قادتهم دوماً إلىٰ الإيمان المبصر بالله تبارك وتعالىٰ، وربما يكون من المفيد والضروري أن يتعرف القارئ المسلم علىٰ قصة إيمان الرجل وهو يتلمس طريق الهداية، ويزيل الضباب والغشاوة عن بصيرته.

المفكر والفيلسوف العالمي جارودي، كيف سارت رحلتك إلىٰ الإيمان؟

⊙ بالنسبة لي، لا يعتبر الأمر تحولاً من الإلحاد إلىٰ الإيمان، فلم أكن في يوم من الأيام ملحداً؛ حتىٰ عندما كنت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في عام ١٩٣٣م، فقد كنت في الوقت نفسه رئيس الشبان المسيحيين كمسيحي **(هٰذا اتفاق مع النظرية التي تقول: إن الشيوعية إنجاز نصراني لمعالجة القضية الاقتصادية)**، وفي الحقيقة لم أكن مسيحيًّا بالميلاد لأن أبويّ لم يكونا كذٰلك، لقد كانا ملحدين، ليس بسبب ارتباطهما بالشيوعية أو أي مذهب آخر، ولٰكنهما كانا من الأجيال التقليدية، لهٰذا فأنا أعتبر نفسي قد اخترت مرتين.

في عام ١٩٣٣م عانت أوروبا من أزمة كبيرة، استمرت حتىٰ عام ١٩٣٩م ـ وهي الفترة نفسها التي شهدت صعود هتلر إلىٰ السلطة ـ وشهدت اختياري الأول ـ وكنت في هٰذه المرحلة لا أزال طالباً ـ ويرجع السبب في اختياري النصرانية إلىٰ رغبتي في أن أعطي لحياتي معنًى في وقت كنا نعتقد ـ لشدة الأزمة ـ أننا نعيش نهاية العالم، أما الشيوعية فقد كانت الاختيار الوحيد الذي يطرح بديلاً للخروج من أزمة الرأسمالية، كما أنه كان أفضل جبهة تقاوم هتلر والنازية في هٰذه الفترة.

وفي فرنسا ـ علىٰ سبيل المثال ـ كان معظم المشتغلين بالكتابة والفنون وأساتذة الجامعات، وحائزي جائزة نوبل، إما أعضاء في الحزب الشيوعي أو أصدقاء للشيوعيين، وذٰلك بسبب الحالة السيئة التي نشأت عن أزمة الرأسمالية وتيار المقاومة لنازية هتلر.

وقد أدَّىٰ بي موقفي ـ في ذٰلك الوقت ـ إلىٰ السجن لمدة ثلاث سنوات، حيث اعتقلت في سبتمبر (أيلول) ١٩٤٠م بواسطة مارشال بيتان وحكومة «**فيشي**». وبقيت رهن الاعتقال حتىٰ نهاية الحرب العالمية الثانية في معسكر بمنطقة **جلفا** بالصحراء الجزائرية، وهناك وقع حادث عجيب فعلاً، فقد تزعمت تمرداً في معسكر الاعتقال، وأجرىٰ «الكوماندور» الفرنسي قائد المعسكر محاكمة سريعة، وأصدر حكماً بإعدامي رمياً بالرصاص، وأصدر أوامره بتنفيذ ذٰلك إلىٰ الجنود الجزائريين المسلمين، وكانت المفاجأة عندما رفض هٰؤلاء تنفيذ إطلاق النار، ولم أفهم السبب لأول وهلة؛ لأنني لا أعرف اللغة العربية، وبعد ذٰلك علمت من «مساعد» جزائري بالجيش الفرنسي كان يعمل في المعسكر أن شرف المحارب المسلم يمنعه من أن يطلق النار علىٰ إنسان أعزل، وكانت هٰذه أول مرة أتعرف فيها علىٰ الإسلام من خلال هٰذا الحدث الهام في حياتي، وقد علّمني أكثر من دراسة عشر سنوات في السوربون.

وعندما أطلق سراحي، بقيت في الجزائر مدة عام، وخلاله التقيت برجل عظيم، كان له أكبر الأثر في نفسي ـ **هو الزعيم الإسلامي الشيخ البشير الإبراهيمي**، رئيس رابطة العلماء المسلمين الجزائريين ـ وقد قمت بزيارته، بصحبة عمَّار أوزيجان ـ صاحب كتاب «الجهاد الأفضل» ـ، وفي مقر الشيخ الإبراهيمي لاحظت صورة كبيرة لرجل مهيب. ولأول مرة أتعرف علىٰ صاحبها، عندما شرح لي الشيخ البشير جوانب من حياة الأمير **عبد القادر الجزائري** ـ عدو فرنسا ـ كبطل محارب وعابد ناسك؛ بل كواحد من أعظم أبطال القرن التاسع عشر.

ويعتبر هٰذا الدرس من الشيخ الإبراهيمي ـ بالنسبة لي ـ المرة الثانية التي ألتقي فيها بالإسلام.

بعد ذٰلك عدت إلىٰ فرنسا، وكانت المرة الثالثة إبان الحرب الجزائرية، وأنا أعتبر الجزائر وطني الثاني، وقد اتخذت موقفاً ضد الدعاية الفرنسية ـ كما هو معلوم ـ ونشرت موضوعات كثيرة عن الممارسات الفظيعة التي كان يباشرها قادة الحرب من أمثال الجنرال **بيجو**.

أما آخر وأطول اتصال لي بالإسلام، فقد بدأ عام ١٩٦٨م عندما ظهرت - في اعتقادي - أول بادرة تغيير عند الأوروبيين بشكل عام، وفي السياسة الفرنسية بشكل خاص، ولم يكن هٰذا التغيير فوريًا بطبيعة الحال، ولٰكنه كان فعالاً لأنه يتعلق بمعتقدات وأفكار الناس، من الطلبة والعمال - وقد كنت في هٰذه الفترة - أعمل أستاذاً بالجامعة، ولٰكنني تعلمت من طلبتنا وعمالنا درساً كبيراً، مفاده أن بعض الأنظمة قد يشكل خطورة كبيرة بنجاحه أبعد من الخطورة التي تنتج عن فشله. ويتمثل هٰذا النظام في النمط الغربي في التقدم والنماء، سواء كانت تعبر عنه رأسمالية تفرز الاستعمار والحروب والأزمات الداخلية المميتة، أو اشتراكية سوفييتية تضطهد شعبها، وتستغل العالم الثالث، وتتسابق إلىٰ التسلح الرهيب والسيطرة؛ ذٰلك لأنهم في الاتحاد السوفييتي يتبنون النمط ذاته، ولنتذكر شعارات ستالين ومن بعده خروتشوف التي تركز علىٰ حتمية اللحاق بالرأسمالية وسباقها. وفي الحقيقة لا أدري أي نوع من الاشتراكية هٰذه؟! هل تهدف إلىٰ إثبات أن الرأسمالية أفضل من الرأسماليين القائمين عليها؟!

ولأنني عبّرت عن اعتقادي بأنه في ظل هٰذا النمط من التوسع والنماء يستحيل إقامة بناء اشتراكي، وأن الاتحاد السوفييتي ليس اشتراكيًا بحال من الأحوال، وأن الاشتراكية ليس لها وجود في أي مكان في العالم، طردت فوراً من الحزب الشيوعي، وكان ذٰلك في عام ١٩٧٠م، أي منذ ثلاثة عشر عاماً.

بعد ذٰلك قمت بالتعاون مع مسؤولي منظمة اليونسكو بتأسيس **«المعهد الدولي لحوار الحضارات»** بهدف إبراز دور البلاد غير الغربية وإسهامها في الثقافة العالمية، حتىٰ يتوقف الحوار ذو البعد الواحد من جانب الغرب أو «المونولوج» الذي يقوم علىٰ وهم وعقدة التفوق عند الإنسان الغربي، وقمت بنشر عدة كتب في هٰذا المجال تبرهن علىٰ أن الحضارة الغربية التي تمجد الفردية، وتبتر من الإنسان أبعاده الإنسانية، وتفصله عن السمو الروحي، وتغتال الفكرة الجماعية، وتضع حاجزاً بين العلم والتقنية من ناحية وبين

الحكمة من ناحية أخرىٰ، هٰذه الحضارة قد استنفدت أغراضها، ولم تعد لها ضرورة.

وأخيراً نشرت عدة كتب تدحض زعمهم بعدم إسهام العالم غير الغربي في الثقافة والحضارة الغربية منها كتاب «**مبشرات الإسلام**» و«**الإسلام يسكن حضارتنا**».

وهٰكذا ترون كيف كنت قريباً من الإسلام، لأني بدأت السير علىٰ طريقه الموصلة بشكل مبكر.

◎ الفيلسوف المسلم جارودي: إن القدرة علىٰ النفاذ والإحاطة والفهم العميق قد تختصر الطريق إلىٰ الإيمان، ولٰكن تبقىٰ خفقة القلب، والهزّة الروحية التي تحدث النقلة المباشرة؛ فهل يمكن أن نقف علىٰ تفاصيل هٰذه المرحلة الهامة في حياتك؟

⊙ اتخذت خطوة عملية بعد تكشف الموقف الذي تتبناه الكنيسة الكاثوليكية من القضية الفلسطينية ـ ولا أقول هٰذا من منطق توجهات شخصية ـ ولٰكن يبدو لي أن الأسلوب الذي يسود الكاثوليكية، وطريقتهم في تعليم الأطفال الإنجيل في فصول كمدارس الأحد عند البروتستانت، هٰذا الأسلوب يعتمد الدعاية الصهيونية، حيث يخلف انطباعاً ـ على سبيل المثال ـ بأن أرض فلسطين قد منحت لليهود بوعد إلٰهي مقدس لإبراهيم عليه السلام، الأمر الذي يوضح مدىٰ تأثير اليهود في التعاليم النصرانية. وإبان الغزو الإسرائيلي الأخير علىٰ لبنان نشرت بياناً في صحيفة «لوموند» أعلنت فيه إدانة الصهيونية، وكانت النتيجة أنني الآن ومدير تحرير «لوموند» نعتبر متهمين بمعاداة السامية. وعلىٰ العكس من ذٰلك تماماً، فإن الصهيونية لا تنبع من اليهودية كدين، إنما هي نتاج مناخ القوميات العرقية والعنصرية في أوروبا في القرن الثامن عشر، فُصّل الدين عليها أو فُصّلت عليه، وتيودور هرتزل ـ الذي أنشأ الصهيونية السياسية ـ لم يكن رجل دين، بل إنه إنسان ملحد، استخدم الإنجيل فقط لكي يثبت ادعاءاته.

علىٰ أي حال، فقد اتهموني بمعاداة اليهودية. ولا يفوتني هنا أن أنوه

بلقائي بسلمىٰ نور الدين ـ زوجتي المسلمة ـ عندما دعيت إلىٰ جنيف لإلقاء محاضرة حول كتابي «الإسلام يسكن حضارتنا»، فقد رأيت فيها صورة حية للإسلام وسط محيط أوروبي، صحيح أنني زرت عدة بلاد إسلامية، مثل الجزائر ـ حيث تأثرت كثيراً بوجودي هناك ـ والمغرب وإندونيسيا ومصر والعراق، ولٰكني لم أكن أقترب كثيراً من العلاقات الحياتية للإنسان المسلم.

❋ ❋ ❋

الإنسان مخلوق متفرد

◎ المفكر العالمي جارودي: عند هٰذه المرحلة من الحوار، قد يكون من المناسب أن نسأل عن الهاجس الفكري الذي كان يشغل حياتك، وكيف وجدت الإجابة عليه بعد أن هداك الله تعالىٰ إلىٰ الإسلام؟

⊙ إذا حكمت علىٰ الأمور في ضوء تجربتي الشخصية، فإنني أقول بأن ما كان يشغلني هو البحث عن النقطة التي يلتقي فيها الوجدان بالعقل، أو الإبداع الفني والشعري بالعمل السياسي العقيدي، وقد مكنني الإسلام بحمد الله من بلوغ نقطة التوحيد بينهما، ففي حين أن الأحداث في عالمنا تبدو عمياء متطاحنة، وقائمة علىٰ النمو الكمي والعنف، يروضنا القرآن الكريم علىٰ اعتبار الكون والبشرية وحدة واحدة، يكتسب فيها الدور الذي يسهم به الإنسان معنًى. وفي حين أن نسيان الله يجعل منا عبيداً هامشيين خاضعين لضرورات وصدف خارجية، فإن ذكر الله تعالىٰ في الصلاة يُكسبنا وعياً بمركزنا وبموردنا؛ الذي هو أصل الوجود.

ويدعو القرآن الكريم إلىٰ أن نكتشف في كل شيء وفي كل حدث إشارة للخالق، ورمزاً لواقع يعلو النظام الفريد الذي يسوس الطبيعة والمجتمع الإنساني والنفس البشرية. فطرة الدين الأساسية هي فطرة التناسق والوحدة الصادرة عن الله سبحانه والراجعة إليه.

إن ما يجعل الإنسان إنساناً هو إمكانية تحقيقه للمقاصد الإلٰهية، وفي

استطاعته أن يلتزم بالعهد أو أن ينقضه، فعلىٰ حين أن الإسلام لا يدخل في نطاق إرادة المخلوقات الأخرىٰ من نبات وحيوان وجماد، إذ لا تستطيع الهروب من القوانين التي تسوسها، نجد أن الإنسان وحده يستطيع عدم الامتثال، فيصبح مسلماً بقرار حر وباختيار كامل، عندما يعي نظام الوحدة والكل الذي يُكسب الحياة معنىٰ، وهو مسؤول مسؤولية كاملة عن مصيره طالما باستطاعته أن يرفض أو يستسلم للإرادة الإلٰهية القدرية. وقد أرسل الله تعالىٰ الرسل إلىٰ كل الأمم يدعونهم إلىٰ الله سبحانه، والملة الأولىٰ التي دعا إليها إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من رسل الإسلام عليهم السلام، قبل أن تحمل الرسالة الخالدة في تمام كمالها النهائي الذي جاء به محمد ﷺ. فالعقل الكامل الذي لا يقتصر علىٰ ربط العلة بالعلة وإنما يرتقي من غاية إلىٰ أخرىٰ ليرجع كل شيء إلىٰ الغاية القصوىٰ، هٰذا العقل لا يتعارض مع الوحي بل يستنير به.

* * *

تحريف اليهود والنصارىٰ

◎ في الندوة التي عقدتها منظمة «اليونسكو» في باريس - واشتركتم فيها - تحت عنوان: «هل يستطيع الإسلام الهيمنة علىٰ مستقبل الغرب» طرحتم فكرة إمكانية قراءة التاريخ من وجهة نظر وحدوية؛ علىٰ أساس أن إبراهيم والمسيح عليهما السلام ومحمداً ﷺ يكمل بعضهم بعضاً، فماذا تعني بهٰذه الفكرة؟

⊙ هٰذا التكامل في نظري عبارة عن حلقات تاريخية، فكل نبي أرسل في مرحلة تاريخية قد مهّد لمَن جاء بعده، وانتهت أصول هٰذه الديانات السماوية إلىٰ الرسالة الكاملة الخاتمة كما جاء بها محمد ﷺ باعتبار أن الإسلام قد اكتمل بنزول القرآن الكريم، والقرآن قد أورد هٰذا، وسمّى الأنبياء السابقين كلهم مسلمين، وبالنسبة للإسلام فهو الدين الوحيد الذي يعترف بالأديان السابقة. ويعتبر إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم الصلاة

والسلام أنبياء مسلمين. ورسول الله محمد ﷺ ـ كما جاء في القرآن ـ لم يقل في الأحاديث الشريفة إنه جاء بعقيدة جديدة، ولٰكنه أوضح أنه جاء ليذكر بملة أبينا إبراهيم. كما بيَّن أن تعاليم هٰؤلاء الأنبياء المسلمين من قبله قد حُرِّفت، وأن التحريف بدأ من أيام اليهودية، وقد تضمن كتابي الأخير «ملف إسرائيل» معلومات تاريخية موثوقة تفيد بأن التحريف بدأ بعد العودة من بابل، أما بالنسبة للنصرانية فإن التحريف بدأ بإعلان «نيقية» الذي حرروه سنة ٣٢٥ للميلاد، وتضمن فكرة أن المسيح ابن الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وبالنسبة للكاثوليك أو الأورثوذكس أو البروتستانت، فكلهم يؤمنون بإعلان «نيقية» وفكرة أن المسيح ابن الله، التي لم ترد في الإنجيل، ولٰكن وضعت وضعاً، ولذٰلك فأنا أؤمن بأن محمداً ﷺ قد جاء بالملة الأولىٰ ـ ملة إبراهيم ـ وهي أكثر صور العقيدة تكاملاً، فاليهود يكفرون بالمسيح عليه السلام ويكفرون بمحمد ﷺ، والنصارىٰ بدورهم يكفرون به، ومحمد ﷺ يؤمن بإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عليهم السلام.

❋ ❋ ❋

الثقافة.. والعلم والحكمة

◎ في الحقيقة يمكن الانتقال إلىٰ نقطة ثانية، وهي أن الإنسان الأوروبي في فترة من الفترات كان يعتقد أن حضارته وتصوراته وثقافته هي المقياس الذي يجب أن تقاس به سائر الحضارات، فكل ما وافق الفكر الأوروبي اعتبره حضارة، وكل ما خالف الفكر الأوروبي لم يعتبر حضارة، وهٰكذا مرت أوروبا بفترة الإنسان المتفوق، وأصيب الأوروبي بعقدة التفوق، واعتبر أن المسلمين ليسوا سوىٰ نقلة أو وعاءٍ فقط للحضارة اليونانية القديمة والرومانية القديمة؛ الأمر الذي يعبّر عن عجزهم عن قراءة التاريخ الحضاري قراءة أمينة وصحيحة، فالحضارة ـ تاريخيًّا ـ لم تكن حكراً علىٰ عرق بشري معين، ولو كانت كذٰلك لاستوطنت تاريخيًّا في مكان واحد، أما وقد تنقلت من شعب إلىٰ

شعب، ومن أمة إلىٰ أمة، فإن قضية المراهنة الحضارية علىٰ الإنسان الأوروبي ـ فيما نعتقده ـ خاسرة؛ فما هو موقفكم من هٰذه القضية؟

⊙ لقد ورثت الثقافة الأوروبية ـ التي تعتمد عليها حضارة الغرب ـ مضمونها من أصل مزدوج من التراث اليوناني الروماني، واليهودي النصراني، وأغفلت عمداً التراث الثالث، أي التراث العربي الإسلامي. وقد وقع الحطُ من قيمة التراث العربي الإسلامي لسببين؛ أولهما: أنه اعتبر ـ عمداً ـ عاملاً بسيطاً ناقلاً لثقافات وأديان قديمة، أو مجرد مترجم ومعلق علىٰ الفكر اليوناني، وثانياً: اعتبر ـ عمداً ـ مجرد فترة تاريخية سابقة لثقافتنا، وبالتالي يمكن أن تنحصر دراسته في نطاق المهتمين بالتاريخ القديم، وبهٰذا المنظار قالوا بأن الإسلام لا يمكن أن يأتي بجديد، ولا يحتوي علىٰ أي مضمون حيوي.

والرأي عندي أن هٰذا الاتجاه المزدوج ينبغي لنا أن نحاربه لأنه اتجاه خطير، وتأتي خطورته من أنه يمنعنا من فهم الحاضر وبناء المستقبل.

وقبل كل شيء، فإن القول بأن الفكر الإسلامي مجرد مترجم وناقل للفكر اليوناني أمر لا أساس له من الصحة؛ فالرياضيات اليونانية تعتمد علىٰ مفهوم «النهائي» علىٰ حين أن الرياضيات العربية تعتمد علىٰ مفهوم اللانهائي. كما أن «المنطق» اليوناني كان «منطقاً نظريًا» علىٰ حين أن العلم العربي علم تجريبي في أساسه، والهندسة المعمارية اليونانية تعتمد علىٰ الخط المستقيم، أما الهندسة الإسلامية فهي سيمفونية من الأقواس والمنحنيات كما تبدو واضحة في المساجد، ومن ناحية الفلسفة نجد أن الفلسفة اليونانية ابتداءً من «برمنيد» إلىٰ «أرسطو» هي فلسفة «الوجود»، أما الفلسفة العربية الإسلامية فهي فلسفة «الفعل» والمأساة اليونانية لا يمكن تصورها في النظرة الإسلامية للحياة، كما أن الشعر العربي لا يعقل في التصور اليوناني للحياة بمفاهيمه «النهائية» و«الكمية».

◎ في الحقيقة.. هٰذه الإيضاحات تنقلنا إلىٰ سؤال آخر يتعلق بطبيعة الاختلاف بين الثقافة الأوروبية والثقافة العربية الإسلامية حول مفهوم

العلاقة بين العلم والحكمة، الأمر الذي يؤكد عدم صحة المقولة الأوروبية التي تنال من دور الحضارة الإسلامية وتأثيرها.

⊙ إن العلم العربي الإسلامي ـ علىٰ عكس مفهومنا الوضعي ـ لا يفصل بين العلم والحكمة، بمعنىٰ أنه لا يغفل أبداً عن المعنىٰ والغاية، ولا يفصل بين تحليل الروابط ـ التي تصل الأشياء بعضها ببعض، وتساعد علىٰ اكتشاف القوانين التي تسوسها ـ وبين ربط هٰذه العلاقة مع «**الكل**» الذي يُكسبها «**معنًى**»، فهو علم دنيوي بعلاقاته مع الأشياء، وهو مقدس ـ حتىٰ أبسط عناصره ـ لصلته بالخالق. وإن العلم يتحول إلىٰ «علمية» إذا تخلّى عن المعنىٰ والسمو الروحي، كما تؤدي «التقنية» إلىٰ تقنوقراطية ما دام التطور الكمي للعلم وللتقنية قد أصبح غاية في حد ذاته.

وفيما يتعلق بمقولات الأوروبيين فإن نهضة الغرب لم تبدأ في إيطاليا مع إحياء الثقافة الرومانية اليونانية، بل بدأت في إسبانيا مع إشعاع العلوم والثقافة العربية الإسلامية، ولٰكن النهضة الغربية هٰذه لم تأخذ من العلوم الإسلامية سوىٰ منهجها التجريبي وتقنياتها، وتركت جانباً الإيمان الذي يوجهها نحو الله تعالىٰ ويسخِّرها لخدمة البشر. علىٰ حين أن الإسلام لا يفرق بين البحث عن القوانين والأسباب والبحث عن الغايات والمعاني. ولا بين القوة التي توفرها لنا التقنية للسيطرة علىٰ الأشياء، ووجوب استعمالها كوسيلة لعبادة الخالق. كما أن الإسلام لا يفرق بين الإيمان في الاقتصاد والإيمان في السياسة، بل علىٰ العكس يوحّد بينهما في بنية واحدة علىٰ أساس إرجاع كل «ملك» وكل «مقدرة» كما هو الشأن بالنسبة لكل «علم» إلىٰ الله الواحد الأحد.



«الله أكبر».. والحرية الحقيقية

◎ ربما يؤكد هٰذا أيضاً أن المفهوم الإسلامي للدولة وللقانون هو عكس ما ذهب إليه القانون الروماني، الذي يعتبر أصل القانون الأوروبي، وكل القوانين التي تدور في فلكه.

⊙ هٰذا صحيح، فالملكية في المفهوم القرآني ـ علىٰ سبيل المثال ـ ليست ملكية رأسمالية بمقتضىٰ حق الاستعمال والاستغلال كما هو الشأن في القانون الروماني، بل الله سبحانه هو المالك الوحيد، والتصرف في الأشياء الدنيوية ليس سوىٰ وظيفة اجتماعية، واستعمال الملك يكون موجهاً دائماً إلىٰ غايات تتجاوز الفرد في حد ذاته ومصلحته الخاصة. وهٰذا هو الفرق بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية، فلا سلطان سوىٰ سلطان الله تبارك وتعالىٰ، وهٰذا ما يجعلنا نستبعد الملكية المقدسة [الثيوقراطية] التي تدَّعي بأنها تستمد سلطتها من إرادة الله ـ كما هو الشأن بالنسبة لملوك أوروبا في القرون الوسطىٰ ـ والتي تجعل من الأمير ممثلاً للّه في الأرض، ونستبعد في الوقت نفسه النظام الديمقراطي الذي يعتمد علىٰ إسناد الحكم إلىٰ فرد منتخب أو حزب.

إن عبارة «الله أكبر» التي يطلقها المسلم للتعبير عن عقيدته: تجعل من كل سلطان ومن كل ملك، ومن كل علم أمراً نسبيًا. إن هٰذا النداء هو تعبير عن الحرية الحقيقية، لأنه تأكيد للبُعد المتسامي للإنسان، أي تأكيد لقدرته علىٰ الخروج من حتمية طبيعته وغرائزه وعاداته وتجاوزها جميعاً. وهٰذه القدرة علىٰ التسامي هي المبدأ الأساسي لكل مجموعة إنسانية حقيقية. وإن ما تميزت به الدولة الإسلامية الأولىٰ ـ التي أسسها الرسول ﷺ في المدينة كدولة مثالية ـ أنها تجاوزت المجموعة القبلية المرتكزة علىٰ رابطة الدم، كما تجاوزت رابطة الأرض، ولم تعتمد علىٰ مصلحة اقتصادية واحدة أو تاريخ واحد، ولا حتىٰ معطيات طبيعية وجغرافية ـ أي علىٰ «الطبيعة» وعلىٰ «الماضي»، إنها «دولة رسولية» وأعني بذٰلك أنها تأسست علىٰ إيمان مشترك بالعظمة والكمال الإلٰهي، وتمثل مجموعة قدسية حقيقة متفتحة علىٰ الإنسانية بأسرها، فالخضوع للّه وحده والصيغة الجماعية يمثلان البُعد السماوي والإنساني اللذين يفتقدهما الغرب اليوم.

* * *

◎ قد يكون من المناسب الآن السؤال عن مهمة «المعهد الدولي لحوار الحضارات» الذي قمتم بإنشائه مؤخراً، وتصوركم عن الدور الذي يمكن أن يؤديه، والمشروعات التي يضطلع بتنفيذها في المرحلة الحالية؟

⊙ في المرحلة الحالية، وبالنظر إلىٰ أن الدعاية الصهيونية منظمة تنظيماً محكماً في الغرب، وهي تمثل أحد العوائق الأساسية أمام تفهم العالم الغربي للحقائق وفهمه الصحيح للإسلام، فإن المعهد قد رسم لنفسه مهمتين:

الأولىٰ: إيجاد جواب مقنع للدعاية الصهيونية.

والثانية: إبراز صورة أمينة للإسلام في لغة تمكننا من تحقيق أكبر إشعاع ممكن في العالم الغربي، وقد بدأنا هٰذا العمل بكتابين اثنين ـ كمرحلة أولىٰ لمشروع كبير ـ صدر أحدهما تحت عنوان «مبشرات الإسلام»، أما الكتاب الثاني فهو عبارة عن ملف عن الصهيونية، وقد حرصت فيه علىٰ إظهار الحقيقة التي تتمثل في أن الصهيونية تلاقي اليوم خيبة عميقة في العالم الغربي لأنها قدّمت ادعاءات أسطورية في قالب الحقيقة الواقعة، معتمدة في ذٰلك علىٰ التعاليم النصرانية القديمة، أولاً: مسألة «أرض الميعاد»، بدعوىٰ إضفاء رؤية توراتية وتاريخية لملكية أرض فلسطين بتشريع إلٰهي، مبررين بهٰذا الوعد المزعوم احتقارهم لحقوق الشعب الفلسطيني.

وثانياً: مسألة «شعب الله المختار» حتىٰ يكون هٰذا الشعب هو القدوة في العالم، وتعتبر الكنائس النصرانية، ومن ورائها كل العالم الغربي، أنها الوريثة لهٰذا الشعب المختار، ومتضامنة معه حيث إنها مكلفة بالرسالة نفسها. وبهٰذا الخلط المستمر بين إسرائيل الواردة في التوراة، ودولة إسرائيل المعاصرة، فإن الأخيرة تمكنت من أن تواصل ـ بدون رادع ـ القيام بدور الوكيل للاستعمار الغربي الجماعي، وهٰذا يوضح كثرة الأموال الطائلة التي تتلقاها من الخارج خاصة من الولايات المتحدة الأمريكية، ومن الشبكة

العالمية للصهيونية، التي تمثل أهم مواردها المالية. كما يوضح أيضاً إيمان الغرب بالأساطير الصهيونية التي تقدم إسرائيل في صورة مَن يعمل علىٰ إحياء «الصحارىٰ» - وهي الصورة التقليدية لكل استعمار - ويفسر في الوقت نفسه المساعدات العسكرية الرهيبة التي تغمرها بدون قيد ولا شرط، بما في ذٰلك تجهيزاتها النووية. إن الأسطورة الصهيونية تستخدم المبرر التاريخي التوراتي للسياسة التوسعية لإسرائيل، ليس فقط من النيل إلىٰ الفرات، ولٰكن - كما صرّح بذٰلك أرييل شارون - الدردنيل، والسويس، والخليج، والمغرب تهمهم أيضاً وتثير شرههم.

وأخيراً أرفقت بالكتاب وثيقة هامة جدًا، وهي مقال نشرته صحيفة «كيفونيم ريفيو» الإسرائيلية بواسطة الحركة الصهيونية العالمية، وهي ليست ورقة عفوية أو عادية، والكاتب هو واحد من القدماء العاملين في حقل السياسة الخارجية في إسرائيل، الذي أوضح أن سياسة إسرائيل في الثمانينيات ستعتمد علىٰ تقسيم جميع الدول العربية علىٰ أساس عرقي أو عنصري Disintegration.

- الأردن: بتقسيمه بين الأردنيين والفلسطينيين، بعد توطينهم هناك. والعراق: بتقسيمه بين السنَّة والشيعة. ومصر: بإثارة الصدام بين الأقباط والمسلمين. والجزائر: بإشعال الحرب بين القبائل.

- أما عن منطقة الخليج، فتقول الوثيقة إن هٰذه الدول ضعيفة لأن معظم شعبها من الأجانب، وسيكون من السهل إثارة الحرب بينها من أجل البترول.

أما تاريخ نشر هٰذه الوثيقة فهو شهر حزيران (يونيو) عام ١٩٨٢م - في الوقت الذي جرىٰ فيه غزو لبنان - وقد قمت بتوزيعها علىٰ سفارات الدول العربية جميعها. وفي رأيي أنه من المفيد ترجمتها إلىٰ عشر لغات مثلاً وتوزيعها بكميات كبيرة علىٰ العالم أجمع. يقول جارودي:

لقد سلمت أصول الكتاب إلىٰ مسؤول دار النشر التي أتعامل معها، وهي (سييل Seuil) بباريس، وهو إنسان ممتاز من أصل بولندي واعتنق

الإسلام، وبعد عرض الأصول علىٰ مجلس الإدارة، رفضوا طباعته ونشره لأنهم يخشون أن تنسف الدار أو تتعرض للإفلاس بسبب النفوذ الصهيوني المعروف في مجالات النشر والتوزيع والإعلام والصحافة في فرنسا والغرب بصفة عامة، فتركت الكتاب عند أحد المحامين للبحث عن دار أخرىٰ، ربما تكون صغيرة، فتجازف بنشره.

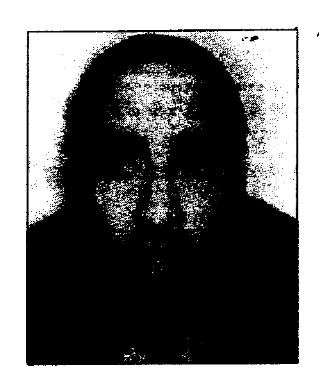
وأضاف: وربما إذا توصل المحامي إلى نتائج طيبة يتصل بي. إن ما يهمني هو التعجيل بالنشر لأنني أنتظر محاكمة في مارس القادم بتهمة معاداة اليهودية والسامية بعد نشر إعلان المبادئ في صحيفة «اللوموند» في حزيران (يونيو) الماضي، والذي أستنكر فيه الغزو الإسرائيلي للبنان. وأود أن يتم النشر قبل المحاكمة، ولٰكن الكتاب سوف ينشر بإذن الله.

◎ وبعد.. ففي الوقت الذي بدأت فيه الحضارة الغربية تمتلك كل الإنجازات المادية، ونعيش نحن أزمة التخلف في وسائلنا لا بد من الاعتراف بأن بعضنا قد يمارس ـ بغير إرادته ـ نوعاً من التعويض، فيندفع نحو القادمين إلىٰ الإسلام بدون قيد وبلا حدود.

فإلىٰ أي مدًى نستطيع أن نستفيد من خلال تعاملنا مع الذين يقدمون علىٰ اعتناق الإسلام ويدخلون ساحة الأخوة الإسلامية، بالقدر الذي يسمح به تخصصهم واهتمامهم ومعرفتنا الكاملة لخلفيتهم الفكرية والعقائدية؟!

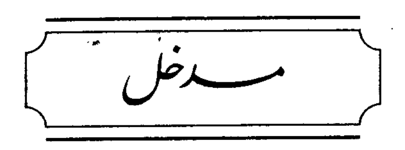
جمادى الأولى ١٤٠٣هـ ــ شباط (فبراير) ١٩٨٣م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مشكلة التخلف العلمي في العالم الإسلامي

في حوار مع : الدكتور زغلول راغب النجار



مدخل

■ من مواليد مشال ـ بسيون، غربية ـ في جمهورية مصر العربية عام ١٩٣٣م.

■ أستاذ الجيولوجيا بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن، بالظهران ـ المملكة العربية السعودية.

■ دكتوراه الفلسفة في الجيولوجيا من جامعة ويلز ـ ببريطانيا.

■ حائز علىٰ جائزة أفضل البحوث المقدمة لمؤتمر البترول العربي السابع في الكويت عام ١٩٧٠، إلىٰ جانب درجات الشرف والمنَح الأخرىٰ.

■ عضو الجمعية الجيولوجية بلندن، والجمعية الأمريكية لجيولوجيي البترول، وتقدم العلوم، وعضو اللجنة الاستشارية للجمعية الإسلامية لتقدم العلوم ـ الهند.

■ مستشار علمي للعديد من المجلات والمعاهد والمؤسسات العلمية.

■ من المهتمين بقضية التقدم العلمي للعالم الإسلامي، وإعادة صياغة العلوم من وجهة نظر إسلامية، وأن تكون العربية لغة التعليم.

■ له أكثر من مائة بحث ومقال منشور، بالإضافة إلىٰ خمسة كتب نشرت في بريطانيا والولايات المتحدة وبيروت والكويت والمملكة العربية السعودية.

■ يرىٰ أن المنهج الأفضل في نشر الدعوة اليوم ينبغي أن يقوم علىٰ:

ـ ضرورة التأكيد دائماً علىٰ حاجة الإنسان إلىٰ الدين الصحيح، وتشتد الحاجة أكثر في هٰذا العصر حيث الجحيم المادي، والمخزون الكبير من أسلحة الدمار الذي أصبح يهدد مستقبل البشرية، إلىٰ جانب الخواء الروحي، وعجز العلم عن الإجابة المقنعة علىٰ الكثير من القضايا التي تلتصق بالإنسان.

ـ التأكيد علىٰ أن الدين يقوم علىٰ قدر هائل من الحقائق الغيبية التي لا تخضع لمقاييس الإنسان المادية، وهو بحاجة إلىٰ إجابة شافية عنها، لذٰلك لا بد من وحي الله تعالىٰ.

ـ أن الإسلام هو الصورة الأخيرة للنبوة، والرسالة الخاتمة للبشرية، والنداء الشامل للإنسانية.

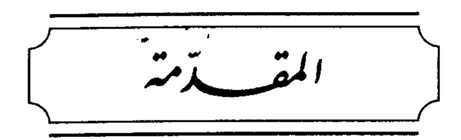
ـ إبراز عالمية الدعوة الإسلامية، وهي الحقيقة التي افتقدها المسلمون عمليًا بعد سقوط الخلافة، لذا **فلا بد لنا من الإيمان بحقيقة: الأمة الواحدة،** ونبذ كل صور العصبيات والإقليميات الضيقة، وتحقيق الشمول في واقع المسلمين، حتىٰ يمكن الامتداد والانتشار إلىٰ الآخرين.

ـ التأكيد علىٰ أن الإسلام دين العقل والعلم، وأنه أقام حضارته علىٰ أسس علمية وتقنية صحيحة، لذٰلك لا يرضىٰ أن تتفشىٰ الأمية في أبنائه.

ـ ضرورة أن يتحقق المسلم بأسباب القوة، لذا لا بد من إحياء فاعليته، وإيقاظ روح الجهاد ليستأنف دوره من جديد، **فالمؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير.**

ـ إيضاح أن عمارة الأرض، والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني، واستشعار المسؤولية تجاه حمل قيم الخير إلىٰ الآخرين عبادة لله سبحانه.

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



المقدمة

■ إن فجوة التخلُّف بيننا وبين العالم المتقدم في قضايا العلم والتقنية فجوة هائلة، تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، الأمر الذي بات معه بعض الناس في عالمنا الإسلامي يعتقد بأنه من المستحيل علىٰ المسلمين اللحاق بالركب العلمي والتقني الذي وصلت إليه أوروبا وأمريكا واليابان، بمعنىٰ أن المسلمين سيبقون في القضية العلمية ـ علىٰ الأقل ـ يعيشون علىٰ العطاء الغربي.

فهل من سبيل إلىٰ ردم هٰذه الفجوة؟ وهل كان ذٰلك بسبب ارتباطنا بالإسلام كما يزعم بعضهم، أم أنه كان عقوبة لانسلاخنا عنه؟ وذٰلك أن طلب العلم فريضة، وتحصيل ما تحتاج إليه الأمة المسلمة من العلم والتقنية فرض كفاية لا بد من القيام به وإلا أثمت الأمة جميعها. ■

❋ ❋ ❋

◎ من القضايا الرئيسة المطروحة في العالم الإسلامي اليوم: قضية إعادة صياغة العلوم من خلال التصور الإسلامي باللغة العربية كخطوة أولىٰ لا بد منها علىٰ طريق التقدم. طبعاً هناك مَن ينتصر لهٰذه القضية انتصاراً لمقومات الأمة في القضاء علىٰ مركب النقص الذي تورثه عقدة تفوق الأجنبي ولغته. وبعضهم يرىٰ أن مراجع العلوم كلها أجنبية؛ في فترة يعيش العالم الإسلامي فيها مرحلة تخلف، عاجزاً عن العطاء، فتعلّم العلوم باللغة العربية، أو نقلها للغة العربية يشكل مرحلة قاسية وعقيمة تحرم الطالب من كثير من المصادر التي يمكن أن تكون مورداً لزيادة المعرفة بالنسبة له. فما رأيكم في هٰذه القضية بشقَّيها:

- إعادة صياغة العلوم.

- لغة العلوم؟

⊙ قبل أن أجيب علىٰ هٰذا السؤال أود طرح مقدمة هامة أرىٰ أنها في صميم القضية: أذكر أنني دعيت لحضور مؤتمر التضامن الإسلامي في مجال العلوم والتقنية (الرياض: ١٩٧٥م)، وطلب مني أن أكتب عن الثروات المعدنية في العالم الإسلامي، وبعد أن بدأت الكتابة في الموضوع فعلاً، وجدت أنه - علىٰ أهميته - سبق أن طرق من قبل. ويكفي المرء أن يلجأ إلىٰ أي كتاب من كتب الجيولوجيا الاقتصادية، أو بعض الأطالس ليدرك أن الموضوع لا يحتاج لشيء من الجهد، وبعد تفكير فتح الله تعالىٰ عليَّ بموضوع وضعت له هٰذا العنوان:

«**ضرورة إعادة كتابة العلوم من وجهة نظر إسلامية**» وقدّمته للمؤتمر. وكان له أثر طيب في النفوس لدرجة أن أكثر من هيئة اهتمت بنشره، لأنه أثار فعلاً قضية ذات وزن، وتشغل بال المسلمين.

وأذكر أن محور البحث هٰذا دار في خط واضح للغاية، هو أن المسلمين حينما تربُوا علىٰ الإسلام أدركوا أن قضية الاهتمام بالناحية العلمية

هي قضية تعبدية بالدرجة الأولىٰ، وليست مجرد الحصول علىٰ شيء من القوة أو الغلبة والتسلط في هٰذه الدنيا، فحين يتعرف المسلم علىٰ بديع صنع الله تبارك وتعالىٰ في هٰذا الكون؛ فهو يتعرف علىٰ خالقه. وقد أحصيت عدد الآيات القرآنية التي تحض الإنسان علىٰ النظر في الكون فوجدتها تفوق (٧٥٠) آية، إلىٰ جانب أن القضية لا بد منها للقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني وتسخير الكون كما أراد الله سبحانه وتعالىٰ.

◎ كأن الإنسان يلمح أن الجيل الأول القدوة من المسلمين لم يكن يرىٰ التفريق - بهٰذا الشكل - بين العلم التجريبي وبين العلوم الشرعية من الفقه والتفسير ونحوهما، ذٰلك أن الإنسان بدأ يشعر بأن النظرة النصفية هٰذه معطلة للعالم الإسلامي، ولقد كنا نرىٰ الإنسان فلكيًا ومفسراً، وطبيباً وفقيهاً. لم تكن النظرة النصفية هٰذه موجودة، رغم أن التخصص كان أمراً قائماً إلىٰ حدٍّ ما.

⊙ هٰذا صحيح، ولعل ما يشكو منه العلماء الآن قضية التفتيت في المعارف، فالتخصص الدقيق جعل الناس ينحصرون في دوائر ضيقة، فجاءت نظرتهم للحياة نظرة جزئية جدًا، نظرة غير إنسانية لأنها غير متكاملة، إن النظرة المتكاملة هي التي يستطيع الإنسان من خلالها التعرف علىٰ قوانين الله تعالىٰ في الكون، والقيام بواجبات الخلافة في الأرض علىٰ أحسن وجه، فكلما تعرّف علىٰ قوانين أكثر كلما كانت قضية عمران الحياة علىٰ الأرض أيسر.

* * *

الفروض الكفائية تعني وجوب تحصيل الاكتفاء الذاتي

◎ هٰذا يعني أنه لا يمكن أن تتحقق وظيفة الإنسان الشرعية علىٰ الأرض ما لم يحصل علىٰ العلم التقني، وأنه - حتىٰ في زمن التخصص - لا بد أن يحمل لنا العقل المجتمعي الإسلامي نظرة عامة عن هٰذه العلوم

جميعاً، بمعنىٰ أن المجتمع الإسلامي يحتوي علىٰ كل التخصصات. وهٰذا الموضوع في تقديري يرتبط بفهم المسلمين الآن لما يسمىٰ فرض الكفاية وفرض العين، حيث أصاب هٰذا الفهم شيء من القصور، وأعتقد أن طلب العلوم الشرعية ـ أي ما يجب أن يُعلم من الدين بالضرورة ـ هو فرض عين علىٰ كل مسلم. أما فيما وراء ذٰلك من التخصصات فتبقىٰ فروضاً كفائية، وأبسط ما يقال في فهم معنىٰ الفروض الكفائية أن يتوافر العدد الذي يغطي حاجة المجتمع لهٰذا التخصص أو ذاك، فإذا قام به بعض الأفراد دون أن يصلوا إلىٰ الحجم الذي يغطي حاجة المجتمع، يظل المجتمع آثماً.

اسمها فروض كفائية، ومعنىٰ أنها «كفائية» أنها تحقق الاكتفاء الذاتي في هٰذا الجانب للأمة المسلمة.

⊙ إن هٰذا الكلام صحيح تماماً، ويعكس التصور الإسلامي لقضية العلم ـ الذي يختلف عن التصور الغربي الأوروبي ـ حيث نتلقىٰ العلم اليوم من خلال فلسفته؛ فحين قامت النهضة العلمية في العالم الإسلامي وكانت أوروبا تغط في نوم عميق في عصور الظلام أو العصور الوسطىٰ، حمل العالم الإسلامي تراث البشرية من المعارف في الحضارات السابقة والمعاصرة لبعثة محمد ﷺ ـ حضارة الفرس والروم والهند والصين ومصر القديمة ـ جمع كل ذٰلك وصفاه بمنطق النظرة الإسلامية الصحيحة، وأضاف إليه إضافات أصيلة، وحين أخذته عنه أوروبا بعد ذٰلك عن طريق المدارس الإسلامية في الأندلس وجنوبي أوروبا بصفة عامة ـ صقلية وجنوبي إيطاليا ـ ظهر الفارق واضحاً، فالمسلمون لم يجدوا في تعاليم الإسلام وأصوله ما يمكن أن يقف حائلاً دون نشاطهم العلمي، بل وجدوا في القرآن الكريم وفي أحاديث الرسول ﷺ ما يدفعهم إلىٰ ذٰلك دفعاً، بينما كان الموقف مختلفاً تماماً في عصر «النهضة» ـ عندما بدأت أوروبا في (أواخر القرن السادس عشر) تأخذ بالأسباب انطلاقاً من القاعدة التي علمتها لهم الأمة الإسلامية ومدارسها في شمالي أفريقيا وجنوبي أوروبا، فكانت المفاصلة بين

رجال العلم والكنيسة ـ لأن الكنيسة كانت تتبنىٰ أفكاراً ونظريات علمية مغلوطة انطلاقاً من كتاب «الأصول» أو «الخلق» بـ«العهد القديم»، وكانوا يعتقدون أنها حق إلٰهي مطلق لا يجوز الخروج عليه، وعندما بدأت الاكتشافات العلمية تتعارض مع ما جاء في «سفر التكوين» قامت حملات الاضطهاد في وجه رجال العلم، فلم يكن للعلم أن ينهض بغير مفاصلة بينه وبين الدين.

❋ ❋ ❋

أخلاق المعرفة

◎ الحقيقة أنه في فترة التخلف التي سادت العالم الإسلامي وأصابت عقول بعض الناس بوهم كيفية الإنقاذ من التخلف، كان أقرب سبيل لهم أن قاسوا حالهم وواقعهم علىٰ أصول الحضارة الغربية في نظرتها وفلسفتها الحضارية. لذٰلك توهموا أن ترك الدين هو الذي يخلصهم من التخلف كما فعلت أوروبا، فوقعوا بالمشكلة، لذٰلك أقول: إن الإسلاميين ـ بشكل عام الآن ـ استطاعوا أن يقدموا الدليل ليحطموا الأسطورة التي عشّشت في عقول كثيرين في العالم الإسلامي من ضرورة الفصل بين العلم والدين ليحصل التقدم، بأن قدّموا نماذج علىٰ أعلىٰ درجات من التخصص العلمي والتفوق، وفي الوقت نفسه يمكن أن تمثل أعلىٰ مراتب التصور والفهم الإسلامي والثقافة الإسلامية، وهٰذه قضية أعتقد أن لها أثراً تربويًّا كبيراً علىٰ الجيل المسلم.

⊙ هٰذا في الحقيقة ينقلنا إلىٰ الناحية التربوية من الموضوع، فليست القضية قضية تفوق علمي بقدر ما هي ـ في الأصل ـ قضية تربوية، كيف نربي الفرد المسلم علىٰ فهم صحيح؟ وأنا ممن يؤمنون بأن أحد الأسباب الرئيسة لتخلف جامعاتنا في العالم الإسلامي ـ علىٰ كثرتها ووفرة إمكاناتها ـ أن هٰذه الجامعات لم تنطلق من منطلق إسلامي، وليس لديها التزام أخلاقي، فهي

جامعات أُسست علىٰ نظم غربية، وفكر غربي، أو جامعات غربية في أرض إسلامية، وهٰذا بدوره أدىٰ إلىٰ نوع من الازدواجية عند الطالب بثقافته الإسلامية المحدودة حين يتعلم من كتب غير إسلامية، وبمفاهيم وقيم غير إسلامية، فلا نظام التعليم والامتحانات، ولا المناهج والأساليب التي يعامل بها الطالب، ويتعامل بها الأستاذ نابعة من منظور إسلامي، من هنا كانت حصيلة نظمنا التعليمية ضئيلة للغاية، ومَن يخرج منها ثابتاً علىٰ دينه وفاهماً لرسالته في الحياة قلة نادرة، أما الكم الأكبر، فإن العملية التربوية ذاتها تفسده.

◎ يمكن أن نلخص ذٰلك بأن المشكلة ليست في العلم فقط، لٰكن في خُلُق العلم وهدفه المفقود في الفلسفة الغربية، وليست في المعرفة بقدر ما هي في أخلاق المعرفة، لأن الخُلق هو الذي يصرف المعرفة إلىٰ المواقع الخيرة أو الشريرة.

⊙ ولذٰلك نلاحظ أن نظام التعليم الغربي علىٰ الرغم من تفوقه الملحوظ في بناء قواعد علمية وتقنية جيدة، وفي بناء متخصصين في القضايا المختلفة علىٰ مستوًى جيّد، وفي توفير المكتبات والمختبرات، إلا أنه ينهار في ناحية بناء الإنسان، وتشير التقارير التحليلية إلىٰ أن أسوأ الناس سلوكاً هم أعلىٰ الناس تعلماً في الغرب. وهٰذه ظاهرة يدركها التربويون، وكتبوا عنها كثيراً، ومن ذٰلك أنهم لاحظوا أن التعليم أصبح من أجل الشهادة، والشهادة من أجل الاستعلاء في الأرض والتسلط، وقد أدّىٰ هٰذا إلىٰ ظهور نوعيات من البشر، تشقىٰ بها البشرية الآن. وأذكر أن مؤتمراً عقد عام ١٩٨١م في استوكهولم ـ السويد ـ تحت عنوان: «العلم والتقنية في الحضارة الغربية وفي الإسلام»، حضره سبعة علماء من المسلمين وثلاثون من غير المسلمين. وكان الحوار فيه مفتوحاً لثلاثة أيام، حول قضية التقدم العلمي والتقني المعاصر في الفلسفة الغربية وفي الإسلام، وانتهىٰ إلىٰ قرار تاريخي لم يحدث أن وصل إليه مؤتمر من المؤتمرات، حيث قرر أن التقدم العلمي والتقني الحالي يتهدد البشرية بمصير لا يعلم مداه إلا الله سبحانه وتعالىٰ،

فحجم المخزون من الأسلحة النووية والكيميائية والجرثومية لدىٰ الطرفين المتنازعين ـ روسيا وأمريكا ـ أكبر مما يحتاجه تدمير الحضارة المعاصرة عدة مرات. والناس ـ حيال ذٰلك ـ في الغرب يقفون موقفين: إما التسليم بالأمر الواقع، حيث يقولون: إن هٰذا قدر البشرية، وعليها أن تسير فيه إلىٰ النهاية، أو موقف الرفض التام علىٰ أساس أن هٰذا بلاء جاء نتيجة التقدم العلمي، وعلينا أن ننبذه وراء ظهورنا ونعود مرة أخرىٰ إلىٰ «حياة الطبيعة».

◎ ظهرت بالفعل حركات تنزع إلىٰ الهروب من المجتمع والعيش في أحضان الطبيعة، بل إن مدناً في أمريكا وأوروبا تحرم الآن دخول الآلة الحديثة التي تلوث البيئة. والمشكلة هنا أن الإنسان يعالج الانحراف بانحراف آخر، والإسلام جاء بالتوازن الذي أسميناه الوسطية والاعتدال، وهو أمر مفقود اليوم.

⊙ هٰذا ـ في الحقيقة ـ الذي استطعنا أن ننقله إلىٰ العلماء خلال أيام المؤتمر ـ علىٰ تباين تخصصاتهم؛ من اجتماعيين وتربويين وعلماء في الطاقة النووية وفي الطب والجيولوجيا ـ رؤية الإسلام الوسطية التي أشرتم إليها، وينتهي المؤتمر فعلاً إلى الإقرار بأن الإسلام لديه الحل لأنه منهج وسط لا يميل إلىٰ أي جانب من هٰذه الجوانب المتطرفة، وأنه النظام الروحي الوحيد الذي يستطيع إيقاظ ضمير الإنسان ويجعل من نفسه علىٰ نفسه رقيباً. **لذٰلك أقول: إن قضية إعادة صياغة العلوم من منظور إسلامي قضية أساسية وضرورة إنسانية،** فقد مرّت بنا فترة غفوة، تخلّف فيها المسلمون علميًّا وتقنيًّا، وفي الفترة نفسها جاءت النهضة في العالم غير الإسلامي علىٰ أساس المفاصلة بين العلم والدين، وعندما استيقظ المسلمون ليلحقوا بالركب، أخذوا ما كتبه الغربيون بغثّه وثمينه دون تمييز.

◎ كان التمييز صعباً عليهم ـ في الحقيقة ـ لأنهم عاجزون أصلاً عن الفهم، حيث إن موقع التخلف ينسحب علىٰ كل شيء، ولو لم يفتقدوا التمييز ما كانوا في حالة تخلف.

⊙ هٰذا صحيح، فقد كان العالم الإسلامي في ذٰلك الوقت مستعمراً من قبل

البريطانيين أو الفرنسيين أو الإيطاليين استعماراً عسكريًا واقتصاديًا وفكريًا وعلميًا. وكانت المعاهد والمدارس في أيدي القوىٰ المستعمرة، وكان الأوروبيون يكتبون الكتب العلمية مباشرة لهٰذه المدارس أو يترجمونها إلىٰ العربية، وتأتي الخطورة من هنا، فعندما كان العالم الغربي يكتب العلوم كان يكتبها من منطلق إلحادي أو لاديني صرف، من خلال الصورة التي انتهىٰ إليها، ثم نُقل ذٰلك إلىٰ العالم الإسلامي، الأمر الذي أدّى إلىٰ موقف خطير، فالمسلمون عندما بدأوا بقراءة هٰذه الكتابات العلمية، ورأوا فيها إلحاداً، نفروا منها ـ من ذٰلك الأزهر مثلاً، الذي لم يكن في وقت من الأوقات مدرسة للدراسات الإسلامية والعربية فقط بل أيضاً مدرسة علمية متخصصة ـ حيث كان فيه جغرافيون ورياضيون وفلكيون متميزون، في سنواته الأولىٰ ـ ثم تقوقع علىٰ الدراسات العربية والإسلامية فقط لأنه وجد أن سيل المعرفة الذي يأتي إلىٰ العالم الإسلامي إلحادي صرف، فواجهه بالانغلاق، وكانت النتيجة، إما صد ذٰلك التيار الإلحادي صدًا كاملاً بإهماله وتركه، أو مجاراته وقبوله، ظنًا أن هٰذه هي وسيلة الأخذ بالأسباب.



قضية الابتعاث

◎ أعتقد أنه ما من شك أن تخلف المسلمين هو الذي حال دون الخطوات الصحيحة المتميزة، لأنهم حينما كانوا يتمتعون ـ تاريخيًا ـ بمعدة هاضمة علميًا، وكانوا علىٰ درجة من التصور الإسلامي الصحيح لم يقعوا في هٰذه المشكلة، فنحن الآن ـ في الحقيقة ـ واقعون في المشكلة بسبب التخلف عن الوظيفة الإسلامية لعمارة الأرض، وبسبب التخلف عن الثقافة الإسلامية وأبعادها الحقيقية، والانفصال العلمي الذي يمارسه المسلم بين الدين والحياة؛ وإن كان هو يرفع شعارات تعاكس ذٰلك، يقول إن الإسلام دين شامل لجميع جوانب الحياة، ولٰكننا نراه في الممارسة يعيش علىٰ جانب ويدع بقية الجوانب. المطلوب كيفية

الخروج، كيف ننتهي من الأمنيات؟ من أمنية إعادة صياغة العلوم أو هضم العلوم، أو ما هي كيفية تعامل المسلم مع الواقع من خلال التصور الإسلامي؟ وما هي الوسائل العلمية في نظرك؟

⊙ لا بد لي أن أقول ـ قبل الإجابة ـ بأنه إذا أردنا أن نصحو علميًا وتقنيًا، فعلينا أولاً أن نعيد صياغة المعارف بتصور إسلامي صحيح وباللغة العربية، وأن نبني مدارسنا العلمية بأيدينا، لا يمكن أبداً للأجنبي أن يبني قاعدة علمية في بلد مسلم البناء الذي نأمله، فمثلاً، قضية الابتعاث المستمرة للخارج قضية تهدم مبدأ التقدم العلمي والتقني من أساسه، لأن أي شاب ـ والجامعات عادة تبني قواعدها العلمية بشبابها ـ بعث به للخارج ـ بغض النظر عن أني أعرضه لعملية غزو فكري رهيبة ـ يتعرض لتصيد من الكنيسة، ومن اليهودية وعملائها، والحركات الاستخبارية، هٰذه كلها عوامل نفسية تحول دون النمو العلمي والتقني للشباب، بالإضافة إلىٰ ذٰلك، فإننا نبعثه في جو غريب يستخدم أجهزة قد يعود إلىٰ بلده ولا يجدها، ومكتبة قد يعود إلىٰ جامعته ولا يرىٰ مثلها، وقد يوجه في دراسته إلىٰ التركيز علىٰ مشكلة قائمة هناك قد لا تهم البلد المبتعث منه، وحينما يعود يشعر أنه قد فصل من البيئة التي تربّى فيها علميًا، هٰذا بالإضافة إلىٰ أنه قد أصبح اليوم ـ لدىٰ كثير من الجامعات الغربية ـ اعتقاد أن المسلم ليس ضروريًا أن يتعلم جيداً، ويمكن أن يعطىٰ الشهادة التي يحتاجها، **ولٰكن حين أقوم ببناء قاعدة علمية في بلدي، فالشباب هو الذي يصمم الجهاز الذي يريد أن يعمل عليه، ويعمل علىٰ توفيره، وهو الذي يطلب الكتب التي تلزمه، وينشئ مكتبة جيدة، ويبدأ بدراسة مشكلة محلية فيساعد** علىٰ حلها.

والقاعدة العلمية كالشجرة ـ حقيقة ـ تحتاج لمد جذورها إلىٰ الأعماق حتىٰ تؤتي ثمارها، لدينا في العالم الإسلامي جامعات عمرها أكثر من خمسين سنة ـ وهٰذا صحيح ـ ولٰكن ماذا قدّمت إلىٰ الآن؟ **إنها لا تزال تعيش في الغالب علىٰ الابتعاث!!**

◎ هل تعتقد أنه بواقع العالم الإسلامي الآن نستطيع أن نلغي عملية الابتعاث؟ أنا أرىٰ أن القضية قد حُلَّ بعضها ولا يزال بعضها الآخر متوقفاً بانتظار الحل، بحيث يمكن أن نفكر بإلغاء بعض جوانب عملية الابتعاث في الصورة التي هي عليها الآن ـ علىٰ مراحل ـ ونضع خطة للانتهاء منها، فإلغاء الابتعاث فوراً قضية قد تعود علىٰ العالم الإسلامي بشيء من الانغلاق لأن الجامعات الآن غير مؤهلة لما تطرحونه، فإذا استطعنا أن نهيئ دليلاً ثقافيًّا من خلال الروّاد الذين أدركوا خطورة عملية الابتعاث وأبعادها، وننبه إلىٰ أهمية المراكز الإسلامية ـ التي أصبحت حصون حماية في الغرب إلىٰ حدٍّ بعيد ـ ونضع عمراً لانتهاء عملية الابتعاث بشكل عام، ونقتصر علىٰ حاجاتنا، يمكن أن نرىٰ في ذٰلك طريقة صحيحة أكثر من عملية الانغلاق وإلغاء الابتعاث، لأننا لم نرَ من الابتعاث غير وجهه الشرير تاريخيًّا، وإلىٰ جانب ذٰلك رأينا بعض النماذج الفاضلة؛ فبعض الإخوة الذين ذهبوا، عادوا إلينا أكثر ثباتاً وأعمق شعوراً بالتحدي الحضاري، وأحسنوا عملية الاستفادة، واحتفظوا بإسلامهم، وقدّموا لنا أشياء ومعالم كثيرة.

⊙ لا شك أنني حينما أنادي بإلغاء الابتعاث، لا أنادي بإلغائه بين يوم وليلة، فلا بد من وضع برنامج تتم العملية بموجبه علىٰ مراحل تدريجية؛ عبر عشر سنوات أو خمس سنوات ـ حسب إمكانية كل بلد ـ ولٰكن دعني أقدم لكم أنموذجاً طيباً:

لقد كنت مدعوًّا إلىٰ مؤتمر علمي ـ عُقد في باكستان ـ وقمنا خلاله بزيارة مركز الأبحاث في لاهور، وهزّني أن أرىٰ كل جهاز في هٰذا المركز مصمماً ومصنوعاً بأيدٍ باكستانية، علىٰ الرغم من أن المركز فقير من الناحية المادية، هٰذه هي عملية بناء القاعدة العلمية، أما أن نقتصر علىٰ الابتعاث فلن نبني قاعدة علمية محلية أبداً، ومعنىٰ هٰذا أن يبقىٰ الابتعاث هو البداية والنهاية، ونظل دائماً في موطن التلقي.

◎ هٰذا إذا لم نرسم له عمراً معيناً لننتهي من الكثير منه، ونقيم القواعد

العلمية والمختبرات في جامعاتنا، وإلا سنبقىٰ في مرحلة التخلف التي يريدها لنا الغرب. المطلب هنا هو إعطاء عمر لإنهاء الابتعاث بشكله القائم وليس الانغلاق دونه.

⊙ أنا لا أرىٰ الانغلاق حتىٰ بعد أن نوقف الابتعاث أو نحد منه، فحين أحقق إنشاء القاعدة العلمية في بلدٍ ما، سيقوم العلماء الذين انتهوا من مرحلة الدكتوراه محليًّا بزيارات علمية، ويحضرون مؤتمرات، ويتبادلون البحوث والدراسات المتقدمة، وذٰلك لأن عملية التبادل العلمي والثقافي تساعد في إحداث النضج المطلوب. نحن لا ننادي بالانغلاق، فالعلم ليس ملكاً لأمة من الأمم، ولا لشعب من الشعوب، ونحن أوْلىٰ الناس به، فالحكمة ضالة المؤمن، أنّى وجدها فهو أوْلىٰ بها.

❋ ❋ ❋

النبوغ ومناخ الاستبداد

◎ من خلال دراسة أسباب عدم النبوغ العلمي في العالم الإسلامي يمكن أن نقول بأن عامل اللغة من العوامل الرئيسة، فهي قالب التفكير، ووسيلة التواصل التاريخي والحضاري بين الأجيال، إلىٰ جانب ضرورة توفر مناخ الحرية ـ المفقودة في كثير من أنحاء العالم الإسلامي ـ الذي يجب أن يتوافر للعلماء بصفة خاصة، وللناس بصفة عامة؛ ذٰلك أن قضية الحرية علىٰ جانب كبير من الأهمية، فلا يمكن لعالم غير مستقر نفسيًّا وغير مطمئن علىٰ نفسه وعلىٰ عرضه وعلىٰ ماله أن يبدع. هٰذا مع العلم بأن عملية الإبداع لا تتم في سنة أو اثنتين بل في عشرات السنين، والإنسان القلق ـ لسبب أو لآخر ـ عاجز عن الإبداع والعطاء.

⊙ تحضرني هنا مناقشة دارت بيني وبين الأستاذ الذي كنت أعمل معه في بريطانيا عندما استقبلني أول مرة، حيث سألني: ماذا يفعلون للناس في بلادكم؟

ولم أفهم السؤال لأول وهلة، ولم أفهم ماذا يريد، فأضاف موضحاً:

«لقد عمل معي عدد كبير من الشباب من بلادكم، وكنت أتوقع لهم مستقبلاً باهراً، وبمجرد عودتهم لا يصلني منهم سوىٰ رد علىٰ خطاب أرسله، ثم بطاقة تهنئة بمناسبة ما، ولا أدري بعد ذٰلك هل هم أحياء أم أموات!!».

الحقيقة أن العيب ليس في الناس وقدراتهم، بدليل نبوغ الكثير منهم في دراساتهم في الغرب، بل في البيئة والمناخ، كما نلاحظ أن الذين أضافوا للعلم في أوروبا وأمريكا، نشأوا علىٰ القاعدة العلمية التي أقامها الرعيل الأول ـ وهي قاعدة مستمرة ـ ولذٰلك فهم يتقدمون بقوة الدَّفْعَةِ الذاتية الأولىٰ، بقوة الاستمرارية.

لقد كان الحافز الرئيس للنشاط العلمي ينبع من احترام المجتمع وتقديره للعلم والعلماء، وهٰذا أجدىٰ من التقدير المادي. إن إهمال المجتمع لهٰذه النواحي، وعمليات الإرهاب الفكري التي يعيشها المجتمع في معظم أنحاء العالم الإسلامي، وعدم الشعور بالاطمئنان والأمن والاستقرار ـ بصفة عامة ـ كلها عوامل تؤدي إلىٰ الحيلولة دون النبوغ العلمي.

◎ الحقيقة أن مناخ الاستبداد السياسي لا ينشئ نبوغاً علميًّا ولا علماء، لٰكن في الوقت نفسه من المفروض أن نوفر للجيل المسلم ـ وللإسلاميين بشكل عام ـ حصانة نفسية تحول دون السقوط، فكيف نستطيع حمل الشباب المسلم علىٰ تجاوز الصورة إلىٰ الحقيقة؛ ليعلموا أن الحقائق هي التي تبني مجتمع المستقبل؟ فنحن لا نرضىٰ بأن نستسلم لما أريد لنا من مخططات ونعدم الأسلحة أمام التحدي القائم.

⊙ ما من شك في أن فهم الفرد المسلم للإسلام هو الحل لكل هٰذه القضايا، فهم المسلم معنىٰ «لا إلٰه إلَّا الله» وأنه لا سلطان في هٰذا الوجود لغير الله سبحانه وتعالىٰ، فإذا تربّىٰ المسلم من الصغر علىٰ فهم دقيق للعقيدة الإسلامية، بمعنىٰ أن عمره في هٰذه الدنيا حدده الله تعالىٰ، ولا تستطيع قوة علىٰ وجه الأرض أن تزيد من عمره لحظة أو تنقص منه لحظة، وأن رزقه

مقدّر سلفاً، ولا تستطيع قوة على الأرض أن تزيده أو تنقصه درهماً واحداً، هٰذه المعاني النفسية مهمة جدًّا وبدونها يضيع الإنسان.

❊ ❊ ❊

النبوغ في خدمة العقيدة

◎ **يعني الحصانة النفسية لمواجهة الاستبداد، ذٰلك أننا نعتقد أن الاستبداد السياسي يعطل عملية النبوغ ـ بشكل عام ـ ومع ذٰلك فأرىٰ أن صوراً للاستبداد السياسي لم تعطل النبوغ عند علماء تمتعوا بالحصانة النفسية، فهم في ذٰلك قدوة للجيل المسلم ـ مثل ابن تيمية ـ علىٰ الرغم من الظروف التي كانت محيطة في عصره.**

⊙ هٰذه فلتات، ذٰلك أنهم تمتعوا بالحصانة النفسية.

◎ **وهٰذه الفلتات أرىٰ أنه يجب أن تكون معالم للجيل المسلم حتىٰ لا يستسلم ويقف عن أداء رسالته. إن تقديم نماذج من هٰؤلاء العلماء للجيل، يصحح ويعالج وضعه النفسي، ولنا أيضاً في العصر الحاضر نماذج من المسلمين الذين لم يحد الاستبداد السياسي من ظهور نبوغهم علىٰ الساحة الإسلامية، إلا أن الرؤية لا تزال عاجزة عن جعل النبوغ في خدمة العقيدة، بمعنىٰ أن المسلم لو كان نابه الذهن لأدرك أنه يستطيع أن يخدم دعوته الإسلامية من طريق المواقع التي يعتليها كطبيب أو مهندس متفوق أكثر من وجوده في مواقع أخرىٰ، فقضية الدعوة ليست بهٰذه الوسائل المحدودة التقليدية المتنقلة من جيل إلىٰ جيل، وإنما الحياة بكل شعبها، فأنا أعتقد أن راعي الغنم في طريق الهجرة؛ وبرغم وظيفته البسيطة في سلم الحياة الاجتماعية قد جعلها في خدمة عقيدته، حين جعل الأغنام تمر علىٰ آثار أقدام أسماء بنت أبي بكر إذا خرجت إلىٰ الغار أو عادت منه، فعطّل بذٰلك الرؤية واقتصاص الأثر عند أعداء الإسلام الذين يطاردون المهاجرين؛ حتىٰ إننا نستطيع أن**

نقول بحسب الأسباب البشرية: إنه شكّل منعطفاً في التاريخ الإنساني.

⊙ أود أن أعقب على هذا، بأن مرحلة جديدة تعتمدها الحركات التنصيرية في العالم الإسلامي المعاصر أبعد من اعتمادهم الكوادر الفنية من أطباء ومدرسين وغيرهم كوسيلة من وسائل العمل؛ حيث إنهم يقومون الآن بحركة يسمونها «حركة صانعي الخيام» نسبة إلى أحد القديسين عندهم، أظنه «سان جون» الذي كان يتعيش من صناعة الخيام؛ فيعتبرون كل كادر فني موجود في بلد هو أحد هؤلاء الذين يتعيشون من مهنتهم ويعملون لخدمة الحركة التنصيرية.

◎ هذه حقيقة إسلامية، فما من نبي من الأنبياء إلا وله حرفة، وما من عالم من علمائنا القدامى إلا وقد اشتهر بحرفته، الخياط والوراق والبزّاز وحتى الإسكافي. إن قضية ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩٠] قضية خطيرة، غائبة عن ذهن المسلمين، ولكنها تؤثر بصورة سلبية على التصور الشمولي لواجبات الفرد المسلم في مجتمعه وتجاه دعوته، حتى إن بعض الشباب المسلم يفهم أن قضية التعلم تقابل قضية الدعوة ولا تنسجم معها، أي أن قضية الدعوة تقابل قضية التعلم والاستمرار بالجامعات والحصول على الدرجات العلمية، وقد يدع بعضهم الكليات العلمية تحت عنوان القيام بالدعوة الإسلامية، ويرفض الاستمرار في دراسة الطب أو الهندسة، وقد يكون ذلك في سنوات الدراسة الأخيرة، ويدع هذه المنابر الخطيرة ذات الأثر الكبير في المجتمع ويعزف عن القضية العلمية ظنًّا منه أنها ليست من الدين، علماً بأنه إذا لم يستطع المسلمون اعتلاء المنابر المتقدمة، وتطوير وسائلهم بمنطق العصر، تستمر الإصابة بالتخلف، ويعزلون أنفسهم عن المجتمع.

⊙ هذه نقطة من أهم النقاط التي أثيرت في حوارنا هذا، فما من شك في أن فهم المسلم لطبيعة مهمته في الحياة - عبادة الله وذلك بالقيام والاستخلاف في الأرض - مهم وأساس، لأن كلا الجانبين في مهمته مكمل للآخر. إن فهم رسالة الإنسان في هذا النطاق يحقق مطلوب الإسلام في

التعبد للّه سبحانه وتعالىٰ، والسعي وراء الرزق في نطاق الإيمان بالله، والسعي في كسب العلم في إطار من الإيمان كالعبادة، ولا بد أن يفهم المسلمون ذٰلك جيداً. إن الدراسات الإسلامية قضية تخصصية، ويوفَّق لها مَن أعطاه الله تعالىٰ الملكات لهٰذا التخصص، وليس كل إنسان لديه المواهب نفسها، بل من رحمة الله تعالىٰ أن تتوفر الإنسانية علىٰ فوارق فردية وملكات مختلفة.

❋ ❋ ❋

اختصار فجوة التخلف

◎ في الحقيقة، هناك حد أدنىٰ لما يجب أن يُعلم من الدين بالضرورة، وهو ما لا يستطيع مسلم أن يمارس إسلامه ولا عبادته إذا لم يتعلمه، لٰكني أتكلم فيما وراء هٰذا القدر، وكل إنسان محاسَب علىٰ حواسه وملكاته التي مَنَّ الله عليه بها، وهو مسؤول أن يستخدم هٰذه الملكات إلىٰ أقصىٰ قدر ممكن، ومن ذٰلك أن يكون نابغاً في النواحي التي مكَّنه الله منها، سواء أكانت هندسية أو طبية أو علمية. نقطة أخيرة أود طرحها في هٰذا الحوار؛ هي أن بعض الناس في عالمنا الإسلامي يعتقد بأنه من المستحيل علىٰ المسلمين اللحاق بالركب العلمي والتقني الذي وصلت إليه أوروبا وأمريكا، والأولىٰ بهم أن ينصرفوا إلىٰ آفاق أخرىٰ؛ لأن عملية الاختصار لفترة التخلف أصبحت بعيدة المنال، وهٰذا يعني أن المسلمين سيبقون ـ في القضية العلمية ـ يعيشون علىٰ العطاء الغربي، فما أدري: هل هٰذه المقولة في المجال العلمي مقولة صحيحة؟ وهل من المستحيل فعلاً علىٰ المسلمين الآن أن يختصروا فجوة التخلف؟

⊙ طبعاً.. ما من شك أن الفجوة التي بيننا وبين العالم غير الإسلامي والعالم الغربي بصفة عامة في قضايا العلم والتقنية فجوة هائلة جدًّا، وتزداد هٰذه الفجوة اتساعاً يوماً بعد يوم بمعدلات رهيبة، لأنهم يعملون بتخطيط

دقيق، ونحن نعمل بغير تخطيط ـ إن كنا نعمل ـ لٰكن تبقىٰ نقطة هامة للغاية أود أن أطمئن المسلمين عنها وهي:

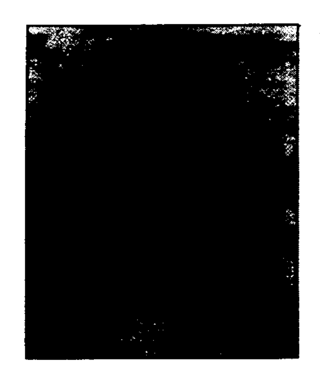
أن العلم والتقنية من القضايا المنطقية، بمعنىٰ أنها ليست طلاسم، وليست ألغازاً بحيث لا يستطيع العقل الإسلامي أن يستوعبها وأن يفهمها، بل بالعكس هي قضايا منطقية، يمكن للذي يبدأ الآن معالجتها بموضوعية أن يصل فيها إلىٰ أقصىٰ ما وصلت إليه المجتمعات الأخرىٰ؛ لأنه سيأخذ آخر ما وصلوا إليه وينطلق به، وعلىٰ هٰذا فإن محاولة رأب هٰذه الفجوة ليست مستحيلة علىٰ الإطلاق، بشرط أن نأخذ بالأسباب، ونبدأ في بناء معاهدنا العلمية ومراكزنا التقنية بشيء من الجدية. وأقول: ـ للأسف الشديد ـ إن المعاهد والمراكز في العالم الإسلامي اليوم تتصف بصفة المظهرية، حيث تهتم بالشكل ولا تهتم بالمضمون أو المحتوىٰ.

فإذا نحن أخذنا بالأسباب فمن المؤكد ـ خلال سنوات معدودة وفي فترة زمنية قصيرة ـ أن تُردم هٰذه الفجوة بإذن الله، علماً بأن مقومات ذٰلك متوافرة، حيث يوجد لنا في كل جامعات العالم الغربي والشرقي علىٰ حد سواء، كوادر إسلامية علىٰ أعلىٰ مستويات العلم والتقنية، وهي تقوم بأدوار رئيسة في البناء التقني الغربي، وتحظىٰ بالتقدير والاحترام، في مناخ يهيئ لها فرص النبوغ والإبداع.

ولٰكن إذا لم تُجبر هٰذه الفجوة، هل نرضىٰ بالتخلف الدائم للمسلمين؟! وهل سيظل القرار السياسي والقرار الاقتصادي والقرار الفكري ـ علىٰ مستوىٰ العالم ـ لغير المسلمين؟ هٰذا هو السؤال.

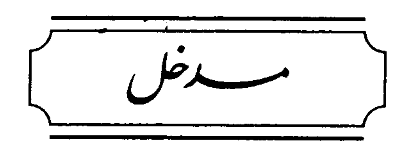
جمادى الأولى ١٤٠٤هـ ــ شباط (فبراير) ١٩٨٤م

□□□□□□



جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية
البناء العلمي والمواجهة الثقافية

في حوار مع : الدكتور عمار الطالبي



مدخل

■ ولد عام ١٩٣٤، بمنطقة الأوراس، في الجزائر.

■ تلقىٰ تعليمه العام بالجزائر.

■ انتقل إلىٰ تونس، حيث حصل من جامع الزيتونة علىٰ ما يسمىٰ بشهادة «التحصيل».

■ ابتعثته الحكومة الوطنية للثورة - بعد تأسيسها - إلىٰ مصر، حيث التحق بكلية الآداب في جامعة القاهرة. وحصل علىٰ ليسانس الفلسفة.

■ لازم ندوة الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله وهو ما يزال طالباً في جامعة القاهرة.

■ عاد إلىٰ الجزائر، بعد الاستقلال، وعمل في مدرسة تكوين المعلمين، ثم اختير معيداً بجامعة الجزائر.

■ حصل علىٰ شهادتَي الماجستير والدكتوراه من جامعة الإسكندرية.

■ تولّى رئاسة قسم الفلسفة بجامعة الجزائر.

■ عمل مديراً لمعهد العلوم الإسلامية التابع لجامعة الجزائر.

■ أول مدير لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة بالجزائر..

***

من مؤلفاته

- ابن باديس حياته وآثاره (جمع ودراسة) ٤ مجلدات.

- تحقيق كتاب العواصم من القواصم، آراء أبي بكر بن العربي ونقده للفلسفة اليونانية.

■ **يرىٰ**: أن الحياة الفكرية في المغرب الإسلامي تتسم بالتأثر بالأفكار التي تظهر في المشرق الإسلامي عبر التاريخ. ويرىٰ في هٰذا دليل وحدة الأمة الفكرية التي تأصلت جذورها وبقيت حية مدىٰ الدهر بالرغم من عوادي الزمن وفجائع التاريخ ومحاولات الفصل وافتعال الفروق.

■ **ويرىٰ**: أنه لا يمكن التعرف علىٰ شروط النهضة قبل معرفة الأصول النفسية والاجتماعية للأمة لأن التغيير ينطلق من الداخل النفسي والاجتماعي مصداقاً لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

■ **ويرىٰ**: أن ثورة الجزائر كانت جهاداً من أجل المبادئ والقيم الإسلامية وأنها لو قامت علىٰ غير ذٰلك لفشلت ويتمنىٰ أن يؤتي هٰذا النجاح ثماره في العودة إلىٰ الإسلام الحقيقي في أصوله.

■ **ويرىٰ**: ضرورة الاهتمام بالدراسات في المجال النفسي والمجال الاجتماعي بما هو واقع في مجتمعاتنا الإسلامية.

لأننا إلىٰ الآن نكتفي بدراسات الغربيين وبما كتبوه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وننقله بحروف عربية.

ويعتقد: أن استخلاص نتائج أبحاث الغربيين وتطبيقها علىٰ المجتمعات الإسلامية هو من أكبر الأخطاء التي نرتكبها ذٰلك أن النظريات الاجتماعية والنفسية الغربية نبتت في مجتمعات تختلف عن مجتمعاتنا.

■ **ويرىٰ**: أن مشكلة المسلمين ليست في وجود الإمكانات وإنما في توجيه هٰذه الإمكانات وحسن التصرف بها.

■ **كما يرىٰ**: أن مَن يدخل في الصراع الفكري ويوجهه له خطط وله أجهزة تحلل أية فكرة تظهر في أي مجتمع من أجل توجيهها أو تحريفها أو تزييفها لتصبح في خدمته لا في خدمة غيره.

ويقول: إننا إلىٰ يومنا هٰذا لم نفكر في وضع أجهزة دقيقة لتحصين أفكارنا ولتحصين ما يحصن الأفكار وهو الناحية الأخلاقية، فالأفكار إن لم تجد حصناً أخلاقياً تضيع وتصرف إلىٰ غير ما وضعت له.

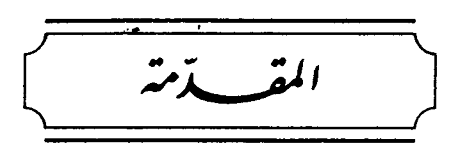
■ ويعتبر الدكتور عمار الطالبي: أن الأستاذ مالك بن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابيه «الصراع الفكري في البلاد المستعمرة»، و«أثر المستشرقين في الفكر الإسلامي الحديث» يوضح إلىٰ حدٍّ بعيد الكيفية التي يخطط بها الاستعمار ومَن يعمل لصالحه من أجل القضاء علىٰ ما يظهر في البلاد الإسلامية من أفكار من الممكن أن تحول المجتمع الإسلامي إلىٰ طريق الحضارة وتصرفه عن طريق التخلف.

■ **ويرىٰ**: أن من أهداف الصراع الفكري: الحيلولة بين الفكر والعمل السياسي حتىٰ يبقىٰ الفكر أشل غير مثمر ويبقىٰ العمل السياسي أعمىٰ غير مبصر يسير بغير هدًى.

لأن الذي يهم الاستعمار بالدرجة الأولىٰ هو فاعلية الفكر في المجال السياسي وبطبيعة الحال فإن للأفكار الإسلامية فاعلية كبيرة في هٰذا المجال.

■ **ويعتقد**: أن من أهداف الصراع الفكري: الحط من المستوىٰ الروحي في المجتمع الذي تدور فيه المعركة ثم تشتت القوىٰ الموحدة في تلك المعركة فهو يحول بين المجتمع والفكرة التي تؤثر فيه لتغيير الأحوال.

■ **ويرىٰ**: أن السبيل للخروج من الأزمة إنما يكون هو باستعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار للمحافظة علىٰ استقلالنا السياسي والاقتصادي. فالمجتمع الذي لا يصنع أفكاره الأساسية لا يمكنه أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه، ولا يمكن لمجتمع يبني نهضة أن يبنيها بالأفكار المستوردة أو المسلطة عليه من الخارج.



المقدمة

■ لم تكن المواجهة بين الجزائر وفرنسا منذ الاحتلال في عام ١٨٣٠م، صراعاً أو نزاعاً حول أرض يعتقد الفرنسيون أنها جزء من إمبراطوريتهم اقتطعها العرب إبان الفتوحات الإسلامية ـ فقط ـ وإنما كانت مواجهة شاملة، وعلىٰ أكثر من مستوًى: بين مستعمِر يسخر أدواته كلها لمحاربة الإسلام، والقضاء علىٰ لغة القرآن، وتشويه التاريخ، وإخضاعه كما أخضعت الأرض، وبين مستعمَرٍ يقف بصلابة يدافع عن هويته العربية الإسلامية، ويدافع عن الإسلام عقيدة، والعربية لغة، ويرفض الذوبان والتخلي عن تقاليده الوطنية.

ولم تكن المواجهة العسكرية التي سقط فيها أكثر من مليون شهيد العامل الوحيد الذي اعتمده الشعب الجزائري؛ ذٰلك أن طبيعة المواجهة كانت تقتضي أن يكون العامل الثقافي أكثر العوامل حسماً وتأثيراً، وأن يكون الإسلام الدافع والمحرك لتلك المواجهات العسكرية. وكانت كتاتيب القرآن ومعاهد التعليم الإسلامي، في المساجد والزوايا، تمثل المحاضن الخصبة لرعاية الوعي، وتنامي الصمود الثقافي، والثغور الصلدة التي تقف عليها وتنطلق منها كتائب الجهاد وقوافل الشهداء.

ولا شك أن المواجهة بين الجزائر التي كانت تقف علىٰ خط الدفاع الأول بالنسبة للعالم الإسلامي أمام الاستعمار الحديث، وبين فرنسا علىٰ الجبهة الثقافية كانت من أشرس المواجهات، حتىٰ ليمكن القول: إن الصراع في جملته صراع ديني ثقافي حضاري.

ورغم الحصار الذي فرضه المستعمر على معاهد التعليم الإسلامي وكتاتيب القرآن، إلا أنها لم تتوقف يوماً عن أداء رسالتها، ولم تنقطع أبداً عن مواصلة عطائها الحضاري، والأمل معقود الآن في الجزائر وخارجها أن تكون «جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية» بقسنطينة ـ والتي بدأت الدراسة بها في المحرم ١٤٠٥هـ ـ امتداداً تاريخيًا وعلميًا ونفسيًا لتلك الكتاتيب والمعاهد، وأن توفق لتقديم وتخريج قيادات علمية وفكرية قادرة على العطاء والإبداع، وحمل أمانة السلف، ومواصلة مسيرة الجهاد، والوفاء للمعاني والقيم التي قدمت من أجلها الجزائر الشقيقة المليون شهيد. لقد دفعت الجزائر الثمن غالياً للحفاظ على إسلامها وعربيتها، ولسوف يكون من المستحيل إخراجها عما آمنت به وقدمت له كل هذه التضحيات. ■

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

أول جامعة إسلامية في الجزائر

◎ وإدراكاً منا لأهمية هٰذه الجامعة التي تعتبر أول جامعة إسلامية في الجزائر، ولخطورة الرسالة المنوطة بها ـ ليس علىٰ مستوىٰ الجزائر فحسب، وإنما علىٰ مستوىٰ البلاد الأفريقية المجاورة ـ نلتقي بالدكتور عمار طالبي مدير الجامعة في هٰذا الحوار الذي بدأه قائلاً:

⊙ تتكون جامعة «الأمير عبد القادر الإسلامية» من أربع كليات رئيسة هي: كلية أصول الدين، وكلية الشريعة، وكلية اللغة العربية والحضارة الإسلامية، وكلية علوم القرآن وعلوم الحديث.

ولقد أفردنا لعلوم القرآن وعلوم الحديث كلية قائمة بذاتها، بالرغم من أن هٰذه الدراسات تقع في إطار كلية أصول الدين في جامعات أخرىٰ، وذٰلك إدراكاً منا لأهمية هٰذه العلوم، ولإهمال المسلمين لها أيضاً، ولعدم وجود متخصصين يمكن أن يغطوا حاجة العالم الإسلامي خاصة في مجال علم الحديث الذي لا نغفل أهميته في حياتنا الاجتماعية والثقافية اليومية.

ويبدأ الطالب دراسته بإحدىٰ هٰذه الكليات بعد أن يجتاز السنة الأولىٰ التي جعلناها سنة مشتركة لجميع الطلاب يتلقون فيها المواد الأساسية التي تؤهلهم لدراسة العلوم الإنسانية واستيعابها.

وقد يكون من المفيد هنا أن نشير إلىٰ «الشعبة الإسلامية» التي أُنشئت مؤخراً بالمدارس الثانوية إلىٰ جانب «الشعبة العلمية» و«الشعبة الأدبية»، وهي شعبة علمية أضيف إليها بعض المواد الإسلامية؛ بحيث يكون الطالب بعد إكماله المرحلة الثانوية وحصوله علىٰ الشهادة الثانوية «البكالوريا» مخيَّراً بين الالتحاق بالكليات العلمية بالجامعات الجزائرية، أو أن يواصل دراساته الإسلامية «بجامعة الأمير عبد القادر». وقد لوحظ أن «الشعبة الإسلامية» تجد قبولاً كبيراً لدىٰ الطلاب؛ وذٰلك بالرغم من أنها تتطلب جهداً إضافيًا ينصرف لدراسة المواد الإسلامية.

❋ ❋ ❋

السوية المطلوبة

◎ هل تعتقد أن الجامعة بذٰلك يمكن أن تضمن سوية معينة من الطلاب المتفوقين لا يبلغها الطلاب العاجزون؟

⊙ العاجزون لا يستطيعون السير مع هٰذه الجامعة؛ فطلابها يبذلون جهداً كبيراً ليكونوا من الناجحين؛ ذٰلك أن الرسوب في أي سنة دراسية يعني انقطاع الصلة بين الطالب والجامعة.

ولمزيد من ضمان الحصول علىٰ الطلبة المتفوقين، لا نكتفي بمجرد حصول الطالب علىٰ الشهادة الثانوية «البكالوريا» بل يضاف إلىٰ ذٰلك اختبار لدخول الجامعة نقيس من خلاله مدىٰ استعداد الطالب لمتابعة هٰذا النوع من الدراسة الإسلامية. وفي (١٩٨٤م) تقدم لنا خمسمائة طالب استوعبنا منهم ثلاثمائة فقط، بينهم خمس وستون طالبة خضعن للشروط نفسها التي خضع لها الطلاب، كما استوعبنا أيضاً مجموعة من الطلاب الأفارقة.

❋ ❋ ❋

الاهتمام بالطلاب الأفارقة

◎ لا شك أن تبنِّي الجامعة لدورها في القارة الأفريقية والاهتمام بالطلبة الأفارقة يعني أنها تنوي القيام بدور عظيم جدًّا، فقبول هٰؤلاء الطلاب وتأهيلهم علميًّا من الناحية الشرعية السليمة لينطلقوا من بعد إلىٰ بلادهم، يخدم قضية اللغة العربية وقضية العلوم الشرعية علىٰ شكل صحيح سليم في أفريقيا، في وقت هي أحوج ما تكون إلىٰ ذٰلك.

⊙ هٰذا ما نعمل له، وقد وجهني السيد وزير التعليم العالي بتشجيع من السيد رئيس الجمهورية إلىٰ أن نهتم بكل طلب التحاق يقدَّم لنا من الطلاب الأفارقة؛ ولذٰلك فكل الطلبة الذين بعثوا لنا بطلبات التحاق في العام

المنصرم استجبنا لهم وقبلناهم بالجامعة باستثناء بعض مَن وصلنا طلبه متأخراً. وتعطي الجامعة الطالب منحة تضمن له بها المسكن والمأكل.

❋ ❋ ❋

الفقيه العالم

◎ ما هي الملامح العامة للمنهاج الدراسي والمعالم الأساسية للبناء التعليمي والثقافي في مناهج الجامعة؟

⊙ لقد أعددنا منهجاً أردنا منه أن يكون الطالب عند تخرجه مسلماً عالماً، يفقه عصره، ويعرف الوقائع والظواهر والعلاقات بين الناس، حتىٰ يمكنه الاجتهاد فيما يعرض عليه عن معرفة وفهم وإدراك.

وبطبيعة الحال فإن أغلب مواد المنهج إسلامية، تتوزع بين التفسير، والحديث، والفقه، وأصول الفقه، والسيرة النبوية، والحضارة الإسلامية وغيرها. ولكن هناك مواد أخرىٰ رأينا أن إدخالها في المنهج يجعل الطالب علىٰ معرفة ببعض أساسيات الثقافة المعاصرة، ففي مجال العلوم الاجتماعية أدخلنا بعض المواد مثل: علم النفس والتربية والاقتصاد، وكذلك مدخل العلوم القانونية الوضعي، ليعرف الطالب الأسس التي بني عليها القانون الوضعي، وليدرك القيمة القانونية للفقه الإسلامي.

يضاف إلىٰ ذلك بعض المواد العلمية: مثل علم الأحياء، فمعرفة الخلية أمر مهم جدًا لمَن يتحدث عن مخلوقات الله في إطار تفسيره للقرآن. وهناك مادة الفيزياء التي أردنا منها أن يكون الطالب مطلعاً علىٰ القوانين والسنن الأساسية التي يتحرك بموجبها الكون، وإلىٰ جانب مادة الفيزياء يتضمن المنهج برامج عن علم الفلك من خلال القرآن الكريم الذي تحدث كثيراً عن السماوات والنجوم والكواكب والشمس والقمر وغير ذلك.

◎ وماذا عن اللغات؟

⊙ اللغة العربية هي لغة التدريس بالجامعة، يضاف إلىٰ ذلك أنها تدرس

يدرسون غيرها كالألمانية والإسبانية، ونحن نخيّر الطالب الذي يلتحق بالجامعة بين أن يتابع دراسة الألمانية أو الإسبانية في جامعة أخرىٰ فيها أقسام لهٰذه اللغة، هٰذا إن لم يكن يرغب في مواصلة دراسة الإنجليزية.

وحرصنا علىٰ دراسة الطالب للغات الأجنبية ينبع من حاجتنا لوجود مسلمين جادّين يجيدون تلك اللغات، خاصة وأن هناك دراسات إسلامية عديدة أعدها مستشرقون باللغات الإنجليزية والألمانية والإسبانية، وهي تشكل مصادر الدراسات عن الإسلام بالنسبة للغرب، ونحن نريد أن يكون العالم المسلم علىٰ اطلاع عليها وقدرة علىٰ نقدها.

ويحدونا أمل كبير أن نتمكن من تدريس بعض اللغات الأفريقية كالهَوْسَا والسواحلية، مساهمة منا في نشر الإسلام في أفريقيا بلغات أهلها.

❋ ❋ ❋

الثقافة الإسلامية

◎ فيما وراء العلوم الأصلية، هل تدرس الجامعة بعض المواد التي يمكن تصنيفها في إطار ما يعرف بالثقافة الإسلامية؟

⊙ يتضمن المنهج دراسة الفكر الإسلامي المعاصر بجميع جوانبه، الاجتماعية والأخلاقية والأصولية والسياسية، وبعض المحاولات الاقتصادية والتربوية والجوانب المهمة التي تناولها المصلحون المسلمون في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

هٰذا إلىٰ جانب دراسة المذاهب الفلسفية والعلمية والاجتماعية والسياسية المعاصرة؛ وهٰذه ندرسها دراسة نقدية ومن وجهة نظر إسلامية.



هيئة التدريس

◎ لا شك أن الجامعة إذا بدأت قوية وأحسنت اختيار هيئتها التدريسية ومجلسها العلمي فستستمر قوية وتتمكن من أداء رسالتها، ودور المدرس في ذٰلك أساسي؛ فهل استطاعت «جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية» أن تتعاقد مع مدرسين مؤهلين للقيام بأداء رسالتها؟

⊙ تلك أكبر مشكلة تواجهنا؛ ذٰلك أن الجامعة تقوم علىٰ أساس جوهري هو المعلم، فليست العبرة بوجود المباني والطلاب وإنما بمَن يقوم بعبء التوجيه والتصويب والتسديد.

ولقد بذلنا قصارىٰ جهدنا للحصول علىٰ أساتذة من ذوي الخبرة والكفاءة. ونحمد الله كثيراً علىٰ أن يكون الشيخ محمد الغزالي بما له من تجربة وخبرات سابقة هو الذي يرأس المجلس العلمي للجامعة، وفي مقدمة مَن يقومون بجهود كبيرة في توجيه الطلبة إلىٰ جوهر الإسلام.

وتعاقدنا كذٰلك مع أساتذة آخرين من بعض الجامعات العربية، ونأمل أن نوفق لاختيار الفئة المؤهلة لهٰذا النوع من الدراسات الإسلامية.

وقد استطعنا أن نوفر للأساتذة شروط خدمة لا نقول بأنها كافية، ولٰكن علىٰ الأقل مناسبة. وهي تعادل شروط الخدمة المعمول بها في جامعات الخليج العربي، وذٰلك ما تمتاز به جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية علىٰ الجامعات الجزائرية الأخرىٰ.

وفي اعتقادي أن الحل الجذري للحصول علىٰ أساتذة كما نتصور لا يكون إلا بتكوين أساتذة في الدراسات العليا بحيث نتولىٰ عبء توفير الأساتذة الأكفياء الذين يقومون بواجب الإشراف والتوجيه.

***

أساتذة المستقبل

◎ قد تقتضي الخطة في المستقبل استيعاب بعض الخريجين كمعيدين، وإيفادهم إلىٰ جامعات العالم الإسلامي أو إلىٰ جامعات في الجزائر إن أمكن ذٰلك، ليكونوا أساتذة في المستقبل، فكما يُفكَّر بالمباني وبالطلبة وامتدادهم، لا بد وأن يُفكَّر أيضاً بإيجاد مدرسين للجامعة من أبناء الوطن الجزائري نفسه، وهٰذا ما يحقق للجامعة الاستقرار العلمي والخطة الثابتة والأداء المستمر؟

⊙ هٰذه مسألة مهمة جدًّا؛ خاصة وأن الأساتذة في الجامعات العربية قوم رُحَّل، لا يقر لهم قرار، كل يوم في جامعة، وربما يُفرض علىٰ أحدهم تدريس مادة لا تدخل في نطاق تخصصه فيضطر إلىٰ البحث فيها كما يبحث الطالب، بينما الأستاذ في الجامعات الغربية يمتاز بالاستقرار، ومن ثم القدرة علىٰ البحث العلمي والمتابعة والعطاء.

ولكي نواجه ظاهرة الترحُّل المنتشرة بين الجامعات العربية، لا بد من تكوين أساتذة لهم صفة الاستقرار، ولدينا الآن بعض طلاب الدراسات العليا بالمعهد العالي للعلوم الإسلامية نفكر في ابتعاث المتفوقين منهم إلىٰ جامعات أخرىٰ لاستكمال بحوثهم للحصول علىٰ شهادة الدكتوراه.

وسنهتم بالأمر في السنوات القادمة إن شاء الله حين تبدأ الجامعة بتخريج طلابها.

* * *

الأساتذة الزائرون

◎ هل فكرتم باستدراك بعض النقص مستقبلاً بالتعاقد مع بعض الأساتذة الزائرين من بعض جامعات العالم الإسلامي؛ فإن لم يكن بالإمكان الاستفادة منهم بشكل كامل فلا تفوت الفائدة منهم في مواسم تعليمية

تدريسية، سواء أكان الاستقدام بتعويض مادي من الجزائر نفسها، أم كان علىٰ حساب الجامعات المساعدة للجامعة الناشئة؟

⊙ لا شك أن الأساتذة الزائرين يفيدون الطلّبة كثيراً ويضيفون إليهم الجديد، ولدينا قائمة بالأساتذة الذين يزوروننا هٰذا العام لتدارك بعض النقص، ونأمل أن نوفَّق لإعداد برنامج سنوي بالزيارات.

* * *

نواة المكتبة

◎ هل تحتوي الجامعة علىٰ مكتبة تضم المراجع والكتب التي يتطلبها المنهج؟

⊙ تعتبر المكتبة أداة العمل الأساسية في الجامعة، وتشكل إلىٰ جانب الأستاذ والطالب الدعامة الرئيسة التي يقوم عليها الكيان الجامعي، وقد وضعنا نواة لمكتبة تضم المراجع الأساسية في العلوم الإسلامية وبعض المخطوطات؛ خاصة ما يأتينا علىٰ سبيل الإهداء من بعض العلماء الشيوخ الذين يُوصون بذٰلك، وقد أهديت إلىٰ الجامعة مكتبتان تضمان مجموعة قيمة من المخطوطات والكتب.

وهٰذا لا يكفي، ونحن نتطلع لأن تكون لنا مكتبة شاملة تضم جميع المراجع والدراسات ذات الصلة بالإسلام وبمختلف اللغات، لنأخذ منها ما يمكن أخذه وننقد ما يتعارض مع الحقيقة.

* * *

مشكلات خارج الأسوار

◎ لا شك أن المستعمر الفرنسي ترك رواسب بعد هٰذه السنوات الطويلة

من الاستعمار ومحاولات تذويب المجتمع الجزائري؛ فهل تجد الجامعة صعوبات في المواجهة الثقافية خارج أسوارها؟

⊙ اهتمت الدولة ممثلة في رئيسها بهٰذه الجامعة. والشعب بطبيعته الإسلامية وانتمائه الإسلامي، وجهاده من أجل الإسلام، اعتبر الجامعة من مكاسبه، وأنها من الإنجازات الهامة في هٰذا العصر، ويعقد عليها آمالاً كباراً؛ ولٰكن ذٰلك لا ينفي وجود أناس لا يرضيهم تأسيسها ووجودها، ولو استطاعوا وضع صعوبات في طريقها لفعلوا، ولٰكن نحن لا نعتبر هٰذه الفئة تنتمي إلىٰ المجتمع الجزائري المسلم، ولا تمثل هٰذا المجتمع الذي يرتبط بكل ما يخدم الإسلام في هٰذه البلاد ويشجعه ويدعمه، بل إن ثورته كانت جهاداً من أجل المبادئ والقيم الإسلامية، وهو يدرك أنها لو قامت علىٰ غير ذٰلك لفشلت؛ ولٰكن بما أنها قامت علىٰ فكرة الجهاد، نجحت بحمد الله. ونرجو أن يؤتي هٰذا النجاح ثماره في العودة إلىٰ الإسلام الحقيقي في أصوله وتلك هي مهمة الجامعة.

❊ ❊ ❊

كلمة أخيرة

◎ وفي كلمة أخيرة يلخص الدكتور عمار طالبي مشكلات التعليم الجامعي علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي ويطرح من خلال ذٰلك ما يراه حلولاً مناسبة، فيقول:

⊙ تعاني الجامعات الإسلامية كلها نقصاً في الأساتذة والباحثين، وتلك مصيبة كبيرة أن تفقد الأمة الإسلامية بعض خصائصها الأولىٰ. وخسارة أكبر حين نفقد أشياء ضرورية تتعلق بحياتنا الخاصة كمسلمين وهي الدراسات الإسلامية؛ وبالطبع لا يمكننا أن نتوقع أن يأتي غيرنا ليعلمنا ما هو خاص بنا، ولذٰلك أرجو أن يهتم المسؤولون في الجامعات الإسلامية بالدراسات العليا، وتوفير المراجع والأساتذة المشرفين، وكل الإمكانات المادية

والمعنوية اللازمة لإعداد أساتذة علماء ذوي رسالة، يستشعرون واجبهم تجاه أمتهم، ويجتهدون في قضايا العصر عن معرفة، ولا يحصرون أنفسهم في قراءة الكتب، وإنما يتجاوزون ذٰلك إلىٰ قراءة المجتمع الإسلامي بمختلف مظاهره، فنحن إلىٰ الآن لم نهتم بالدراسات في المجال الاجتماعي والمجال النفسي بما هو واقع في مجتمعاتنا، وإنما اكتفينا بدراسات الغربيين وبما كتبوه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونقلناه بحروف عربية.

إن استخلاص نتائج أبحاث الغربيين وتطبيقها علىٰ المجتمعات الإسلامية لهو من أكبر الأخطاء التي نرتكبها. وإن النظريات الاجتماعية والنفسية الغربية نظريات نبتت في مجتمعات تختلف عن مجتمعاتنا.

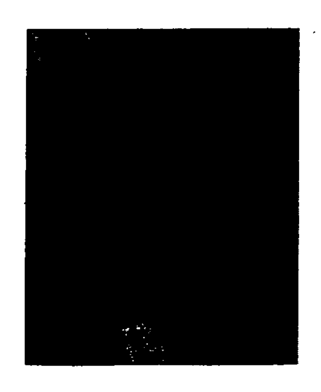
نحن مطالبون بأن نعرف حقيقة أنفسنا، وأن نرىٰ أنفسنا بمنظارنا لا بمناظير غيرنا؛ ولٰكن هٰذا لا يعني ألا نهتم بمعرفة غيرنا في هٰذا العصر الذي تقارب فيه الزمان والمكان. وتلك أساسيات لا بد من أخذها بعين الاعتبار ونحن نقوم بأي عمل علىٰ مستوًى عالمي؛ وإلا كان عملنا مخطئاً لا يؤدي إلىٰ نتيجة.

ولذٰلك فأنا أحرص علىٰ توجيه طلابي لأن يدرسوا في مجال الدراسات الاجتماعية والنفسية الوقائع التي نعيشها، والتي تقوم علىٰ خصائصنا النفسية والاجتماعية وضميرنا الذي تكوَّن عبر التاريخ.

ولست مع مَن يقول بأن مشكلتنا مشكلة إمكانات، الإمكانات لا تنقصنا، ولٰكن ينقصنا توجيه هٰذه الإمكانات وحسن التصرف فيها. وهو شرط لا بد من الأخذ به لكي نحقق ونوفر للجامعات الإسلامية وسائلها الأساسية وهي الأساتذة الباحثون الذين يمثلون جوهر التعليم الجامعي.

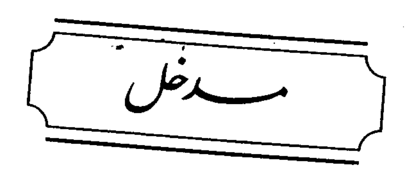
ذو القعدة ١٤٠٥هـ ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٥م

□ □ □ □ □ □



العمل الإسلامي والصحافة المؤشرة

في حوار مع: الدكتور محمد فتحي عثمان



مدخل

■ من مواليد مدينة المنيا في صعيد مصر عام ١٩٢٨م.

■ حصل على ليسانس الآداب من جامعة القاهرة وليسانس الحقوق من جامعة الإسكندرية.

■ وعلى شهادة الدكتوراه في دراسات الشرق الأدنى من جامعة برنستون/ نيوجرسي في الولايات المتحدة.

■ عمل مدرساً في التعليم الثانوي العام والأزهري بمصر، وكان مديراً للترجمة بالإدارة العامة للثقافة الإسلامية بالأزهر، ومديراً لمكتب وزير الأوقاف وشؤون الأزهر.

■ قام بالتدريس في كلية العلوم الاجتماعية، والمعهد العالي للدعوة الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، كما قام بالتدريس في جامعات: وهران (الجزائر) والرياض (الملك سعود حالياً) وتمبل (فيلادلفيا - بنسلفانيا) وبرنستون (نيوجرسي) في الولايات المتحدة الأمريكية.

■ رئيس تحرير مجلة (أرابيا Arabia) التي تصدر باللغة الإنجليزية في لندن.



٣/ ٥٧٥

من مؤلفاته

- المدخل إلىٰ التاريخ الإسلامي.
- الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري.
- التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التاريخ.
- الفكر الإسلامي والتطور.
- الدين في موقف الدفاع.
- آراء رائدة من تراث الفكر الإسلامي.
- الفكر الإسلامي القانوني بين أصول الشريعة وتراث الفقه.
- حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر الغربي الحديث.
- السلفية في المجتمعات الإسلامية المعاصرة.

■ يرىٰ من خلال واقع الدعوة اليوم التركيز علىٰ المحاور الآتية:

■ الدعوة الإسلامية في العالم المعاصر تعيش في **عالم تقاربت حدوده** وطويت مسافاته، ولا بدّ أن تتعامل الدعوة الإسلامية مع هٰذه العالمية القائمة، لا بد أن تتواصل الحركات الإسلامية وأهل الفكر من المسلمين والمعاهد ذات العلاقة بالدعوة الإسلامية علىٰ مستوًى عالمي لتبادل الخبرات، والتشاور في أقوم السبل لإبلاغ دعوة الإسلام، وما يحتاجه ذٰلك من جهود لإعداد الدعاة، وتهيئة وسائل النشر، وتنسيق النشاط الفردي والجماعي، المحلّي والعالمي، في مختلف المجالات ولشتىٰ الفئات، من أجل تحقيق هٰذا الهدف.

■ تطوير مقررات الدراسة في المعاهد المختصة بشؤون **الدعوة الإسلامية، والحركة الإسلامية** بحيث تدرس **الفكر الإسلامي والحركة الإسلامية في واقع العالم المعاصر**، ولا تعيش منعزلة عن هٰذا الواقع ومنحصرة في تراثنا الفكري والتاريخي، مع التسليم بأهمية معرفة هٰذا التراث دون التقوقع فيه والانعزال عن الواقع. ومن المهم جدًا في هٰذا الشأن إزالة

الحواجز بين جهود الأجهزة الحكومية العاملة في حقل الدعوة الإسلامية بين المسلمين أو غيرهم، وجهود المعاهد التي تدرس شؤون هٰذه الدعوة وتعدد العاملين فيها، وجهود الجماعات الإسلامية المتباينة التي تعمل في المجال نفسه والمفكرين المسلمين المعنيين بذٰلك أيًا كانت التحفظات في شأن فرد أو فريق من المسلمين.

كذٰلك لا بدّ أن تدرس المعاهد المختصة بشؤون الدعوة الإسلامية ما سبقت الإشارة إليه من دراسات **للقوىٰ العالمية والنزعات العقائدية والفكرية المعاصرة** كما تستفيد من الدراسات الملائمة في المجالات اللازمة مثل الجغرافيا الطبيعية والاقتصادية والثقافية وعلم النفس والاجتماع، فضلاً عن المجالات العلمية مثل الإعلام والخدمة الاجتماعية، إلىٰ جانب الاهتمام بدراسة اللغات التي يتكلمها المسلمون والتي يتكلمها غيرهم ممن نخاطبهم بدعوتنا.

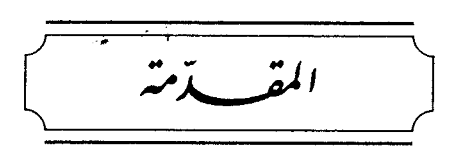
■ الاهتمام **بمجال الإعلام دراسة وعملاً**، ووصل قنوات التشاور والتعاون بين المعاهد العلمية والأجهزة العاملة سواء في حقل الإعلام بصفة عامة أو في مجال الإعلام الإسلامي بصفة خاصة، بحيث تتبادل الخبرة والمشورة، إذ أن «الإعلام» مجال عام له أصوله وتقنياته التي ينبغي أن يعلمها كل من يعمل فيه أيًا كانت الوجهة التي يريد أن يكرس جهوده فيها والقطاع الذي يخاطبه، كما أن الذين يدرسون الإعلام أو يعملون فيه بصفة عامة لا ينفصلون عن الدعوة الإسلامية فكراً وعملاً في مجالاتهم ما داموا مسلمين، إذ أن الإسلام رسالة شاملة للحياة جميعاً، ودعوة الإسلام لها مجالها ومنهجها وأسلوبها في مختلف الظروف والأحوال.

■ إصدار **مجلات ونشرات تتناول شؤون الدعوة الإسلامية علىٰ مستوًى عالمي**، وتقدم إحصاءات وتقارير عن واقع المسلمين القائم، والخبرات العملية المتعددة في مجال الدعوة، ويكون ذٰلك مقترناً مبدئيًا بإنشاء «أرشيف» يتحول إلىٰ «بنك معلومات» عن العالم الإسلامي المعاصر، يستفيد من تقنيات جمع المعلومات وتصنيفها وبرمجتها واختزانها وما إلىٰ ذٰلك.

■ وتحتاج هٰذه الجهود الرائدة الممكنة - وإن لم تكن يسيرة - إلىٰ رصيد ملائم من الكفايات البشرية الطيبة التي توجه إلىٰ دراسة الإعلام وتقنياته وجمع المعلومات واختزانها «الكمبيوتر» وما إلىٰ ذٰلك، وتشجع هٰذه الكفايات علىٰ الدراسة والتدرب والعمل بالحوافز المادية والمعنوية الممكنة، ويوجه الآباء إلىٰ أهمية ذٰلك بالنسبة لمستقبل الإسلام والمسلمين، حتىٰ لا ينحصروا في نطاق توجيه أبنائهم لدراسة الطب أو الهندسة دون غيرهما - مع التسليم بالحاجة إليهما - ويجلّىٰ للأنظار ما توفره الأعمال المطلوبة لأصحابها من معاش طيب، وتحقيق لخير الدنيا والآخرة، ومصالح الأفراد والجماعة.

ويأتي في مقدمة ذٰلك كله الاعتصام بالله سبحانه، ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].





المقدمة

■ وجود ساحة للحوار بين العاملين للإسلام أصبح اليوم ضروريًا لاستمرار المسيرة وتصويبها، ويأتي في مقدمة الأولويات التي يحتاجها المسلمون في مواجهة التحديات العالمية، التي تعمل دائماً في صورة واحدة، مما يحتم على العاملين للإسلام الحضور العالمي، وتقديم وجهة نظر الإسلام، والمساهمة في حل المشكلات العالمية.

في هذا الإطار يبرز دور الصحافة الإسلامية التي يمكن أن تقدم الساحة المطلوبة لهذا الحوار والتشاور، وتساعد على تبادل الخبرات وتقويم النتائج؛ فلا بد للمسلمين اليوم عن العناية بوسائل الإعلام، وتكوين الإطارات المتخصصة والمؤثرة من الصحفيين الإسلاميين؛ ليسدوا الحاجات الأساسية للوسيلة الإعلامية، ويبقى إنشاء وكالة أنباء إسلامية هو الأمل المعقود لكسر احتكار الوكالات الغربية لمصادر الأخبار.

إن ازدهار الصحافة الإسلامية في بلاد المسلمين هو الثمرة الطبيعية لحرية الفكر وحرية الكلمة، كما أنها المجال الطبيعي لطرح ومناقشة المصطلحات المستجدة، واختبار جدواها، ولقد كان الأستاذ الدكتور محمد فتحي عثمان من أوائل مَن طرح مصطلح «اليسار الإسلامي» ظنًا منه بأن ذلك يساعد في عملية التغيير الجذرية المطلوبة لواقع المسلمين.

حول هذه القضايا وغيرها من قضايا العمل الإسلامي والصحافة الإسلامية كان لنا معه هذا الحوار. ■



البدايات

◎ **تحمل التجربة الفردية في إطار الدعوة الإسلامية ـ دائماً ـ آفاقاً عامة يمكن أن يستفاد منها في مجال العمل الإسلامي الجماعي. ولا شك أنه أتيح لكم أن تشاركوا في بدايات العمل الإسلامي في العصر الحاضر، وعاصرتم فترة تاريخية هامة؛ نود أن نتعرف علىٰ ملامح التجربة، وما انتهت إليه من نتائج من وجهة نظركم.**

⊙ تمتد صلتي بالعمل الإسلامي منذ التعليم الثانوي، وتوثقت هٰذه الصلة في الفترات الحاسمة ما بين (٤٤ ـ ١٩٤٨م)، وهي فترة شهدت أحداثاً كثيرة بالنسبة لمصر، بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة، حيث بدأت الدعوة للمطالبة باستقلال مصر، وبالجلاء، كما شهدت تطوراً في العلاقة بالسودان وقضية فلسطين. وفي الفترة نفسها، أخذت بلدان المغرب الإسلامي تتجه أيضاً إلىٰ المطالبة بالاستقلال، وكذٰلك باكستان التي تطلعت إلىٰ أن تكون مستقلة بعد انتهاء الحكم البريطاني في شبه القارة الهندية، وإندونيسيا أيضاً تطلعت إلىٰ الاستقلال، وكانت القاهرة في ذٰلك الوقت مجمعاً لقيادات هٰذه البلاد، من مختلف الاتجاهات، ومنهم القادة الإسلاميون. فهٰذه الحركات الإسلامية كلها في تلك الفترة ذات الحيوية والأهمية ـ والتي انتهت للأسف عند أول نكسة وإجهاض للقضية الفلسطينية ـ كانت القاهرة فيها ذات موقع هام، وبعد ذٰلك حدثت فترة جمود أو ركود أو تراجع بالنسبة للقضية الفلسطينية، وأثر ذٰلك علىٰ الروح المعنوية للعرب والمسلمين، وفي الخمسينيات بدأت عوامل يقظة وتحرك انتهت بحركة الجيش في مصر (١٩٥٢م).

. وكان نشاطي في هٰذه الظروف يتركز في الجانب الفكري ـ إضافة إلىٰ الجانب العملي ـ وكتبت في الصحف الإسلامية المختلفة المتاحة في ذٰلك الوقت، وركزت بعد ذٰلك علىٰ الكتابة بشكل عام، وتفرغت للتأليف، ثم التدريس في الجامعات؛ إلىٰ أن أتيحت لي فرصة العمل في مجلة (أرابيا).

***

ساحة فكرية للحوار

وقد انتهيت من خلال هٰذه التجربة إلىٰ حاجة المسلمين إلىٰ ساحة فكرية يلتقون عندها، ويتحاورون، فإن الاتجاهات المختلفة الموجودة الآن في العمل الإسلامي، تحتاج أن تتحاور وتتشاور في مناخ حرّ مفتوح، بعيداً عن الأسلوب الرسمي أو الاجتماع الشكلي، وقد أكدت التجارب الحاجة إلىٰ هٰذه الساحة العالمية، وهٰذا اللقاء الأخوي، علىٰ مستوىٰ العالم لتبادل الخبرات والتجارب والمشورة والآراء، ومحاولة الإسهام أيضاً في بلورة بعض المفاهيم التي يحتاجها الفكر الإسلامي المعاصر.

❋ ❋ ❋

فكر الأزمة

◎ فيما يتصل بالقضية الفكرية فإنه في مرحلة من المراحل، يمكن للعمل الإسلامي أن يمر بأزمة ينتج عنها نوع من الفكر يمكن أن نسميه «فكر الأزمة»، يكون بمثابة المصل الواقي في مرحلة انتشار المرض، ويعطي نوعاً من الحصانة والقدرة علىٰ المواجهة، لٰكن المشكلة قد تكون في أن هٰذا الفكر قد يمتد إلىٰ ما بعد الأزمة، فيكون قليل الجدوىٰ، وعبئاً علىٰ العمل الإسلامي، ولا يتناسب مع المرحلة؛ ما رأيكم في هٰذه القضية؟ وكيف يمكن أن نحدد لكل مرحلة فكرها المطلوب؟

⊙ هناك مرحلة طويلة مرَّت بالمسلمين، كانوا يتعرضون فيها لهجمات فكرية ضارية، تشكك في عقيدتهم، وفي شريعتهم، وفي تلك الفترة كان يكفي العمل الإسلامي أن يعمل علىٰ حفظ الثقة بالنفس، أو استعادة هٰذه الثقة إن كانت قد بدأت تتبدد، ولا بأس أن تُطْلَقَ بعض العموميات أو الشعارات أو الكلمات التي تخاطب العاطفة، لوقاية الشخصية الإسلامية الفردية والجماعية، الفكرية والعملية الحياتية، والحفاظ عليها بأيسر طريق؛ لأن هٰذه الفترة ـ نتيجة للهجمات الفكرية الاستعمارية المتعددة الجوانب ـ لم يكن من المتاح فيها ولا من المطلوب بذل جهود هي فوق طاقة الإمكانات المتاحة

للحفاظ علىٰ الهوية الإسلامية. وأعتقد أن المسلمين قد تجاوزوا الآن هٰذا الدور؛ لأن الغرب قد ابتُلي بأزمات كثيرة بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة، ويعاني الآن ألواناً كثيرة من القلق، والاضطراب، والأزمات، فلم يعد قادراً علىٰ أن يقدم الشخصية الحضارية و«الأيديولوجية» التي تغني الآخرين، بل لديه من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، فضلاً عن المشكلات السياسية، ما يقلقه دائماً، ويجعل أفراده وجماعاته في حالة توتر دائم، وقلق مستمر، وخوف من أخطار الحرب والبطالة والتلوث، وتحلل الأسرة والمجتمع، والقلق النفسي للرجل والمرأة، والفتىٰ والفتاة، والطفل والبالغ، والشابّ والشيخ، في النواحي كلها هناك قصور وأزمات ومشكلات. ولقد أسهم ذٰلك في تغيير الصورة المثالية المستقرة الهانئة الرضيّة للمجتمع الغربي نفسيًا وفكريًا واجتماعيًا، وكان العمل الإسلامي أيضاً يتطور، وقد بلغنا الآن مرحلة لا يكفي فيها أن نطلق العموميات، ولا أن نهتف بشعارات، بل لا بد أن نكون أكثر تفصيلاً، وأكثر تخصيصاً، وأكثر إرضاءً لمطالب العصر، وللحاجات الملحة التي تضغط علىٰ الواقع.

❋ ❋ ❋

الفكر الوقائي

ولذٰلك، فإننا لا يمكن أن نكتفي بالفكر الوقائي الذي كان يُقصد به الحفاظ علىٰ الشخصية الإسلامية فحسب، بل لا بد من اجتهادات مباشرة في مجال الاقتصاد، وفي مجال الاجتماع، وفي مجال العمل السياسي، في الداخل، وفي الخارج، لا بد من الإسهام في حل المشكلات والقضايا، وتقديم رؤية إسلامية لنظام الحكم، لنظام التعليم، لصورة التعاون الدَّوْلي التي يجب أن تكون بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فلا بد أن تتحقق صورة من هٰذا التعاون في مختلف المجالات التعليمية والاقتصادية والثقافية، فضلاً عن المجالات السياسية، وعلىٰ العمل الإسلامي أن يكون عالميًا، ليواجه ذٰلك النشاط «الأيديولوجي» العالمي الممثل في المبادئ التي صارت تعمل في العالم في صورة واحدة، سواء الشيوعية أو الفكر

«الليبرالي» أو حتىٰ الصهيونية كفكرة سياسية محدودة ترتبط بإسرائيل، وتحاول أن تجند الطاقات كلها ـ يهودية وغير يهودية ـ علىٰ المستوىٰ العالمي. وعلىٰ العمل الإسلامي أن يكون عالميًا؛ لا سيما أنه ما من بلد إسلامي إلا وفيه حركة من حركات الإسلام، وعمل من أعماله، إمَّا لتطبيق الشريعة، أو لتحرير الأرض، أو لتنوير الفكر، أو لتقدم المجتمع، وهٰذه الحركات إذا ما اجتمعت وتناقشت، وتحاورت، استفادت من خبرات بعضها بعضاً، واستفادت أيضاً إعلاميًا وعمليًا، فتعرف أمة الإسلام، ويعرف العالم كله أن إسلام المسلمين لا يعني كلمات، ولا يعني شعائر وعبادة فقط، ولا يعني عاطفة غامضة، وإنما يعني برامج عملية حياتية.

* * *

التحديات المتنوعة

◎ ما هي الأسباب التي ترونها تحول دون تخلص العمل الإسلامي حتىٰ الآن ـ في بعض جوانبه ـ من سيطرة الفكر الدفاعي أو الوقائي؟

⊙ إن المسلمين لا يكادون يتنفسون الصعداء، ويحسون بالراحة من مشكلة من المشكلات حتىٰ يواجهوا مشكلة أخرىٰ، ولمَّا يستطيعوا أن يحسموا قضية فلسطين، وانتهىٰ القرن الرابع عشر وقد حمَّل مسؤولية هٰذه القضية علىٰ أكتاف المسلمين في القرن الخامس عشر، وإذا بأواخر القرن الرابع عشر تشهد ـ إضافة لذٰلك ـ قضية أخرىٰ هي قضية أفغانستان، إذا أضيف إلىٰ هٰذه القضايا المتعددة في الأماكن المختلفة، وإلىٰ هٰذه التحديات المتنوعة التي يواجهها العالم الإسلامي في كل دولة التحدياتُ الفكرية والتحديات المتنوعة، فإننا نجد أن المسلمين لم يعيشوا في عافية ليفكروا بحرية، وليواجهوا مسؤولياتهم بتطور، وإزاء هٰذه المطارق المتتالية، من السهل علىٰ الإنسان أن يستمر فيما أَلِفَ، وفيما تعوَّد، وأن يردد الكلمات العامة فإنها تقذف الأمل ولا تكلف جهداً كبيراً، وتحفظ حماس وتفاؤل ملقيها ومستمعها.

* * *

الحوار طريق النضج

غير أنني أحسب أن جزءاً له وزنه من جماهير القراء والسامعين، وجماهير المسلمين العامة أصبحت لا تحسن الظن بهٰذه الكلمات الرنَّانة، ولا تقبل العذر الذي يقدم، وتطلب من المسلمين ـ فكراً وحركة ـ بذل الجهد والدأب في العمل، لتقديم فكر متطور يعالج المشاكل المتجددة، ويستجيب للحاجات المعاصرة، وأحسب أنه لو أتيح للمسلمين بعض العافية، وأتيح لهم أن يتشاوروا ويتحاوروا، وأن يعتادوا العمل الجماعي، وألّا تكون لقاءاتهم اللقاءات العاطفية التي يحسون فيها بفرح من الأعماق لرؤية بعضهم بعضاً، وإنما يحسون بالفرح الحقيقي عند تبادل الرأي، وعند الحوار في قضية، مهما كانت الآراء متباينة، ومهما كانت وجهات النظر مختلفة، لكان هٰذا بداية الطريق.

ينبغي ألّا نضيق بالحوار، لأنه من الطبيعي ونحن نمارس الاجتهاد من جديد بعد فجوة طويلة وأمد طويل أن نجد أن كل إنسان متأثر بظروفه الشخصية والجماعية، وبظروف زمانه ومكانه وثقافته وتفكيره، فلا بد أن توجد اختلافات، وتوجد تضاريس، فلا ينبغي أن نقابل هٰذه الخلافات بأن ينطوي كلٌ علىٰ ذاته، وأن يتجنب الحوار، حتىٰ إننا إذا اجتمعنا لا نتبادل غير السلام، ولا نتبادل غير التحية. يجب علينا إذا التقينا أن نتحاور، وأن نتشاور، وأن نتناقش، وألّا نشفق من أن يكون أخي الذي قابلته ولم أره منذ سنوات علىٰ طرف نقيض تماماً معي في قضية من القضايا؛ بهٰذا نسير نحو النضج، ونكون أناساً مسؤولين يقدرون مسؤولية الكلمة، ومسؤولية الفكر، ومسؤولية العمل الإسلامي.



المسؤولية عامة

◎ يمكننا ـ بالتحديد ـ أن نتناول أسباب الإصابات التي يعاني منها العمل الإسلامي في هٰذه المرحلة؟

⊙ أهم هٰذه الأسباب: فقدان العافية، وهي كلمة عامة تعني أن صحتنا النفسية ليست علىٰ ما يرام، وصحتنا الاجتماعية والسياسية كذٰلك.

وأعتقد أن العمل الإسلامي أصيب نتيجة ظروف متعددة من مختلف المواقع؛ بما فيها موقع العاملين في العمل الإسلامي نفسه، فهٰذه الثغرات المتعددة، وهٰذه الإصابات التي أتت من مواقع أصابت أصحابها، ليست كلها من الآخرين، فهم قد يكونون مسؤولين جزئيًّا، بصرف النظر عن حجم المسؤولية، وعن ترتيب المسؤولية. لٰكننا كلنا نتقاسم المسؤولية، ونحتاج إلىٰ العافية، وأن نستدبر هٰذه الفترة بقروحها وأزماتها وتوترها، وإن كان بعض منها لا يزال قائماً، جاثماً علىٰ صدورنا وعلىٰ قلوبنا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ...﴾ [آل عمران: ١٤٠].

لعلنا نحاول أن نتخلص من رواسب الأسىٰ والهم والحزن التي أصابنا بها الإحباط في السنوات الأخيرة، وأن نتطلع إلىٰ مستقبل أفضل نعد له وسائل أفضل، ونتجنب لها الثغرات السابقة، والقصور السابق.

❋ ❋ ❋

ملامح من واقع العمل الإسلامي

◎ إذا أردنا للفكرة تطوراً آخر: فما هي ملاحظاتكم علىٰ واقع العمل الإسلامي، ومدارسه، والملامح العامة لهٰذه المدارس؟

⊙ نتيجة للخبرات والتجارب والظروف الموضوعية التي مرّ بها العمل الإسلامي في أنحاء العالم فإنه قد تَلَوَّن باتجاهات جاءت تلبية للحاجات المختلفة، فمن العمل الإسلامي ما اتجه أساساً إلىٰ الكتابة، وإلىٰ إنشاء الصحف، وإلىٰ كتابة المقالات والرسائل ونشرها، ولعل هٰذا هو طابع العمل الإسلامي في شبه القارة الهندية، ولا أقول: إنهم لا يشتغلون بالتكوين أو بالتوجيه أو بالتربية، ولٰكن اتسمت الحركة الإسلامية هناك بالعناية بالنشر ومخاطبة الناس عن طريق الكلمة المكتوبة، بينما اهتمت الحركة الإسلامية في البلاد العربية بصفة خاصة بالتجميع، وبالتكوين، والتربية، وإعداد الأفراد، وليس فقط عن طريق الكلمة، ولا عن طريق الكتابة، ولٰكن عن طريق الاتصال الشخصي المباشر، والتكوين التربوي.

ومن الحركات الإسلامية في العالم العربي ما عُنِي أكثر بالثقافة السياسية والفكر السياسي علىٰ أسس إسلامية، وزعم أن الاتجاه التربوي فيه إضاعة للوقت، وأن الأصل أن تكون تربية المسلمين في الأسر والبيوت أو المساجد والمدارس، أما ساحات التثقيف وساحات التوجيه فينبغي أن توجههم في مجال الفكر السياسي.

❋ ❋ ❋

الدور المطلوب

ويمكن الاستفادة من هٰذه الخبرات كلها معاً، لأن المسلمين الآن في حاجة إلىٰ العناية بوسائل الإعلام المعاصرة، وبالصحافة والنشر، ولا يمكن الاتصال بالقطاعات الواسعة العريضة عن طريق الاتصال الشخصي المباشر، وإن كان في الوقت نفسه لا يمكن الاكتفاء بالاتصالات الواسعة أو الاستغناء بها عن تكوين الكوادر، والاتصال المباشر بالشخصيات التي تتحمل مسؤولية في توجيه العمل الإسلامي فكريًا وعمليًا.

كذٰلك؛ فإن معرفة الساحة السياسية و«الأيديولوجية» المطروحة، والقوىٰ السياسية ذات الخطط العالمية ـ لا سيما الدول الكبرىٰ ـ هٰذا كله أصبح الآن ضروريًا ولم يبقَ شيئاً جانبيًا في العمل الإسلامي، وأصبح لا بد من تضافر هٰذه العناصر جميعاً في توجيه المسلمين وتثقيفهم، وفي تعبئة جهودهم، وفي حشد قواهم.

❋ ❋ ❋

أولويات العمل الإسلامي

◎ للعمل الإسلامي آفاق متعددة، وأولويات يحكمها الوسع، يجب أن يوجه إليها الاهتمام، ما هي تصوراتكم حول موقع العمل الإسلامي الناجح اليوم؟

⊙ إذا كانت العالمية شيئاً أساسيًا للعمل الإسلامي في هٰذه المرحلة، فمن أكثر

الأدوات فعالية في تحقيق هٰذه العالمية الصحافة ووسائل الإعلام؛ فهي التي تستطيع أن تيسر الاتصالات بين الأجنحة والمجالات المختلفة من العمل الإسلامي، ليس فقط ليتبادلوا المعلومات عن أنشطتهم، ولكن ليتبادلوا الخبرات والدراسات عن النتائج التي وصلوا إليها في هٰذا العمل، والفعاليات التي يمكن أن تتحقق عن الأساليب المختلفة، والتقويم العملي لما حققته هٰذه الأساليب من نتائج، بحيث نرىٰ نتائج هٰذا كله منعكسة في دراسات وفي بحوث، وفي صحف ومجلات، وفي رسائل وكتابات، وفي كل وسيلة إعلامية، لأن الوسيلة الإعلامية بطبيعتها تستطيع أن تجتاز الحدود، وأن تتحرك في العالم الواحد، وأن تؤكد الصلة الحقيقية بين أجنحة العمل الإسلامي.

لذٰلك أرىٰ من الأولويات الآن العناية بالصحافة الإسلامية، والنشر الإسلامي، والإعلام الإسلامي، لأنه السبيل الميسّر لتحقيق التشاور والحوار بين العاملين للإسلام، ولا أرىٰ أن نكتفي فقط بمجرد تتبع المعلومات لنرضي في أنفسنا حب الاستطلاع لما يحدث هنا أو هناك، ولٰكن يكون حواراً حقيقيًّا وتشاوراً مثمراً؛ بأن نتبادل الخبرات، ونحاول أن نُقوِّم النتائج التي وصلت إليها الخبرات المختلفة؛ هل الأسلوب الذي اتبع في هٰذا المكان حقَّق نجاحاً ما؟ وهل هٰذا النجاح نتيجة لظروف خاصة أم لظروف عامة؟ وهل يمكن أن يحقق نجاحاً مماثلاً في مكان آخر؟

إنَّ مما نفتقده دائماً التقويم، وننتظر أحياناً حدوث أزمة عنيفة توقفنا عن العمل لنضطر للتفكير والتقويم! لا بد أن يكون التفكير والتقويم جزءاً من حياتنا العادية، ومن خططنا الطبيعية، ولا ننتظر أزمة توقفنا كي نفكر، بل إن كل ما نفعله ونطبقه نحاول أن نقوِّمه، ونستفيد من نتائج التقويم، بالنسبة لنا وبالنسبة لغيرنا علىٰ حد سواء.

***

معاناة الصحافة الإسلامية

◎ فيما يتصل بقضية الإعلام والصحافة فإنه من الملاحظ أن المؤسسات

الصحفية الإسلامية في هٰذه المرحلة تكاد تكون قليلة الخبرة، وتكاد لا تمتلك الحرفة، وهي أوراق فكرية أكثر منها مؤسسات حرفية؛ كيف يمكن أن تجمع الصحافة الإسلامية بين الخبرة الصحفية والأداء الفكري؟

⊙ لا بد أن نُكوِّن لنا جيلاً من الصحفيين الإسلاميين الذين يكونون إسلاميين حقًّا، وصحفيين حقًّا، ولا يمكن ـ لمجرد أن يكونوا إسلاميين ـ أن يتحولوا بالضرورة إلىٰ صحفيين، لأن الصحافة الآن صارت مهنة لها مطالبها «التكنولوجية» ولها خبراتها التي لا يمكن تحصيلها إلا بالتخصص شأن أي مهنة أخرىٰ، لا بد أن نسعىٰ لأن نكوِّن جيلاً من الإسلاميين الصحفيين، وإلىٰ أن يتم ذٰلك لا مناص من أن يكون عندنا نوع من عمل الفريق وتعاون الفريق الذي يجتمع فيه الإسلاميون ـ الذين قد يكونون علىٰ ذوق أو تهيؤ صحفي إن لم يكونوا علىٰ خبرة أو علىٰ علم تفصيلي ـ مع الخبراء بالصحافة الذين تكون لهم ميول إسلامية، ولا بد من وجود الميل عند هٰؤلاء، ووجود الذوق أو التهيؤ عند أولٰئك، حتىٰ نستطيع أن نوجد أرضية مشتركة علىٰ الأقل من الذوق والميول إن لم تكن الخبرات موحدة، وفي هٰذا الجو يمكن أن نعمل؛ إلىٰ أن يتحقق لنا الإسلاميون الصحفيون، ويأتي شبابهم ليعملوا في هٰذه المؤسسات الصحفية، ويستفيدوا من تعاون الفريق ذي الاستعدادات التي تقرب بعضهم من بعض، وإن لم تكن توحدهم تماماً، فلا بد أن ننظر إلىٰ أننا سنتوصل إلىٰ ذٰلك علىٰ مراحل؛ ولٰكن لنحذر من التناقضات، فإن بعضهم قد يظن أنه يمكن أن يأتي بصحفي له الخبرات المهنية، أيًا كانت ميوله، مثل هٰذا قد يدمر الاتجاه الفكري للصحافة الإسلامية تماماً، كما أنه قد يظنّ أنه يمكن أن يأتي بإسلامي ولو لم يفهم مطالب الصحافة إطلاقاً، لمجرد أنه يفهم أبعاد الإسلام عقيدة وشريعة فهماً جيداً، فهٰذا قد يؤدي أيضاً إلىٰ تدمير القالب الصحفي والعرض الصحفي تماماً.

من المناسب أن نجد درجة من التقارب بحيث يكون الإسلامي الذي يعمل في الصحافة علىٰ تهيؤ لفهم أبعاد العمل الصحفي، إن لم يكن قد درسه، وإن لم يكن قد عرفه، ويكون الصحفي الخبير علىٰ ميل للإسلام، وتعرُّف علىٰ

خطوطه العريضة العامة حتىٰ يمكن أن تكون هناك أرضية مشتركة، وفي ظل الأرضية المشتركة أؤمن كثيراً بوجود جيل من الشباب يتدرب علىٰ أيدي هٰؤلاء وهٰؤلاء، ويتحقق فيه اجتماع الخبرة مع العمق «الأيديولوجي»، وبذٰلك نصل إلىٰ مرحلة لا نحتاج فيها إلىٰ هٰذه الثنائية، وحتىٰ إذا احتجنا لسد بعض الثغرات، فإنه يكون لدينا الركيزة الأساسية والعمود الفقري من الإسلاميين الصحفيين الذين يسدُّون الحاجات الأساسية للوسيلة الإعلامية.

❋ ❋ ❋

وكالة أنباء إسلامية

◎ يعتبر احتكار وكالات أنباء الغرب والشرق لمصادر الأخبار مشكلة أساسية تواجه حرية الصحافة في العالم كله، ويأتي ذٰلك في مرحلة يحاول المسلمون فيها بناء أنفسهم من جديد، ما هو تصوركم لحل هٰذه المشكلة حلًّا جذريًّا علىٰ المدىٰ البعيد؟ وماذا ترون علىٰ المدىٰ القريب لإمكانية قراءة الأخبار وتحليلها من وجهة نظر إسلامية؟

⊙ الحل الطويل المدىٰ هو الحل المؤسس، أن يوجد لدينا مؤسسات ووكالات أنباء إسلامية، ليس بالضرورة أن تكون وكالة واحدة، يمكن أن تكون وكالات متعددة، ولٰكن المنظور يكون إسلاميًا، بمعنى ألّا تكون إسلامية جغرافيًا، بل تكون إسلامية من ناحية منظورها، وتقويمها، وخدمتها الصحفية، وقد سمعنا أن المؤتمر الإسلامي قرر أن توجد وكالة صحافة إسلامية، ووكالة أنباء إسلامية، وأن هٰذه الوكالة في خطط نرجو لها الرشد والتوفيق، ولٰكن إلىٰ الآن لم تثبت مواقع خطواتها، ولا استوت علىٰ ساقها بعد.

إلىٰ أن يتم هٰذا نحن مضطرون إلىٰ حلّين مؤقتين:

o محاولة الاعتماد علىٰ المصادر المتاحة مع تنويعها بقدر الإمكان، والتعرف علىٰ وجهات النظر المتباينة، للوصول إلىٰ شيء من الحقيقة؛ من خلال السطور، ومن خلال الألوان المتباينة للعرض للمصادر المتعددة.

○ أن يكون لنا مراسلون، وهنا تجد مشكلة أخرىٰ هي ذٰلك المراسل الذي يجمع بين الموازين والمعايير الفكرية الإسلامية والإعداد «الأيديولوجي» والثقافي، وفي الوقت نفسه الخبرة الصحفية، ولا سيما علىٰ المستوىٰ العالمي لا المستوىٰ المحلي، وهٰذا المراسل إذا كان مستغرقاً في الأنباء المحلية، أثّر هٰذا علىٰ تصوره العالمي للأحداث.

نحن محتاجون إلىٰ مراسل، لا بأس أن يخدم الصحافة المحلية كما يشاء، لٰكنه حين ينتقي من الأنباء ما يزود به إخوانه المسلمين، أو صحيفة من الصحائف، أو وسيلة من وسائل الإعلام الإسلامي علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي الواسع يكون له القدرة علىٰ الانتقاء لما يفيد المسلمين جميعاً، وليس مجرد عرض، أو دعاية إقليمية لبلد علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي.

نحن نحتاج إلىٰ مجموعة من المراسلين، لديهم العمق الفكري، ولديهم الخبرة المهنية، ولديهم القدرة علىٰ الاختيار، لتقديم ما ينتقونه داخل بلدهم، يكون صالحاً للعرض في العالم الإسلامي الواسع، هٰؤلاء المراسلون يسدون الثغرات، إلىٰ أن تقوم وكالة أنباء إسلامية أو عدة وكالات تكون لديها المعايير الإسلامية للتقويم، وتكون لديها الوسائل والقنوات المتعددة لاستمداد الأخبار، وهٰذا بطبيعته في تقديري - حتىٰ بعد قرار منظمة المؤتمر الإسلامي - سيحتاج إلىٰ وقت، لأن أي عمل عالمي يعكس سلبيات المسلمين علىٰ نطاق العالم الإسلامي، ويحتاج إلىٰ فترة يسير فيها في مدارج النضج والتطور، حتىٰ تسد الثغرات.

فينبغي ألّا نتعجل النتائج، وأن نسير علىٰ الأقل في الآونة الراهنة بما هو متاح من تنوع في وسائل الإعلام، وكثير من وكالات الأنباء الآن ومحطات الإذاعة والصحف يمكن في مجموعها أن تعرض لنا شيئاً، إن لم يكن متوازناً فهو ييسر علىٰ الأقل شيئاً ما للنظرة الموضوعية للأحداث، ونحاول أن نكمل هٰذا بالمراسلين؛ لأننا نريد ذٰلك الإعداد الفكري «الأيديولوجي»، ونريد ذٰلك الإعداد المهني، ونريد ذٰلك الانتقاء الذي يصلح للعرض عالميًّا، وليس هٰذا باليسير، ولٰكن نحاول بقدر الإمكان حتىٰ

نستطيع أن نُوجد صحافة إسلامية مقروءة علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي في أماكنه كلها، ومن قرّائه كلِّهم، دون أن تصادف نفوراً من قسم من القراء أو منطقة من المناطق.

❋ ❋ ❋

دور الصحافة في العمل الإسلامي

◎ تركيزاً علىٰ قضية الصحافة ودورها في العمل الإسلامي، ألا ترون أنه من المفيد أن يلتقي الصحفيون المسلمون العاملون في مجال الإعلام الإسلامي في مؤتمرات ليس المقصود منها إصدار قرارات ومتابعتها، بقدر ما هو طرح للقضايا، والتقاء عليها، وتوحيد لوجهات النظر إزاء كثير مما يواجهه المسلمون علىٰ الساحة العالمية في المواقع المختلفة؟

⊙ هٰذه قضية هامة، وقد بدأت خطوة بمؤتمر عقد في «جاكرتا» منذ سنوات، لمحاولة تأسيس منظمة صحفية إسلامية عامة، وقد قابل هٰذا المؤتمر العقبات التي يمكن أن يقابلها أي عمل عام علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي نظراً لتباين وجهات النظر، وتباين الاتجاهات. والحقيقة أن الصحافة الإسلامية تزدهر حين يتاح لأصحاب الصحف والعاملين فيها والمشرفين علىٰ تحريرها المناخ الذي يؤدون فيه أمانة الكلمة، نتيجة لوعيهم ولتقديرهم لمسؤولياتهم بدون أية مؤثرات أخرىٰ، وحين يتحقق هٰذا فإنه يمكن لهٰذه المؤسسات أن تقوم، وألّا تخشىٰ الزوابع والعواصف والأعاصير، فإن المؤسسة ما لم يتح لها هٰذا فستكون مؤسسة شكلية، والمسلمون لم يفتقدوا وسائل الاجتماع، ولٰكنهم يفتقدون دائماً إحالة مجامعهم ومنظماتهم وأجهزة هٰذا التجمع إلىٰ ساحات حقيقية للحوار والمناقشة، مهما تباينت وجهات النظر.

❋ ❋ ❋

أهمية المؤسسات والاتحادات المهنية

إنَّ أي منظمة تضم الكتَّاب والصحفيين تحتاج إلىٰ أن تُمَكِّن لها الوسائل لتكون مثمرة، وإيجابية، نتيجة ضمان الحوار الحقيقي، والمشورة الحقيقية، وأداء واجبها بضمان مسؤولية أصحابها ووعيهم، دون أي مؤثرات أخرىٰ.

فإذا ما اتجهنا لإقامة منظمة تضطلع بمسؤولياتها، وتُضمن لها حقوقها، فإننا نستطيع أن نصل إلىٰ نتائج إيجابية، ويفكر الأخ الدكتور يوسف القرضاوي عميد كلية الشريعة بجامعة قطر في تكوين «اتحاد للكتّاب المسلمين»، ربما يكون أخصّ من (منظمة صحفية) علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي، ذٰلك أن الكاتب ليس بالضرورة صحفيًا مهنيًا، وأعتقد أن الفكرتين متكاملتان، لا تغني إحداهما عن الأخرىٰ، فالمنظمة الصحفية لها آفاق أخرىٰ تتعلق بالحقوق والواجبات المهنية للعاملين في هٰذا الحقل.

فالمسلمون محتاجون عموماً في مجالات نشاطهم كلِّها إلىٰ أن يتبادلوا الخبرات علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي، إنهم بهٰذا يتكاملون ويتبادلون الخبرات، ويسيرون في طريق النضج بصورة أسرع، وأعتقد أن المنظمات المهنية قد تكون ـ إذا خَلُص القصد ـ وسائل أيسر وأسرع لتحقيق التكامل والوحدة، فإنها بطبيعتها أبعد عن المشكلات السياسية التي تعرقل كثيراً من صور التنظيم أو التعاون التي تعمل في المجال السياسي، ويستطيع الأطباء المسلمون، والقانونيون المسلمون، والاقتصاديون المسلمون، والإعلاميون المسلمون أن يلتقوا في منظمات مهنية علىٰ مستوى العالم الإسلامي، فيمثلوا جانباً من وحدة الأمة الإسلامية، ليس من طبيعته الحساسيات السياسية التي قد تكون في مجالات أخرىٰ، وليس معنىٰ ذٰلك أنه سيكون خالياً من وجهات النظر المتباينة، ولٰكن تباين وجهات النظر يمكن التغلب عليه بالنقاش الموضوعي، والحوار البنَّاء الذي يثمر نتائج إيجابية.



الاستبداد السياسي والصحافة

◎ يلاحظ كثيراً أن المجتمعات الإسلامية لا تحظىٰ بالحرية، خاصة حرية الرأي، وأحياناً تعاني من الاستبداد السياسي، وتظهر صحف كثيرة ذات لونٍ واحد، وليس مطلوباً أن تكون الصحافة الإسلامية إحداها، أو تسير في ركبها؛ كيف ترون حل هٰذه القضية بالنسبة لصورة الصحافة الإسلامية المطلوبة في هٰذه المرحلة؟ وهل صدور (أرابيا Arabia) وغيرها من الصحف الإسلامية في أوروبا وأمريكا يعد حلًّا لهٰذه المشكلة؟

⊙ الإسلام ـ كما لا يحتاج الأمر إلىٰ بيان في هٰذا الصدد ـ يقرر ويؤكد حرية القول، وحرية التعبير، والله تعالىٰ يقرِّر في كتابه الكريم قبل خمسة عشر قرناً ﴿... وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ...﴾ [البقرة:٢٨٢] فلا بد من ضمان حرية القول وحرية التعبير، في هٰذا الضوء أظن أن الأزمات التي تواجه هٰذه الحرية تؤثر بالضرورة علىٰ الصحافة الإسلامية، ولذٰلك نرجو أن تزول هٰذه المعوقات، وأن يكون المسلمون صورة لدينهم، في ضمان حرية القول، وحرية التعبير، فدينهم هو الذي قرَّر: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾، في وقت كانت العقائد تفرض فرضاً، ويُقْصَرُ عليها الناس قصراً، فأتىٰ القرآن يؤكد أن المبدأ الأساسي: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ...﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية]، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورىٰ:٤٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق:٥٠].

الوضع الطبيعي أن تزدهر الصحافة الإسلامية في بلاد المسلمين، وأن تزدهر حرية الفكر والعبارة حتىٰ يصبح في كل بلد منبر حرّ، ومناخ حرٌّ لحرية الكلمة، وبذٰلك يصحّ نموّ المسلمين الفكري ونموهم الاجتماعي، لأن الضغوط لا تؤدي إلىٰ نمو فكري سليم، وإنما يكون الفكر بين خطر التطرف، وخطر الانصياع والمتابعة و«الإمّعيّة» نتيجة القهر، وكلاهما لا يخرج صحافة مؤثرة فعَّالة، ولا يخرج فكراً ناضجاً سويًا صحيحاً. يحتاج المسلمون في كل بلد، وفي كل مكان إلىٰ أن يعيشوا هٰذه الحياة السوية

التي يتكلم فيها الكاتب فلا يخشىٰ إلا الله، والتي يقرأ فيها القارئ فيربي وعيه علىٰ وجهات النظر المتباينة التي عليه مسؤولية وزنها والمقارنة بينها، فيتكون الفرد ذو المعايير السليمة والمسؤولية الإيجابية ـ أو كما أوجز الخليفة الراشد الفاروق ﷺ، حين قيل له: اتَّقِ الله، فأراد إنسان أن ينافق فقال للقائل: ألمثل الخليفة يقال هٰذا؟ فقال عمر: لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها ـ فنحن نريد هٰذا الخير في الكاتب والقارئ، ولا يتحقق ذٰلك إلا في المناخ الحر، وحتىٰ تكون المسؤولية للكاتب والمسؤولية للقارئ مسؤولية منبثقة عن الضمير المؤمن، وعن معايير الإسلام، لا عن القهر المتعنت، ولا عن التحكم الذي يضطر بعضهم إلىٰ متابعة الأهواء المتحكمة، ويضطر الآخر إلىٰ النقيض تماماً: رفض كل ما يقال والسخط عليه، ومجابهته مهما كان في ذٰلك التطرف من خطأ آخر أو انحراف آخر. إنَّ هٰذه الأمة الوسط لا يستقيم أمرها، ولا تصح حياتها إلا بتطبيق معايير الإسلام، وإعطاء كل ذي حق حقه، وفقاً لميزان العدل الإلٰهي الذي لا يحابي أحداً، ولا يتحامل ضد أحد، لأن الله غني عن العالمين.

* * *

المنهج الإعلامي المناسب

◎ في هٰذا الإطار هل يمكننا أن نتعرف علىٰ ملامح المنهج الإعلامي الذي ترونه مناسباً في هٰذه المرحلة من العمل الإسلامي؟

⊙ أعتقد أنه من المناسب في هٰذا أن نضع في ذهننا وفي تقديرنا أننا نخاطب المسلمين في العالم جميعاً، وأننا نخاطب المسلمين وغير المسلمين في الوقت نفسه، فنحن نريد فقط ألَّا نتحدث عن أنفسنا، ولٰكن لنثبت دائماً للعالم أننا نحس بكوننا جزءاً من مليارات البشر الذين يعيشون في هٰذا العالم، وأن من حقِّ الإسلام علينا، ومن حقِّ اشتراكنا في هٰذا الكوكب أن نتبادل وجهات النظر، وأن نقدم إليه خير ما لدينا وهو ديننا، ولا نقدم ذٰلك

بأن نفرضه عليه، أو نجبره علىٰ اعتناقه، وإنما نقدم إليه وجهة نظرنا في المشكلات المتباينة من منظور إسلامي، ووفق هداية ديننا، نحن دائماً ـ ما دمنا نتحدث إلىٰ أنفسنا ـ فإنَّ ذٰلك يكون علىٰ مستوىٰ العالم لا علىٰ المستوىٰ المحلي، كما أريد أن أتحدث إلىٰ الذين يشاركوننا في هٰذا العالم أو في هٰذا الكوكب، وأن نقدم إليهم وجهات نظرنا، وأن نقدم إليهم الإسلام من منظور حياتي، لكي يتبينوا جليًّا أن كل ما عندنا نعلنه، وليس عندنا ما نخفيه، وأن ما عندنا فيه الخير للعالم أجمع، أو علىٰ الأقل فيه الخير للمسلمين، ولن يضارَّ غير المسلمين في شيء، ولن يؤذيهم في أمر، بل قد يحقق لهم كثيراً من المنافع، حتىٰ وهم علىٰ دينهم.

فالبر والقسط هو قاعدة الإسلام بالنسبة للبشر كافة ما داموا لم يعتدوا ولم يقاتلوا في الدين، ولم يخرجوا المؤمنين من ديارهم. فكأنَّ الإسلام إنما يقف ضد العدوان، لا ضد اختلاف العقائد والمبادئ والأفكار إن اتخذت سبيل التعايش والتحاور والمناقشة دون افتئات أو ظلم أو قهر.

يجب أن نقدم إعلامنا في صورة عالمية، في صورة إنسانية تخاطب الناس جميعاً، وتقنعهم أو تحاول أن تقنعهم بوجهة نظرنا في المشكلات المختلفة، كما أنه يجب علينا أن نخرج من العموميات إلىٰ الخصوصيات، وأن يكون لنا تناول للقضايا المتعددة، حتىٰ ولو كانت لا تمسنا مسًّا مباشراً، ما دامت هي من هموم هٰذا العالم، فقضية المجاعات الموجودة في أفريقيا التي تمس كثيراً من الشعوب الإسلامية، وكثيراً من المسلمين في السودان، وأريتريا، وتشاد، وموريتانيا، إنما هي همٌّ من هموم العالم علينا أن نتناوله، ما الذي أدىٰ إليه؟ ما هي الأسباب؟ هل هي أسباب تتعلق بإنتاج الغذاء؟ هل هي أسباب بيئية؟

لا بد أن يكون لنا منظورنا في هٰذه القضية وغيرها من القضايا، وأن نخاطب الاهتمام العالمي في قضية كهٰذه، وفي قضية التسلح الذري، في قضية التلوث والأخطار التي تهدد البيئة، المسلم يخاطبه دينه بالاقتصاد في الماء ولو كان علىٰ نهر جارٍ، وبالنظافة في الثوب والبدن والمكان، ولو

راعىٰ الناس جميعاً هٰذا كلَّه، لما تلوثت بيئاتنا، ولما استنزفت مصادر طاقاتنا، فلا بد من معالجة الهموم العالمية كلّها، من منظور إسلامي، ولا نقول فقط ما دامت الأسلحة الذرية لم تدركنا، فليس لنا بها شأن، الأسلحة الذرية تقترب منَّا وتأخذ بخناقنا، وستكون علىٰ أطرافنا، وإسرائيل في وسطنا تنمِّي طاقاتها الذرية، فلم يعد الخطر الذرّي يدرك دولة دون دولة، ولا يمكن أن تكون بمنجاة منه أرض من الأراضي دون أخرىٰ.

بهٰذا يكون خطابنا موجهاً إلىٰ العالم، وتكون القضايا التي نتناولها موجهة إلىٰ العالم كله، ولا أريد أن ننشغل في قضايانا الخاصة، وفي ظروفنا المحلية حتىٰ نصبح غير مقروئين أو غير مستساغين أو غير مفهومين من المسلمين في أنحاء أخرىٰ من العالم، أو من سكان هٰذا الكوكب الذين يريدون أن يقرأوا كلاماً من المسلمين يدل علىٰ أنهم يعيشون عصرهم، ويحيون زمانهم، ويشاركون في أعباء الحياة ومسؤولياتها وهمومها فوق هٰذا الكوكب الذي نتقاسمه.

❋ ❋ ❋

مصطلح اليسار الإسلامي

◎ طرحتم فكرة اليسار الإسلامي من قبل، ما هي الأسباب التي دعت لهٰذا الطرح؟ خاصة أن هٰذه الفكرة قد ظهرت في وقت كان يسبق عليه مباشرة مرحلة التعميم في الشعارات، ثم جاءت مرحلة الانتقاء من الإسلام بما يناسب ويُمكِّن للمبادئ الأخرىٰ، خاصة الاشتراكية؛ وقد أثيرت حول الفكرة أقوال وآراء، ترىٰ هل لا تزالون ترون طرح فكرة اليسار الإسلامي؟

⊙ اليسار الإسلامي، أو اليسار عموماً، ليس وقفاً علىٰ الفكر الماركسي كما قد يُظَنّ، اليسار في كل فكر يمكن أن يوجد فيه يسار ويمين ووسط، واليسار أصلاً نشأ في مناخ «ليبرالي»، وفي البرلمانات الغربية كانت

المعارضة تجلس إلىٰ اليسار، وإنما يراد باليسار قوم يريدون أن يصلوا إلىٰ التغيير بطريقة تخالف الطريقة التي يصل بها اليمين إلىٰ التغيير، وإن اشتركوا في طلب التغيير أو تحقيق التغيير، والوسط بينهما، وهناك يمين الوسط، ويسار الوسط، ويمين اليسار، ويسار اليمين، وهي كلها تقسيمات تحاول أن تقسم الساحة «الأيديولوجية» وفقاً لاستراتيجيتها، ووفقاً لمفاهيمها، ووفقاً لخططها في العمل، لتيسير فهم كل منها وطابعه، فهو اصطلاح كبقيّة الاصطلاحات يراد به تيسير الفهم، ويراد به تحقيق النفع. وكل اصطلاح يفشل في تحقيق غرضه يسقط من الساحة، فالاصطلاحات عناوين لأشياء وأشكال تعبر عن مفاهيم، وليست هي في حد ذاتها غاية، فإن فشلت في تحقيق المطلوب ولم تيسر بل عسّرت وعقّدت، واحتاج الاصطلاح إلىٰ شروح طويلة، وإلىٰ عروض كثيرة، فإنه يفقد ميزته في التيسير، وفي التفهيم، وفي الإيضاح، وفي البلورة.

* * *

جواز مرور إلىٰ العالم الإسلامي

وأنا لا أجد هناك من الوجهة الفكرية ـ ومن الوجهة النظرية المجردَة ـ أي مانع من أن يكون في ساحة العمل الإسلامي يمين، ويسار، كلٌ ينشد تحقيق مقاصد الإسلام، بوسيلة تختلف عن وسيلة الآخر، فريق يرىٰ أن القيم ببعض الجزئيات يكفي، وأنه ليس هناك تغيير شامل، وأن المسلمين في جملتهم مؤمنون، متدينون، ملتزمون، ويحتاج الأمر إلىٰ بعض التنوير، وإلىٰ قليل من العمل أو بعض العمل، وآخرون في الساحة يرون أن انحرافات المسلمين الفكرية والعملية جذرية، وأنه ينبغي أن تغيَّر تغييراً جذريًا، علىٰ مستوىٰ الفرد، وعلىٰ مستوىٰ الجماعة، وعلىٰ مستوىٰ الفكر، وعلىٰ مستوىٰ الحركة، وكلهم عاملون في ساحة العمل الإسلامي، فأنا أرىٰ أنه لا مانع من الوجهة النظرية، أو من الوجهة الفكرية، أو من الوجهة «الإستراتيجية الأيديولوجية» أن توجد مثل هٰذه التصنيفات حتىٰ بالنسبة

للإسلاميين، علىٰ أن تحقق نفعاً، وتحقق بلورة، وتوضح مفهوماً، **لا أن تستغل من قبل جماعة، قد يكونون ماركسيين أو محسوبين علىٰ اليسار، ويستعملون الإسلام فقط كجواز مرور إلىٰ العالم الإسلامي بعد الصحوة الإسلامية، وبعد ظهور ذٰلك المد الإسلامي؛ فاختاروا أن ينشروا بعض التوابل، وبعض الزخارف الإسلامية علىٰ كلامهم، في حين أنك لا تخطئ في خلال هٰذا الكلام أن تجد المنطلق الماركسي والتنظير الماركسي واضحاً جليًا، وتجد البضاعة المزجاة التي يُدَّعىٰ أنها مستمدة من التراث أو من أصول الإسلام، باهتة تافهة كالخرز اللمَّاع الذي يراد أن يزيَّن به شيء من الأشياء ولٰكنه لا قيمة له في حقيقته.**

الذي كنت أقصده وأعتقد أنه مشروع وجائز في ساحة «الأيديولوجيات»، وفي ساحة «استراتيجيات» العمل «الأيديولوجي» **هو ذٰلك الاتجاه في الفهم والتنظير والتخطيط الذي ينبثق من أصول الإسلام، ومن مبادئه**، ومن مفاهيمه، ويكون صاحبه علىٰ معرفة بأصوله، وعلىٰ إخلاص صادق لمبادئه، لا الذي يتخذ من الإسلام منطلقاً ووسيلة ليصل إلىٰ آذان الناس وإلىٰ قلوبهم.

***

الشعارات وخداع الجماهير

وقد نقلت مجلة «الكاتب» التي كانت تصدر في الخمسينيات في مصر قديماً، شيئاً أشرت إليه في كتابي «التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير»؛ كلمة لقطب شيوعي إيطالي أتىٰ إلىٰ مصر، وكان يسير في جولة سياحية مع بعض أصدقائه من اليساريين أو الماركسيين في أحياء القاهرة التقليدية أو الأحياء التاريخية، وكان ذٰلك يوم جمعة، وشهد الإيطالي جماهير المصلِّين تخرج من مسجد الأزهر، أو من مسجد الحسين؛ أو من كليهما معاً ـ في تلك المنطقة ـ فقال لرفقائه من المصريين: لو كنت في بلدكم لما تركت منابر هٰذه المساجد؛ فلا بد أن نستغلها في التوجيه إلىٰ ما نريد (!!).

الذي يريد أن يخاطب الناس من فوق منبر المسجد لا بد أن يستخدم اللغة التي يعرفها جمهور المصلِّين، **فإذا كان الأمر أمر دعاية، وأمر اقتناص للجماهير**، وأمر إفادة من تجمعهم وحشودهم في المساجد، دون إخلاص صادق للإسلام في ذاته وللتحول الإسلامي في ذاته، **فإنَّ اليساريين الذين يستخدمون الإسلام لهٰذا الغرض، لن يكونوا أفضل في نظرتهم وفي عملهم من ذٰلك الإيطالي، وإن كانوا يحملون أسماء إسلامية**، تيسّر لهم الولوج إلىٰ الصحف، أو إلىٰ المنابر ـ ربما ـ أو إلىٰ مخاطبة المسلمين أو إلىٰ ترداد آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، لٰكن العقلية المستقرة، والخلفية «الأيديولوجية» هي خلفية ذٰلك الإيطالي نفسه، وهي فكره نفسه ومنطلقه، مثل هٰؤلاء لا يمثلون اليسار الإسلامي، **لأن اليسار الإسلامي الصحيح في نظري لا بد أن ينطلق من ركيزة إسلامية، ومن إخلاص للإسلام، ومن حرص علىٰ تطبيقه، ومن منطلق يقوم علىٰ فهم أصوله ومبادئه، وتعاليمه ومنهجه، أما أن تكون كلمات تلاك، وشقشقات تستعمل، وتزويق يزوّق به كلام ماركسي، أو قضايا ومفاهيم يسارية معروفة، فإنَّ هٰذا لا يوصل إلىٰ شيء حقيقي في فهم الإسلام، ولا في العمل الإسلامي**.

وقد امتلأت الساحة بكثير من اليساريين، لا أقول كل مَن يتكلم عن اليسار الإسلامي هم من هٰذا الفريق، لٰكن هناك كثيرين في الساحة الآن هم ماركسيون أصلاء، وإنما يستعملون كلمات إسلامية، وشعارات إسلامية، لمجرد الولوج إلىٰ الجماهير المؤمنة.

وعلىٰ ذٰلك فأنا أرىٰ أن اصطلاح اليسار الإسلامي يعبّر عن حقيقة لا بد أن يكون لها مدلولها ولها شروطها، فهي ليست كلمة تقال، وليست «تكتيكاً» يقصد به المروق أو الولوج إلىٰ قلوب الناس وعقولهم، إنَّ اليسار الإسلامي إسلامي أصلاً، إذا صحّ أن يقوم هٰذا اليسار وأن يؤدي مهمته في الساحة «الأيديولوجية»، وفي ساحة العمل للإسلام.

أما إذا كان الأمر مجرّد مطيّة لليساريين الموجودين قبلاً، والذين

يعملون من قبل تحت شعارات أخرىٰ، وبمفاهيم معروفة، فأظن أن استخدامهم هٰذه الشعارات الإسلامية أو هٰذه الشكليات الإسلامية، لن يزيدهم اقتراباً من الناس، ولن يزيد الناس لهم فهماً، ولن يكونوا أكثر توفيقاً مما كانوا من قبل، لأن المؤمنين لديهم من الخلفية الإسلامية، ومن التراكمات الثقافية التي تأتي عبر الأجيال، ما يجعلهم أذكىٰ مما يتصور الذين يتلاعبون بالألفاظ، وإنهم يرفضون كل مَن يحاول أن يتمسح بالإسلام، وكما قيل: تستطيع أن تخدع الناس كلّهم بعض الوقت، وتستطيع أن تخدع بعض الناس الوقت كلّه، ولٰكنك لن تستطيع أن تخدع جماهير المسلمين في سوادهم وفي مجموعهم الوقت كلّه.

◎ بهٰذا يمكن أن نقول إن مصطلح اليسار الإسلامي لم يؤدِّ غرضه؟!

⊙ من الوجهة النظرية أقول: إنَّ فيه قابليات إيضاحية وتفسيريَّة، ولٰكن من الوجهة العملية حتىٰ الآن لم يستطع أن يوضح مفهوماً أو يستقطب جماعة لها مفهومها المؤثر، أو لها فعاليتها في الساحة «الأيديولوجية»، بحيث يصبح المصطلح خادماً لحقيقة.

❋ ❋ ❋

استعارة المصطلحات

◎ ألا يكون من الأنسب عدم استعارة مصطلح له تاريخه ودلالته، ويمكن أن يتولَّد عن استعماله نوع من التضليل والمغالطة؟ ألم يكن الأوْلىٰ التفكير بتوليد المصطلحات من خلال الأصول والقيم الإسلامية حتىٰ نكون في مأمنٍ من الناحية الثقافية؛ وبذٰلك يكون لهٰذا المصطلح دلالته في لغتنا وتطبيقاته في تاريخنا وتراثنا، ورصيده في شعورنا؟

⊙ قد يكون هٰذا بالنسبة للمفاهيم، لٰكن بالنسبة للاتجاهات أنا أرىٰ أن اصطلاح اليمين واليسار هو أشبه باصطلاح الشرق والغرب والشمال والجنوب، الذي يمكن للناس جميعاً أن يستعملوه لو أدركوا طبيعته الموضوعية المحايدة، وأنه إذا كان اليسار الشيوعي قد حرص علىٰ أن يحتكر اليسار، وأن يصنف الدين والمتدينين والعاملين للدين في اليمين، واليمين في نظرهم هو الذي يتجمع فيه أنصار الحلول الجزئية، وأنصار إبقاء الوضع القائم علىٰ ما هو عليه فنحن من وجهة الفكر السياسي والاصطلاح السياسي قد يمكن أن نستفيد من الاصطلاح إذا أخذناه بمدلوله، وإذا أخذناه بحقيقته، وإلىٰ أن يحدث هٰذا، لا بد أن نقول: إنَّ الاستعمال قد أوضح أنه في الواقع المعاصر يستخدم هٰذا الاصطلاح استخداماً مغلوطاً، ولا بد أن يصحح، ولا بد أن يستخدم استخداماً مفيداً، وعليه فإن هٰذا الاصطلاح حتىٰ الآن لم يحقق لا وضوح الرؤية، ولا تبلور العمل، ولا استقطاب أو إقناع الجماهير التي تؤمن بالتغيير الجذري إلىٰ رؤية أوضح أو إلىٰ عمل أفيَد، هٰذا هو الواقع الآن. والعبرة بنتائج الألفاظ مهما كان مدلولها اللفظي والفكري واللغوي، العبرة في الاصطلاحات بنتائجها العملية التطبيقية.

* * *

التغيير الجذري المطلوب

◎ ظهور وتولُّد مصطلحٍ ما لا بدّ أن يكون نابعاً من ضرورة، تقتضي ذٰلك؛ فما مدىٰ ضرورة التغيير «الأيديولوجي» في هٰذه المرحلة التي ظهر فيها هٰذا المصطلح في نظركم؟

⊙ لا شك أن هناك قوماً يؤمنون بالتغيير الجذري، ويؤمنون بأن الحلول السطحية أو المرحلية أو الموقوتة ليست هي المطلوبة للإسلام، لٰكن هٰؤلاء الذين يؤمنون بالتغيير الجذريّ لا يؤمنون باستعمال كلمة (راديكالية) أو استعمال كلمة (يسار) وحتىٰ كلمة (جذري) يستخدمونها لمجرد الوضوح لا

لمجرد التسمية الفكرية، فلو أردت أن تطلق في الساحة السياسية مصطلح الجذرية مثلاً بدل اليسارية أيضاً ستصادف بعض المتاعب؛ مع أنه لفظ عربي سليم، لٰكن سيقولون لك: مَن هم الجذريون؟ ومَن هم غير الجذريين؟ وسندخل أيضاً في قضية تعريفات، أنا أعتقد أن المفهوم قد يكون متفقاً عليه، التغيير الجذري المطلوب للمسلمين هو الذي يصل إلىٰ أعماق الفرد وأعماق تفكيره، وأعماق بنائه النفسي، ويصل إلىٰ أعماق المجتمع، نحن لا نؤمن فقط بأن البنية السفلية هي الحاجات المادية، نحن نؤمن بأن التغيير الجذري يحدث في عقول الناس، وفي قلوبهم، وفي بنيتهم الفكرية، ولا بأس أن نراعي أن تكون للظروف الاجتماعية مما يعين الناس علىٰ الخير، وعلىٰ الحقّ، وعلىٰ المعروف، ونحب أن يقوم العدل الاجتماعي، وتُضمَن حقوق الإنسان، الأمر الذي يعين كل فرد علىٰ التفكير الحرّ، وعلىٰ الاقتناع، وعلىٰ الاتجاه إلىٰ فضائل الإيمان كلّها، وإلىٰ تنمية سموّ النفس البشرية لدىٰ الأفراد ولدىٰ الجماعات، مفهوم التغيير الجذري عندنا قد يختلف عن مفهوم التغيير الجذري عند غيرنا، وإن كنا لا نحيف بالعدل الاقتصادي والاجتماعي؛ إلا أننا نرىٰ أن الناس يمكن أن يأكلوا، وأن يشبعوا، وأن تُضمَن حقوقهم، ولٰكن يعيشون كالأنعام يأكلون ويتمتعون فقط؛ دون أن يؤدوا حظوظهم الفكرية والنفسية، التي ميّزت الإنسان عن غيره من الكائنات الحية.

فلذٰلك نحن نؤمن بالتغيير الجذري، وليس التغيير الجذري فرديًّا فقط، إذا كنا نتكلم عن التربية النفسية أو التوجُّه النفسي والفكري، فنقصد بذٰلك الفرد والجماعة علىٰ حدٍّ سواء، فإن الفرد سيتمزق إن كان الأفراد كلٌّ له وجهة، وإن أبحنا اتجاهاً إلىٰ الله، واتجاهاً إلىٰ الهوىٰ وإلىٰ الشيطان. إذن فلا بد أن تتجه الجماعة في قلوبنا وعقولنا إلىٰ وجهة واحدة، تعين الأفراد علىٰ هٰذا التوجُّه. ويضمن العدل السياسي والقضائي والإداري والاقتصادي والاجتماعي والدولي المناخ لنمو النفس الإنسانية التي تحقق جوهر الإنسان، فإن هٰذا النمو هو المقصود بتوفير الظروف المادية كلّها، فنحن نتفق مع الذين يريدون أن يحققوا مناخ الضمانات المادية؛ لٰكننا نراه شرطاً لخطوات

أبعد، ولرقيّ أكبر وأوسع أفقاً، وأعمق جذوراً، وأدْوَم زمناً، هٰذا هو الرقي النفسي العقلي وهو التغيير الجذري الحقيقي.

هٰذا ما نريده بالتغيير الجذري للنفس الإنسانية، وللمجتمع الإنساني. والذي نرىٰ أن الإسلام هو الذي يحقق السبيل إلىٰ هٰذا التغيير الجذري الحقيقي من أعماق الإنسان نفسه.

***

حوار الأديان

◎ كثرت في الآونة الأخيرة الدعوات إلىٰ مؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي ـ في أوروبا ـ تحت دعوىٰ أن دين الله واحد، أو تشكيل جبهة دينية واحدة في مواجهة الماركسية والإلحاد، وتارةً تحت اسم حوار الحضارات أو حوار الأديان عامة. فما هو تصوركم حول هٰذه الدعوىٰ ومروِّجيها؟ وما مدىٰ الجدوىٰ من وراء مثل هٰذا الحوار في المرحلة الحالية؟

⊙ لكي يثمر هٰذا الحوار، لا بد أن يكون حواراً جادًّا، وحواراً حقيقيًّا لا شكليًّا، وتتوافر له أسباب الحوار الإيجابي، وهٰذا يقتضي ضيق النطاق واختيار المتحاورين بحيث يكونون متعمقين في عقائدهم، وفي العلم بعقائد غيرهم، وفي الإخلاص والجد في تصحيح ما يكون لديهم من أوهام أو أخطاء شأن غيرهم إذا وجدوا الدليل المقنع في هٰذا الصدد، أما أن يكون الأمر مظاهرة فكرية أو عقيدية تجتمع في مؤتمرٍ عامٍّ مفتوح، فالحقيقة أنني أحب ألّا تكون المسألة شكلية، والاجتماعات واسعة ضخمة، كل متحاور في ذهنه أن هناك مَن يسمع ويفهم هٰذا الحوار بطريقة معينة، وأنه يحاور وفي ذهنه أن كلامه سيصل إلىٰ الجهة التي يمثلها، أولاً وقبل كل شيء؛ إذا كانت هٰذه القيود موجودة فلن تكون هناك أي ثمرة، وستكون الاجتماعات تكراراً لأقوال سبق قولها،

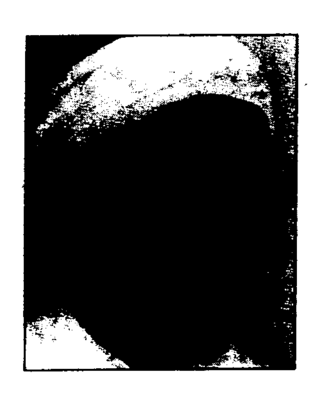
ويشترط أن تكون مقبولة من الجهات التي يمثلها قائلها، وحينئذٍ لن نتقدم خطوة إلىٰ الأمام.

أود الحوار المحدود في مجتمعات محدودة، يختار لها قوم من الصادقين المخلصين واسعي العلم وواسعي الأفق، وألّا تكون عرضاً شكليًّا دعائيًّا، تقصد بها جهات أن تفهم جهات أخرىٰ أنها واسعة الأفق، أو أنها قد غيَّرت وجهتها في حين أن الأمر لا يعدو أن يكون مظاهرة شكلية.

وأنا أنصح الجهات التي تتبنىٰ هٰذا الحوار، الكنيسة الكاثوليكية في الڤاتيكان، ومجلس الكنائس العالمي، والمسلمين الذين يرحبون بهٰذا الحوار أو يشاركون فيه؛ أدعو الجهات جميعها أن توفر الشروط والضمانات الأساسية لإنجاح الحوار إن كانوا صادقين، فلن ينجح إذا كان مجرد مظاهرة بكلمات يقصد بها المجاملة الجوفاء التي لا تعني أي تحول عن الموقف الأساسي أو كانت إرضاءً شكليًّا لطرف من الأطراف. الحوار الحقيقي لا بد أن يكون حواراً جادًّا، حواراً مخلصاً، حواراً بنّاءً، يخرج بعيداً عن هٰذه الشكليات، ويشترك فيه أفراد محدودون يقدمون فيه وجهات نظر صادقة، ويتحاورون محاورات بنّاءة، إذا كان ذٰلك، فسيكون مفيداً، وإذا كان غير ذٰلك؛ أي مجرد دعاية في جهة من الجهات، تريد أن تلقي في روع الآخرين أنها قد غيرت موقفها، وأنها قد صارت أكثر مرونة، وأنها مستعدة للحوار، في حين تدل شواهد أخرىٰ أنها لم تغير في حقيقة الأمر شيئاً من مواقفها، فإن الحوار نفسه في معطياته القائمة يدل علىٰ أنه لن يحقق ثمرةً ما.

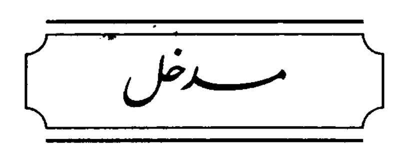
ربيع الأول ١٤٠٦هـ ـ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٥م
ربيع الآخر ١٤٠٦هـ ـ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٥م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



البعد التاريخي والواقع الثقافي لجامع الزيتونة

في حوار مع : الشيخ محمد المختار السلامي



□ من مواليد ١٩٢٥، بمدينة صفاقس ـ الجمهورية التونسية.

□ حصل على الإجازة في أصول الدين من الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٤٨.

□ عمل مدرساً بالمعاهد الزيتونية، ومفتشاً بالمعاهد الثانوية.

□ مفتي الجمهورية التونسية، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى.

□ عضو مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

□ رئيس الهيئة العالمية الشرعية للزكاة.



من مؤلفاته

ـ التعليم الزيتوني ووسائل إصلاحه.

ـ الأسرة والمجتمع.

ـ الاجتهاد والتجديد.

ـ الهداية الإسلامية.

■ **يرى**: أن المنهج الأفضل في نشر الدعوة هو في اقتفاء أثر الرسول ﷺ الذي علّمه الله ما لم يكن يعلم، ونجح في إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة.

يضاف إلىٰ ذٰلك مجموعة شروط لا بد من توفرها في الداعية حتىٰ يحقق النجاح المطلوب هي:

١ ـ معرفة واضحة بما يدعو إليه.

٢ ـ إيمان قوي بمضمون الدعوة.

٣ ـ حذوٌ لوسائل التبليغ بما تقتضيه من خبرةٍ بنفسية المخاطبين وعوائدهم، وامتلاكٍ للغتهم.

٤ ـ الالتزام بالإسلام قولاً وعملاً.

٥ ـ اليقظة التامة للمكائد التي يحيك خيوطها أعداء الإسلام، ومعالجتها بالحكمة.

٦ ـ مخاطبة الناس علىٰ قدر عقولهم.

٧ ـ ثقافة واسعة، وإحاطة بما يجري في العالم.

٨ ـ تحويل النشاط الذي يمتص فوائض الشباب إلىٰ نشاط ملتزم.

٩ ـ التفكير ثم الإنجاز؛ حتىٰ يخرج بمَن توَجَّه إليهم من النطاق الفردي الأناني إلىٰ التعاون الأخوي.

١٠ ـ العناية بالنواحي الصحية والتثقيفية؛ بالاعتماد ـ أولاً ـ علىٰ تنظيم واستثمار ما هو موجود في المنطقة ثم بالعون الخارجي.

١١ ـ جملة من الأخلاق تتمثل في الحب، والصبر، وكظم الغيظ، والبِشر، والإيثار.

كما يعتقد أن كل حركة إسلامية سوف تواجه بمقاومة قوية من الخارج، باعتبار أنها تعطي للأمة مناعة ضد الذوبان والاستغلال من القوىٰ العظمىٰ وهٰذا لا يرضي الأعداء، كما أنها في الوقت ذاته تواجه مقاومة من الداخل باعتبار أن الذي يريد أن يدعو إلىٰ الله تعالىٰ إنما يريد أن يحكّم منهجه في الإنسان، والإنسان في وهمه يريد أن يكون حرًا.

المقدّمة

■ الواقع الثقافي لأي أمة، لا يكون وليد الحاضر، كما أنه ليس نتاجاً للماضي فقط، وإنما هو ثمرة تفاعل تاريخي تشترك في صياغته عدة عوامل لكل منها دوره الذي يميِّزه. وواقع أمتنا الإسلامية؛ وإن كان في كثير من جوانبه دون سوية الشخصية الحضارية التاريخية، إلّا أنه يبقىٰ مديناً للزيتونة والقيروان (تونس) والقرويين (فاس) والأزهر (القاهرة) بشكل خاصّ، كمؤسسات تعليمية تربوية يعود إليها الفضل في رسم إطاره وأبعاده، وتحديد هويته ووجهته، وحمايته من الذوبان.

وهي وإن أدّت دورها المنوط بها - كمساجد ومعاهد للعلم - في التربية والبناء والتحصين، إلّا أنها ساهمت كذٰلك في تكوين النسيج الثقافي لأجيال الأمة، وتهيئة القيادات الفاعلة لأوجه الحياة المختلفة، حيث تخرّج فيها القادة والساسة والمفكّرون والمجاهدون الذين كانوا وراء الحركات الوطنية، والمقاومة المسلحة للمستعمر الصليبي بصوره وأشكاله المتعددة.

وللزيتونة فضل السبق والتأثير؛ فهي قد أسست سنة ١١٤هـ علىٰ يد عبيد الله بن الحباب، بينما أُسست القرويين سنة ٢٤٥هـ، وأُسس الأزهر سنة ٣٦١هـ. ولم يقف تأثيرها عند الحدود التونسية حيث اكتسبت امتدادها ونفاذها من عالمية الإسلام، ولذٰلك تجاوزت تونس إلىٰ البلاد الأفريقية بشكلٍ عامٍّ، وبلاد المغرب بشكل خاص.

وفي حوار مع الشيخ **محمد المختار السلامي** مفتي تونس، وأحد

خريجي الزيتونة؛ جرىٰ حديث حول ماضي وحاضر هٰذا الحصن الشامخ، والدور الذي أدّاه في المحافظة علىٰ واقع الثقافة الذاتية، والتأصيل للهوية العربية الإسلامية في تونس والشمال الأفريقي بشكل خاصّ، كما تطرق الحديث إلىٰ مشكلة الفتوىٰ في العالم الإسلامي اليوم، ومدىٰ إمكانية المدارسة والتنسيق بين المفتين؛ لإصدار فتاوىٰ يُجْمِع عليها المسلمون في القضايا الأساسية. ■



◎ **وفي بداية الحوار، لا بد أن يعودِ حديثِ الشيخ السلامي إلىٰ العهود الأولىٰ للزيتونة.**

⊙ معلوم أن جامع الزيتونة أُسِّس سنة ١١٤هـ. وأنه من أول يوم أُسس فيه كان مكاناً لعبادة الله ولنشر المعرفة. وأقدم ما نعرفه عنه هو أن الفضل يعود لجامع الزيتونة في بقاء مذهب الإمام مالك رحمه الله، ونشره في الآفاق، ذٰلك أن **«علي بن زياد»** صاحب **«مالك بن أنس»** رحمهما الله تعالىٰ لما رجع إلىٰ تونس نصح أحد طلبته وهو الإمام **«سحنون بن سعيد»** بأن يذهب إلىٰ الإمام مالك ويأخذ عنه كما أخذ هو ـ أي «علي بن زياد» ـ عنه، ولمَّا رحل **«سحنون» محمَّلاً برسالة شيخه،** وبالواجب الذي يريد أن يضطلع به، وجد «مالكاً» قد انتقل إلىٰ رحمة الله، وذٰلك يوم قدومه إلىٰ المدينة المنورة، فدوَّن كل مذهب «الإمام مالك» عن صاحبه **«ابن القاسم»**.

و**«المدوَّنة»** هي أقدم كتاب في مذهب **«الإمام مالك»** يعود إليه المالكية، وما جاء بعد ذٰلك إن هو إلّا شروح أو إضافات أو تخريجات علىٰ قوله؛ علىٰ اختلاف مراتب الفقهاء بين مجتهدٍ في المذهب وبين مخرِّج وبين مرجِّح.

من هنا نلمس أن ربع الفقه الإسلامي تقريباً، أي مذهب **«الإمام مالك»** إنما يرجع الفضل فيه إلىٰ هٰذا الرجل الصالح **«الإمام سحنون»** الذي خرج من القيروان إلىٰ المشرق.

وفي ذٰلك الوقت، كانت تونس ـ كما كانت القيروان ـ مركزاً للإشعاع الثقافي. وذكر بعض مَن أرّخوا لتلك الفترة أن القيروان وتونس متعادلتان في الإشعاع الثقافي، ومعلوم أنَّ القيروان كانت القاعدة التي انطلقت منها العلوم الإسلامية ناشرة لدين الله؛ فـ**«عمر بن عبد العزيز»** رحمه الله لما بعث الفقهاء العشرة، بعثهم إلىٰ أفريقيا، ولٰكن كانت القيروان قاعدة انطلاقهم، ولم تكن

القيروان مركز إشعاع في علوم إسلامية معينة؛ وإنما في كل العلوم؛ بما في ذٰلك ما يُعرف بالعلوم التجريبية.

ولما انتقل مركز الحكم في القرن السابع الهجري من القيروان إلىٰ تونس وأصبحت عاصمة الحكم في «**القصبة**» بجانب جامع الزيتونة، بدأ الجامع يأخذ بُعداً أكثر اتساعاً، ويضطلع بدورٍ واضح سواء في مناهج الثقافة، أو في نشر العلم والثقافة الإسلامية، وإحياء ما اندرس منها في كل بلاد المغرب، وهٰذا ما ذكره «**عبد الرحمٰن بن خلدون**» لمّا تحدث عن الفقه مشيراً إلىٰ أن سلسلة الفقه انقطعت في كامل بلاد المغرب، وأنّ الفضل يعود إلىٰ دولة «**محمد بن عبد السلام**» التي خرج رجالها إلىٰ بلاد المغرب وأحيوا ما اندرس من العلم.

ثم يتابع جامع الزيتونة دوره الأصيل عبر العصور إلىٰ يومنا هٰذا؛ فتخرج عليه وتخرج فيه علماء لم يختصوا بناحية من الفقه أو النحو، وإنما كان لهم وجود في ميادين متعددة. وعلىٰ كلٍّ فـ«عبد الرحمٰن بن خلدون» وإن كتب مقدمته في قلعة «**بني سلامة**» فهو قد تخرج في جامع الزيتونة.

❊ ❊ ❊

الثقافة الشعبية

◎ لا شك أن موقع جامع الزيتونة من العلم والثقافة الإسلامية، ونشرها في أفريقيا وفي التأصيل لها، والتأكيد علىٰ ملامح الهوية العربية الإسلامية في تونس، علىٰ غاية من الأهمية، فقد حفظ لتونس ولكثير من بلاد المغرب شخصيتها الإسلامية عبر مختلف الظروف، والأنواء السياسية، والاضطرابات التي مرَّت بها؛ فإلىٰ أي مدًى يساهم جامع الزيتونة اليوم بالتحصين الثقافي المعاصر، والتأكيد علىٰ قسمات تونس الإسلامية، وتنبيه الناس إليه كمركزٍ للثقافة العامة والمتخصصة في الوقت

نفسه؟ وما الدور الذي يمكن أن يضطلع به الآن في التثقيف الشعبي والتعليم التخصصي لتكتمل بذلك رسالة الجامعات؟ هذا على اعتبار أنّ رسالة الجامعات قد تكون رسالة علمية بحتة، وأن رسالة المسجد ـ إضافة إلى ذلك ـ هي رسالة تربوية ثقافية.

⊙ وهذا ما أريد أن أصل إليه من خلال دور جامع الزيتونة في الحركات التحريرية في تونس قديماً. ولا أغالي إذا قلت: إن كل خلية من خلايا العمل الوطني كان يرأسها خرِّيج من جامع الزيتونة، بل إن جيش التحرير في الجزائر كان فيه كثير من الإطارات الزيتونية، فقد اعتنت مناهج التعليم التي كانت سائدة بالزيتونة بتخريج المسلم العالم المجاهد المكافح لا المسلم السلبي.

وبمجرد أن تمّ الاستقلال، وعكفت الدولة كغيرها من الدول على ما عندها، تنظر فيه وتنظّمه تنظيماً يتلاءم مع سياستها العامة، أرادت أن توحد التعليم الابتدائي والثانوي، بمعنى أن يكون موحداً بين أبناء الأمة كافة، ثم يصبح جامع الزيتونة ـ الذي يمثل ثلاث مراحل تعليمية ـ كلية من كليات التعليم العالي، فمن ذلك الوقت (١٩٥٦) انفصل التعليم الثانوي عن التعليم العالي، وأخذت الكلية الزيتونية نفسها بالإعداد الأكاديمي أو بالإعداد المتعمق في مراحل التعليم العالي الثلاث (المرحلة الأولى، والثانية، والثالثة، ثم مرحلة الدكتوراه).

* * *

استمرار رسالة المسجد

◎ يرى بعض الناس اليوم أنَّ المؤسسات التثقيفية والتعليمية ـ من مدارس، ومعاهد، وجامعات وما إليها ـ في عصر الدولة الحديثة قلَّصت دور المسجد ـ إن لم نقل ألغته كمؤسسة للتعليم والثقافة ـ واضطلعت بما كان يقوم به في السابق؛ بحيث لم تبقَ للمسجد الآن رسالة سوى رسالة العبادة فقط.

⊙ لعلي لا أوافق هؤلاء فيما يرونه، وأعتقد أن المسجد لا تزال له رسالته، وله دوره، وأقول ذلك خلال مشاهداتي لأثر المسجد في تعليم وثقافة المجتمع المسلم، ومن تجربتي الخاصة؛ فلديّ دروس في التفسير والحديث تحضرها معظم طبقات الشعب، تجد الوزير والطالب والتاجر وغيرهم، وهي مناسبات، أولاً: لبيان المفاهيم الإسلامية في عصرنا الحاضر، وثانياً: لإثارة المشاكل التي هي في داخل المؤمن ولا يشعر بها، فإذا لم يجد بجانبه العالم الذي يوضح له المفهوم الإسلامي فإمَّا أن تبقىٰ في نفسه غامضة قلقة، وإما أن يضيع ويتيه، وإما أن يأخذها علىٰ غير وجهها، فأعتقد أن العلماء يجب ألّا يتخلفوا عن المسجد، وأن مكان المسجد في الإشعاع والتأصيل هو في المرتبة الأولىٰ، ولا يمكن أن يكون المعهد العلمي المتخصص بديلاً عنه؛ فلكل واحدٍ رسالة؛ المعهد رسالته تكوين ناس متخرجين بشهادات يستطيعون الدخول إلىٰ معترك الحياة، وأما المسجد فتبقىٰ رسالته التي تنفذ إلىٰ القلوب والعقول معاً، وتجعل الإيمان حيًا متحركاً.

◎ يكاد يرىٰ الإنسان أن الثقافة الإسلامية ـ كنظرية في التربية والسلوك والتحصين المطلوب لمواجهة الغزو الثقافي ـ موطنها المسجد أكثر من المعاهد العلمية.

⊙ هما يتكاملان، هناك ـ في المعاهد ـ شباب فقط، وهنا ـ في المسجد ـ مسلمون عامة من المستويات كلها، وما كان رسول الله ﷺ في المسجد يقصر هدايته أو إرشاده أو تأديبه علىٰ الشباب فقط؛ كان يجلس حوله أبو بكر ومعه مَن يدخل الإسلام حديثاً، كلٌّ ينهل من نبع النبوة، ومن هنا أقول: إنَّ رسالة المسجد يجب أن تستمر، وأن يضطلع العلماء بدروس المساجد التي لا تخضع لحكم أو سلطة؛ وإنما تُعطىٰ احتساباً للّه وحده.

* * *

دور مادة التربية الإسلامية

◎ **لا شك أن لمادة التربية الإسلامية بالمدارس الرسمية دوراً مؤثراً وأساسيًا في بناء ثقافة الطالب المسلم وتأهيله لمرحلة الدراسة العالية، لٰكنها ـ فيما نعتقد ـ لا تعدّ الطالب لمتابعة الدراسات الشرعية المتخصصة، ألا تعتقدون ـ باعتباركم تسهمون في التدريس الجامعي ـ بأن طلاب الكلية الزيتونية من خريجي المدارس الثانوية لا بدّ لهم من معرفةٍ بأوّليات العلوم الإسلامية والشرعية؛ ليكونوا في مستوًى يؤهلهم لاستيعاب العلوم الشرعية؛ وذٰلك حتىٰ لا ينحدر مستوىٰ التعليم العالي الشرعي، ويتوقف عند الأوليات لأولئك القادمين من المدارس العامة؟**

⊙ لا شك في أنَّ أوليات العلوم الإسلامية التي يعتمد عليها التعليم الجامعي تعتبر أسَّ البناء، فالشخص الذي يريد أن يقرأ في التفسير، ويدرس كتاب الله، والفقه، لا يستطيع أن يباشر التعليم العالي ما لم تكن لديه مقدمات من العلوم، والوسائل التي لا بد منها، وتعتبر ضرورية، ولا توجد بالتعليم الجامعي باعتبار أن الزمن لا يسمح بالعودة إليها.

ونجد اليوم أن من المشاكل التي يواجهها الأستاذ الجامعي أنه عندما يدرِّس القضايا الكبرىٰ يكون من المحتم عليه ـ حتىٰ يكون واضحاً ويُفْهِمَ الطلابَ ما يقول ـ أن يعود إلىٰ الركائز الأساسية التي يعتمد عليها، فدراسة العلم تستوجب معرفة مصطلحاته، واللغة العلمية الخاصة به، وهٰذه بكل أسفٍ غير موجودة، وهي ـ كما قلت ـ تعوق الأستاذ عن التقدم، وتعوق الطالب عن حسن الفهم والتعمق؛ فتنحدر بالتعليم الجامعي حتىٰ يكون دون المستوىٰ، وهٰذه قضية لا بد من النظر بها نظرة جدّية، إذ لا بد من تأهيل الطالب للتعليم العالي.

وأذكر أنني اطّلعت عام ١٩٦٦م علىٰ دراسة في جريدة «لوموند» الفرنسية عن التعليم في إسرائيل، **فوجدت أنه لا يمكن أن ينتهي تلميذ من التعليم الثانوي إلاَّ بعد أن يكون قد أتمَّ دراسة التوراة، وأنه في كل شعبة من**

شعب التعليم العالي لا تقل الدراسة الدينية التوراتية عن ساعتين أسبوعيًا، كيفما كان التخصص، وهٰذا يقابله في العالم الإسلامي ما سمُّوه بالتربية الإسلامية، وجعلوها في مستوًى واحد مع التربية الموسيقية والتربية الرياضية.. إلخ، وإن كنت لا أعرف كثيراً مما يوجد في بلدان المشرق، لٰكن يوجد في بلاد المغرب العربي سرطان انتقل إلينا من بلاد الغرب، هو سرطان الفوارق، وإعطاء المواد قيماً مختلفة، فجاءت القيمة المعطاة للتربية الإسلامية قيمة ضعيفة باعتبار ما أخذ به القائمون من الاهتمام بالتعليم التقني وحثّ التلاميذ علىٰ الاعتناء بالمواد التقنية، وتوهين أمر التعليم الإسلامي.

◎ ويمكن في هٰذه الحالة أن ينشأ الطالب الذي يستطيع أن يحصل علىٰ شيء من العلم، لٰكن سوف يكون ذٰلك علىٰ حساب ثقافته الإسلامية التي تؤهله للانتفاع بالعلم، وجعله في موقعه الصحيح من خدمة قيمه، وتحقيق إنسانيته، وبذٰلك يخسر الثقافة والعلم معاً.

⊙ هٰذا هو الواقع؛ يفقد ثقافته وأصالته، وأيضاً سعادته في المستقبل. والثقافة الإسلامية أمر هام في حياة المسلم، ولٰكني إلىٰ الآن لم أجد نظاماً للتعليم في العالم الإسلامي أولاها ما تستحق من الاهتمام، ولا شك أن في هٰذا ما يعوق مستوىٰ الخريجين، وهو ما يجعلني أرىٰ أن الفقه أخذ يضمر في العالم الإسلامي، وأن الفقهاء أصبحوا قلة.

◎ حتىٰ يكاد المرء يقول بأن مؤسسات التعليم العالي الشرعية أصبحت تخرج موظفين لا علماء، وهٰذا من الأسباب التي قد تؤدي إلىٰ انقراض العلم بمستوًى معين.

⊙ نعم، وهٰذه حقيقة لا بد من تداركها.

* * *

ثُغَر ثقافية

◎ كيف ترون الواقع الثقافي الآن؛ خاصة وأن بعض المسؤولين عن

قضايا التعليم أو بعض الدارسين في الغرب أو غيرهم يكاد يكرّس قضية تعتبر من الثُغَر الثقافية الخطيرة، وتُلمح في بلاد المغرب أكثر منها في بلاد المشرق، وإن كُتب لها شيء من الامتداد فالخطر قادم وشديد، ولعلّ الله سبحانه يحفظنا من ذٰلك ويهيئ بعض العلماء العاملين للمرابطة علىٰ هٰذه الثغور ومواجهتها، وهي قضية أن العربية لا تصلح أن تكون لغة العلوم ومصطلحاتها، والدراسة ومراجعها، وأن أهميتها وتعلمها يأتي من كونها لغة الدين والعبادة فقط، وليست لغة العلم؛ بينما اللغة الأجنبية هي لغة المدارس والمعاهد والمصادر العلمية، وبذٰلك تُحاصر العربية، وتُعزل عن حياة الأمة، وتنتهي إلىٰ المساجد، ويقتصر فهمها وإتقانها علىٰ فئة من المعنيين بشؤون الدين والعلوم الشرعية؟

⊙ لا شك أن اللغة العربية مقوِّم من مقوماتنا الذاتية، وتعبير عن أصالتنا وفكرنا، إنها لغة التنزيل.

والوضع في المغرب العربي لا أقول بأنه يسير إلىٰ الوراء وإنما يسير إلىٰ الأمام؛ لٰكنه يسير ببطء، فإذا أخذت وضع تونس قبل الاستقلال مثلاً، تجد أن التعليم في مراحله الثلاث: الابتدائية والثانوية والعالية، كان يعتمد اللغة الأجنبية لتدريس العلوم التجريبية، بينما أُخذ اليوم في تعريبها، فالتعليم الابتدائي يكاد يكون معرباً كله، والتعليم الثانوي عرِّبت فيه كثير من المواد، وإن كان التعريب يسير سيراً بطيئاً إلَّا أنه بخطًى ثابتة، هٰذه تجربتنا في تونس، وهي التجربة نفسها في المغرب وفي الجزائر.

كما أن الجامعة أخذت تدرِّس العلوم الإنسانية باللغة العربية، فكلية الحقوق عُرِّبت بنسبة طيبة، وفي كلية العلوم الإنسانية من تاريخ وجغرافيا، وجِّهت دعوة إلىٰ كل مَن يستطيع أن يدرِّس من الأساتذة بالعربية يُرجى منه أن يدرس مادته بالعربية.

في التعليم الثانوي، كانت الفلسفة مثلاً تُدرس باللغة الفرنسية، ثم وقع التخيير بين الفرنسية والعربية، ثم حذفت الفرنسية تماماً وأصبحت تدرس بالعربية، وهو ما نعتبره مغنماً كبيراً، وذٰلك لأن ما يعشّش في

عقول التلاميذ من الدراسات الفلسفية من مصادرها الغربية يؤثر على الفكر تأثيراً كبيراً.

◎ **قد يكون من الإصابات الخطيرة التي لحقت بالعالم الإسلامي وبالثقافة الإسلامية تدريس الفلسفة العامة وفلسفة التعليم باللغة الأجنبية، الأمر الذي يقتضي اعتماد مصادرها العلمية بطبيعة الحال، وما يترتب علىٰ ذٰلك من مخاطر في مجال تشويه نظرة المسلم إلىٰ الكون والحياة والإنسان.**

⊙ وهٰذا ما كان في تونس، ولٰكن وقع جهاد مرير لإقناع القوم بتعريب التعليم، وأنا لا أقول بأن القوم ضد الإسلام وضد العربية، ولٰكن لديهم أفكار ومفاهيم خطأ، وهٰذه لا بد من تصويبها بالحكمة والزمن والعمر الطويل، وهٰذه وجهة نظري؛ لأن مقابلة صاحب السلطة بالعنف لا تؤدي إلا إلىٰ العنف من الجانب الآخر، فإذا نظرنا إلىٰ تطور الأحداث حسب سنن الله في الكون نجد أن العربية والإسلام يغنمان كل يوم مغانم كثيرة، وأن الغزو الفكري والتغريب يتراجعان شيئاً فشيئاً. وبما أن الإنسان خلق من عجل، فنحن نرىٰ أن هٰذه الخطوات ضعيفة لأننا نريد أن نصل إلىٰ غاياتنا بسرعة، ولٰكن هناك ظروف لا بد من النظر فيها وتقديرها في كل عمل يُراد له النجاح، وإذا كان العمل عملاً فوريًا ثوريًا في آنٍ واحد فهو قطعاً سيلاقي من الرفض ما يقف به عن تحقيق أهدافه.

❋ ❋ ❋

توحيد الفتوىٰ

◎ **منصب المفتي في الأصل منصب هامّ وخطير بالنسبة للتحصين الثقافي الإسلامي، ولاتخاذ مواقف في القضايا والمشكلات الكبرىٰ علىٰ مستوىٰ العالم الإسلامي. ولٰكن يلمح الإنسان بشكل عام بالعالم**

الإسلامي ـ وليس في بلدٍ معين ـ محاولات تهميش دور المفتي شيئاً فشيئاً، وإبعاد هٰذا المنصب عن مراكز الفاعلية، واختيار أشخاص بأعيانهم ليكونوا موظفين لا يخرجون عن رأي السلطة الرسمية؛ والمشكلة أن العالم الإسلامي قد تُوجد فيه وجهات نظر مختلفة من الناحية الرسمية وما إلىٰ ذٰلك، بينما المسلمون أمة واحدة بصرف النظر عن وجهات مؤسساتهم الرسمية وظروفها ومواقفها السياسية، ألا ترون أن نوعاً من التنسيق، وتبادل الخبرات، وتوحيد الفتوىٰ، والموقف الناصح في القضايا الكبرىٰ أمر مطلوب؟ إذ أن هناك قضايا أساسية معاصرة تتطلب رأياً إسلاميًّا واحداً، فقد يكون الاجتماع علىٰ هٰذا الرأي مساهمة بتوحيد الأمة أو بدعم وحدتها؛ حتىٰ لا تكون هناك صور من التناقضات أو من عدم التنسيق بين المفتين في العالم الإسلامي، والاجتماع قوة لهم جميعاً، والجماهير المسلمة تقف جميعها وراء الفتوىٰ التي تخرج متفقاً عليها في القضايا الكبرىٰ والمسلم قوي بإخوانه ضعيف بنفسه.

فكأنَّ المطلوب اليوم لون من تبادل الخبرات، وتوحيد وجهات النظر، ومواجهة هجمة الغزو الفكري والثقافي علىٰ العالم الإسلامي بموقفٍ في الفتوىٰ موحّد، فما هي وجهة نظركم؟

⊙ الإشكالية التي أشرتم إليها هي إشكالية حقيقية. والتواصل أو التنسيق بين المفتين في البلاد الإسلامية يتوقف علىٰ وجود مثل هٰذه الخطة في البلاد الإسلامية، للمفتي قضايا جزئية، وقضايا كبرىٰ تعرض عليه، وهو يُنير السبيل ويعطي حكم الشرع، وقد تكون أمام المؤمن مشكلة من المشكلات الكبيرة فيجد عند المفتي الطريق الذي يرضىٰ عنه الله.

لقد تكفّل **«مجمع الفقه الإسلامي»** الذي يمثل البلاد الإسلامية كلها ـ ويتبع **لرابطة العالم الإسلامي**؛ ومقره السعودية ـ ببحث القضايا العامة التي تهمّ العالم الإسلامي كله، والمشكل ليس في الاجتماع ـ فالاجتماع سهل ـ ولٰكن في رصيد ما عند المفتين في التأثير علىٰ السياسة العامة وعلىٰ اتخاذ

المواقف، نستطيع أن نتصل، وأن نقرر ما نشاء، وأن نقول شيئاً؛ ولٰكن قد يرىٰ صاحب السلطة شيئاً آخر.

◎ **نحن لا نزال نقول بأن للعالم المسلم العامل وكلمته وموقفه أثراً كبيراً في الأمة ـ دعك من بعض علماء المؤسسات الرسمية ـ فمواقف علمائنا وأئمتنا أقوىٰ في نفوس الناس، وأرسخ في قلوبهم، وأكثر تأثيراً في سلوكهم من مواقف المؤسسات الرسمية، ولا أعني بما طرحت أنَّ المفتين حين يتخذون رأياً حول قضيةٍ ما يمتلكون السلطة التنفيذية للتغيير. لٰكن أقول بأن الفرد المسلم حينما يعلم بأن وجهة النظر الشرعية في قضية من قضايا الأمة هي كذا، ومتفق عليها عند مجموعة من العلماء العاملين سوف يبذل وسعه فيما يستطيع من مواقف، وإذا فعل مُكرِهاً فهو مكره، ويبقىٰ بانتظار العودة إلىٰ ما يعتقد بأنه حكم الله سبحانه وتعالىٰ.**

قضية رؤية هلال رمضان

◎ **لنأخذ مثالاً: رؤية هلال شهر رمضان وهي قضية تهم العالم الإسلامي كله؛ لأن كل مسلم يريد أن يصوم الشهر لا يزيد عليه يوماً ولا ينقص منه يوماً؛ لأنه لو نقص يوماً خالف أمر الله، ولو صام يوماً زائداً فعل محرماً، فقضية الصوم هٰذه، هل نعتمد فيها الرؤية أم نعتمد فيها الحساب؟ اطّلعت علىٰ فتوىٰ من أحد المفتين في العالم الإسلامي يقول فيها: إنَّ العمل بالحساب أمر خطير، وهو يوشك أن يكفِّر مَن يقول بذٰلك، وتجد في المقابل مَن يرىٰ أن الحساب هو الأصل، وأن الاعتماد علىٰ الحساب أفضل من الاعتماد علىٰ الرؤية؛ لأن خداع النظر يجعل الرؤية ظنية بينما الحساب يكاد يكون يقينيًا، وأنه من القواعد البسيطة: ألَّا يعدل الإنسان عن اليقيني إلىٰ الظني.**

⊙ أريد أن أفرق بين أمرين: العمل في مجال الأمة، والعمل في إطار المؤسسات الرسمية، فإذا اعتبرنا - نحن كمفتين - أن ساحة عملنا الحقيقية هي الأمة المسلمة والفرد المسلم، فقد يكون تأثيرنا هنا أكبر من تأثيرنا في الجانب الآخر.

نعود لنقول في قضية الهلال: مَن منّا في العالم الإسلامي الآن يعتمد علىٰ رؤية الظل والشفق والغلس في تحديد أوقات الصلاة؟ فلماذا نعتمد الحساب لتحديد أوقات الصلاة وأمورنا كلّها؛ بينما نختلف حول الصيام؟! وإذا هيّأ الله لنا وسيلة تحقق النظر وتسهّله فهل نرفضها؟

❋ ❋ ❋

ضرورة الحوار

◎ نريد أن يكون هناك شيء من تبادل وجهات النظر، بمعنىٰ أن يكون بين المفتين - قبل أن يأتي رمضان مثلاً ويحدَّد الهلال كقضيةٍ من القضايا - مراسلات، وصلات، واستدلالات، وبيان وجهات نظر، حتىٰ إذا ما جاء الشهر كنّا حصلنا علىٰ قدر من الحوار الذي يمكن أن يقرِّب وجهات النظر؛ ليقترب العالم الإسلامي من اتخاذ موقف واحد.

⊙ هٰذا يتوقف علىٰ أمر ضروري لا بد منه وهو ألَّا يكون المفتي متقيداً بمذهبه، وهٰذا ما لم أجده - في الواقع - في كثير من المفتين في العالم الإسلامي، فالمفتي هو أسير أقوال المذهب الذي يتبعه، إنَّ الأمر يستدعي إعادة النظر في قضية هامة: هل نتحاور إسلاميًّا أو نتحاور مذهبيًّا؟

◎ يتمنىٰ المرء في عصر التجمعات العالمية والمؤسسات الكبرىٰ أن يكون بين العاملين في الحقل الواحد شيء من الاتصال، بعد أن قدمت المخترعات الحديثة سرعة الاتصال وألغت المسافات؛ الأمر الذي يمكن بواسطته أن يطّلع الإنسان علىٰ رأي الآخر وهو في موقعه وبسهولة، ويتبادل معه الخبرات والاستدلالات؟

⊙ هناك أمل كبير في أن يحقق «مجمع الفقه الإسلامي» ما لم يستطع المفتون أن يقوموا به.

❋ ❋ ❋

من مشكلات الدعوة

◎ لا شك بأنَّ غربة الإسلام اليوم تدفع بعض أصحاب الأمر سواء في المدارس والجامعات أو في بعض المؤسسات الرسمية، لاتخاذ مواقف غير شرعية من العاملين للإسلام؛ مثلاً: من المرأة ذات اللباس الإسلامي أو من الشابّ ذي الاتجاه والسلوك الإسلامي، وهٰذا يؤدي في المقابل إلىٰ ردود فعلٍ عند الشاب عنيفة إلىٰ درجة قد تُخرجه عن طوره، وتجعله يساهم بدور سلبي في إبعاد الناس عن الإسلام، بعيداً عن الحكمة والهدوء والتأصيل للقضايا الإسلامية وكسب قلوب الناس، فمن خلال رؤيتكم الخاصة في تونس، والعامة في العالم الإسلامي ـ وتونس لا تخرج عن كونها جزءاً من العالم الإسلامي ـ بماذا تنصحون العاملين للإسلام علىٰ المستوىٰ الثقافي والسلوكي؛ خاصة وأن بعضهم ذو فقهٍ قليل؟ وكيف تنظرون إلىٰ هٰذه المشكلة؟

⊙ في الواقع، إن المشكلة مشكلة المجتمع الإسلامي كله، وهي مشكلة معقدة كثيرة الأوجه. إنَّ القضية الجوهرية ـ في رأيي ـ تكمن في العقلية الغربية التي تريد أن تستأثر بخيرات الكون كلّه، وفي العقلية الإسرائيلية اليهودية التي تريد أن تسخّر العالم الغربي لتحقيق مآربها، ولذٰلك نجد أن الامتصاص لكل القوىٰ الاقتصادية ولخيرات الكون هو الذي تنطلق منه كل التوجهات الغربية. وقد قرأنا كيف استطاع «الراهب» وهو علىٰ حماره أن يؤلب أوروبا في الحرب الصليبية الأولىٰ، ويدعوها إلىٰ بلاد الشرق التي تفيض لبناً وعسلاً!! ونسمع بين حين وآخر مصطلح «المياه الدافئة» وإذا ما كان الروس سيدخلونها أو الأمريكان، كل شخص يريد أن يكون له موضع

قدم في العالم الإسلامي يمكِّنه من توجيه السياسة فيه حتىٰ يمتص خيراته.

ولا شك أن ما يؤمِّن هٰذا الامتصاص هو عدم الشعور به، فالحشرة - مثلاً - إن كانت تتمتع بقدر من الذكاء تستطيع أن تمتص من الإنسان ما تريد دون أن تُشعره بذٰلك، فإذا ما أشعرته قتلها، هنا أجد أن الأمر الذي يُشعر الإنسان بذاتيته وأنه أكرم من غيره هو العامل الديني، ولذٰلك كان الغزو للعقيدة الإسلامية ولكل حركة إسلامية إنما هو لتأمين مصالح الغزاة؛ حتىٰ يفقد المسلم المناعة التي تمنعه من العمق ومن الامتصاص، فعداوتهم الدينية اليوم ليست كعداوتهم الدينية في العهد الجاهلي؛ لأن الاقتصاد غلب عليهم في نظرتهم إلىٰ الكون والحياة كلها.

هٰذا هو الوضع الجديد الذي لا بدّ أن نفهمه وأن نتعامل علىٰ أساسه، وكل حركة إسلامية تواجه مقاومة، مقاومة قوية من الخارج باعتبار أنها تعطي للأمة مناعة وهم لا يريدون المناعة، ومقاومة من الداخل باعتبار أن الذي يريد أن يدعو إلىٰ الله إنما يريد أن يحكِّم منهج الله في الإنسان، والإنسان في وهمه يريد أن يكون حرًا؛ فكيف يستطيع أن يتغلب علىٰ هٰذه النزعة الأنانية الغالطة المخطئة، ويتغلّب كذٰلك علىٰ القوىٰ العظمىٰ التي تعمد ليلاً ونهاراً لتأمين ثرواتها وسرفها وترفها في الحياة؟

والمواجهة أقوىٰ بكثير، من الناحية المادية، الجانب الذي عندنا هو جانب الحق؛ وهو الذي لا يمكن أن يدخل بالعنف، فذٰلك ليس من طبيعته، والحركات الإسلامية كلما حاولت العنف، ألبت عليها؛ وأعدَّت نفسها للضربات، أعطيك مثلاً وقع في تونس؛ فقد وقع هجوم من طرف بعض الإخوة علىٰ فندق لأن صاحبه تناول القضية الفلسطينية - أو شيء من هٰذا - فكان ردّ الفعل من السلطة قويًا لأنها ترىٰ أن في ذٰلك إزعاجاً للسائحين، والسياحة مصدر أساسي من مصادر الثروة، وإذا فُقد وقعت الدولة كلها في مشاكل لا حدّ لها. فكان لهٰذا وجهة نظره ولذٰلك وجهة نظره، وفي آخر الأمر وقع ضربٌ قوي علىٰ الحركة من جملته منع اللباس

الخاص المعروف بالزي الإسلامي، ووقتها كنت «متفقد عام» التعليم التونسي، فقلت في اجتماع للجنة العليا: هل نحن ضد الستر أو نحن ضد اللباس السياسي؟ فإذا كنا ضد الستر فما أظن بأنّا نكون ناساً صالحين، لا للأمة ولا للأخلاق، وإذا كنّا ضد اللباس السياسي فأنا معكم، لكم أن تمنعوا اللباس بشكل خاصّ باعتبار أنه مظهر تجمع تريد الدولة ـ كلون من سياستها ـ أن تمنعه، لكن أن تُمنع المرأة من أن تكون محتشمة فهٰذا مرفوض. فقالوا: نحن مع الستر، فطلبنا منهم إصدار منشور بذٰلك، وأُصدر منشور يأذن بألّا يُتعرّض لأي امرأة تأتي متسترة، فطريقة إقناع الناس وتوسيع القاعدة يجب أن يؤخذ بكثير من الحكمة.

❋ ❋ ❋

مغالطات لا بد من تصويبها

◎ **ويضيف الشيخ السلامي:**

⊙ ويحزّ في نفسي أن أسمع حتىٰ من بعض القادة الكبار ورؤساء القيادة في العالم الإسلامي مَن يقول: لا يهمني الفقه، والفقهاء، وقيمتهم، ولا أدري ماذا يبقىٰ لي من الثقافة الإسلامية إذا فرّغت من الفقه؟

إنهم يقولون الأصول، ولٰكن ما قيمة الأصول إذا لم تُثمر فقهاً؟

هٰذا أيضاً من التشويه الذي يصدر من بعض القادة الإسلاميين الكبار، وهٰذه مشكلة كبيرة، ولذٰلك لا بد من تصفية العقول، بمعنىٰ أن ما عندنا في العالم الإسلامي ـ بكل أسف ـ هو المبالغات، والغلو، فكون عالم مسلم نظر في قضية جزئية لا يرىٰ الداعية أنها ذات قيمة، لا ينبغي أن تقع بسبب ذٰلك المعركة ويكون التجني علىٰ الفقه الإسلامي، ومَن هو هٰذا الشخص الذي أُعطي فصاحة وطلاقة في اللسان أو قدرة علىٰ التأثير، حتىٰ يتعرض للقيمة الفقهية التي هي من أكبر ثروات الفكر العالمي.

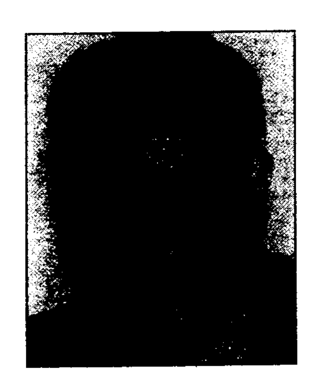
فقضية الفقه أؤكد عليها، ويجب ألّا يقع التهاون بها ولا توهين

أمرها، ونحن اليوم في حاجة إلىٰ تقويم الداعية وتقويم المسلم، فساحة العمل الإسلامي قضية متشابكة شأنها شأن القضايا الاجتماعية.

وَبَعْـــد: فقد يكون المطلوب اليوم أكثر مّن أيّ وقت مضىٰ أن نحكم الخلق والأدب الإسلامي في الحوار وتبادل وجهات النظر، وأن نتعاون جميعاً فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا حوله.

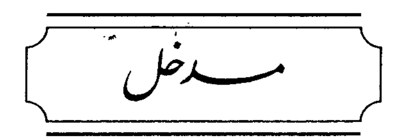
صفر الخير ١٤٠٦هـ ــ تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٨٥م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑



مشكلات مجتمع ما بعد الاستقلال

في حوار مع : الدكتور المهدي بن عبود



مدخل

■ من مواليد مدينة سلا ـ قرب الرباط ـ بالمملكة المغربية عام ١٩١٩م.

■ درس الطب في فرنسا، وابتعث إلىٰ الولايات المتحدة الأمريكية لدراسة الأمراض الجلدية.

■ أستاذ في كلية الآداب ـ قسم الفلسفة وعلم النفس ـ في الجامعة المغربية.

■ شارك في الحركة الوطنية، وانضم إلىٰ المقاومة المسلحة، وكان مبعوثها في الشرق الأوسط.

■ عيِّن سفيراً بعد الاستقلال في الولايات المتحدة الأمريكية، ومندوباً دائماً للمغرب في الأمم المتحدة.

■ ألقىٰ عدداً من المحاضرات بالمغرب العربي، والمشرق، وأوروبا، وشارك في العديد من المؤتمرات، واللقاءات الإسلامية العامة والعربية.

■ **من مشاريعه الفكرية**: إحياء الأمم ـ عقيدة المستقبل ـ مفهوم الإنسان وطاقته الروحية في الطب ـ النفس والبدن والعلاقة بينهما.

■ **همُّه الدائم**: البحث في أسباب الانهيار الذي أصاب الأمة الإسلامية، وشروط النهوض بعد أن تمزقت رقعة التفكير بين مجموعة من العقائد، واستهوىٰ بعضَ المسلمين ما يجري في الغرب.

يرىٰ أنه لا بد في عملية الرجوع إلىٰ الإسلام وتجديد الانتماء له والالتزام به من نهجين:

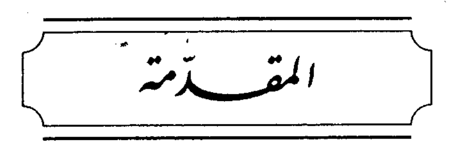
١ ـ النهج الفكري: وهٰذا يقتضي استجلاء ما هو غامض في أذهان الناس عن شروط النهضة الإسلامية الأولىٰ في ظروفها القاسية، واكتشاف سر النجاح العلمي الذي أحرزه المسلمون الأوائل.

٢ ـ بعد اكتشاف الفكرة واستجلائها كيف يمكن تحقيقها، والوصول إليها، وحسن اختيار الوسيلة، مع أخذ المتغيرات العالمية السريعة بعين الاعتبار.

ويحذر أثناء اختيار وسيلة النهوض من مسايرة الغرب وتقليده؛ إذ أن تقليده هو الذي ساهم بتمزيق بلاد المسلمين. ويرى أن هناك حقائق ثابتة، وكل مَن تمسك بها في الماضي أو الحاضر أو المستقبل سيتحقق له النجاح، وأن التقليد كسل فكري يؤدي بصاحبه لأن يكون مكفوف البصيرة، وعاجزاً عن النهوض.

ولعل الحوار مع الدكتور **المهدي بن عبود** جميعه يدور في إطار رؤيته الخاصة لأبعاد النهوض في المجتمعات الإسلامية.





المقدّمة

■ المهدي بن عبود أحد الرجال الذين أنجبتهم معركة الصراع الفكري التي دارت رحاها على أرض العالم الإسلامي في مرحلتَي الاستعمار وصناعة الاستقلال. وقد كان لتكوينه العلمي، وتخصصه الطبي، واهتماماته بالدراسات الفلسفية والنفسية لون خاص، وأثر واضح في مقدرته على تشخيص أهم حالات تلك المرحلة. وفي داره بمدينة رباط الفتح - عاصمة المغرب - وفي حوارنا معه يحاول الدكتور المهدي بن عبود اختصاصي الأمراض الجلدية، وأستاذ الفلسفة وعلم النفس بكليات الآداب في الجامعات المغربية، أن يرسم خطوطاً عريضة لأبرز سمات مرحلة ما بعد الاستقلال، وما طرأ عليها من تغييرات، واكتنفها من تحولات سواء في التوجه أو في القيادة.

ولما كانت مشكلات العالم الإسلامي واحدة - ذلك أنها جاءت ثمرةً لمخطط واحد تقريباً - فإن الحديث عن أحد بلدانه يمكن أن يكون نافذة يبصر منها الإنسان الملامح العامة المشتركة لعالم المسلمين اليوم.■



إنسان ما بعد الاستقلال

◎ **بدأ الدكتور «بن عبود» حديثه قائلاً:**

⊙ خرج «إنسان ما بعد الاستقلال» من معركته مع المستعمر منهكاً مصاباً بكثير من الإعياء، حاملاً الكثير من الجراثيم والمرض الاستعماري، ولقد تجلت أبرز مظاهر ذٰلك في تلك الحيرة التي أصابته وهو في غمرة البحث عن أفضل سبيل يصل به إلىٰ النهوض بأمته.

وكان لهٰذه الحيرة أثرها السلبي في تمزق رقعة التفكير في كثير من البلاد الإسلامية، فانقسم الناس إلىٰ مذاهب ومدارس فكرية؛ لكلٍّ فلسفتها التي ترىٰ من خلالها سبيل النهوض. وكانت هناك فئة من الأوفياء، توقن بأن النهوض يجب أن يكون بالرجوع - نظريًا وعمليًا - إلىٰ الإسلام، إلىٰ المقولات التي ثبتت صلاحيتها تاريخيًّا، وارتضاها عقل الإنسان وقلبه، أي اطمأن إليها فأدخلت عليه نوعاً من السكينة التي ضاعت في هٰذا العصر، قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح] وعلىٰ هٰذا النوع من السكينة تقوىٰ السواعد للنهوض بأمة معينة.

❋ ❋ ❋

علىٰ مشارف النهوض

◎ **ويضيف الدكتور «بن عبود»:**

⊙ إن الرجوع إلىٰ الإسلام، واستلهام مبادئه، يعتبر أول الخطو علىٰ طريق البناء الفكري الذي سينهض عليه البناء الحضاري، فهو بناء دائم خالد، فلا بد أن ينهض علىٰ حق.

ولذٰلك لم يكن انتشار الإسلام في البقاع انتشاراً لسلطة غاشمة لا تريد

نصر حقيقة من وراء أعمالها، وإنما كان حرب دفاع عن حرية الإنسان، ثم تبليغ رسالة الإسلام لأصحابها، وإقامة الدولة التي يسودها العدل والمساواة علىٰ يد أولئك الرجال أصحاب البلاد أنفسهم، فهو لم يكن يريد استعماراً، وإنما تسليم راية الحق لأناس هم أهلها، لقد كان يعمل لبناء حضارة.

ولذٰلك كان من مفاخر الإسلام السياسية والفكرية أن برز غير العرب، ففي المجال السياسي كان هناك مجاهدون مثل: **يوسف بن تاشفين** من المغرب، و**صلاح الدين الأيوبي** و**الظاهر بيبرس** من الأكراد، وفي مجال الإنتاج الفكري يكفي ما تشهد به بلاد ابن سينا «بخارىٰ» وأفغانستان التي أنجبت أعداداً كبيرة من الأئمة في مختلف مجالات العلم الإسلامي من أمثال: **أبي داود السجستاني، والغزالي، والفارابي، والحاكم النيسابوري** وغيرهم.

❋ ❋ ❋

العطاء الإسلامي

◎ العطاء الإسلامي جاء عطاءً إنسانيًّا، شاركت فيه كل الأمم والشعوب.

⊙ كان عطاءَ حقٍّ، والحق دائماً ينطلق من نقطة ينبغي أن تكون علىٰ صواب، وهي دائماً وأبداً في أي مرحلة من مراحل التفكير البشري تكون علىٰ شكل إيمانٍ يعتبر مضمونه الركيزة التي تستند عليها قوة الفرد والأمة.

◎ وبأسلوب يعكس تأثره بمطالعاته الفلسفية، ينتقل بنا الدكتور «بن عبود» ليتحدث عن أثر دخول الإسلام بلاد المغرب، فيقول:

⊙ كان المغرب قبائل وعصبيّات، تماماً مثلما كان الحال في جزيرة العرب قبل أربعة عشر قرناً من الزمان. وعندما دخله الإسلام كوَّنه ولأول مرة في تاريخه أمةً منظمة. ولمَّا كان العرب هم حملة الرسالة الأوائل، وكانت العربية لغة التنزيل، كان لذٰلك أثره في جعل المغاربة لا يفرقون بين العروبة والإسلام، فالإسلام هو العروبة والعروبة هي الإسلام.

هٰذا في الوقت الذي ترمز فيه العروبة في بلاد المشرق إلىٰ فلسفة خاصة قائمة بذاتها، تمثل شكلاً فلسفياً طرح في مرحلة معينة كبديل عن الإسلام من قبل بعض الناس.

أما في المغرب، فالأمر بخلاف ذٰلك، ولا يمكن أن يخطر علىٰ بال عامة الناس أن مَن يتكلم العربية يمكن أن يكون غير مسلم. وفي هٰذا ما يكفي للإشارة إلىٰ أن الفكرة في المغرب لم تكن مشتتة، ولم يتمزق كرقعة فكرية، كما لم تكن فيه مذاهب سياسية أو دينية متعددة، فهو مسلم قاطبة، ومالكي المذهب قاطبة أيضاً. ولذٰلك عندما تفجرت الثورة ضد المستعمر الفرنسي، تفجرت ـ كما هي من قبل ودائماً ـ علىٰ أساس الإسلام.

❋ ❋ ❋

قضية المصطلحات

◎ ليس في المغرب وحده، وإنما في كل البلاد الإسلامية، كان الإسلام هو المحرك للشعوب ضد المستعمرين، وهو الذي قادها للانتصار عليهم. غير أنّا وبكل أسف ـ ومن خلال قراءاتنا لحركات الجهاد، ومواجهة المستعمرين في معظم بلاد العالم الإسلامي ـ نرىٰ تبايناً بين المقدمات والنهايات.

فعلىٰ الرغم من أن كثيراً من حركات التحرير تبدأ إسلامية، إلّا أن نصيب الإسلام ـ كمعتقد ومرتكز حضاري ـ في مرحلة ما بعد الاستقلال، لا يلبث أن يأخذ في التضاؤل والانحسار.

ما هي أسباب ذٰلك من وجهة نظركم كمفكر وباحث ومتابع للقضية الاجتماعية؟

⊙ قبل الاستقلال، كان المحرك للمقاومة كلمة «جهاد»، ولم تكن كلمة «ثورة»، بينما أصبح في مرحلة ما بعد الاستقلال «ثورة»، كلمة جهاد، تقوم ـ دائماً وأبداً ـ علىٰ يد الذين يَعْلمون، فكانوا كلهم من أمثال الشيخ

عبد القادر الجزائري، من العبَّاد الزاهدين في هٰذه الدنيا، وكانوا يتمتعون بنظرة شمولية للكون وللوجود، نظرة قائمة علىٰ الحق، علىٰ الخضوع للّٰهِ سبحانه وتعالىٰ.

أما المقاومة التي تقوم على كلمة ثورة، وهي ما حدث في مرحلة ما بعد الاستقلال ضد الصور الجديدة للاستعمار، فإنها تقوم ـ في معظمها ـ علىٰ أساس إسناد الأمر إلىٰ غير أهله، إلىٰ الذين لا يعلمون ولا يدرون أنهم لا يعلمون.

وإذا كان المجاهد ينشد إحدىٰ الحسنيين: النصر أو الشهادة، فصاحب «الثورة» غالباً ما ينشد المعالي، ويتشوّق إلىٰ التمتع بغرور السلطة، دون أن يمتلك ـ وقد لا يستطيع أن يمتلك ـ مؤهلاتها، وهٰذا ما نراه عندما نريد التحليل الدقيق للأشياء.

❋ ❋ ❋

المشكلة في الغرور

◎ ولٰكن، ما هو ـ في نظركم ـ السبب الذي حال دون قدرة زعماء حركة الاستقلال علىٰ الاحتفاظ بالصورة الإسلامية بعد الاستقلال؟

⊙ ليست هي وجهة نظري، ولٰكن نرجع إلىٰ ما نؤمن به من قيم لنسقطها علىٰ واقع معين، المشكلة هي الغرور، كان الناس في مرحلة الجهاد من أجل الاستقلال، يعيشون عيشة مَن يريد رضا الله تعالىٰ، عيشة مبنية علىٰ الخوف من الله تعالىٰ وعلىٰ روح الاستشهاد والقرآن، ولذٰلك فقد كانت القرارات والبيانات التي تصدر عن حركة المقاومة في المغرب مثلاً تبدأ بآيات من القرآن الكريم، وكان عامة الناس يتشبثون بالتعاليم القرآنية، ويحرصون علىٰ أداء الشعائر والواجبات، ويخافون الابتعاد عنها. وهٰذه الملاحظة لا تنطبق علىٰ المغرب دون الجزائر مثلاً، وإنما علىٰ سائر بلاد العالم الإسلامي.

فالسر في اعوجاج الخطة في مرحلة ما بعد الاستقلال يكمن في أن الذين كان لديهم التأثير الكبير من بعد، كان أكثرهم من المخلصين، ولكن من الذين لا يعلمون، فتحكم بهم غيرهم، أو قل إنَّ نوايا بعضهم كانت حسنة عندما ظنوا أن لو طبّقوا الاشتراكية أو الشيوعية أو الرأسمالية أو غيرها من المبادئ المستوردة، سيكونون علىٰ الصراط المستقيم.

❋ ❋ ❋

الالتجاء إلىٰ الإسلام

◎ هناك ملاحظة: علىٰ الرغم من أن كثيراً من بلاد العالم الإسلامي ومؤسساته تتخذ بعد الاستقلال مساراً آخر، ليس في إطار التوجه الإسلامي الكامل، إلَّا أن هٰذه المؤسسات عندما تواجه بتحديات تعود لتستنجد بالإسلام من جديد ليتقدم المعركة فيكون درع حمايتها؛ فكيف تفسرون ذٰلك؟

⊙ هٰذا ما ينبغي التلميح إليه دائماً، قال تعالىٰ في كتابه الكريم عن فرعون وجنوده: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس].

ولٰكن **«الصيف ضيَّعت اللبن»** هٰذا باختصار شديد ما يمكن أن يكون تفسيراً لتلك العودة وذٰلك الاستنجاد، وهو أمر في صميم الفطرة، تماماً مثل الإيمان.

والإنسان ـ كما هو معروف ـ عندما يكون في حالة إرهاق نفسي، وشعور بأنَّه أعزل، ولم يتبقَ لديه من سلاح يُواجه به صعوبات الحياة، فإنه يرجع إمَّا إلىٰ الله، وإما إلىٰ الخرافة، أي يرجع إلىٰ ما وراء الطبيعة، فهو مفطور علىٰ الإيمان بعالم الغيب، فإن أصاب فهو التوحيد، وإن أخطأ فهي الخرافة.

◎ ولعل من المفيد أن نشير هنا إلىٰ أن أكبر سوق للتمائم يعرف في هٰذه الأيام موجود في الولايات المتحدة الأمريكية!!

ولٰكن هناك ناحية سلبية محضة، وهي التلاعب، أو ما يسميه الإسلام بـ«النفاق»، فالإنسان لمَّا تبور حيله ويكسد سوقه يرجع إلىٰ السواد الأعظم، إلىٰ عامة الناس، وهم كلهم دائماً علىٰ حالة إيمان.

❋ ❋ ❋

المسلمون لا يحركهم سوىٰ الإسلام

◎ وهٰذا ما أدركته بعض المؤسسات القائمة في العالم الإسلامي، فهي عندما تتعرض لمواجهة أو تحدٍّ لا تستطيع الشعارات التي تملكها أن تحرك الأمة، لأن الأمة غير مؤمنة أصلاً بهٰذه الشعارات، فتتجه إلىٰ مخاطبة الأمة بما تؤمن به؛ ريثما يستتب الأمر للمؤسسة مرة ثانية!! ألا يدفعنا هٰذا إلىٰ القول بأن هٰذه الأمة ـ بسوادها الأعظم ـ تنطوي علىٰ عقيدة الإسلام؟ وأنه ـ بنتيجة التجربة ـ لا يحركها ولا يصنع حضارتها إلا الإسلام؟ وأن الأشكال الأخرىٰ هي أشكال طارئة عليها؟

⊙ لقد أكدت التجارب أنَّ مَن يقوم بتطبيق تعاليم الإسلام، إيماناً واحتساباً، لا بد أن يستخلفه الله في أرضه، صدقاً منه بوعده، أما مَن يقوم بتطبيق بعضها، فقد تقوم له قائمة؛ ولٰكن إلىٰ حين.

إن التطبيق الكامل يقود ـ دائماً ـ إلىٰ الفوز والنجاح، بينما يؤدي الابتعاد إلىٰ الفشل، والأمور بخواتيمها.

❋ ❋ ❋

تحديات في طريق التوجه

◎ يلمح الإنسان اليوم لوناً من التوجه الإسلامي في كل أنحاء العالم

الإسلامي، وعلىٰ كل المستويات، وفي اعتقادنا أن هٰذا التوجه سوف يُواجه بتحديات من داخل المجتمع الإسلامي ومن خارجه، فمن خلال رؤيتكم، ما هي تلك التحديات؟ وكيف يمكن التغلب عليها؟

⊙ قضية التوجه الإسلامي والصحوة الإسلامية التي نلمحها اليوم من الأمور المعقدة، ولٰكن من يرجع إلىٰ الإسلام يجده قائماً علىٰ ناحيتين: نظرية وعملية.

أما النظرية، فهي ـ من حسن حظ الإنسان كإنسان ـ لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وهي القرآن الكريم الذي أوصانا الرسول ﷺ أن نتمسك به حتىٰ لا نضل، وفي ذٰلك ما يشير إلىٰ أنه يتوجب علينا أن نتصدىٰ بكليتنا إلىٰ مَن أراد الهجوم عليه، وذٰلك وفق الطرق والسبل التي رسمها القرآن الكريم نفسه، فبالحكمة أولاً، ثم بالموعظة الحسنة، ثم الجدال بالتي هي أحسن، ثم المرور باللغو، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان]، وذٰلك حتىٰ لا نبقىٰ دائماً علىٰ حال الحكمة والموعظة الحسنة مع من طبع الله علىٰ قلبه.

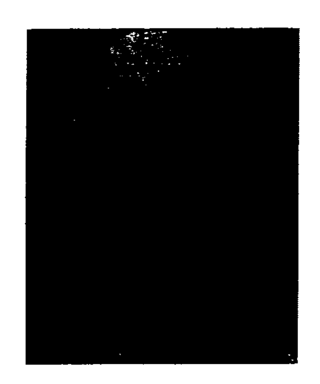
وإذا توجه إلينا غدر الغادر أو سيف الماكر، فلنجاهد، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة].

وأما الناحية العملية التي يقوم عليها الإسلام فهي أن الحلال بيِّن والحرام بيِّن، وينبغي ألّا نتذبذب بينهما، كما أن القرآن واضح بيِّنٌ وكذٰلك السنة، ولٰكن تنقصنا العزيمة، وهي ما أتمناه لنفسي ولإخوتي المسلمين.

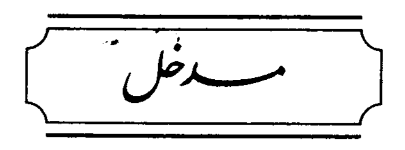
ربيع الآخر ١٤٠٤هـ ــ كانون الثاني (يناير) ١٩٨٤م

❑❑❑❑❑❑



الاجتهاد والتجديد
بين الضوابط الشرعية والحاجات المعاصرة

في حوار مع : الدكتور يوسف القرضاوي



مدخل

■ من مواليد جمهورية مصر العربية عام ١٩٢٦.

■ حفظ القرآن الكريم وهو دون العاشرة من عمره.

■ حصل على العالمية في أصول الدين من جامعة الأزهر عام ١٩٥٣، وعلى دبلوم معهد الدراسات العربية في اللغة والأدب عام ١٩٥٨. وعلى الدكتوراه عام ١٩٧٣ من الكلية نفسها، وكانت رسالته عن الزكاة وأثرها في حل المشكلات الاجتماعية.

■ عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة قطر، والمدير المؤسس لمركز بحوث السنة والسيرة النبوية بجامعة قطر.

■ عضو الهيئة العليا للفتوى والرقابة الشرعية للاتحاد الدولي للبنوك الإسلامية.

■ عضو مجلس أمناء الدعوة الإسلامية في أفريقيا.

■ خبير مجمع الفقه الإسلامي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

■ عضو مؤسس للهيئة الخيرية الإسلامية العالمية.

■ ألّف بضعة وثلاثين كتاباً في مختلف جوانب الدراسات الإسلامية تلقاها أهل العلم بالقبول والثناء، طبع أكثرها عدة طبعات، وترجم بعضها إلى جملة من لغات العالم.

* * *

ـ «فقه الزكاة»، وقد شهد له المختصون بأنه: لم يؤلف مثله في موضوعه، وقال عنه الأستاذ محمد المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: هو عمل تنوء بمثله المجامع الفقهية، ويعتبر حدثاً هامًّا في التأليف الفقهي. وقال عنه الأستاذ أبو الأعلىٰ المودودي رَحِمَهُ اللَّهُ: إنه كتاب هٰذا القرن في الفقه الإسلامي.

ـ «الحلال والحرام»، طبع أكثر من ثلاثين مرة، وهو مترجم إلىٰ العديد من اللغات.

ـ «الإيمان والحياة»، «العبادة في الإسلام»، «فتاوىٰ معاصرة»، «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي»، «ثقافة الداعية»، «درس النكبة الثانية»، «جيل النصر المنشود»، «نفحات ولفحات (ديوان شعر)»، «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف» (الكتاب الثاني في سلسلة كتاب الأمة).

إلىٰ جانب الكثير من المقالات والدراسات والبحوث العلمية، والمشاركة في العديد من المؤتمرات والملتقيات الإسلامية والندوات العلمية. ولعل نظرة سريعة علىٰ عناوين الكتب التي قدّمها للمكتبة الإسلامية تعطي صورة واضحة عن شمولية اهتماماته، والقدر الهام الذي ساهم به في تشكيل العقل الإسلامي المعاصر، وما منحه من الفقه الضروري للتعامل مع الحياة، وتصويب المسار للعمل الإسلامي وترشيد الصحوة لتلتزم المنهج الصحيح وتأمن منزلقات الطريق.

■ **يرىٰ**: أن الحركة الإسلامية تعني مجموع العمل الإسلامي الجماعي الشعبي المحتسب المنبثق من ضمير الأمة، والمعبر بصدق عن شخصيتها وآلامها وآمالها وعقيدتها وأفكارها وقيمها الثابتة وطموحاتها المتجددة وسعيها إلىٰ الوحدة.

■ **كما يرىٰ**: أنه ليس من العدل تحميل الحركة الإسلامية مسؤولية كل ما عليه مسلمو اليوم من ضياع وتمزق وتخلف؛ بل إن ذٰلك هو حصيلة

عصور الجمود وعهود الاستعمار، وإن كان عليها بلا شك قدر من المسؤولية يوازي ما لديها من أسباب وإمكانات مادية ومعنوية هيأها الله لها، استخدمت بعضها، وأهملت بعضاً آخر، وأساءت استعمال بعض ثالث.

■ **ويرىٰ**: ضرورة أن تقف الحركة الإسلامية مع نفسها للتقويم والمراجعة، وأن تشجع أبناءها علىٰ تقديم النصح وإن كان مرًّا، والنقد وإن كان موجعاً، ولا يجوز الخلط بين الحركات الإسلامية والإسلام ذاته، فنقد الحركة لا يعني نقد الإسلام، وإن كان بعض العلمانيين ينقدون الحركة الإسلامية لينفذوا إلىٰ نقض الإسلام وأحكامه وشرائعه. ولقد عصم الله الأمة أن تجتمع علىٰ ضلالة، ولٰكنه لم يعصم أي جماعة منها أن تخطئ أو تضل خصوصاً في القضايا الاجتهادية التي تتعدد فيها وجهات النظر.

■ **ويقول**: إن بعض المخلصين يخافون من فتح باب النقد أن يلجه مَن يحسنه ومَن لا يحسنه، وهٰذا هو العذر نفسه الذي جعل بعض العلماء يتواصون بسد باب الاجتهاد. والواجب أن يُفتح الباب لأهله، ولا يبقىٰ في النهاية إلا النافع ولا يصح إلَّا الصحيح.

■ وهو لا ينكر تعدد الجماعات العاملة للإسلام، ولا يرىٰ مانعاً من التعدد إذا كان تعدد تنوُّع وتخصص: فجماعة تختص بتحرير العقيدة من الخرافة والشرك، وأخرىٰ تختص في تحرير العبادات وتطهيرها من البدع، وثالثة تُعنىٰ بمشكلات الأسرة، ورابعة تُعنىٰ بالعمل السياسي، وخامسة تهتم بالعمل التربوي، ويمكن أن تعمل بعض الجماعات مع الجماهير وبعضها الآخر مع المثقفين، علىٰ شرط أن يُحسن الجميع الظنّ ببعضهم، وأن يتسامحوا في مواطن الخلاف، وأن يقفوا صفًّا واحداً في القضايا الكبرىٰ.

■ **ويرىٰ**: أن علىٰ الحركة الإسلامية أن تنتقل من مرحلة الكلام إلىٰ مرحلة العمل علىٰ مستوىٰ الإسلام ومستوىٰ العصر ـ ولا يعفيها من سؤال التاريخ أن تقول إنها كانت ضحية لمخططات دبرتها قوًى جهنمية معادية للإسلام من الخارج ـ وأن تعمل في إطار النخبة والجماهير معاً. وسوف

تنجح الحركة الإسلامية عندما تصبح حركة كل المسلمين لا حركة فئة من المسلمين.

■ ويأخذ علىٰ بعض العاملين للإسلام حرمان أنفسهم من العمل لخير الناس أو مساعدتهم حتىٰ تقوم الدولة الإسلامية المرجوة، فهو يرىٰ أن كل مهمة هٰؤلاء الانتظار؛ فهم واقفون في طابور الانتظار دون عمل يذكر حتىٰ يتحقق موعودهم.

■ **ويرىٰ**: ضرورة التخطيط القائم علىٰ الإحصاء ودراسة الواقع، وأن من آفات الحركة الإسلامية المعاصرة غلبة الناحية العاطفية علىٰ الاتجاه العقلي والعلمي، كما أن الاستعجال جعل الحركة الإسلامية تخوض معارك قبل أوانها، وأكبر من طاقتها.

ويأخذ علىٰ بعض العاملين للإسلام النفور من الأفكار الحرّة والنزعات التجديدية التي تخالف المألوف والمستقر من الأفكار، وضيقهم بالمفكرين، وربما أصدروا بشأنهم قرارات أشبه بقرارات الحرمان.

ويقول: إن اتباع أهواء العامة أشد خطراً من اتباع هوىٰ السلطان، لأن الذين يتبعون هوىٰ السلطان يُكشفون ويُرفضون.

■ **ويرىٰ**: أن الاستبداد السياسي ليس مفسداً للسياسة فحسب؛ بل هو مفسد للإدارة والاقتصاد والأخلاق والدين.. فهو مفسد للحياة كلها.

■ **ويرىٰ**: أن الصحوة الإسلامية تمثل فصائل وتيارات متعددة كلها تتفق في حبها للإسلام، واعتزازها برسالته، وإيمانها بضرورة الرجعة إليه، والدعوة إلىٰ تحكيم شريعته، وتحرير أوطانه، وتوحيد أمته.

ويعتبر أهم تيارات الصحوة وأعظمها هو التيار الذي أسماه «تيار الوسطية الإسلامية» لأنه التيار الصحيح القادر علىٰ الاستمرار، ذٰلك أن الغلو دائماً قصير العمر وفقاً لسنّة الله.

■ **ويرىٰ**: أن من أهم المحاور التي يقوم عليها هٰذا التيار، والمعالم التي تميزه:

- الجمع بين السلفية والتجديد.

- الموازنة بينَ الثوابت والمتغيرات.

- التحذير من التجميد والتجزئة للإسلام.

- الفهم الشمولي للإسلام.

■ وينصح الحركة الإسلامية أن تعمل علىٰ ترشيد الصحوة، ولا تحاول احتواءها أو السيطرة عليها، فمن الخير أن تبقىٰ الصحوة حرّة غير منسوبة إلىٰ جماعة أو هيئة أو حزب.

■ **يرىٰ**: أنه ليس من العدل ولا من الأمانة أن نحمِّل الشباب وحدهم مسؤولية ما تورطوا فيه، أو تورط فيه بعضهم من غلو في الفكر أو تطرف في السلوك. والعجب أننا ننكر علىٰ الشباب التطرف ولا ننكر علىٰ أنفسنا التسيُّب، ونطالب الشباب بالاعتدال والحكمة ولا نطالب الشيوخ والكبار أن يطهروا أنفسهم من النفاق.

■ **ويرىٰ**: أن الشباب ضاق ذرعاً بنفاقنا وتناقضنا فمضىٰ وحده في الطريق إلىٰ الإسلام دون عون منا.

■ **ويرىٰ**: أن المؤسسات الدينية الرسمية ـ علىٰ أهميتها وعراقتها ـ لم تعد قادرة علىٰ القيام بمهمة ترشيد الصحوة الشبابية وعلاج ظاهرة الغلو ما لم ترفع السلطات السياسية يديها عنها، وأن الذي يعيش مجرد متفرج علىٰ الصحوة الإسلامية أو مجرد ناقد لها وهو بعيد لا يستطيع أن يقوم بدور إيجابي في تسديدها وترشيدها. فلا بد لمَن يتصدىٰ لنصح الشباب من أن يعايشهم ويتعرف علىٰ حقيقة حالهم.

■ **ويرىٰ**: أن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة، وطبيعة التكليف، فمَن أراد أن يزيل الخلاف بالكلية فإنما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها، وأن الخلاف العلمي لا خطر فيه إذا اقترن بالتسامح وسعة الأفق، وتحرر من التعصب وضيق النظر.

■ **ويرىٰ**: أن الأمة المسلمة اليوم ابتدعت في دين الله، والابتداع في

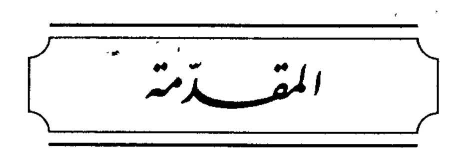
الدين ضلالة، وجمدت في شؤون الدنيا والجمود في الدنيا جهالة، وكان الأجدر بها أن تعكس الوضع فتتبع في أمر الدين وتبتدع في أمر الدنيا.

■ **ويرىٰ**: أن من العلماء مَن قصّر في واجب البلاغ المبين، ومنهم مَن مشىٰ في ركاب السلاطين، ومنهم مَن جعل من نفسه جهازاً لتفريغ الفتاوىٰ حسب الطلب.

والحكام في الغالب أشبه بشعوبهم وهم إفراز مجتمعهم.

■ ولا شك أن الأخ الدكتور يوسف القرضاوي يعتبر من أبرز الفقهاء المعاصرين الذين يتمتعون بقدرة متميزة علىٰ النظر الدقيق من خلال كسبه المتعمق للعلوم الشرعية، وتجربته الميدانية في مجال العمل الإسلامي، كما يعتبر من المفكرين الذين يمتازون بالاعتدال، ويجمعون بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر، تجمع مؤلفاته بين دقة العالم، وإشراقة الأديب، وحرارة الداعية.





المقدّمة

■ في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر اقترح أحد المشاركين تغيير موعد صلاة الجمعة ليكون في يوم العطلة في البلاد غير الإسلامية (يوم الأحد) وكان الاقتراح جديراً بلفت الانتباه إلىٰ قضية الاجتهاد - التي كان الملتقىٰ منعقداً بشأنها أصلاً - فهل يدخل هٰذا الاقتراح في مجال الاجتهاد؟ أم أن الاجتهاد بتعريفه الشرعي، وببدايته منذ عصر الرسول ﷺ وعبر مراحله التاريخية حتىٰ عصرنا الحاضر، له أطر محددة، ومجالات يتاح للعلماء فيها أن يبذلوا الجهد ويجتهدوا، وأخرىٰ لا مجال فيها للاجتهاد؟!

وخلال التطور لحركة الحياة، ينشأ كثير من المشاكل والقضايا، وتظهر أنواع متعددة من المعاملات تجعل الحاجة دائماً ماسّة لوجود المجتهدين الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد، سواء أكان الاجتهاد مطلقاً أم في مسائل جزئية. كما يطرح الأمرُ في الاجتهاد قضيةَ التجديد؛ فللتجديد أيضاً مجالات ومفاهيم، وهل المجدد فرد أو جماعة؟ وفيمَ يجددون؟ لقد حاول بعضهم الدخول إلىٰ الفكر الإسلامي بمطاعن عديدة تحت شعارَي الاجتهاد والتجديد. ■

□ □ □ □ □ □

المراحل التاريخية للاجتهاد

◎ الاجتهاد من الدين، وهو أصل من أصوله التي تُثبت حيوية الإسلام وقدرته على إيجاد الحلول المناسبة لمشكلات الحياة المتجددة، فما هي المراحل التاريخية لحركة الاجتهاد؟ وهل أغلق بابه ـ كما يقول بعضهم ـ في عصور معينة؟ ومَن يتحمل مسؤولية هذا الأمر؟

⊙ بدأ الاجتهاد، منذ عهد النبي ﷺ، كما ظهر ذلك في قصة [صلاة العصر في بني قريظة]، وفي حديث معاذ رضي الله عنه حين أرسله النبي ﷺ إلى اليمن، وسأله: «**بماذا تقضي إن عرض لك قضاء؟**» فقال: بكتاب الله، قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: فبسنّة رسول الله ﷺ، قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: أجتهد برأيي ولا آلو، فأقره وأثنى عليه. وهو حديث مشهور جَوَّد إسناده عدد من الأئمة مثل: ابن تيمية، وابن القيم، والذهبي، وابن كثير وغيرهم. وقد اجتهد عدد من الصحابة في عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي ﷺ، وبلغه ذلك، فمنهم مَن أقره على اجتهاده، ومنهم مَن صحّح خطأه.

بعد عهد النبي ﷺ اجتهد الصحابة رضي الله عنهم، وواجهوا مشكلات الحياة المتجددة في مجتمعات الحضارات العريقة التي ورثوها بحلول إسلامية اقتبسوها من نصوص الإسلام أو من هديه العام، ووجدوا فيه لكل عقدة حلاً، ولكل داء دواء.

واجتهاد الصحابة في وقائع الحياة، وفقههم لدين الله في علاجها، يمثل بحقٍّ الفقه الأصيل للإسلام الذي يتسم بالواقعية، والتيسير، ومراعاة الشريعة ومصالح العباد، دون تجاوز أو افتئات على النصوص.

والناظر في فقه الخلفاء الراشدين أو في فقه ابن مسعود وابن عباس وعائشة وغيرهم رضوان الله عليهم يجد ذلك واضحاً للعيان، **ويوقن أن الصحابة هم أفقه الأجيال لروح الإسلام**.

ومن الأمثلة على ذلك: موقف عمر ومَن معه من فقهاء الصحابة. مثل: علي ومعاذ، حين أبى قسمة أرض العراق على الفاتحين؛ باعتبارها

غنيمة لهم أربعةُ أخماسها، كما هو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ...﴾ [الأنفال:٤١] ورأىٰ أن توقف الأرض لمصلحة الأجيال الإسلامية، وقال لمَن عارضه: أتريدون أن يأتي آخر الناس وليس لهم شيء؟!

وقال له علي ومعاذ: انظر أمراً يسع أول الناس وآخرهم!

وقرر بذٰلك وجوب تكافل الأمة في جميع أجيالها، إلىٰ جوار تكافلها في جميع أقطارها.

ومثل ذٰلك، موقف عثمان ﷺ من ضالّة الإبل، فقد جاء في الحديث الأمر بتركها، وقال لمَن سأله عنها: «ما لك وما لها؟ معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتىٰ يأتي ربّها»، وهٰكذا كانت تترك ضوالّ الإبل في عهد أبي بكر وعمر مرسَلةً تتناتج، لا يمسها أحد، حتىٰ يجدها صاحبها، فلما كان عهد عثمان، وجد الناس قد تغيروا، وامتدت الأيدي إلىٰ ضوالّ الإبل، فلم يعد بعضها يصل إلىٰ أصحابها، فرأىٰ المصلحة تعينت في التقاطها، فعيّن راعياً يجمعها ويعرّفها، فإن لم يجد صاحبها باعها وحفظ الثمن له حتىٰ يجيء.

وفي عهد علي ﷺ رأىٰ تضمين الصنّاع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس، مع أن يدهم في الأصل يد أمانة، ولٰكن عليًا قال: «لا يُصلح الناس إلا ذاك».

وهٰكذا كان فقه الصحابة في سعة أفقه، وواقعيته، وتيسيره، مع التزامه بالأصول ولا ريب.

وقد سار في هٰذا الاتجاه تلاميذ الصحابة من التابعين الذين كوّنوا مدارس فقهية في كل الأمصار تعلّم، وتفتي في النوازل، وتواجه كل حادث بحديث، ومن هٰذه المدارس أو الجامعات التي نشأت تحت سقوف الجوامع، برز مشاهير الأئمة أصحاب المذاهب المتبوعة مثل: الثوري، والأوزاعي، والطبري، وداود الظاهري رحمهم الله.

وقد كان المجتهدون في القرون الأولىٰ أكثر من أن يحصروا، وقد تنوعت مشاربهم ومداركهم في استنباط الأحكام، ولٰكنهم اتفقوا علىٰ أن المصدر الأساسي لأحكام الشريعة هو الكتاب والسنّة؛ فالكتاب هو الأصل، والسنّة هي الشارحة والمبينة، ويأتي بعد ذٰلك الإجماع والقياس عند جمهور الأئمة، وتأتي بعد ذٰلك المصادر التبعية الأخرىٰ، مثل: الاستحسان، والاستصلاح، وسد الذرائع، ورعاية العرف، وشرع من قبلنا، وغيرها مما اختلف فيه الفقهاء، ما بين مثبتٍ ونافٍ، وموسّع ومضيّق.

المهم أن الفقه نما واستبحر، وكثرت مسائله الواقعة، والمتوقعة أو المفترضة، ودوِّنت كتبه، وقُعِّدت قواعده، وضُبِطت طرائق استنباطه **بواسطة علم الأصول الذي ابتكره المسلمون، ولا يوجد عند أمة مثله، ويعد من مفاخر التراث الإسلامي**.

وقد ظلّ الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوىٰ في المجتمعات الإسلامية كلها حتىٰ دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء إلا في دائرة ضيقة هي ما سمُّوه: «الأحوال الشخصية».

وليس صحيحاً ما يقال: إن الإسلام قد عُطِّل بعد عصر الخلفاء الراشدين، فإن الذي لا شك فيه أن المسلمين طوال اثني عشر قرناً، لم يكن لهم دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلامية، برغم ما حدث من سوء الفهم أو سوء التطبيق لأحكامها السمحة.



إغلاق باب الاجتهاد

أما عن إغلاق باب الاجتهاد فنقول:

أصبحت الدولة العثمانية مشجباً يعلق عليه الكثيرون كل الأخطاء والعثرات في شتّىٰ المجالات، فالواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي وذبول شجرة الاجتهاد المطلق أمور سبقت الدولة العثمانية، واستشرت في

أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوتة، وإن لم يخلُ عصر من العصور من مجتهدين ومجددين، حتىٰ وجدنا الإمام السيوطي (المتوفىٰ ٩١١هـ) يعلن أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو لنفسه أنْ يكون مجدد المائة التاسعة كما هو المشهور في فهم الحديث الوارد في التجديد، ويؤلف كتابه «الرد علىٰ مَن أخلد إلىٰ الأرض، وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض».

وفي القرن الثاني عشر نجد المجدد الكبير حكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدهلوي (المتوفىٰ ١١٦٦هـ) صاحب «حجة الله البالغة» وغيره من الكتب الأصيلة، وفي القرن الثالث عشر يظهر في اليمن الإمام المجتهد المطلق محمد بن علي الشوكاني (المتوفىٰ ١٢٥٥هـ) الذي تجلّىٰ اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه: «نيل الأوطار»، و«السيل الجرّار»، و«الدراري المضيئة»، وشرحه «الدرر البهية»، و«إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول».

علىٰ أنه من الإنصاف للواقع وللتاريخ أن نقول:

إن الدولة العثمانية اهتمت بالجهاد أكثر من اهتمامها بالاجتهاد، مع أن القيادة الإسلامية تحتاج إلىٰ كلا الأمرين: الاجتهاد لمعرفة الهدىٰ ودين الحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، والجهاد لحمايته والذود عنه؛ وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لا بد للدين من كتاب هادٍ وحديد ناصر**» مشيراً إلىٰ قوله تعالىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ. . .﴾ [الحديد: ٢٥].

وكان اهتمام الدولة العثمانية بالحديد ـ أي: بالجانب العسكري ـ أكثر من الجانب الفكري، حتىٰ كانت الصدمة المذهلة بمواجهة نهضة الغرب الحديثة.

* * *

الاجتهاد المعاصر

◎ يقول بعضهم: إن حركة الاجتهاد في العصر الحديث قد بدأها جمال الدين الأفغاني، إلا أن تلامذته من بعده عادوا تدريجيًّا إلىٰ الاقتصار علىٰ النص، فأصبحوا أقرب إلىٰ التقليد ـ خاصة محمد رشيد رضا ـ فهل يمكن وضع هٰذه الجهود في إطارها المناسب من حركة الاجتهاد؟

⊙ هٰذه المقولة تدل علىٰ أن قائلها لم يحط علماً بمدلول الاجتهاد ومجالاته وشروطه، ولو أحاط بذٰلك علماً لعرف أن المسيرة كانت تصاعدية، ولم تنتكس كما زعموا، بل بدأت بالعموميات والمجملات ثم أخذت تتخصص، وبدأت رجراجة ثم شرعت تنضبط، **فالشيخ محمد عبده كان أقرب إلىٰ الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأفغاني** بحكم ثقافته الأزهرية المتعمقة، **والسيد محمد رشيد رضا كان أقرب إلىٰ الانضباط بمحكمات الشرع من شيخه الأستاذ الإمام**، بما له من سعة اطلاع علىٰ كتب السنّة والآثار، وإنتاج المدرسة السلفية التي يمثلها الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وهو الذي شنّ حملاته القوية من مجلته العتيدة «المنار» علىٰ الجمود والتقليد، وكتب المقالات الإصلاحية، والفتاوىٰ العلمية التجديدية خلال ثلث قرن من الزمان، وذاعت اجتهادات الشيخ رشيد، وفتاواه التجديدية في العالم الإسلامي كله، ولقيت من القبول أكثر مما لقيته اجتهادات شيخه علىٰ قلّتها، أما **السيد جمال الدين فلا تكاد تعرف له اجتهاداً معيناً، وقد كانت شخصيته شخصية الزعيم «الثائر» الموقظ للعقول**، المحرك للمشاعر، المثير للهمم والعزائم، لا شخصية الفقيه المنضبط بأصول وقواعد، وكلٌّ ميسر لما خُلق له.

وقد أخذ علىٰ الشيخ محمد عبده بعض آرائه في تأويل القرآن، كقوله في قصة آدم، وكلامه عن الطير الأبابيل، ونحو ذٰلك، وعذره أن الحضارة الغربية كانت في أوجها، وكان الانبهار بها علىٰ أشده، لذا غلبت النزعة العقلية، ومحاولة إخضاع النص حتىٰ يوافق المفاهيم الجديدة.

ومن الإنصاف لمَن يريد تقويم شخص ما، وتقدير فكره وعمله، أن يضعه في إطاره التاريخي الخاص، لا يعدو به زمانه ومكانه إلىٰ زماننا نحن ومكاننا، فبغض ما يبدو لنا اليوم واضحاً مسلماً، لم يكن كذٰلك في زمنه، **فرحم الله امرءاً أنصف من نفسه، وأعطىٰ كل عامل ما يستحقه، وأقام الشهادة للّه.**

❊ ❊ ❊

الاجتهاد وآفاقه

◎ الاجتهاد الشرعي فرض كفاية حيناً، وفرض عين حيناً آخر، وله مدلوله ومجاله وشروطه، هل يمكن تحديد هٰذه القضايا حتىٰ لا تختلط الأمور، ويدخل باب الاجتهاد مَن ليس أهلاً له؟

⊙ الاجتهاد هو بذل غاية الجهد، واستفراغ غاية الوسع في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها؛ بطريق النظر وإعمال الفكر، وهو فرض كفاية علىٰ الأمة في مجموعها، تأثم إذا لم يتوافر لها عدد من أبنائها يسد حاجتها فيه، وهو فرض عين علىٰ مَن أنس في نفسه الكفاية له، والقدرة عليه، إذا لم يجد في المسلمين مَن يسد مسدّه.

والاجتهاد يعمل في منطقتين:

○ إحداهما: **منطقة ما لا نص فيه**، مما تركه الشارع لنا قصداً منه، رحمة بنا غير نسيان؛ ليملأ المجتهدون هٰذا الفراغ بما يحقق مقصد الشارع، وفق مسالك الاجتهاد التي يتبعونها، من القياس أو المصلحة المرسلة أو الاستحسان أو استصحاب الحال ـ أو غير ذٰلك ـ ومن الملاحظ أن بعض المجالات كثرت فيه النصوص إلىٰ حد التفصيل أحياناً، مثل: العبادات وشؤون الأسرة، لأنها مما لا يكاد يتغير بتغير الزمان والمكان، والحاجة ماسة إلىٰ نصوص ضابطة لمنع التنازع ما أمكن ذٰلك، وإلىٰ جانب ذٰلك توجد مجالات تقل فيها النصوص إلىٰ حد كبير، أو تأتي عامة مجملة، لتدع

للناس حرية الحركة في الاجتهاد لأنفسهم ـ في ضوء الأصول الكلية ـ وفق مصالح مجتمعهم، وظروف عصرهم، دون أن يجدوا من النصوص المفصلة ما يقيدهم، أو يعوق مسيرتهم، كما في شؤون الشورىٰ، ونظام الحكم، وقوانين الإجراءات والمرافعات وغيرها.

○ وثانيتهما: **منطقة النصوص الظنية**، سواء أكانت ظنية الثبوت ـ ومعظم الأحاديث النبوية كذٰلك ـ أو ظنية الدلالة ـ ومعظم نصوص القرآن كذٰلك ـ **فوجود النص لا يمنع الاجتهاد كما يتوهم واهم**، بل تسعة أعشار النصوص أو أكثر قابلة للاجتهاد وتعدد وجهات النظر، حتىٰ القرآن الكريم ذاته يحتمل تعدد الأفهام في الاستنباط منه، ولو أخذت آية مثل آية الطهارة في سورة المائدة، وقرأت ما نقل من أقوال في استنباط الأحكام منها، لرأيت بوضوح صدق ما أقول.

وبجانب هاتين المنطقتين المفتوحتين للاجتهاد، توجد منطقة في الشريعة مغلقة بإحكام، لا يدخلها الاجتهاد، ولا يجد حاجة لدخولها؛ إنها منطقة القطعيات في الشريعة، مثل **وجوب الفرائض الأصلية** كالصلاة والزكاة والصيام، و**تحريم المحرمات اليقينية**، كالزنا، وشرب الخمر، والربا، **وأمهات الأحكام القطعية**، كأحاديث المواريث المنصوص عليها بصريح القرآن، و**أحكام الحدود والقصاص وعِدَدِ المطلقات والمتوفىٰ عنهن أزواجهن**، ونحو ذٰلك مما جاءت به النصوص القطعية في ثبوتها، القطعية في دلالاتها.

هٰذا النوع من الأحكام ـ التي لا يدخلها الاجتهاد ـ هو الذي يجسد الوحدة الفكرية والسلوكية للأمة، فلا يجوز أن تدخل معترك الاجتهاد، ليبحث باحث: هل يجوز السماح بالخمر من أجل السيّاح؟ أو نعطل الصيام من أجل زيادة الإنتاج؟ أو نجمّد الحج توفيراً للعملة الصعبة؟ أو نعلّق الزكاة اكتفاء بالضرائب الوضعية؟ أو نعطل الحدود والقصاص إشفاقاً علىٰ المجرمين ـ كأننا أرحم من الله بعباده ـ ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ...﴾ [البقرة: ١٤٠]. وهٰذا هو الذي يجب الاحتراس منه:

أن نجتهد فيما لا يجوز فيه، أو أن يلج باب الاجتهاد مَن ليس أهلاً



له، ولا تتحقق فيه شروطه، وهٰذا هو الذي دعا بعض العلماء قديماً أن ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد، ليسدوا الطريق على الأدعياء والمتطفلين. على أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحاً، ولا يملك أحد إغلاقه بعد أن فتحه رسول الله ﷺ، ولا يسع فرداً أو مجموعة من العلماء أن يقولوا في واقعة تعرض عليهم: ليس لنا حق الاجتهاد فيها، لأن الأقدمين لم يقولوا شيئاً في شأنها، إذ الشريعة لا بد أن تحيط بكل أفعال المكلفين، وأن يكون لهم حكم في كل واقعة، وهٰذا ما لا يختلف فيه اثنان.

❋ ❋ ❋

مَن هو المجتهد

◎ **لا بد من توافر شروط محددة فيمن يتصدّى للاجتهاد الشرعي: فما هي هٰذه الشروط؟ وهل تنسحب على المجتهدين عموماً، أم أن هناك فرقاً بين مَن يتصدّى للاجتهاد المطلق، ومَن يتصدّى للاجتهاد الجزئي؟**

⊙ ليس في الإسلام طبقة خاصة تحتكر الاجتهاد أو تتوارثه، إذ ليس فيه كهنوت ولا (إكليروس)، ولٰكنّ هناك عالماً متخصصاً يملك أدوات الاجتهاد وتتحقق فيه شروطه، فهو الذي يجتهد فيما يعرض عليه من وقائع، ويصدر فيها رأيه بما انتهى إليه اجتهاده، أصاب أو أخطأ.

وشروط المجتهد معروفة ومفصّلة في كتب أصول الفقه، منها: شروط علمية ثقافية، مثل: العلم باللغة العربية، والعلم بالكتاب والسنّة، والعلم بمواضع الإجماع المتيقن، والعلم بأصول الفقه وطرائق القياس والاستنباط، والعلم بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية. وهٰذا الأخير هو الذي ركّز عليه الإمام الشاطبي، وجعله سبب الاجتهاد؛ ولا بد مع هٰذا كله أن يكون لديه ملكة الاستنباط، وهي تنمو بممارسة الفقه ومعرفة اختلاف الفقهاء ومدارسهم، ولهٰذا قالوا: **«مَن لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم رائحة الفقه»**.

وشرط آخر نبَّه عليه الإمام أحمد، وذكره ابن القيم في كتابه «أعلام الموقعين» وهو: معرفة الناس، وهٰذا أمر مهم؛ **ألّا يعيش المجتهد الذي يفتي الناس في برج عاجي أو صومعة منعزلة ويُصدر أحكاماً بعيدة عن الواقع، أو يطبّق أحكام عصر انقضىٰ وأناس مضوا علىٰ عصر آخر وأناس آخرين**، مغفلاً هٰذه القاعدة العظيمة: أن الفتوىٰ تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف، كما ذكر المحققون.

ويستلزم هٰذا اطلاع المجتهد علىٰ أحوال مجتمعه، وإلمامه بالأصول العامة لثقافة عصره بحيث لا يعيش في وادٍ والمجتمع من حوله في وادٍ آخر، فهو يسأل عن أشياء قد لا يدري شيئاً عن خلفيتها وبواعثها وأساسها الفلسفي أو النفسي أو الاجتماعي فيتخبط في تكييفها والحكم عليها، لأن الحكم علىٰ الشيء فرع عن تصوره ـ كما يقول علماء المنطق ـ.

والمجتهد الحق هو الذي ينظر إلىٰ النصوص والأدلة بعين، وينظر إلىٰ الواقع والعصر بعين أخرىٰ حتىٰ يوائم بين الواجب والواقع، ويعطي لكل واقعة حكمها المناسب لمكانها وزمانها وحالها.

وهناك شرط آخر في المجتهد، وهو شرط ديني أخلاقي، **وهو أن يكون عدلاً مرضيّ السيرة، يخشىٰ الله فيما يصدر عنه**، ويعلم أنه في فتواه في مقام رسول الله ﷺ، فلا يتبع هواه، ولا يبيع دينه بدنياه، فما بالك بدنيا غيره؟!

وإذا كان الله تعالىٰ قد اشترط العدالة لقبول الشهادة في معاملات الناس، فكيف بمَن يشهد في دين الله، ويتحدث عن الله تعالىٰ بأنه أحلّ كذا، وحرّم كذا، وأوجب كذا، ورخّص كذا؟!

وهٰذه الشروط العلمية التي ذكرناها إنما يجب توافرها في حق المجتهد المطلق، أي: الذي يجتهد في جميع أبواب الفقه ومسائله، أما المجتهد الجزئي فيكفيه أن يحيط من العلم بما يتعلق بمسألته، بعد أن تكون عنده المؤهلات العلمية العامة، بناء علىٰ أن الاجتهاد يتجزأ، وهو القول الراجح عند الأكثرين.

فيستطيع أستاذ الاقتصاد أن يجتهد في مسألة ما في مجال تخصصه، إذا أحاط بكل ما ورد فيها من نصوص، وما يتعلق بها من اجتهادات، إذا كان لديه المعرفة بأصول الاستدلال، وقواعد التعارض والترجيح، وغير ذلك.

***

ضوابط الاجتهاد المعاصر

◎ ثارت مناقشات كثيرة حول قضية الاجتهاد في السنوات الأخيرة، مما أدىٰ إلىٰ ظهور بعض الاجتهادات المنحرفة في هٰذا السبيل، وما دام الأمر كذٰلك، فلا بد من وضع ضوابط تجب مراعاتها في الاجتهاد الشرعي المعاصر حتىٰ يمكن للمسلمين التعرف علىٰ هٰذه الاتجاهات ونبذها.

⊙ الضوابط التي ينبغي مراعاتها في الاجتهاد المعاصر أستطيع أن أجملها في هٰذه النقاط:

○ البُعد عن منطقة «القطعيات» فمجال الاجتهاد ما كان دليله ظنيًا من الأحكام، ولا يجوز لنا أن ننساق وراء المتلاعبين الذين يريدون أن يحولوا القطعي إلىٰ ظني، والمحكم إلىٰ متشابه، وبذٰلك لا يبقىٰ لنا معوَّل نعتمد عليه، ولا أصل نحتكم إليه.

○ وكما لم نجز تحويل القطعي إلىٰ ظني، يجب ألّا نحول الظني إلىٰ قطعي، ونزعم الإجماع فيما يثبت فيه الخلاف، فلا يصح أن نُشهر سيف الإجماع في وجه كل مجتهد، كما فعل معاصرو ابن تيمية في اختياراته واجتهاداته، مع أن الإمام أحمد قال: «مَن ادّعى الإجماع فقد كذب، ما يدريه؛ لعل الناس اختلفوا وهو لا يدري».

○ أخشىٰ ما أخشاه هو الهزيمة النفسية أمام الحضارة الوافدة، والاستسلام للواقع القائم في مجتمعاتنا المعاصرة، وهو واقع لم يصنعه

الإسلام، ولم يصنعه المسلمون، بل صنعه لهم الاستعمار المتسلط، وفرضه عليهم بالقوة والمكر، وقام هٰذا الباطل الدخيل في غفلة من أهل الحق الأصيل الذي لدىٰ المسلمين.

لهٰذا يجب رفع ذٰلك النوع من الاجتهاد ـ إن صحّ أن يسمّى اجتهاداً ـ وهو اجتهاد (التبرير للواقع) خاصة إذا كان فيه إرضاء للسلطة الحاكمة، واجتهاد (التقليد للآخرين) كاجتهاد الذين يحاولون منع الطلاق، وتعدد الزوجات، ومحاربة الملكية الفردية، وتسويغ الفوائد الربوية، وغيرها.

○ يجب أن يتحرر المجتهد من الخوف بكل ألوانه، الخوف من سلطان المتسلطين من الحكام، الذين يريدون فتاوىٰ جاهزة دائماً تبرر تصرفاتهم، وتضفي الشرعية علىٰ أعمالهم، والخوف من سلطان الجامدين المقلدين من العلماء، الذين يشنون الغارة علىٰ كل اجتهاد جديد، وهم الذين كانوا وراء سجن ابن تيمية ومحنه المتتابعة، فقد كانت محنته رحمه الله منهم لا من السلاطين، وأن يتحرر من الخوف من سلطان الجماهير والعوام الذين يستطيع هٰؤلاء المقلدون أن يثيروهم علىٰ كل رأي مخالف لما ألفوه.

○ يجب أن نفسح صدورنا للاجتهاد وإن خالف ما نشأنا عليه من آراء، وأن نتوقع الخطأ من المجتهد، ولا نضيق به ذرعاً، لأنه بشر غير معصوم، وقد يكون ما حسبناه خطأ هو الصواب بعينه، ورُبّ رأيٍ رفضه جمهور الناس يوماً ثم أصبح بعد ذٰلك هو الرأي المقبول والمرتضىٰ، وليس في الإسلام سلطة (بابوية) تقول: هٰذا الرأي صواب فيغدو صواباً، ويستحق البقاء، وذاك خطأ فيُحذف من الوجود ويُحكم عليه بالإعدام.

❋ ❋ ❋

الاجتهاد الإنشائي والاجتهاد الانتقائي

◎ هناك قضايا معاصرة يحتاج المسلمون فيها إلىٰ فقه متجدد يحل لهم مشكلاتهم، ما هي أهم هٰذه القضايا؟ وكيف ترىٰ هٰذه الأمور داخل إطار العملية الاجتهادية؟

⊙ نظراً لتغير شؤون الحياة عما كانت عليه في الأعصار الماضية، وتطور مجتمعات اليوم تطوراً هائلاً في الأفكار والسلوك والعلاقات، فإن عصرنا الحاضر أحوج ما يكون إلىٰ الاجتهاد، وذٰلك بعد الثورة التكنولوجية التي يشهدها العالم، وكان من جرائها أن طرحت قضايا جديدة كل الجِدّة مثل: أطفال الأنابيب، وشتل الجنين، وزرع الأعضاء، ونقل الدم، وما جدَّ في العلاقات الدولية والأنظمة المالية والاقتصادية من أشياء لم يعرفها السابقون، أو عرفوا بعضها في صورة مصغرة جدًّا.

فهٰذه وما شابهها تقتضي اجتهاداً جديداً، وهو ما نسمّيه **(الاجتهاد الإنشائي) أي: الذي يُصدر فيه المجتهدون حكماً جديداً، وإن لم يتقدم مَن قال به من فقهائنا السابقين، ولم ينص عليه أحد!** مثل زكاة العمارات والمصانع والأسهم والسندات والرواتب، واعتبار الذهب وحده أساس نصاب النقود، وإيجاب زكاة الأرض المستأجرة علىٰ كل من المالك والمستأجر، كلٌّ فيما وصل إليه إذا بلغ نصاباً، فالمالك يزكِّي الأجرة بمقدار زكاة الخارج من الأرض، والمستأجر يزكِّي الخارج من زرع أو ثمر؛ طارحاً منه الأجرة، لأنها دَيْنٌ عليه.

وهناك اجتهاد آخر أسمّيه **«الاجتهاد الانتقائي» وهو اختيار أرجح الأقوال من تراثنا الفقهي العظيم، مما نراه أقرب إلىٰ تحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق، وأليق بظروف العصر**؛ وقد يكون الانتقاء داخل المذاهب الأربعة **مثل ترجيح مذهب أبي حنيفة في إيجاب الزكاة في كل ما أخرجت الأرض، وترجيح مذهب الشافعي في إعطاء الفقير كفاية العمر، وترجيح مذهب مالك في إبقاء سهم المؤلفة قلوبهم.**

وقد يكون الانتقاء من خارج المذاهب الأربعة؛ فالأئمة الأربعة علىٰ جلالتهم وفضلهم ليسوا كل الفقهاء، **فهناك مَن عاصرهم من نظرائهم، ومَن يمكن أن يكون قد تفوق عليهم، وهناك مَن سبقهم من شيوخهم من فقهاء الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ممن هم أفضل منهم بيقين.**

فلا حرج في الأخذ بمذهب أحدهم إذا ترجح لدينا باعتبارات شرعية،

كالأخذ بمذهب عمر ﷺ في التضييق في زواج الكتابيات إذا خيف منهن على نساء المسلمين أو الذرية، أو خيف عدم التدقيق في شرط الإحصان ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾ [المائدة: ٥] أي: العفيفات منهن، أو الأخذ بمذهب عطاء في إيجاب المتعة لكل مطلقة، أو الأخذ بمذهب بعض السلف في عدم وقوع الطلاق في حالة الغضب الشديد، وهو ما فسروا به حديث «**لا طلاق في إغلاق**» أو مذهب بعضهم في إيقاع طلاق الثلاث بلفظة واحدة أو في مجلس واحد، طلقة واحدة رجعية فقط، وهو ما أفتى به ابن تيمية وابن القيم، ومثله: عدم إيقاع الطلاق البدعي؛ أي الطلاق في حالة الحيض، وكذلك الطلاق إذا أريد منه الحمل على شيء أو المنع منه، فيعامل معاملة اليمين، وفيه كفارة يمين.

ونحو ذلك الأخذ بمذهب بعض السلف في وجوب الوصية لمَن لا يرث من الأقربين، وعلى أساسه قام في مصر وغيرها قانون «الوصية الواجبة» للأحفاد إذا مات آباؤهم أو أمهاتهم في حياة والديهم، فلهم نصيب الوالدين بشرط ألّا يزيد على الثلث.

ومن ذلك ما رجحه الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر من الإفتاء بمذهب عطاء وطاووس من التابعين في جواز رمي الجمرات قبل الزوال في الحج، تيسيراً على الناس، ورفعاً للحرج والمشقات الهائلة التي يتعرض لها الناس من الزحام حول المرمى، إلى حد الهلاك تحت الأقدام.

والاجتهاد الذي نحتاج إليه في عصرنا هو «الاجتهاد الجماعي» الذي يقوم في صورة مجمع فقهي عالمي، يضم الكفايات العلمية العالية، ويُصدر أحكامه بعد دراسة وفحص، بشجاعة وحرية، بعيداً عن ضغط الحكومات، وضغط العوام.

ومع هذا أؤكد أنه لا غنى عن الاجتهاد الفردي الذي ينير الطريق أمام الاجتهاد الجماعي بما يقدم من دراسات متأنية مخدومة.

* * *

الدعاة والتجديد

◎ يُتهم بعض الدعاة إلىٰ الإسلام أحياناً بأنهم أنصار للجمود والتشدد، ومعاداة أي تجديد، فهل يرتبط هٰذا بحقيقة واقعة، أم أنه يرتبط برغبة أخرىٰ خفية؟

وهل لنا أن نتعرف علىٰ الموقف الصحيح من قضية التجديد؟

⊙ ينقسم الناس بشأن التجديد إلىٰ أصناف ثلاثة:

١ ـ **أعداء التجديد** الذين يريدون أن يبقىٰ كل قديم علىٰ قِدَمِه، حكمتهم المأثورة: ما ترك الأول للآخر شيئاً، وشعارهم المرفوع: ليس في الإمكان أبدع مما كان!

وهم بجمودهم يقفون في وجه أي تجديد: في العلم، في الفكر، في الأدب، في الحياة، فما بالك بالدين؟! إن مجرد كلمة (التجديد) بالنسبة للدين يعتبرونها هرطقة.

وفي مجال الدين وجدت فئتان ينتهي موقفهما إلىٰ «تجميد الإسلام» وهما: فئة مقلدي المذاهب، المتعصبين لها، الذين يرفضون أي خروج عليها، ولا يعترفون بحق الاجتهاد لفرد ولا لجماعة في هٰذا العصر.

والفئة الأخرىٰ هي التي سميتها «الظاهرية الجدد» وأعني بهم الحرفيين الذين يقفون جامدين عند ظواهر النصوص، ولا يمعنون النظر إلىٰ مقاصدها، ولا يفهمون الجزئيات في ضوء الكليات، ولا غرو أن تراهم يقيمون معارك حامية من أجل أمور هامشية في الدين، وهٰؤلاء وأولٰئك قوم مخلصون للإسلام، ولٰكنهم معه كالأم التي تسببت في موت وليدها، بحبسه والإغلاق عليه خوفاً عليه من الشمس والهواء.

٢ ـ ويقابل هٰؤلاء: **الغلاة في التجديد،** الذين يريدون أن ينسفوا كل قديم، وإن كان هو أساس هوية المجتمع، ومبرر وجوده، وسر بقائه، كأنما يريدون أن يحذفوا «أمس» من اللغة، ويحذفوا «علم التاريخ» من علوم الإنسان!

وتجديد هٰؤلاء هو التغريب بعينه، إن قديم الغرب غدا عندهم جديداً، فهم يدعون إلىٰ اقتباسه بخيره وشره وحلوه ومره، وهٰؤلاء هم الذين سخر منهم **الرافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين دخل معركته معهم **(تحت راية القرآن)** وقال: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر.

وردّ عليهم شاعر الإسلام محمد إقبال بأن «**الكعبة لا تجدَّد بجلب حجارة لها من أوروبا**» وأشار إليهم أحمد شوقي ـ أمير الشعراء ـ في قصيدته عن الأزهر:

ولو استطاعوا في المجامع أنكروا
مَن مات من آبائهم أو عَمّرا!
مَنْ كلِّ ساعٍ في القديم وهدمِهِ
وإذا تقدم للبناية قصّرا!

وهٰذا الصنف والذي قبله هما اللذان شكا منهما الأمير شكيب أرسلان حين قال: **(إنما ضاع الدين بين جامدٍ وجاحد، ذٰلك ينفر الناس منه بجموده، وهٰذا يضلهم عنه بجحوده)**.

٣ ـ وبين هٰذين الصنفين يبرز **صنف وسط**، يرفض جمود الأولين، وجحود الآخرين، يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويقبل التجديد، بل يدعو إليه، وينادي به، علىٰ أن يكون تجديداً في ظل الأصالة الإسلامية، يفرق بين ما يجوز اقتباسه، وما لا يجوز، ويميز بين ما يلائم وما لا يلائم.

إنه يدعو إلىٰ أخذ العلم المادي والتقني بكل ما يستطيعه مما تحتاج الأمة إليه، بشرط أن نهضم التكنولوجيا وننشئها لا أن نشتريها ونظل غرباء عنها.

وهٰذا هو موقف دعاة الإسلام الحقيقيين: إن شعارهم: الجمع بين القديم النافع والجديد الصالح، والانفتاح علىٰ العالم دون الذوبان فيه، والثبات علىٰ الأهداف والمرونة في الوسائل، والتشديد في الأصول والتيسير في الفروع.

◎ بين الاجتهاد والتجديد ـ كمفهوم معاصر ـ صلة، فإذا كان الإسلام يعتبر الاجتهاد أداة لفهم أحكام القرآن والسنّة، فهل يقبل الإسلام التجديد كما يقبل الاجتهاد؟

أم أنه ينافي طبيعة الدين الذي جاء ليضبط الحياة بعقائده وقيمه ومفاهيمه وأحكامه؟ أم أن لكل منهما مجاله الذي يعمل فيه؟

⊙ أدهشني إنكار عالِم فاضل نسبة التجديد إلىٰ الدين ـ في حوار مع أحد الصحفيين ـ باعتبار أن الدين ثابت لا يتجدد ولا يتطور، ودافعه إلىٰ هٰذا ـ فيما أعتقد ـ خشيته أن يفهم الناس من إطلاق كلمة «تجديد الدين» إعمال يد التغيير فيه بالحذف أو الزيادة، فأراد أن يسد الباب كلية بإنكار مطلق التجديد.

والحقيقة أن الحديث الشريف قد فصَّل في هٰذه القضية، وذٰلك فيما رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، بإسناد صحيح **«إن الله يبعث لهٰذه الأمة علىٰ رأس كل مائة سنة مَن يجدد لها أمر دينها»**. وليس بعد قول رسول الله قول، ولا بعد حكمه حكم.

وكثير من العلماء المخلصين ينكرون أشياء ثابتة لسوء استخدام بعض الناس لها، وهم بهٰذا يعالجون الخطأ بخطأ، والمنهج السليم هو إثبات الثابت، وإعطاؤه التفسير الصحيح، وردّ كل فهم أو تفسير خطأ.

فتجديد الدين ثابت بالنص، ولٰكنه ليس هو الاجتهاد بعينه، وإن كان الاجتهاد فرعاً منه، ولوناً من ألوانه، فالاجتهاد تجديد في الجانب الفكري والعلمي، أما التجديد فيشمل الجانب الفكري، والجانب الروحي، والجانب العملي، وهي الجوانب التي يشملها الإسلام، وهي: العلم والإيمان والعمل.

وأمتنا أحوج ما تكون اليوم إلىٰ مَن يجدد إيمانها، ويجدد فضائلها، ويجدد معالم شخصيتها، ويعمل علىٰ إنشاء جيل مسلم يقوم في عالم اليوم بما قام به جيل الصحابة من قبل، وهو الذي سميناه **(جيل النصر المنشود)**.

وقد بدأ هٰذا الاجتهاد رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم مَن قضى نحبه، ومنهم مَن ينتظر، من أمثال: **سعيد النورسي**، **وحسن البنا**، **وأبي الأعلىٰ المودودي** رحمهم الله، وعلىٰ مَن بعدهم أن يكملوا المسيرة ويصححوها حتىٰ يُتِم الله نوره.

❋ ❋ ❋

المجددون

◎ للحديث الشريف «إن الله يبعث علىٰ رأس كل مائة سنة مَن يجدد لهٰذه الأمة أمر دينها» أهمية في القضية، فماذا تعني كلمة (مَنْ) كما وردت في الحديث؟ وهل تظل عملية ترقب المسلمين لفرد مجدد ملازمة لتفكير المسلم في بداية أو نهاية كل قرن هجري؟ في ظل الفهم الإسلامي لدور الجماعة في حياة الفرد يبدو مفهوم الحديث يحمّل المسلم مهمات وتبعات في إطار تجديد أمر الدين.

⊙ هٰذا الحديث الذي رواه أبو داود في «سننه»، والحاكم في «مستدركه»، والبيهقي في «معرفة السنن والآثار»، والطبراني في «الأوسط»، يمد الأمة بشعاع قوي من الأمل، يطرد عنها ظلام اليأس، ويبعث فيها الروح والأمل في أن الله لا يدعها طويلاً لأنياب الضعف حتىٰ تفترسها، ولا لدخان الهمود حتىٰ يخنقها، ولا لمخالب التمزق حتىٰ تقتلها، بل يهيئ لها بين قرن وآخر مَن يجمعها من شتات، ويحييها من موات، ويوقظها من سبات، وهٰذا بعض معاني التجديد، فهو يجددها بالدين، ويجدد بها الدين.

وقد فهم شرّاح الحديث أن المراد بـ(من) يجدد الدين فيه: فرد واحد، يهبه الله من الفضائل العلمية والخلقية والعلمية ما يجدد به شباب الدين، ويعيد إليه الحيوية والقوة عن طريق كلم نافع، أو عمل صالح، أو جهاد كبير، وهٰذا ما جعلهم يحاولون تحديد هٰذا المجدد علىٰ رأس كل قرن،

فاتفقوا حيناً، واختلفوا حيناً آخر؛ فقد اتفقوا علىٰ أن مجدد **المائة الأولىٰ**: خامس الراشدين **عمر بن عبد العزيز**، ومجدد **المائة الثانية**: الإمام **محمد بن إدريس الشافعي**، ومجدد **المائة الخامسة**: **أبو حامد الغزالي**، ومجدد **المائة السادسة**: **ابن دقيق العيد**، واختلفوا فيما عدا ذٰلك اختلافاً شاسعاً.

وأرىٰ أن (مَنْ) في الحديث، وفي لغة العرب عامة تدل علىٰ الجمع، كما تدل علىٰ المفرد، وهي هنا تدل علىٰ الجمع كذٰلك، فمَن يجدد الدين في كل قرن ليس بالضرورة فرداً معيناً، بل جماعة من الناس، قد يكون منهم العلماء، ومنهم الولاة، ومنهم القواد، ومنهم المربُّون. وقد يكونون في بلد واحد، وقد يكونون في عدد من البلاد. وقد يعمل كل منهم وحده في مجاله، وقد يتعاونون فيما بينهم فيما يشبه الرابطة أو الجمعية، وقد يكون تجديد بعضهم في مجال الدعوة والثقافة، وآخر أو آخرين في مجال الفقه، وجماعة في مجال التربية والتكوين، وغيرهم في مجال الإصلاح الاجتماعي، وفئة أخرىٰ في المجال الاقتصادي، وسواها في المجال السياسي. ولا مانع من تعدد هٰذه المجالات واختلاف ألوان العمل والتجديد، علىٰ أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضادّ وتناقض، أعني: أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هٰذه الأنواع المختلفة من العمل، بحيث يكمل بعضها بعضاً، ويشد بعضها أزر بعض، لا أن ينكر بعضها علىٰ الآخر، أو يعوق بعضها بعضاً؛ فيؤدي ذٰلك إلىٰ ضعفها جميعاً وقوة أعدائها.

إن ربط التجديد بفرد واحد فذّ، يجعل الناس يعيشون علىٰ أمل ظهوره، وكل ما عليهم انتظاره حتىٰ تنشق الأرض عنه ليجدد ما عجزوا عنه.

والذي أراه أن يُربط التجديد بجماعة أو مدرسة أو حركة، يقوم كل مسلم غيور فيها بنصيبه في موكب التجديد، ويسهم علىٰ قدر طاقته في مسيرته، ولا يصبح السؤال: متىٰ يظهر المجدد للدين؟ بل يكون: **ماذا أعمل لتجديد الدين؟**

* * *

بين التجديد والتبديد

◎ في عالمنا الإسلامي ارتبط التجديد والمجددون باتجاهات مختلفة، ودعاوىٰ باطلة من علمانية أو إلحاد خفي، لتجريد المسلمين من حقيقة دينهم، فهل هٰذا هو التجديد، وهٰؤلاء هم المجددون؟

⊙ تسمية هٰؤلاء بـ«المجددين» تسمية خطأ، هٰؤلاء مبددون لا مجددون، لأنهم لا يمتون إلىٰ التجديد الحقيقي بصلة، **فتجديد شيء يعني العودة به إلىٰ ما كان عليه عند بدايته وظهوره لأول مرة، وترميم ما أصابه من خلل علىٰ مر العصور، مع الإبقاء علىٰ طابعه الأصيل، وخصائصه المميزة**، هٰذا ما نصنعه في أي قصر أو بناء أثري عريق نريد تجديده، فلا نسمح بتغيير طبيعته، وتبديل جوهره، أو شكله، أو ملامحه، بل نحرص كل الحرص علىٰ الرجوع به إلىٰ عهده الأول، أما إذا هدمناه وأقمنا مكانه بناءً شامخاً علىٰ الطراز الحديث، فهٰذا ليس من التجديد في شيء.

والذين أشرت إليهم في سؤالك هم من هٰذا النوع الذي يريد هدم **(الجامع)** القديم ليقيم علىٰ أنقاضه **(كنيسة)** حديثة، بكل مقوماتها وخصائصها، إلا أنه كتب عليها اسم **(جامع)!**

والذي سمّى هٰؤلاء **«مجددين»** إنما هو الاستعمار وتلاميذه وعملاؤه من المستشرقين والمنصّرين، وتسميتهم الحقيقية **(عبيد الفكر الغربي)، فهم** لا يرقون ليكونوا تلاميذ الفكر الغربي، فإن التلميذ يناقش أستاذه، وقد يخالفه ويرد عليه، ولٰكن موقف هٰؤلاء من الفكر الغربي هو التبعية والعبودية، التي ترىٰ أن كل ما يؤمن به الغرب هو الحق، وكل ما يقوله فهو صدق، وكل ما يفعله فهو جميل! ويستوي في هٰذا عبيد اليمين وعبيد اليسار، فمنبع الجميع واحد، وكلهم فرع من الشجرة الملعونة في القرآن والتوراة والإنجيل: شجرة المادية الخبيثة التي تفرغ الإنسان من الروح، والحياة من الإيمان، والمجتمع من هداية الله. وقد كشف زيف أدعياء التجديد هٰؤلاء أستاذنا **الدكتور محمد البهي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه القيم «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي».

المجدد الحقيقي هو الذي يجدد الدين بالدين وللدين، أما مَن يريد تجديد الدين من خارجه، أي: بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة، ويجدده لمصلحة الغرب أو الشرق فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق[1].

❊ ❊ ❊

مشكلات النظام غير الإسلامي

◎ هناك مجموعة أمور نرىٰ أن لها علاقة وثيقة بقضايا الاجتهاد:

يرىٰ بعض الكتّاب والمفكرين الإسلاميين أن الإسلام كفيل بحل المشكلات الذاتية الناجمة عن تطبيق نظامه بعد أن تجذّرت أسبابها بسبب إبعاد الشريعة عن الساحة، وأن سبب كثير من المشكلات التي نراها هو تطبيق أنظمة غير إسلامية، ولو طُبق النظام الإسلامي لما كان لها وجود، ولما احتاجت إلىٰ اجتهاد وحلول، وأن الاجتهاد لمثل هٰذه المشكلات يمكن أن يُصنَّف في باب إيجاد المبررات أو المسوغات لحركة المجتمعات غير الإسلامية، ويأتي علىٰ حساب العمل لإقامة المجتمع الإسلامي، وإن الإسلام يأبىٰ مثل هٰذا التجزيء والتبعيض، ويجب أن يؤخذ ككل، حتىٰ شاعت الكلمة المشهورة: «خذوا الإسلام جملة أو دعوه».

وقد لا تكون المشكلة ـ كما نتصورها ـ بهٰذه السهولة، خاصة وأن هٰذه المجتمعات هي مجتمعات مسلمين، إن لم نشترط في تسمية المجتمع الإسلامي، أن يكون ملتزماً الإسلام في نظامه.

والمسلمون يُواجَهون بمشكلات كثيرة لا بد لهم من التعامل معها.

فما مدىٰ دقة هٰذا الرأي؟ وهل نترك المسلمين تائهين، أم لا بد لنا من

---

(١) قام أحد الإخوة في «مجلة الأمة» بإجراء هٰذا الجزء من الحوار مع الدكتور القرضاوي في رمضان ١٤٠٤هـ ـ حزيران (يونيو) ١٩٨٤م.

الاجتهاد في بيان حكم الشرع، فيما يقع ضمن مقدورهم؟

⊙ قد ناقشت هٰذا الرأي حول (الاجتهاد المعاصر ومدىٰ جدِّيَّته وجدواه) في الفصل الأخير من كتابي «الاجتهاد في الشريعة الإسلامية» مناقشة تفصيلية، وخلاصة ما أقوله هنا أنني أقدّر وجهة نظر هٰؤلاء الكتّاب والمفكرين الإسلاميين، وأقدّر دوافعهم التي دعتهم إلىٰ هٰذا القول، وهم مأجورون إن شاء الله علىٰ اجتهادهم، أصابوا فيه أم أخطأوا.

ولٰكني أخالفهم في هٰذا الاتجاه، وأرىٰ أن من واجب الفقيه أو المفكر المسلم أن يجيب الناس المسلمين من حوله إذا سألوه: ماذا سيصنعون في شؤونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم القائمة بالفعل؟ وما الحل لما يعانون من مشكلات، وإن كان سببها البُعد عن الإسلام؟

إنك لا تستطيع أن تؤجل الإجابة حتىٰ يقوم المجتمع المسلم الكامل، وتستأنف الحياة الإسلامية المتكاملة. ولا تستطيع أن توقف عجلة الحياة الاجتماعية، فلا تتحرك يمنة ولا يسرة، حتىٰ تعود أحكام الإسلام كلها.

إن الناس ولا بد سيظلون يبيعون ويشترون، وينتجون ويستهلكون، ويتبادلون السلع والخدمات، وينشئون فيما بينهم علاقات متنوعة، متأثرة في هٰذا كله بمؤثراتٍ شتّىٰ، عقائدية وثقافية واجتماعية وسياسية. ومن هٰذه الأشياء ما يوافق الإسلام كل الموافقة، ومنها ما يخالفه كل المخالفة، ومنها ما يوافق في بعضٍ، ويخالف في بعضٍ.

والمسلم الحريص علىٰ دينه لا بد أن يسأل: ما موقفي من هٰذا؟ كيف أتعامل مع البنك، ومع التأمين، ومع الأسهم والسندات، ومع شهادات الاستثمار؟ . . . إلخ.

كما يسأل آخرون عن هٰذه المؤسسات القائمة التي برزت في غيبة الشريعة الإسلامية، والحياة الإسلامية، والتي لا ينكر أن بعضها كان من زرع الاستعمار إبان سطوته ونفوذه؛ هل هٰذه المؤسسات مرفوضة من ألفها

إلىٰ يائها؟ أم منها ما يقبل، ومنها ما يرفض؟ وإذا كانت مرفوضةً فما البديل الإسلامي لها؟ أم لا يوجد بديل لها في الحل الإسلامي؟

إننا نعلم أن الله تعالىٰ لا يحرم علىٰ الناس شيئاً إلا وفي الحلال ما يعوضهم عنه. ولا يمكن أن يسد الشارع علىٰ الناس باباً إلا ويفتح لهم باباً - وربما أبواباً - خيراً منه.

وهٰذا كله يوجب علينا أن نجتهد في ضوء نصوص الشرع وقواعده للبحث عن حلول إسلامية للمشكلات التي يعانيها الناس، ويريدون أن يعرفوا حكم الشرع فيها، وكيف يتعاملون معها.

وأن نجتهد كذٰلك لإيجاد البدائل النظرية الإسلامية للمعاملات والمؤسسات غير الإسلامية، حتىٰ يهيئ الله مَن يحول البدائل النظرية إلىٰ واقع عملي، كما حدث بالنسبة لفكرة البنوك الإسلامية.

كل ما أؤكده هنا أشد التأكيد هو تحذير المجتهد أو المفكر المسلم من الخضوع لضغط الواقع القائم، ومحاولة تبريره والاعتساف في تفسير النصوص، ولَيِّ أعناقها، لإضفاء الشرعية عليه؛ مع أن هٰذا الواقع لم يصنعه الإسلام ولا المسلمون مختارين، بل صنع لهم، وفرض عليهم، وأورثوه بعد ذٰلك فاستسلم له مَن استسلم، من باب الرضا بالأمر الواقع، كما يجب علىٰ المجتهد المسلم ألا ينسىٰ بحالٍ أن الإسلام نسيجُ وحده، وأنّا لسنا عبيداً للحضارة الغربية، وأن لنا ديننا، وللغرب دينه، ولنا تراثنا، وله تراثه. فنحن نأخذ منه وندع وفقاً لمواريثنا وقيمنا الدينية والحضارية، ولا نقبل أن نتبع سننه شبراً بشبر، وذراعاً بذراع.

علىٰ أن كثيراً من المجالات التي تحتاج إلىٰ اجتهاد جديد ليس ناشئاً عن تطبيق أنظمة غير إسلامية، بل هي من ثمار تطور الحياة والمجتمعات في العصور الحديثة، وخصوصاً بعد ثورة التكنولوجيا، وقفزات البيولوجيا، ووثبات علم الطب والجراحة، وثورة الاتصالات والمعلومات، وغزو الفضاء، وصنع (الكومبيوتر).. إلخ، مما أثار مشكلات لا تُعد، تحتاج إلىٰ حلول، وأسئلة لا تُحصىٰ، تحتاج إلىٰ إجابات.

فهل يسعنا أن نصمت ونغلق أفواهنا، حتىٰ يحكم الإسلام مائة في المائة، أم نجتهد لبيان موقف الشرع من هٰذه المستجدات، وأجرنا علىٰ الله؟

أعتقد أن واجباً علينا أن نجتهد في هٰذه المجالات وتلك، محاولين أن نجلي موقف الإسلام في غير غلو ولا تفريط، ولا حرج علينا إن أخطأنا في محاولاتنا، فسيوجد مَن يهديه الله للصواب، ولن تجتمع هٰذه الأمة علىٰ الضلالة. والاجتهاد من أهله ولو أخطأ خير من الجمود، وإبقاء كل شيء علىٰ ما هو عليه، فالجمود موت والاجتهاد حياة. والمجتهد مأجور، والجامد غير معذور.

أما عبارة (خذوا الإسلام جملة أو دعوه) فهي صحيحة إذا رفعت شعاراً في وجه مَن يقول: نأخذ بعض الإسلام ونرفض بعضه الآخر، مثل: نأخذ بالصلاة، ولا نأخذ بالزكاة، نأخذ بتحريم الميتة والدم، ولا نأخذ بتحريم الخمر والميسر، نأخذ أحكام الأسرة، ولا نأخذ أحكام الحدود، هٰكذا، فمثل هٰؤلاء نقول لهم ما قاله الله تعالىٰ لبني إسرائيل: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥].

بيد أننا ننبه علىٰ أن الاجتهاد في عصرنا له مزالق كثيرة، انزلق إليها كثيرون، ولم ينجُ منها إلا الراسخون في العلم، الذين يجمعون بين الثقة والورع والاعتدال.

كما أن الاجتهاد الصحيح المنشود له معالم وضوابط يجب أن يحرص عليها مَن وضعته الأقدار في موضع مَن يجتهد أو يفكر للمسلمين.

وقد تحدثت عن هٰذه الضوابط، وتلك المزالق، بالتفصيل اللازم، في مقام آخر.

أما إذا وجد إنسان مسلم غريق في المحرمات، ويريد أن يتوب من بعضها، وإن بقي مصرًا علىٰ بعضها الآخر، فتوبته مقبولة كما قرر ذٰلك أئمة الإسلام، مثل: الغزالي، وابن القيم وغيرهما. ولا يشترط في التوبة أن تكون من جميع الذنوب، وإلا لحجّرنا ما وسع الله تعالىٰ.

ومثل هٰذا يقال في المجتمع المسلم، الذي يريد أن يتطهر من بعض الموبقات، التي ورثها من عهود سابقة، ويريد أن يتقدم خطوة نحو التطبيق الكامل للإسلام، فنحن نرحب بهٰذه الخطوة، ونطالب بالمزيد.

ومثل ذٰلك لو حدث عدوان علىٰ البقية الباقية من تشريع الإسلام في مجتمعنا، مثل قوانين الأسرة والميراث والوصية والوقف وغيرها. فإذا حاول الحكام تقليصها أو الاعتداء علىٰ شيء منها، فلا يمكن أن نقابل ذٰلك بالصمت والاستسلام، مبررين ذٰلك بهٰذه الدعوىٰ الغريبة: إما الإسلام كله، وإما لا شيء!!

ولا أنسىٰ أن أقرر هنا أن الاتجاه إلىٰ رفض الاجتهاد في قضايا المجتمع، واتهام الذين يفتون الناس في هٰذه الأمور بالهزيمة النفسية إنما هو فرع عن أصل كبير، هو القول بجاهلية المجتمع الحالي، فليس هو بالمجتمع الإسلامي الذي نبحث له عن حلول لمشكلاته، بل يجب أن ينصب بحثنا وعملنا علىٰ دعوته إلىٰ عقيدة الإسلام قبل كل شيء، حتىٰ يفهم معنىٰ (لا إلٰه إلا الله) ويصح إسلامه.

ومن أجل هٰذا أنكر هٰذا الاتجاه الدعوة إلىٰ محاسن النظام الإسلامي، وبيان مزاياه وفضائله في مقابلة الأنظمة المستوردة من الشرق أو الغرب؛ إذ لا معنىٰ لبيان النظام والعقيدة مفقودة.

◎ ويمكن أن يتفرع عن القضية السابقة قضية أخرىٰ هي: أن بعض المسلمين اليوم يرىٰ ضرورة إرجاء الاجتهاد في الفرعيات، والمشكلات التي تعترض المسلمين حتىٰ تقوم الدولة الإسلامية التي تلتزم الإسلام عقيدةً وشريعة في شؤونها كلها، إلىٰ درجة يخشىٰ معها التنازل عن بعض الأحكام الشرعية الواقعة ضمن تكليف الأفراد.

⊙ طالما سمعت مثل هٰذه الأفكار، وعجبت منها! فالفقيه المسلم لا يسعه أن يسأل عن شيء يقع لمسلم، وعنده علم يستطيع أن يجيب به، ثم يصمت ويدعه في حيرته، ويكتم عنه علمه. والحديث يتوعد مَن فعل ذٰلك بعذاب الله تعالىٰ **«مَن سُئل عن علمٍ فكتمه، أُلجم يوم القيامة بلجامٍ من نار»**

والشريعة لا تقف عاجزة أمام أي قضية، سواء وجدت دولة الإسلام الكاملة أم لم توجد، فلا بد لها من حكم علىٰ أي فعل لكل مكلف، في أي حال كان. ولا يخلو عمل لمسلم مكلف من حكم شرعي من الأحكام الخمسة.

ولو أن مسلماً يعيش في غير دار الإسلام، فإن أحكام الشريعة لا تدعه، لا بد أن تبين له الحلال والحرام والواجب والمستحب والمكروه من تصرفاته حيث كان.

ولا يمكن أن نمنع الفلك من الدوران حتىٰ تقوم الدولة الإسلامية ولا أن نُسقط عن الناس فرائض الإسلام وواجباته حتىٰ تقوم تلك الدولة. بل علىٰ المسلم أن يؤدي منها كل ما قدر عليه في نفسه وأسرته ومَن حوله ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] فهو يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج البيت، ويدعو إلىٰ الخير، ويأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، ويدافع عن حرمات الإسلام، ويقاوم المبطلين، وكلها يحتاج إلىٰ جهاد واجتهاد.

وأعتقد أن الدولة الإسلامية لن تقوم إذا ظلّ كل همنا هو انتظارها، وإرجاء كل اجتهاد أو جهاد حتىٰ تقوم، فهي (مهديُّنا) الغائب المنتظر، الذي لا حيلة لنا في ظهوره.

إن الواجب في رأيي هو العمل المستمر، والاجتهاد، والإعداد حتىٰ تقوم الحياة الإسلامية المتكاملة المنشودة، ولو اجتهدنا وأخطأنا فلا ضير علينا؛ فلكل مجتهد نصيب.

* * *

خطاب التكليف ونصيب الفرد

◎ لا شك أن الكثير من الأحكام الشرعية منوط بوجود السلطة الإسلامية، كقضايا الحرب والسلم، وإيقاع العقوبات من حدود وتعزيرات وما إلىٰ ذٰلك ممّا لا يخفىٰ.

والسؤال المطروح هنا:

هل يجوز للأفراد - حال غياب السلطة الإسلامية - ممارسة ذٰلك بأنفسهم، من جلد ورجم وقطع؟

وما مدىٰ ما يمكن أن يترتب علىٰ ذٰلك من مفاسد؟

وإذا كان ذٰلك مما لا يجوز، فما نصيب الفرد من خطاب التكليف، مثلاً قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا...﴾ [المائدة: ٣٨] وقوله: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا...﴾ [النور: ٢] ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ...﴾ الآيات [المائدة: ٣٣].

هل يمكن أن نقول بأن نصيب الفرد هو العمل علىٰ إقامة السلطة التي تنفذ الأحكام، وليس تنفيذ الأحكام؟

⊙ ليس للأفراد أن يقوموا بأنفسهم بإيقاع العقوبات الشرعية علىٰ مَن اقترف الجرائم الموجبة لها، فليس لهم أن يقطعوا يد السارق، أو يجلدوا الزاني أو يرجموه، أو يجلدوا شارب الخمر، ويقتصوا من القاتل، وغير ذٰلك.

فقد جعل الشرع هٰذه الأشياء للأئمة، أي لأولي الأمر، أو للدولة. ولو ترك ذٰلك للأفراد لأصبح الأمر فوضىٰ، وساد الاضطراب، ونصب بعض الناس من نفسه شرطيًا وقاضياً ومنفذاً.

صحيح أن المسلمين جميعاً مسؤولون مسؤولية تضامنية عن تنفيذ أحكام الله تعالىٰ بمقتضىٰ خطاب التكليف العام لهم جميعاً في مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ﴿فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]، ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] إلخ... فهٰذه الأوامر الإلٰهية ليست للحكام والمنفذين وحدهم، بل للأمة كلها.

فإذا قصّر أولو الأمر في تنفيذ الأحكام الشرعية، أو خانوا الأمانة التي ائتمنوا عليها، فعلىٰ الأمة أن تنصح لهم، وتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن

المنكر، لعلهم يستجيبون، وإلا لزم سلوك كل طريق مشروعة حتىٰ يقوم أمر الله، وتعلو كلمته. علىٰ ألّا ننسىٰ هنا القاعدة التي تقول: لا يجوز أن يزال المنكر إذا خيف منكر أكبر منه. والواجب هنا: ارتكاب أخف الضررين، وأهون الشرّين.

ولهٰذا كان صحيحاً ما قيل: إن نصيب الفرد في هٰذه الحالة هو العمل مع العاملين الصادقين لإقامة السلطة التي تنفذ الأحكام، وليس هو تنفيذ الأحكام.

❋ ❋ ❋

تقنين الفقه

◎ **من المفروض أن هناك فرقاً بين الفقه كأحكام اجتهادية متفرقة، وبين التقنين والقانون كضوابط ومقاييس تمكّن القاضي من العدالة أكثر، وتضبط الأقضية، وتحقق الانسجام، خاصة إذا كان القاضي بعيداً عن القدرة علىٰ الاجتهاد ومعرفة المصادر والمراجع كلها، أو غير قادر علىٰ الإحاطة بالآراء الفقهية، ولا يمتلك القدرة علىٰ الترجيح والانتقاء بما يناسب الواقع. فهل ترون ضرورة تقنين الفقه لضبط القضاء؟**

وما موقع ذٰلك من الاجتهاد؟

⊙ عرضت لهٰذا الموضوع في بحثي «الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد» وبيّنت أهمية التقنين لعالمنا اليوم، وأشرت إلىٰ مخاوف بعض العلماء من التقنين، وكيف يمكن أن نتفاداها، إذا أحسنّا وضع الأسس والضوابط التي يقوم عليها التقنين المعاصر.

ولٰكني قرأت في هٰذه القضية من قريب كلمات مضيئة لعالِم كبير، ومحدّث جليل، **هو العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ في محاضرة له بعنوان «الكتاب والسنّة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر»** ألقاها منذ نحو نصف قرن من الزمان.

ويسرُّني أن أسجل هنا ما ذكر في هٰذا الصدد لقوة حجته، وفصاحة عبارته. قال رحمه الله في بيان الخطة العملية لاقتباس القوانين من الشريعة:

(لا تظنوا أنّي حين أدعوكم إلىٰ التشريع الإسلامي أدعوكم إلىٰ التقيُّد بما نصَّ عليه ابنُ عابدين أو ابنُ نُجيم مثلاً، ولا إلىٰ تقليد الفقهاء في فروعهم التي استنبطوها غيرَ منصوصةٍ في الكتاب والسنّة، وكثيرٌ منها فيه حرجٌ شديد. كلّا؛ فأنا أرفض التقليدَ كلَّه ولا أدعو إليه، سواءٌ أكان تقليداً للمتقدمين أم للمتأخرين. ثم الاجتهادُ الفرديّ غيرُ مُنْتج في وضع القوانين. بل يكاد يكونُ محالاً أن يقومَ به فردٌ أو أفراد. **والعَملُ الصحيحُ المنتج هو الاجتهادُ الاجتماعيُّ، فإذا تُبُودلت الأفكار، وتَدَاوَلَتِ الآراءُ، ظَهر وجهُ الصواب، إن شاء الله.**

فالخطةُ العمليةُ، فيما أرىٰ: **أن تُختارَ لجنةٌ قوية من أساطين رجال القانون وعلماء الشريعة، لتضع قواعدَ التشريع الجديد، غيرَ مقيدةٍ برأيٍ، أو مقلدةٍ لمذهبٍ، إلّا نصوصَ الكتاب والسنّة.** وأمامَها أقوالُ الأئمة وقواعدُ الأصول وآراءُ الفقهاء، وتحت أنظارها آراءُ رجال القانون كلِّهم. ثم تستنبطُ من الفروع ما تراه صواباً، مناسباً لحال الناس وظروفهم، مما يدخلُ تحت قواعدِ الكتاب والسنّة، ولا يُصادمُ نَصًّا، ولا يخالفُ شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة.

فهٰذه اللجنة يجبُ أن تكون موفورةَ العدد، يكونُ منها لجنة عليا، تضعُ الأُسُسَ وترسم المناهج، وتقسم العملَ بين لجانٍ فرعية، ثم تعيدُ النظر فيما صنعوا ووضعوا، لتنسيقه وتهذيبه، ثم صوغه في الصيغة القانونية الدقيقة. فيعرضُ كاملاً علىٰ الأمة، ليكون موضع البحث والنقد العلميّ، حتىٰ إذا ما استقرّ الرأيُ عليه، عُرض علىٰ السلطات التشريعية، لإقراره واستصدار القانون للعمل به.

وأول ما يجب علىٰ اللجنة العليا عمله، أن تدرس ـ بنفسها أو باللجان الفرعية ـ مسائلَ علم أصول الفقه، ومسائلَ علم أصول الحديث (مصطلح الحديث) لتحقيق كل مسألة منها، وتوحيد منهج الاستنباط من الأدلة.

فتحقق المسائلَ التي يُرجع فيها لدلالة الألفاظ علىٰ المعاني في لغة العرب، من نحو الحقيقة والمجاز، والعامّ والخاصّ، والصريح والمؤوّل، والمفسَّر والمجمل، وسائر قواعد الأصول، كأبواب القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وما إلىٰ ذٰلك.

وتحقِّق القواعد في نقد رواية الحديث ورواتِه، من ناحية المتن وناحية الإسناد، وما يكون به الحديث صحيحاً يصلح للاحتجاج ويجب الأخذ به، وما يكون به ضعيفاً لا يصلح للاحتجاج.

وتحقق القاعدة الجليلة الدقيقة، التي لم يحققها أحدٌ من العلماء المتقدمين، فيما نعلم، إلّا أن القرافيَّ أشار إليها إشارةً موجزةً في الفرق السادس والثلاثين من «كتاب الفروق»[1] وهي الفرق بين تصرف رسول الله ﷺ بالفتوىٰ والتبليغ، وبين تصرفه بالإمامة، وبين تصرفه بالقضاء. وهو بحث إساسيّ لدرس الأحاديث والاستدلال بها درساً صحيحاً، **فيفرقُ به بين الأحاديث التي لها صفة العموم والتشريع، وبين الأحاديث التي جاءت عن رسول الله ﷺ تصرفاً منه بالإمامة**، فليست لها صفة العموم والتشريع، بل المرجع في أمثالها إلىٰ **ما يأمر به الإمام من المصالح العامة، وبين الأحاديث في أقضيةٍ جزئية، تصرفاً منه ﷺ بالقضاء**، فيكون الحديثُ عن قضيةٍ بعينها، يُستنبطُ منه ما يُسمَّىٰ في عصرنا (المبدأ القضائي).

وقد حققت مثالاً من مُثُل هٰذه القاعدة العظيمة في شرحي علىٰ «كتاب الرسالة» للإمام الشافعي (ص: ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

وأجلُّ عملٍ وأعظمهُ أثراً أن تحققَ اللجنة باب **(تعارض الأدلة والترجيح بينها)** فذٰلك هو علم الأصول علىٰ الحقيقة، وذٰلك هو ميدان الاجتهاد، وذٰلك هو أساس الفقه والاستنباط.

فإذا تمّ هٰذا، ووُحِّدت القاعدة التي يُبنىٰ عليها الاستدلال والاستنباط، **نُظر في القواعد العامة التي يرجع إليها الفقهاء في فقههم**، علىٰ اختلاف

---

(١) ج: ١ ـ ص: ٢٤٩ ـ ٢٥٢ طبعة تونس.

مذاهبهم، وطبِّقت عليها قواعدُ الأصول التي أقرتها اللجنة العليا أو اللجنة العامة، «أصول الفقه وأصول الحديث» ثم وُزنت بميزان الكتاب والسنّة الصحيحة، **وأُخذ منها ما قام الدليل علىٰ صحته وموافقته للتشريع الصحيح**.

ثم تدرس اللجنة القواعدَ العامة للقوانين الوضعية، علىٰ اختلاف مبادئها وأنواعها، وتزنها بميزان القواعد التشريعية الإسلامية، **فتختار منها ما تقضي المصلحة العامة باختياره، مما لا يعارض نصًّا** من نصوص الكتاب والسنّة، ولا يُناقض شيئاً معلوماً من الدين بالضرورة، ولا قاعدة أساسية من قواعد التشريع الإسلامي.

وبعدَ هٰذا كله، بعدَ أن تستقرَّ القواعدُ التي تُستنبط الفروعُ والمسائل علىٰ أساسها، وتوضعَ الموازينُ الصحيحة البينة، حتىٰ لا تتشعبَ الطرقُ بالمجتهد، تُقسَّمُ أبوابُ الفقه بين اللجان الفرعية، لتطبق فروع المسائل وجزئياتها علىٰ القواعد التي أُقِرَّتْ، وتضعَ لها الأحكام الصحيحة التي تقتضيها الأدلة الصحيحة نصًّا أو استنباطاً.

وهٰذا عمل كبير ضخم، لا يضطلع به إلّا العلماء الأفذاذ المخلصون، من علماء الشرع وعلماء القانون، فيجب أن يسموَ اختيارهم علىٰ الرغبات الشخصية والأهواء الحزبية، وما إلىٰ ذٰلك مما قد يُفسد الاختيارَ أو يُضعفه.

وسَيَدْعُوهم هٰذا العمل إلىٰ أن يفرغوا له وحده، فلا يجوز أن يعهد إلىٰ أيّ واحد منهم بعمل غيره، حتىٰ يكون وقتُهم كلُّه وقفاً عليه، ليسير علىٰ وتيرة واحدة، سيراً حثيثاً موصلاً إلىٰ الغرض المقصود منه في أقرب وقت وأوجزه. وسيدعو إلىٰ اختيار عشراتٍ كثيرة من الأعضاء والمساعدين، ولعله مع كل هٰذا لا يتم في أقلَّ من عشرين سنة).

وقد قامت جهود متعددة في أكثر من بلد إسلامي وعربي لاقتباس القوانين من الشريعة، ووضعت بعض أحكام الفقه في صورة مواد قانونية.

ولٰكن هل روعي فيها ما ذكره الشيخ من أعمال تتعلق بأصول الفقه وأصول الحديث، وتحقيق رواية الحديث، وبيان التشريعي العام من السنة

من غيره، وتمحيص قواعد التعارض والترجيح، إلىٰ آخر ما ذكره الشيخ الجليل، مما قدر له عشرين سنة أو تزيد؟

أعتقد أن قليلاً ممن يعملون في ميدان التقنين هم الذين يلتفتون إلىٰ مثل هٰذه الأمور. ولعل المجامع الفقهية المعاصرة تجمع أمرها علىٰ القيام بهٰذا الواجب، الذي لا يحتمل التأخير.

❊ ❊ ❊

قيادة حركة الشباب

◎ من الاجتهادات الضرورية والمطلوبة اليوم، إيجاد أوعية شرعية لحركة الشباب المسلم.. فهل ترون أن الذين يقودون هٰذا الشباب لا بد لهم من التحقق بالقدرة علىٰ الاجتهاد والترجيح، بمعنىٰ أنه لا بد لهم من مؤهِّلٍ فقهي إلىٰ جانب المؤهِّلات القيادية الأخرىٰ؟

⊙ هٰذا هو الأصل في كل قيادة إسلامية؛ أن يكون لديها قدر كافٍ من الفقه في الدين، والعلم بالشريعة، تعرف به ما يصح وما لا يصح من الأفكار، وما يجوز وما لا يجوز من الأفعال. وبدون هٰذا يمكن أن يقع هٰؤلاء القادة أسارىٰ لمفاهيم دخيلة علىٰ الإسلام، متسللة من الغرب أو الشرق، وهم لا يشعرون. ويمكن أن يورطوا شبابهم في أعمال يظنونها جائزة - وربما واجبة! - وهي مرفوضة بالمعيار الشرعي.

وقد رأينا بعض القيادات لبعض التجمعات الإسلامية تقدم تصورات وأنظمة باسم الإسلام، في مجالات السياسة والاقتصاد والحكم، تحمل روح التزمت والحرفية والجمود علىٰ ما قاله بعض المتأخرين من فقهاء المذاهب مما يلائم زمنهم وبيئتهم وحالهم، ولٰكنه لا يلائمنا بحال. ونسي هٰؤلاء أن الفتوىٰ تتغير بتغير الزمان والمكان والعرف والحال.

وكذٰلك رأينا من هٰؤلاء مَن ينقصه (فقه مراتب الأعمال) ووضع كل عمل في مرتبته الشرعية، بحيث لا يعظِّم الهين، ولا تهون العظائم، ولا

يقدِّم ما حقه التأخير، أو يؤخِّر ما حقه التقديم، ولا يقدِّم الفرع علىٰ الأصل، ولا النافلة علىٰ الفريضة، ولا المختلف فيه علىٰ المتفق عليه.

❋ ❋ ❋

تعديل شرائط الاجتهاد

◎ في عصر تقدمت فيه الطباعة، وأُلغيت فيه المسافات، وشاعت المعرفة، وظهرت الموسوعات في شتىٰ العلوم العامة ـ إلىٰ جانب العلوم الشرعية الأصولية واللغوية ـ وتوفرت هٰذه الأمور جميعها؛

هل ترون شيئاً من التعديل بشرائط المجتهد بعد هٰذه الإضافات التي لم تكن موجودة سابقاً والتي أصبحت تقوم في كثير من الأحيان مقام الذاكرة في الحفظ؟

وهل بإمكاننا القول بأنه يكفي تحقق الملكة والقدرة علىٰ النظر، حيث تكفلت المكتبة اليوم بالأمور الأخرىٰ التي كان لا بد من حفظها ومعرفتها؟

⊙ الأصوليون أنفسهم الذين ذكروا الشروط التي يجب توافرها في المجتهد، ذكروا لها أيضاً (**مخففات**) تجعل تحصيلها غير عسير، حتىٰ في الزمن الماضي.

فالإمام الغزالي في كتابه الشهير «المستصفىٰ» بعد أن ذكر شرط المعرفة بكتاب الله، **بيَّن فيه تخفيفين؛ أحدهما: أنه لا يشترط معرفة جميع الكتاب، بل ما يتعلق بالأحكام منه؛ والثاني: أنه لا يشترط حفظها عن ظهر قلب**، بل أن يكون عالماً بمواضعها؛ بحيث يطلب فيها الآية المحتاج إليها في وقت الحاجة.

وكذٰلك في شرط **معرفة السنة** ـ الأصل الثاني للأحكام ـ قال: **وفيها التخفيفان المذكوران**؛ إذ لا يلزم معرفة ما يتعلق من الأحاديث بالمواعظ وأحوال الآخرة ونحوها، والثاني: **لا يلزم حفظها عن ظهر قلب**، ويكفيه أن

يعرف مواقع كل باب فيراجعه وقت الحاجة إلىٰ الفتوىٰ، وإن كان يقدر علىٰ حفظه فهو أحسن وأكمل.

هٰذا ما قاله الغزالي منذ تسعة قرون أو تزيد، ولا شك أن عصرنا يمنحنا قدرات أكبر، وبهٰذا تكون لدينا تخفيفات أكثر.

المهم هو التكوين العلمي الأصيل، الذي يمكن صاحبه من القدرة علىٰ فهم الكتاب والسنّة، وذٰلك بهضم المعارف اللغوية والأصولية اللازمة لحسن الفهم، والإحاطة بمقاصد الشريعة وكلياتها، ووجود الملكة الأصيلة التي يقتدر بها علىٰ استنباط الحكم المناسب للواقعة. وهٰذه الملكة لا تولد من فراغ، بل من قدرة فطرية موهوبة، تمدها معارف مكتسبة، ومعايشة طويلة وعميقة للنصوص الجزئية والمقاصد الكلية معاً.

هٰذا إلىٰ جوار معرفة مستنيرة للعصر والبيئة والحياة، وسنن الله فيها، وما يمور في باطنها من أفكار وتيارات، وما يحدث علىٰ ظاهرها من أعمال وتصرفات.

فالفقيه الذي يعيش بين الكتب وحدها، مترهباً في صومعة القراءة والمطالعة، بعيداً عن دنيا الواقع، ومشكلات الناس، يخشىٰ ألّا يقع اجتهاده في موقعه الصحيح.

***

الاجتهاد الأكثر ضرورة

◎ أعتقد أن الاجتهاد في مجال العبادات قد بلغ مداه وأكثر، ولم تبقَ فيه استزادة لمستزيد، وأن المطلوب اليوم الاجتهاد في مجال المعاملات خاصة المعاملات المستحدثة.

يضاف إلىٰ ذٰلك ضرورة الانتفاع من الإنجازات العصرية في مجال الإدارة ونظام المالية والحكم والتقدم في مؤسسات تحقيق الشورىٰ.

فهل يقع هٰذا ضمن دائرة الاجتهاد المطلوب اليوم والأكثر ضرورة؟

⊙ من المسلم به أن مجال العبادات لا يحتاج إلىٰ كثير من الاجتهاد، ولكن لا نسلم أنها ليست في حاجة قط إلىٰ الاجتهاد.

وقد قسمت **الاجتهاد المطلوب لعصرنا** إلىٰ نوعين: **إبداعي إنشائي، وترجيحي انتقائي**. فالأول مطلوب لبيان الرأي في المسائل الجديدة التي لم يعرفها فقهاؤنا السابقون. والثاني مطلوب لاختيار أرجح الآراء من تراثنا الفقهي العريض، وأليقها بتحقيق مقاصد الشرع ومصالح الخلق.

ولا ينكر أي عالم له بعض الإلمام بالفقه أن الاجتهاد بالمعنىٰ الثاني محتاج إليه في كل مجال ـ حتىٰ مجال العبادات نفسها ـ لكثرة الاختلاف بين الفقهاء والمذاهب فيها.

وما أحوج المثقف العصري إلىٰ شيء يريح ضميره من الخلاف الذي ليس أهلاً لأن يفصل فيه، بل يحتاج إلىٰ مَن يذكر له القول المختار بدليله، ليطمئن قلبه، ويعمل به.

علىٰ أن هناك أشياءَ في مجال العبادات تحتاج إلىٰ نوع من الاجتهاد الإنشائي أيضاً، مثل تحديد وقت صلاة العشاء وصلاة الفجر في بلاد معينة يطول فيها النهار جدًّا ويقصر الليل جدًا، وقد يحدث العكس، وكذٰلك الصوم في رمضان.

ومثل استخدام الحساب الفلكي في إثبات أوائل الشهور العربية، وبخاصة رمضان وشوال وذو الحجة، بناء علىٰ أن الأمة لم تعد (أُمية) كما كانت من قبل، فقد أصبحت تكتب وتحسب.. إلخ. ومثل الإحرام لركاب الطائرات بعد النزول إلىٰ جدة.. إلخ.

فإذا جئنا إلى الزكاة ـ وهي معتبرة في عداد العبادات، بل هي شقيقة الصلاة ـ وجدنا أنها في حاجة إلىٰ الاجتهاد الإنشائي والانتقائي معاً، وهو ما حاولناه في كتابنا «فقه الزكاة».

ولا يزال كثير من موضوعاتها يعرض على المجامع الفقهية، وقد ألفت في الكويت الشقيقة هيئة شرعية عالمية لقضايا الزكاة المعاصرة، شرّفتني أن أكون نائباً لرئيسها.

ومع هٰذا يبقىٰ المجال الأكبر والأوسع للاجتهاد هو مجال المعاملات وشؤون الحياة المتطورة؛ اقتصادية وسياسية وإدارية. ولا مانع من الاستفادة مما عند غيرنا مما يتفق مع قيمنا وعقيدتنا وشريعتنا وتقاليدنا المحمودة، فالحكمة ضالّة المؤمن أنّىٰ وجدها فهو أحق بها. المهم ألّا نفقد هويتنا، ولا نحاكي محاكاة الببغاء، أو نقلد تقليد القردة.

❋ ❋ ❋

التخلص من الازدواجية

◎ يلحظ الإنسان لوناً من الازدواجية ـ دون التعرض لأسبابها الكثيرة ـ التي قد يكون في مقدمتها: نظام التعليم.

فنرىٰ أن هناك علماء متخصصين في المصارف والمالية والإدارة مثلاً، يفتقدون الرؤية الإسلامية الشمولية، ونرىٰ بعض المشتغلين بقضايا الفقه والشريعة لا يمتلكون القدر الكافي من العلوم الأخرىٰ، الذي يمكّنهم من الحكم علىٰ الأشياء؛ بل قد يتجاوز الأمر ذٰلك، فيفتي في الدين مَن لا علم له بالشريعة، ويقول في العلوم مَن لا اختصاص له، كالكلام في علوم الأحياء والأجنّة، والفلك وما يتفرع عن ذٰلك:

كيف يمكن أن ننظر إلىٰ هٰذه الأمور؟ وما هو السبيل للتخلص من هٰذه الازدواجية التي نلمحها اليوم في أكثر من مجال؟

⊙ سيظل الناس مختلفين باختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم، وخصوصاً في عصرنا الذي عرف بأنه عصر التخصص الدقيق جدًّا.

ولا ريب أن الانحصار في التخصص كثيراً ما يؤدي إلىٰ التقوقع،

وإغلاق الأبواب على النفس، وجهل ما عند الآخرين جهلاً كليًا. وهذا ما تحاول بعض الجامعات الحديثة تفاديه؛ بطرح بعض المقررات المشتركة لجميع طلابها من كل التخصصات نظرية وعملية، حتى توجد بينهم قاسماً مشتركاً من الثقافة والنظرة الموحدة للقضايا الكبرى.

والخطر على كل حال ليس في التخصص، إنما في الازدواج الذي يفرز أناساً لا يعرفون من الدين شيئاً، وآخرين لا يعرفون عن ثقافة العصر شيئاً.

وأعتقد أن هذا اللون من الازدواج الصارخ قد بدأ يختفي إلى حد كبير.

والذي يهمنا تأكيده هنا هو وقوف كل فرد أو فريق عند حدود علمه، ولا يخوض فيما لا يحسنه، ويرجع في كل علم إلى أهله وخبرائه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

كما يجب أن يتعاون أهل العلم ـ على اختلاف تخصصاتهم ـ فيما يخدم دينهم، ويصلح دنياهم.

وقد شاركت في تجربة رائدة نافعة تقوم بها المنظمة الإسلامية العالمية للعلوم الطبية في الكويت برئاسة الأخ الفاضل الدكتور عبد الرحمن العوضي، وهي تجمع عدداً من الفقهاء المعتبرين، مع عدد من الأطباء المرموقين، للبحث في بعض القضايا المهمة، مثل الإجهاض، وبنوك الحليب، وبداية الحياة ونهايتها.. إلخ. ويتولى الأطباء شرح هذه الموضوعات بكل ما يحيط بها من ظروف، ويبدأ الفقهاء في محاولة استنباط الحكم بعد المناقشة المستفيضة التي تنتهي بقرار مجمع عليه أو مختلف فيه، أو يؤجل البت إلى دورة أخرى.

وقريب من هذا ما يحدث في المصارف الإسلامية، فنحن في هيئة الرقابة الشرعية، لا نفتي في المعاملات التي تعرض علينا؛ إلا بعد شرح وتوضيح وتفصيل من إدارة المصرف والمسؤولين فيه، وبعد أخذٍ وردٍّ،

وبحث قد يطول، ننتهي إلىٰ الرأي الذي نراه أرجح وأقرب إلىٰ الصواب.

❊ ❊ ❊

منجزات الأمم الأخرىٰ

◎ نتكلم كثيراً عن ضرورة الانتفاع بمنجزات الأمم الأخرىٰ ـ شرط أن يخضع ذٰلك لمقياس سليم في الأخذ والرد ـ وكيف أن سلفنا استطاعوا في عصر تألقهم من الانتفاع بعطاء الأمم الأخرىٰ..

هل تعتقدون أن الأمم المتخلفة قادرة علىٰ استخدام هٰذا المقياس؛ الذي هو في الحقيقة، ثمرة لتقدم علمي وحضاري، هٰذا إلىٰ جانب أنه لو كنا نمتلك هٰذا المقياس لما كنا فيما نحن فيه من السقوط الحضاري؟

كيف ترون حلّ هٰذه القضية؟

⊙ لقد استفادت أمم دوننا في الحضارة بمنجزات الأمم الأخرىٰ، كما في بلاد الشرق الأقصىٰ، ولم تفقد خصائصها الذاتية. وحسبنا (كورية) التي بدأت نهضتها بعد الحرب العالمية الثانية، وهي اليوم تغزو بمنتجاتها أسواق العالم، وتراها اليابان اليوم أخطر منافس لها.

إننا لسنا دون هٰؤلاء، وعندنا من رصيدنا الثقافي والحضاري ما يجعلنا أهلاً لأن ننتفع بما عند الآخرين دون أن نذوب فيهم.

الشيء المهم هنا أن نصل إلىٰ درجة كافية من وضوح الرؤية لما نأخذ وما ندع، ومن صدق العزم علىٰ تغيير الواقع.

ولا يعين علىٰ ذٰلك إلا إيمان صادق يحرك كوامن الأمة، ويفجر طاقاتها المذخورة، ويدفعها إلىٰ الأمام بقدرات لم يحسب لها أحد حساباً.

وأي تجاهل لهٰذا الإيمان المستكن في ضمير الأمة، أو إهدار له، أو افتئات عليه، إنما هو خيانة لهٰذه الأمة، وتضليل لها عن أهدافها، وسير بها في متاهات لا تنتهي بها إلىٰ مستقر، ولا تهتدي معها إلىٰ طريق.

إن الأمة في حاجة إلىٰ قيادة مبصرة، تدرك أن قضايا التقدم والتنمية والعلم والتكنولوجيا، لا تنفصل عن قضايا الإيمان والأخلاق. وإن الأمة التي لا رسالة لها، لا تستطيع أن تنافس الأمم الأخرىٰ، التي تشعر أن لها رسالة حضارية، وخصوصاً إذا كانت متفوقة عليها.

إن المفتاح في أيدينا، ولكنا لا نستعمله، أعني مفتاح الإيمان، إيمان الإسلام الحق، الذي لا تتغير الأمة بغيره، فهو وحده الذي يغيرها من داخلها، ومن أعماقها.

❋ ❋ ❋

العين السحرية

◎ يرىٰ بعضهم أن الفقهاء والمجتهدين في الدين يجب أن يكونوا أشبه بالعين السحرية التي تراقب عملية الإنتاج، وتحكم علىٰ جودته أو رداءته، وليس بإمكانهم الإنتاج نفسه لعدم تخصصهم في العلوم الأخرىٰ، والعصر اليوم عصر تخصص. فما رأيكم بهٰذا الأمر؟

⊙ هٰذا قاله المفكر الجزائري المرحوم مالك بن نبي فيما أذكر، وهو صحيح في بعض المقامات التي يحتاج فيها الفقيه إلىٰ خبرة المتخصص الآخر، كما ذكرت في مجال المستجدات في الطب والمستجدات في الاقتصاد.

ولٰكن في بعض المقامات قد يحدث العكس، ونجد الفقيه البصير يقترح علىٰ الآخرين ما قد يحل بعض المشكلات، أو يطب لبعض الأدواء من صيدلية الشريعة.

وأذكر أن الفقهاء هم الذين اقترحوا علىٰ الاقتصاديين والماليين البدائل الشرعية للمعاملات الربوية المحرمة، من مثل المضاربة والمشاركة والمرابحة وغيرها.

كما أن بعضها كان من مقترحات الإداريين والماليين.

وأيّا كان المبادر من الفريقين، فالذي يحتاج إليه الجميع هو التفاهم والتعاون بالرأي والجهد، على ما فيه خير الإسلام والمسلمين.

❊ ❊ ❊

فقه المعركة.. وفقه الأوراق

◎ طرح بعض الكتّاب والعاملين في إطار الحركة الإسلامية، قضية هامة - في نظرنا على الأقل - وهي أن هناك فقهاً يُسمى فقه المعركة، أو فقه الحركة، ويقصد به الفقه الميداني الذي تكسبه التجارب والمعاناة، مستهدياً بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ...﴾ [التوبة: ١٢٢].

وأن هناك فقهاً نظريًّا بعيداً عن المعاناة، لا يخرج عن كونه تصورات مجردة لا قيمة عملية لها، أسماه فقه الأوراق. ما رأيكم بهذه القضية؟ وما الحدود الفاصلة بين فقه المعركة وفقه الأوراق؟ وهل هذه التفرقة دقيقة؟

⊙ (فقه الأوراق) هذا - إن صحّت التسمية - ليس فقهاً، وليس اجتهاداً حقيقيًّا، الفقه الحق، والاجتهاد الحق هو الذي ينطلق من معايشة الناس، ومعرفة ما هم فيه، والفقيه الحق هو الذي (يزاوج بين الواجب والواقع) كما يقول الإمام ابن القيم. فلا يعيش في دائرة ما ينبغي أن يكون غافلاً عما هو كائن وواقع بالفعل. إن (فقه الدين) لا يمكن أن ينفصل عن (فقه الحياة)، وهو هو (الفقه القرآني).

فالفقه في نظر القرآن يشمل الفقه في أمر الله وشرعه، كما يشمل الفقه في سننه في خلقه. ولهذا وصف القرآن المشركين والمنافقين بأنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال بعد أن ذكر بعض آيات الله في الكون: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨].

فالفقه هنا أعمق وأوسع من مجرد معرفة الأحكام الشرعية الجزئية من أدلتها التفصيلية؛ إنما هو إدراك بصير يربط أحكام الله في شرعه بعضها ببعض، ويربط قوانين الله في أرضه بعضها ببعض. ولا يكتفي بالنظر إلىٰ السطوح دون الأعماق.

ويزداد هٰذا الإدراك عمقاً بالخوض في معترك الحياة، والصراع مع الفراعنة والطغاة، والدخول في أتون الابتلاء والمحن، الذي ينفي الخبث، ويصقل المعادن، ويميز الخبيث من الطيب.

لقد مرّ شيخ الإسلام ابن تيمية مع بعض أصحابه علىٰ قوم من جنود التتار يشربون الخمر ويلهون بأقداحها سكارىٰ مخمورين، فأنكر عليهم بعض مَن معه، فقال له الشيخ: دعهم في سكرهم، فإنما حرّم الله الخمر، لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهٰؤلاء تصدهم الخمر عن قتل الأنفس، ونهب الأموال!

وهٰذا هو الفرق بين (الفقيه الحرفي) أو ما سميته (فقيه الأوراق) وبين فقيه الحياة أو فقيه الميدان والمعركة. الأول: أنكر المنكر الذي رآه دون اعتبار للمقصد والدافع، والثاني: نظر إلىٰ الواقع في ضوء المقاصد، فقال ما قال.

لقد رأينا فقهاء الأوراق، يقاتلون علىٰ أشياء يمكن التسامح فيها، أو الاختلاف عليها، أو تأجيلها إلىٰ حين، ويغفلون قضايا حيوية مصيرية، تتعلق بالوجود الإسلامي كله. وهٰؤلاء قوم قد لا ينقصهم الإخلاص، ولٰكن ينقصهم الفقه، ولئن جاز تسميتهم (علماء) فلا يجوز تسميتهم (فقهاء) لو كانوا يعلمون.

رمضان ١٤٠٨هـ ــ نيسان (ابريل) ١٩٨٨

□ □ □ □ □ □

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

□ □ □ □ □ □

يقول تعالى:
﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (يوسف: ١٠١)



الأعمال الفكرية الكاملة

تتمحور حول:

-التأكيد أن عقيدة التوحيد هي ميثاق التحرير والخلاص؛ وأن الغاية الأساس للنبوة الخاتمة إلحاق الرحمة بالعالمين: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ وتبيين الآثار المدمرة لتحالف الاستبداد السياسي والكهانة الدينية (الجبت والطاغوت).

- التأسيس لمنهج التقويم والمراجعة وبناء العقل الناقد؛ وتحديد مواطن الخلل، وكشف أسبابه، واقتراح سبل علاجه.

-التدريب على التفكير الاستراتيجي وبناء الرؤية المستقبلية، والإفادة من التراث لبناء الحاضر ورؤية المستقبل؛ والتشجيع على الاجتهاد وإعمال العقل، في ضوء هدايات الوحي وضوابط الشرع.

-إحياء المنهج السنني، وبيان أهمية السير في الأرض، والتوغل في تاريخ الأمم، والتبصر في العواقب والمآلات لتحقيق العبرة.

-المساهمة في بناء «الطائفة القائمة على الحق»، الأنموذج التطبيقي لقيم الدين في واقع الناس، ودليل خلود الإسلام.

- المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، ومعالجة أسباب الغلو والتشدد، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية، والتمييز بين قيم الدين المعصومة وصور التدين.

-اعتبار التشكيل الثقافي ومعاودة النظر في مواصفات الخطاب الإسلامي السبيل الأجدى للتغيير.

-التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، ووسائل تفعيلها.

-إحياء فكرة الفروض الكفائية، واستكمال الاختصاصات الغائبة، وإعادة بناء مفهوم «أهل الحل والعقد».

-بيان الدور الحضاري للأمة، ورسم معالم رسالة المسلم في حقبة العولمة، وتوسيع دائرة التفاهم، وتحويل الاختلاف إلى تنوع وتكامل.

-تحرير القول في إشكالية «الحاكمية»، وبيان أبعاد تطبيق الشريعة، وبيان أن التكليف منوط بالاستطاعة.

- التصويب لمنهجية الاقتداء، ووضع المشكلات المعاصرة في موقعها المناسب من مرحلة السيرة وفترة القدوة وجيل خير القرون.

-بيان أن عملية النهوض تتطلب فقه النص وفهم الواقع، والتعامل مع المشكلات من خلال الإمكانات المتوفرة والظروف المحيطة .

-صوابية الحل لمشكلات عصر معين، لا تعني بالضرورة قدرتها على معالجة مستجدات كل عصر.